اضطراب الرؤية النقدية في مقدمة ابن قتيبة

الدكتور
جليل رشيد فالح
كلية الآداب — جامعة الموصل

توطئة

ترك لنا ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦هـ) مجموعة من المباحث والكتب تدل «على تعدد مناحي اهتمامه ، فبعضها يمثل العناية بغريب اللغة وبعضها يتناول النحو ، كما ان صنفاً ثالثاً منها مستلهم من عصبية لأصحاب الحديث ومن عدائه للمعتزلة ، ويمثل الشعر اتجاهاً رابعاً من تلك الميادين» (١) وكان (الشعر والشعراء) واحداً من ابرز كتبه التي وصلت الينا .

يقع الكتاب في قسمين : الاول منهما جاء على صورة (مقدمة) جعل موضوعها الأساس هو الشعر ، وقد عرف عند الباحثين بمقدمة ابن قتيبة ، اذ لخص فيه آراءه ونظراته النقدية في الشعر والشعراء . فكان بذلك تمهيداً للجزء الثاني وموضوعه الشعراء .

قال ابن قتيبة : «هذا كتاب ألفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وازمانهم وأقدارهم واحوالهم في اشعارهم وقبائلهم واسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب او الكنية منهم ، وعما يستحسن من اخبار الرجل ويستجاد في شعره ، وما اخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في الفاظهم او معانيهم ، وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، واخبرت فيه عن اقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الاول» (٢) .

وقد حمل الجزء الأول بآراء نقدية ترجحت بين الدقة والبراعة والاصابة وبين اضطراب او تعارض لا يخطىء قارىء المقدمة في الاحساس به وتلمس مواطنه وتتبع وجوهه .

---

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب . احسان عباس — ١٠٤

(٢) الشعر والشعراء : ٦٥

وهذا البحث اذ ينعقد على تحري هذه الوجوه وتلك المواطن فانما يحاول به الباحث ان يدلي بدلوه مع الباحثين في ما اشاروا من اشارات سريعة إلى بعض وجوه الاضطراب وتصور الرؤية النقدية مع محاولة لالتماس العذر والسعي إلى التوفيق بين تلك الوجوه في عنت ومشقة .

ومن ثمة فإن البحث يأتي — مـــن خلال رؤية اجتهادية تحتمل الخطأ والصواب — لكي يشخص ما بدا للباحث من وجوه القصور او الاضطراب او التناقض .

١ — وجوه الاضطراب والتناقض في موضوع «أقسام الشعر»

حين تدبر ابن قتيبة الشعر محاولاً ان يضع له معالم يهتدى بها في التعرف إلى خصائصه وعناصره لم يضع له تعريفاً محدداً على نحو ما فعل قدامة بن جعفر من بعده، «كان عالماً ولكنه لم يكن العالم الذي يستبد به المنطق ، وكان دارساً للشعر ، عارفاً به ، واقعاً على معانيه وقصائده ونماذجه» (٣) .

فمضى بعد تدبره للشعر إلى تقسيمه إلى اربعة اضرب : اذ «ينطلق في ذلك — بعد ان يتدبر الشعر ، يعني بعد ان ينظر فيه ويطيل النظر — مـــن عنصرين ومن قيمتين : عنصرين بهما يقوم الشعر ، وقيمتين هما اللتان تحكمانه .

العنصران اللذان لا يقوم الشعر الا بهما هما : اللفظ والمعنى .

والقيمتان اللتان تحكمانه هما الجودة والرداءة، ومن ضرب هذه الحدود بعضهما ببعض كانت هذه الأضرب الاربعة..» (٤) .

وينبغي — في اطار هذا التقسيم — الا نغفل من حسابنا خصائص الشخصية العلمية لابن قتيبة وطبيعة تذوقها للشعر ووظيفته ومكوناته ، فذوقه «ذوق

(٣) نظرة مبكرة للشعر في النقد القديم — د. شكري فيصل — مجلة المعرفة السورية . العدد ١٥١ — ايلول — ١٩٧٤ — ص : ١٤

(٤) المقالة نفسها .

العالم الفقيه السني الذي يستمسك بمآثر الاخلاق ويتعلق بالقيم الدينية،والنماذج الفاضلة ، وليست هذه كل مقاييس النقد والأدب» (٥) .

واذ يعمد ابن قتيبة إلى هذا التقسيم الرباعي على هذا النحو (٦) .

١ – ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه .

٢ – وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا أفت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى .

٣ – وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه .

٤ – وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه .

فانما يورد ذلك من غير ان يحدد المعيار النقدي الذي من شأنه ان يوضح ابعاد هذا التقسيم . او ان يحدد به – في الأقل – مدلول مفردتي اللفظ والمعنى فضلاً عن مدلول النعوت التي اوردها لكل من تينك المفردتين .

ولذلك لا مناص لنا من ان نتساءل مع الدكتور شكري فيصل – اذ يقول : «ما الذي يقصده ابن قتيبة من اللفظ ؟ ما الذي يريده من المعنى ؟ كيف نفهم الجودة ، وكيف نفهم الرداءة ؟
ما حدود هذه الحدود ؟

هل اللفظ هو اللفظ المفرد وحده ؟ هل هو مجموعة من الألفاظ ؟ اي التراكيب ؟ هل المعنى هو الفكرة ام هوالفِكرة،متلبسة بها بشكل ما من اشكال الأداء ؟

واين الصورة ؟ اهي حصيلة هذا المزج بين اللفظ والمعنى ؟ وهل هنالك معان بعينها ارادها ابن‌قتيبة ؟ ومتى يكون اللفظ جيداً ، ومتى يكون رديئاً ؟ متى يكون المعنى جيداً ومتى يكون رديئاً .

ذلك كله لا يقف عنده ابن قتيبة ولا يتحدث عنه» (٧) .

---

(٥) من قضايا التراث العربي – الشعر والشاعر –: ص : ١٢
(٦) يرجع الى المقدمة للوقوف على تفاصيل هذه الا ضرب وأمثلتها .
(٧) نظرية مبكرة للشعر في النقد العربي القديم ؛ ص : ١٥

ولا شك ان الدارس لا يسعه ان يقف على الأبعاد الواضحة لرؤية الناقد ما لم يعمد إلى تحديد معالم منهجه النقدي أو توضيح ابعاد رؤيته ولو بتعليل يسير ، اذ يفضي ذلك إلى اعتداد هذا النقد محمولا على التأثرية المحض مما يحمل الدارس على ان يحكم على هذا اللون من النقد بالاضطراب وقصور الأداة والرؤية .

ومما يغري الدارس او القارىء بهذا الحكم ان محور هذا التقسيم نماذج شعرية لا سبيل إلى الاتفاق مع ابن قتيبة على صلاحها نماذج دقيقة دالة على كل ضرب من ضروب الشعر الأربعة ولكل نعت من نعوت اللفظ والمعنى على نحو ما اورد .

وقد نتفق مع ابن قتيبة بوجه من الوجوه ان بيتي الحزين الكناني : (٨)

في كفه خيزران ريحه عبق من كف اروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلم الا حين يبتسم

وقد اوردهما شاهداً لما حسن لفظه وجاد معناه — هما مما يعتد من جيد الشعر من عامة بنائه مفردات وجملاً وصوراً ودلالة، وليس هذا هو موضع المؤاخذة ، بل الذي يمكن ان يؤاخذ عليه ابن قتيبة هو تعليقه الذي لم يراع فيه ما اصطلح عليه من التقسيم الثنائي للفظ والمعنى ، اذ قال :

«لم يقل في الهيبة شيء احسن منه» (٩) .

مشيراً إلى ما ينطوي عليه البيتان من معنى يستعظمه ويجله ، وهو ما عليه الممدوح من الهيبة التي تملأ اقطار النفس بمشاعر الاجلال والاكبار ، ولئن كان هذا مما جاد معناه به ، فبأي شيء جاد لفظ هذين البيتين ؟

وكأن ابن قتيبة يتصور ان يعثر الشاعر على المعنى اولا في ذهنه . ويضع يده عليه لئلا يفلت منه . ثم يفتش بعد ذلك في معاجم اللغة عن لفظ يسروء،

(٨) الشعر والشعراء : ص : ٧١
(٩) الشعر والشعراء : ص : ٧١

لهذا المعنى ، فان وجد اللفظ غير رائق فتش عن بديل رائق ، وهكذا عمل الشعر .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان ماأورد من شواهد على الضرب الاول (حسن اللفظ وجودة المعنى) يتفاوت في مستوياته الفنية . ولعله لايخفي ان بيت ابي ذؤيب(١٠) .

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

ليس من افضل ماقاله ابو ذؤيب في عينيته المشهورة ، فهو ليس اكثر من حكمة لايتوافر لها من عوامل التأثير الفعال وبسطة الدلالة الشيء الكثير ، بل يسوغ لنا القول انه اقرب الى البداهة التي يلم بها كل انسان مهما يكن مستواه الفكري والثقافي ، ولعله لايبعد كثيراً في صياغته ودلالته ومضامينه عن بيت لبيد الذي ساقه شاهداً لما جاد معناه وقصرت الفاظه ، وهو قوله : (١١)

ماعاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ولايغيب عنا ان ابن قتيبة اعتمد على ما حدثه الرياشي عن الاصمعي بقوله : هذا ابدع بيت قاله العرب (١٢) ويعني بيت ابي ذؤيب .

ترى ما معيار الابداع وما مواطنه في هذا البيت ؟ هذا ما سكت عنه الأصمعي كما سكت عنه ابن قتيبة ، والبيت — كما ذكرنا — لا يعدو ان يكون حكمة لا حظ لها من العمق والتجلي ، ان لم تكن اقرب إلى معنى بديهي .

وبيت حميد بن ثور :

ارى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء ان تصح وتسلما

قال فيه ابن قتيبة — معجباً مزهواً : «ولم يقل في الكبر شيء احسن منه» (١٣) ، وهو ليس من خير ما قاله حميد ، فأي صورة فنية احتضنت

---

(١٠) الشعر والشعراء : ص : ٧١
(١١) الشعر والشعراء : ص : ٧٤
(١٢) الشعر والشعراء : ص : ٧١
(١٣) الشعر والشعراء : ص : ٧١

المعنى وجسدت ابعاده ودلالاته ؟ انه لم يزد على ان شكا من ضعف بصره ، وهل يعتد ذلك افضل ما قيل في تصوير الشيخوخة والكبر .

وإذا قدر لنا ان نعجب مع ابن قتيبة بقول النابغة (١٤)

كليني لهم ياأميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب

شاهداً على حسن الابتداء فان المبالغة التي اخذ بها نفسه في نفي ان يكون احد من المتقدمين قد ابتدأ بأحسن منه او اغرب قد اخرجت المعالجة من اطارها النقدي — سواء على صعيد الناقد باعتباره فقيهاً مفكراً ، او على صعيد النقد محتاجا إلى معيار للحكم ، واطلاق القول على هذه الشاكلة لا يتصل بسبب إلى النقد ولا إلى الناقد ، وان كان البيت في اطار الرؤية النقدية التأثرية او المعللة من الابيات التي جاد معناها وحسن لفظها.

وفي نقد ابن قتيبة للأبيات الثلاثة المعروفة (١٥) .

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الاباطح

اظهر شديد اعجابه بالفاظها فهي «أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع» (١٦)

اما المعاني فقد هوّن من شأنها (١٧) .

ويرى ابن قتيبة ان «هذا الصنف في الشعر كثير» (١٨)

ولا يملك الباحث وهو يقف ازاء هذا التعسف البالغ بحق هذه الأبيات التي قدمت لنا صور وجيزة مكثفة لرفقة سفر بين اثنين جمعهما الطريق ، بعد الفراغ من مناسك الحج اذ انقطعت وشائجهما بالعالم الخارجي ، فدخلا في عالم من الوجد الصوفي وخلوة صفاء تذهل عن كل شؤون الحياة العادية.

(١٤) الشعر والشعراء : ص : ٧٢
(١٥) الشعر والشعراء : ص : ٧٢
(١٦) الشعر والشعراء : ص : ٧٢
(١٧) الشعر والشعراء : ص : ٧٣
(١٨) الشعر والشعراء : ص : ٧٣

ترى اي معنى يريد ابن قتيبة ان يجري في تضاعيف هذه الأبيات التي قالت كل شيء في اوجز عبارة ؟

اكان مطلوباً ان يتحدث رفيقا السفر في مشكلات العالم الخارجي ويدخلا في حوار فكري او يستعيدا من لقياه عند اداء المناسك حتى يكون ذلك كله مدعاة لاعجاب ابن قتيبة في معاني الابيات .

ثم ان قوله : إن هذا الصنف من الشعر كثير إقرار منه بأن لغة الشعر تختزل المعاني والأفكار وتوحي بوجد الانسان ومشاعره في خضم الاحداث وهي ليست بها حاجة إلى كثير من البسط والتفصيل . وتجري الابيات التالية للأبيات الثلاثة السابقة في هذا المضمار ، وهي : قول المعلوط (١٩) :

ان الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي : ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وقول جرير (٢٠) :

يا اخت ناجية السلام عليكم ... قبل الرحيل وقبل لوم العذّل
لو كنت اعلم أن آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت ما لم افعل

وقوله ايضاً (٢١) :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا ... وقطعوا من حبال الوصل اقرانا
ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنّ اضعف خلق الله إنسانا

حيث يختزل الشاعران مشاعرهما في عبارات موحية دالة لا تحتمل البوح عن كل ما يمكن ان يقال وما لا يمكن ان يقال ، واجود الشعر ما كان لمحة دالة .

---

(١٩) الشعر والشعراء : ص : ٧٣
(٢٠) الشعر والشعراء : ص : ٧٣
(٢١) الشعر والشعراء : ص : ٧٤

ويعلل احد الباحثين هذا المذهب بأن ابن قتيبة «انحدر اليه من المعتزلة على خلافه المذهبي لهم فهمهم للمعنى في الشعر فصادف قبولاً في نفسه وهو الفقيه المحدث الذي يريد المعنى الواضح الدال على حكمة او قول حسن. اي ان يكون من معاني الفعل .... فلقد كان ابن قتيبة يبحث عن المعنى النثري في الشعر فلم يستطع ان يتذوق المعنى الشعري في الأبيات التي عدّها من الضرب الثاني ..» (٢٢).

واذ يورد لنا من امثلة الضرب الثالث (ما جاد معناه وقصرت الفاظه) قول لبيد (٢٣):

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فانه يحكم عليه بجودة المعنى والسبك وقلة الماء والرونق، وهي ما يتصل بالجانب اللفظي، ولعل اللفظ عنده «يعني الصورة الشعرية او المعنى الشعري المقابل للمعنى العقلي المنطقي» (٢٤)

وهنا لابد من التساؤل: لماذا اعتد البيت مما قصرت الفاظه؟

يقول الاستاذ سعيد عدنان في الاجابة عن هذا التساؤل «ان الناقد يريد ان يؤدي الشاعر معناه الجيد هذا بشيء من التزيين كالاستعارة والمجاز وما اشبه. فالألفاظ عنده لا تعني اصوات الحروف، وانما تعني النسيج والتركيب او ما يمكن أن نسميه معنى شعرياً» (٢٥).

وأقول تعقيباً على هذا التعليل: لو كان لابن قتيبة اعتداد بهذه العناصر الفنية وضرورة توافرها في العمل الابداعي فأي عناصر فنية تلمسها في قول ابي ذؤيب (٢٦).

---

(٢٢) الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي: ص: ٥٠
(٢٣) الشعر والشعراء: ص: ٧٤
(٢٤) الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي: ص: ٥٠
(٢٥) المرجع نفسه: ص: ٥١
(٢٦) الشعر والشعراء: ص: ٧١

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد إلى قليل تقنع

حتى استجاد الفاظه كما استجاد معانيه ؟

وفي هذا يذهب الدكتور محمد زكي العشماوي إلى أن ابن قتيبة قد علق جودة الشعر على مضمونه مستقلاً عن الصياغة والتصوير ، ومن انه جعل للألفاظ دلالات مفردة ومستقلة ، ولم يفطن إلى ان الالفاظ في الشعر ليست انغاماً او مخارج او مقاطع فقط ، وانما هي تتداخل وتتجاوز باشعاعاتها حدودها العادية وتكتسب كل كلمة من التي تليها معاني جديدة» (٢٧).

ثم يبدو لنا الاضطراب واضحاً في معالجته لقول النابغة للنعمان (٢٨).

خطاطيف حجن في حبال متينة   تمد بها أيد اليك نوازع

فقد ساق رأي العلماء في استجادة معناه ، ثم قال :

«ولست ارى الفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه» (٢٩) موحياً الينا بأنه لا يرى بأساً في المعنى بل العيب في الالفاظ ، ولكنه يفجأنا بقوله :

«وعلى اني ايضاً لست ارى المعنى جيداً» ، فمن وجوه الاضطراب انه جاء بهذا البيت شاهداً للضرب الثالث (جودة المعنى وقصور الألفاظ) ومن حقه ان يلتزم بمنهجه في تحديد موقفه من كل من اللفظ والمعنى ،ولكن الرجل استهان بألفاظ البيت غير معتد ابإها من الجياد وقاصرة عن اداء المعنى .

ثم يمضي لينثر البيت نثراً قتل في تضاعيفه كل عناصر الابداع الفني ، ثم صرح بأن المعنى كذلك خلو من الجودة (٣٠) .

ترى ماذا بقي للبيت من وجود شرعي او فني ؟ ولماذا جاء به في سياق الاستشهاد بما جاد معناه وقصرت الفاظه ؟

(٢٧) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث : ص : ٢٨٢ - .
(٢٨) الشعر والشعراء : ص : ٧٤
(٢٩) الشعر والشعراء : ص : ٧٤
(٣٠) الشعر والشعراء : ص : ٧٤

وفي تعليل هذا الاضطراب يذهب الدكتور محمد مندور إلى ان «تفكيره المجرد البعيد عن ادراك حقيقة الشعر وفهم طبيعته هو الذي قاده إلى تلك النظرة التي تبدو عادلة علمية ولكنها لا تستند إلى نظرة متجانسة في طبيعة الشعر»(٣١).

واذ اورد بيت الفرزدق (٣٢) :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

لم يذكر اية علة في الحاقه بما جاد معناه وقصرت الفاظه ، علماً ان نسيج البيت يقوم على ثلاث صور بلاغية زاوج بينها الفرزدق مزاوجة فنية بارعة ، اذ قدم الشيب في صورة استعارة مكنية اظهر خلالها قدرة الشيب على النهوض والعلو والبسط .

ثم كانت الصورة الاستعارية هي الطرف المعادل في عملية تشبيه مركب ذي دلالة حية وتأثير عميق لصورة فنية تتجلى في انبثاق النهار من خلال ظلمة الليل . ثم انه لا يترك صورة (المشبه به) من غير ان يبث الحياة والحيوية والحركة في ارجائها ، اذ جعل الاستعارة المكنية هي عنصر هذه الحياة والحركة والحيوية متمثلة في الفعل (يصيح) وهو لازمة استعارية واضحة الدلالة على الانبثاق والظهور ، وبذلك قدم لنا الصورة المتكافئة العناصر في ادق نسيج واحكم بناء .

ترى ما الذي دعا ابن قتيبة ان لا يحس بكل هذا الماء الذي ينساب في تضاعيف البيت ، وبكل هذا الرونق الذي يسم البيت بميسم الجمال والبراعة .
وفي امثلته للضرب الرابع (ما تأخر معناه وتأخر لفظه) لم يتوخ الدقة في الاختيار ، اذ تفاوتت امثلته بين جيد المعنى وجيد اللفظ كما في النصين اللذين اوردهما للأعشى وهما : (٣٣).

---

(٣١) النقد المنهجي عند العرب : ص : ٢٦
(٣٢) الشعر والشعراء : ص :٧٤
(٣٣) الشعر والشعراء :ص :٧٥

الأول ما قاله في امرأة :

وفوهـــا كأقاحـــي غـــذاه دائـــم الهطـــل
كما شيب بـراح بـارد مـــن عســـل النحـــل

والثاني هو :

إن محـــلا وان مرتحـــلا وان في السفر ما مضـى مهلا
استأثـــر الله بالـــوفاء وبالحمـــد وولى الملامـــة الرجـــلا
والارض حمـــالة لمـــا حمـــل الله ومـــا ان تـــرد ما فعلا
يومـــاً تـــراها كشـــبه اردية العصب ويومـــا اديمـــها نغـــلا

ولو توخى الدقة في تطبيق معاييره من اطار التقسيم الرباعي لأقسام الشعر لكان اولى به ان يورد البيتين الاولين في الضرب الثاني الذي جاء لفظه وقصرت معانيه ، اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان المعنى عنده هو المعنى العقلي او الحكمة و الذي يتحدث عن تجربة او امر واقع في الحياة (٣٤).

فالبيتان بنيا على اساس فني قوامه (التشبيه) . والفاظهما منتقاة بحس فنـي جميل اذ ليس بينها ما هو غريب او ركيك .

اما الانموذج الثاني فكان بوسعه ان يجعله مع الضرب الثالث ، فهي تنطوي على معان وافكار من شأنها ان تستهوي ابن قتيبة في اطار رؤيته الخاصة وفي ضوء ما اورد من نماذج مثيلات يمكن القياس عليها .

قال الدكتور فتحي احمد عامر في تعليقه على ما ذهب اليه ابن قتيبـة مـن رأي في ابيات الاعشى :

«وكيف يحق لابن قتيبة العالم الرشيد ان يحكم على هـذا القـول .... بأنـه تأخر معناه وتأخر لفظه ؟ وهل استئثار الله بالوفاء وبالحمد مضمون لا يروق ولا يسمو ؟ او ليست الارض مستجيبة هاشة باشة بين يدي امر الله عز وجل، فهي لا تعصي له امراً ولا ترد فعلا في حالتيها ، من ظهورها في احسن زينة من الزرع والاعشوشاب او ظهورها جرداء قد اسود اديمها .

(٣٤) تأريخ النقد الادبي عند العرب : طه احمد ابراهيم : ص : ١٣٨

ثم اليست الكلمات مستقرة في سياقها متآخية في جوارها تبرز المضامين التي تشتمل عليها ابرازاً لا تكلف فيه ولا ثمول ولا غضاضة» (٣٥) .

ثم ان ابن قتيبة في تعليله لتأخر المعنى وتأخر اللفظ لم يزد على ان ذكر أن هذا الشعر منحول وان ليس فيه ما يستحسن الا بيتاً واحداً هو (٣٦) .

يا خير من يركب المطـــي ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

ترى لو كان ما اورده منحولاً فما الذي دعاه إلى الاستشهاد به ، وفي الشواهد والأمثلة بين يديه سعة وغناء، الم يكن الأولى ان يعرض عنه ويستبدل به غيره ؟

ثم ما العلاقة بين ان يكون الشعر منحولاً ورديء المعنى واللفظ في الوقــت ذاته ؟ الا يحتمل ان يكون منحولاً وعليه من مياســم الجــودة ما عليــه ؟ اليس هذا ايغالاً في اضطراب الرؤية النقدية في الحكم على النصوص ؟

واذا استحسن البيت الذي اورده – من بعد – فأي شيء فيه استحسن ؟ أكل ما فيه من لطف المعنى ان هذا الممدوح ليس ببخيل لأنه لا يشرب بكف من بخل على نحو ما يرى ابن قتيبة (٣٧) ؟

لقد جنى ابن قتيبة على هذا البيت حين نثره نثراً القى به على الصورة الفنية التي رسمها الشاعر غلالة معتمة .

ان البيت – في حقيقة بنائه الفني – صورة كنائية بارعة عن اباء النفس في التعامل مع البخيل بوصفه شخصاً مسترذلاً لا يقام له وزن .

ونحن وان كنا نتفق مع ابن قتيبة في ايراده ابيات الخليل مثالاً لما تأخر معناه وتأخر لفظه ، لأنه ليس شعراً بل هو صناعة ربما كان صاحبها غير معتد اياها شعراً .

---

(٣٥) من قضايا التراث العربي . الشعر والشاعر : ص : ١٥ – ١٦
(٣٦) الشعر والشعراء : ص : ٧٥
(٣٧) الشعر والشعراء : ص : ٧٥

قال الخليل (٣٨) :

ان الخليط تصدع فطر بدائك أوقع
لولا جوار حسان حور المدامع اربع
ام البنين واسما ء والرباب وبوزع
لقلت للراحل ارحل اذ بدا لك اودع

وابن قتيبة ينسب هذا الشعر إلى التكلف ورداءة الصنعة لانه من شعر العلماء ولا يأتي عن اسماح وسهولة (٣٩) .

الا اننا لانوافقه على ان يجعل هذه الأبيات تجري مع ابيات الاعشى — صناجة العرب — في مجرى واحد من تأخر اللفظ وتأخر المعنى .

ترى هل كان موقفه من الأعشى مبنياً على فكرة رفضه التفاضل الزمني متخذاً من الاعشى — وهو المتقدم زمناً — دليلا على ان الشعر المتأخر او الرديء يقع عند المتقدمين كما يقع عند المتأخرين ... وبما كان هذا هو الدافع وراء صنيعه . وهو ما نظنه ظناً لايبلغ حد الجزم واليقين .

واذا صدق هذا الظن فان معيار اسقاط العامل الزمني لايستقيم له في موقفه من الاعشى . ذلك ان اسقاط هذا العامل يعني — في ما يرى الدكتور شكري فيصل — « تجاوز القيم الزمانية الى التأكيد على القيم الفنية ، من تجاوز العصبية الى الأخذ بعين العدل . من التأبي على مفهوم خاطيء للزمن لاحدود له الى التأكيد على التجويد الفني » (٤٠)

فالناقد لو حقق هذا التجاوز لوجدنا في احكامه دقة واصابة قائمتين على وضوح الرؤية والتوقي من التداخل والاضطراب .

ولكن تجاوزه لم يحقق له العدالة في الحكم ولا الوقوف عند العناصر الفنية التي هي معيار التفاضل ...

---

(٣٨) الشعر والشعراء : ص : ٧٦
(٣٩) الشعر والشعراء : ص : ٧٦
(٤٠) نظرة مبكرة للشعر في النقد العربي القديم : ص : ١٩

ولادري ماالذي دعاه ايضاً الى ان يجعل من ضرب المتأخر لفظاً والمتأخر معنى ابيات ابي الأسد واسمه نباتة بن عبدالله الحماني من شعراء الدولة العباسية في مدح الفيض بن صالح وزير المهدي (٤١) .

ولائمة لامتك يافيض في الندى
فقلت لها : لن يقدح اللوم في البحر

ارادت لتثني الفيض من عادة الندى
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر

مواقع جود الفيض في كل بلدة
مواقع ماء المزن في البلد القفر

كأن وفود الفيض حين تحملوا
الى الفيض وافوا عنده ليلة القدر

وكذلك قول الشاعر نفسه في هجاء احمد بن دؤاد «٤٢» .

ليتك آذنتني بواحدة
تكون لي منك سائر الابد

تخلف الاتبرني أبداً
فأن فيها برداً على كبدي

ان كان رزقي اليك فارم به
في ناظري حية على رصد

فمعاني المدح والهجاء معروفة في تشخيص المحاسن والمعايب في الانسان ترى اليس ابن قتيبة يبحث عن المعنى (الفكرة) كما يبحث عن الرونق والماء فأي شيء لم يستحسن من أفكار هذه النماذج. واي خلل في نسيجها قد رأى؟

ترى هل نقض ابن قتيبة معياره في اسقاط العامل الزمني في التفاضل ؛

(٤١) الشعر والشعراء :ص :٧٧ — ٧٨— ينظر الهامش ايضاً

(٤٢) الشعر والشعراء : ص : ٨٧ — ينظر الهامش ايضاً

فجاء ليقول عن الشاعر ابي الاسد انه من المتأخرين الأخفياء ، ليت الرجل وضع اصابعه على مواطن الخلل في معاني الابيات والفاظها كما فعل مع بيتي المرقش (٤٣) :

هل بالديار ان تجيب صمم

لو أن حيا ناطقا كلم

يأبى الشباب الاقورين ولا

تغبط اخاك ان يقال حكم

اذ حدد فيهما مواطن الخلل فقال :

«وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولاحسن الروي ولامتخير اللفظ ولالطيف المعنى (٤٤)».

اما الشاعر (ابو الاسد) الذي نال من حيف ابي قتيبة فقد قدم لنا لوحة الممدوح حافلة بالمآثر الطيبة .ورسم ملامح الرجل الكريم في صور فنية بارعة تضافرت وشائجها وتلاقت خطوطها في تأليف جميل ووحدة عضوية تأبى على الاضطراب والتخلخل .

وكذلك الأمر في لوحة الهجاء العفيف الذي لم يفحش فيه ، وهذا مما يحقق تصور ابن قتيبة في طلبه للشعر الذي جاد معناه — في اقل تقدير —

واذا كنا نعتقد مع الباحثين ان ابن قتيبة « لم يتناول النصوص ولاالشعر بنقد فني تطبيقي » (٤٥) .

وانه لم يستطع ان يدرك جانباً مهماً من مهمة الأدب من العناصر التي تكون مضمونة ، ذلك الجانب هو الصورة الأدبية او التصور الأدبي (٤٦) .

---

(٤٣) الشعر والشعراء : ص : ٧٨ —
(٤٤) الشعر والشعراء : ص : ٧٩
(٤٥) النقد المنهجي عند العرب : ص :٢٢
(٤٦) مفاهيم في الأدب والنقد — ص : ٨٧

فاننا لانعفيه من مهمة ادراك المعاني والأفكار الواضحة في ابيات ابي الأسده، وهو الحريص على اقتناص أمرين حددهما الدكتور محمد مندور بالفكرة والمعنى الأخلاقي (٤٧) .

كل ذلك يفضي بنا الى القول : ان ابن قتيبة في دراسته للشعر في ضوء الأضرب الاربعة لم يتسم بالدقة والموضوعية في الحكم والاختيار . مماجعل رؤيته غير واضحة الأبعاد .

٢ — متأخر الشعراء ومذهب المتقدمين :

قال ابن قتيبة :« وليس لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر او يبكي عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ، او يرحل على حمار او بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، او يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوافي ، او يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على منابت الشيخ والحنوة والمرارة »(٤٨) .

يضعنا هذا النص أمام مشكلة قراءته قراءة دقيقة جذرية ، تجنباً لما يمكن ان يهتدي اليه المتأمل في اعطافه من نظرات ومفاهيم لم يردها ابن قتيبة ، ولعل ابن قتيبة نفسه ظلم نفسه وظلم الباحثين بهذا الاسلوب الذي يلفه اللبس ويدعو الى تساؤلات تعبر عن حيرة الباحث واضطرابه ازاء النص ، اذ يوحي ظاهر كلامه انه لايرضى لمتأخري الشعراء ان يخرجوا عن مذهب المتقدمين .

وهذا هو مايراه الدكتور محمد مندور حين ذكر أن ابن قتيبة «يحظر على المحدثين الخروج على مذاهب القدماء » (٤٩) .

الاان الدكتورحكمة علي الأوسي يخالف الدكتورمندور ويرى «أن قصد ابن قتيبة كان تضمين الفعل (يخرج) معنى (يصدر) . فيكون الشيء الذي يحظره

---

(٤٧) النقد المنهجي عند العرب — ص : ٣١

(٤٨) الشعر والشعراء : ص : ٨٢ — ٨٣

(٤٩) النقد المنهجي عند العرب : ص : ١٣ — ١٤

ابن قتيبة هو ان يصدر الشعراء في تأليفهم القصيدة عن مذهب المتقدمين مع محاولتهم تجديد الديباجة الشعرية باستخدام عناصر جديدة لمعالجة نفس الموضوع بدلا من عناصره القديمة ، لأن في هذا تقليداً للقوالب القديمة يقيد الشاعر ويقتل الاصالة » (٥٠) .

ويلتقي الدكتور حكمة الأوسي بالدكتور احسان عباس في حسن ظنـه بابن قتيبة في انه لم يدع الى الزام المتأخرين ان ينهجوا نهج القدامى ، فيرى ان النص الذي اوردناه «ليس ثمة اوضح منه في الدلالة على تحريم التقليد الشكلي المضحك واحلال مواد الحضارة محل مواد البداوة في الشعر »(٥١).

صحيح ان ابن قتيبة لايدعو الى وقوف المحدثين عند مظاهر الحياة الجديدة جرياً على منهج القدامى ، وهذا حق لامرية فيه ، إلا انه يكون معيباً مـن جانب آخر ان يظل المحدث واقفاً عند المنزل الداثر والرسم العافي ، وملماً بمنابت الشيح والحنوة والعرارة ، ولعل هذا هو ماثقفه الدكتور الاوسي والدكتور احسان عباس من مداول هذا النص .

ومع كل ذلك فان ثمة اعتراضاً سينهض في وجه ابن قتيبة انه لم يحسن التعبير عن هذا الغرض مما ادى الى ان يحمل كلامه في نظر باحثين آخـرين على التناقض ، ذلك ان وجهاً من وجوه الاضطراب في رؤيته النقدية ان تأتي هذه الدعوة ناقضة لدعوته التي بهرنا بها في مستهل مقدمته من الغائه عنصري الزمان والمكان (القوم) والتعويل على الاجادة في النظم سبيلا الى المفاضلة . اذ قال : « ... ولانظرت الى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، .. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في اوله ...» (٥٢)

(٥٠) مفاهيم في الادب والنقد : ص : ٩٨
(٥١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب (احسان عباس) : ص : ١١٣
(٥٢) الشعر والشعراء : ص : ٦٨ – ٦٩

فاذا كان الأمر على نحو ماذكر ، فما الذي يهدف اليه من الزام المتأخر ان يحذو حذو المتقدم في بناء قصيدته ويرسم له منهجاً يوجب عليه ان يسلك مسلك مقصد القصيد في الابتداء بالديار والدمن والاثار ، فيبكي ويشكو ، حتى يصل الى ممدوحه ؟ أليس في هذا القيد مايفند فكرته الاولى في الغاء الزمان والمكان معياراً للجودة وسبيلا الى الابداع الذاتي بمنأى عن التقليد ؟ يقول الدكتور شكري محمد عياد : « ان الوضع الشعري الذي صوره ابن قتيبة لايمثل نموذجاً واقعياً للقصيدة العربية ، بل هو هيكل نظري يستند جزئياً فحسب الى الواقع الشعري ، كما يستند في الوقت نفسه الى الربط الفعلي ، فمقصد القصيد الذي يتحدث عنه لايوجد الا في خياله » (٥٣) . ومن الملاحظ ان مقصد القصيد الذي يحدد هذه المنهجية المتسلسلة التي دعا ابن قتيبة الشعراء الى الاحتذاء بها في نظمهم انما هو من نازلة العمد ، اي الذين هم — كما وصفهم احمد محمد شاكر في تعليقه على النص — انهم اصحاب الأبنية الرفيعة الذين ينتقلون بأبنيتهم .... الى الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون الى منازلهم » (٥٤) ، وهم غير اهل المدر المستقرين في المباني كما اشار الى ذلك ابن قتيبة نفسه اذ قال :

«... اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ماعليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلأ .وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان » (٥٥) .

ويعلق أحد الباحثين على ذلك بقوله :

« ... فكان المأمول ان يراعي اختلاف الظروف الحيوية ، ولايرتجى من هؤلاء مثل مافعل اولئك ، لافي انعدام الرابط النفسي ولكن في ضرورة

---

(٥٣) جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية ، مجلة فصول : العدد : ١١ — السنة ١٩٨٦ — ص : ٦١ .

(٥٤) و (٥٥) الشعر والشعراء : ص : ٨١ (الحاشية ثم المتن)

الالتزام بالأقسام التي ساروا عليها في القصيدة وحسب ،ولو انه الزم المحدثين او متأخري الشعراء بالتزام الرباط النفسي لكان لرأيه قيمة فنية يمكننا الاعتداد بها كبداية للتطور النفسي في القصيدة » (٥٦) .

٣ – معيار اختيار الشعر

قال ابن قتيبة: « وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويحفظ على اسباب » (٥٧) .

ثم يحصي – مع ضرب الأمثلة الشعرية – هذه المعايير ، وهي تارة معايير فنية في (الصورة) وهي الاصابة في التشبيه ،واخرى معايير عروضية في (الايقاع) وهي خفة الروي ، ومعيار ثالث هو الندرة ، وآخر هو الغرابة ، وكذلك نبل القائل . فضلا عن معيار الشرف في الشعر وصاحبه .

وتأتي خطورة هذا المذهب من وجهين :

١ – خروجه على منهج التقسيم الرباعي للفظ والمعنى من حيث الجودة والرداءة ، حيث جعل هذا التقسيم منطلقاً للقبول والرفض ، ثم جاء ليفجأنا بمعايير أخرى يتم في ضوئها اختيار الشعر ، وبصرف النظر عن ان تكون هذه المعايير سبيلا الى الاختيار والقبول ام لاتكون فان التقسيم الرباعي في مستهل المقدمة لايعد تقسيماً متكاملا ، ولا تأسيساً لعمل يصفه الدكتور شكري فيصل بأنه «يقوم على المعرفة بالأشياء والدلالة عليها وتسميتها الالفاظ والمعاني ، وعلى الاحساس بالأشياء وتقييمها وحصرها وتسميتها الجودة والرداءة » (٥٨) .

٢ – لم يوضح ابن قتيبة فيما اذا كان يتحدث عن عملية اختيار اخرى اعتادها الناس في زمانه في ضوء بواعث واسباب ام انه يريد بذلك منهج اختيار سليم يقوم على اسس ودعائم هي تلك التي احصاها ومثل

(٥٦) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي : ص : ٤٢٣

(٥٧) الشعر والشعراء : ص : ٩٠

(٥٨) نظرية مبكرة للشعر في النقد القديم :
مجلة المعرفة – السورية – العدد : ١٥١ – ايلول : ١٩٧٤ : ص : ١٦

لها بشواهد ، وأغلب الظن انه يعني اختياره هو او اختيار الصفوة المعنيين الذين يجرون في ذلك على اسس ورؤى وضوابط ، لأننا نعرف ان كل ماينسبه الى الاخرين من آراء من غير تعليق اونقاش انما هو اختياره .

ومما يدعونا الى القول إن هذه الرؤية في عملية الاختيار والحفظ هي رؤيته التي يؤمن بها ويستحسن معاييرها التي سردها لنا في هذا الباب انه يتحدث عن عملية اختيار ذائعة عند الاخرين بدليل قوله :(وقد يختار ويحفظ) وقد جاء بصيغة البناء للمجهول اعماماً للعملية ، فضلا عن انه لم يوضح مايمكن ان يترتب على معايير الاختيار والحفظ من مآخذ بدليل انه لم يعلق بشيء يوحي بمؤاخذه ام عدم رضا ، ايماناً منه بصحة هذه المعايير .

٣ – ان تفاوت مستويات النصوص فنياً ومعنوياً – في ضوء معيار التقسيم الرباعي – كأن يلزمه ان يقف منه موقف الناقد الذي يلتزم معياراً يتسم بالثبات والوضوح ، وضآلة تعليقاته – فضلا عن وجازتها – تنبيء عن شيء من الحياد غير المسوغ لناقد مثله ، وكذلك الحذر من الاتهام بأنه أخل بمعيار التقسيم الرباعي ، فاذا كان شاهد الاصابة في التشبيه «٥٩» مما يسوغ درجه في باب ماجاد لفظه ومعناه فان ما اختير مثالا على خفة الروي يدخل في باب ما تأخر لفظه وتأخر معناه ، الم يكن من مقتضيات المنهج النقدي ان يعلق على الابيات التي استشهد بها على خفة الروي ومطلعها (٦٠) :

يـــاتملك يـــاتملـــي صـــليني وذري عذلي

كما علق من قبل على بيتين للأعشى وهما :(٦١):

وفـــوهـــاً كأقـــاحي غـــذاه دائـــم الهطل

---

(٥٩) الشعر والشعراء : ٩٠ .
(٦٠) الشعر والشعراء : ٩١ .
(٦١) الشعر والشعراء : ٧٥

كما شيب براح بارد من عسل النحل وذلك بقوله : « ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن » (٦٢) علماً بأن روي كل من الانموذجين واحد .

من ثمة يتبين لنا ان معايير التقويم في تحديد مستويات الاجادة في الشعر ليست ثابتة مستقرة ، بل انها تعاني التجزئة فيما بينها ، وتباعد بعضها عن بعض ، وهذا مما لا ينبغي ان يكون عند ناقد يحسن الدكتور شكري فيصل الظن به فيرى في مقدمته «اول نظرية نقدية متكاملة» .

٤ ـ التكلف والطبع :

قسم ابن قتيبة الشعراء إلى طائفتين : طائفة وصفها بالتكلف ، ووضع لمفهوم التكلف سمات ومعالم ، كما وضع للطبع سمات ومعالم .

وقديماً رأى الدارسون أن ثمة طائفة في مراحل الشعر المبكرة (في عصر صدر الاسلام) تميزت بخصائص نسبت إلى الصنعة ولم تنسب إلى التكلف لما في مفردة التكلف من افتقار إلى أيسر خصائص الشاعرية .

وقد حدد رؤيته للمتكلف بقوله : «انه الذي قوّم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة» (٦٣) .

«ان التكلف بالمعنى الذي ذكره ابن قتيبة يختلط بفكرة الصنعة الفنية ولا يناقضها او يجافيها ، اذ ان التكلف ـ عنده ـ يعني اقتسار الكلام ووضعه في اماكن خاصة من الشعر ليحقق غرابة في الفكر او تحسيناً في اللفظ» (٦٤) .

وقد جارى ابن قتيبة الجاحظ في خلطه بين مفهومي الصنعة والتكلف ، في حين ان الجاحظ نفسه وصف التكلف بالفساد في معرض قوله :

«ومتى شاكل ـ ابقاك الله ـ ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج عن سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع ...» (٦٥) .

---

(٦٢) الشعر والشعراء : ص : ٧٥
(٦٣) الشعر والشعراء : ص : ٨٤
(٦٤) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي : ص : ١٦٩
(٦٥) البيان والتبيين : ج٢ : ص : ٧ ـ ٨

ثم ان الجاحظ نفسه ايضاً حين عرض لمنهج زهير بن ابي سلمى ورجال مدرسته من اهل الصنعة عرض لسمات هذا المنهج فانتهى إلى القول : «ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً» (٦٦) .

فضلاً عن انه اشار إلى الغاية مما يجريه زهير واضرابه على القصيدة من تجويد الشعر واستواء القصيدة في الجودة ، وهذا كله بعيد عن التكلف الذي تفتقر فيه الشاعرية ، ولعل عدم رضا الجاحظ عن صنيع زهير على الرغم مما ابدى من تحفظ في كلامه على هذا النهج هو الذي جعله يستخدم مفردة (التكلف) مقرونة بالصنعة وفي سياق الكلام عليها .

ولعل ابن قتيبة قد مضى في هذا السبيل دون ان ينتبه إلى البعد السلبي في مفردة التكلف مما حمله على ان ينقد الفرزدق في ما ليس عنده بتكلف ، بل هو منهج في النسيج الشعري يطبع صاحبه بميسمه الخاص ، ولو كان منهجاً مختلاً لما تحدى الفرزدق معترضيه بقوله : علي أن اقول وعليكم ان تؤولوا .

وعلى الرغم من ان الفرزدق كان راوية للحطيئة فان ذلك لا يلزم ان ينهج نهجه ، ولو فعل لما وقع في مؤاخذات النحاة عليه ، في الوقت الذي يورد فيه ابن قتيبة اخباراً عن سرعة بديهته في مواقف مفاجئة (٦٧) .

واحسب ان التكلف لا يصلح وصفاً للجيد من الشعر ، وقد استخدم ابن قتيبة هذا الوصف مع جيد الشعر ومحكمه اذ قال :

«والمتكلف من الشعر وان كان جيداً محكماً...» (٦٨) ثم انه وصف شعر الفرزدق بالجودة في ختام تحريه لمواطن التكلف عنده .

ان اقتران البيت بغير جاره ومضموماً إلى غير لفقه ظاهرة تسم احياناً شعر

---

(٦٦) البيان والتبيين : ج٢ : ص : ٩
(٦٧) الشعر والشعراء : ص : ٤٧٣ – ٤٧٤
(٦٨) الشعر والشعراء : ص : ٩٤

من سمّوا بالمطبوعين ، وربما هي اقرب إلى شعرهم اكثر من غيرهم ، لأنهم ينسابون في بناء قصائدهم على السجية وتدفق العطاء الشعري ، ولعل هذه السمة تزول في قصائد اهل الصنعة لكثرة ترداد نظرهم في أعطاف القصيدة تنقيحاً وتغييراً بحثاً عن مواطن الخلل والتماساً لما هو إفضل وأجود .

صحيح ان ذلك قد يشكل عيباً في نسيج القصيدة اذ يفقدها الوحدة العضوية المطلوبة ، ولكنه امر بعيد عن ان يكون مظهراً من مظاهر التكلف بمعنى افتقاد الشاعرية .

ومما يجدر بالاشارة في هذا السياق ان ابن قتيبة في حكمه على شعر الخليل ابن احمد الفراهيدي قال :

«انه بيّن التكلف رديء الصنعة» (٦٩) مما يجعلنا امام دقة الوصف في اقتران التكلف برداءة الصنعة ، ولو أخذ بهذا المعيار في تقسيمه لطوائف الشعراء لكان اقرب إلى الدقة والاصابة وابعد عن تداخل المفاهيم واضطراب الأحكام .

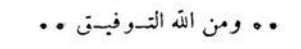
ومن جهة اخرى اذا كانت كثرة الوشي ولطف المعاني من سمات قصائد المطبوعين ترى هل تفتقد هذه السمات في قصائد من سموا بأهل الصنعة والتكلف ، اذا صحّ ذلك فان بوسعنا — عندئذ — ان نطرح جانباً شعر زهير والحطيئة واضرابهما ، وهذا مما لا يستقيم بأي معيار ، في حين ان شعر التكلف يمكن ان يطرح ويلغى بكل الحسابات النقدية والذوقية .

وهذا مما لم يقف عنده ابن قتيبة في موازنته بين الطائفتين اللتين تحدث عنهما جرياً وراء معيار جاهز استعاره ووقع تحت تأثير مصطلحاته التي هي الاخرى تعاني الكثير من عدم الدقة ، مما افضى به إلى ان يحسن الظن بشعراء الارتجال الذين يواجهون الاختبار الآني ، اذ يفضي به حسن ظنه هذا إلى ان

(٦٩) الشعر والشعراء : ص : ٧٦

لا يتحرى عما يمكن ان يقعوا فيه من مآخذ جمة .

هذا ولا سبيل إلى انكار جهود ابن قتيبة في ايراده كثيراً من الرؤى النقدية السديدة في ما يتصل باستحسان الشاعر بعيداً عن معيار التقدم الزمني والتزام منهجية النظم والاعتداد بالبعد النفسي في النظم من حيث مراعاة الدواعي والتارات ، وكذلك حديثه عن عيوب الشعر العروضية والنحوية فضلاً عن دعوته إلى هجر وحشي الكلام وغريبه ومستكرهه ، واستعمال السهل من الالفاظ الذي يقرب الشعر إلى الناس ويجعله في متناول ايديهم ومناط تقديرهم.


•• ومن الله التـوفيـق ••

المصادر والمراجع

١ - الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي : سعيد عدنان، دار الرائد العربي - بيروت . ط١ - ١٩٨٧ .

٢ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - طه احمد ابراهيم - دار الحكمة - دمشق .

٣ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - نقد الشعر - د. احسان عباس - دار الثقافة - بيروت .

٤ - جماليات القصيدة التقليدية بين التنظير النقدي والخبرة الشعرية - د. محمد شكري عياد . مجلة فصول (المصرية) العدد : ١١ - ١٩٨٦ .

٥ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة : تح : محمود محمد شاكر - القاهرة .

٦ - قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث - د. محمد زكي العشماوي - دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٦٧ .

٧ - مفاهيم في الادب والنقد - د. حكمة علي الأوسي - دار النهضة العربية - القاهرة .

٨ - من قضايا التراث العربي - الشعر والشاعر . د. احمد فتحي عامر - طبعة الاسكندرية .

٩ - نظرية مبكرة للشعر في النقد العربي القديم. د. محمد شكري فيصل - مجلة المعرفة (السورية) العدد : ١٥١ - ايلول - ١٩٧٤ .

١٠ - نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي . - د. عبدالسلام عبدالحفيظ عبدالعال . دار الفكر العربي - القاهرة .

١١ - النقد المنهجي عند العرب - د. محمد مندور . دار نهضة مصر - القاهرة .

من أوهام الراغب في معجمه
(مفردات ألفاظ القرآن)

الدكتور
كاصد ياسر الزيدي
كلية الآداب – جامعة الموصل

الراغب وكتابه :

يعد كتاب : (مفردات الفاظ القرآن) ، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني ، المتوفى في الربع الأول من القرن الخامس للهجرة (١) ، من خيرة كتب اللغة ومعجمات غريب القرآن . فقد بذل فيه مصنفه جهداً طيباً متفرداً في دراسة المفردات الغريبة في التنزيل ، دراسة شاملة دقيقة ،تناولت – غالباً – اصل المفردة ، ودلالاتها ، وتطور تلك الدلالات ، وتباينها بحسب الوضع والعرف ، او الحقيقة والمجاز ، او اللغة والشرع ، وما اليها . وهو منهج ميّز هذا الكتاب من بقية كتب غريب القرآن ، ككتاب ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، وابي بكر محمد السجستاني ت (٣٣٠هـ) وغيرهما ، فصار مرجعاً للدارسين في مختلف العصور .

ولم يخف امر (المفردات) على اهل هذا العصر ، بل قوّموه تقويماً عالياً ، وأفادوا منه كثيراً ، حتى ان الشيخ امين الخولي (٢) نوّه بتفرده في منهجه ، ولاسيما عنايته بتطور الدلالات ، وأن الأجيال – ومنها المعاصرة – تخجل من انها لم تخرج مثل هذا المعجم او افضل منه ، على الرغم مما فيه من قصور – في رأي الشيخ – مرده تباين العصور ، وعدم معرفة العلاقة بين اللغات (٣) .

---

(١) ينظر في تحقيق ذلك : رافع عبدالله : منهج الراغب في كتابه مفردات الفاظ القرآن ص١٣ . رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الآداب بجامعة الموصل سنة ١٩٨٩ بإشرافنا.

(٢) أستاذ البلاغة والتفسير في كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ الأربعينات ، وأحد المجددين في هذين العلمين .

(٣) الخولي : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٣١٤ .

وحين بدأتُ بالإعداد لرسالة الماجستير سنة ١٩٦٦م في كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة ، عن (الطبيعة في القرآن الكريم) ، كان مفردات الراغب احد مصادره الأصيلة ، فقد كنت استعين به في تحديد طائفة من الألفاظ القرآنية بدقة ، وبيان الفروق الدلالية بينها ؛ إذ لم أحظ بمعجم اكثر تحقيقاً لذلك كله غيره . وقد توثقت صلتي بهذا المعجم القرآني النفيس بعد ذلك ، فكنت ارجع اليه في غير بحث من بحوثي . وتوّج هذه الصلة سنة ١٩٨٨ رسالة ماجستير عنوانها : (منهج الراغب في كتابه : مفردات الفاظ القرآن) ، اشرفت عليها . وكنت طوال هذه السنين التي تجاوزت ربع قرن من المراجعة للمفردات ، اجد لمصنفه بين حين وآخر ، قولاً منقولاً او تأويلاً او ترجيحاً ، لا سند له قويماً او وجهاً مقبولاً ، من اقوال المفسرين او اصحاب المعاني او اصحاب الغريب او اللغويين او غيرهم من علماء الأمة ، بل كان يبدو لي نادّاً شارداً ، او بعيداً مرجوحاً .

وحين تجمّع لديّ منه عدد غير قليل ، لم ارَ مسوّغاً لتركه ، بل رأيت الواجب العلمي يلزمني ببيانه والتنبيه عليه ، ليحيط من لا علم له بخلله به ، فلا يأخذ به اخذ المسلّمات ، بل ينظر فيه وفي غيره كذلك ، فيعتمد منه ما تحقق له انه صحيح ، ويختار سوى ما رأى انه بعيد .

ولست بعد هذا واجداً في مناقشة اقواله : تضعيفاً ، او رداً ، او استبعاداً ، حرجاً او مزلة ؛ إذ أن الراغب على فضله ورسوخ قدمه في الدراسات القرآنية ، إنسان غير معصوم ، يصيب ويخطىء . وحسبه انه خلّد لنا هذا الكتاب القيّم المليء بالعلم النافع ، وحسبه اننا عددنا ما يصح ان نسمّيه هفوات ، او اوهاماً ، فإذا هي يسيرة بإزاء ما هو مقبول .

ولما كان بيان كل ما نقدته عليه من اقوال ، لا يتسع له هذا البحث الذي ينبغي أن يحدد بعدد معين من الصفحات ، فقد رأيت الاجتزاء بما هو احرى بالبيان ، واجدر بالظهور والتبيان .

ولعل سائلاً يسأل عما ادى بالراغب إلى هذه الهفوات والأوهام ؟

فالجواب : أن ذلك يعود إلى عدة امور ، هي حصيلة ثقافته المتنوعة ، وطريقته في الفهم والتفكير ، وروحه التي تنزع إلى الجديد والمفيد ، وإن لم تصب المراد احياناً ، وما إلى ذلك من عوامل ومسببات . وهذه الأمور هي :

آ – حمل اللفظ على المجاز ، مع انه – عند التأمل والدراسة – حقيقة.

ب – اختيار وجه ليس براجح .

جـ – التأويل ، بتقدير محذوف لا مسوّغ لتقديره ، او تحميل اللفظ ما لا يحتمله ، او مُجاراة المُبعدين في التأويل ، في ما ذهبوا اليه من معنى .

د – تخصيص ما لا مخصص له ، من عقل او نقل او حال او سياق .

هـ – الميل إلى التأويلات الصوفية والعرفانية التي لا سند لها من داخل القرآن او من خارجه .

و – عدم كفاية استقراء الآي – احياناً – في مواضعها المختلفة من القرآن ، – على الرغم من قيامه بذلك غالباً ببراعة – وملاحظة السياق .

والله اسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به أهله : اهل القرآن الحكيم ، الذي جعله هدىً للمتقين .

– ١ –

فمن ذلك أن الراغب فسّر : (عرّفها لهم) في قوله تعالى : (ويدخلهم الجنة عرّفها لهم) [محمد : ٦] بقوله : « طيّبها وزيّنها لهم» ، ثم ذكر بصيغة التضعيف : (قيل) ، ان المراد بذلك : «عرفها لهم ، بأن وصفها لهم وشوّقهم اليها وهداهم» (١) . فعكس الحال في هذا المقال ، إذ جعل

(١) الراغب : مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٤٣ (عرف) .

الراجح مرجوحاً، والأولى تالياً ؛ذلك انه جعل تعريف الجنة من (العَرْف) ، وهو الشذى والرائحة الطيبة ،على حين هو في الوجه الأولى والأظهر ، الذي تعضده آي القرآن في المواضع المتعدّدة ، مأخوذ من التعريف بالشيء ، وهو وصفه وتبيينه . وعليه حذّاق المفسّرين واصحاب المعاني ، وهو أحد ثلاثة أوجه قيلت بناء على هذا الاصل من الأشتقاق :

أحدها : انه عرّف الجنة لهم بوصفها ، وبيان منازلهم فيها . وممن ذهب اليه أبو عبيدة [1] (ت ٢١٠هـ) ، إذ قال : « عرّفها لهم : بيّنها لهم ، وعرّفهم منازلهم» ، كما ذهب اليه الطبري [2] (ت ٣١٠هـ) ، فقال : «يقول : عرّفها بيّنها لهم حتى ان الرجل ليأتي منزلة منها ، إذا دخلها كان كمن كان يأتي منزله في الدنيا لا يشكل عليه ذلك» .

والثاني : نقله الطوسي [3] (ت ٤٦٠ هـ) عن بعض الآثار ، وهو انه سبحانه :«عرفها لهم ، بأن وصفها على مايشوق إليها ، ليعملوا بما يستوجبونها بـه من طاعة الله ، واجتناب معاصيه » ، وهو وجه حسن .

والثالث : رواه الطبري [4] بأسانيد عن عدد من الصحابة والتابعين ، كأُبَـيّ ابن كعب (رض) وأبي سعيد الخدري (رض) ، وقتادة ، والحسن البصري ، وعبد الرحمن بن زيد ، وهو أن المراد : يعرفون منازلهم في الجنة ويهتـدون إليها ، وهم أعرف بها من منازلهم في الدنيا . واختار هذا الوجه من أصحاب غريب القرآن ، أبو بكر محمد بن عبدالعزيز السجستاني [5] ، فقال : «أي

---

(١) مجاز القرآن ٢/٢١٤ .

(٢) جامع البيان ٢٦/٤٤ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن ٩/٢٩٢-٢٩٣ .

(٤) جامع البيان ٢٦/٤٥ .

(٥) غريب القرآن ص ١٧٠ .

عرّفهم منازلهم فيها» ، ثم ذكر بصيغة التضعيف ماذهب اليه الراغب من بعد فقال :

«وقيل : طيّبها لهم ، يقال طعام معرَّف ، أي : طيِّب» .

وذكر الطوسي (١) وجهاً قريباً منه استقاه من رواية ، وهو أن المراد : «طيبها بضروب الملاذ ، مشتقاً من العرْف ، وهي الرائحة الطيبة التي تتقبلها النفس ، وتتبل ماتعرفه ولاتنكره» . وهي رواية لم يذكرها الطبري ، مع ماذكر من روايات .

فالأولى والأصح ، بل لعله الصحيح الذي لامعدل عنه — بعد هذا الذهاب الى ماذهب إليه كثير من السلف والخلف ، ممن ذكرناهم آنفاً ، من ان المراد بتعريف الجنة : وصفها وتبيينها ، لاتعطيرها وتطييبها ، إذ ان هذا الوجه محفوف بالروايات المأثورة عمن هم أعلم بمعاني القرآن ، فضلا عن اللغويين الحذاق كأبي عبيدة والطبري . كما أنه معضود بآي القرآن في سوره وآياته التي ذكرت فيها الجنة ، لأن مجموع ذلك يؤلف وصفاً وافياً بينا لها ، يتناول التعريف بها ، وبمنازل المؤمنين ومستقرهم فيها .

—٢—

وحمل الراغب لفظ (الشفيع) على معناه اللغوي ، وهو (الثاني) ، في قوله تعالى : [إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه »[يونس : ٣] ، فقال : «يدبر الأمر وحده لاثاني له في فصل الأمر ، إلا أن يأذن للمدبرات والمقسمات من الملائكة ، فيفعلون مايفعلون بعد إذنه» (٢) . وهو ذهاب الى الدلالة اللغوية للشفيع دون الدلالة الاصطلاحية الاسلامية . وهذا التفسير محمول على وجه لانحسب انه المراد في الآية هنا ، إذ سيكون المعنى — كما ذكر — مامن مدبّر

(١) التبيان ٩/٢٩٣ .
(٢) المفردات ص ٢٧٠ (شفع) .

آخر لما خلق إلا من بعد إذنه . ويبدو أن الذي حمله على عد (الشفيع) هنا هم الملائكة ، ذهابه الى ان التدبير في هذه الاية ، كالتدبير في آية النازعات وهو قوله تعالى : (فالمدبرات أمراً)،مع مابين السياقين من تباين فقد فسرت (المدبرات)في الاية الأخيرة بثلاثة معان ،أحدها : أنها الملائكة (١) . والثاني : خيل المجاهدين في سبيل الله (٢) ،والثالث:النجوم التي تنزع من المشرق الى المغرب . (٣) والأول من هذه المعاني هو الأشهر الأظهر ، غير انه لايصدق على آية يونس ، لعدم الدليل عليه من السياق ، او الآ ثار ، او أقوال المفسرين بل الذي عليه جمهورهم أن ذلك خاص بالشفاعة الاصطلاحية الاسلامية ،وأن الشفيع يعني (الشافع) ، لا (الثاني) — فهو إذن فعيل بمعنى (فاعل) .

وإسقاط الضرر عن المشفوع له ، هو الأصل لدى المتكلمين ، وبذلك تخرج الوساطة في المنافع من أن تكون شفاعة ، وإليه ذهب أبو جعفر الطوسي (٤) ؛ على حين ذهب ابو حفص النسفي (٥) (ت ٥٣٧ هـ) الى ان « الشفاعة هي أن يشفّع نفسه لمن يشفع له في طلب قضاء حاجته» . وهذا يعني ان الشفاعة قد تكون ابتداء لنفع المشفوع له ، وليست خاصة باسقاط الضرر .

وعلى اية حال ،ليس المعنى في الاية الكريمة على ماذهب اليه الراغب رحمه الله ، بل هو كما قال الطبري (٦) : « لايشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد الا من بعد ان يأذن في الشفاعة »،او كما قال الزجاج (٧) (ت ٣١١ هـ) «أي : لايشفع شفيع إلا لمن ارتضى الله ، قال الله جل وعز :(ولايشفعون إلا

---

(١) الزمخشري : الكشاف ٣٠٨/٣ ، والطبرسي : مجمع البيان ٢٢/٣٠ .
(٢) الكشاف ٣٠٨/٣ .
(٣) الكشاف ٣٠٨/٣ ، وفي مجمع البيان عن تفسير علي بن ابراهيم القمي،أنها الأفلاك يقع فيها أمر الله ٢٢/٣٠ .
(٤) التبيان ٣٣٥/٥ .
(٥) طلبة الطلبة ص ١١٩ .
(٦) جامع البيان ٨٣/١١ .
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٦/٥ .

لمن ارتضى» . وقال الطبرسي (١) (ت ٥٤٨هـ) : « إنما قال هذا وإن لم يجر له ذكر للشفعاء ، لأنه الكفار كانوا يقولون : الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فبين سبحانه أن الشفيع إنما يشفع عنده إذا أذن في الشفاعة ، وإذا كانت الأصنام لاتعقل فكيف تكون شافعة ، مع انه لايشفع عنده أحد من الملائكة والنبيين إلا بإذنه وأمره » ؟

فالوجه الذي ذهب اليه الراغب لاسند له إلا ماروي عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٣ هـ)،من أنه قال: (يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذن): « يقضيه وحده» (٢) . ففصله الراغب في كلامه ألذي ذكرناه آنفاً.ومعلوم عن مجاهد أنه يجتهد في التأويل بقول ينفرد فيه عن بقية المفسرين من السلف،احياناً ومنهم أستاذه عبد الله بن عباس (رض) ، الذي يوصف بأنه أبو التفسير (٣). على نحو تأويله المسخ في قوله تعالى لبني اسرائيل الذين اعتدوا يوم السبت : (كونوا قردة خاسئين) [البقرة : ٦٥] ،بأنه مسخ معنوي نفسي ، وليس مسخاً جسمياً حقيقياً ، وعدّه ذلك من التمثيل ، (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) (٤) الأمر الذي حمل الطبري (٥) على الرد عليه وتضعيف قوله بالعدول عن ظاهر مادل عليه كتاب الله ، ومخالفة قول جميع المفسرين الحجة الذين لايجوز عليهم الخطأ والكذب في ما نقلوه مجمعين عليه .فإجماعهم كان دليلا لدى الطبري ايضاً على خطأ ماذهب إليه مجاهد .

فيتبين مما مر ،أن (الشفيع) في الاية الكريمة يراد به الساعي لاسقاط ضرر عن شخص أو أكثر ، أو ـ على رأي ـ لجلب منفعة لمن يُرى أهلا لذلك ، وليس معناه ماذهب إليه الراغب ، من أنه (الثاني) .ذهاباً منه الى المعنى اللغوي

(١) مجمع البيان ١١/١١-١٢ .
(٢) جامع البيان ٨٤/١١ .
(٣) مصطفى الصاوي الجويني : مناهج في التفسير ص ٢٣ وما بعدها .
(٤) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧٢/٢-١٧٣ .
(٥) جامع البيان ١٧٣/٢ ، وينظر بحثنا الطبري المفسر الناقد مع موازنة بمفسرين معاصرين له ص٩ .

دون الشرعي الاصطلاحي ، إذ هو في هذا كمن حمل (الشفاعة الحسنة) في قوله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) [النساء : ٨٥] ، على انها متعلقة بالجهاد ، بأن يصير الانسان شفيعاً لصاحبه في جهاد الأعداء (١) .

-٣-

وذكر الراغب أن (العَشيّ) هو «الوقت القائم من زوال الشمس الى الصباح» ، واحتج له بقوله تعالى : في [سورة النازعات : ٤٦] : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها) ، على حين ان النصوص الخمسة الأخرى التي وردت فيها هذه اللفظة يدل على ان معناها غير ماذكر ؛ إذ كان (العشي) محدوداً في بعض الروايات بالنصف الثاني من النهار. ففي الاية ١٤١ من سورة آل عمران : (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار) ، وورد عن مجاهد إن العشي من حين زوال الشمس الى غروبها (٢) ، فهو اذن طرف النهار الثاني بعد طرفه الأول : الصباح ، أو الإبكار ، وآية ذلك أنه قابله بهذه اللفظة الأخيرة التي تعني الوقت الممتد من طلوع الشمس الى الضحى (٣) .

فلا نحسب على هذا – أن (العشي) يستغرق الليل كله الى الصباح. وقد قابل هذا اللفظ بـ(الغداة) في قوله تعالى: (يدعون ربهم بالغداة والعشي) ، [الكهف : ٢٨] ، كما قابله بـ(الغدو) في قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) [غافر : ٤٦] ، و بـ(الإشراق) في قوله : (يسبحن معه بالعشي والإشراق [ص : ١٨] على أنه قابله بالاظهار، في إحدى الآي، فقال : (وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) [الروم : ١٨] ، فاقترن العشي – كما هو واضح – بالأوقات الآخرى (الخمسة) وهي : الغدوة ، والغدو ، والإبكار والإشراق والإظهار .

(١) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٢٧٧/٣ . وتنظر رسالة الماجستير لأكرم أحمد : ألفاظ العبادات في القرآن الكريم / دراسة دلالية ص ١٨٨ ، وهي باشرافنا مخطوطة سنة ١٩٩٠ .
(٢) التبيان ٤٥٥/٢ .
(٣) الزمخشري : الكشاف ٣٢٣/١ .

فالذي نراه ، في ضوء ماتقدم ، أن العشي هو الوقت الذي يكون من آخر النهار . وبه قال مجاهد في ماذكرنا سابقاً ،وكذلك الزمخشري،ثم النسفي(١) وغيرهم . يقول الزمخشري (٢) : « العشي من حين نزول الشمس الى أن تغيب والإبكار من طلوع الفجر الى وقت الضحى» (٤).واختاره الشيخ حسنين محمد مخلوف (٣) .

وبذلك يكون قول الراغب بامتداد العشي الى الصباح قولا لادليل عليه من سياق اللفظة في الآيات التي وردت فيها ، كما أوضحنا آنفاً ، ولا من أثر أو لغة ، إذ قد وسع الوقت الى أكثر مما هو معروف عنه بكثير .

على أن بعض قدامى المفسرين ، وهو سعيد بن هبة الله المعروف بالقطب الراوندي (ت ٥٧٣هـ) ، استدل على ان العشي هو (العصر) بقوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) [الروم : ١٧] ، اذ بين أن هذه الاية تذكر الصلوات الخمس في اليوم والليل والنهار ، وتدل كذلك على وجوبها ، لأن قوله (حين تمسون) يقتضي المغرب والعشاء الاخرة ، و(حين تصبحون) يقتضي صلاة الفجر) (وعشياً) يقتضي صلاة العصر ، و(حين تظهرون) يقتضي صلاة الظهر وإنما أخر الظهر مع انه متقدم على العصر لتناسق الفواصل،او على حد تعبيره «لازدواج الفواصل » (٥) .

وهو استدلال دقيق مصيب ،بناه على أحسن أساليب التفسير،وهو تفسير القرآن بالقرآن ، معتمداً على أظهر هذا الاسلوب ، وهو السياق .

—٤—

وذهب الراغب في تفسير لفظة (مسلم) مذهباً بعيداً،في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : (فاطر السموات والأرض انت ولي في الدنيا والآخرة

(١) مدارك التنزيل ١٥٧/١ .
(٢) الكشاف ٣٢٣/١ .
(٣) كلمات القرآن ، تفسير وبيان ص ٤٥ .
(٤) سعيد الراوندي : فقه القرآن ١٤٦/١-١٤٧ .
(٥) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٧٥/٢-١٧٦ .

توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) [يوسف : ١٠١] ، إذ قال : « أي أجعلني ممن استسلم لرضاك» ، ثم قال : « ويجوز أن يكون معناه : أجعلني سالماً عن أسر الشيطان» . واحتج لهذا المعنى الأخير بالاية التي تحكي قول الشيطان (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) (١).

وهذا الوجه الذي أجازه الراغب بعيد في رأينا عن دلالة لفظه (مسلم) في الاية لسببين : أحدهما: ان اشتقاق اللفظ لايساعد عليه ، ذ أنه اسم فاعل من الفعل المزيد (أسلم) ، وليس من الفعل اللازم (سلم) ، اذ لو كان من هذا لقال (سالم) ، ولم يقل : (مسلماً) . وأكثر ماورد من (أسلم) في القرآن بدلالته العامة ، وهو الانقياد لأمر الله ، كما ذكر الراغب (٢) نفسه ، بقوله تعالى : (إن تُسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) [النمل : ٨١] : « أي : منقادون للحق مذعنون له » . ومثله قوله : (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) [المائدة : ٤٤] .

ولسنا ندري ما الذي حمل الراغب على عدّ (المسلم) في الاية التي ذكرنا آنفاً ، بمعنى السلامة من أسر الشيطان وغوايته ، مع ان اشتقاقهما في الآيتين واحد . وكان له بالوجه الأول الذي ذكره ، وهو الاستسلام لله سبحانه ، والانقياد له ، مندوحة عما ذكره بعد ذلك ، لو شاء الإشارة الى معنى ثان .
والثاني : ان الدعاء بالوفاة على الإسلام ، اولى من الدعاء بالوفاة على البعد من أسر الشيطان .

والثالث : أنه لم يرد في أقوال المفسرين ، قدامى ومتأخرين ، مايعضد المعنى الذي أجازه ــ فمعنى الإسلام يرد بدلالته العقيدية العامة ، كما اوضحه مقاتل ابن سليمان (ت ١٥٠ هـ) بثلاثة معان (٣) :
الأول : الإخلاص لله بالتوحيد ، كما في قوله تعالى : (إذ قال له ربه أسلم

(١) مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٤٧ (سلم) ، والآية من سورة الحجر : ٣٩ .
(٢) المفردات : نفس المكان .
(٣) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٣٥-١٣٦ .

قال أسلمت لرب العالمين) [البقرة : ١٣١]، وقوله : (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) [آل عمران : ٢٠] .

والثاني : الإقرار ، كما في قوله تعالى : (وله أسلم من في السموات والأرض) [المؤمنون : ٥٥] يعني أقر بالعبودية ، وقوله : (وكفروا بعد إسلامهم) . [التوبة : ٧٤] ، يعني : بعد إقرارهم ، ولم يخلصوا قط .

والثالث : الطاعة والغفران ، إذا توفاه الله .

اما المفسرون فلم يذهبوا الى مثل مااحتمله الراغب، بل فسروا لفظة(المسلم): بدلالتها الاصطلاحية الشرعية ، فقال الطوسي [١] : « توفني مسلماً ، معناه: اقبضني إليك اذا أمتني وأنا مسلم ، أي الطف لي بما أموت معه على الإسلام» :

وقال الزمخشري [٢] : «توفني مسلماً: طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى ، كما قال يعقوب لولده : (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)».

فالإسلام في (توفني مسلماً) ونحوها من الآي التي ذكرنا آنفاً، يراد به معناه العام الشرعي العقيدي الذي بينّا ، وليس المراد به السلامة من أسر الشيطان وحبائله ومصائده . لما أوضحناه سالفاً من مساعدة الاشتقاق عليه من جهة ، ولأن الدعاء بالوفاة على الاسلام أولى من الدعاء بالوفاة على السلامة من أسر الشيطان ، فضلاً عن شروده عما ذهب إليه المفسرون .

—٥—

وفسر الراغب (الحفدة) التي وردت في قوله تعالى: (الله الذي جعل لكل من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) [النحل : ٧٢] . بوجه هو «جمع حافد ، وهو المتحرك المتبرّع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانب» ، فجعلهم أشبه بالخدم . ثم حكى عن المفسرين أن المراد بهم

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ٦/٢٠٠ .

(٢) الكشاف ٢/١٥٦ ، والآية من سورة آل عمران : ١٠٢ .

«الأسباط ونحوهم ، وذلك أن خدمتهم أصدق» ، وأن عليه قول الشاعر :
حَفَدَ الولائدُ بينهن (١) .

والذي قاله المفسرون وحكاه الراغب عنهم ، هو الصواب والأولى ، والدليل على ذلك السياق . فإذا كان «أصل الحفد – كما يذكر ابن قتيبة(٢)(ت٢٧٦هـ) مدارِكة الخطو والإسراع فيه» ، ولذلك «يقال حَفَدَ الحادي وراء الإبل : إذا أسرع ودارك خطوه . ومنه قيل للعبيد والإماء : حَفَدَة ؛ لأنهم يسرعون إذا مشوا للخدمة» .

فإذا كان الأمر كذلك في اللغة أصلاً وتطوراً ، فإن الحفدة في آية النحل التي ذكرنا ، هم الأسباط من البنين والبنات ؛ إذ هم ممن يخدم الأب والجد، ولذلك قال ابن قتيبة (٣) بعد بيان الدلالة اللغوية العامة ،وبيان المعنى في الآية الكريمة : «يريد أنهم بنون وهم خدم» .

وقد روى الطبري بأسانيد كثيرة وجوهاً في تأويل (الحفدة) مروية عن عدد من الصحابة والتابعين ، يذهب بعضها الى أنهم أختان الرجل ، وهو مااختاره الفراء (٤) ، ويذهب بعض آخر الى أنهم أعوان الرجل وخدمه ، وهو مااختاره أبو عبيدة (٥) ، وأعمّ بعض منها المعنى فحمله على كل من يخدم . غير أن أكثر الروايات تذهب الى أن أنهم الأسباط أو الأولاد والأسباط ، روي ذلك عن ابن عباس وعكرمة وابن زيد وزر بن حبيش والضحاك وقتادة . وقال قتادة خاصة : «حفدة : يمهنونك ويخدمونك من ولدك ؛ كرامة أكرمها الله بها» .وقال الضحاك : «بعض ولد الرجل يحفدونه

---

(١) المفردات ص ١٢٣ (حفد) .
(٢)و(٣) غريب الحديث ١٧٠/١ .
(٤) معاني القرآن ١١٠/٢ .
(٥) مجاز القرآن ٣٦٤/١ .

ويخدمونه . وكانت العرب إنما تخدمهم أولادهم الذكور» . وقال ابن عباس وعكرمة : «وولدك وولد ولدك» (١) .

وبذلك خصص أكثر الروايات دلالة واحدة ، أو أكثر للفظة . وسبب هذا الاختلاف في التأويل : صدق الحافد على كل واحد من هؤلاء الذين ذكروهم ، من حيث إن الحفد في اللغة يعني السرعة وا لخفة للخدمة .

وقد أخذ الطبري بعد إيراد هذه الروايات المتعددة المتباينة بالمعنى العام الدال على ذلك كله ، ممهداً له ببيان الدلالة الأصلية للفظة في كلام العرب فقال : «والحافد ، هو المتخفف في الخدمة والعمل ، والحفد : خفة العمل ، يقال : مرّ البعيرُ يحفد حفداناً : إذا مرَّ يُسرع في سيره» . ثم قال : «وهم ماأنعم الله به علينا من الأولاد والأختان والخدم والمماليك . وكل من يصلح للخدمة» معتمداً في ذلك على ظاهر التنزيل ،مبيناً أن لا حجة من ظاهر التنزيل أو حديث الرسول (ص) ، أو العقل ، تدل على أنه عنى بذلك نوعاً دون نوع منهم ، وبيّن أن لكل ماذكر من أقوال وجه من الصحة ومخرج في التأويل وإن كان الأولى بالصواب — عنده — مابيّنه من عموم المعنى (٢) .

والذي يبدولنا هو أن الحفدة في الآية الكريمة يراد بهم الأسباط . ودليلنا عليه سياق اللفظة . فقد ذكر سبحانه أولاً الزوجات ، والبنين ، ثم عطف عليهما الحفدة . وهذا النسق يشعر بارتباط وثيق بين مدلولات هذه الألفاظ وهو ارتباط الأسرة الواحدة . فالتدرج من الزوجات الى والبنين الى الحفدة مشعر بذلك كله . وليس ثمّ بعد البنين في أداء الخدمة إلا أبناؤهم ، وهم الأسباط .

ويضاف الى ذلك من دليل للسياق أنه عبرّ عن ذلك بالجعل من الأزواج . وهذا الجعل لايصلح إلا أن يكون أحفاداً .

---

(١) الطبري : جامع البيان ١٤/٩٦-٩٩ .
(٢) جامع البيان ٤/١٤٧ و ٤/١٤٣ وما بعدها.

على أننا لا نستبعد أن يكون الحفدة وصفاً للأبناء أنفسهم ، وليس نوعاً آخر من الأقربين . فهم - كما روي أيضاً - أبناء وحفدة . أو يكون ذلك وصفاً للأبناء وأبناء الأبناء كما دل على ذلك روايات ساقها الطبري عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصري وقتادة وغيرهم (١) . وإن كان الأرجح الأقوى لدينا أنهم - أي الحفدة - أبناء الأبناء ، وهم الأسباط ، كما قدّمنا .

ـ٦ـ

وفسّر الراغب (الدَّحْو) في قوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحهـا) [النازعات : ٣٥] بالإزالة ، فقال : «أي : أزالهـا عن مقرّها» ، وجعل منه قوله عزّ وجل : (يوم ترجف الأرض والجبال) [المزمل : ١٤] ، وعد (الدحو) في ذلك كله «من قولهم : دحا المطر الحصى من وجـه الأرض ، أي : جرفها ، ومرّ الفرس يدحو دحواً : إذا جرّ يده على وجـه الأرض ، فيدحو ترابها» (٢) .

ويبدو لنا وهم الراغب هنا خاصة ، مثيراً للعجب حقاً . فقد عد هذه الآية الواردة في بيان إنشاء الطبيعة : سمائها وأرضها في الخلقة الأولى ، عدها من مشاهد يوم القيامة ، بدليل الآية التي نظر لها بها ، إذ هي مما سيحدث في ذلك اليوم بلاريب ، من حيث إنها تتحدّث عن اضطراب الأرض والجبال عند حدوث الانقلاب الكوني الذي عبر عنه القرآن بالرجف . على حين ان آيـة دحو الأرض ليست في مثل هذا الموضوع والسياق ، وإنما هي في موضـوع وسياق بدء الخليقة . ذلك أنه سبحانه قال أولا في هذا السؤال الذي بكّت فيه المشركين ووبخهم : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بنها) [النازعات : ٢٧] ، مبيناً فيه سعة السماء الهائلة وشدة تماسكها ، ورفعه سبحانه سمت علوها ، واطلاق ليلها وإخراج نورها بالشمس ، وهو ضوء نهارها (٣) . فقال (رفع سمكهـا فسوها . واغطش ليلها وأخرج ضحاها) [النازعات ٢٨ - ٢٩] .

(١) نفس المصدر السابق
(٢) المفردات ص ١٦٧ (دحا) .
(٣) وازن بتفسير الفراء للآيات في معاني القرآن ٣/٢٣٣ ، والزجاج في معاني القرآن واعرابه ٥/٢٨٠ ، والطوسي : التبيان ١٠/٢٦٠ .

ثم انتقل بعد ذلك على وجه التقابل الى الأرض مبيناً خلقها وبسطها ، حيث لا يرى فيها الناظر انخفاضاً ولا ارتفاعاً ، كما قال : (لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً) [طه : ١٠٧] ، فقال : (والأرض بعد ذلك دحها) . فمعنى (دحاها) في كلام العرب وأصحاب المعجمات(١) : بسطها ؛ إذ يقال (٢) في اللغة دحـا يدحـا دحواً وكذلك ادحى يدحى دحيا (٣) . وهذا المعنى هو الملائم للسياق الذي هو بلاريب من اقوى القرائن الدلالية ؛ إذ فيه تذكير بنعمة الله على عبـاده ، ببسط الأرض ؛ تيسيراً لمعيشتهم عليها وسعيهم في مناكبها ، وتمكيناً لهم من إعمارها بالزرع والبناء والسكن ونحوها .

فبسط الأرض هنا إذن معدود من نعم الله بعد نعمة خلق السماء والارض ، وإنما فات الراغب إدراك هذا المعنى ؛ لانه ذهب به الوهم الى أن الاية ـ كمـا اسلفت ـ من مشاهد القيامة ، أي نهاية الحياة الدنيا ، مع انها في الواقع مـن مشاهد بدء الحياة الدنيا . ولو فطن الى السياق لما وقع في هذا الوهم .

على ان تفسير (الدحو) في الاية بـ (البسط) عليه اجماع السلف من المفسريـن كقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ) ، والسدي (ت ١٢٧ هـ) . وسفيـان الثوري (ت ١٦١ هـ) (٤) . كما ان عليه إجماع الخلف من اصحاب المعاني والغريب والتفسير ، كأبي عبيدة(٥) ، ومحمد بن عزيز السجستاني(٦) والطبري)(٧) والطوسي (٨) ، والزمخشري (٩) ، والطبرسي (١٠) ، والقرطبي (١١) ، والرازي(١٢) .

---

(١) و(٢) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ٣٢٧/٤ (دحا) واللسان ٢٧٥/٢٠ (دحا) .
(٣) التبيان ٢٦٠/١٠ .
(٤) الطبري : جامع البيان ٤٦/٣٠-٤٧ .
(٥) مجاز القرآن ٢٨٥/٢ .
(٦) غريب القرآن ص١٠٥ .
(٧) جامع البيان ٤٧/٣٠ .
(٨) التبيان في تفسير القرآن ٢٦٠/١٠ .
(٩) الكشاف ٣١٠/٣ .
(١٠) مجمع البيان ٢٩/٣٠ و ٣٠ .
(١١) الجامع لأحكام القرآن ٦٩٩٥/٨ . (١٢) التفسير الكبير ٤٧/٣١ .

كما أن أبا بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ)عرض لبيان ذلك ، حين عد بسط الأرض في هذه الاية غير مناقض لخلق السماء بعدها ، فقال : « وأما قوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحها) مع قوله : (ثم استوى الى السماء وهي دخان) ، فلاتناقض فيه ، لأن قوله (دحاها) معناه : بسطها ، وقد خلقها قبل ذلك ربوة ، وخلق السماء بعد ها ثم دحاها بعد خلق السماء » (١) .

فلم يفهم الباقلاني من الدحو في الاية غير البسط ، فضلا عن تأويله الاية بما يزيل شبهة الاختلاف أو التناقض في القرآن . وكان فخر الدين الرازي(٢) قد أشار الى معنى الازالة الذي رآه الراغب ، بصيغة التضعيف (قيل) ، وهذا يعني أنه كان لايراه وجهاً قوياً .

— ٧ —

وذكر الراغب ان التكبر على وجهين : أحدهما محمود : « وهو ان تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره » ، وبين أن على هذا وصف الله تعالى بالتكبر كقوله : (العزيز الجبار المتكبر) . والثاني : مذموم ، وهو ان يكون متكلفاً وذلك في وصف عامة الناس ، وأنه المقصود . بقوله تعالى : (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) .وبين أنه قد يكون في الإنسان محموداً ،وأن الذي «يدل على انه قد يصح ان يوصف الإنسان بذلك ولا يكون مذموماً قوله : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون بغير الحق) ، وبين انه جعل متكبرين بغير حق (٣) .

والذي نراه هو ان التكبر مذموم على أية حال ، اذا وصف به الانسان لأنه مما انفرد الله سبحانه بالوصف به ، كالجبار والمتعال ، فهو الرداء الذي اوعد من ينازع الله فيه .

---

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ١٤٩ .(٢).التفسير الكبير ٤٧/٣١ .
(٣)المفردات ص ٤٣٩ (كبر) .

والذي حمل الراغب على الاعتقاد بأن التكبر منه ماهو محمود ، قوله تعالى في آخر الاية (بغير الحق) ،فظن أن ذلك تمييز لهؤلاء المتكبرين من غيرهم ، بوصفهم انهم متكبرون بغير حق،وليسوا بحق.مع ان الأمر على غير ماذهب إليه إذ ان هذه العبارة ، إنما هي توكيد لعدم أحقية التكبر في الأرض ، كما قال تعالى في موضع آخر (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به) [المؤمنون : ١١٧] .

ولما كان من المسلّم به عدم جواز الشرك بالله، كانت عبارة(لابرهان له به) توكيداً لعدم صحة ومشروعية الدعوة لذلك الشرك ، وبياناً بأن الضالع فيها لامستند له في ذلك ولابرهان ، في اية حال من الأحوال .فهو على غرار قوله تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق) [الاعراف : ٣٣] إذ من المعلوم من بدائه الدين ان البغي لايكون بحق – على الحقيقة – أبداً ، بل الوارد في التنزيل مقاتلة الباغي حتى يفيء الى أمر الله (١) . وإنما قد يقابل الشر بالشر والسيئة بالسيئة في القرآن (٢)، والاعتداء، بالاعتداء (٣) ، على وجه الازدواج في الكلام ، وهو أسلوب معروف في بلاغة القرآن مبني على منطق العرب وأساليبهم .

أما قوله (بغير الحق) ، فليس مبنياً على مثل هذا الأسلوب ليحمل في معناه عليه ، بل هو تعبير حقيقي اريد به –كما أسلفنا– نفي قتلهم بحق في كل حال لافي تلك الحال .

وقد بين ذلك بوضوح علي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) ،وهو ان هذا التعبير وأشباهه يكون « على سبيل التأكيد والتغليظ والبيان عن ان المتكبر لايكون إلا بغير حق» . وضرب لذلك مثلا الايات التي ذكرناها انفاً ، والاية الكريمة : (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا) [البقرة : ٤١]

---

(١) كما ورد في سورة الحجرات : ٩.
(٢) الشورى : ٤٠ .
(٣) البقرة : ١٩٤ .

وقال « لم يرد النهي عن الثمن القليل دون الكثير ، بل أراد تأكيد القول بأن كل ثمن يؤخذ عنها يكون قليلا بالاضافة إليها ، ويكون المتعوض به مغبوناً منحوساً خاسر الصفقة» (١) .

وجلى ذلك في موضع آخر تعليقاً على : (ويقتلون النبيين بغير حق) في [آل عمران : ٢١] ، و (قتلهم الأنبياء بغير حق) ، ثم بين أن « للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة ومذهباً مشهوراً عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم . ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده . فمن ذلك قولهم : فلان لا يرجى خيره ، ليس يريدون ان فيه خيراً لايرجى ، وإنما غرضهم أنه لاخير عنده على وجه من الوجوه . ومثله : قلما رأيت مثل هذا الرجل ، وإنما يريدون أن مثله لم ير لاقليلا ولا كثيراً» ، واحتج له بقول امرىء القيس :

على لاحب لايهتدى بمناره إذا سامه العود الديافي جرجرا

وبين انه يصف طريقاً ، وأنه اراد بقوله : « لايهتدي بمناره » أنه لامنار له فيهتدى بها ، كما احتج ببيت لسويد بن أبي كاهل وفسر مافيه من شاهد على هذا المنوال ، وقال : « وعلى هذا يكون تأويل الايات التي وقع السؤال عنها ، لأنه تعالى قال : (وتقتلون النبيين بغير الحق) فدل على ان قتلهم لايكون إلا بغير حق» ، وأول بقية الايات مثل هذا التأويل (٢) . وهذا من رائع ودقيق مانبه عليه المرتضى في أماليه المشهورة من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ، مقرونة بشواهد من كلام العرب .

واحتمل الزمخشري — بناء على ان التكبر لله وحده — وجهين لقوله (بغير حق) : أحدهما : « ان يكون حالا بمعنى يتكبرون غير محقين ، لأن التكبر بالحق لله وحده ، والثاني : ان يكون صلة لفعل التكبر ، أي يتكبرون بماليس بحق ، وماهم عليه من دينهم » (٣) .

(١) أمالي المرتضى ٣١٤/١ — ٣١٥ .
(٢) امالي المرتضى ٢٢٨/١ — ٢٣١ .
(٣) الكشاف / ٥٧٧ .

أو بعبارة أخرى : يتكبرون بأشياء ليست أهلاً للتكبر فيها ؛ لأنها تستدعي الجهل ، كقولهم : (أرنا الله جهرة) [البقرة : ٥٥] ، وقولهم : (ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها...) [البقرة : ٦١] ، وغير ذلك من الطلبات التي تدل على استكبار بني إسرائيل بغير حق . فتكون الباء في (بغير حق) متعلقة بالفعل (يتكبرون) . وعلى أي من هذين التأويلين اللذين احتملهما الزمخشري ، لا يحتمل الكلام تكبرهم بحق ؛ إذ قد بينا أن التكبر صفة للباري وحده تعالى مجده ، فلا تصح إضافته إلى الانسان ، إلا على وجه الذم والقدح .

— ٨ —

وطن الراغب أن (الدهان) في قوله تعالى : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) [الرحمن : ٣٧] : «دردي الزيت» (١) ، متابعاً في ذلك أبا إسحق الزجاج (ت ٣١١هـ) الذي قال : «تتلون من الفزع تلوّن الدهان المختلفة . والدهان : جمع دُهن ، ودليل ذلك قوله : (يوم تكون السماء كالمهل) ، أي : كالزيت الذي أغلي » (٢) ، وتابعه عليه الزمخشري (٣) الذي عرف باعتماده على معاني القرآن وإعرابه للزجاج .

وهذا بعيد عما أريد به في الآية ، إذ أن دردي الزيت : ثفله وما تعكر منه ، وليس صافيه . وهو مع ذلك يسمى (المُهْل) ، ولا يسمى (الدهان) ،

---

(١) المفردات ص ١٧٥ (دهن)
(٢) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه ١٠١/٥ .
(٣) الكشاف ١٩٠/٣ .

قال تعالى : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) [الكهف : ٢٩] فالدهان إذن غير المهل . وقد ورد في دلالته أكثر من قول لدى أصحاب المعاني والمفسرين ، إلا أن مجملها يدل على أن (الدهان) هو الدهن ، وأن السماء وصفت بالحمرة في قوله : (فكانت وردة) ، وبالصفاء حين قال : (كالدهان) ، وليس دردي الزيت مثل هذه الصفة ، لأنه - كما أسلفنا - ثفل الزيت وعكره .

فالراغب وإن ذكر ذلك بصيغة التضعيف : (قيل) ، إلا أنه كأنما تبناه حين لم يذكر معنى غيره . مع أن هناك أقوالاً فيه ، من مثل الدهن الصافي ، والأديم الأحمر ، على حين ذهب أبو عبيدة الى أن (الدهان) : «جمع دُهن» وأن السماء يوم القيامة : «تمور كالدهن صافية» . والمعنى عنده : «وردة لونها كلون الورد ، وهو الجُلّ» (١) ، والى ذلك ذهب أبو بكر السجستاني ، إذ فسّر الدهان بأنه جمع دُهن (٢) ، ثم قال في موضع آخر (٣) «وردة كالدهان» : أي صارت كلون الورد ... ويقال معنى وردة : أي حمراء في لون الفرس ... والدهان : جمع دُهن ، أي : تمور كالدُهن صافية ، ويقال : الدهان : الأديم الاحمر» . وهو هنا يستمد في بعض ماأورده من أبي عبيدة ، وفي البعض الآخر من الفراء ، فقد ذكر الأخير أن الوردة الفرس تكون في الربيع مائلة الى الصفرة ، وفي الشتاء حمراء ، وبعد ذلك غبراء ، ثم قال : «فشبه تلوّن السماء بتلوّن الوردة من الخيل ، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه» . ثم ذكر بصيغة التضعيف : (قيل) : «أن الدهان : الأديم الأحمر» (٤) . وهذا الذي ذهب

---

(١) مجاز القرآن ٢/٢٤٥ .
(٢) غريب القرآن ص١٠٧ و ٢٥٣ .
(٣) غريب القرآن ص ٢٥٣ .
(٤) الفراء : معاني القرآن ١١٧/٣ .

إليه الفراء ذكره الزجاج من بعد بصيغة التضعيف (١) ، ذاهباً الى وجه آخر هو الزيت المغلي .

ويبدو أن الذي أوقع الراغب في هذا الوهم علمه بأن (المهل) هو (دردي الزيت) على أحد قولين (٢) . فحمل (الدهان) في الآية الكريمة على (المهل) أو ظنه هو ، فقال إنه دردي الزيت ، مع أن الدهان هو الصافي منه ، ولا يقال : دردي إلا لما عكر من الزيت ، وهو الثقيل ، كما قدمنا ، «أي : مايبقى أسفله». وما أورده ابن منظور (٣) من أن قوله تعالى: (يوم تكون السماء كالمهل) [المعارج : ٨] ، يراد به الزيت الذي قد أغلي ، لايصح مفسراً لتلك الآية ؛ لأن المقامين مختلفان ، والمعنيان فيهما تباين ، وإن اتفقا في الصورة العامة ، وهي عدم تماسك السماء ، إذ قد فسرّ (المُهل) في هذه الآية ، والآية الأخرى : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) [الكهف : ٢٩] بما يذاب من صفر ورصاص وفضة ، عن عبدالله بن مسعود (رض) (٤).

—٩—

وأوّل الراغب (الحطب) بقوله في امرأة أبي لهب : (وامرأته حمالة الحطب) [تبت : ٤٠] تأويلاً بعيداً ؛ إذ حمله على المجاز مؤولاً إياه بالنميمة فقال : «كناية عن النميمة» (٥) ، يريد ، أنها نمامة تنقل الكلام من شخص إلى آخر ، بقصد التفرقة بينهما وغرس العداوة ، كما قال سبحانه : (هماز مشاء بنميم) [القلم : ١١] ، واحتج لذلك ببعض الأقوال المتداولة لدى العرب كقولهم : حَطَبَ فلان بفلان ، أي : سعى به وفلان يَعْقِدُ بالحَطَبِ الجَزْلِ كنايةً عن ذلك أيضاً (٦) .

(١) معاني القرآن وإعرابه ١٠١/٥ .
(٢) والاخر أنه ذائب الفضة،وبه فسر ابن مسعود(رض) :(وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل)
(٣) لسان العرب ٢٠/١٧ (دهن) .
(٤) الطوسي : التبيان ٣٦/٧ ، والطبرسي : مجمع البيان ١٥١/١٥ .
(٥) المفردات ص ١٢٢ ، (حطب) .
(٦) المفردات ص ١٢٢ (حطب) .

فهذا التأويل – كما بينا آنفاً – بعيد ، إذ هو تجاف عن ظاهر اللفظ ، ونزوع الى التأويل بلا حجة ولا ضرورة . وهو مع ذلك معارض بالروايات ، إذ دلت الملابسات التي أحاطت بالنص ، وهي سياق الحال ، أو أسباب النزول ، كما يطلق عليها في الاصطلاح ، على أن (الحطب) كان حقيقة ، لاسعة ومجازاً ، فمع مالهذه الاسباب من قيمة في إلقاء ضوء على معاني الآي كما لاحظ ذلك قدامى ومعاصرون ، كقول الزركشي (١) (ت ٧٩٤هـ) بحق: «أخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ ، وليس كذلك بل له فوائد منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ... ومنها الوقوف على المعنى » ، وقول أمين الخولي: (٢) «هي دراسات ضرورية لتناول التفسير حتى ماينبغي مطلقاً أن يتقدم لدرس التفسير ، من لم ينل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة لما حول القرآن ، ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً ، مسترشداً بتلك الملابسات الهامة في الفهم» . نعم مع كل مالهذه الملابسات التي سميت أسباباً من أهمية في فهم الآي ، فإن الراغب لم يولها في فهم آية المسد (٣) ماتستحقه من عناية ، مع أنه روي عن عبدالله بن عباس (رض) ، والضحاك ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، أن امرأة أبي لهب كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي (ص) ، إذا خرج الى الصلاة (٤) .

ويكفي في هذه الرواية وجود ابن عباس ، إذ هو حبر الأمة ، وأحد أئمة التفسير من الصحابة ، حتى إن بعض المعاصرين (٥) لقبه بأب التفسير .

---

(١) البرهان ٢٢/١ وقد حكى عن أبي الفتح القشيري ان « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم الكتاب العزيز» .

(٢) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٣٠٩ .

(٣) وتسمى السورة ايضاً سورة (اللهب) ،وسورة (تبت) .

(٤) جامع البيان ٣٣٩/٣٠ .

(٥) مصطفى الصاوي الجويني ، في كتابه : مناهج في التفسير ص ٢٣ .

وبالمثل أخرج أبو المنذر عن عكرمة مثل ذلك الخبر [١] ، وأبو لهب هو عبد العزّى ، وامرأته : أمّ جميل العوراء بنت حرب [٢] . فلا نرى والحال هذه ضرورة للعدول عن ظاهر الآية الى التأويل أو الحمل على المجاز ، او على وجه التحديد على الكناية .

اما الرواية التي أثرت عن مجاهد وعكرمة وقتادة من أن ذلك مجاز ، فإن مجاهداً – على فضله وعلمه وتلمذته لابن عباس – كان يجتهد في التفسير ويتأوّل آياً من التنزيل ، بما يبعد به عن إجمـاع المفسرّيـن ، كتأويله مسخ اليهود قردة بأنه مسخ نفسي أخلاقي ، وليس مسخاً جسمياً ، وأنه من قبيل المثل ، كما قال : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) [الجمعة: ٥] ، مما حمل الطبري على الرد عليه ، لتركه الظاهر بلا حجة ولا ذريعة ، ولمخالفته المجمع عليه لدى الحجة من مفسري السلف [٣].

وعلى هذا ، فالمراد بتعبير (حمالة الحطب) في سورة المسد ، مادلّ عليه الظاهر من معنىً ، إذ كانت تلقي الحطب في طريق الرسول (ص) لتؤذيه ، ولنا في ذلك قرينتان :

إحداهما : خارجية ، وهي القرينة الحالية متمثلة بسبب نزول السورة ، الذي أشرنا إليه آنفاً .

والأخرى : داخلية متمثلة بالسياق ، فقد قال تعالى بعد ذلك «تخسيساً لها وتحقيراً» [٤] ، ومقابلة لعملها الرديء ، فـي إيذاء الرسول (ص) بحمل الحطب وربطه بحبل ليف : (في جيدها حبـل من مسد) ، أي : من ليف . فجاء الجزاء من جنس العمل . ،والقرائن السياقية من أهم مايعنى به المفسر

(١) السيوطي لباب النقول في اسباب النزول ص ٣٤٥ .
(٢) السيوطي : مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ص ١٢٢ .
(٣) الطبري : جامع البيان ١٧٢/٢ – ١٧٣ ، وينظر بحثنا : الطبري المفسر الناقد ، القى في ندوة الاحتفاء بذكرى الطبري في القاهرة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م ؛ ص ٩ .
(٤) التبيان في تفسير القرآن ٤٢٨/١٠ .

ويفهم به القرآن . وهو «أحسن طرق التفسير» ، كما نص على ذلك القرآنيون القدامى كأبن تيمية (١) والزركشي (٢) . وقد روي عن الإمام علي كرم الله وجهه مايدل على قيمة هذا المنهج التفسيري (٣) .

ويلحظ في هذا المقام أن من المعاصرين من مال الى هذا التأويل الذي ذهب إليه الراغب، فقد قال به الشيخ محمد عبده(٤).وتابعه عليه الشيخ رشيد الخطيب الموصلي(٥)(ت ١٩٧٩هـ)،الذي كان يحذو حذوه في كثير من مقولاته (٦) .

—١٠—

وفسرّ الراغب (سالمون) بـ(مستسلمون) (٧) في قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون) [القلم : ٤٢ — ٤٣] . مع أن المراد بهذه اللفظة : معافون من كل مايمنعهم من السجود والتعبد لله في حياتهم الدنيا ، من مرض وعاهة ونحوهما . وقد دل السياق على ذلك بوضوح لا لبس فيه ، فلما كانوا في الآخرة ، لم يستطيعوا السجود لما كانوا فيه من القهر والذل والخوف .

قال الطبري : « (وهم سالمون) : كانوا في الدنيا » . ثم روى بسنده بعد ذلك عن قتادة أنه قال : بلغني أنه يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود ، فيسجد المؤمنون ولا يستطيع ذلك المنافقون ، وأنه — في مايحسب— قال : تقسو ظهورهم ، ويكون سجود المؤمنين توبيخاً لهم ، إذ (قد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) (٨) .

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ١٧٥/٢ — ١٧٦ .
(٣) الرضي : نهج البلاغة بشرح محمد عبده ٢٣/٢ ، وينظر بحثنا :التفسير في نهج البلاغة مجلة رسالة الاسلام ص ٣٧ العددان ٣و ٤ لسنة ١٩٧١ .
(٤) تفسير جزء عم ، سورة المسد ص ١٣٣ .
(٥) اولى ماقيل ٢٦٩/٩ .
(٦) خالد محمد حماش : منهج رشيد الخطيب الموصليفي تفسير القرآن الكريم ، رسالة ماجستير مخطوطة ص ١٢٤ ومابعدها .
(٧) المفردات ص ٢٤٦ (سلم)
(٨) جامع البيان ٤٢/٢٩— ٤٣ .

ورواه الزجاج (١) عن عبدالله بن مسعود (رض)، وهو أنه قال: يخرّ المؤمنون سجداً لله، ولا يستطيع ذلك المنافقون، إذ تكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأنها السفافيد. وبين أنه قول أهل اللغة أيضاً (٢). ثم قال: «وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون، يعني: في الدنيا» (٣).

وقال الزمخشري (٤): «تحسراً لهم وتنديماً على مافرّطوا فيه، حين دُعوا الى السجود وهم سالمو الأصلاب والمفاصل، ممكنون، مزاحو العلل فيما تعبدوا به».

وقال الرازي (٥) (ت ٦٠٦هـ): «يعني: حين كانوا يدعون الى الصلوات بالأذان والإقامة، وكانوا سالمين قادرين على الصلاة».

وقال النسفي (٦): «وهم سالمون، أي: وهم أصحاء».

وبذلك يتبين لنا أن معنى (سالمون): أصحاء معافون، خلافاً لما ذهب إليه الراغب من أن المراد: (مستسلمون). فهو مع بعده عما ورد في الأثر، ودل عليه السياق، لايعين عليه الاشتقاق من حيث إن صيغة لفظة (سلم) لاتؤدي الى معنى صيغة (استسلم).

— ١١ —

وبالمثل أولّ الراغب لفظة (العائل) في قوله تعالى: (ووجدك عائلاً فأغنى) [الضحى: ٨] بالفقر والغنى النفسيين لا الماديين، فقال: «أي: أزال عنك فقر النفس، وجعل لك الغنى الأكبر (٧)».

وهذا التأويل، وإن كان في نفسه صحيحاً لاحتمال دلالة اللغة عليه عن طريق المجاز، إلا أنّ فيه تجافياً عن ظاهر النص بلا ضرورة، ولا قرينة

(١) و (٢) معاني القرآن واعرابه ٢١٠/٥.
(٣) نفسه ٢١١/٥.
(٤) الكشاف ٢٦١/١.
(٥) مفاتيح الغيب ٩٦/٣.
(٦) تفسير النسفي.
(٧) المفردات ص ٣٦٧ (عيل).

إذ ليس في الآية مايدل عليه ، ولا في الروايات أو أقوال أهل اللغة والمعاني والتفسير مايستند إليه . ذلك أن الذي يتبين للدارس من الرجوع الى كتب التفسير واللغة أن (العائل) هنا : الفقير فقراً مادياً ، وأن الإغناء يراد به معناه المادي الظاهر ،لا المعنوي الباطن.إلا مايفهم من كلام الفراء،من أن النبي (ص) حين كان يتيماً في حجر أبي طالب جعل الله له مأوىً ، ثم أغناه بما آتاه ، يقول : «ولم يك غنىً عن كثرة مال ، ولكنّ الله أغناه بما آتاه» .

فكأنّ الفقر في فهم الفراء معنوي ، فأغناه الله سبحانه بالغنى المعنوي ، وهو النبوة التي لاغنى فوقها لبشر .

وإذا رجعنا الى المفسرين من السلف والخلف ، ألفيناهم يجمعون على مابيناه آنفاً ، فروي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) أنه قال : «ووجدك عائلاً فقيراً وأنه وجدها في مصحف عبدالله بن عباس (رض) : (ووجدك عديماً فآوى) (١) .

فعديم تعني : الفقير ، من قولهم : عَدِم الرجلُ ، إذا افتقرَ ، فهو مُعدِم (٢) .

وقال أبو عبيدة (٣) : «عائلاً : ذا فقر» ، واحتج له بقول الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناهُ وما يدري الغنيّ متى يُعيلَ

ثم قال : «أي : يفتقر» ، والى هذا المعنى ذهب الطبري ، وبين أنه مأخوذ من «عال فلان يعيل عيلة ، وذلك إذا افتقر» ، وذكر البيت الذي أنشده أبو عبيدة .

ولم يفسّر الأخفش والزجاج (العائل) و (أغنى) ، وكأنهما وجدا أنها لاتحتاج الى بيان ، بعد أن حملاها على معناها الظاهر المتبادر التي سبقهما

---

(١) و (٢) الفراء : معاني القرآن ٢٧٤/٣ .
(٣) مجاز القرآن : ٣٠٢/٢ .

إليه أبو عبيدة . وكذلك نهج محمد بن عزيز السجستاني (١) ، إلا أنه فسر (العيلة) في قوله تعالى: (وإن خفتم عيلة) [التوبة : ٢٨] ، بالفقر أيضاً . وهو مادلّ عليه سياق اللفظة بوضوح ، إذ العيلة من الفقر ، يقال في اللغة: «عال يعيل عيلاً وعَيلة وعُيولاً ... افتقر» (٢) .

وقال أبو جعفر الطوسي (٣) : «العائل : الفقير» ، وقال الزمخشري (٤) «عائلاً فقيراً ... فأغناك بمال خديجة ، أو بما أفاء عليك من الغنائم» ، وبه قال النسفي (٥) .

وفهم اللغويون من «(العائل) في الآية هذه الدلالة الظاهرة ، أي المادية لا المعنوية ، فقال ابن منظور (٦) : «المُعيل : الفقير ، وكذلك العائل ، قال تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) ، وفي الحديث : إن الله يبغض العائل المختال. العائل : الفقير» . وأورد بعد ذلك أحاديث أخرى تعضد هذه الدلالة .

أما السياق فقد دلّ على ماذهبنا إليه ، وعلى مارآه المفسرون واللغويون .

فقد قال سبحانه (عائلاً فأغنى) ، وبعده قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) [الضحى : ١٠] . ومعلوم أن السائل محوج معوز مادياً . ويقوي هذا المعنى أن النبي (ص) لم يكن له مثل هذا الفقر الذي ذهب إليه الراغب ، وهو الفقر النفسي . لاقبل النبوة ولا بعدها ، إذ كان في أنفس موضع من قومه وأعزّه . ويعضد ذلك قراءة من قرأ الآية ١٢٨ من سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) بفتح فاء (أنفَس) في الشاذة ، بدلاً من ضمها في المشهورة (٧) . قال ابن جني (٨) (ت ٣٩٢هـ) : «من خياركم ، ومنه

(١) غريب القرآن ص ١٦٨ .
(٢) اللسان ١٣/٥١٧ (عيل) ، والقاموس ٤/٢٣ (عال) ، والطوسي : التبيان ١٠/٣٦٩
(٣) التبيان ١٠/٣٦٥ .
(٤) الكشاف ٣/٣٤٥ - ٣٤٦ .
(٥) تفسير النسفي ٤/٣٦٤ .
(٦) اللسان ١٣/٥١٦ - ٥١٧ .
(٧) و (٨) المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشواذ والإيضاح عنها ١/٣٠٦ .

قولهم : هذا أنفَسُ المتاع ، أي : أجوده وخياره ، واشتقه من النفس ، وهي أشرف مافي الإنسان» .

ــ١٣ــ

وحمل الراغب ابيضاض الوجوه واسودادها في قوله تعالى : (يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه) [آل عمران : ١٠٦] ، على معنىً مجازي هو المسرة ، والحزن ، خلافاً لإجماع المفسرين من أن المراد مايدل عليه ظاهر اللفظين ، أي أنه حقيقة في بياض الوجوه وسوادها. وآية ذلك روايات مأثورة عن السلف من الصحابة والتابعين ، كأبيّ بن كعب ، وقتادة بن دعامة السدوسي (١) ، والحسن البصري (٢) ، والزجاج ، وأبي علي الجبائي (ت ٣٠٣هـ) وغيرهم . وإنما اختلفوا في من يبيض وجهه ويسودّ ، فقيل : هم المنافقون ، وقيل هم المرتدون ، وقيل الكفار من أهل الكتاب ، وقيل : جميع الكفار (٣) ، وقيل أهل البدع من هذه الأمة (٤) . وقيل : الخوارج (٥) .

وقد استبعد الطوسي أن يكون التعبير مجازياً ، وفرق بينه وبين الاسوداد في سورة النحل ، مبيناً أن قوله (يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه) لايجري مجرى قوله : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً) ، لأن ذلك إنما ذكر على وجه المثل ، كأنه قال : حال الذي يبشر بالأنثى بمنزلة حال من اسودّ وجهه ، لما حدث فيه من التغير ، وإن لم يسودّ في الحقيقة . وليس في هذه الآية مايدلنا على العدول عن ظاهرها (٦) .

وكأنه يرد هنا عن طريق التلميح والإشارة ، على ماذهب إليه الراغب من عدول الى المجاز وحمل اللفظ على غير ظاهره .

---

(١) الطبري : جامع البيان ٣٩/٤ ومابعدها .
(٢) التبيان ٥٥١/٢ .
(٣) ينظر المصدران السابقان أنفسهما .
(٤) الطبرسي : مجمع البيان ١٦٢/٤ .
(٥) جامع البيان ٤٠/٤ .
(٦) التبيان ٥٥٢/٢ .

على أن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) كان قد نبّه على ذلك بصريح العبارة ، ناقلاً كلام الراغب من دون أن يذكر اسمه فقال : «وقال بعضهم : المراد بابيضاض الوجوه : إشراقها وإسفارها بالسرور ، ونيل البغية والظفر بالمنية ، والاستبشار بما يصير إليه من الثواب ، كقوله : (وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة) ، والمراد باسودادها : ظهور أثر الحزن عليها ، لما يصير إليه من العقاب ، كقوله : (وجوه يومئذ باسرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ؛ (١) .

وقد علق عليه مستبعداً إياه بقوله : «وفي هذا القول عدول عن حقيقة اللفظ من غير ضرورة ، والأصح الأول» (٢) . وهو مانراه أيضاً ، كما ذكرنا سالفاً .

على أنّا مع ذلك لا نعلم أحداً من المفسرين واللغويين قد ذهب الى تأويل الراغب ، إلا ماحكاه فخرالدين الرازي (٣) (ت٦٠٦هـ) في تفسيره ، من أن أبا مسلم الأصفهاني المفسر المعتزلي الكبير (ت ٣٢٢هـ) كان يذهب الى ذلك ، فيحمل ابيضاض الوجوه واسودادها على المجاز دون الحقيقة . وليس ذلك ببعيد عن أبي مسلم ؛ إذ كان يُغرب أحياناً ، فينزع بتأويل الآية بعيداً عن مدلول ظاهرها ، وربما استجيد ذلك منه واستملح ، كما هو بيّن من تعليق الطوسي على طائفة من أقواله (٤) ، وربما أُخذ ذلك عليه ، على نحو مانرى من تعليق الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) على بعض تأويلاته ، إذ وصفه فيه بالتكلف والاعتساف (٥) .

وبعد ، فهذه طائفة من أوهام الراغب الأصفهاني في معجمه القيم الشهير : (مفردات ألفاظ القرآن) ، عمدنا الى التنبيه عليها ، وبيان الوجوه التي نراها

---

(١) و (٢) مجمع البيان ١٦٣/٤ .

(٣) مفاتيح الغيب ١٧٠/٨ ، وينظر : منهج الراغب في كتابه : مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٠ .

(٤) التبيان ٥٩٢/٢ . وينظر : كاصد الزيدي : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ص ١٠٠ .

(٥) الرضي : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ٢٤٣/٥ .

بديلاً عنها . وهي مع ذلك لا تقلل من قيمة هذا المعجم اللغوي القيّم المتميز إذ لا يخلو عمل علمي من النقص ، ولاسيما في مثل هذا الجهد الكبير الذي بذله مصنفه الجليل رحمه الله رحمة واسعة ، وسدّد خطانا لخدمة كتابه الكريم ، إنه سميع مجيب .

– المصادر والمراجع –

١– **القرآن الكريم** :

٢ – **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، محمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب – القاهرة .

٣ – الباقلاني ، ابو بكر محمد بن الطيب : **نكت الانتصار لنقل القرآن** ، بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، دار بورسعيد للطباعة والنشر – الاسكندرية ١٩٧١م .

٤ – البرزنجي ، اكرم احمد : **ألفاظ العبادات في القرآن الكريم** دراسة دلالية ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الآداب – جامعة الموصل ١٩٩٠م .

٥ –**ابن تيمية** ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم : مقدمة **في أصول التفسير** ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، ط٢ ، دار القرآن الكريم – الكويت ١٩٧٢م .

٦ – **ابن جني** ، ابو الفتح عثمان : **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها** ، بتحقيق علي النجدي ناصف ورفيقه – القاهرة ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .

٧ – **الجويني** ، الدكتور مصطفى الصاوي : **مناهج في التفسير** ، شركة الإسكندرية للطباعة – الاسكندرية ١٩٧١م .

٨ – حسين محمد مخلوف ، **كلمات القرآن ، تفسير وبيان** ، ط٨ ، مطبعة الحلبي – مصر ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م .

٩ – **الخطيب** ، رشيد الموصلي : **تفسير القرآن العظيم المسمّى أولى ماقيل** ، مؤسسة دار الكتب – الموصل ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

١٠ – الخولي ، امين : **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب** ، ط١ ، دار المعرفة – القاهرة ١٩٦١م .
١١ – الرازي ، فخرالدين محمد بن عمر : **التفسير الكبير** ، ط ١ مطبعة عبدالرحمن محمد – القاهرة – بدون تاريخ .
١٢ – الراغب ، ابو القاسم الحسين بن محمد : **مفردات ألفاظ القرآن** ، بتحقيق نديم مرعشلي ، مطبعة التقدم العربي – بيروت ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .
١٣ – رافع عبدالله مالو : **منهج الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن** ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة الموصل ١٩٨٩م .
١٤ – الرضي ، الشريف محمد بن الحسين : **شرح نهج البلاغة** ، بشرح محمد عبده ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة الاستقامة – القاهرة – بدون تاريخ .
١٥ – الراوندي ، قطب الدين سعيد بن هبةالله : **فقه القرآن** ، مطبعة الآداب – النجف الأشرف ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .
١٦ – الزجاج ، ابو اسحق ابراهيم بن السري : **معاني القرآن وإعرابه** ، بتحقيق الدكتور عبدالجليل عبده شلبي – القاهرة ١٩٧٣ وما بعدها .
١٧ – الزركشي ، بدرالدين محمد بن عبدالله : **البرهان في علوم القرآن** ، بتحقيق ابي الفضل ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٣٧٦هـ .
١٨ – الزمخشري : جارالله محمود بن عمر : **الكشاف عن حقائق التنزيل** ، مطبعة البابي – القاهرة ١٩٦٧هـ – ١٩٤٨م .
١٩ – الزيدي ، الدكتور كاصد ياسر : **الطبري المفسّر الناقد** ، بحث القي في (ندوة إحياء ذكرى الطبري) في القاهرة عام ١٩٨٩م .

٢٠ – الزيدي ، الدكتور كاصد ياسر : **منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم** ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٧٦م .

٢١ – السجستاني ، ابو بكر محمد بن عزيز : **غريب القرآن** ، مطبعة حجازي – القاهرة ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢م .

٢٢ – السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمن : **لباب النقول في أسباب النزول** ، مطبعة البابي – القاهرة ١٩٥٤م .

٢٣ – السيوطي ، جلال‌الدين : **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن** ، ضبطه وعلق عليه الدكتور مصطفى اديب البنا ، مؤسسة علوم القرآن – دمشق ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٢٤ – الطبرسي ، ابو علي الفضل بن الحسن : **مجمع البيان في تفسير القرآن** ، ط٢ ، دار الفكر – بيروت ١٣٨٠هـ – ١٩٦٦م .

٢٥ – الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير : **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، طبعة البابي الثانية – القاهرة ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م .

٢٦ – الطوسي ، ابو جعفر محمد بن الحسن : **التبيان في تفسير القرآن الكريم** ، المطبعة العلمية – النجف ١٣٦٧هـ – ١٩٥٧م .

٢٧ – ابو عبيدة ، معمر بن المثنى : **مجاز القرآن** ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، ط ٢ ، دار الفكر – القاهرة ١٩٧٠م .

٢٨ – الفيروزآبادي ، مجدالدين محمد بن يعقوب : **القاموس المحيط والقاموس الوسيط** ، دار الفكر – القاهرة – بدون تاريخ .

٢٩ – القرطبي ، ابو عبدالله محمد بن احمد الأنصاري : **الجامع لأحكام القرآن** ، كتاب الشعب – القاهرة – بدون تاريخ .

٣٠ – محمد عبده ، **تفسير جزء عمّ** ، دار مطابع الشعب – القاهرة – بدون تاريخ .

٣١ ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٨هـ ، مطابع كوستاتسوماس ـ القاهرة ، بدون تاريخ .

٣٢ ـ المرتضى ، الشريف علي بن الحسين : **أمالي المرتضى (الدرر والغرر)**، تحقيق ابي الفضل ، مطبعة البابي ـ القاهرة ١٩٥٤م .

٣٣ ـ مقاتل بن سليمان : **الأشباه والنظائر في القرآن الكريم** ، تحقيق الدكتور عبدالله محمود شحاته . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

٣٤ ـ النسفي ، ابو البركات عبدالله بن احمد : **تفسير النسفي** ، مطبعة البابي ـ القاهرة ـ لم تذكر السنة .

٣٥ ـ الواحدي ، ابوالحسن علي بن احمد : **أسباب النزول**، ط٢، مطبعة البابي ـ القاهرة ١٩٦٨م .

الشاعرية في تصور ابن طباطبا من خلال عيار الشعر

الدكتور
عمر محمد الطالب
كلية الآداب / جامعة الموصل

الكتاب ومنهجه

وردت لفظة عيار في لسان العرب ، وتعني لغوياً اوزان وقدر الشيء بالشيء ، ووزنه به «وعيّر الدينار : وازن به آخر ، وعيّر الميزان والمكيال وعاورهما وعايرهما وعاير بينهما معايرة وعياراً: قدرهما ونظر ما بينهما... والمعيار من المكيال ، ما عير ، قال الليث : العيار ما عيرت به المكاييل ، تقول عيرته به اي سويته ، وهو العيار والمعيار .. وعيرت الدنانير ، هو أن تلقي ديناراً فتوازن به ديناراً وكذلك عيرت تعييراً اذا وازنت واحداً واحداً ، يقال هذا في الكيل» (١) .

وقد استعملها ابن طباطبا استعمالا مجازياً متعلقاً بالشعر ، واورده مرتين، عنواناً للكتاب ، ومرة في متن الكتاب حيث قال : «وعيار الشعر ، ان يورد على الفهم الثاقب ، فما قبله واصطفاه فهو واف ، وما مجه ونفاه فهو ناقص» (ص ٢٠) ، ويعني به مقايسة جودة الشعر .

ويمكن حصر الغاية التي سعى اليها ابن طباطبا من تأليف كتابه بما يأتي :-

١ - تعليم الشاعر اصول صنعة الشعر ، مستغلا بذلك تجربته الذاتية في قرضه : «فهمت - احاطك الله - ما سألت ان اصفه لك من الشعر ، والسبب الذي يتوصل به إلى نظمه ،وتقريب ذلك على فهمك، والتأتي ، لتيسير ما عسر منه عليك ، وانا مبين ما سألت عنه ، وفاتح ما يستغلق عليك منه» (ص ٩) فالكتاب تعليمي بالدرجة الأولى لأنه موجه إلى الشعراء الناشئين. ويعيد هذا المعنى في مكان آخر من الكتاب (ص١٣).

٢ - لاحظ ان الشعر في عصره اصبح يعاني محنة تمثلت في ضيق المجال امام المحدثين ، لأن المتقدمين قد سبقوهم في مجالات كثيرة : «والمحنة

(١) لسان العرب / مادة عير

على شعراء زماننا في اشعارهم اشد منها على ما كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح (ص ١٥) . لهذا حاول توجيههم إلى الطريقة المثلى التي يمكن بواسطتها الخروج من هذا المأزق .

٣ – تشي طبيعة العنوان بأن صاحبه جعله ميزاناً نقدياً ومعياراً لتمييز صحيح الشعر من رديئه ، فقد اعتمد القواعد التي صاغها ، حين وضعها في إحدى كفتي الميزان ووضع الشعر في الكفة الاخرى لمعرفة قيمته فاذا استوفى الشعر هذه القواعد، اعتدل عياره، وإن نقص شيء منها داخله الخلل والاضطراب فهي مبدأ السببية في قبول صائب الشعر وتحديد قيمته .

وقد بدأ ابن طباطبا منهجه في كتابه ، بتعريف الشعر وتحديد ادواته الموصلة إلى نظمه ، ثم انطلق إلى الحديث عن كيفية تشكيل العمل الشعري ، فقاده ذلك إلى تناول الانماط والمعاني ، فعالجها معالجة قادته إلى الحديث عن محنة الشاعر ، وما دام قد سبق الشاعر إلى كل شعر جميل فلا مناص من الحديث عن الشعر الجاهلي والاسلامي ، والابانة عن الاساس الذي ينبني عليه ، فتكلم عن منهجيهما في التشبيه ، وعن المعاني الغامضة التي لا تعرف دلالتها الا سماعاً ، والمثل الاخلاقية التي تضمنتها اشعار العرب ، وبعد كل ذلك حدد عياراً للشعر ، والأساس الذي يتم قبوله فيه ، ويعد هذا الحديث بمثابة مقدمة نظرية بسط فيها تصوره لماهية الشعر وادواته ومهمته ، وهو لا يعد إضطراباً في المنهج وتكراراً في الموضوعات كما ذهب اليه بعض الباحثين[١] ويتحدث ابن طباطبا في النصف الثاني من كتابه عن أمثلة ساقها ليبين فيها تطبيقات لآرائه ، فمثل لضروب التشبيه ، ومثل لتمام المعنى الذي سبق وبسطه الشاعر في أول قصيدته .وقسم الشعر على أساس اللفظ والمعنى والصياغـــة

(١) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ص ٢٠١ . تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٣٣

والقافية ، ومثل للاشعار المحكمة وأضدادها ومثل للمعاني التي لاتفهم الا سماعاً ، وللأبيات ذات الألفاظ الضعيفة النهج،القبيحة العبارة. ومثل للأبيات ذات المعاني المبالغ فيها ، والابيات المحكمة التي سلمت من كل عيب ، والمتكلفة النسج، قلقة القافية، واعطى امثلة للشعر ذي المعاني المطروقة، كما مثل للاشعار الحسنة اللفظ الواهية المعنى وللأشعار التي لم توافق معانيها السياق التي وردت فيه ، وللشعر الحكيم المعنى الرث الصياغة والذي لم يوافق سياقه الى آخر ذلك .ووضع خلاصة لما كان أجمله من قبل ،وتحدث عن مطالع لاشعار وأعطى تصوره له ومثل لذلك ، وتحدث كذلك عن مراجعة الشاعر لشعره كي يخلو من الخلل . وختم كتابه بالحديث عن القافية وتصاريفها وحدودها . وقد خصص القسم الثاني من الكتاب للتمثيل والاستشهاد، ونظر الى القصيدة باعتبارها بنية موحدة، ثم انصرف الى اجزائها ، ويأتي بعرض تصوره ثم يعقبه بالشاهد أو يأتي بالنماذج ثنائيات متقابلة (ص ٧١ — ٩٢) واعتمد على منهج التقابل بين النقيضين ، واذا كان الترابط المنطقي يتحكم في مقدمته النظرية ، حيث يقود الموضوع الى موضوع آخر ، فان ذلك لم ينفعه في تبويب وتنسيق تمثيلاته واستشهاداته . فقد التزم ذوقه الفني الخالص ومما يبرر التكرار الذي وقع فيه في هذا القسم كونه ينسجم مع الوظيفة التي من أجلها تم تصنيف الكتاب .

ويتضح ان الكتاب في النقد النظري الذي سعى الى التأصيل والتنظير ،ولم ينصرف الى القضايا الجزئية الا من أجل الاستشهاد المدلل على تنظيره ورؤيته للصناعة الشعرية . وبصفة تجعل القسم لايندرج الا في إطار كلي يحتويه ويتجاوزه لينظر الى القصيدة باعتبارها وحدة متكاملة (١) . وقد جاء نقد ابن طباطبا نقداً موضوعياً يستند «اساساً الى موهبة تفهم وتتذوق جيداً،وهذا

(١) ينظر / فصول في النقد العربي وقضاياه ص ٣٣ ، مفهوم الشعر ص ٩ —١٠

الذوق يعتمد على الموهبة الفنية الدينية وعلى الاطلاع الواسع على مأثور الأدب والنقد الأدبي كذلك ؛ بالاضافة الى قوة الملاحظة ومعرفة الفروق الدقيقة بين الاساليب التعبيرية المختلفة بغية التغيير والتحليل والتقويم والتقدير» (١)

ويحتاج الناقد الى الاحساس بالتغيير والتطور في الذوق العام أو في طبيعة الفن الشعري أو في المقاييس الاخلاقية التي يستند اليها الشعر أو في العادات والتقاليد التي يصورها أو في المستوى الثقافي ونوع الثقافة فترة إثر أخرى» (٢).
هذا بالاضافة الى وجود الناقد المتخصص والأثر النقدي المدون الذي يسمح بالتأمل والتفحص واعمال الفكر من اجل التحليل والتعليل والمقارنة بغية الاقناع العقلي لا العاطفي ،وذلك عن طريق وضع مقاييس ثابتة ومحددة تجعل الحكم على النص حكماً موضوعياً .

ان ابن طباطبا شاعر وناقد على السواء وكتابه كتاب نقد نظري وتناول فن الشعر على هذا الاساس محدداً ماهيته وأداته ومهمته من اجل فرض معين ، ولأجل حاجة معينة هي التي حددناها آنفاً ، وهو ليس منفصلا عن جوهر العمل الفني ، وليس مجرد واصف ،وإنه يلتزم الحياد في نقده ولكنه يشارك بتوجيهه وتقويمه في العمل الابداعي للشاعر . ويجمع اسلوب ابن طباطبا في هذا الكتاب بين قوة البيان ورصانة الاسلوب وقوة الحجة والبرهان ، وحسن خروجه من فكرة الى اخرى ، وقد ترجع هذه الميزة الى شاعريته والى دعوته لحسن التخلص في القصيد،وطغيان الطابع الشعري على كتابته النثرية واستعماله لأدوات التشبيه وأوجه الشبه حين يريد المقارنة بين الأشياء ، واستعماله بكثرة الافعال التي تدل على الحركة والاستمرار ،والجمل الشرطية والأمرية و اسلوبه متين السبك ينم عن ثروة لغوية ومحفوظ كبير من اشعار العرب وامثالهم وكلام بلغائهم .

---
(١) النقد الأدبي والبلاغي عند اللغويين العرب ص ٢٢
(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٤

مصطلح الشاعرية : لابد من تحديد مصطلح الشاعرية والبحث عن مفهومها والكشف عن مقاييسها التي شكلته داخل الفكر النقدي لدى ابن طباطبا وهو أمر تفرضه المنهجية والدقة العلمية ، ولاشك أن أي ناقد ادبي مهما كان اتجاهه النقدي ، يستحضر في ذهنه صورة الشاعر المجيد الذي يتمتع بقدر كبير من الشاعرية ، فقد يكون هذا الشاعر نموذجاً مثالياً لاوجود له في واقع الناقد الراهن ومن ثم فان عمل الناقد ، يتجه في الاساس الى وضع المقاييس الكفيلة باخراج ذلك النمط من الشعراء من بطن الغيب . وكمثال على ذلك المقاييس التي وضعها قدامة بن جعفر في نقد الشعر لذا استشهد قدامة بنماذج شعرية لشعراء كثر من أجل تطبيق مقاييسه ، والالكان اكتفى بشاعر معين توفرت فيه جميع هذه المقاييس ، وعلى هذا الاساس ندعي : ان نموذج الشاعر المجيد الذي توافرت فيه شروط ومقاييس الجودة يبقى مجرد نموذج ، ينتظر من يخرجه الى حيز الوجود الفعلي . بنفس القدر الذي يبقى فيه هو القمة السامقة ، والاساس الذي تقاس الشعرية عليه ، فنقول هذا شعر جيد لانه يقترب منه ، أو تقول هذا شعر رديء لانه يبتعد عنه ، وهذا متوسط لتساوي اسباب الجودة والرداءة فيه(١) .

وقد يكون هذا الشاعر موجودا فيفضله الناقد . لأن اتجاهه النقدي يتطابق مع ابداع هذا الشاعر بمعنى اذ شعره تحصر فيه جميع المواصفات النقدية التي يتبناها الناقد ويرى فيها مقاييس الشاعرية الحقة ، فالامدي مثلا يفضل في موازنته البحتري على أبي تمام ، لأن الأخير لم تتوفر فيه الشروط التي يجدها الامدي هي مقياس الشعرية .

وقد خاض ابن طباطبا : بوصفه شاعراً اولا : تجربة الشعر بكل اعبائها وواجباتها ، وبوصفه ثانياً ناقداً للشعر الجيد ومميزاته ، وبوصفه ثالثاً معلماً لقول الشعر وقواعد الصفة ، وبهذه المواصفات الثلاثة يحدد الشاعر المجيد ، المثال والنموذج اذ تحققت فيه المقاييس والتقنيات التي يبسطها والتي اذا تعصت عليه

(١) نقد الشعر ص ١٨ - ١٩

«لم يكمل مايتكلفه منه ،وبأن الخلل فيما ينظمه لحقته العيوب من كل جهة » (ص١٠)

ويجدر بنا ان نسأل : هل صدر تنظيره عن تجربته الذاتية ، أم ان تلك المقاييس التي ذكرها في كتابه لم تتحقق فيه ؟ وبالتالي يجيء تنظيره محاولة منه لدعوة نفسه اولا ، والشعراء ثانياً، الى تقمص ذلك النموذج؟ . قد يكون هذا الجواب أو ذاك ولكن أي جواب يظل بعيداً عن ملامسة الحقيقة طالماً اننا لم نـدرس شعر ابن طباطبا في ضوء معاييره .

هذا الشعر الجيد ، الذي يتصوره ابن طباطبا ، والذي توفرت فيه كـل مقاييس الجودة هو مانصطلح عليه بدءاً بالشاعرية ، وانها الجودة في الشعر والاتقان في صناعته التي لايمكن ان تتحقق الابإحترام شروط معينة ،ومقاييس خاصة ، مما يدلل على فاعلية الشاعر في العمل الشعري ، خاصة وان ابن طباطبا ينظر الى الشعر في صورته المكتملة ، بحيث انه ينطلق من الكل (القصيدة) ليصل الى عناصرها الجزئية التي تنتظمها لتعانق بناءها الكلي (ص ١٠ ، ١١، ١٢٩) ومن خلال هذا التفاعل بين الشاعر والشعر، وبين هذه الجـزئيـات ، ممتزجاً كل ذلك من أدوات الشعر وتقنياته تتحدد الشاعرية ، عبر مجموعة المقاييس الدقيقة والمحددة ، والتي يجب الا تتوفر في البيت او المطلع او اللفظ او المعنى او الصياغة ،بل في العمل الشعري باعتباره وحدة ، وبالتالي يعد غيابها شرطاً موضوعياً في نفي صفة الشاعرية عن صاحبها ، ونفي هذه الصفة لايعني انه ليس شاعر ا بل هو شاعر قد قصرت به ادواته فعليه ان يستكملها .

تعريف ابن طباطبا للشعر : ان البحث عن مكونات الشعر عند ابن طباطبا سيردنا الى تعريفه للشعر ، فكيف عرفه :« الشعر — اسعدك الله — كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم ، بما خص به من النظـم الذي ان عدل عن جهته مجته الاسماع وفسد على الذوق ، ونظمه معلوم محدود من صح طبعه وذوقه ولم يحتج الى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي

هي ميزانه ، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمــه بمعرفة العروض والحذق به ، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لاتكلف معه » (ص ٩) فما العناصر المعتمدة في التعريف ؟

يحدد ابن طباطبا ، **الشعر** على اساس الانتظام الخارجي للكلمات ، واذا لم يشر الى القافية فهي منتظمة فيه[١] فالشعر كلام موزون يشتمل على قافية ، ومعرفة العروض ليست لازمة للشاعر الصحيح الطبع والذوق ، وهذا لايعني غياب الوزن في الشعر بل ان حضوره ضروري ومؤكد .

إن مصطلح النظم عند ابن طباطبا يعني التأليف والتركيب بين العناصــر الشعرية ويتضح ذلك من قوله : « فاذا أراد الشاعر بناء قصيدة فخص المعنــى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا وأعد له مايلبسه اياه من الالفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه والوزن الذي سيسلس القول فيه » (ص١٧) ، ويتضح في هذا النص عناصر الشعر الاربعة : المعنى واللفظ والوزن والقافية بالاضافة الى البناء والتأليف الذي يضم العناصر في مسلك جامع .

ادوات الشعر : ينصب اهتمام ابن طباطبا على الاطار الشعري للشاعر أو المجال الثقافي الذي يعد بمثابة الاساس والوسيط الى النظم غير المتكلف الخالي من الخلل . (ص٨) . ويراد بمصطلح الاطار الشعري العلوم والمعارف التي يجب على الشاعر معرفتها عن طريق الاطلاع على الشعراء السابقين وسعــة الاطلاع واكتساب ثقافة منوعة .لكي يأتي عمله الشعري مصقولاً ومحككاً .

ويشي هذا بان الابداع الشعري في خروجه من رحم التجربة الشعرية يمــر بمراحل تصبغ وتتلون وتتكيف بأسس مكتسبة تشكل إطاراً يتحرك داخلــه الشاعر بحيث أن الابداع خارج هذا الاطار يبدو مستحيلاً .

---

(١) ينظر / مفهوم الشعر ص ٢٥

إن كون هذا المصطلح معاصراً لايعني مطلقاً بأن الناقد العربي كان بمعزل عن التفكير في مضمونه ومحتواه الفكري بل انهم تناولوا ذلك تحت مفهوم أدوات الشاعر. وقد حصر ابن طباطبا هذه الادوات في خمسة أقسام :

(١) التوسع في علم اللغة .
(٢) البراعة في فهم الاعراب .
(٣) الرواية لفنون الآداب .
(٤) المعرفة بايام الناس وانسابهم ومناقبهم ومثالبهم .
(٥) الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر . (ص ١٠) .

وربما أفاد ابن طباطبا من الأصمعي الذي قال : «لايصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب .ويسمع الاخبار ويعرف المعاني ،وتدور في مسامعه الالفاظ ، وأول ذلك ان يعلم العروض لتكون ميزاناً على قوله ، والنحو ليصطلح به لسانه وليقيم اعرابه ، والنسب وايام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم»(١) . واذا قارنا هذا النص بنص ابن طباطبا نجده يحتوي على الافكار نفسها ، ويعود ذلك الى الدور التعليمي الذي كان يهدف اليه كل منهما ، حيث يؤكد ابن طباطبا على اتباع مناهج العرب «في صفاتها ومخاطبتها وحكاياتها وامثالها والسنن المستدلة منها» (ص١٠) ويوجه الشعراء المبتدئين الى الاعتماد على كتاب (تهذيب الطبع) الذي يحتوي على مختارات من اشعار العرب ليتخذوه منهجاً في قريض الشعر (ص١٣) ، ويقدم نماذج من تقاليد العرب الاخلاقية وسننها وكيف وقفت على صياغة شعرها (ص ٣٧ — ٣٨) . ويقدم المثل الاخلاقية والصفات التي بني عليها العرب مدحهم وهجاءهم (ص١٨) ويقدم أضداد هذه الصفات (ص١٨ — ١٩) . وجعل صفات الخلق تقتصر على الجمال

---
(١) العمدة ج١ص ١٩٧ — ١٩٨

والبساطة فقط بينما جعل صفات الخلق كثيرة ومتعددة الانواع ، كما جعل للصفات الحميدة والذميمة حالات فلكل حالة درجة تفوق على الدرجة الأخرى(ص١٩) ، ومما يؤكد حرصه على الالتزام بهذه الأدوات . تقديمه للاشعار المتقنة الالفاظ والمعاني ، المستوفاة في الانتظام ، ويلح على روايتها والاكثار من حفظها (ص٦٩) . وان الشاعر في نظر ابن طباطبا من يحفظ الشعر اولاً حتى يحق له أن يقوله ، لأنه كلما كثر الحفظ كثرت المواد بين يديه . فالحفظ أول قاعدة من قواعد الصفة (ص١٦) .

لقد قسم يوسف حسين بكار الاطار الشعري الى ثلاثة انواع ، فهناك الأطار الفني والاطار المعرفي والاطار الاحترازي . وهذه كلها تشكل مايسميه ابن طباطبا ادوات الشعر ، وسنتناول كل اطار على حدة .

بخصوص الاطار المعرفي يشير الى انه يجب « التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الاعراب والرواية لفنون الاداب والمعرفة بأيام الناس وانسابهم ومثالبهم(١) فهو اذا يتحدد في ثلاثة عناصر عنصر يتصل باللغة والاعراب ، وعنصر يتصل بالاداب ، وعنصر يتصل بالاجتماع البشري ومعرفة اخلاق الناس وساوكهم وهذه العناصر قد اعتمد عليها في تصويب بعض الابيات كما نجد في «الأبيات المتفاوتة النسج» (٢) فهذه الابيات نظر فيها من الناحية النحوية ، حيث انها تقدم اوتؤخر فيما ليس من حقه التقديم او التأخير كما في هذا البيت :

البرد عنه وهو من ذو جنونه ● أجاري تسهاك وصوت صلاصل

فقد صححه بقوله : يريد : وهو من جنونه ذو أجاري (٣) .

وبخصوص العنصر الذي يتصل بفنون الاداب فيساعد الشاعر على الخروج او التخفيف من ازمته لانه سيعتمد عليها في بعض اشعاره لكي يعيد صياغة معانيها نظماً كما ابان عن ذلك في باب المعاني المشتركة «السرقات» (٤) .

(١) عيار الشعر ص ١٠
(٢) عيار الشعر ص ٤٤
(٣) عيار الشعر ص ٤٦
(٤) عيار الشعر ص ٧٩ ونصح كذلك بحفظ الاشعار سواء اشعار المحدثين او القدامى حتى تكون مادة لذهنه ويرتاض فيها

أما العنصر الثالث فإن اي عمل شعري لايمكنه بحال من الأحوال ان ينفصل عن العالم الخارجي او الواقع الذي يتحرك داخله، فكيف لو كان هذا الشعر ينظر اليه في اطار المدح والهجاء ويركز عليهما كثيراً، آنذاك لايمكن للشاعر الا ان يعرف سلوك الناس وأخلاقهم ومثالبهم وانسابهم ، حتى اذا كان في سياق مديح مدح بالخصال الحميدة التي خبرها ، واذا كان في سياق هجاء هجا بكل المثالب والنواقص التي يعرفها وقد ركز ابن طباطبا على هذا العنصر كثيراً حينما كشف عن الاسس الاخلاقية التي ينبني عليها شعر العرب في الجاهلية وصدر الاسلام (١) .كما سيعتمد على هذا الجانب المتصل بالمجتمع حينما يدعو الى وضع الناس في مواضعهم ومدحهم مع مراعاة انسابهم ، ودرجاتهم الاجتماعية في المجتمع وذاك « حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه اكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وابداع نظمه » (٢) .

فاذا هذه هي وظيفة هذا الاطار المعرفي، فدون هذا الاطار لن يستطيع الشاعر ان يتقدم خطوة واحدة صوب العمل الشعري، فاذا كان الشاعر يجهل فنون الآداب ويجهل واقعه ومجتمعه، وفوق كل ذلك ليس لديه ملكة لغوية تمكنه من الصياغة اولديه فقط ضعف فيها ، فالنتيجة المنطقية هي العجز والعجز التام. أما الاطار الفني فيقول بصدده «والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه، وفي كل فن قالته العرب فيه وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها ، والسنن المستدلة منها وتعريضها واطنابها ، وتقصيرها واطالتها وايجازها ولطفها وخلابتها وعذوبة الفاظها وجزالة معانيها وحسن مبانيها وحلاوة مقاطعها وايفاء كل معنى حظه من العبارة (ص ١٠).ويتضمن هذا الاطار معرفة طريقة العرب في قول الشعر ومراعاة كل التقنيات الفنية التي كانت تراعيها من حيث بناء القصيدة في

(١) عيار الشعر ص ١٨
(٢) عيار الشعر ص ١٢

اللفظ والمعنى ومشاكلة بعضها لبعض ، والقافية المتمكنة في موضعها واجتناب كل مايشين العمل الشعري مما اجتنبته العرب واسترذلته ، وذلك حتى تكــون القصيدة موحدة الاجزاء ، وانتقد ابن طباطبا مجموعة من الابيات التي خالفت هذا الاطار وخرجت عنه (ص٧١) وقد اشار ابن طباطبا الى هذين الاطارين ضمن اشارته الى أدوات الشعر ولكنه لم يشر الى الاطار الاحترازي، وليس معناه ان هذا الاطار غائب عنده ، فقد اشار اليه في تعريفه للشعر ، فأكد على ضرورة معرفة العروض لمن لايعرفه حتى يكون ميزاناً على قول الشعر ، ذلك لأنه يميز بين الشاعر الصحيح الطبع والذوق ، فهذا يعرف العروض دون تعلم اما الشاعر المضطرب الذوق والطبع فلابد له من معرفة العروض « حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لاتكلف معه» (ص٩) .

طبيعة العمل الشعري : يثير التساؤل حول طبيعة العمل الشعري كما يتصوره ابن طباطبا تساؤلا هل المقصود بالعمل الشعري مرحلة تكوين وبناء القصيدة ؟ ام هو العمل الشعري بعد تكونه وولادته؟ فاذا ما تعلق الأمر بالجانب الأول ، سيرتبط بالقصيدة وحدها ، بمعنى اننا سنحاول فهم التشكيل الشعري وسنتساءل عن خصائصه ومميزاته ، هل يحصل فيه الوعي أم أنه يتم بدون وعي أثناء عملية التركيب؟ ويتجه السؤال اذا ما تعلق الأمر بالجانب الثاني ، الى دراسة علاقة الشعر بالواقع الخارجي . اي كيف يتصور ابن طباطبا صلة الشاعر بالواقع ؟ وتقارب هذه الصلة من خلال ثنائية العقل والخيال أي هل يتحكم العقل في هذه الصلة بمنطقه الثابت ، ام ان الشعر يعيد صياغة معطيات العالم الخارجي حسب منطقة التجربة الشعرية الآني والراهن ؟ .

١ – **نظم القصيدة** : إن الدعوة الى ضرورة امتلاك هذه الادوات تشي بأن العمل الشعري في حد ذاته ليس أمراً صعباً فلم يعد الشعر يقتصر على أولئك المطبوعين الذين تحضر في اشعارهم هذه الادوات دون وعي بتحصيل لها ، فالامر اصبح يتعلق بأمتلاك أدوات بعينها ، وأصبح نظم الشعر رهيناً بهذا الامتلاك ،

وتمشي الرغبة في هذا الامتلاك بحضور الفعل الواعي المسؤول ،العالم بما تقتضيه صناعة الشعر من عزم ، وتأتي عملية النظم ذاتها بعد هذا الامتلاك ، ليصبح دور العقل واضحاً من خلال التأليف ، وأول مايتحدد من خلال العقل هو اختيار العناصر التي سيتم التركيب فيما بينها ، وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية .

يجب التفكير اولا في المعنى الذي يراد بناء الشعر عليه ، وتأتي مرحلة البحث والتنقيب عن الألفاظ التي تطابق هذا المعنى ، ثم يأتي دور القافية المناسبة لذلك ، بالاضافة الى الوزن المناسب ، ونلمس في هذا النظم الحضور المكثف للعقل الواعي بكل اختيار من المعنى الى اللفظ الى القافية واخيراً الوزن ، ويتعلق الأمر كله بالارادة « فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة » (ص١١) . ولكن كيف نعد الالفاظ التي تطابق هذا المعنى والقافية والوزن ؟ اذاً حضور هذه العناصر لايتم بطريقة الاستدعاء الذاتي الذي يفرضه منطق النظم نفسه ، أي هي لاتتوالد وتنمو ذاتياً ، ولكن يجب التفكير فيها . ثم تأتي مرحلة بناء القصيدة (١) في هذه المرحلة توضع جميع الابيات التي تمت صياغتها ، فاذا كثرت المعاني وكملت ربط بينها بأبيات تلم شتاتها .ان عملية النظم هنا ميكانيكية فالقصيدة هنا لاتولد كاملة متآلفة الابيات ، بل تولد مشتتة الاجزاء متفرقة العناصر ، ثم يعيد الشاعر بناء القصيدة من جديد وبترتيب جديد للأبيات . فطبيعة العمل الشعري في لحظات التكون كلها يطغى فيها الوعي والعقل ، وكأننا امام بناء يحضر الاجر والاسمنت والماء ، فيشرع في عملية البناء بأستعمال المقاييس واختيار الامكنة المناسبة لكل حجر بمعنى اخر يصبح نظم الشعر عبارة عن وضع مخطط ثم تنفيذه (٢) . ويمكن ان نتبين حضور العقل أكثر واقترانه بجوهر العملية الشعرية ،اذا ربطنا كل ماسبق بمحنة الشاعر المحدث الذي سبق

(١) انظر اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ص ٤٩ وابن طباطبا الناقد ص ٣٨ وانظر قضايا ودراسات نقدية ص ١٢٠

(٢) مفهوم الشعر ص ٢٩

الى كل فن بديع اذ ان شعور ابن طباطبا بمحنة الشاعر ، سيدفعه الى طريقة خاصة في التعامل مع العمل الشعري ، وهو الارتياض والتمرس بالنماذج الشعرية الجيدة والصوغ على منوالها . ولايخفى ان الارتياض عمل عقلي مباشر يتم فيه ادراك الشيء النموذج على ما هوبه حتى تكون الصياغة بالارتياض مماثلة ومشاكلة لتلك النماذج ومطابقة لها ويضاف الى كل ذلك دعوة ابن طباطبا الشاعر المحدث الى النظر في النصوص النثرية كالخطب وغيرها، ونقل معانيها عن طريق الصياغة الى الشعر ، حيث ان ذلك يتطلب مهارة فكرية فائقة .

إن الشاعر هنا لاينحث المعاني من ذاته ، ولكنه يجدها جاهزة سواء في النصوص الجيدة من اشعار الجاهليين والاسلاميين او في الخطب والفنون ،وما عليه الا ان يعرف كيف يتصرف في صياغة هذه المعاني . وانطلاقاً من وظيفة الكاتب التعنيمية يمكن ان نجد مرة اخرى حضور العقل .ان دعوة الشاعر الى استعمال كل تقنيات الشعر بالطريقة التي حددها ، ستغدو بالشعر فيها ضرباً من الرياضة العقلية والمهارة الفكرية التي تتطلب في الشاعر بعد معرفته بالتقنيات، مجرد حسن استعمالها .

مما سبق نستنتج أن نظم الشعر عمل عقلي واع ، وأنه في نظرته هذه يبتعد «ابتعاداً صارخاً من مفهوم «الغريزة» اذ يصبح الشعر لديه « جيشان فكر » قائما على الوعي التام المطلق خاضعاً للتفقد في اللفظة والشطر بعد الشطر والبيت اثر البيت ، فهو لايعترف بطاقة تنظم السياق او انفعال يبعث تدافع القول ، وانما القصيدة لديه كالرسالة تقوم على معنى الفكر ..... (١) .

فابن طباطبا كما يرى محمد عبد الرحمن الربيع يرى ان « ... نظم الشعر عمل عقلي يقتضي من الشاعر ادراكاً ووعياً وتفكيراً عميقاً» (٢) .

---

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٣٦
(٢) ابن طباطبا الناقد ص ٦٦

٢- الشعر والواقع الخارجي

سنحاول الان رصد تصور ابن طباطبا لعلاقة الشعر بالواقع الخارجي وسيكون ذلك من خلال اللغة وتصوره التشبيه والاستعارة والمجاز .

من البديهي ان العقل والخيال حينما يحضران في أي عمل ابداعي يتركان بصماتهما عليه ، بحيث أنهما يكيفانه تكيفا خاصا، فالعقل في تعامله مع الواقع صارم ومنطقه ثابت وقار لايقبل أي تعديل في بنية الواقع ،في حين أن الخيال رغم اعتماده على معطيات العالم الخارجي فانه يسعى إلى التركيب بين عناصر هذا الاخير ، إلى الدرجة التي يصبح فيها ما يركبه الخيال مرفوضاً رفضاً محسوماً فيه من طرف العقل . ان للخيال معاينة خاصة للوجود ، انه يعيد صياغته بحسب منطقه الخاص وجوهر العمل الشعري تخييلي بالاساس يحضر فيه الخيال بقوة ويكاد العقل يغيب فيه ووظيفة العقل هي أن يمنع العمل الشعري من أن يصير نوعاً من الهذيان ، بمعنى اكثر وضوحاً ، حضور العقل في الابداع الشعري حضور خافت ، يمارس عمله في الخفاء دون ان يتحكم او يتسلط فيصبح الشعر اقرب إلى المعادلات المنطقية الحسابية الصارمة ، « العقل يبقى كضوء خافت لا يسطع ، فينير التجربة الشعرية انارة تامة ، ولا يتألق حتى يمحي ظلالها ، بل انه كضوء في الظلمة ، يهدي لكنه لا ينير مانعاً الانفعال من الشطط والهذيان» (١) .

يتصور ابن طباطبا التشبيه على الشكل التالي «فاحسن التشبيهات ما اذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى وربما اشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى ، وربما اشبهه معنى وخالفه صورة ، وربما قاربه وداناه او شامه ، وأشبهه مجازاً لا حقيقة » (٢) . ويقول بعد ان حدد الأوجه التي ينصرف اليها وجه الشبه« فاذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان او ثلاثة معان من هذه الاوصاف في التشبيه وتأكد الصدق فيه ، وحسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له» (٣) .

---

(١) في النقد والادب ج ١ ص ١٢٧ – انظر ص ١٢٣ إلى ١٢٧ من نفس المرجع
(٢) عيار الشعر ص ١٧
(٣) عيار الشعر ص ٢٣

يتضح من خلال هذا القول ان التشبيه ما هو الا معادلة منطقية بين عناصر الوجود الخارجي . انه ادراك لأوجه الشبه التي تربط بين الاشياء ، فابن طباطبا يركز كثيراً على العناصر الشكلية التي يتم على اساسها التقريب بين الاشياء ، وفي ذلك محافظة على الواقع الخارجي وهنا يحضر العقل الذي يأبى ان تتداخل الاشياء فيما بينها كي لا تختلط ، فاذا «فما كان من التشبيه صادقاً قال في وصفه كأنه او قلت ككذا ، وما قارب الصدق قلت فيه تراه او تخاله اويكاد» (١) انه يأبى — من شدة محافظته على عدم التداخل بين الاشياء — الا ان يدعو الشاعر إلى استعمال ادوات التشبيه بحسب قرب التشبيه من الحقيقة التي هي حقيقة شكلية فقط ، وادوات التشبيه هذه علامة على عدم الامتزاج والحلول في رحم الاشياء كما يقول اليا حاوي (٢). ان الخيال يجعل الاشياء تتداخل فيما بينها مما يجعل الصورة الخيالية تحمل فاعلية نفسية حينما تبتعد عن مجرد التطابق الشكلي (٣)، اي ان الخيال حينما يلجأ إلى التشبيه فليس من اجل ادراك العلاقات بين الأشياء وأوجه التقارب بينها هي في حد ذاتها ، بل ان يظهر انفعال النفس بها ، فنحن من خلال العلاقات ندرك السياق الوجداني للشاعر او الرصيد النفسي التي عملت الصورة على ابرازه ، ومما يبرر ان العقل حاضر بقوة في العمل الشعري ، اصرار ابن طباطبا على رؤية الأشياء كما هي في واقعها دون ادخال تعديل فيها او تحوير ،فناقة المثقب العبدي لا ينبغي لها ان تتكلم لانها في واقع امرها لا تتكلم ، ولا تعبر عن احاسيسها ، لذلك يصبح بيتا المثقب العبدي اللذان يقول فيهما (٤)

تقول وقد درأت لها وضيني — اهذا دينه أبدا وديني

اكل الدهر حل وارتحال — اما يبقي علي ولا يقيني

من الحكايات المغلقة والاشارات البعيدة والمجاز المباعد للحقيقة .

ان ابن طباطبا يرفض هنا أن يعبر الشاعر عن تعبه من خلال ناقته ؛

---

(١) عيار الشعر ص ٢٧

(٢) انظر في النقد والادب ج١ ص ١٣١ — ١٣٢

(٣) جدلية الخفاء والتجلي ص ١٩

(٤) عيار الشعرص ١٢٣— نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ص ١٣٨ احسان عباس ص ١٤٥

ويرفض أن يحل الشاعر في الأشياء ، فتصير الاشياء تعبر بالايحاء والاشارة عن نفسية الشاعر بدلاً من أن يعبر هو عن ذاته بأساوب تقريري بارد . إنه يدعو الى المحافظة على الاشياء بالشكل الذي توجد عليه ليس للخيال اذا كبير سلطان ، انه يظل حسيراً يجلس قرب جدار التجربة الشعرية ، ولكن ليس له مطلقاً أن يلجها ويتحكم فيها .

ان مفردات اللغة وجدت لتعبر عن معان بعينها لاتتجاوزها ، وأي تجاوز مهما كان ، يعد خرقاً لمنطلق العقل الثبوتي ، يقول معلقاً على بيت الحطيئة وموضوعه الهجاء :

قروا جارك العيمان لما جفوتـه • وقلص عن برد الشراب مشافره

«أراد شفتيه» (١) فالمشافر تكون للابل والشفتان للانسان ولا ينبغي خرق القاعدة حتى ولو تعلق الأمر بالهجاء ان لفظة المشافر هنا قد تدل على الغلظة فهي بدلالتها تعبر عن سياق استعمالها ، فالخيال هنا جعل للرجل مشافراً بدلاً من شفتين ، لكن عقل ابن طباطبا يرفض مطلقاً أن يتصور الرجل مشافر

ويقول كذلك معلقاً على قول المزرد داعي الزنج :

فما برح الولدان حتى رأيتـــه • على البكر يمريه بساق وحافر

«يريد بساق وقدم» (٢) فابن طباطبا لايقبل أن يستعار لفظ حافر الانسان لان الحافر لايكون الا الحيوان (٣) . فليست الحالة النفسية الانفعالية هي التي تنتقي الالفاظ التي تملك أن تعبر عنها ، ولكنه العقل الذي يرفض التداخل بين الحدود والاشياء .

يتضح اذاً أن العقل هو المسيطر على جوهر الابداع الشعري عنده وأن الخيال يترك حصة الأسد للعقل ، ان ابن طباطبا يعكس القضية تماماً ، فالخيال هو

---

(١) عيار الشعر ص ١٠٦
(٢) عيار الشعر ص ١٠٦
(٣) نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ص ٢٤٧

الخافت وهو الحسير ، والعقل دو المسيطر وهو المضيء ، انه يحافظ على سكونية اللغة وسكونية الواقع الخارجي باصرار .

وموقف ابن طباطبا هذا ليس بدعاً ، ذلك أنه ينسجم تمام الانسجام مع الموقف الذي وقفه الناقد العربي القديم من العالم الخارجي ، هذا الموقف يتحكم فيه العقل ، والذي يأبى أن يحدث أي تعديل فيه ، وهذا يشي بأن ابن طباطبا ركز — هو أيضاً — على صلة الشعر بالواقع الخارجي وأهمل صلة الشعر بوجدان الشاعر وبالمنطقة اللاواعية فيه (١) .

٣ — **صنعة الشعر**: يرتبط مفهوم الصنعة عند ابن طباطبا بمراحل الخلق الشعري ، ولا يعد ابن طباطبا السباق الى استخدام كلمة (صنعة) بل ترددت الكلمة قبله عند النقاد حينما اتفقوا على ان الشعر صنعة كسائر الصناعات ، فاستخدمها الجاحظ (٢) وابن سلام (٣) . ومراحل الخلق الشعري عند ابن طباطبا أربع :

١ — مرحلة التفكير في نظم القصيدة ، وذلك بأن يتدبر الشاعر المعاني التي يريد نظمها ، فيحصرها في فكره نثراً ثم يعد لها مايلبسها اياها من الالفاظ المناسبة والوزن والقافية المناسبتين لتلك المعاني .

٢— مرحلة الانتاج : وفيها يخطر على بال الشاعر بيت من الشعر يشاكل المعنى الذي يرومه فيثبته ويتخذه اساساً يبني عليه الشعر ، فيشغل نفسه بنظم معانيه ثم يكتب الابيات كما تتوارد .

٣— مرحلة الصياغة : وتتمثل في صياغة المعاني التي يراها في غير نظام في ابيات متفرقة كل بيت مستقل عن صاحبه يتحدد مع بقية الأبيات في الوزن والقافية ثم يجمع ويوفق بينها .

---

(١) نقد الشعر في القرن الرابع الهجري صفحات ما بين ٢٢ إلى ص ٢٥٠

(٢) الحيوان ج١ ص ١٣١ — ١٣٢

(٣) طبقات فحول الشعراء ج١ ص ٤ — ٥

٤ — مرحلة التثقيف والتهذيب : وفيها يقف الشاعر على كل كلمة وقافية وكل بيت ، وأمام القصيدة كلها يتأمل ما أداه اليه طبعه وانتجه فكره» ، وهي مرحلة الانتقاد .

وقد ابدى محمد زغلول سلام اعجابه بهذه العملية حيث قال : «ويتصل القول بالطبع والصنعة بالبحث في عملية الخلق الشعري نفسها وكيف تتم ، وما خطواتها ، ولا نذكر ناقداً تتبع هذه العملية من نقاد العرب قبل ابن طباطبا في عيار الشعر» (١) .

ويلح ابن طباطبا على التناسب الخارجي بين الكلمات ، ويطالب الشاعر بشيء من التجانس اللغوي العام لأن احسن الشعر عنده هو ما وضعت فيه كل كلمة في موضعها الذي يقبله العقل وتطابق المعنى الذي اريد لها ، فهو يحرص على عدم الخلط بين الكلام البدوي والحضري (ص ١٢) .

أثر المتلقي في العمل الشعري

تحضر ثلاثة عناصر اساسية في تنظير ابن طباطبا للشعر : الشاعر والشعر والمتلقي، وصلة الشاعر بالشعر هي التعلم كما اوضحنا سابقاً ، اما صلة الشعر بالمتلقي فتستهدف احداث تأثير فيه ، فيشعر باللذة والابتهاج ، بنوع من التطهير : «فاذا اورد عليك الشعر النظيف ... غسل السخائم وحلل العقد وسخى الشحيح ، وشجع الجبان ، وكان كالخمر في لطف دبيبه والهائه وهزه واثارته ، وقد قال النبي (ص)«ان من البيان لسحرا» (ص ٢٢) ، وصلة الشاعر بالمتلقي ، والاساس الذي كان ينبني عليه شعر الجاهلية وصدر الاسلام قد تغير ، وتغيرت معه صلة الشاعر بالمتلقي ، هذا الشاعر الذي كان حراً يعبر انطلاقاً من قناعته هو عن واقعه الاجتماعي ، يتعامل مع المتلقي على اساس حر فاصبح الشاعر يخضع لمواصفات خاصة لا تحددها طبيعة الابداع نفسه وانما يحددها المتلقي : «والشعراء في عصرنا انما يثابون على ما يستحسن من

(١) تاريخ النقد الادبي ص ٥٥

لطيف ما يوردونه من اشعارهم وبديع ما يغربونه من معانيه وبليغ ما ينظمونه من الفاظهم ، ومضحك ما يوردونه من نوادرهم ، وانيق ما ينسجونه من وشي قولهم ، دون حقائق ما يشمل عليه من المديح والهجاء وسائر الفنون التي يتصرفون القول فيها فاذا كان المديح ناقصاً عن الصفة التي ذكرناها ، كان سبباً لحرمان قائله والمتوسل به (ص ١٥) .

أصبح المتلقي يفرض سلطة على الشاعر من خلال عملية الاثابة ، انه يخاف الحرمان ويخشى الا يلقى شعره قبولا من طرف المتلقي (ص ١٥) .

وبدلا من ان يركز ابن طباطبا — في تنظيره — على العلة ، وهي الوضع الاجتماعي للشاعر ، ركز على المعلول الذي هو الشعر ان ابن طباطبا لم يكن ليغير هذا الوضع الاجتماعي او يحد في الأقل من سلطته لأن هذا الوضع نفسه ترسخ واستعصى واصبح يخضع لتقنين تحدد من خلال عملية التنظير (١) وقد وضع مقاييس ثابتة تشي بأثر المتلقي على ابداع الشاعر ، من هذه المقاييس موافقة الشعر لمقتضى الحال وقد جعل ابن طباطبا هذا المقياس علة اخرى لحسن وقبول الفهم اياه (٢) . فهذا المقياس مقياس بلاغي يصدق على الخطابة ولا يصدق على الشعر ، يصدق على الخطابة لأنها تستهدف الاقناع ، ولكي تقنع شخصاً لابد من مراعاة سياق الحال الذي تدخل فيه ثقافة المخاطب ، ونفسيته وسائر الشروط التي تجعل المتلقي يقنع في الأخير ، اما الشعر فهو نتاج اللاوعي ، لا يهمه سياق الحال ، وحينما يصبح سياق الحال هو الفاعل الخفي وراء عملية الابداع ،آنذاك تغيب انفعالات الشاعر الوجدانية واحساساته الصادقة ، هذا الصدق الذي لا يأتيها من موافقتها لهذا السياق ، بل يأتيها من هذا الاحساس نفسه دون قيد او شرط .

لقد تحدث ابن طباطبا عن الابيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم(٣) ،

(١) مفهوم الشعر ص ٢٣
(٢) عيار الشعر ص ٢٢
(٣) عيار الشعر ص ٩٥

وترجمة هذا الكلام ، ان الشاعر يجب عليه ان يتأدب مع المتلقي ، او بتعبيره هو يجب على الشاعر ان يلتزم الصدق» ... ويحضر لبه عند كل مخاطبة ووصف ، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها وأن يخلطها بالعامة ، كما يتوقى ان يرفع العامة إلى درجة الملوك ، ويعد لكل معنى ما يليق به ، ولكل طبقة بما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه اكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وابداع نظمه» (١) . فليست التجربة الشعرية اذا هي التي تحدد وضعية المتلقي ، بل ان هذه الأخيرة هي التي تحدد التجربة وتمنحها شكلا توجد عليه ، صحيح ان هناك حرية في الابداع ، لكنها حرية تخضع لأمر اطار وضعية المتلقي ، وحينما يخرج الشاعر عن هذا الاطار يفقد علة من علل حسن الشعر وقبول الفهم اياه لأن الاستفادة من وضع الكلام في مواضعه سباقة على تحسين النسج وابداع النظم (٢) .

وعلى الأساس السابق ، يعرض ابن طباطبا امام الشاعر المحدث نماذج شعرية ، وينتقدها ولعل العنوان «الابيات التي زادت قريحة قائلها على عقولهم» (٣) يشي بهذا النقد . وسنحاول الآن اثبات بعض الابيات ونرصد كيف تعامل معها ابن طباطبا فيما هو يعلم نظم الشعر .

يقول ابن طباطبا «وقول كثير ايضاً :

الا اننا يا عز من غير ريبة	بعيران نرعى في الخلاء ونعزب
كلانا به عرّ فمن يرنا يقل	على حسنها جرباء تعدي وأجرب
نكون لذي مال كثير مغفل	فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح اهله	علينا فلا ننفك نرمي ونضرب
وددت وبيت الله إنك بكرة	هجان واني مصعب ثم نهرب

---

(١) عيار الشعر ص ١٢

(٢) انظر المقولة السابقة ، نفس المرجع

(٣) عيار الشعر ص ٩٥ هذه المقولة تبين مرة اخرى ان للقريحة الشعرية حدوداً لا يجب ان تخرج عليها والا فانها ستتجاوز منطق العقل وحدوده .

فعلق عليه مستشهداً بقول عزة : لقد اردت بي الشقاء الطويل ، ومن المنية ما هو اوطأ من هذه الحال (ص ٩٥) . يحس الشاعر بخدش في علاقته كفرد مع مجتمعه ، يحس بنوع من الانفصام عنه ، هذا الانفصام ادى إلى استعاضة الشاعر عنه بفضاء آخر ، فاستعار صورة خلق بها نوعان من التوازن فبدلا من ان تنظر عزة إلى الصورة وجماليتها وشمولها ، انصرف ذهنها إلى وضعيتها كحبيبة داخل فضاء الصورة ، فحاكمته على اساس عقلي ، فلم تع بذلك فاعلية الصورة على مستوى تجسيد انفعال الشاعر ، وهكذا يكون اعتراضها حداً لحريته كشاعر يتفاعل مع واقعه فيحيله إلى تجربة شعرية تنبض بالحركة .

يؤكد ابن طباطبا من خلال النماذج العديدة التي قدمها ، بأن المتلقي يمارس فعله في العملية الشعرية ، وان الشاعر ليس حراً كما يتصور البعض ، بل عليه أن يمارس فعله الابداعي داخل اطر ثابتة لايتمكن من الخروج عليها ، فحينما يأخذ المتلقي وضعاً معيناً — سواء أكان خليفة او اميراً او حبيبة او متلقياً عادياً — يجعل الشاعر يأخذ في ابداعه ستراتيجية معينة يتم على اساسها الابداع ، وحينما يتم خرق هذه القاعدة على المستويين — المتلقي والشاعر — تخرق — وبنفس القدر — علة من العلل التي يتم على اساسها قبول الشعر .

ويقوم سؤال مهم في هذا الصدد : الا يمكن مقارنة هذا التصور لأثر المتلقي في العمل الشعري بتلك النظرية التي تقيس جودة الأدب بصفة عامة بمدى رغبة القاريء فيه ، والتي تعتمد في ذلك على العرض والطلب ، اي عرض الابداعات ونشرها ، وطلب المتلقي ورغبته ، ولكن علينا الا ننسى بأن هذه النظرية تقوم على اساس اقتصادي ، لذلك تبدو المقارنة عسيرة ، صحيح ان هناك نوعاً من العرض والطلب حيث يعرض الشاعر شعره على المتلقي ، فيتخذ هذا الاخير منه موقفاً معيناً ، ولكن لا يمكن اعتبار الاثابة دافعاً وحده إلى الابداع ، فليس كل شاعر يطمع في العطاء ، ويبقى ان موافقة الشعر لسياق الحال واحترام الشاعر وتأدبه مع المتلقي تفرضه تركيبة المجتمع .

مقاييس الشاعرية

أشرت آنفاً إلى أن الشاعرية تعني جودة الشعر ، فهذه الجودة التي قلنا بصددها أنها تتحدد عبر مجموعة من المقاييس والشروط الخاصة التي يجب ان تتوفر في العمل الشعري . ومن البديهي ان العمل الشعري او القصيدة بناء مركب من عناصر ، لذلك سيحاول هذا السياق الكشف عن الشروط الجمالية التي يجب ان تتوفر في هذه العناصر . وسنبدأ بعنصري اللفظ والمعنى .

اللفظ والمعنى

تعد قضية اللفظ والمعنى من كبريات القضايا النقدية التي لقيت عناية من طرف النقد القديم . وقد اختلف النقاد في هذه القضية من حيث الانحياز للفظ او للمعنى او لهما معاً مع اعطاء الأسبقية لأحدهما دون الاخر . صنف يوسف بكار ابن طباطبا ضمن الفئة التي تفصل بين اللفظ والمعنى دون ان ترجح احدهما على الآخر ، فقال :

«ويمكن ان نسلك ابن طباطبا العلوي في هذه الفئة ، وهو الناقد الوحيد الذي صرح في وضوح بفكرة اللفظ والمعنى في نظم القصيدة ، وصاحب فكرة محض المعنى نثراً واعداد اللفظ المناسب له . فليس غريباً ان تنال المسألة كثيراً من عنايته وهو وان كان يرى أن «للمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض الجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي ابرز فيه ؛ وكم من معرض حسن قد ابتذل عن معنى قبيح البسه» فقد كان يعول في الشعر على صحة المعنى وصوابه ، وجزالة الالفاظ وحسنها . وابن طباطبا كابن قتيبة في الفصل بين اللفظ والمعنى...» (١) ولا تهمنا هنا قضية اللفظ والمعنى في انفصالهما او اتحادهما بل المهم هو معرفة شروط جودتهما.فما هي شروط جودة اللفظ ؟ .

(١) بناء القصيدة في النقد العربي القديم انظر ص ١٣٠

لقد اعطى ابن طباطبا للفظ عدة صفات جمالية منها عذوبة اللفظ فقال «... وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وامثالها ... ولطفها وخلابتها وعذوبة الفاظها ...» (١) وكذلك قوله «.. وتكون الالفاظ منقادة لما تراد له ، غير مستكرهة ولا متعبة لطيفة الموالج سهلة المخارج» (٢) .

«ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية» (٣) ، «فمن الاشعار اشعار محكمة متقنة انيقة الالفاظ» (٤) «... اذ نقذت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة الفاظها» بالاضافة إلى قوله «... لانهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح ...» (٥) «واذا نقص جزء من اجزائه التي يعمل بها وهي : اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الالفاظ ، كان انكار الفهم له على قدر نقصان اجزائه» (٦) ، «فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ التام البيان ...» (٧)

«ونذكر الآن أمثلة للأشعار المحكمة الرصف المستوفاة المعاني ، السلسة الالفاظ...» (٨) ، «فأما هذه الابيات المستكرهة الالفاظ المتفاوتة النسج» (٩) «ومن الاشعار الغثة الالفاظ الباردة المعاني» (١٠) ،ويتكلم عن الشعر الحسن اللفظ الواهي المعني فيقول «ومن الابيات الحسنة الالفاظ المستعذبة الرائقة سماعاً...» (١١)، هذه هي مجموع الصفات التي أضافها ابن طباطبا الى

(١) عيار الشعر ص ١٠ و٢١
(٢) عيار الشعر ص ١٠
(٣) عيار الشعر ص ١١
(٤) عيار الشعر ص ١٣
(٥) عيار الشعر ص ١٥
(٦) عيار الشعر ص ٢١
(٧) عيار الشعر ص ٢٣
(٨) عيار الشعر ص ٣٧
(٩) عيار الشعر ص ٤٤
(١٠) عيار الشعر ص ٧١
(١١) عيار الشعر ص ٨٧

اللفظ وطالب الشاعر بأن تتوفر في شعره . ويمكننا أن نقسم هذه الصفات الى صفات ترتد الى اللفظة في حد ذاتها ، وصفات ترتد الى اللفظة من خلال السياق الذي وردت فيه . ولفظة السياق هنا تدل على تجاور الالفاظ وتدل كذلك على المكان والموضع الذي ترد فيه اللفظة .

فأما الصفات التي ترتد الى اللفظة في حد ذاتها فمنها العذوبة والسلاسة والحلاوة والفصاحة والجزالة . وهذه المصطلحات تتقارب مدلولاتها ومعيارها الذوق . يقول ادريس الناقوري بأن معيار العذوبة الذوق ، ويقترب معنى العذوبة من السهولة والسلاسة والحلاوة والرقة ، فعذوبة الالفاظ في سهولتها وانسيابها على اللسان ووقعها الحلو في الاسماع ، ويشير كذلك الى أن العذوبة والسهولة والحلاوة والسلاسة ربما قد تكون شرطاً من شروط فصاحة الكلمة . وقد استعمل النقد القديم هذا المصطلح «... لتمييز جيد الشعر من غريبه و وحشيه، وكذلك أضحت شرطاً من شروط الفصاحة ومظهراً للبيان»(١) وأما السلاسة فتعني «اللين والسهولة والانقياد والطاعة ، وهي معان متقاربة ويقترب مفهوم السلاسة كذلك من مفهوم العذوبة والسهولة والحلاوة» (٢) ويقول عن معنى الحلاوة «فالكلام الحلو هو العذب السهل ذو الالفاظ السلسة التي تجري على اللسان عذبة مستساغة خالية من عيوب الفصاحة» (٣) . أما الفصاحة فتعني الصفاء والوضوح ، وأن تكون اللفظة فصيحة ويستسيغها القياس ، عذبة وصريحة واضحة غير متنافرة الحروف (٤) ، فمعاني هذه المصطلحات اذاً متقاربة ، وهي تفسر صفات أخرى كالحسن والرقة وأن لاتكون اللفظة قبيحة أو غثة بالاضافة الى صفات أخرى صوتية وهي سهولة مخارج حروفها .

(١) انظر مادة ع ذب في المصطلح النقدي في نقد الشعر
(٢) انظر مادة س ل س في المصطلح النقدي في نقد الشعر
(٣) انظر مادة ح ل ونفس المصدر
(٤) انظر مادة ف ص ح نفس المصدر

وأما الصفات التي تكسبها اللفظة من خلال السياق ، فهي أن تحقق صفة التجانس مع جارتها ، وذلك بأن لايخلط الشاعر بين اللفظة الغريبة وغير الغريبة ، بل عليه «اذا سهل الفاظها لم يخلط بها الوحشية النافرة الصعبة القيادة» (١) ، بالاضافة الى صفات أخرى سياقية ، وذلك بأن تكون اللفظة غير مستكرهة في مكانها ، وأن تقع في موقعها الذي أريدت له. هذه هي مجموع الصفات التي تضفي على اللفظة مسحة جمالية ، بالاضافة الى صفات أخرى للألفاظ سنعرض لها حينما نتحدث عن صفات المعاني لاقترانها بها فما هي صفات المعنى ؟ .

لقد حدد ابن طباطبا للمعنى صفات كثيرة ، ويمكن أن نميز بين نوعين ، فهناك صفات سالبة وهناك صفات موجبة فأما الصفات السالبة فمنها : المعاني المستبردة يقول : «واجتناب مايشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ ، والمعاني المستبردة....» (٢) ،ومنها الاشارات المجهولة التي لاتفهم دلالتها(٣) يقول : «ومن الايماء المشكل الذي لايفهم...» (٤) بالاضافة الى المعاني المسترذلة «والمعاني المسترذلة الشائنة للألفاظ المشغوله بها» (٥) وكذلك المعاني المتكلفة «...فلا استكراه في قافيتها ولا تكلف في معانيها...» (٦) ، والمعاني الواهية «ومن الابيات الحسنة الالفاظ المستعذبة الرائقة سماعاً ، الواهية تحصيلا ومعنى....» (٧) ، وهذه المصطلحات تشرح بعضها.

فالمعاني الباردة أو المستبردة هي المعاني الغثة الفارغة التي لاتشعر النفس معها بدفء التأثر أو التجاوب (٨) ومن هذه الزاوية فهي مسترذلة ساقطة ، وقد

---

(١) عيار الشعر ص ١٢
(٢) ع ش ص ١٠
(٣) ش ص ١٢٤
(٤) ع ش ص ٣٧
(٥) ع ش ص ٥٤
(٦) ع ش ص ٨٧
(٧) ع ش ص ١٠
(٨) مادة ب رد المصطلح النقدي في نقد الشعر

تكون متكلفة ، تدل على جهد صاحبها وتعمله في استنباطها فتأتي منافية الطبع وقرب المأتى.

فابن طباطبا حينما يعرض لمثل هذه المعاني ، فانه يطالب الشاعر بأن لايأتي بمثلها ، وأما صفات المعاني الموجبة فهي أن تكون المعاني جزلة «...وعذوبة الفاظها ، وجزالة معانيها وحسن مبانيها والمعاني اللطيفة «...ويتناول معنى اللطيفة كتناولهم اياها»(١) ، والمعاني الحكيمة «فمن الاشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الالفاظ حكيمة المعاني عجيبة التأليف اذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها» (٢) وهناك صفات أخرى كالمعاني الحسنة البديعة والمعاني الصحيحة الصائبة والمعاني التي تشتمل على حكمة عجيبة فهذه الصفات كلها تحقق المعنى جودته وجماليته وهناك صفات أخرى للمعنى كالتعريض «... الخفي الذي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لاستر دونه» (٣) و «... الاختصار الذي ينوب عن الاطالة» (٤) فهاتان الوسيلتان — التعريف والاختصار — يحققان — الى جانب حسن المعنى — التأثير في المتلقي .

واذا كانت هذه الصفات ترتد الى المعنى في ذاته ، فهناك صفات ترتد الى اقتران اللفظ بالمعنى كالمشاكلة والتناسب ، فاذا كانت الالفاظ والمعاني كل منها مشاكلة للأخرى تحققت الجودة ، لأن هناك الفاظاً رائقة لكنها تشان حينما تلبس معنى مسترذلاقبيحاً ، وهناك معاني عجيبة حكيمة ، لكنها لم تبرز في أحسن معرض وأبهى صورة يقول «فمن الحكم العجيبة والمعاني الصحيحة الرثة الكسوة التي لم يتنوق في معرضها الذي أبرزت فيه قول القائل.. »(٥)

(١) ع ش ص ١٠
(٢) ع ش ص ١٣
(٣) ع ش ص ٢٣
(٤) ع ش ص ٣٤
(٥) ع ش ص ٩١

ويقول «ومن الابيات الحسنة الالفاظ المستعذبة الرائقة سماعاً الواهية تحصيلاً ومعنى» (١) بالاضافة الى تحقيق عنصر التناسب بين المعنى ومكانة المتلقي ، فلا يخاطب الملوك الا بما يستحقونه من المعاني ولا يخلطهم بالعامة كما أنه لايرفع العامة الى مقام الملوك .

فهذه اذاً هي صفات الجودة في الالفاظ والمعاني منفردة ومركبة ، فاذا وافقها الشاعر فقد أصاب ، والا فان شعره ناقص بقدر نقصان هـــــذه العناصر .

صفات الجودة في الوزن والقافية

يعد هذا العنوان من أهم عناصر الشعر ، وقد عالجهما كثير من النقاد ، ومما يشيء بمكانتهما داخل الفكر النقدي العربي كونهما من عناصر عمود الشعر السبعة كما حددها المرزوقي • فما هي صفات الجودة في الوزن؟ .

يشترط ابن طباطبا في الوزن الصحة فيقول «فاذا اجتمع الفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ» (٢) وصحة الوزن هي أن يكون على بحور العرب الستة عشر ، كما يشترط فيه كذلك الاعتدال« وان نقص جزء من اجزائه التي يعمل بها وهي : اعتدال الوزن ، وصواب المعنى وحسن الالفاظ...» (٣) «فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ التام البيان المعتدل الوزن مازج الروح ولاءم الفهم...» (٤) واذا كان الاعتدال نقيض الأضطراب ، فان الوزن المعتدل هو الذي يكون خالياً من كثرة الزحافات والعلل ، وهو الذي يحتذي في ذلك حذو منهاج القدماء ، وعلى هذا الاساس نفهم ان ابن طباطبا يطلب من الشاعر معرفة العروض والحذف به اذا لم يكن صحيح الذوق ، حتى يستطيع تصحيح الوزن وتقويمه .

(•) اقصد بالتحديد هنا الجمع فقط والافان عمود الشعر شارك فيه كثير من النقاد والعرب القدامى

(١) ع ش ص ٨٧

(٢) (٣) ع ش ص ٢١

(٤) ع ش ص ٢٢

وهناك خاصية أخرى للوزن ، وهي خاصية التناسب مع حجم التجربة الشعرية من حيث طول نفسها أو قصره . فاختيار الوزن المناسب ضروري حتى لايضطر الشاعر الى التقديم والتأخير أو الحذف المخل والزيادة غير اللازمة فعلى الشاعر أن يبني شعره على وزن يحتمل أن يخشى بما يحتاج الى اقتصاصه بزيادة من الكلام يخاطبه ، أو نقص يحذف منه، (١) وهذا الاختيار يحقق الوزن صفة اخرى وهي القابلية «والوزن الذي يسلس له القول عليه » (٢) فاذا تحققت هذه الصفات للوزن تحققت الجودة فيه .

أما القافية فيجب أن تكون مشاكلة للمعنى والالفاظ ، فعلى الشاعر أن يختار القافية التي تكون أوقع في المعنى الذي يروم بناء الشعر عليه (٣)،«وطلب لمعناه قافية تشاكله »والقافية عنده كلمة ، لذلك يشترط فيها أن تكون حسنة الموقع (٤) متمكنة في موضعها غير مستكرهة أو قلقة الموضع ، وأن يكون ماقبلها مسوقاً اليها ولا تكون مسوقة اليه (٥) وقد حدد ابن طباطبا القافية أقساماً وحدوداً لكي يختار الشاعر قافيته على أساسها (٦) ، فاذا تحققت كل هذه الشروط في القافية ، يكون هذا العنصر قد حقق جودته وجماليته .

لغة الشعر

للشعر لغته الخاصة التي تخالف لغة النثر ،ذاك أنها بنت الوجدان ،تحددها التجربة الشعرية وتكيفها ،فهل جعل ابن طباطبا للغة الشعر صفات تميزها عن لغة النثر ؟ وما هي صفات الجودة فيها ؟ .

يميز ابن طباطبا بين لغة الشعر ولغة النثر بالوزن والقافية فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول لكن خاصية الوزن هذه التي تقيد الشاعر ، بالاضافة الى القافية ، لم تشفعا له عنده ، فابن طباطبا يرى أن الشعر الجيد هو

(١) ع ش ص ٤٧
(٢) ع ش ص ١١
(٣) ع ش ص ١١
(٤) ع ش ص ١٠٩ – ١١٤
(٥) ع ش ص ١٠
(٦) ع ش ص ١٣٣

ماخرج خروج النثر سهولة وانتظاماً (١) . ويضيق ابن طباطبا على الشاعر الخناق حتى أنه ليضيق بالشعر الكثير التقديم والتأخير الناتج عن عدم مشاكلة الوزن للقصيدة كما سبقت الاشارة ، ويميز ابن طباطبا بين لغة البدوي الفصيح ولغة الحضري المولد و يعد أن من الاشياء التي تحقق للشعر جماليته هو أن تكون لغة القصيدة متجانسة فاذا تحققت للغة الشعر ، هذه الخصائص وهي سهولة المخارج ، وخلوه من التقديم والتأخير واقترابه من لغة النثر بالاضافة الى تجانس بمستوى اللغة المستعملة وكذلك خاصية اخرى تتصل بالجانب الدلالي ،وهي أن لفظة الشعر يجب أن تكون واضحة ومفهومة ، ولذلك ينبغي على الشاعر استعماله للاشارات البعيدة والايحاءآت المشكلة التي لايدرك المتلقي ماوراءها من معنى ، كما ينبغي عليه استعارة لفظة لغوية لمعنى لاتدل عليه الا اذا كان بينهما اقتراب شديد (٢) ، اذا تحقق كل ذلك تحقق الجودة في العناصر المشار اليها في المطلع :.عنصر من العناصر التي تشكل بناء القصيدة العربية ، وقد اعتنى به ابن طباطبا — وكذلك الناقد القديم— باعتباره أول مايتلقاه المتلقي من القصيدة (٣) . وقد اهتم به صاحب عيار الشعر من زاوية المتلقي ، ومن زاوية المهمة المنوطة بالشعر والشاعر . فالمطلع يجب أن يبتعد عن كل ما يعكر صفو المتلقي وذلك بتحقيق نوع من الانسجام بين المطلع والغرض الأساسي . فلا يفتتح مثلاً قصيدة المديح بذكر الموت ونعي الزمان ، بل ان هذا المطلع ينسجم تمام الانسجام مع قصيدة الرثاء التي يكون فيها المتلقي مستعداً لسماع مثل هذا الكلام . وبالجملة فان على الشاعر أن يجتنب كل مايتطير منه المتلقي أولا يتلقاه بالقبول ، فان كان ولابد فعليه أن يكنى عن المعنى المراد حتى يجل المخاطب عن سماع مايكرهه ، فيستعمل ياء الاضافة بدلاً من كاف الخطاب (٤) .

(١) عيار الشعر ص ٤٩ — ٥٤
(٢) ع ش ص ٥٣ — ٥٥
(٣) بناء القصيدة في النقد العربي القديم
(٤) ع ش ص ١٢٨

ومن الاشياء التي تضفي على المطلع رونقاً وجمالاً ، أن يبتدىء الشاعر «بذكر مايعلم السامع له الى اي معنى يساق القول فيه قبل استمامه وقبل توسط العبارة فيه» (١) ، ومعنى هذا الكلام أن يتعلق اللاحق بالسابق ، أي أن يتحقق نوع من التواصل بين الشاعر والمتلقي عن طريق المشاركة ، فيقدم الشاعر معنى يجذب به المتلقي ، ثم يوضحه بالابيات اللاحقة (٢) . فاذا استطاع المطلع أن يحقق هذه الشروط ، فقد حقق جانباً مهماً من جوانب الشعر .

التخلص

يعترف ابن طباطبا بأن الشعراء المحدثين قد تفوقوا على الشعراء القدامى في هذا الجانب ، فاذا كان مذهب شاعر الجاهلية وصدر الاسلام في التخلص واحداً وكانوا أحياناً لايتخلصون بل يجوزون الى مابعد المقدمة مباشرة ، فان المحدثين قد لطفوا القول في التخلص الى المعنى الذي أرادوه (٣) حتى صارت المعاني السابقة غير منقطعة وذلك «بألطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلاً به وممتزجاً معه» (٤) فاذا يشترط ابن طباطبا في التخلص اللباقة وهذا يحقق للشعر جمالاً وجودة ، وهذا الالحاح على حسن التخلص بهذا الشكل يشي برغبة ابن طباطبا في أن تكون القصيدة متلاحمة البناء ومتماسكة ، أو بتعبيره هو «حتى تخرج القصيدة مفرغة افراغاً» (ص١٣١) .

عنصر الصدق : — أسس ابن طباطبا الشعر على الصدق ، واحصى اضراب الصدق عنده وحصرت في خمسة أضرب : «الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها والتصريح بما يكتم منها ، والاعتراف بالحق في جميعها وهذا يشبه مانسميه بالصدق الفني أو اخلاص الفنان في التعبير عن

---

(١) ع ش ص ٢٣
(٢) ع ش ص ٣٣ — ٣٤
(٣) ع ش ص ١١٧
(٤) ع ش ص ١٢

تجربته» (١) فالصدق هنا داخلي إذن : «يتصل بتوافق التجربة المعبر عنها مع مافي داخل المبدع أو اخلاصه في التعبير عنها» (٢) ويتصل هذا الصدق بصدق آخر هو صدق التجربة الانسانية عامة ، ويتمثل هذا في قبول الفهم للحكمة (٣) ، والتي هي إرث انساني ، ويتضح ذلك من قوله «أو تودع حكمة تألفها النفس وترتاح لصدق القول فيها وما اتت به التجارب منها» (ص ١٢٥) ، ويتصل الصدق هنا بتوافق التجربة الفردية للمبدع (الشاعر) مع ماجاءت به تجارب البشر من قبله ، وهناك الصدق التاريخي الذي يتمثل عند اقتصاص خبر او حكاية او كلام (٤) ، والصدق الاخلاقي الذي يتمثل في امانة الشاعر بنقل الحقيقة كما هي (٥) . « والمعرفة بأيام الناس وانسابهم ومناقبهم ومثالبهم» (ص١٠) ، ولكنه عندما عرض الشعراء المحدثين وجد أنهم لم يعودوا مطالبين بحقائق مايشتمل عليه المدح والهجاء ، ولم يوضح ابن طباطبا ما اذا كان متفقاً مع ماتأسس عليه الشعر القديم ، أم مع ماأصبح الشاعر المحدث مطالباً به ، ونميل الى ترجيح الرأي الثاني ، لأن الوظيفة الاجتماعية الشعرية تغيرت بالاضافة الى ان علاقة الشاعر بالممدوح يتحكم فيها الممدوح وليس الشاعر ، هذا التحكم الذي يتم بواسطة فعل العطاء ، والنوع الاخير هو الصدق التصويري (٦) أو مايسميه ابن طباطبا بصدق التشبيه ، وينص في عدة مواطن من كتابه ، على الشاعر ان يعتمد على صدق التشبيه ، ويدعو الشاعر الى الامانة في نقل عناصر العالم الخارجي دون تغيير أو تبديل ويتضح ذلك من خلال أوجه الشبه التي تقوم بين طرفي التشبيه .

فاذا الصدق عنصر مهم من عناصر الشعر ، وحضوره بهذا الشكل يضفي جمالا على القصيدة مما يجعل المتلقي يتجاوب مع الشاعر والتجربة الشعرية على السواء .

(٢،١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٤٢ ، عيار الشعر ص ٢٢ مفهوم الشعر ص ٤١
(٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٤٢ ، عيار الشعر ص ١٢٥
(٤) م . س ص ١٤٣
(٥) م . س ص ١٤٣
(٦) م . س ص١٤٣

المعنى واتصاله بالسرقات

يعترف ابن طباطبا بمحنة الشاعر المحدث الذي سبق الى كل معنى بديع (١) وعلى أساس هذا الاعتراف ، بين للشاعر المحدث كيف يتعامل مع المعاني المطروقة فيما هو يعلمه نظم الشعر ، وأول خطوة في هذا التعليم ان يتمرس الشاعر بالنماذج الجيدة من اشعار العرب حتى ترسخ معانيها في نفسه ، ويرفض ابن طباطبا مجرد تغيير القالب من وزن وقافية ولفظ ، ويرى ان هذا التغيير لايستر سرقته ، ولا يوجد له اية فضيلة ... (٢) وينصحه بالطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادهـا والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق اليها » (٣) ويبين الشاعر طريقة من الطرق التي تؤدي الى خفاء السرقة ، وهي « عكس المعاني (٤) ، وذلك بأن يستعمل معاني التشبيب والغزل – اذ كانت لطيفة – في المديح ، ويستعمل معاني المديح في الهجاء ، ويصف الانسان بأوصاف البهائم وبالعكس وهناك طريقة أخرى ، وهي استغلال الكلام المنثور والخطب والرسائل واعادة صياغتها شعرا ، فيكون بذلك كالصائغ « .. الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه ، والصباغ الذي يصبغ الثوب على مارأى من الاصباغ الحسنة (٥) ، ونلاحظ بعض الاضطراب في تصور ابن طباطبا لعملية الأخذ فاذا كان يرفض ان يغير الشاعر على معاني سابقيه فيغير أوزانها والفاظها كما وضحت ، ويعتبر ان ذلك مما لايوجب فضيلة ولايستر سرقة ، فاننا نجده حينما تناول المعاني المشتركة يحد من هذا الرأي فيقول « واذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق اليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه واحسانه فيه » (٦) . وعلى ضوء ما سطرناه في قضية

---

(١) ع ش ص ١٥
(٢) ع ش ص ١٦
(٣) ع ش ص ٨٠
(٤) ع ش ص ٨١
(٥) ع ش ص ٨١
(٦) ع ش ص ٧٩

عكس المعاني ، نستطيع ان نفهم صفة من صفات المعاني وهي أن تكون بديعة فكلمة بديع هنا ، اما تعني الاختراع والجدة على غير سابق مثال ، أو تعني «البراعة والغرابة التي يدل عليها العجيب » (١)، ولعل المعنيين معاً واردان ، ذلك لأن السمع « اذا ورد عليه ماقد مله من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي كثر ورودها عليه ، مجه وثقل عليه رعيه ، فاذا لطف الشاعر لثوب ذلك بما يلبسه عليه ، فقرب منه بعيداً أو بعد منه قريباً ، أو جلل لطيفا ، أو لطف جليلا أصغى اليه ودعاه واستحسنه السامع واجتباه »(٢) .

ونستنتج من هذا كله أن المعنى المطروق يجب ان يصوغ احسن صياغة ، وأن يلبس حتى يخفى على سامعيه مصدره ولابد من الاشارة هنا ان ابن طباطبا يركز على المتلقي اكثر من الشاعر ، لأن مدار الأمر على قبول المتلقي لهذا المعنى أو رفضه له ، أي هل يحقق اللذة لدى المتلقي ام انه يكون كالمطرح المملول فاذا جودة المعنى المطروق تتحقق على مستويين : مستوى فني ومستوى تواصلي .

أما على المستوى الفني فالمعاني المطروقة يجب أن تصاغ أحسن صياغة وأن تستعمل في غير السياق الذي وردت فيه . وعلى المستوى التواصلي يجب أن تحقق المتعة واللذة التي عليها مدار الأمر ، لأن الشعر له وظيفة ، ووظيفته في ظل الوضع الاجتماعي الجديد هي الاطراب بدفع الملل ، والاضحاك(٣) وتطهير الانسان من بخله وحرصه وغير ذلك من الرذائل (٤) . واذا كانت هذه هي وظيفة الشعر ، فينبغي الا ننسى أثر الشعر الذي يضمن المعاني الاخلاقية المصوغة صياغة جيدة في هذه الوظيفة وتأصيلها فالشعر الذي يتضمن معنى فيه حكمة مستخلصة أو فيه دعوة أخلاقية تبين بأن يدفع المتلقي الى

---

(١) مادة ب دع في المصطلح النقدي في نقد الشعر
(٢) عيار الشعر ص ١٢٥
(٣) ع ش ص ١٥
(٤) ع ش ص ٢٢

الارتفاع والسموق ، أما الشعر الواهي المعنى الذي لاطائل وراءه فلا يجب أن يدخل مملكة الشعر (١) .

عيار الشعر

تتحدد قيمة الشعر بمدى تقبل الفهم الثاقب له ويتم ذلك على مستويين : أما المستوى الأول فهو «تناسب القصيدة في ذاتها ، باعتبارها مجموعة من العناصر المتجانسة التي لايختل بناؤها أو شكلها» (٢) . أما المستوى الثاني فهو «تناسب القصيدة – ككل – مع الغاية التي نظمت من أجلها ، أو – بعبارة أخرى – موافقتها للحال التي أعدت لها» (٣) والفهم عند ابن طباطبا ليس «الا تلك القوة التي تجد في الشعر لذة مثلما أن كل حاسة تلتذ بما يليها وتتقبل ما يتصل بها» (٤) وهذه اللذة التي يحس بها الفهم الثاقب ترتد الى مبدأ الاعتدال الذي هو علة حسن كل شيء او نفي الاضطراب الذي هو علة كل قبيح . فالاعتدال «مطلب جمالي في الشعر ، ولا يتحقق هذا المطلب في النص الشعري الا اذا اجتمعت فيه صحة الوزن وصحة المعنى وعذوبة اللفظة ، فاذا تم له ذلك تم قبول الفهم له ، واذا نقص من الاعتدال شيء فان انكار الفهم منه يكون بقدر ذلك النقصان» (٥) . اذ لا قيمة لجمالية أحد العناصر الا اذا تحققت صفة الجودة في العناصر الاخرى (٦) . فاذا توافرت هذه الشروط التي هي صحة الوزن واعتداله وصحة المعنى ولطافته ، وعذوبة اللفظ وحلاوته تحقق للشعر الجودة ، وتحقق للمتلقي نوع من اللذة (٧) ، وتقل هذه اللذة بقدر نقصان جودة هذه العناصر لكن اذا كانت هذه اللذة التي يحدثها الشعر

---

(١) مفهوم الشعر ص ٤١ – ٤٢ – ٤٣.
(٢) مفهوم الشعر ص ٥٨.
(٣) مفهوم الشعر ص ٥٨.
(٤) نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ١٣٧.
(٥) نفس المرجع ص ١٢٦.
(٦) مفهوم الشعر ص ٦٠.
(٧) انظر طبيعة هذه اللذة ص ٦٠ في مفهوم الشعر.

في المتلقي تختلف من متلق الى آخر بحسب نوع الشعر ، فانه لابد من الأخذ بعين الاعتبار موافقة الشعر لمقتضى الحال ، وتلك عادة أخرى لقبول الفهم الثاقب للشعر . فاعتدال الشعر في ذاته ينبغي أن يتناسب مع واقع المتلقي وتكوينه ، حتى يكون التحكم في قبول الفهم الثاقب للشعر محكوماً ومضبوطاً.

ومبدأ الاعتدال ينسحب على القصيدة كلها ، ذلك أن مطلب تناسب القصيدة في ذاتها ، يقود الى مبدأ الوحدة في القصيدة (١) ، فالقصيدة كما سبقت الاشارة يجب أن تكون وحدة متكاملة متلاحمة ، فعلى الشاعر أن ينتقل من معنى الى معنى بألطف تخلص ، كما أن مطلع القصيدة يجب أن يشاكل المعنى المركزي ، فلا يبدأ القصيدة بالمديح الا بالمطلع الذي يشاكله : كما أن ابيات القصيدة يجب ان تتأسس على حسن الجوار ، وينسحب مفهوم الوحدة حتى على البيت الواحد ، فالالفاظ يجب ان تكون متشاكلة ، ومما يؤكد هذه الوحدة في القصيدة ، انه يدعو الشاعر الى نظم الشعر وتوحيد عناصره ، كما هو الحال عليه في الرسائل التي تتصل جميع فصولها بدون انقطاع ، فيجب ان تكون القصيدة بجميع عناصرها كالكلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ، نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف (ص١٣١) .

البلاغة : ردد ابن طباطبا ماورد في الكتب البلاغية ، حينما تحدث عن القيمة الجمالية في الشعر ، والمطابقة لمقتضى الحال ، كما ظهر الاتجاه البلاغي واضحاً عند تقسيمه لانواع التشبيه ، هذا بالاضافة الى ايراده بعض ألفاظ الجاحظ البلاغية كالفهم والغاية التي يجري عليها السامع والقارىء : «فالواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتلبة لمحبة السامع» (ص١٢٦) ، ويضيف : «فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ولاءم الفهم ،وكان

(١) مفهوم الشعر ص ٦٢ انظر طبيعة هذه الوحدة في بقية الصفحات – انظر ص من ٢٩٣ الى ٢٩٦ وكذلك ص ٣٦٨ من كتاب بناء القصيدة في النقد العربي القديم.

انفذ من نفث السحر ... وقد قال النبي (ص): «ان من البيان لسحر» (ص٢٢) ويتحدث هنا عن البيان الذي يعد من أهم مباحث اللغة العربية ، والذي أصبح علماً من علومها ، فهو يسعى الى الغاية التي سعى اليها الجاحظ ويردد مقولاته(١)

ويطالب ابن طباطبا الشاعر – إن استطاع – أن يوصل المعنى بأخف لفظ من دون أطناب وتطويل ، شأنه شأن البليغ : «فاذا استقصى المعنى واحاطه بالمراد الذي يسوق القول بأيسر وصف واخف لفظ لم يحتج الى تطويله وتكريمه» (ص ١٢ – ١٣) فكأنه يكرر قول العتابي حين سئل عن البلاغة فقال «البليغ كل ماأفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ» (٢) ، بل أنه يورد مقولة العتابي في كتابه : «قيل للعتابي : بما قدرت علم البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام» (ص٨١) . وتحدث عن لون آخر معروف في فنون البلاغة وهو حسن الخروج من معنى الى معنى الذي تعرض له ابن المعتز من قبل (٣) ، والذي عبر عنه بحسن التخلص وبحسن الخروج (ص١٢ – ١٣١) الى ان وصل الى التشبيه واطال القول فيه وفي اقسامه :

١ – تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيأة : كقول امرىء القيس (٤) :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

٢ – تشبيه الشيء بالشيء لوناً وصورة ، كقول حميد بن ثور :

على أن سحقا من رماد كأنه حصى أثمد بين الصلاة سحيق

٣ – تشبيه الشيء بالشيء لوناً وحركة وصورة وهيأة : كقول ذي الرمة :

مابال عينك منها الدمع ينسكب كأنه من كلي مفرية سَرِب.

٤– تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيأة ، كقول عنترة :

وترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك جناحه بجناحه قدح المكب على الزناد الاجذم

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٥.
(٢) م. س ص ٨٠.
(٣) البديع ص ٦٠ – ٦١
(٤) اشعار الشعراء الستة

٥– تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة، كتشبيه الجواد كثير العطاء بالبحر وتشبيه الشجاع بالاسد (ص ٢٣ – ٢٦) . وتحدث عن ادوات التشبيه قائلا : فما كان من التشبيه صادقاً ، قلت في وصفه كأنه ، او قلت ككذا ، وما قارب الصدق ، قلت فيه : تراه او تخاله او يكاد» (ص ٢٧) ، وتحدث عن بعض ضروب الكتابة كالتعريض الخفي (ص ٢٣) ، ودعا ابن طباطبا إلى اجتناب : «الاشارات البعيدة والحكايات المغلقة والايماء المشكل ... ويستعمل – الشاعر – من المجاز ما يقارب الحقيقة ، ولا يبعد عنها من الاستعارات وما يليق بالمعاني التي يأتي بها» (ص ١٢٣)، وقدم بعض النماذج عن التشبيهات البعيدة التي لم يلطف اصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم في العبارة عنها سلساً سهلا (٩٣) لقد فطن ابن طباطبا إلى البلاغة وتعرض لها ، الا انه لم يخصص لها ابواباً ، بل جاءت عبارة عن الستارات في مختلف اجزاء الكتاب ، فالبلاغة عنده وسيلة لا هدف ، لهذا لم يبحثها كما بحثها البلاغيون الذين كانوا يعنون بالتعريفات والتقسيمات .

ويعد كتاب (عيار الشعر) خزانة صغيرة لمجموعة من الشواهد الشعرية البليغة ، وغير البليغة ، إذ يحتوي على سبعة وثمانين وثمانمائة بيت شعري لمجموعة من الشعراء من مختلف العصور العربية ، ولم يهتم ابن طباطبا بشرح كل هذه الابيات وتفسيرها ، بل كان يتعرض للشرح والتعليق كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، كما ان المآخذ التي اخذها على الشعراء كان لها اثر على معاصروه ابي عبدالله المرزباني (– ٣٨٤هـ) فكان كلما عرض لشاعر ذكر ما اخذه عليه ابن طباطبا والنقاد من قبله ، لذا عنون كتابه (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) ، وعد ابن طباطبا من العلماء بالشعر .

وترجع اهمية كتاب عيار الشعر إلى اعتبارين :

١ – يعد الكتاب من اهم ما خلفه العرب من تراث

٢ – يشهد بنظريات فذة تشي بدقة صاحبه في مقاييسه ، إذ حاول ان يعطي تصوراً للشعر والنقد يدركهما العقل ، فكل ما قام به ابن طباطبا في

مقاييسه أذ حاول أن يعطي تصوراً للشعر والنقد يدركهما العقل فكل ماقام به أبن طباطبا في كتابه كان يتم عن طريق الفهم والعقل اللذين يقومان بدور المراقبة والحكم على الاشياء ، لذا حرص على الاطراف الثلاثة التي تقوم عليها نظرية الأدب : الاثر الادبي، والاديب والمتلقي، وركز كثيراً على هذا الاخير لأن الشعر في نظره قائم على الواقع الطبيعي والاجتماعي ومرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، فالشعر يرتبط مع الواقع بعلاقات وشيجة.

ان تصور ابن طباطبا للشعر بهذا الشكل يجعل الشاعر الجهاز المسؤول عن انتاجه الشعري ، ويتحدد هذا الانتاج في مستويات ثلاثة :

١ – المادة الاولى التي يعمل عليها الفكر وهي الموروث والحصيلة الثقافية التي تخزن في ذهن الشاعر وتعد بمثابة المادة الخام التي تدخل الفكر لتصاغ من جديد وتخرج في قوالب شكلية جديدة .

٢ – وسائل الانتاج : وتتحدد في نظرته للمفاهيم التي يستعملها وفي الطريقة المنهجية التي يسير عليها الشاعر حتى تخرج القصيدة جيدة .

٣ – شروط الانتاج : التي تجعل الشاعر ينتج ضمن شروط معينة تاريخية واجتماعية .

واذا قارنا بعض آراء ابن طباطبا بالمفاهيم اليونانية ، نجد انها تقترب منها ، فنظرته للمعاني المشتركة لا تبتعد كثيراً عن نظرية المحاكاة التي نادى بها ارسطو . وقد اشار هدارة (١) إلى ان مدرسة اسقراطس «قد ايدت فكرة احتذاء شاعر للنماذج الرفيعة المختارة وقررت ان من الخطأ البين اعتبار محاكاة شاعر لآخر نوعاً من السرقة ، وكذلك فعل (شيشرون) عندما اكد ضرورة ماقرره (ديموستين) من إن الاديب بحاجة الى اساليب غيره عن طريق احتذائها ، وجاء (كونتليان) بعد ذلك فقرر ان التقليد الفني للنماذج الرفيعة لا يمكن ان يعد سرقة ، بل محاكاة لفضائلها، فالاديب لا يقلد الا ما يعجب

(١) مقالات في النقد الادبي ص ٣١

« الآخرون ، ورأى ان هذه القضية انتقلت إلى النقد الأوربي ، وآمن بها عدد من مشاهير الشعراء في القرن ١٨ خاصة دريدن وتوماس جراي : (١) «وربما كان من احدث من تكلموا عن الاحتذاء في النقد الاوربي الشاعر بالمعاصر ت . س اليوت T.S.ELIOT الذي يقول : ان اي شاعر أو أي فنان لا يمكن ان يدعي معنى لنفسه،اذ لا بد من وجود صلة قوية بين معانيه ومعاني الشعراء الاقدمين ..»

وهنا يمكن ان نتساءل ، إلى اي حد يمكن ان تتجاوب آراء ابن طباطبا في هذه القضية مع الآراء التي عرضناها ؟

ان رأي ابن طباطبا يتفق مع مادعت اليه مدرسة اسقراطس اليونانية وما قرره كونتليان وغيره في ان الاقتداء بالحسن لا يعد عيباً ،ولا يسيء بالشاعر الا انه يختلف مع ما جاء به الناقد المعاصر اليوت من عدم ادعاء الفنان المعنى لنفسه .

لان ابن طباطبا رسم للشعراء طريقة اخفاء المعاني السابقة حتى ينفرد الشاعر بشهرتها كأنه غير مسبوق اليها . وهنا يمكن ان نلمس له العذر ، فهو حاول ان يحل ازمة الشعراء المحدثين بأي شكل وبأية طريقة ، لان النقاد اصبحوا يعدون المعاني التي يشترك فيها الشعراء سرقة،واتخذوها حجة للحط من قيمة الشاعر ، وهذا ما فعله اصحاب ابي تمام والبحتري في ذلك الصراع الذي ورد في كتاب (الموازنة) وما قام به خصوم المتنبي في (الوساطة) .

ومع ذلك فان آراء ابن طباطبا صالحة في هذه القضية — حتى في عصرنا الحديث ، خاصة عندما رأى ان المعنى يمكن ان يستقى من الشعر القديم ، ومن الكلام المنثور والخطب والرسائل والحكم . فالنص الشعري هو شبكة تلتقي فيها عدة نصوص تمثل كنز الشاعر وتحدد ذاكرته الشعرية ،وكما قالت

---

(١) مقالات في النقد الادبي — ص ٣٢ — ٣٤ .

جوليا كريستيفا ان «كل نص هو امتصاص وتحويل لوفرة من النصوص الاخرى» (١) .

ان النص الشعري هو اعادة كتابة وقراءة للنصوص الاخرى اللامحدودة ، انه يساهم في استمرارها وتحركها كجوهر قابل للتجدد عن طريق الكسوة والقوالب الشكلية ، وهذا ما اصبح معروفاً ومتداولا في شعرنا الحديث ، وما اصطلح عليه بحضور النص الغائب او التناص .

اما بالنسبة لنظرته إلى قضية الوحدة العضوية ، فقد اثارت انتباه عدد من الدارسين المحدثين ، حيث رأى الدكتور جابر عصفور (٢) ان ابن طباطبا في الحاحه على انتظام القصيدة، قد تأثر بالمفاهيم الفلسفية المترجمة عن افلاطون وارسطو ، وقال : «ورغم اننا نقدر لابن طباطبا الحاحه على الوحدة ، الا ان الحاحه — في نهاية الامر— الحاح على وحدة عناصر ثابتة، لا وحدة عناصر متفاعلة تتناغم بكيفيات يصعب على المنطق الشكلي حصرها او ادراكها» (٣) ويشاطره في هذا الرأي الدكتور غنيمي هلال حين يقول : «وفي هذا يرى ابن طباطبا ان مجرد وصل اجزاء القصيدة على نظامها الجاهلي في جمعها بين الغزل والمدح او وصف الديار والآثار والنوق وحدة لها ، فلا يكون المعنى الثاني منفصلا عما قبله متى تخلص الشاعر اليه تخلصاً حسناً ، وان كان في الواقع مغاير للمعاني التي سبقته ، ولا مبرر لجمعها الا النظام التقليدي ، كالجمع بين الغزل والمدح ، او بين الآثار والفيافي والنوق والشكوى والاستماحة ..» (٤) .

لهذا عدّ ابن طباطبا من نقاد العرب الذين «فهموا الوحدة على نحو بعدت كل البعد عن تحقيق وحدة القصيدة العضوية كما نفهمها اليوم ، فكانت عنايتهم

---

(١) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب / مقاربة بنيوية تكوينية — ص ٢٥ .
(٢) مفهوم الشعر — دراسة في التراث النقدي — ص ٦٣ — ٦٤ .
(٣) مفهوم الشعر — دراسة في التراث النقدي — ص ٦٥ .
(٢) النقد الادبي الحديث — ص ٢١١ .

بالاجزاء وتوثيق الصلة بينها اشد من عنايتهم بوحدة العمل الفني جملة» (١). لكننا اذا نظرنا إلى ابن طباطبا في اطار عصره ، لا ننقصه حقه ، اذ يجب ان ندخل في عين الاعتبار او الزمان الذي عاش فيه ، والعقلية التي كانت سائدة في عصره ، فالكل زمان ومكان طابعه الخاص .

وحسبنا ان نقول : ان ابن طباطبا تقدم بالنقد إلى الامام ، وخاصة النقد النظري ، فجاء كتابه (عيار الشعر) دراسة موضوعية فنية لصنعة الشعر وقياس جيده من رديئه (٢) — على خلاف ما قال به المستشرق الالماني بروكلمان ، حيث عده كتاباً في العروض اعتماداً على اسمه لعدم اطلاعه عليه — (٣) . هذه الدراسة اعتمدت بالاساس على ما استمده ابن طباطبا من دراسات السابقين من علماء الشعر ورجال البيان ، حيث حملت افكار الاصمعي وبشر بن المعتمر وابن سلام والجاحظ وابن قتيبة ... — كما اوضحتها اثناء التحليل عن طريق المقارنة كما اعتمدت على خبرته الخاصة في القريض ، وهذا الجانب الاخير هو المهم لانه جعل منها بحق دراسة جادة ورائدة في مجال الدراسات الادبية عامة والنقدية خاصة ، وقد اشار إلى ذلك الدكتور احسان عباس اثناء حديثه عن صورة الناقد حين قال (٤) .

«وعند الحديث عن صورة الناقد في النقد العربي ، يجب ان لا ننسى ان الناقد الشاعر كان هو النموذج الذي تنسب اليه الاجادة في النقد» .

المرحلة المعيارية

تعد هذه المرحلة تتويجاً لما سبق من المراحل ، وهي مرحلة دقيقة ، حيث ان الشاعر سيتقمص — هنا — شخصية الناقد ، وينظر إلى قصيدته نظرة نقدية ، مدققة ، تتوخى الجودة والكمال ، وذلك بوضعها في الميزان ، اي

(١) ن — م / ص ٢١٨ .
(٢) تاريخ النقد الادبي والبلاغة — زغلول سلام — ص ١٧٠
(٣) ن — م / ص ٥ .
(٤) تاريخ النقد الادبي عند العرب — ص ٢٧ .

معايرتها . ذلك لأن الشاعر ينبغي له « الا يظهر شعره الا بعد ان يقتنع بجودته، وحسنه ، وسلامته من العيوب التي نبه عليها . وامر بالتحرز منها ، ونهى عن استعمال نظائرها » (١) . وذلك حتى تنال الرضى ، بأن تطرب الفهم ، وتحدث له لذة ، ذلك لأن الشعر الجيد هو ما قبله الفهم ، وارتاح له (٢) فالفهم كما نلاحظ من خلال فحوى الكتاب ، ما هو الا قوة تتحسس مواطن الجمال ، والمتعة ، والحسن الكائنة في الشعر شأنه في ذلك شأن باقي الحواس فاذا كانت «العين تألف المرأى الحسن وتتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل الشم الطيب ، ويتأذى بالمنتن الخبيث والفم يلتذ المذاق الحلو ويمج البشع المر ، والأذن تتشوق للصوت الخفيض ، الساكن ، وتتأذى بالجهير ، الطائل ، واليد تنعم بالملمس اللين ، الناعم ، وتتأذى بالخشن المؤذي» . فان «الفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق والجائز المعروف، المألوف، ويتشوق اليه ، ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائر ، والخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ له فاذا كان الكلام الوارد على الفهم ، منظوماً ، مصفى من كدر العي ، مقوماً من أود الخطأ او اللحن ، سالماً من جور التأليف ، موزوناً بميزان الصواب ، لفظاً ، ومعنى ، وتركيباً ، اتسعت طرقه ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به ، واذا ورد عليه على ضد هذه الصفة ، وكان باطلا محالا ، انسدت طرقه ، ونفاه الفهم ، واستوحش عند حسه به ، وصدىء له وتأذى به ، كتأذي سائر الحواس بما يخالفها» (٣) .

الا ان لذة الفهم ، واطرابه ، لن تتحقق الا بتحقق الكمال ، والحسن داخل الشعر . مما يستدعي بالضرورة تحقيق مجموعة من المعايير الجمالية داخلها. وهذه المعايير الجمالية يمكن تصنيفها في نوعين :

أ — معايير خاصة بالشعر في ذاته .

---

(١) عيار الشعر : ص ١٥ .
(٢) عيار الشعر : ص ٢٠ .
(٣) عيار الشعر : ص ٢٠ .

ب- معايير خاصة بالشعر في علاقته بالواقع الخارجي.

ونلاحظ بأن هناك تداخل بين هذين النوعين لدرجة لا يمكن معها الفصل بينهما ، فالشاعر حين يقوم باختيار معانيه ، والفاظه ، واوزانه ، وقوافيه ، انما يراعي مقام الممدوح ، ومنزلته بالدرجة الأولى . فمن هذه المعايير هناك :

١ - اعتدال الوزن

يقول ابن طباطبا : «وللشعر الموزون ايقاع ، يطرب الفهم لصوابه ، ويرد عليه من حسن تركيبه ، واعتدال اجزائه» (١) . فالشعر الذي يحسن صاحبه اختياره ، وتركيبه بطريقة بارعة ينسجم بها مع موضوع القصيدة ، ويتلاءم معه «بموافقة لا مضادة» (٢) يعطي للقصيدة رنيناً ، وايقاعاً موسيقياً رائعاً : «يطرب الفهم لصوابه» (٣) .

٢ - صواب المعنى

وهذا لن يتحقق الا من خلال مجموعة شروط هي :

أ - موافقته الحال التي ينشأ المديح من أجلها

يقول : «ولحسن الشعر ، وقبول الفهم اياه ، علة اخرى ، وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها ، كالمدح في حال المفاخرة ، وحضور من يكبت بانشاده من الأعداء ، ومن يسر به من الأولياء» (٤). كما ان هذه الموافقة لن تتم «الا بوضع الكلام مواضعه . فيخاطب كل طبقة بما يليق بها . فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات ، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وان يخلطها بالعامة» (٥) . مع الحرص كذلك على ذكر كل ما يوافق اهواء هذه الطبقة ، ويتلاءم معها ، ذلك لأنه : «اذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافق هواها ، اهتزت له ، وحدثت لها اريحية وطرب» (٦) ومن هنا جاءت

(١) عيار الشعر : ص ٢١ .
(٢) عيار الشعر : ص ١٦ .
(٣) عيار الشعر : ص ٢٠ .
(٤) عيار الشعر : ص ٢٢
(٥) عيار الشعر : ص ١٢ .
(٦) عيار الشعر : ص ٢١.

اهمية حرص الشاعر على الا يأتي : «في اشعاره ، ومتفتح اقواله بما يتطير منه ، او يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ، ووصف اقفار الديار ، وتشتت الالاف ، ونعي الشباب ، وذم الزمان لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح او التهاني (١) ذلك لأن المطلع اول ما يقرع الأسماع ، فهو يعتبر عنصر تشويق ، ذلك انه يكون سبباً في اقبال المتلقي على الاستماع إلى القصيدة ، او الانصراف عنها .

ب – الصدق : وهو أنواع

١– الصدق في المعاني

فمراعاة الشاعر لمقام الممدوح في اختياره لمعاني مدحته ، أنما يقصد من ذلك الصدق في مدح كل طبقة بما يتفق مع منزلتها ، ويلائمها فلا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك ، والا كان كاذباً او مبالغاً ، ولا يمدح التجار واصحاب الصناعات بما يمدح به الأمراء ، والقادة ، والا كان كاذباً ذلك لأن لكل طبقة صفاتها الثابتة ينبغي على الشاعر ان يلتزم بها ، ويصدق في التعبير عنها (٢) .

٢– الصدق في التشبيه

اي ان الشاعر لا يعمد إلى تشبيه الممدوح بشيء الا اذا كان هناك اتفاق كبير بين المشبه والمشبه به ، في وجه الشبه . «مما يقوي التشبيه ويؤكد الصدق فيه» (٣) .

٣ – الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلفة فيها :

اي صدق الشاعر مع تجربته – اي قصيدته – وذلك من خلال الصدق في التعبير عن المعاني ، التي توافق حال الممدوح ، وطبقته وخصاله ،

---

(١) عيار الشعر ١٢٦ .
(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي : ص ١٩٨ .
(٣) عيار الشعر : ص ٢٣

ويعترف بها الشاعر في قرارة نفسه . وهذا الصدق سيكون له تأثير كبير على الممدوح ذلك «ان ما خرج من القلب ، وقع في القلب ، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان» (١) .

٤ – الصدق الذي تتفق فيه تجربة الشاعر مع ميولات الممدوح واهوائه

وذلك بتعبير الشاعر عن الاشياء القائمة في النفوس ، والعقول ، فيحسن العبارة عنها ، واظهار ما يكمن في الضمائر منها . فيبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه ، وقبله فهمه ، فيثار بذلك ما كان دفيناً ، ويبرز به ما كان مكنوناً (٢) . ذلك «لأن النفس تسكن إلى كل ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفه (٣) .

٥ – الصدق الذي توافق فيه تجربة الشاعر الواقع التاريخي

اي الصدق في التعبير عن الأحداث التاريخية بحيث ان «الشاعر اذا اضطر إلى اقتصاص خبر في شعره دبره تدبيراً ، يسلس له معه القول ، ويطرد فيه المعنى» (٤) . مع الحرص على «صدق الحكاية فيه» (٥) .

٦ – الصدق الذي تتوافق فيه تجربة الشاعر مع التجارب الانسانية عامة

وذلك بأن يودع الشعر «حكمة تألفها النفوس وترتاح لصدق القول فيها ، وما أتت به التجارب منها ... أو تضمن أشياء توجها أحوال الزمان على اختلافه وحوادثه على تصرفها ، فيكون فيها غرائب مستحسنة ، وعجائب بديعة مستطرفة» (٦) .

وابن طباطبا حين يؤكد على الصدق كمقياس تعرف به جودة الشعر من رداءته ، انما يؤكد على ضرورة الالتزام بالجانب الأخلاقي – في المديح

---

(١) عيار الشعر : ص ٢١ .
(٢) عيار الشعر : ص ١٢٥ .
(٣) عيار الشعر : ص ٢١ .
(٤) عيار الشعر : ص ٢١ .
(٥) عيار الشعر : ص ٤٠ .
(٦) عيار الشعر : ص ١٢٥ .

وغيره المتمثل في الصدق والاعتدال والابتعاد عن الغلو والكذب ، وهو بذلك انما يحث على نفس القيمة التي أكد عليها الاسلام ، فقد جاء في القرآن الكريم « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (١) والميزة الأولى للذين آمنوا ، وعملوا الصالحات هي : الصدق .

كما ان الصدق الذي أكد عليه ابن طباطبا ، هو نفس الصدق الذي قصده عمر بن الخطاب حين قال في زهير بأنه « لايمدح الرجل الا بما فيه .

ويمكن ان نقول بأن تأكيد ابن طباطبا على الصدق ، له دافع اجتماعي يحاول من خلاله الرفع من منزلة الشاعر التي نزلت الى الحضيض في هذه الفترة ، وذلك في اطار طغيان ظاهرة التكسب بالشعر ، وخاصة شعر المديح مما جعل الشعراء يتجهون نحو الكذب ، والرياء ، والنفاق ، واصطناع المشاعر الزائفة مما أدى الى انحطاط منزلتهم ، « فأصبح الشاعر المادح في نظر الناس هو والمتسول الشحاذ سواء » (٢) ، مما دفع ابن طباطبا الى التأكيد على ضرورة التزام الشاعر بالصدق في كل مايصدر عنه من مديح ، حتى لايتهم بما اتهم به غيره من رياء ونفاق ، وكذب وتملق .

ومن خلال تأكيد ابن طباطبا على الصدق تأكد على معيار آخر يعد من اهم المعايير الجمالية المستحبة في الشعر بالنسبة لا بن طباطبا ألا وهو :

ج ـ الاعتدال : ذلك ان علة كل حسن مقبول الاعتدال . كما ان علة كل قبيح منفي الاضطراب (٣) .

فوجب على الشاعر ان يلتزم بالاعتدال في شعره ، وذلك بابتعاده عن الغلو والافراط من جهة ، وعن الاهمال والتفريط من جهة ثانية . فلا افراط ولا تفريط . وبتحقق الشروط السابقة الذكر ويتحقق صواب المعنى .

---

(١) سورة الشعراء : أية ٢٢٤/٢٢٥ .
(٢) ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ص ٢١٠ .
(٣) عيار الشعر ص ١٤ .

٣ – حسن الألفاظ

لن يتحقق هذا المعيار الا من خلال البراعة في اختيار الألفاظ ، ومدى مطابقتها للمعنى ، وانسجامها معه لأن للمعاني ألفاظاً تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها (١) . كما ان الشاعر يجب عليه أن يحرص على انسجام الألفاظ مع بعضها البعض . وتوافقها فاذا أسس الشاعر « شعره على أن يأتي فيه الكلام البدوي الفصيح . لم يخلط به الحضري المولد ، واذا أتى بلفظة غريبة أتبعها اخواتها وكذلك اذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الو حشية النافرة ، الصعبة القيادة (٢)

والملاحظ بأن ابن طباطبا اهتم باللفظ والمعنى على حد السواء . فوقف بذلك موقفاً معتدلا من قضية اللفظ والمعنى التي استأثرت بأهتمام النقاد العرب القدماء .

٤ – الابتداء بذكر مايعلم السامع له الى أي معنى يساق القول فيه قبل استمامه.

هذه الطريقة في النظم ظهرت مع ظهور الشعر السياسي في العصر الأموي حيث كان الشاعر يسعى الى الكسب أكبر عدد ممكن من الأنصار والمؤيدين وذلك بأعطائهم فرصة للمشاركة في نظم القصيدة ، والتفاعل معها . فيلجأ الى اعطائهم دلالة البيت سواء عن طريق جملة او لفظة ، تجعل المستمع يخمن ماهي اللفظة المناسبة للبيت . فاذا كان للشعر على هذا المثال ، سبق السامع الى قوافيه قبل ان ينتهي اليها (راوية)(٣) . أي أنه سيكون من الشعر الذي اذا سمع صدره عرفت قافيته (٤) . وهذا لن يتحقق الا من خلال معيار آخر هو :

---

(١) عيار الشعر : ص ١٤

(٢) عيار الشعر : ص ١٢

(٣) عيار الشعر : ص ١١ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢ .

٥ ـ الوضوح

يتحقق هذا المعيار داخل القصيدة بمقدار ما تكون جيدة حسنة . والملاحظ بأن ابن طباطبا يؤكد على ضرورة الصدق في اختيار المعاني وموافقتها لحال الممدوح ، ومنزلته والابتعاد بها عن الغلو والافراط ، وحين يؤكد على سهولة الألفاظ ، وضرورة انسجامها مع المعاني ، فأنه يؤكد على الوضوح ، هذا الوضوح الذي يعمل على كشف قناع المعنى حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله (١) الشيء الذي يجنب الشاعر الاضطرار الى التطويل والتكرار ، لأنهما من الأمور التي عيبت في الشعر .

٦ـ التعريض الخفي

الذي يكون بخفائه ابلغ في معناه من التصريح الظاهر وهذا التعريض الخفي لا يمكن ان نقول : بأنه يعارض الوضوح ويناقضه، بل على العكس من ذلك فهو يزيده جمالا ، وبلاغة ، ففي بعض الأحيان تكون الايماءة الى الشيء، أحسن من التصريح به وأبلغ .

فمن هنا سينظر الشاعر الى مديحه ، ومدى تحقق هذه المعايير الجمالية ـالسابقة الذكرـ فيه لأنه : « اذا كان ناقصاً عن الصفة التي ذكرناها ،كان سبباً لحرمان قائله ، والمتوسل به (٢) بخلاف انها اذا تحققت كلها في مدح الشاعر فانها ستطرب المتلقي ، وتخلق لديه لذة وهذه اللذة لها مستويات : هناك لذة كبرى لن تتحقق الا من خلال ثلاثة مستويات اخرى وهي :

أ ـ اللذة الحسية : وتحدث على مستوى حاسة السمع .

ب ـ اللذة العقلية : وتتم على مستوى العقل .

جـ ـ اللذة الروحية : وتتم على مستوى النفس أي الروح .

---

(١) البيان والتبيين ١/٥٥ .

(٢) عيار الشعر : ص ١٥ .

أ ــ اللذة الحسية : تتم من خلال الايقاع الموسيقي المنبثق من انسجام اللفظ مع المعنى ، وانسجام الألفاظ فيما بينها ، ثم من خلال توافق الوزن والقافية مع المعنى مما يولد ايقاعا موسيقياً ، يعجب الأسماع ويطربها . اذن هذه اللذة تنبعث من خلال المعرض الحسن والكسوة الزاهية للمعاني .

ب ــ اللذة العقلية : تتمثل هذه اللذة في لذة الفهم ، والفهم قوة تتحسس مواطن الجمال الكامنة في النص الشعري وهي تتحقق من خلال المعاني الصائبة والتشبيهات الموافقة والحكم العجيبة . فالمعاني ــ وكما سبقت الاشــارة ــ يجب ان تكون من نفس الخصال التي مدحت بها العرب ، وتمدحت بها الشيء الذي سيطرب الممدوح ، لأن ذلك سيؤكد عروبته وأصالته . مــع الحرص على ان تنسجم هذه المعاني والتشبيهات مع الحال الممدوح ،ومنزلته مع الاتيان بحكم تألفها النفوس وترتاح لصدق القول فيها ، وما أتت بــه التجارب منها (١) فينكشف بذلك « للفهم غطاؤه » ، ذلك لأن هذا المديــح سيكون ــ حينئذ من الشعر الذي تختلب به العقول وتسحر به الألباب (٢) .

والملاحظ ان هناك تداخلا بين اللذة الحسية، واللذة العقلية ، ذلك ان الشعر البديع ، البليغ ، لايكون لفظه الى سمعك أسرع من معناه الى قلبك (٣).
ومن هنا يمكننا ان نقول بأن ابن طباطبا ، يؤكد على تحقيق جانبي المتعة والمنفعة في المديح ، بعد ان أصبحت قيمته محددة فيما يمكن ان يحققه من لذة فنية وحسية ، خاصة بعد ظهور مذهب البديع الذي اهتم أصحابه بالأبداع في الصياغة الفنية للقصيدة ، ومحددين وظيفتها في المتعة ، وليس في المنفعة ولقد عبر ابن طباطبا عن ذلك قائلا : « والشعراء في عصرنا ، انما يثابون على مايستحسن من لطيف مايودونه من اشعارهم ، وبديع مايغربون من معانيهم

(١) عيار الشعر : ص ١٢٥ .
(٢) عيار الشعر : ص ١٢٦ .
(٣) الشعر والشعراء ١/٧٩ .

وبليغ ماينظمونه من الفاظهم ، ومضحك مايوردونه من نوادرهم ، وأنيق مانيسجونه من وشي قولهم دون حقائق مايشتمل عليه المدح . فاذا كان المديح ناقصاً عن الصفة التي ذكرناها ، كان سبباً لحرمان قائله والمتوسل به (1) . لذلك يحاول ابن طباطبا ان يغير هذه الوضعية التي أفقدت الشعر قيمته التي كانت له من قبل ، حيث كان يؤدي وظيفة ازدواجية تتمثل في المتعة والمنفعة ومن هنا جاء تأكيده على اللذة الحسية ، واللذة العقلية ، المتمثلة في اطراب الشعر للأسماع وسحره للألباب.

ج – **اللذة النفسية أو الروحية** : حين تتحقق اللذة الحسية واللذة العقلية لدى المتلقي فان التفاعل بينهما ، يؤدي الى جلاء الهم ، وذهاب كدر المتلقي ،مما يحدث له أريحية ، وطربا ، وبذلك تتحقق لذته الروحية .

د – **اللذة الكبرى او الشمولية** : حين تحقق المستويات الثلاثة – السابقة الذكر – من اللذة عند المتلقي تحدث اللذة الكبرى والشمولية ، التي يرتفع بها الى مرتبة يفقد معها احساسه بذاته ، وبالزمان وبالمكان فيكون تأثير هذا الشعر عليه كتأثير السحر، خصوصاً ، اذا مازج الروح، ولاءم الفهم ، فانه يكون انفد من نفث الشعر واخفى ذبيبا من الرقى ، واشد اطرابا من الغناء... كما أنه يكون كالخمر في لطف دبيبه ، والهائه ، وهزه ، واثارته . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ان من البيان لسحرا » ، وهذا غاية مايتمناه الشاعر لمدحته .

وهكذا نرى كيف تمكن ابن طباطبا من ان يسهم في حل ازمة الشاعر المحدث التي كان يعاني منها اشد عناء . فوضع بين يديه مخططاً كاملا «لبناء القصيدة» والشعر بصفة عامة معتمداً في ذلك على ذوقه الفني ، وتجربته الشخصية في قرض الشعر .

وهذا هو الشعر الجيد – ومن بعد – هذه هي الشاعرية .

---

(1) عيار الشعر : ص ٢٢ .

المصادر والمراجع

- **الأسس الجمالية في النقد العربي** ، عز الدين اسماعيل ، دار الفكـر العربي ، ط٣ ، بيروت ، بلا
- **اشعار الشعراء الستة الجاهليين** ، الاعلم الشنتمري ، دار افاق الجديدة بيروت ، ١٩٧٩
- البديع ، عبد الله بن المعتز ، اغناطيوس كراتشوفسكي ، دارالمسيرة ، ط ٢ بيروت ، ١٩٧٩ .
- **بناء القصيدة العربية** يوسف بكار ، دارالثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٩ .
- **البيان والتبيين** ، الجاحظ ، ت عبد السلام هارون ، دار الفكر ، مصر ١٩٦٨ .
- **تاريخ النقد الادبي عند العرب** . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ط ٤ ، ١٩٨٣ .
- **تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري** ، محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، مصر ، بلا
- **الحيوان** ، الجاحظ ت . عبد السلام هارون ، منشورات المجمع العلمي العربي الاسلامي ، بيروت ، بلا
- **الشعر والشعراء** ، ابن قتيبة ، م . بريل ، ١٩٠٢ .
- **طبقات فحول الشعراء** ، ابن سلام الجمحي ، ت محمود محمد شاكر م. المدني ، مصر ، بلا
- **ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، مقاربة بنيوية تكوينية** ، محمد بنيس دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥ .

- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، ابن رشيق القيرواني ،ت محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨١ .
- **عيار الشعر** ، ابن طباطبا ، ت عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٨٢ .
- **فصول في النقد العربي وقضاياه** ، محمد خير شيخ موسى ، دار الثقافة المغرب ، ١٩٨٤
- **في النقد والأدب** ، ايلياحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- **لسان العرب** ، ابن منظور . دار لسان العرب . بيروت ، بلا
- **مفهوم الشعر** ، جابر عصفور ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- **مقالات في النقد الأدبي** ، محمد مصطفى هدارة ، دار القلم ، مصر ، ١٩٦٥ .
- **النقد الادبي والبلاغي عند العرب في القرن الثالث الهجري** ، عبد الواحد حسن الشيخ ، مطابع دار النشر الجامعي ، مصر ، ١٩٨٠
- **نقد الشعر** ، قدامة بن جعفر ، ت كمال مصطفى ، ط ٣ ، بيروت ، بلا
- **نقد الشعر في القرن الرابع الهجري**، قاسم مومني ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

النوادر في اللغة

الدكتور
محيي الدين توفيق ابراهيم
كلية الاداب – جامعة الموصل

ظاهرة التأليف في النوادر

لعل من ابرز النتائج التي تمخضت عنها حركة جمع اللغة في مراحلها المبكرة الاولى، ما نجده من كثرة التأليف في الموضوعات اللغوية المتنوعة. فبعد ان جمع العلماء اللغة من مظانها الأولى، وحفظوا منها، ودوّنوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، شرعوا في مرحلة تالية، غلبت عليهم فيها النزعة إلى التنظيم والتصنيف، واخذ الواحد منهم يجمع ما تحصل لديه في الموضوع الذي يود التصنيف فيه. على أن جهودهم الفردية هذه اتسمت في بداياتها الأولى بالعفوية، والبعد عن التنسيق، وكانت محدودة النطاق جزئية الطابع، صدرت في شكل مجموعات صغيرة او رسائل خاصة او كتب حوت في متونها مادة العربية المنتقاة، التي منها انطلقت الدراسات اللغوية، وعليها اعتمدت صناعة المعجم العربي.

وفي طليعة ما وقفنا عليه، او وصل الينا من تلك المحاولات الرائدة في حركة التأليف اللغوي، طائفة من الكتب تحمل اسم (النوادر)، وهي من كتب اللغة التي تميزت بقدم التأليف في موضوعها، وكثرة المؤلفين فيه، وقد بدأ التأليف في النوادر منذ وقت مبكر. وأقدم من ينسب اليه كتاب فيها، هو ابو عمرو بن العلاء [1] (ت ١٥٤هـ) من البصريين، وأبو عبدالله القاسم ابن معن المسعودي [2] (ت ١٧٥هـ) من الكوفيين. ثم شاع التأليف فيها على

(١) الفهرست ٨٨.
(٢) معجم الأدباء ٦/١٧، ونور القبس ٢٧٩.

الأيام ، واستمر في ازدياد واطراد طوال قرنين من الزمان أو أكثر . على ان الكثرة الغالبة لهذه الكتب ظهرت منذ بداية تدوين اللغة ، واستمر ظهورها حتى اواخر القرن الرابع الهجري (١) . وقلّما نجد عالماً من اعلام اللغة ورواتها في تلك الحقبة لم يضع كتاباً في النوادر ،او يجعل منها باباً في احد مصنفاته اللغوية . وقد يعود السبب في ذلك إلى تعدد العلماء الذين قاموا بمهمة رواية اللغة ، واستمرار رحلتهم إلى البادية للأخذ عن الاعراب الفصحاء حتى ذلك الوقت ، ووفرة ما جمعوه من فصيح اللغة وغريبها ونادرها ، ثم تدوين ما سمعوه وحفظوه في كتب خاصة بذلك . ويرجح ايضاً ان تكون بعض كتب النوادر جاءت نتيجة للتنافس بين العلماء في تحقيق ما لمسوه من رغبة الناس في سماع الروايات الشاذة ، والأخبار الطريفة ، سواء اكانت تلك الروايات والأخبار في موضوع اللغة أم الأدب أم الأخبار أم الأنساب .ولا يستبعد أن يحصل مثل هذا التنافس في المرحلة التي انتقلت فيها رواية اللغة وعلومها من البصرة والكوفة إلى بغداد ، وبعد ان اتصل العلماء — وبخاصة الكوفيون منهم — بالخلفاء والولاة ، ووجدوا في مجالسهم من الاستمتاع بالنوادر والطرائف ، ومن الثناء والعطايا السخية ، ما يشجعهم على مثل هذه الرواية، ولعل في كلام ابي الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ) ما يؤكد ذلك حين قال : «فلم يزل اهل المصْرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً ، وغلب اهل الكوفة على بغداد ،وحدثوا الملوك فقدموهم ،ورغب الناس في الروايات الشاذة ،وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات...» (٢) وقد يعود السبب أيضاً إلى ان العلماء والرواة الذين الفوا في النوادر وجدوا في موضوعاتها ما تَسْتهويه انفسهم ، وتتقبله اسماع الدارسين من رواد المجالس والحلقات العلمية ، فعرضوا لها حفظاً وتأليفاً ، لتعزيز مكانتهم من الرواية ، وتأصيل

(١) ينظر : مسرد الأعلام المؤلفين في النوادر ، وقد تضمن اعلاماً الفوا في النوادر بعد هذا ايضاً .

(٢) مراتب النحويين ١٤٤ .

مروياتهم ، واظهار مقدرتهم على رواية ما لم يجده او يسمعه الآخرون منهم ، من نصوص اللغة النادرة وغرائب الفاظها . ويحصل في مثل هذا الأمر ان يكتفي التلاميذ بحفظ ما سمعوه من نوادر شيوخهم او روايته منسوباً اليهم او غير منسوب ، او ان يلجأ بعضهم إلى جمعه وتدوينه في مصنف خاص يحمل اسم النوادر ، على غرار ما فعله الشيوخ ، فتكثر الكتب ، وتتعدد الرواية في اكثر من كتاب .

— مفهوم النوادر

النوادر ، لغةً ، جمع نادر او نادرة ، من قولهم : «نَدَرَ الشيءُ يَنْدُرُ نُدُوراً : سَقَطَ وقيل : سَقَطَ وشَذَّ»(١). وأما في الاصطلاح ، فالنادر تعبير لغوي ، يرد ذكره في كتب اللغة كثيراً ، ويستعمله اللغويون في مروياتهم ، كغيره من المصطلحات اللغوية التي توصف بها الألفاظ العربية لتعيين مرتبتها من الفصاحة ، او مكانتها في الاستعمال والاحتجاج . والنادر من اللفظ او الكلام هو خلاف الفصيح المعروف ،وأغلب ما يكون بهذا المعنى، لأن الفصيح « ما كثر استعماله في ألسنة العرب » (٢) . ونوادر الكلام هي «ما شَذَّ وخَرَجَ من الجمهور ، وذلك لظهوره» (٣) .

والنادر قريب في معناه من (الغريب) و (الحُوشيّ) و (الوَحْشيّ) و(الشاذّ) ،و «كلُّها خلاف الفصيح» (٤) ، لأن الغريب «ما قلّ استماعه من اللغة» (٥) ، وهو ايضاً « الغامض من الكلام » (٦) . والحُوشيّ والوَحْشيّ كلاهما بمعنى الغريب (٧) . والشاذ ما انفرد عن جمهوره وندر (٨) . غير

(١) اللسان (ندر) ١٩٩/٥ .
(٢) المزهر ١٨٧/١ .
(٣) اللسان (ندر) ١٩٩/٥ .
(٤) المزهر ٢٣٣/١ .
(٥) الإيضاح في علل النحو ٩٢ .
(٦) اللسان (غرب) ٦٤٠/١ .
(٧) ينظر : اللسان (حوش) ٢٩٠/٦ .
(٨) ينظر : اللسان (شذذ) ٤٩٤/٣ .

أن النادر «بمعناه العام يشمل هذه الألفاظ جميعاً ، على الرغم من أنه بمعناه الخاص اقرب هذه الألفاظ من الفصيح» (١) .

وفيما وصل الينا من كتب النوادر ونصوصها ، يصعب ان نجد تفسيراً صريحاً لمعنى النادر ، او تحديداً واضحاً لمفهومه ، لخلو هذه الكتب من مقدمات تبين ذلك ، ولعدم خلوصها لنصوص النوادر وحدها ، وإنما اضافت إلى متونها نصوصاً كثيرة من فصيح الكلام ومشهوره ، على نحو ما في نوادر أبي زيد ، ونوادر ابي مسحل الأعرابي (٢) ، فضلا عن أن كتباً اخرى في الفصيح جاءت مطوية على نوادر اللغة وغرائبها ايضاً ، ومنها كتاب (إصلاح المنطق) (٣) لابن السكيت ، وكتاب (الفصيح) (٤) لثعلب . ولعل السبب في ذلك هو «تباين وجهات النظر عند علماء اللغة انفسهم ، واختلاف معاييرهم في تقدير فصاحة الألفاظ او غرابتها» (٥) . وقد رُوي عن ابي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) قوله : «كان الأصمعي يقول افصح اللغات ويُلغي ما سواها ، وابو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحداً فيُجيز كل شيء قيل» (٦) .

وقد بيّن ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) معنى النادر ، وعيّن مرتبته من الفصاحة بقوله : « إعلم انهم يستعملون : غالباً ، وكثيراً ، ونادراً ، وقليلاً ، ومطّرداً ، فالمطرد لا يتخلف ، والغالب اكثر الأشياء ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دون الكثير ، والنادر اقل من القليل . فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالبُها ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر ، فعلم بهذا مراتب ما يُقال فيه ذلك» (٧) .

---

(١) نوادر ابي مسحل الأعرابي / مقدمة المحقق ١٩/١ .
(٢) ينظر : ابو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ١٨٤ ، ١٨٩ ، ونوادر ابي مسحل / مقدمة المحقق ٢٢/١ — ٢٣ .
(٣) ينظر : اصلاح المنطق ٢١٧ — ٢٢٣ .
(٤) ينظر : الفصيح ٤٧ ، ٥٣ .
(٥) نوادر ابي مسحل / مقدمة المحقق ٢٢/١ .
(٦) المزهر ٢٣٢/١ — ٢٣٣ .
(٧) المزهر ٢٣٤/١ .

ويستدل بكلام ابن هشام ، وبنصوص من النوادر ايضاً ، على أن التعليل المقبول في تحديد معنى النادر هو أن يكون اللفظ منه مُخالفاً للقياس ، او أن يكون قليل الاستعمال او السماع . وهذا التحديد تؤكده الأمثلة الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة ، كما تذهب اليه اغلب دراسات المحدثين للنوادر (١)، على ان التعليل ، بقلة الاستعمال او السماع هو الأعم الأغلب في ذلك ،لأن مخالفة القياس وحدها « لاتحل مشكلة النوادر ولاتعللها تعليلا تاماً ، لاننا نجد كثيراً من الألفاظ جاءت مخالفة للقياس ، وهي مع ذلك فصيحة مشهورة لاتعد من النوادر في حال من الأحوال ... وعلى هذا فكثرة الأستعمال أو قلته هو المعيار الصحيح الثابت الذي به يمكن لنا ان نحكم ان هذا اللفظ فصيح معروف ، وأن ذاك اللفظ نادر مجهول » (٢).

ومن أمثلة النوادر التي جاءت مخالفة للقياس :

- قال الليث : « الصُحُف : جماعة الصحيفة ، هذا من النوادر ، وهو ان تجمع فعيلة على فعل ، قال : ومثله سفينة وسُفُن ، وكان قياسهما صحائف وسفائن » (٣) .
- وقال ابو زيد :« وقالوا: علَق يعلق عَلُوقا،ولم يجيء المصدر منه على قياس » (٤) .
- وقال أيضاً :« وتَشَزَّن الرجل صاحبَه تَشزيناً،إذا تَوَرَّكَه وصرعه، والمصدر على القياس تَشَزّناً » (٥) .

(١) ينظر : نوادر ابي مسحل : مقدمة المحقق ٢٠/١ – ٢١ ، وابن الأعرابي ١٨٠ – ١٨٦، وأبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ١٧٥ – ١٨٦ ، وأبو زيد الأنصاري وأثره في دراسة اللغة ١٦٠ – ١٦٦ ، والدراسات اللغوية في القرن الثالث الهجري ٧٨ – ٨٠ .

(٢) نوادر ابي مسحل / مقدمة المحقق ٢٠/١ – ٢١ .

(٣) التهذيب ٢٥٤/٤ .

(٤) النوادر في اللغة ١٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠٦ .

– و « حكى اللحياني عن أبي جعفر الرواسي أنه يقال للرجل : إنه لَمَجنون مَخْنون ، وقد أجنّه الله وأخنّه ، على غير القياس ، والقياس : جَنّه الله وخَنّه ..» (١) .

– وقال ابن السكيت : « وماكان على مَفْعَل ومَفْعَلَة ، فيما يُعْتَمل ، فهو مكسور الميم ، نحو مِخْرَز ومِقْطَع ومبضع... إلا أحرفاً جاءت نوادر بضم الميم والعين ، وهي مُسْعُط وكان القياس مِسْعَط ، ومُنْخُل ومُدُق ومُدْهُن ومُكْحلة ومنصُل » (٢) .

ومن امثلة النوادر التي جاءت قليلة في الاستعمال :

– قال أبو زيد : « وقال آخر :

أَمْسَوا كَمَذْعُورَة الأَرْوَى اذا افزعها
عُرْجُ الضِّباع تُباري الأُسْدَ والذُّئبا

جمع ذيباً على ذئب . قال أبو الحسن (٣) : فِعْل وفِعَل يقل جداً في الكلام ، ولا أعلمه محفوظاً » (٤) .

– وقا ابو مسحل الأعرابي : « وهذه أرض مَنْصُورَة ومَغْيوثة ومغيثة ، ولغة هذيل مُغاثَة ، لأنهم يقولون : اغاثها المطَرُ ، وغيرهم من العرب يقول : قد غيثَت ، فهي مغيثة ومغيوثَة ، وهو أكثر » (٥) .

– وقال ابن سيده : « وحَصَدَ الرجلُ حَصْدا : ماتَ ، حكاه اللحياني عن أبي طيبة ، وقال : هي لُغَتُنا ، قال : وإنما قال هذا لأن لغة الأكثر إنّما هو : عصَدَ » (٦) .

---

(١) الإتباع ٣٩ .
(٢) اصلاح المنطق ٢١٨ .
(٣) هو أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) .
(٤) النوادر في اللغة ١٨٤
(٥) نوادر ابي مسحل ٣٦٩/١ .
(٦) المحكم ١٠١/٣ .

- وجاء في (لسان العرب) (١) : « وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب ، يهْمزون البَريئةَ ، والنبيء ، والذرِيئة، من ذَرَأ الله الخلق ، وذلك قليل » .

هذه الأمثلة وغيرها تدل على ان النادر ماكان مخالفاً للقياس ، او قليلا في الاستعمال ، وجاء معدوداً في بابه . غير ان هذا التحديد لايصح أن يكون تفسيراً عاماً لمصطلح (النوادر) او تقييدا لمفهومه حيثما يرد ، إذ مازال هذا المصطلح محاطاً بشيء من الغموض وعدم الوضوح ، ولم نقف على رأي قاطع فيه غير ما قدمناه ، والذي يبدو لنا ان الذين عرضوا للنوادر من الدارسين المحدثين لم يفرقوا بين ان يكون لفظ (النوادر) مصطلحاً لغوياً.

وأن يكون عنواناً لكتاب في اللغة والأدب أو غير ذلك . ومانراه في هذا الأمر هو ان لهذا المصطلح استعمالين ، أحدهما معجمي لغوي خاص ، يستعمله اللغويون في كتبهم لوصف مايرون فيه مخالفة لقياس مطرد ، أو قلة في الاستعمال والشيوع ، والآخر استعمال تصنيفي عام ، دأب العلماء على توظيفه عنواناً لبعض مصنفاتهم اللغوية والأدبية التي تضم في متونها نصوصاً من اللغة والأدب ، لايجمعها رابط ، ولايحددها منهج معين ،وهي أقرب ماتكون إلى الاختيارات منها إلى كتب الموضوعات الخاصة . وقد تبين لنا من خلال إحصائنا لكتب النوادر أن هذا المصطلح لم يظل محصوراً في مفهومه اللغوي حسب ، بل تطور واتسع استعماله ليشمل الأدب والأخبار أيضاً ، لأن كتب النوادر « عرفت اتجاهين ، أحدهما نحوي معجمي ، والثاني أدبي شعري ، ويمكن ان يكون الثاني ... قد اعتمد على كتب الاخبار ، وهذا مايتضح من كتب عنوانها : النوادر والأخبار » (٢) .

مما تقدم نخلص الى ان لفظ (النوادر) في ميدانه اللغوي ، إما أن يكون مصطلحاً لغوياً يرتبط مفهومه بمخالفة القياس أو قلة الاستعمال ، وقد مثلنا

(١) اللسان (ذرأ) ٣١/١ .
(٢) تاريخ التراث العربي م ٢ - ١٣٧/١ .

له ، أو أن يكون عنواناً عاماً لكتاب لغوي يضم النوادر وغيرها . وأغلب ماتكون كتب النوادر من هذا النوع ، وما وصل إلينا منها يؤكد ذلك . فهي اختيارات تجمع نوادر اللغة والأدب والأخبار ، على نسب مختلفة ، تغلب فيها اللغة ، وفيها النادر والفصيح والمشهور ، اما موضوعاتها فمتنوعة متفرقة(١) فهي « هذه التفاريق التي لايجمعها موضوع معين ، فالذين جمعوا اللغة استطاعوا ان يجعلوا للمفردات باباً . وللصيغ ابواباً إلى غير ذلك ، وبقي ماجمعوه تحت اسم النوادر بمعنى الفرائد» (٢) . أو أنها « هي الغريب من التفاريق » (٣) . ولعل تسميتها بالنوادر من باب إطلاق الجزء على الكل تجوزا لاحقيقة ، أو ان مؤلفيها كانوا يعنون بدلالة هذه التسمية غير ما نفهمه نحن اليوم ، والله أعلم .

- **موضوعات النوادر** .

لاتنطوي كتب النوادر اللغوية على موضوع معين ، فموضوعاتها متنوعة ، وأغلب ماتكون في صيغ الأفعال والمصادر والجموع ، والتصغير والنسب والإبدال والقلب والإتباع ، وبعضها في الأساليب والمعاني . ويكثر فيها الاستشهاد بالشعر والرجز والأمثال والأقوال ، فضلا عن الاستشهاد بالقرآن والقراءات ، وبعض الحديث . كما تزخر بذكر لغات العرب ، والأعراب الفصحاء الذين أخذ عنهم العلماء ، وليس كل مافيها من النوادر والغريب والشاذ ، وإنما تضم إلى ذلك نصوصاً كثيرة من الفصيح والمشهور ، دون أن يكون لها منهج محدد (٤) . وفيما يأتي نصوص مختارة من كتب النوادر، لعلها تفي ببعض ماقلناه ، إجمالا لاتفصيلا :

---

(١) ينظر : الدراسات اللغوية عند العرب ١١٨-١٣٨ .
(٢) رواية اللغة ١٠٠ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) ينظر : ابن الأعرابي ٢٠٢ - ٢١١ ، وأبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ٢١٣ - ٢٣٢ ، والدراسات اللغوية عند العرب ١١٨ - ١٣٨ .

– «قال يونس في نوادره : يقول ناس من العرب : قد ذأى العُشْـب يذْأى فيهمزون ، وبعضهم . ذوي يذْوي ، وهو الكثير» (١) .

– و« يقال : رَضِعَ يرضَعُ ، ورضَعَ يَرْضع ... وحكى اللغتين أيضاً يونس في نوادره » (٢) .

– و« قال يونس في نوادره : أهل الحجاز يقولون : خَمْسَ عَشْرةَ ، خفيفة لايُحركون الشين ، وتميم تُثَقّلِ وتكسرالشين ، ومنهم من يفتحها» (٣) .

– وقال ابو زيد :« وقالوا : عَلِقَ يَعْلَقُ علوقاً ،ولم يجيء المصدر منه على قياس» (٤) .

– وقال ابوزيد : « وقالوا في تصغير الحُبارى : حُبيرى ، ففتحوا الراء، وحُبَيْريات ، وقالوا : شُكَيْعاً مثلها ، وقال بعضهم شُكَيْعَةً » (٥) .

– وقال ابو زيد : « ويقال خلاؤك أقْنى لحيائك ، أي اذا خلَوت فهـو أقلُّ نغضبك واذاتك للناس » (٦) .

– «وقال ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في أول نوادره : اهل الحجاز : برأت مـن المرض ، وتميم : برئت .. أهل الحجاز : هي التمر وهي البرُّ وهي الشعير وهي الذهب وهي البسرُ ، وتميم : تذكـر هـذا كله ..» (٧) .

– وقال ابن الأعرابي في نوادره :« القشيبُ : الجديدُ والخلَقُ ، والزوج : الذكر والأنثى» (٨) .

---

(١) تحفة المجد الصريح ١٣ . (نقلا عن : يونس بن حبيب / الملحق الأول ، ٢٦٠) .
(٢) تحفة المجد الصريح ١٠٠ – ١٠١ (نقلا عن : يونس بن حبيب/ الملحق الأول ، ٢٦٠).
(٣) المزهر ٢/٢٧٥ .
(٤) النوادر في اللغة ١٦٩ .
(٥) النوادر في اللغة ٢١٠ .
(٦) النوادر في اللغة ٨٥ .
(٧) المزهر ٢/٢٧٦ – ٢٧٧ ..
(٨) المزهر ١/٣٩٤ .

– وقال ايضاً : « كلَّ شيء لم يكن له قدْر فهو سفيط وفسيط» (١) ، وقال أيضاً : « رجل صُلْب وصلْت بمعنى واحد » (٢).

– وفي نوادر أبي مسحل : « ويقال : فلان كفيلي ، وصبيري ، وجريّي وزعيمي ، وحميلي ، وقبيلي ، وأذيني ، كل هذا بمعنى واحد» (٣).

– وقال أبو مسحل : « والرّهوْ : الإبقاءُ ، والرّهوْ : الساكن والرهو : فرخ الكركي ، والرّهو : السوق الرفيق ، وهو مصدر رَهَا يَرْهـــو رهواً في سوقه» (٤).

– وذكر اللحياني في نوادره : عمَّ في دُعائه وخلو خلَّلَ ، أي خص» (٥)

– وقال الأزهري : « وقرأت في نوادر اللحياني عن الإيادي : في الأرض تفاطير من عشب ، بالتاء ، أي نبذ متفرق ، وليس له واحد » (٦)

– والنهب أيضاً : ضرب من الركض ، نص عليه اللحياني في النوادر» (٧)

– حكم النوادر

لقد أسهم البصريون والكوفيون في التأليف في النوادر ، ومنهم من صنف فيها أكثر من كتاب ، ويبدو أن الكوفيين كانوا أكثر ولعاً بها ، لتوسعهم في الرواية ، واخذهم بالنوادر والشواذ ، واعتمادهم عليها في تثبيت أصولهم وأحكامهم . وقد عرف عن البصريين أنهم لايقيسون على النوادر والشواذ ، ويقتصرون في صحيحها على الحفظ والسماع ، وأما مالم يثبت منها لديهم ، أو كان محاطاً بالشك ، فإنهم يرفضونه ولايقبلونه (٨) .

(١) المزهر ٤٧٩/١ .
(٢) المزهر ٥٣٨/١ .
(٣) نوادر ابي مسحل ٢/١ .
(٤) نوادر ابي مسحل ٥٤/١ .
(٥) الصحاح ١٦٨٨/٤ .
(٦) التهذيب ٥٨/١٤ . وينظر : تحقيق النص في مادة (نفطر) من نص اللحياني .
(٧) التاج (ط.ك) ٢٢٠/٤ .
(٨) ينظر : ضحى الاسلام ٢٩٤/٢ - ٢٩٥ .

يقول السيوطي : « اتفقوا على ان البصريين أصح قياساً ، لأنهم لايلتفتون إلى كل مسموع ، ولايقيسون على الشاذ » (١) ، لأن الشاذ « لاحكم له لخروجه عن الجملة التي بنيت أخواته عليها » (٢). اما الكوفيون فإنهم أخذوا بالنوادر والشواذ ، وقاسوا عليها ، ولم يهملوا شيئاً مما وردهم عن العرب (٣). يقول السيوطي : « مذهب الكوفيين القياس على الشاذ » (٤) ، وكان من عادتهم أنهم «إذا سمعوا لفظاً في شعر أونادر كلام جعلوه باباً أوفصلا» (٥) وكان الكسائي « يسمع الشاذ الذي لايجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه» (٦) .

ونحن لانميل الى القول بعدم أخذ البصريين بالنوادر والشواذ ، وقياسهم عليها ، وقصر ذلك على الكوفيين وحدهم ، اذ لايثبت هذا النفي مع ماعرف عن البصريين من تجويزهم القياس على القليل ، وان لم يتوسعوا في ذلك (٧).

— قيمة كتب النوادر

تعد كتب النوادر مصدراً مهماً من مصادر اللغة ودراستها ، « فهي أقرب ما تكون من كتب اللغات ، بل ليس من الممكن التفرقة بينهما في أكثر الأحوال » (٨) . وهي في مراحلها الأولى تمثل البدايات المتقدمة لجمع اللغة وتدوينها . وقد صار التأليف فيها تقليداً اتبعه العلماء والرواة، وطريقة درجوا عليها . وما وصل إلينا منها يعد من أوسع النصوص اللغوية

---

(١) الاقتراح ١٠٠ .
(٢) دقائق التصريف ٢٦١ . وينظر : التهذيب ١٩٦/٥ – ١٩٧ ، والإنصاف ٦١٥/٢ .
(٣) ينظر : ضحى الإسلام ٢٩٥/٢ .
(٤) الاقتراح ١٠٢ .
(٥) همع الهوامع ٤٥/١ .
(٦) بغية الوعاة ١٦٤/٢ .
(٧) ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو ١٥٤ وما بعدها
(٨) المعجم العربي ١٤٧/١ .

وأثبتها ، فهي تعطينا « الخطوة الأولى في سبيل المعاجم ، حتى إن هذه تأثرت كثيراً بمنهجها في داخل المواد ، فلم تحاول ترتيب الألفاظ فيها وأوردت المترادفات التي كانت تولع بها هذه الكتب ، وسارت في علاج الأفعال والأسماء على نمطها ... » (١) . وتفيدنا هذه الكتب في معرفة الكثير من لغات العرب والظواهر اللغوية ، وآراء العلماء فيها . فهي بحق ثروة لغوية مهمة ، أفاد منها الدرس اللغوي قديماً وحديثاً ، ولا أدل على ذلك من كثرة النصوص المنقولة عنها في كتب اللغة ومعجماتها ، فضلا عن إشادة العلماء بها .

— المؤلفون في النوادر

الكتب المؤلفة في النوادر كثيرة ، لم يصل إلينا منها إلا القليل ، وقد أحصينا عدداً جاوز المئة ، وزاد عما وجدناه عند الاخرين بكثير(٢) ونحن لانرجح أن تكون كل كتب النوادر الواردة في مسردنا الاتي خالصة للغة وحدها ، بل يحتمل أن يكون بعضها في الأدب أو الأخبار أو الطرائف أيضاً .

وفيما يأتي أسماء الأعلام الذين ألفوا كتباً أو أبوابا في النوادر والذين ألفوا بشأنها (رداً ، أو شرحاً ، أو تعليقاً ، أو اختصاراً ، أو تذييلا). وقد رتبت اسماؤهم ترتيباً زمنياً ، على وفق سنوات وفياتهم في الأغلب، مع الإشارة إلى ما وصل إلينا من كتبهم ، ومحققيها ، ومكان طبعها :

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ينظر في مثل هذا الاحصاء : نوادر ابي مسحل / مقدمة المحقق ١/٢٦-٣٠ ، والمعجم العربي ١/١٣٥ – ١٤٦ ، وابن الأعرابي ١٨٨ – ١٩٠ ، والدراسات اللغوية عند العرب ١١٨ – ١٢١ ، وأبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ١٩٠ – ٢٠٧ ، وتاريخ التراث العربي م٢ – ١/١٣٧ – ١٤٣ ، والتعليقات والنوادر (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) – الدراسة /٥٦ – ٦٣ .

١ ـ أسماء الأعلام الذين ألفوا كتباً في النوادر

- **أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ ﻫ) . له (كتاب النوادر) .** ذكره ابن النديم بقوله : « كتاب النوادر عن أبي عمرو بن العلاء » (١) ويفهم من هذه العبارة ان الكتاب دون عن المؤلف إملاء أو سماعا .
- **أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ ﻫ) .** له كتاب النوادر (٢) .
- **أبو عبد الله القاسم بن معن المسعودي الكوفي (ت ١٧٥ ﻫ)** له(كتاب النوادر) (٣) .
- **أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبيّ (ت ١٨٢ ﻫ) .** له (كتاب النو ادر الكبير) و(كتاب النوادر الصغير) (٤) . وقد جمع الدكتور طالب عبد الرحمن التكريتي (٤٦) ستة وأربعين نصاً من نوادره ، وضمها إلى دراسته عن يونس بن حبيب (٥) .
- **أبو عبد الله محمد بن خالد بن عبد الرحمن البرقي (كان حياً ١٨٣ ﻫ)** له (كتاب النوادر) (٦) .
- **أبو جعفر محمد بن الحسن بن ابي سارة الرواسي (ت ١٨٧ﻫ)** لـه (كتاب النوادر) (٧) .

---

(١) انفهرست ٨٨.

(٢) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٣٤/٢ ، وأحال على اللسان ٢٤/٩ ، ولم اجده فيه.

(٣) معجم الأدباء ٦/١٧ ، ونور القبس ٢٧٩ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

(٤) الفهرست ٤٢ ، ومعجم الأدباء ٦٧/٢٠ ، وإنباه الرواة ٧١/٤ ، ووفيات الأعيان ٢٤٥/٧ ، والمزهر ٤٥٣/١ ، ٢٧٥/٢ ، ٢٨٩ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وايضاح المكنون ٣٤٦/٢ ، ٣٤٧ .

(٥) يونس بن حبيب ، آراؤه ومنهجه في النحو واللغة (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة) ٢٦٠-٢٦٤ .

(٦) الفهرست ٢٢١ ، ومعجم المؤلفين ٢٧٧/٩ .

(٧) ابن درستويه ١٨١ ، نقله عن نسخة مصورة من مخطوط (شرح الفصيح) لأبى هلال العسكري /ورقة ٦٥-أ .

– **أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ)** . له (كتاب النوادر الكبير) و(كتاب النوادر الأوسط) و(كتاب النوادر الأصغر) (١) .

– **أبو اليقظان سحيم بن حفص الأخباري(ت ١٩٠هـ)**.له (كتاب النوادر). قال عنه ابن النديم : «رأيته بخط ابن سعدان» (٢) .

– **قريبة أم البهلول الأسدية (النصف) الأول من القرن الثاني الهجري)** . لها (كتاب النوادر والمصادر).عرف منه ابن النديم نسخة بخط السكري(٣).

– **أبو شبل (أوأبو شَنْبَل) الخليخ العقيلي (النصف الثاني من القرن الثاني الهجري)** . له (كتاب النوادر) . قال عنه ابن النديم : «رأيته بخط عتيق بإصلاح ابي عمر الزاهد نحو ٣٠٠ ورقة» (٤) .

– **دهمج بن محرز البصري او النصري ، ويرد باسم : نصر بن مضر الأسدي (النصف الثاني من القرن الثاني الهجري)** . له (كتاب النوادر). قال عنه ابن النديم : « رواه عنه محمد بن الحجاج بن نصر الأنباري ، رأيته نحو ١٥٠ ورقة ، وفيه إصلاح بخط ابي عمر الزاهد» (٥) .

– **ابو المَضرَحي الكلابي (النصف الثاني من القرن الثاني الهجري)** . له (كتاب النوادر) . قال عنه ابن النديم :«رأيته بخط ابن ابي سعيد »(٦).

---

(١) التهذيب ١٦/١ ، والفهرست ٦٥ ، ٨٨ ، ونزهة الألباء ٦١ ، ومعجم الأدباء ١٣/ ٢٠٢–٢٠٣ ، وإنباه الرواة ٢٧١/٢ ، والعباب (حرف الهمزة) ٢٩ والمزهر ٩٦/١ ، ومفتاح السعادة ١٥٦/١ ، وإيضاح المكنون ٣٤٥/٢ .

(٢) الفهرست ٨٨ ، ٩٤ . وينظر أيضاً : معجم الأدباء ١٨٠/١١ .

(٣) الفهرست ٤٧ (وطبعة طهران ٥٣) . وينظر أيضاً : إنباه الرواة ١١٥/٤ ، وتأريخ التراث العربي م٢–١٣٨/١ .

(٤) الفهرست ٤٦ ، ٨٨ (وطبعة طهران ٥١ ، ٩٦) . وينظر أيضاً : إنباه الرواة ١٢٤/٤ ، وإيضاح المكنون ٣٤٥/٢ ، وتاريخ التراث العربي م٢–١٣٨/١ .

(٥) الفهرست ٤٦ ، ٨٨ (وطبعة طهران ٥١ ، ٩٦) . وينظر أيضاً : إنباه الرواة ٧/٢ ، وإيضاح المكنون ٣٤٤/٢ ، وتاريخ التراث العربي م٢–١٣٩/١ ، والمعجم العربي ١٣٦/١ .

(٦) الفهرست ٤٧ ، ٨٨ . وينظر أيضاً : إنباه الرواة ١١٧/٤ ، وتاريخ التراث العربي م٢– ١٣٨/١ .

- أبو مالك عمرو بن كِرْكِرَة النميري (النصف الثاني من القرن الثاني الهجري). له (كتاب النوادر) [1].
- أبو زياد يزيد بن عبدالله بن الحر الكلابي (ت نحو ٢٠٠ هـ). له (كتاب النوادر) [2].
- ابو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة اليزيدي (ت ٢٠٢ هـ). له (كتاب النوادر) [3].
- النضر بن شميل المازني (ت ٢٠٣ هـ) له (كتاب النوادر) [4].
- ابو محمد عبدالله بن سعيد الأموي (ت بعد ٢٠٣ هـ). له (كتاب النوادر) [5].
- أبو عمر وإسحاق بن مرار الشيباني (ت ٢٠٦هـ). له (كتاب النوادر الكبير) على ثلاث نسخ: كبرى ووسطى وصغرى [6].

---

(١) الجمهرة ٤٥٥/٣، ومراتب النحويين ٧١، والمزهر ٤٠١/٢، وتاريخ التراث العربي م٢ -١٣٨/١.

(٢) الفهرست ٨٨،٤٤، وفهرسة ابن خير ٣٧٩، وإنباه الرواة ١٢١/٤، والعباب (حرف الهمزة) ٢٩، وخزانة الأدب ٢٦/١، ٧٧/٣، ٤٦٦/٣، وإيضاح المكنون ٣٤٥/٢، ومعجم المؤلفين ٢٣٨/١٣.

(٣) التهذيب ١٧/١، ٣٣، والفهرست ٥١، ٨٨، وفيه: ((ألفه لجعفر بن يحيى)) البرمكي (ت ١٨٧هـ)، ونزهة الألباء ٦٩، ومعجم الأدباء ٣١/٢٠، وإنباه الرواة ١٠٩/١، ٢٦/٤، ٢٧، ونور القبس ٨٠، ووفيات الأعيان ١٨٣/٦، ١٨٤، والمزهر ٢١٥/١، ٢٢٤، ٢٠٠/٢،٥٢٣، ٢٧٦، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢.

(٤) التهذيب ١٧/١.

(٥) مراتب النحويين ١٤٤، والفهرست ٤٨، ٨٨، وإنباه الرواة ١٢٠/٢، والمزهر ٤١٠/٢، وإيضاح المكنون ٣٤٦/٢، وتاريخ التراث العربي م٢-١٣٩/١.

(٦) مراتب النحويين ٤٠، ١٤٥، والتهذيب ٣/١، ٢٢، ٣٣ والفهرست ٦٨، ٨٨ وفيه أيضاً: ((له كتاب النوادر المعروف بالجيم))، ومعجم الأدباء ٨٢/٦، وإنباه الرواة ١٠٩/١، ٢٢٦، ٣٦٠/٢، ١٧٢/٤، ونور القبس ٢٧٧، ووفيات الأعيان ٢٠١/١ والمزهر ٩٦/١، ٥٤٦، ٥٤٩، ١٩٨/٢، ١٩٩، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢. وخزانة الأدب ٢٦/١، ٧٧/٣، ٣٤٩/٩، وإيضاح المكنون ٣٤٧/٢، وتاريخ التراث العربي م٢ -١٢٩/١.

– **أبو علي محمد بن المستنير قطرب (ت٢٠٦ هـ)** . له (كتاب النوادر) (١).

– **أبو زكريا ء يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧ هـ).** له (كتاب النوادر) (٢) .

– **ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي الثعلي الكوفي (ت٢٠٧ هـ).** له (كتاب النوادر) (٣) .

– **أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى التيمي (ت ٢١٠) هـ .** له (كتاب النوادر في اللغة)(٤).وصل الينا وطبع بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني، وصدر عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٩٤م ، كما طبع بتحقيق الدكتور محمد عبدالقادر احمد ، وصدر عن دار الشروق ببيروت والقاهرة سنة ١٩٨١م (٥) .

– **أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ) .** له (كتاب النوادر) (٦) .

– **أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني (ت ٢١٥ هـ أو ٢٢٥هـ).** له (كتاب النوادر) (٧) .

---

(١) الفهرست ٥٣ ، ونزهة الألباء ٧٧ ، ومعجم الأدباء ٥٣/١٩ ، وإنباه الرواة ٢٢٠/٣ ، ووفيات الأعيان ٣١٢/٤ ، ومفتاح السعادة ١٦١/١ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وإيضاح المكنون ٣٤٦/٢ ، وتاريخ التراث العربي م٢-١٣٩/١ .

(٢) التهذيب ١٨/١ ، ٣٣ ، وطبقات النحويين واللغويين ١٩٥ ، والفهرست ٦٧ ، ٨٨ وفيه ((رواه سلمة وابن قادم والطوال)) ، ومعجم الأدباء ١٤/٢٠ ، وإنباه الرواة ١٠٩/١ ، ٢٥٥/٢ ، ١٦/٤ ، والعباب (حرف الهمزة) ٢٩ ، ١٩٢ ، ووفيات الأعيان ١٨١/٦ ، والمزهر ٩٦/١ ومفتاح السعادة ١٧٩/١ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وخزانة الأدب ١٧٤/٣ ، ٥٩/٤ .

(٣) الفهرست ١٠٠ ، ومعجم الأدباء ٣١٠/١٩ ، ووفيات الأعيان ١٠٧/٦ .

(٤) التهذيب ١٤/١ ، وإنباه الرواة ١٠٨/١ ، والعباب (حرف الهمزة) ٢٩ ، ١٩٦ .

(٥) اعتمدنا في دراستنا على الطبعة الأولى (طبعة الشرتوني) .

(٦) التهذيب ٣٣/١ ، وإنباه الرواة ١٠٩/١ ، والعباب (حرف الهمزة) ٢٨ . واقتصرت المصادر الثلاثة على ذكر (الأخفش) دون الاسم والكنية . ونرجح أن يكون (الأوسط) هو المقصود لأنه عاصر العلماء والرواة الذين صنفوا في النوادر .

(٧) الفهرست ١٠٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٩/١٣ ، وإيضاح المكنون ٣٤٤/٢ .

- **أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦ هـ).** له (كتاب النوادر) و (نوادر الأعراب) (١) .
- **عبدالرحمن بن بُزُرْج اللغوي (من طبقة الاصمعي) .** له (كتاب النوادر) وأفاد الأزهري انه قرأه بخط ابي الهيثم الرازي واستحسنه (٢) .
- **أبو سعيد الضرير احمد بن خالد البغدادي (كان حياً ٢١٧هـ) .** له (كتاب النوادر) (٣) .
- **أبو محمد عبد الله بن جبلة بن حيان بن الحر الكناني الكوفي (ت٢١٩هـ).** له (كتاب النوادر) (٤) .
- **أبو الحسن علي بن حازم اللحياني (ت نحو ٢٢٠- ٢٢٣هـ) .** له (كتاب النوادر) . وهو موضوع دراستنا ، وسيأتي الكلام فيه ، إن شاء الله .
- **أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) .** له (كتاب النوادر) (٥) .
- **أبو عبد الله محمد بن يحيى المبارك اليزيدي (ت ٢٢٧هـ) .** له (كتاب النوادر) (٦) .
- **أبو الحسن علي بن مهزيار الأهوازي الدورقي (كان حيّاً ٢٢٩ هـ) .** له (كتاب النوادر) (٧) .

---

(١) التهذيب ١٥/١ ، ٣٢ ، والفهرست ٥٥ ، ٨٨ ، ونزهة الألباء ٦٩، وإنباه الرواة ١٠٨/١، ١١٩/٢ ، ٢٠٣ ، ٢٥/٤ ، ونور القبس ٨٠ ، ووفيات الأعيان ١٧٦/٣ ، ١٨٣/٦ ، والمقاصد النحوية ٥٩٨/٤ ، وكشف الظنون ١٩٧٩/٢ ، ١٩٨١ .

(٢) التهذيب ١٩/١ ، وإنباه الرواة ١٦١/٢-١٦٢ .

(٣) التهذيب ٢٤/١ ، ومعجم الأدباء ١٦/٣ . وينظر : معجم المؤلفين ٢١٤/١ .

(٤) إيضاح المكنون ٣٤٧/٢ ، ومعجم المؤلفين ٣٩/٦ .

(٥) التهذيب ٣/٦ ، واقتصر فيه الأزهري على ذكر (أبي عبيد) فقط . ولا نرجح غير القاسم.

(٦) إنباه الرواة ٢٤٠/٣ .

(٧) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ . وينظر : معجم المؤلفين ٢٤٧/٧.

– **أبو المنهال عُيَيْنَة بن عبدالرحمن المُهَلّبي (ت قبل ٢٣٠هـ)** . له (كتاب النوادر) (١) .

– **أبوالحسن علي بن المغيرة الأثرم (ت ٢٣٠ هـ أو ٢٣٢هـ)** . له (كتاب النوادر) (٢) .

– **أبومحمد عبد الله بن محمد بن هارون التوزي القرشي (ت ٢٣٠ هـ أو بعدها بقليل.)** له (كتاب النوادر) (٣) .

– **أبو الوازع محمد بن عبد الخالق الخراساني (النصف الأول من القرن الثالث الهجري)**. له (كتاب نوادر الأعاريب– او الأعراب – الذين كانوا مع ابن طاهر بنيسابور) (٤) .

– **عمرو بن أبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (٢٣١هـ)** . له (كتاب النوادر) (٥) .

– **أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)**. له (كتاب النوادر) و(كتاب نوادر الدُّبَيْريين) و (كتاب نوادر بني فقعس) (٦). **ووصلت الينا قطعة من** كتابه الأول ، حققها كامل سعيد عواد ، **وأضاف اليها ما استطاع جمعه** من نصوص الكتاب المنثورة في المصادر ، **وضمّنها إلى** دراسته عن ابن الأعرابي (٧) .

---

(١) معجم الأدباء ١٦٦/١٦ ، ومعجم المؤلفين ٣٦/٨ ، وتاريخ التراث العربي م٢ –١٤٠/١

(٢) الفهرست ٥٦ ، ٨٨ ، ومعجم الأدباء ٧٧/١٥ ، وإنباه الرواة ٣٢١/٢ ، وإيضاح المكنون ٣٤٥/٢ .

(٣) الفهرست ٥٨ ، ٨٨ (وطبعة طهران ٩٦) ، وإنباه الرواة ١٢٦/٢ ، وإيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .

(٤) التهذيب ٣٣/١ ، وإنباه الرواة ١٠٩/١ ، ١٦٨/٣ .

(٥) الفهرست ٦٨ ، وإيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .

(٦) التهذيب ٢١/١ ، والفهرست ٦٩ ، ٨٨ ، وفهرسة ابن خير ٣٧٢ ، ومعجم الأدباء ١٨/ ١٩٦ ،وإنباه الرواة ١٠٩/١ ، ١٣١/٣ ، والعباب (حرف الهمزة) ٢٩،ووفيات الأعيان ٣٠٨/٤ ، والمزهر ٩٦/١ ، ٢٣٤ ، ٣٩٤ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وخزانة الأدب ٢٣/١ ، ٣٥ ، وإيضاح المكنون ٣٤٤/٢ ، ٦٨٠ .

(٧) ابن الأعرابي ، دراسة وتحقيق كتاب النوادر وجمع مروياته (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة) ٢٣١–٣٧٠ .

– **أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ).** له (كتاب النوادر) (١).

– **ابو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي (ت ٢٣٥هـ).** له (كتاب النوادر المتخيرة) و(كتاب الاخبار والنوادر –أو : الأختيار في النوادر) (٢).

– **ابو عبدالرحمن عبدالله بن محمد بن هانيء النيسابوري (ت ٢٣٦هـ)** . له (كتاب نوادر العرب وغرائب الفاظها وفي المعاني والأمثال) . وصفه الأزهري بأنه كتاب كبير يوفي على الف ورقة (٣) .

– **ابو يوسف يعقوب بن إسحـــاق السكيت (ت ٢٤٦هـ)** . له كتـــاب النوادر) (٤) .

– **ابو الحسن علي بن اسباط بن سالم الكوفي (اواسط القرن الثالث الهجري)** له (كتاب النوادر) (٥) .

– **ابو علي هارون بن زكرياء الهجري (ت نحو ٢٥٠هـ)** . له كتاب (التعليقات والنوادر) (٦) . وصل الينا ، وطبع بتحقيق حمود عبدالأمير الحمادي ، وصدر في مجلدين عن مطابع دار الكتب للطباعة والنشر في الموصل سنة ١٩٨٠ – ١٩٨١م .

– **ابو محمد عبدالوهاب بن حريش المعروف بأبي مسْحل الأعرابي (ت نحو ٢٥٠هـ)** له (كتاب النوادر) وصل الينا ، وطبع بتحقيق الدكتور عزة حسن ، وصدر في مجلدين عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١م.

---

(١) اللباب (حرف الهمزة) ٢٩ .

(٢) الفهرست ١٤١ (وطبعة طهران ١٥٨) ، ومعجم الأدباء ٥٦/٦ ، وتاريخ التراث العربي م٢–١٤١/١ .

(٣) التهذيب ٢٤/١ ، وإنباه الرواة ١٢٧/٢ . وينظر أيضاً : إيضاح المكنون ٦٨١/٢ .

(٤) التهذيب ٣٢/١ ، والفهرست ٧٣ ، ٨٨ ، ومعجم الأدباء ٥٢/٢٠ ، وإنباه الرواة ١٠٨/١ ، ٥٥/٤ ، ووفيات الأعيان ٤٠٠/٦ ، وإيضاح المكنون ٣٤٥/٢ .

(٥) إيضاح المكنون ٣٤٥/٣ ، ومعجم المؤلفين ٣٣/٧ .

(٦) وفي تاريخ التراث العربي م٢–١٤١/١ : ((النوادر المفيدة)) ، ولعلهما كتاب واحد.

– ابو العبر وابو العباس محمد بن احمد بن عبدالله الهاشمي (ت ٢٥٠ﻫ) . له (كتاب نوادره وأماليه) (١) .

– ابو علي سهل بن زياد الرازي الآدمي (ت في حدود ٢٥٥ﻫ) .له(كتاب النوادر) (٢) .

– ابو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥ﻫ) . له (كتاب النوادر) (٣) .

– ابو عبدالله الزبير بن بكار القرشي (ت ٢٥٦ﻫ) . له(كتاب نوادراخبار النسب) و (كتاب نوادر المدنيين) (٤) .

– أبو جعفر أحمد بن الحارث بن المبارك الخزاز (ت ٢٥٧ ﻫ) او (٢٥٨ﻫ) له (كتاب نوادر الشعر أو : الشعراء) و (كتاب الأخبار والنوادر) (٥) .

– أبو جعفر محمد بن الحسين بن زيد الزيّات الهمداني(ت ٢٦٢ ﻫ) . له (كتاب النوادر) (٦) .

– أبو جعفر محمد بن أحمد بن رجاء البجلي الكوفي (ت ٢٦٦ﻫ) له (كتاب النوادر) (٧) .

– أبو جعفر محمد بن الحسين بن سعيد الصائغ الكوفي (ت ٢٦٩ ﻫ) . له (كتاب النوادر) (٨) .

---

(١) الفهرست ١٥٣ ، ومعجم المؤلفين ٢٨١/٨–٢٨٢ .
(٢) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .
(٣) التنبيه ٦١ .
(٤) الفهرست ١١١ ، ومعجم الأدباء ١٦٤/١١ ، وإيضاح المكنون ٦٧٩/٢ ، ٦٨١ .
(٥) الفهرست ١٠٥ ، ومعجم الأدباء ٧/٣ ، وتاريخ التراث العربي م٢–١٤١/١ .
(٦) إيضاح المكنون ٣٤٥/٢ ، وهدية العارفين ١٧/٢ .
(٧) إيضاح المكنون ٣٤٧/٢ .
(٨) إيضاح المكنون ٣٤٥/٢ ، وهدية العارفين ١٨/٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٤١/٩ .

- أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الأحمري النهاوندي (كان حياً ٢٦٩هـ). له (كتاب النوادر) (١) .
- ابوجعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي الكوفي (ت ٢٧٤هـ) . له (كتاب النوادر) (٢) .
- ابو العنبس محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمري الكوفي (ت ٢٧٥هـ) . له (كتاب نوادره وأشعاره) (٣) .
- ابو جعفر محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران القمي الأشعري(ت ٢٨٠هـ). له (كتاب النوادر) . وصفه ابن النديم بأنه كبير (٤) .
- ابو الفضل سلمة بن الخطاب الرازي (ت ٢٨٠هـ).له(كتاب النوادر) (٥)
- ابو بكر عبيدالله بن محمد بن عبيد المعروف بابن ابي الدنيا (ت ٢٨١هـ) . له (كتاب النوادر) (٦) .
- ابو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل القاضي (ت ٢٨٢هـ) . له (كتاب النوادر) (٧) .
- ابو علي الحسن بن عُلَيّل بن الحسين العنَزي (ت ٢٩٠هـ) . له كتاب النوادر) . ذكر القفطي أنه رآه بخط المصنف (٨) .

---

(١) إيضاح المكنون ٣٤٥/٢ ، ومعجم المؤلفين ١١/١ .
(٢) معجم الأدباء ١٣٤/٤ ، وتاريخ التراث العربي م٢/-١٤١ .
(٣) الفهرست ١٥٢ . وينظر : معجم المؤلفين ٣٨/٩ .
(٤) الفهرست ١٩٣ ، ٢٢٢ . وينظر أيضا : معجم المؤلفين ٢٨/٩ .
(٥) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .
(٦) الفهرست ١٨٥ . وينظر : معجم المؤلفين ١٣١/٦ .
(٧) إنباه الرواة ٣١٩/١ . وينظر : معجم المؤلفين ٢٦١/٢ .
(٨) إنباه الرواة ٣١٧/١ ، ٣١٨ . وينظر أيضاً : تاريخ التراث العربي م٢ -١-١٤٢

— **ابو العباس احمد بن يحيى بن يسار ثعلب (ت ٢٩١هـ)** . له (كتاب النوادر) (١).

— **ابو جعفر احمد بن محمد بن عيسى بن عبدالله الأشعري القمي (اواخر القرن الثالث الهجري)** . له (كتاب النوادر) . صدر محققاً عن مدرسة الإمام المهدي ، بقم ، ١٤٠٨هـ (٢) .

— **ابو الحسن علي بن محمد برزج الكوفي (اواخر القرن الثالث الهجري)** . له (كتاب النوادر) (٣) .

— **ابو علي احمد بن ادريس بن أحمد الأشعري (ت ٣٠٦هـ)** . له (كتاب النوادر) (٤) .

— **أبو بكر محمد** بن خلف ، بن حبّان ، وكيع الضبّي **(ت ٣٠٦هـ)** . له (كتاب نوادر الأخبار — أو : غُرَرُ الأخبار) (٥) .

— **أبو علي الحسن** بن عبدالله ، المعروف بلغدة — او لكذة — **الأصفهاني (ت في حدود ٣١٠هـ)** . له (كتاب النوادر) (٦) .

— **أبو القاسم حميد بن زياد بن حماد الكوفي (ت ٣١٠هـ)**. له (كتاب النوادر) (٧) .

---

(١) المحكم ١/١٥ ، والمخصص ١/١٢ ، واللسان (زها) ١٤/٣٦١. وينظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٢/٢١٣ .

(٢) نشرة : أخبار التراث العربي ــ ع٤٤ - ٣٩ - ص٢٦ . وينظر عن المؤلف : لسان الميزان ١/٢٦٠ ، ومعجم المؤلفين ٢/١٤٢ .

(٣) إيضاح المكنون ٢/٣٤٤ ، ومعجم المؤلفين ٧/١٨٥ .

(٤) إيضاح المكنون ٢/٣٤٦ .

(٥) تاريخ التراث العربي م٢ — ١/١٤٢ ،وكشف الظنون ٢/١٢٠٠ .

(٦) معجم الأدباء ٨/١٤١ ، وكشف الظنون ٢/١٩٨٠ . وينظر : هدية العارفين ١/٢٦٨ .

(٧) ايضاح المكنون ٢/٣٤٦ .

– أبو عبدالله محمد بن العباس بن يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٣١٠هـ) . له (كتاب النوادر في اللغة) (١) .

– إبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السّريّ الزّجاج (ت ٣١١هـ). له (كتاب النوادر) (٢) .

– أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد السلمي السمرقندي العياشي (ت ٣٢٠هـ) له (كتاب النوادر) (٣) .

– أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١ هـ). له (كتاب النوادر) (٤).

– أبو زيد أحمد بن سهل البَلْخي (ت ٣٢٢هـ) . له (كتاب النوادر في فنون شتّى) (٥) .

– أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ) . له (كتاب النوادر) (٦) .

– أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصُّولي (ت ٣٣٥هـ) . له (كتاب النوادر) (٧) .

– أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) . له (كتاب النوادر) (٨) .

– أبو عمر محمد بن عبدالواحد الزاهد (ت ٣٤٥هـ) . له (كتاب النوادر) (٩) .

---

(١) انباه الرواة ١٩٩/٣ (هامش التحقيق) ونقل عن ابن مكتوم أنه في جزءين لطيفين ، كبير الفائدة .

(٢) الفهرست ٦١ ، ٨٨ ، ومعجم الأدباء ١٥١/١ ، وإنباه الرواة ١٦٥/١ ، ووفيات الأعيان ٤٩/١ ، ومفتاح السعادة ١٦٤/١ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

(٣) الفهرست ١٩٥ ، وينظر : معجم المؤلفين ٢٠/١٢ .

(٤) الأمالي ٢٧٩/٢ ، والفهرست ٨٨ ، والمقاصد النحوية ٥٩٨/٤ ، وكشف الظنون ١٩٨١/٢

(٥) الفهرست ١٣٨ ، ومعجم الأدباء ٦٧/٣ .

(٦) اللآلي ١٥٩/١ .

(٧) معجم الأدباء ١٣/١٠ .

(٨) المحكم ٢٩٧/٧ ، واللسان (غضب) ٦٥٠/١ ، وارتشاف الضرب ٢٧٢/٣ .

(٩) الفهرست ٧٧ ، ومعجم الأدباء ٢٣٢/١٨ ، وإنباه الرواة ١٧٧/٣ ، ووفيات الأعيان ٣٣٠/٤ وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

– **أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب ، ابن مقسم (ت ٣٥٤هـ)** . له (كتاب النوادر) (١) .

– **أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن محمد النَّجيرَمي (ت ٣٥٥هـ)** . له (كتاب النوادر) (٢) .

– **أبو محمد القاسم بن محمد بن علي الدِّيمَرتي (ت نحو ٣٥٥هـ)** . له (كتاب تهذيب الطبع) في نوادر اللغة (٣) .

– **أبو علي إسماعيل بن القاسم بن هارون القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ)** . له (كتاب النوادر) . وصل إلينا ، وطبع مع كتابه (ذيل الأمالي) (٤) . ومعهما كتاب (التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه) لأبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ) ، وصدر المجموع عن دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ م .

– **أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاّد الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ)** . له (كتاب النوادر والشوارد) (٥) .

– **أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني (ت نحو ٣٦٠هـ)** .له (كتاب الأخبار والنوادر) (٦) .

– **أبو علي الحسن بن احمد بن عبدالغفار النحوي (ت ٣٧٧هـ)** . له (كتاب النوادر) (٧) .

– **أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن النفزي ، المعروف بابن ابي زيد (ت٣٨٦هـ)** . له (كتاب النوادر) (٨) .

---

(١) فهرسة ابن خير ٣٨٠ .
(٢) المزهر ٢٩١/٢ .
(٣) معجم الأدباء ٣٢٠/١٦ ، وبغية الوعاة ٦٣/٢ ، وهدية العارفين ٨٢٧/١ .
(٤) ذيل الأمالي والنوادر ١٥٧–٢٢٤ .
(٥) الفهرست ١٥٥ ، ومعجم الأدباء ٥/٩ ، وإيضاح المكنون ٣٤٧/٢ .
(٦) الفهرست ١١٥ ، ومعجم الأدباء ٩٩/١٣–١٠٠ ، وتاريخ التراث العربي م٢ –١٤٢/١ .
(٧) شرح مقامات الحريري ٢٢٦/٢ .
(٨) فهرسة ابن خير ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣٦٨ ، ومعجم المؤلفين ٧٣/٦ .

– **أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)** . له (كتاب النوادر الممتعة). وذكر ابن جني أن مقداره ألف ورقة (١) .

– **أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ)** . له (كتاب النوادر في العربية) و(كتاب نوادر الواحد والجمع) (٢) .

– **أبو الحسن محمد بن جعفر بن محمد ، ابن النجار التميمي الكوفي (ت٤٠٢هـ)** . له (كتاب الملح والنوادر) (٣) .

– **أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبعي الأندلسي (ت ٤١٠هـ أو بعدها)** . له (كتاب الفصوص) في النوادر والغريب والأدب والأشعار على نحو كتاب (النوادر) لأبي علي القالي (ت٣٥٦ هـ) الفه للمنصور محمد بن أبي عامر (ت ٣٩٢ هـ) أحد الولاة الأندلسيين (٤) . وقد علمنا بأخرة أن عبد الوهاب التازي **سعود** عميد كلية الاداب في جامعة محمد بن عبد الله (فاس) **قد حقق الكتاب** ؛ لنيل درجة (دكتوراه دولة) (٥) .

– **أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحُصري القيرواني (ت ٤١٣هـ)** . له (كتاب الجواهر في الملح والنوادر) (٦) .

– **أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (ت ٤٤٩هـ)** . له كتاب النوادر) (٧) .

---

(١) الخصائص ٣٣٢/١ ، ٣٨٢ . وينظر أيضاً : معجم الأدباء ١١١/١٢ .
(٢) معجم الأدباء ٢٦٤/٨ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وخزانة الأدب ٢٣٠/١ –٢٣١ ، وبروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٢٥٤/٢ ، وتاريخ التراث العربي م٢ –١٤٢/١–١٤٣.
(٣) معجم الأدباء ١٠٤/١٨ ، وكشف الظنون ١٤٦٣/٢ .
(٤) معجم الأدباء ٢٨٣/١١ ، وإنباه الرواة ٤٦/٢ ، ٨٦ ، ٨٩ .
(٥) نشرة : أخبار التراث العربي –م٤ –ع ٣٩–ص١٤ .
(٦) معجم الأدباء ٩٧/٢ .
(٧) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .

— فضل‌الله بن علي بن عبيدالله ، ضياءالدين الحسيني (ت نحو ٥٧٠هـ) .
له (كتاب النوادر) (١) .

— أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبيد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) .
له (كتاب النوادر) (٢) .

— أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن ، رضي‌الدين الصاغاني (ت٦٥٠هـ) . له (كتاب الشوارد في اللغة) . وصل إلينا ، وطبع بتحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري ، وصدر عن مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغداد : سنة ١٩٨٣ م .

— جمال‌الدين ياقوت بن عبدالله الرومي المستعصمي (ت ٦٩٨هـ) .
له (كتاب في النوادر) (٣) .

— أبو إسحاق إبراهيم بن سليمان بن عبدالله بن حبان الخزّاز النهمي الكوفي(٥) (ت ؟) . له (كتاب النوادر) (٤) .

— جرير بن عبد الله . (ت ؟) له (كتاب النوادر) (٥) .

— أبو محمد جعفر بن الحسين القمي (ت ؟) . له (كتاب النوادر) (٦) .

— أبو الحسن علي بن الحسن بن طرخان (ت ؟) . له (كتاب النوادر والأخبار) (٧) .

— أبو جعفر محمد بن احمد بن خاقان المعروف بحمدان الكوفي القلاني (ت ؟) . له (كتاب النوادر) (٨) .

---

(١) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ ، ومعجم المؤلفين ٧٥/٨ .
(٢) بغية الوعاة ٨٧/٢ ، وروضات الجنات ٤١٠ .
(٣) تاريخ التراث العربي م٢ -١٤٣/١ .
(٤) معجم الأدباء ١٦٢/١ ، وإيضاح المكنون ٣٤٧/٢ .
(٥) هذا ومن بعده من الأعلام ممن لم نقف على سنوات وفياتهم .
(٥) الفهرست ٢٢٢ (وطبعة طهران ٢٧٧) .
(٦) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .
(٧) الفهرست ١٥٦ .
(٨) إيضاح المكنون ٣٤٥/٢ .

– أبو جعفر محمد بن عبد الله بن مهران الكرخي (ت ؟) .) له(كتاب النوادر) [1] .

– أبو جعفر محمد بن علي بن محبوب الأشعري القمي(ت ؟) .له (كتاب النوادر) [2] .

– أبو جعفر محمد بن عيسى بن يقطين البغدادي(ت ؟).له(كتاب النوادر)[3]

٢ – اسماء الأعلام الذين الفوا ابواباً او فصولاً في النوادر :

– ابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) . له (باب نوادر الأسماء) و (باب نوادر الأفعال) ، ضمن كتابه (الغريب المصنف ١٨٣ – ٢٠١) [4] .

– أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) . له (باب نوادر من الكلام المشتبه) ، ضمن كتابه (أدب) الكاتب ١٧٢– ١٧٦) .

– ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ) . له (باب من النوادر) ضمن كتابه (جمهرة اللغة ٤٤٩/٣ – ٤٨٩) .

– ابو القاسم الحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي (ت ٤١٨هـ) . له (النوادر) ، ضمن كتابه (المنخل) [5] (٣١٢ – ٣٢٣) .

– ابو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١هـ) . له (باب في نوادر مختلفة) ، ضمن كتابه (مباديء اللغة ١٩٧– ٢٠٤)

---

(١) إيضاح المكنون ٣٤٦/٢ .

(٢) إيضاح المكنون ٣٤٧/٢ .

(٣) إيضاح المكنون ٣٤٥/٢ .

(٤) مخطوط – نسخة مكتبة المتحف العراقي – ، رقم ١٦٢٨ /لغة .

(٥) وهو مختصر لكتاب (إصلاح المنطق) لابن السكيت (ت ٢٤٦هـ) ، وقد قمنا بتحقيقه ودراسته في رسالتنا للماجستير ، وما زال مطبوعاً على الآلة الكاتبة .

٣ – اسماء الأعلام الذين الفوا بشأن كتب النوادر :

– ابو عمر صالح بن إسحاق الجرمي البصري (ت ٢٢٥هـ) .
أو تعليق على نوادر أبي زيد (١) .

– أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ) . له شرح أو تعليق على نوادر أبي زيد (٢) .

– أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيدالله السكري (ت ٢٧٥هـ) .. له شرح أو تعليق على نوادر أبي زيد (٣) .

– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) . . له شرح نوادر أبي زيد (٤) .

– أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) . له شرح نوادر أبي زيد (٥) .

– أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ) . له ذيل لنوادره (٦) ، وشرح أو تعليق على نوادر أبي زيد (٧) .

– أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي (ت ٣٦٨هـ) .
له رد على نوادر يونس بن حبيب (٨) .

---

(١) خزانة الأدب ١٧١/٧ .
(٢) خزانة الأدب ١٨٧/١ ، ٢٩٤ ، ١٨٠/٥ ، ١٨١ ، وبروكلمان : تاريخ الأدب ١٤٦/٢ ، ١٦١ .
(٣) خزانة الأدب ١٧١/٦ ، ٢٦٧/٩ ، ٣١٧/١٠ .
(٤) خزانة الأدب ١٩٨/١ .
(٥) خزانة الأدب ٢٣/١ ، ٢٩ ، ٤١ ، ١١٧ ،وبروكلمان :تاريخ الأدب العربي ١٤٦/٢، ٢٣٩ .
(٦) فهرسة ابن خير ٣٢٥ ، ولأبي علي كتاب (ذيل الأمالي والنوادر) . ولعله هو المقصود، والله أعلم .
(٧) خزانة الأدب ٣٧٥/٧ .
(٨) كشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

– **أبو القاسم علي بن حمزة البصري (ت ٣٧٥هـ)** . له تنبيه على أغلاط أبن زياد الكلابي ، وأبي عمرو الشيباني في نوادرهما ، ضمن كتابه (التنبيهات على أغاليط الرواة في كتب اللغة المصنفات) (١) .

– **أبو عثمان سعيد بن عثمان بن سعيد القزّاز البربري (ت ٣٩٤هـ)** . له رد على كتاب (الفصوص) في النوادر والغريب ، لأبي العلاء صاعد إبن الحسن بن عيسى الأندلسي (ت ٤١٠ هـ) (٢) .

– **أبو محمد الحسن بن محمد ، المعروف بابن الربيب التميمي التاهرتي (ت ٤٢٠هـ أو بعدها)** . له رد على أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي على نوادر يونس بن حبيب (٣) .

– **أبو محمد الحسن بن احمد الأعرابي ، المعروف بالأسود الغندجاني (ت نحو ٤٣٠هـ)** . له رد على نوادر ابن الأعرابي ، واسم كتابه (ضالة الأديب في الرد على ابن الأعرابي في النوادر التي رواها ثعلب) (٤) .

– **أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ)** ، له شرح نوادر أبي علي القالي ،وله التنبيه على أوهامه فيها (٥) .

– **أبو العباس احمد بن عبدالمؤمن بن موسى الشريشي (ت ٦١٩هـ)** . له مختصر نوادر لأبي علي القالي (٦) .

---

(١) أحجم محقق الكتاب عن نشر كلا التنبيهين ، بحجة عدم توفر كتابي أبي زياد وأبي عمرو في النوادر في الوقت الحاضر . ينظر : التنبيهات ٦٩ ، ٩٠ .

(٢) إنباه الرواة ٤٦/٢ .

(٣) كشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

(٤) معجم الأدباء ٢٦٥/٧ ، وخزانة الأدب ٣٥/١ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ١٤١/٢ .

(٥) فهرسة ابن خير ٣٢٥–٣٢٦ ، وكشف الظنون ١٩٨٠/٢ ، وخزانة الأدب ٢٣/١ ، ٣٩٦–٢٤٠/٢ ، ١٨٣/٣ . ولأبي عبيد كتاب (اللآلي في شرح أمالي القالي) وآخر هو (التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه) – ولعل هذين الكتابين هما المقصودان بكتابيه المذكورين في مسردنا .

(٦) كشف الظنون ١٩٨٠/٢ .

٤ — اسماء الدارسين المحدثين الذين عرضوا للنوادر

فيما يأتي ذكر من وقفنا عليهم من الدارسين المحدثين الذين عرضوا في دراساتهم وتحقيقاتهم اللغوية (١) لموضوع النوادر ، مرتبة أسماؤهم ترتيباً هجائياً :

— **الدكتور ابراهيم يوسف السيد** ، في كتابه : (أبو زيد الأنصاري وأثره في دراسة اللغة ١٥٩ — ١٦٧) .

— **الدكتور احمد علم الدين الجندي** ، في كتابه : (اللهجات العربية في التراث ١٥١/١ — ١٥٧) .

— **الدكتور حسين نصار** ، في كتابه (المعجم العربي ، نشأته وتطوره ١٣٥/١ — ١٤٧) .

— **الدكتور حمود عبدالأمير الحمادي** ، في دراسته وتحقيقه لكتاب : (التعليقات والنوادر ، لأبي علي الهجري ٥٢ — ٦٤) (٢) .

— **الدكتور خليل ابراهيم العطية** ، في رسالته للدكتوراه : (الدراسات اللغوية في القرن الثالث الهجري ، مع تحقيق كتاب التقفية في اللغة للبندنيجي ٧٧ — ٨٩) .

— **الدكتور رشيد عبدالرحمن العبيدي** ، في كتابه : (الأزهري في كتابه تهذيب اللغة ١٨٧ — ١٩٠ ، ٤٥٢ — ٤٥٤) .

— **الدكتور طالب عبدالرحمن التكريتي** ، في رسالته للماجستير : (يونس ابن حبيب — آراؤه ومنهجه في النحو واللغة ١٢٦ — ١٤٤) .

— **الدكتور عبدالحميد الشلقاني** ، في كتابه : (رواية اللغة ٩٣ — ١٠٠ ، ١٧٤ — ١٧٦) .

---

(١) تنظر : كتبهم في فهرس (المصادر والمراجع) ، في آخر الرسالة .

(٢) اعتمدنا النسخة المخطوطة منه ، دون المطبوعة ، لان الدراسة في الثانية لم تتضمن بعض ماورد في الأولى .

ـ **الدكتور عزة حسن** [1] ، في مقدمة تحقيقه لكتاب : (النوادر ، لأبي مسحل الأعرابي ١/١٩ ـ ٣٠) .

ـ **الدكتور عمر الدقاق** ، في كتابه : (مصادر التراث العربي ١٣٣ ـ ١٣٤)

ـ **فؤاد سزكين** ، في كتابه : (تأريخ التراث العربي ـ م١/٢/١٣٦ ـ ١٤٣)

ـ **كامل سعيد عواد** ، في رسالته للماجستير : (ابن الأعرابي دراسة وتحقيق كتاب النوادر وجمع مروياته ١٧٩ ـ ١٩٦) .

ـ **الدكتور محمد حسين آل ياسين** ، في كتابه : (الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ١١٨ ـ ١٣٨) .

ـ **الدكتور محمد عبدالقادر احمد** ، في كتابه : (أبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ١٧٢ ـ ٢٠٧) .





(١) ولعله أقدم المحدثين في هذا الميدان ، وعلى دراسته عول الكثيرون .

مفهوم الكلام المفيد بين
النحاة العرب وعلماء اللغة المحدثين

الدكتور
طالب عبد الرحمن
استاذ مساعد / قسم اللغة العربية
كلية الاداب – جامعة الموصل

تمهيد

معروف أن النحو يدرس الكلام المفيد ، ولذا يعد الكلام المفيد مبدأ الدرس النحوي ، ومنطلقه . وليس غريباً علينا تعريف النحو بأنه دراسة الكلام بمعناه النحوي لا اللغوي (١) .

يهدف هذا البحث الى دراسة تطور مفهوم الكلام المفيد عند النحاة العرب ، وتبيين جوانبه المختلفة ، وموازنة ارائهم بآراء الألسنيين المحدثين لمعرفة مدى الزيادة التي قدموها على ما ذكره نحاتنا . وقد تجنب البحث الخوض في أنواع الجمل العربية ، لئلا تتحول الدراسة الى دراسة تقابلية Contrastive Study توازن بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، وإنما يعني البحث بموازنة بين الفكر النحوي العربي ، في هذه المسألة ، والفكر الالسني الحديث .

—١—

بين القول والكلام

يفرق النحاة العرب بين القول والكلام ، فالكلام « اسم للمفيد من القول عند النحويين » (٢) أما القول « فهو أعم منهما [أي : من الكلام

(١) ينظر الى : شرح ابن عقيل ١٤/١ .
(٢) المرتجل ٢٧ .

والكَلِم [لأنه عبارة عن جميع ماينطق به اللسان ، تاماً كان أو ناقصاً ، والكلام والكلَم أخصُّ منه . والذي قضى بذلك الاشتقاق مع السماع ، ألا ترى أن إشتقاق الكلام من الكَلْم ، وهو الجُرْح ، وأنه لشدة تأثيره ونفوذه في النفس كالجرح ، لأنه إن كان حسناً أثر سروراً في النفس ، وإن كان قبيحاً أثرحزناً ... وأما القول فهو من معنى الاسراع والخفة ، ولذلك قيل لكل مامذل به اللسان وأسرع اليه — تاماً كان أوناقصاً — : قول » (١) ولهذا شمل القول : الكلمة المفردة ، والمركب بلا فائدة ، والمركب المفيد ، ومن ثَمّ كان كلّ كلام قولاً ، وليس كلّ قول كلاماً (٢).

واذا كانت لغة النحاة المتأخرين جليةً واضحة في التفرقة بين القول والكلام ، فان سيبويه هو الذي بدأ هذه التفرقة، منبّهاً على أنّ ما يأتي بعد الفعل «قال» ومشتقاته كلام ، إذ قال «واعلم أنّ «قلت» في كلام العرب إنما وقعت على أن يُحكى بها ، وإنما تحكي بعد القول ما كان كلاماً ، لا قولاً ، نحو : قلت : زيد منطلق ، لأنه يحسن أن تقول «زيد منطلق» ، ولا تُدخل «قلت» . وما لم يكن هكذا اسقط القول عنه . وتقول : قال زيد : إنّ عمراً خير الناس ، وتصديق ذلك قوله جل ثناؤه : «وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله اصطفاك» (٣) . ولولا ذلك لقال : أن الله» (٤) .

ويزيد ابن الخشاب (ت ٥٦٧هـ) كلام سيبويه وضوحاً بقوله «إن الجملة التامة التي قد عمل بعضها في بعض تقع بعد «قلت» محكية اللفظ ، فيكون موضعها نصباً بـ«قلت» ، كقولك : قلت : زيد قائم ، وقات : انطلق زيد ، وقلت : هل زيد منطلق؟ وقلت : قم يا زيدُ . كلُّ هذه جمل محكية بعد «قلت» مستقلة بأنفسها في الفائدة ، وهي التي تسمى كلاماً» (٥) .

---

(١) شرح المفصل ٢١/١ والقسم الاخير من كلام ابن يعيش موجود في الخصائص ١٧/١-١٨.
(٢) الخصائص ١٧/١ ، شرح الكافية الشافيه ١٥٧/١ ، اوضح المسالك ١٣/١.
(٣) آل عمران /٤٢ .
(٤) الكتاب (هارون) ١٢٢/١ (وفي طبعة بولاق ٦٢/١ شيء من الأختلاف عن طبعة هارون).
(٥) المرتجل ٢٧ ، وينظر ايضاً الى : شرح التسهيل ٤/١ .

—٢—
النطق

اذا ما تركنا موضوع الفرق بين القول والكلام ، فان الشرط الاول الذي تواجهنا به كتب النحو لعدّ الكلام «كلاماً» هو ان يكون منطوقاً ، او مسموعاً وربما كان «الصاحبي» لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) هو اول من نص على هذا الشرط صراحة ، لا ضمناً (١) ، ناقلاً ذلك عن «قوم » إذ قال «زعم قوم أنّ الكلام ما سُمع وفُهم ، وذلك قولنا : قام زيد ، وذهب عمرو . وقال قوم : الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى . والقولان عندنا متقاربان، لان المسموع المفهوم لا يكاد يكون الا بحروف مؤلفة تدل على معنى» (٢)

ويزيد علي بن سليمان الحيدرة (ت ٥٩٩هـ) الامر وضوحاً عندما يفرق بين المسموع غير المفيد ، والمفيد غير المسموع ، حينما قال ، بعد ان عرف الكلام بانه «المسموع المفيد» (٣) ، «وإنما شرطنا ان يكون مسموعاً مفيداً احترازاً من مسموع غير مفيد ، كأصوات البهائم وزجر الطير وصدى الجبال ونحو ذلك ، ومن مفيد غير مسموع كالاشارات والوساوس والخطرات ، لان ذلك وشبهه لا يسمى كلاماً» (٤) ونجد في شرح التسهيل ذكراً للخط ايضاً ضمن المفيد غير المسموع فبعد تعريف ابن مالك للكلمة بقوله «لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقاً او تقديراً او منوي معه ...» قال «فتصديره باللفظ مُخْرِج للخط ونحوه مما هو كاللفظ في تأدية المعنى» (٥) ويؤكد ابن مالك هذه التفرقة ويفصّلها بعد ذلك بقوله إن الكلام «ليس خطاً ولا رمزاً ولا نحو ذلك ، وانما هو لفظ» (٦) . ويشرح الرضي تعريف ابن الحاجب للكلمة

---

(١) في الخصائص ١/ ١٧ -- ٣٢ ان القول ما مذل به اللسان ، والكلام جزء من القول، وهذا ما يفهم منه ان الكلام دو المنطوق .
(٢) االصاحبي ٨١-٨٢ ، وينظر الى : المرتجل ٢٩ .
(٣) كشف المشكل في النحو ١/١٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ١/١٦٥-١٦٦ .
(٥) شرح التسهيل ١/١-٢ .
(٦) المصدر نفسه ١/٥

بأنها« لفظ وضع لمعنى مفرد (١) بقوله : واحترز بقوله«لفظ» من نحو الخط والعقد والنصبة والاشارة ، فانها ربما دلت بالوضع على معنى مفرد ، وليست بكلمات» (٢) . وبطبيعة الحال ، لا يمكن للباحث أن يفصل هذه النظرة إلى الكلام المفيد عن تعريف اللغة نفسها بأنها «اصوات» يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (٣) .

بيد أن كون الكلام منطوق هو الاصل ، لا ينفي تأدية الاساليب الاخرى للغرض نفسه ، اي التعبير . وجماع الامر هو ان اللفظة «جوهر الكلمة ؛ وان البقية اعراض» (٤) .

يمكن لنا أن نخلص ، مما سبق ذكره ، إلى أنّ النحاة العرب اعتدوا بالملفوظ المنطوق ، وجعلوه اساساً ، اما غيره من وسائل التعبير فعدوها اعراضا ، ولم يعدوها من الدرس النحوي . ولا بد ان نشير ايضاً إلى ان النحاة الذين رجعنا إلى كتبهم لم يعلّلوا لهذا التمسك باللفظ مصدراً رئيساً للدراسة اللغة ؛ مع انهم اتفقوا على ان اللفظ ، او النطق ، اساس .

اما علم اللغة الحديث فيجعل اولوية المنطوق على غيره من سمات الدراسة الالسنية الحديثة ، وخصائصها . ويشير الالسنيون إلى الاسباب التي حدت بهم إلى اصطناع هذا الرأي ، وهي :

١ ــ إن الكلام اقدم واكثر انتشاراً من الكتابة ، ففي حين لا يتجاوز تاريخ الكتابة المعروفة عندنا سبعة الاف سنة ، لا يمكن لنا ان نتخيل المجتمعات التي عاشت قبل ذلك وهي فاقدة للقدرة على الكلام .

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/١ .
(٢) المصدر نفسه ٤/١ ، وينظر ايضاً الى : ارتشاف الضرب ٤١٢/١ ، اوضح المسالك ١١/١ شرح التصريح ١٩/١–٢٠ ، شرح الأشموني ٨/١ ، حاشية الخضري ١٥/١١ ؛ وفي شرح الحدود للفاكهي (ص٣٨) تفصيل الجانب الصوتي للكلام .
(٣) الخصائص ٣٣/١ .
(٤) شرح المفصل ١٩/١ .

٢ ــ إن مئات اللغات المنطوقة لم تكتب الا مؤخراً ، في تاريخ لا يزيد على عشرات السنين ، وهناك لغات ما زالت غير مكتوبة لحد الآن .

٣ ــ إن نظم الكتابة جميعها قائمة على اساس اللغة المنطوقة (بحيث يتوجب علينا احياناً الرجوع إلى كيفية النطق القديم لتفسير ظاهرة كتابية حالية) . فاللغة المنطوقة هي الاصل ، والكتابة مستمدة منها .

٤ ــ ان على عالم الاصوات ان يدرس اصوات اللغة ، ومقاطعها ، وكلماتها ، في حين نجد النظام الكتابي إمّا مقتصراً على الاصوات (النظام الالفبائي) واما على المقاطع (النظام المقطعي) واما على الكلمات (النظام الصُوري ideographic) ومن ثم كان النظام الكتابي قاصراً عن تمثيل اللغة ، صوتياً ، تمثيلاً كاملاً .

٥ ــ إن النظام الكتابي لا يساعدنا في كثير من الاحيان على تمييز نطق الكلمات فهناك كلمات تُكتب على نحو مختلف ، ولكنها تُنطق نطقاً متماثلاً (وهو ما يصطلح على تسميته بالمماثل الصوتي Homophone (مثل الكلمات (great, grate) و (seen,scene) و (meet, meat) . وعلى العكس من ذلك نجد كلمات تُرسم على نحو متماثل ، ولكنها تنطق نطقاً مختلفاً (وهو ما يصطلح على تسميته بالمماثل الكتابي Homograph) مثل lead التي تلفظ بامالة الياء وعدم امالتها ، وكذلك read

٦ ــ إن النظام الكتابي للغة لا يحوي التنوعات المهمة في اللغة المنطوقة ، مثل طبقة الصوت pitch والنبر stress ، والتنغيم intonation ... الخ وإنْ حاولت النظم الكتابية ان تعوض بعضاً من ذلك باستخدام علامات التعجب والإستفهام ... الخ .

٧ ــ إن النظام الكتابي يحقق عملية اتصال غير مباشر بين الكاتب والقارىء ،

ومن ثم تضيع على القارىء رموز مثل تعابير وجه المتكلم ، واشارات يده في اثناء التكلم ... الخ (١) .

-٣-

الاسناد

مرّ بنا ، في الفقرة السابقة ، اشتراط كون الكلام منطوقاً كيما يكون مفيداً . ولا ريب في ان المنطوق مؤلف من كلمات مستعملة ، غير مهملة . على ان هذا الشرط ، كما يقول اهل الفلسفة ، ضروري بيد أنه غير كاف لجعل ما يصدر «كلاماً» بالمعنى الاصطلاحي للفظ ، ولذا لابد من وجود شروط اخرى ليكون المنطوق كلاماً مفيداً . وسنتناول هذه الفقرة شرط الاسناد ، إذ إنّه - كما يقول سيبويه - مما «لا يجد المتكلم فيه بداً ، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك : عبدالله اخوك ، وهذا اخوك ،

---

(١) هناك تفصيلات اخرى عن الفروق بين اللفظ والكتابة ، وخاصة الفروق المعجمية lexical والنحوية مما لايدخل في صلب هذا البحث . لغرض التوسع ينظر الى

J. Lyons, (1977) Introduction to Theoretical Linguistics, Cambridge University Press, PP. 38-42.

Robert A. Hall Jr., (1964): Introductory Linguistics, Chilton Books PP. 8-9

Jean Aitchison, (1978): Linguistics, Hodder and Stoughton, P. 14.

J.F. Wallwork, (1978), Language and Linguistics, Heinemann Educational Books, PP. 14-22.

ومما هو قمين بالاشارة الموجزة اليه في هذا البحث ، مع انه غير داخل في صلب مادتنا هو ربط النحاة العرب بين المنطوق من جهة ، والعقد والاشارة والنصبة من جهة أخرى ، في كون الاثنين من الدوال . (ينظر مثلا : شرح المفصل ١٩/١ ، كشف المشكل ١٦/١ الهمع ٢٢/١ حاشية الخضري ١١٥/١) وما اقرب هذا الكلام الى السيميائية semiotics التي عرفت بانها «الدراسة المنهجية للعلامات (او الاشارات) .Signs اللغوية وغير اللغوية» ينظر الى

R.R.K. Hartmann and F.C. Stock: Dictionary of Language and Linguistics, P. 205

ومثل ذلك : يذهب عبدالله» (١).ولذا لا يعد من الكلام ما افتقر إلى الاسناد، كقولنا : قد زيداً رأيت (٢) .

ويعرّف ابن يعيش تركيب الاسناد بانه « تركيب الكلمة مع الكلمة اذا كان لاحداهما تعلق بالاخرى على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر وتمام الفائدة... والاسناد يشمل الخبر وغيره من الامر والنهي والاستفهام ، فكل خبر مسند، وليس كل مسند خبراً ، وإن كان مرجع الجميع إلى الخبر من جهة المعنى ، الا ترى ان معنى قولنا قُم : اطلب القيام ،وكذلك الاستفهام والنهي » (٣) .

وقد زيد على شرط الاسناد ان يكون ذلك الاسناد على سبيل الاستقلال ، او مقصوداً لذاته ،لا لغيره. ويقصد بالمقصود لغيره «اسناد الجملة الموصول بها ،والمضاف اليها ، فانه اسناد ، ولم يُقصد هو ، ولا ما تضمنه ، لذاته بل قُصد لغيره ، فليس [هذا] كلاماً ، بل هو جزء كلام ، وذلك نحو : قاموا ، من قولك : رأيت الذين قاموا ، وقمت حين قاموا» (٤) . ولهذا فُرّق بين الجملة والكلام ، فالاولى «ما تضمن الاسناد الاصلي ، سواء كانت مقصودة لذاتها او لا ، كالجملة التي هي خبر المبتدأ... والكلام ما تضمن الاسناد الاصلي وكان مقصوداً لذاته ، فكل كلام جملة ، ولا ينعكس» (٥). وقد أخذ على الزمخشري توحيده بين الكلام والجملة(٦) اذ ردّ عليه ابن هشام بأن الكلام والجملة «ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس ، وهو ظاهر

---

(١) الكتاب (هارون) ٢٣/١

(٢) المصدر نفسه ٢٦/١

(٣) شرح المفصل ٢٠/١ . وقد يجدر بنا ان نشير الى ان قول ابن يعيش ان « مرجع الجميع ، الى الخبر من جهة المعنى » هو خلاصة ماجاء به تشومسكي وسمى الجملة التقريرية الخبرية بالجملة الاساسية kernel sentence

(٤) شرح التسهيل ٦/١ ، وينظر الى ، شرح الرضي ٨/١ ، الارتشاف ٤١١/١ ، الهمع ١١/١ ، شرح الاشموني ٨/١ ، وينظر الى مناقشة الخضري لابن مالك في حاشية الخضري ١٤/١ - ١٥ .

(٥) شرح الرضي ٨/١

(٦) المفصل ٤ ، والواقع ان ابن جني سبقه الى ذلك ،ينظر الى : الخصائص ٣٢/١ .

قول صاحب «المفصل» فانه بعد ان فرغ من حد الكلام قال «ويسمى جملة» والصواب انها اعم منه، اذ شرطه الافادة ، بخلافها ، ولذا تسمعهم يقولون : جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيداً ، فليس بكلام» (١) .

وجاء في نص الزمخشري ان الكلام « هو المركب من كلمتين » (٢) غير ان معظم النحاة نصوا في تعريفهم للكلام على انه لفظ مركب ، وجوداً او نية . ، كقولك : قم ، واقعد ومايلحق بهذين من الاشارة والكناية ، او الالفاظ المفردة كـ « نَعَم» و « بلى» (٣) وما سمي هنا نية سمي أيضاً تقديراً (٤) او منوياً معه (٥) (اي مع اللفظ) او موجوداً بالقوة (٦) .

وغني عن القول ان ماخرج عن المسند والمسند اليه هو الفضلة .

ولو نظرنا الى علم اللغة الحديث لوجدنا البنيويين خاصة ينظرون الى الاطار الهيكلي او الشكلي العام للجملة ، فيقسمونها الى مايسمونه بالمكونات الاولية (٧) Immediate constituents يقول هـ . أ . غليسون H·A·Cleason في شرحه لهذا التحليل بان المكون الأولي هو « واحد من مكونين او مكونات قليلة ، يتألف منها أي تركيب » (٨) .

---

(١) ألمغني ٢/٣٧٤
(٢) المفصل ٤
(٣) التوطئة ١١٢
(٤) المقرب ١/٤٥ ، الارتشاف ١/٤١٢ ، شرح شذور الذهب ١١ ؛ شرح الأشموني ١/٨
وفي شرح الرضي (١/ ٧ – ٨) : مقدراً
(٥) شرح التسهيل ١/٣ ، شرح الكافية الشافعية ١/١٥٨
(٦) شرح ابن الناظم ٤ ، شرح اللمحة ١/٢٠٨ ، شرح التصريح ١/٢٤
(٧) يميل الباحث الى تفضيل هذه الترجمة على ترجمتها الى المكونات المباشرة (راجع : معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ٣٧ ، معجم علم اللغة النظري ١٢٤ ، ١٢٦) لأن مايقابل المكونات الاولية هو المكونات النهائية ultimate constituents .
(8) H.A. Gleason (1975)An Introduction to Descriptive Linguistics, P. 133.

ولكي تتضح صورة هذا التحليل اكثر ، نأخذ من الكتاب المذكور مثالا ونرى كيف يحلله :
The three men read the new books:

فهو يعامل هذه الجملة على انها مكونة من مكونين اوليين ، وطريقته في ذلك هي محاولة الاستعاضة (قدر الامكان) عن مجموعة كلمات بكلمة واحدة (وهو مايشبه عند النحاة العرب باعراب الجمل) وهكذا تنتهي الجملة السابقة الى مايأتي

The three men read the new books:
they read

فحلت كلمة they محل the three men ، وحلت كلمة read محل read the new books ولذا فان الجملة السابقة مؤلفة من مكونين اوليين اولهما هو (the three men) وثانيهما هو : (read the books) (1) . ولو ترجمنا هذه الجملة الى العربية فستكون ترجمتها على النحو الاتي : الرجال الثلاثة قرأوا الكتب الجديدة وسيكون «الرجال» هو المسند اليه ، و« قرأوا» هو المسند .

وبالرغم من ان التحليل البنيوي ، وخاصة في الفرع الامريكي بدءاً من بلومفيلد ، حاول تجنب ادخال المعنى في التحليل (لاسباب فلسفية ومنهجية لامجال لذكرها) الا أنه لم يستطع تجنب المعنى في هذا النمط من التحليل ، فاشار الى وجود علاقة دلالية بين المسند اليه topic والمسند comment (وقد سمت مدرسة براغ Prague school البنيوية ايضاً المسند اليه theme والمسند rheme (2) على اساس ان المسند اليه هو مايقوله المتكلم والخبر هو الشيء الذي يقوله عن ذلك المسند اليه ، وهكذا فان جملة John | ran away

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٤٤
(٢) فيما يخص مدرسة براغ ينظر كتاب D.J: Allerton
Essentials of Grammatical Theory
ص ٢٧٣ وما بعدها .

تتضمن المسند اليه (John)، الذي هو المبتدأ عادة في اللغة الانكليزيــة وتخبر عنه بالمسند وهو (ran away) ، أي هرب ، ويكون المسنــد هو الخبر عادة في اللغة الانكيزية) (١) .

ويزيد بعض الالسنيين الجانب الدلالي تفصيلا فيميزون امرين ، الاول : هو المعروف given والثاني : هو الجديد : new ، ولتوضيح هذه التفرقة نشير الى ان بعض الالسنيين يرى ان الموضوع المعروف (وهو المسند اليه)غالباً مايكون معروفاً عند المتكلم والسامع (ولذا يشار اليه بالضمير احيانا في حالة كون الضمير مسنداً اليه، لان المتكلم والسامع كليهما على معرفــة به) في حين ان مالا يعرفه السامع هو المسند، ولذا يعد جديداً . ووفقاً لهذا التحليل ينظر الى الجملة الاتية .

He/ has run a 3½ minutes mile

على ان (He) ، الذي هو المسند اليه ، معروف عند المتكلم والسامع ،امـا بقية الكلام فيفترض المتكلم ان السامع يجهلها ومن ثم تعد جديدة وتستخدم الانكليزية الضمائر ،مثلا، للتعبير عما هو معروف، والنبر stress للتعبير عما هو جديد (٢) .

والواقع هو ان فلسفة المسند عند النحاة العرب هي في الاخبار ، ويكفـي ان نستشهد بابن مالك في كلامه عن الخبر — مثلا . بقوله :

والخبر الجزء المتمم الفائدة (٣)

غير ان هذا يبعدنا عن موضوع البحث ، وهو « مفهوم» الكلام المفيد ، ويقودنا الى التقديم والتأخير في الجملة العربية . ولذا نكتفي بهذا القدر في هذه المسألة ..

---

(1) Charles F. Hocket, (1967,). A.Course in Modern Linguistics, ص ٢٠١ وما بعدها

(٢) ينظر كتاب Allertom المذكور ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) شرح ابن عقيل ٢٠١/١

وقد ميز الالسنيون المحدثون ماعدّه النحاة العرب عمدة مما عدوه فضلة، وقد اصطلح الالسنيون على تسمية الفضلة بـ (complement) و(adjunct) (١) .

فضلا عما سبق ، أدرك معظم الالسنيين المحدثين ضرورة تقدير وجود كلمة او اكثر في الكلام ، وقد اصطلح على تسمية المقدر بـ understood وسماه تشومسكي بالعنصر الوهمي dummy element وقد ذهب تشومسكي الى ان البنية العميقة deep Struture للجملة قد تتطلب افتراض وجود عنصر نحوي في البنية السطحية surface structure .وبعبارة أخرى: ان المعنى (اي: البنية العميقة) قد يتطلب افتراض وجود كلمة او اكثر)مفقودة في الكلام المنطوق او المكتوب (أي : البنية السطحية) . ففي جملة مثل

Come and see me tomorrow

نفترض وجود you (٢) ، وهو في هذه الحالة الضمير المستتر الذي يقدره النحاة بـ«أنت» في قولنا : تعال.

بيد ان التقدير لم يعدم من يعارضه من البنيويين خاصة (الذين يتأولون عن التقديرات اذ عدوا منهج التقدير من اخطاء النحو التقليدي(كما يسمونه)ورأوا فيه خطراً عندما يدرس الالسني لغة اجنبية دراسة ميدانية . فقد يؤدي افتقار الالسني الى المعرفة العميقة باسرار اللغة المدروسة الى ان يقدر وجود عناصر فيها كي تساير لغته الام .

فعلى سبيل المثال ،قد يتوهم الانكليزي الدارس للعربية ان في جملة مثل: علي مجتهد ،عنصراً مقدراً هو is .وهو العنصر الذي لابد من وجوده في اللغة الانكليزية في جملة كتلك.علاوة على ذلك ،قد يكون التقدير اعتباطيا وغير مسوّغ في كثير من الاحيان (٣) .

(1) Hartmann and Stock, op. cit., P. 5, 44.

(2) Emmon Bach (1964) An Introduction to Transformational Grammars, P. 80. وينظر ايضا كتاب (Hartmann), (stock) ص٧٣

(3) Gleason, op. cit., PP. 192-193

القصد

اشترط النحاة العرب « القصد» فيما يقوله القائل كي يكون قوله كلاماً. واذا ماأردنا ان نفهم معنى القصد ،فما علينا الأ ان نفهم مايراد بانعدامه ،اذ يقول ابن مالك في شرح التسهيل ان خطأ الانسان في الكلام لايؤاخذ به ، ولايعد الخطأ كلاما ،ولذلك لم يعتد بقول الذي غلبه الفرح فقال مخطئا : اللهم انت عبدي وانا ربك... فأنْ أطلق على الخطأ كلام فعلى سبيل المجاز (١).

ويدخل ضمن مفهوم القصد ايضاً ما يسميه المعاصرون الوعي ايضاً ،فلا يشمل الكلام حديث النائم ومحاكاة بعض الطيور الكلام»(٢)وحديث الساهي (٣) والسكران (٤) وجاء في الهمع « وشرطنا وقوع ذلك (٥) ممن اتضح منه ،او من قبيله الافادة ، لئلايلزم عليه ان يكون مايسمع من بعض الطيور ، كلاما وقولنا : القبيل دون الشخص ، لان مايسمع من المجنون يوصف بانه كلام وان لم تصح منه الفائدة وهو بحاله ، لكنها تصح من قبيله ، وليس كذلك الطائر (٦).

هذه التفرقة ، عند النحاة العرب ، بين الكلام المقصود وغير المقصود . تهدف — في رأينا — الى عد اللغة المثالية الخالية من الخطأ ، دون غيرها موضوعاً للدراسة النحوية .

وقد أدى تحري المثالية بالالسنيين المحدثين الى التفرقة بين اللغة langue والكلام

(١) شرح التسهيل ٥/١
(٢) المصدر نفسه ٦/١
(٣) حاشية الخضري ١/ ١٤
(٤) شرح الحدود للفاكهي ٣٢ و ينظر شرح جمل الزجاجي ٨٧/١
(٥) اي : الكلام
(٦) الهمع ١١/١ وينظر الى شرح الأشموني ٨/١ ، حاشية الخضري ١٥/١ ، وفي الهمع (١٠/١) : ولم يشترط القصد ابو حيان ، وإشترطه ابن مالك وخلائق (راجع رأي ابي حيان في الارتشاف ٤١٢/١)

parole (عند دي سوسير) (١) اوالقدرةCompetence والاداء performance عند تشومسكي .. فالمصطلح الاول (اي اللغة او القدرة) يمثل نظام اللغة الموجود في الذهن ، في حين يمثل الثاني ماينطقه الفرد فعلا ، حيث يعنى الالسني بدراسة الاول ، لان الفرد في الحالة الثانية معرّض للخطأ ، بسبب السهو ، او النسيان ، اوالتلعثم او الأضطراب ... (٢) علاوة على الجانب الالسني الذي لحظناه عند النحاة العرب في مسألة القصد ،لابد ان نشير ايضاً الى جانب فلسفي -السني يخص عد اللغة لغة اصلا ،وكون اللغة ظاهرة انسانية ، وعدم استخدام غير بني البشر للغة (٣) .

اما محاكاة بعض الطيور للانسان في كلامه فلم يجعله النحاة العرب لغة لخلوه من النية او القصد كما سموه . يقول جوستوس هارتناك في كتابه «اللغة والفلسفة» ماخلاصته : لو وعد الببغاء بالقاء محاضرة، فان « وعده» هذا ليس وعداً » اصلا ، لان « مفهوم » الوعد او« الوعي» بمفهوم الوعد غير موجود عنده ، ومن ثم لايسمى ماينطق به الببغاء عملا لغوياً ، بل هو عمل صوتي (٤) Phonetic act.

اما زلات اللسان فقد صنفها الالسنيون الى زلات صوتية ، وتركيبية ،ودلالية واخضعوها للدراسة ، فلاحظوا - مثلا - ان الخطأ الدلالي غالبا مايؤدي الى حلول كلمة تقع ضمن نفس الميدان الدلالي semantic field للكلمة الصحيحة ، كأن يقول المتكلم رأيت بأذني (بدلا من بعيني) حيث تقع الأذن

---

(١) علم اللغة العام ٢٦-٢٩

(2) Victoria Fromkin, Robert Rodman (1978) An Introduction to language , PP. 6-9.

John Lyons, (1981) Language and Linguistics, PP. 8-11, 233-235

(3) John Lyons, op. cit., P. 3.

(4) Hartnack (1976) Language and Philosophy ص ١٤ ومابعدها

والعين في ميدان دلالي واحد هو اجزاء الوجه (١) . فضلا عن اخضاع تلك الزلات للدراسة النفسية (٢) .

والظاهر ان النحاة العرب اشترطوا عدم السهو ، او السكر ، كي يضمنوا صحة كلام المتكلم وكيلا يبنى الحكم النحوي على نص فاسد. اما فيما عدا ذلك، فلا اظن ان هناك مايتطلب هذا الشرط ، ولم اجد من الالسنيين من اشترطه .

– ٥ –

الاستقامة الدلالية

قد يكون الكلام صحيحاً نحوياً ، غير مستقيم دلاليا . وقد عرض سيبويه لهذه المسألة بالتفصيل . فقال في « باب الاستقامة من الكلام والأحالة» : فمنه مستقيم حسن ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وماهو محال كذب. فاما المستقيم الحسن فقولك : اتيتك امس ، وسآتيك غداً ، واما المحال فان تنقض اول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسأتيك امس ، واما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ، ونحوه ، واما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيداً رأيت وكي زيد يأتيك ، واشباه هذا . واما المحال الكذب فان تقول : سوف اشرب ماء البحر امس » (٣) . ولابد ههنا من الاشارة الى امرين .

اولهما : ان النحاة الذين عرضوا لهذه المسألة فهموا من كلام سيبويه انه يعد الجمل غير المستقيمة دلاليا كلاما ، ولم يزيدوا على كلامه شيئا . (٤)

ثانيهما : ان النحاة العرب اغفلوا تناول هذه المسألة في المصادر التي رجعنا اليها باستثناء ابن مالك وابي حيان ، والسيد ياسين في حاشيته على التصريح ، (٥)

---

(1) Fromkin and Rodman, op. cit. p. 8–9, 147–148, 157, 165–166.

(2) Jean Aitchison (1979), The Articulate Mammal, Hutchinson of London, P. 208. ff

(٣) الكتاب ٨/١ (بولاق) ٢٥/١ – ٢٦ .

(٤) شرح التسهيل ٥/١ ، الارتشاف ٤١٢/١ ، حاشية السيد ياسين ٢١/١ .

(٥) راجع المصادر المذكورة في هامش (٤) .

مع ان سيبويه قد فصّل فيها ،وكان متوقعاً ان يتناولها النحاة من بعده بالدرس والتمحيص (١) .

يتناول الدلاليون من الالسنيين هذه المسألة بالتفصيل ، مبينين انواع الشذوذ anomaly او الأنحراف deviation ، ويقسمونه الى درجات ، من مثل : قد زيداً رأيت حيث تكون الكلمات صحيحة مع خلل في الترتيب (مع وجود مرتبة اكثر في الشذوذ وهي انعدام الرابط بين الكلمات دلاليا ونحويا مثل (فرس ،بحر ،ال) مروراً بجمل صحيحة نحويا، خاطئة دلاليا ،كمثال تشومسكي المشهور «الافكار الخضر العديمة اللون نامت بغضب » والجملة الصحيحة نحوياً ولكنها تخالف الحقيقة ، مثل الايطاليون يتكلمون اللغة التركية ... الخ(٢). مما يدخل في علم الدلالة semantics لا علم النحو syntax

-٦-

حسن السكوت

اشار النحاة الى ان من شروط الكلام المفيد ان يحسن السكوت عليه (٣).
وقد فصلت بعض المصادر هذه المسألة ، فقال في الهمع ، والمراد بالمفيد : مايفهم معنى يحسن السكوت عليه . وهل المراد سكوت المتكلم او السامع او همَا ؟ اقوال ، ارجحها الاول ، لانه خلاف التكلم ، فكما ان التكلم صفة المتكلم كذلك السكوت صفته ايضاً . والمراد بـ« حسن السكوت عليه » ان لايكون

---

(١) اشار الى هذه المسألة ، بألفاظها عند سيبويه ، ابن سنان الخفاجي من البلاغيين ، ينظر الى: سر الفصاحة ١٩٩

(٢) للتفصيل في انواع الشذوذ ، ينظر الى
Don L.F. Nilson, and Allen pace Nilson (1975): Semantic Theory A Linguistic Perspective, PP. 38–47.

(٣) ينظر مثلا الى : شرح شذور الذهب ٣٥ ، واوضح المسالك ١١/١ ، وشرح ابن عقيل ١٤/١ ، والمصادر في الهامش الاتي

محتاجا في افادته للسامع كأحتياج المحكوم عليه الى المحكوم به او عكسه ، فلا يضره احتياجه الى المتعلقات من المفاعيل ونحوها (١) .

وقد نبه سيبويه الى اقتران السكوت عند المتكلم بنهاية كلامه وإيفائه الغرض منه . قال في « باب ماينتصب فيه الخبر لانه خبر لمعروف يرتفع على الابتداء قدمته او أخرته» وذلك قولك : فيها عبدالله قائما ، وعبدالله فيها قائما فعبدُالله ارتفع لابتداء ، لأن الذي ذكر قبله وبعده ليس به وانما هو موضع له ، ولكنه يجري مجرى الاسم المبني على ماقبله ، الاترى انك لوقلت : فيها عبدُالله ، حسُن السكوتُ وكان كلاما مستقيما كما حسن واستغني في قولك هذا عبدُالله (٢) » وقال ايضا « فرب اسم لايحسن عليه عندهم السكوت حتى يصفوه وحتى يصير وصفه عندهم كأنه به يتم الاسم » (٣) .

ولو تأملنا كلام المحدثين من الالسنيين لما وجدنا زيادة ذات بأل في هذا الخصوص ، فيقول هارس . Z.S.Harris استاذ تشومسكي ، معرِّفا الكلام المفيد بانه جزء من حديث يقوله شخص ، يسبقه ويليه سكوت من جانب الشخص » (٤) وفي معجم اللغة وعلم اللغة ان الكلام المفيد utterance هو جزء من كلام بين فترتين من الصمت او امكان الصمت ، وعلامته marked في نهاية [الكلام المفيد] هي صعود او هبوط الوقف juncture النهائي (٥) والملاحظ ان النصين اشار الى السكوت قبل الكلام ، علاوة على السكوت بعده وهو مما لم يشر اليه نحاتنا .

والأمر الاخر الذي اشار اليه مؤلفا « معجم اللغة وعلم اللغة » هو الربط

---

(١) همع الهوامع ١٠/١ ، وينظر الى شرح الحدود للفاكهي ٣٩ ، حاشية الخضري ١٤/١ . وفي شرح الحدود للفاكهي (٣١ - ٣٢) ان جماعة من النحاة ، منهم ابن هشام في القطر واوضح المسالك اسقطوا شرط « المقصود لذاته» المذكور في الفقرة الثالثة لأن حسن السكوت يستلزم ذلك ، اذ حسن سكوت المتكلم يستدعي ان يكون قاصداً بما تكلم به ».

(٢) الكتاب ٢٦١/١ (بولاق)

(٣) المصدر نفسه ٢٦٩/١ وينظر ٢٨٣/١ ، ٣٤٧ .

(4) Z.S. Harris (1951) Methods, in Structural Linguistics, P. 14.

(5) Hartmann and Stork, op. cit. P. 246

بين الوقف ونهاية الكلام . وهذا مالم يذكره النحاة في تعريفهم للكلام المفيد ، وان كان جزءاً من دراستهم للوقف .

اما السكوت الاول الذي يسبق الكلام المفيد عند الالسنيين المعاصرين فهو في واقع الحال هو نفسه السكوت الذي ينتهي به الكلام ، ليكون سابقا لكلام مفيد بعده .

• • •

بقي ان نشير الى ان النحاة العرب ، وخاصة المتأخرين منهم ، تناولوا مسألتين جدليتين مما لافائدة فيهما ،

الاولى : هل يعد اتحاد الناطق بالكلام شرطا من شروط الكلام المفيد ، ام يجوز ان ينطق شخص بالمسند اليه – مثلا – وينطق ثان بالمسند ؟ (١) .

الثانية : هل يشترط في الكلام المفيد ان يكون « مفيداً » ، بمعنى انه يقدم لسامعه معلومات جديدة غير معروفة ؟ ومن ثم لا يُعدّ كلام مثل «النار حارة» و «السماء فوقنا» كلاما مفيداً ، لأنه يدل على بديهيات (٢) .

النتائج

يمكن ان نخلص من البحث السالف الى نتائج اهمها ان النحاة العرب فرقوا بين القول ، الذي يشمل كل ما ينطق به اللسان ، والكلام . وان هذا الأخيـر يشترط فيه ان يكون منطوقاً ، غير ان النحاة لم يعللوا لهذا الشرط ، في حين قدم الالسنيون المحدثون اسبابا كثيرة لتفضيلهم المنطوق على غيره ، كالمكتوب مثلا . علاوة على هذا يشترط في المنطوق الاسناد وعدم الشذوذ الدلالي – على الاصح – وقد تبنى الالسنيون المحدثون هذا المعيار ، وان ركز متأخروهم

(١) شرح التسهيل ٦/١ ، الارتشاف ٤١٢/١ ، الهمع ١٠/١

(٢) شرح التسهيل ٦/١ شرح الكافية الشافيه ١٥٨/١ ، الارتشاف ٤١٢/١ حاشيـة الخضري ١٥/١

على عنصر الجدة في المعلومات التي يقدمها المسند . ويلاحظ ان المتأخرين من الالسنيين ، مثل المدرسة التوليدية التحويلية ، تؤيد النحاة العرب في افتراض وجود عناصر مقدرة غير ملفوظة ، في حين ان البنيويين يميلون الى تجنب ذلك . وقد اشترط النحاة العرب عنصر الوعي والقصد في الكلام ، واذا كان الالسنيون يؤيدون الاول ، فانهم لايشترطون الثاني ويتفق النحاة مع الالسنيين في ان حسن السكوت على الكلام من أدلة كونه مفيداً .

وقد تناول نحاة قليلون مسألتين جدليتين بالبحث ، وهما اشتراط اتحاد الناطق ام عدم اشتراط ذلك ، ومعنى «الافادة» وفيما اذا كانت تقتصر على اعطاء معلومات غير بديهية .

والنتيجة النهائية التي يستطيع البحث ان يخرج بها هي ان علم اللغة الحديث لم يقدم الكثير الى ماذكر والنحاة في هذه المسألة ، وان اكثر ماذكره الالسنيون هو اعادة صياغة لمفاهيم قديمة بمصطلحات حديثة مع محاولة تعليل ذلك .

• • •

مراجع البحث

آ – العربية :

– القرآن الكريم

– **ارتشاف الضرب من لسان العرب** ، ابوحيان الاندلسي ، تح د.مصطفى النحاس ، ٣ج ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٨٧ .

– **اوضح المسالك الى الفية ابن مالك** ، ابن هشام الأنصاري ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٤ج ، ط٥ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٦٧ .

– **التوطئة** ، ابوعلي الشلوبيني ، تحقيق يوسف احمد المطوع ،دار التراث العربي، القاهرة ١٩٧٣ .

– **حاشية الخضري على ابن عقيل** ، محمد الخضري ،٢ج ،دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت

– **الخصائص** ، ابوالفتح عثمان بن جني ، تح د. محمد علي النجار ، ٣ج ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

– **سر الفصاحة** ، ابو محمد بن عبدالله بن سنان الخفاجي ، تح .عبدالمتعال الصعيدي ، القاهرة ١٩٦٩

– **شرح ابن عقيل** ،بهاءالدين عبدالله بن عقيل ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٢ج ، ط١٤ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٦٤ .

– **شرح الاشموني على الفية ابن مالك**،تح محمد محيي الدين عبدالحميد ٣ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٥٥ .

– **شرح الفية ابن مالك** ، بدرالدين محمد بن محمد بن مالك ، مطبعةالقديس جاورجيوس ، بيروت ١٣١٢ .

– **شرح التسهيل** ، **ابن مالك** ، تح د.عبدالرحمن السيد ، ج١ ، ط١ ،مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤ .

- شرح التصريح على التوضيح ، الشيخ خالد الازهري ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ٢ج ، د.ت .
- شرح جمل الزجاجي ، ابن عصفور الاشبيلي تح د. صاحب جعفر ابي جناح ، مطبعة جامعة الموصل ، ط١ ، ٢ج ، ١٩٨٠ .
- شرح الحدود النحوية ، عبدالله بن احمد الفاكهي ،تح. د. زكي فهمي الالوسي ، بغداد ١٩٨٨ .
- شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي ، ٢ج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
- شرح شذور الذهب ، جمال الدين بن يوسف بن هشام الانصاري تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط١١ ،المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٨ .
- شرح الكافية الشافية ، جمال الدين محمد بن مالك ، تحقيق د. عبدالمنعم احمد هريدي ، ط١ ، ٥ج ، جامعة ام القرى ، مكة المكرمة ١٩٨٢ .
- شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية ، لابن هشام الانصاري، تح د. هادي نهر ، ٢ج ، بغداد ١٩٧٧ .
- شرح المفصل ، محيي الدين يعيش بن علي بن يعيش ١٠ج ، ادارة الطباعة المنيرية ، د.ت .
- الصاحبي في فقه اللغة ، ابوالحسين احمد بن فارس، تح مصطفى الشويحي مؤسسة آ.بدران ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- الكتاب ، سيبويه ، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر
آ. طبعة بولاق ، ٢ج (١٨٩٨ - ١٩٠٠) .
ب. بتحقيق عبدالسلام هارون ، ٥ج ،دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٧ .

- **كشف المشكل في النحو** ، علي بن سليمان الحيدرة اليمني ، تح د.هادي عطية مطر ، ٢ج ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٨٤ .
- **المرتجل** ، ابومحمد عبدالله بن احمد بن الخشاب ، تح علي حيدر ، دار الحكمة ، دمشق ١٩٧٢ .
- **المقرب** ، ابن عصفور الأشبيلي ، تح د. أحمد عبد الستار الجوادي ، وعبدالله الجبوري ، ٢ج ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧١ .
- **مغني اللبيب عن كتب الاعاريب** ، إبن هشام الانصاري ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ٢ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت .
- **همع الهوامع شرح جمع الجوامع** ، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي ، ٢ج ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

ب ـ الانكليزية :

- Allerton, D.J. (1979) **Essentials of Grammatical Theory** , Routledge and Kegan Paul, London and Boston.
- Bach, Emmon (1964) **An Introduction to Transformational Grammar,** Holt, New York–London.
- Fromkin, victoria and Rodman, Robert (1978) **An Introduction to Language,** Holt, New York.
- Gleason, H.A. (1975) **An Introduction to Descriptive Linguistics,** Holt New York–London.
- Hall, Robert A.Jr (1964) **Introductory Linguistics,** chilton Books
- Harris, Z.S. (1951) **Methods in structural Linguistics,** University of Chicago Press.
- Hartmann, R.R.K. and Storck, F.C. (1976) **Dictionary of Language and Linguistics,** Applied Science Publishers, London.
- Hartnack, J. (1972) **Language and Philosophy** , Mortton, the Hague.
- Hocket, Charles F. (1967) **A Course in Modern Linguistics,**Macmillan New York.

- Lyons, John (1977) **Introduction to Theoretical Linguistics,** C.U.P.
- Lyons, John (1981) **Language and Linguistics,** C.U.P.
- Nilso, Don L.F. and Nilson, Allen Pace, (1975) **Semantic Theory: A** Linguistic Perspective, Newbury House Publishers

Wall work, J.F. (1978) Language and Linguistics, Heinemann Educational Books



الروائي التاريخي بين الحقيقة التاريخية والخيال الفني

الدكتور
حسين يوسف حسين
استاذ مساعد ـ قسم اللغة العربية

الرواية التاريخية من الأشكال الأدبية التي أكتمل جنسها في بداية القرن التاسع عشر . وتزامن ذلك مع عصر الأزدهار الرومانتيكي ، ولو أنه من الصعب القول انها ظاهرة رومانتيكية خالصة ،لانها جزء من تراث اوسع هو التراث الروائي.حاول بعض الدارسين الربط بين نشوئها وتطورالدراسات التاريخية في القرن الثامن عشر ، فقد كان هذا القرن مهتماً بالتاريخ اهتماماً كبيراً ـ او كما يسميه ارنست بيكر ـ قرن التاريخ (١) فقد شهد القرن الثامن عشر ظهور مؤرخين وفلاسفة كبار في اوربا من امثال جيبون Gibbon وهيوم Hume وفولتير Voltaire واخرين ، ممن نظروا الى الماضي نظرة جديدة تميزت بالروح النقدية من ناحية وبالتفسير الموضوعي للتاريخ من ناحية اخرى : كما استطاعوا ان يتعلموا دراسة الحقائق بكل تفصيلاتها استناداً الى البحث العلمي الدقيق (٢) ، واصبح التأريخ لوناً من الوان التفكير يختلف عن انواع المعرفة الاخرى ، وكان لذلك تأثير كبير في التغيير الذي طرأ على تصور المؤرخين للتأريخ ووظيفته .

فلم يعد التاريخ مجرد حقائق نتثبت منها ، ولكن التأريخ الذي يفهم عن طريق ادراك الإسباب التي من اجلها حدثت هذه الحقائق في الصورة التي حدثت بها فعلا (٣).

(1) Baker, E., The History of the English Novel, Vol. III. p. 804.

(٢) كولنجوود ، فكرة التأريخ ، ص٣٦

(٣) نفسه ، ص ٢١١

كما ان الرواية نفسها كفن ادبي كانت قد بلغت مرحلة كبيرة من التطور في نهاية القرن الثامن عشر ، وشكل هذا التطور خلفية مهمة للرواية التاريخية وكان لذلك تأثير مهم ايضاً في ظهورها في هذه الفترة .

وبفضل ولتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢) Walter Scott احتلت الرواية التأريخية مكانة هامة في تأريخ الرواية ، فقد اراد هذا الكاتب ان يجمع بين عمل المؤرخ ونظرته الى الماضي وعمل الروائي في محاولته تحقيق التواصل في التجربة الانسانية ، ولذلك فقد كان تأثيره كبيراً على الرواية في انكلترا واوربا حتى عده البعض ابا للرواية التأريخية ، فقد وضع سكوت امامه ثمانمائة عام من التأريخ الاسكتلندي والانجليزي والفرنسي واتخذها مادة للتجربة الروائية التأريخية استطاع من خلاله تغيير مجرى الرواية كله في اوربا باكملها ، وليس هذا فحسب وانما غير ، دون ان يكون مؤرخاً بالمعنى الدقيق ، طريقة كتابة التاريخ تماماً ، لانه حاول ان يصور الواقع التاريخي كما كان فعلا ، ويمكن ان يكون في ذات الوقت حقيقياً من الناحية الانسانية واهلا ليعايشه مرة اخرى القارىء في عصر لاحق (١) .

لم يحاول كثير من الباحثين تقديم تعريف للرواية التأريخية لوضوحها الظاهري في حين ركز من حاول تعريفها على بعض خصائص هذا الشكل الروائي . وقد ذكر بعض النقاد ان اية رواية تعود خلفيتها التأريخية الى اكثر من (٤٠ — ٦٠) سنة تعد رواية تأريخية (٢) .

ولاحظ آخرون ان الرواية لن تكون تأريخية بحديثها عن الماضي فحسب ولكن عندما نجد ان خيال كاتبها يساعد حقائق التأريخ (٣) . وتذهب هيلين كام Helen Cam الى ان الرواية التأريخية هي اعادة خلق عصر ومجتمع وعالم بفكره وشعوره ، وليس مجرد القاء ضوء على شخصية

---

(١) لوكاش ، جورج ، الرواية التاريخية ، ص ٤٤

(2) Flieshman, I, The English Historical Novel, p.3.

(3) Sheppard, The Art of Historical Fiction, p. 15.

معينة او مجموعة اشخاص او احداث تأريخية(١)، في حين يؤكد تبل Tebble ان المهم في هذا المجال هو ان الرواية التأريخية الحقيقية هي تلك التي تتناول حياة رجال ونساء عاشوا واحبوا وماتوا في عـالـم مختلف تماماً عن عالمنا هذا (٢) .

على ان المهم في رأي لوكاش هو ان يجعلنا الروائي التأريخي نعيش مرة اخرى الدوافع الاجتماعية والانسانية التي ادت بالناس الذين برزوا في احداث التأريخ الكبيرة الى ان يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التأريخي (٣)

فالرواية التأريخية تختلف عن الاشكال الروائية الاخرى بخصوصيـة علاقتها بالماضي ، ولو ان وجود خلفية واقعية للاحداث هو من السمات المعروفة للرواية عموماً ، حتى ان بعض الروايات غير التأريخية تعتمد على خلفية مستقاة من احداث الماضي ، ولكن الرواية التأريخية تختلف عن تلك الروايات بسبب هذه العلاقة الخاصة بالتاريخ ، فهي تتميز عنها بكونها ذات طبيعة مركبة ، أي انها جمعت امرين هما الرواية والتأريخ ، ومـن هنا تبرز صعوبة هذا الشكل الروائي الذي يخلق عالماً مملوءاً بـالاسمـاء والاحداث حتى انه يبدو عالماً واقعياً كالماضي الذي يمثله من جهة ، ولكنه لايستطيع ان يبتعد عن الاطار التأريخي للاحداث التي وردت في كتب المؤرخين من جهة اخرى ،ولو ان المؤرخ نفسه ،عندما يتناول الماضي بالدراسة لايقف عند سرد الاحداث بل له دور في اختيار احداثه وتأويلها ، أي ان حقائق الماضي التي تصل الينا هي نتيجة تفاعل وحوار المـؤرخ مع تلك الحقائق ثم يقدمها لنا بالطريقة التي يفكر فيها ويراها ، وعليـه فان تفحصنـا

(1) Cam, H., Historical Novel, p. 18.
(2) Tebble John. Fact and Fiction. P. 37

(٣) لوكاش ، ص٤٦

لعلاقة المؤرخ نفسه بحقائق التأريخ قد يصل بنا الى حالة غير مستقرة (١). لان مسألة الحقيقة التأريخية ذاتها اثارت جدلا ونقاشاً كبيرين بين فلاسفة التأريخ ودارسيه ، طالما ان التأريخ يهتم بحوادث لم تعد قائمة ولايستطيع ان يستحضرها إلا بفعل ذاكرة الاخرين ، وليس بالامكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها . وهكذا فان التاريخ يصنع من النصوص التي وصلت الى ايدي المؤرخين ، ولا بد ان تخضع الحقائق ، سواء وجدت في الوثائق ام لم توجد لصنع المؤرخ ، والفائدة التي نستخلصها من الوثائق هي عملية الصنع (٢).

يتحدث ابن خلدون في مقدمته عن المؤرخين فيقول « فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والأمصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب ..... والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ماعنده من القواعد والاصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً والا زيفه واستغنى عنه » (٣) وهكذا فان حقائق التاريخ لاتصل الينا بصورة بحته لانها لا توجد ولايمكن ان توجد بصورة بحتة ، انها دائماً تنعكس من خلال ذهن المدون ، ويترتب على ذلك اننا اذا تناولنا عملا تأريخياً فينبغي ان لا يكون اهتمامنا الاول منصباً على الحقائق التي يتضمنها وانما على المؤرخ الذي كتبها (٤) . فقراءة للمؤلفات التي كتبت عن الحرب العالمية الثانية مثلا . وهذا ليس بالماضي البعيد ، نجد ان هناك اختلافاً كبيراً بين وجهات نظر المؤرخين الغربيين للحرب ، ووجهات نظر المؤرخين من اوربا الشرقية ، في تحليلهم وتفسيرهم بحقيقة هذه الحرب واحداثها ودور كل طرف فيها .

(١) ادورد كار ، ماهو التأريخ ، ص٣١
(٢) جوزيف هورس ، قيمة التأريخ ، ص ٩١
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨
(٤) ادورد كار ، ص ٢٣

اما الامر الاخر الذي تجدر الاشارة اليه فهو ان المؤرخ يستند الى الحقائق المفردة التي تتبين له من الماضي ، ويحتاج الى خياله في صياغة المادة التأريخية بصورة معينة ووفق منطق معين ، اذا ما اراد احياء الماضي وبعث الحياة فيه ، فاذا ما احيا الخيال التاريخ ، فهو بحاجة الى براعة الكاتب حتى يبرز التاريخ في الثوب اللائق به (١) .

وضمن الاطار نفسه يعلق اسد رستم قائلا « يترتب على المؤرخ عند بدء العمل في ربط الحقائق المفردة وتأليفها ان يتخيل لنفسه من مظاهر المجتمع مايفترض وجوده في الماضي ، ثم ينظم حقائقه على اساس ماتخيل وجوده بالقياس ، واذا فعل هذا فسرعان ما يرى ان الحقائق المفردة تتوفر في بعض النواحي وتنعدم في البعض الاخر ، فيحدث فراغ في بعض الاحيان لابد من تلافيه » (٢) ويصح هذا الرأي بشكل خاص اذا ما كانت الاحداث عن العصور القديمة ، فاذا ما حاولنا الاطلاع على ما كتبه المؤرخون عن كليوباترا مثلا ، وكيف قدموا شخصية هذه الملكة الحسية والمعنوية ، وكيف اغرى هذا الخيال التاريخي الادباء والشعراء بالاسراف في التخيل ايضاً .

وبناء على ماتقدم نستطيع القول بأن التأريخ وفق هذه المفاهيم يقترب الى حد ما من الفن لاننا وجدنا ان للمؤرخ دوراً كبيراً في صياغة الحقيقة التأريخية بشكلها النهائي ، كما انه يستعين بخياله الى حد معين عند تقديمه الحقيقة التأريخية . وكذلك للخيال دور رئيس في الرواية لانه يرتبط بعملية التشكيل في البناء الروائي ، ومن هنا تبرز مسألة التشابه بين المؤرخ والروائي والتي اشار اليها كولنجوود R·G·Collingwood في كتابه «فكرة التأريخ» فيقول ان كلا منهما ينصرف الى رسم صورة تتألف من عدة

---

(١) هرنشو ، علم التاريخ ، ص ٣
(٢) اسد رستم ، مصطلح التأريخ ، ص١١١

عناصر بحيث تنطوي على قصص للاحداث ، ووصف للمواقف وعرض للدوافع والبواعث ، ثم تحليل للشخصيات ، والواقع ان كلا منهما يهدف الى تشكيل صورة كاملة من حيث التماسك والتناسق حيث تبدو كل شخصية وتبدو كل موقف ، حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف في الصورة بأجمعها ، الى الحد الذي نجد عنده ان هذه الشخصية في هذا الموقف ، ماكان لها ان تتصرف ، او ماكان في مقدورها ان تتصرف في غير هذا الاسلوب واذن يجب ان تنطوي الرواية . كما ينطوي التأريخ ، على مغزى ، بحيث لاينبغي ان يقحم في احدهما تفصيل لايفرضه منطق الحدث ، والذي يقرر هذه الضرورة المنطقية في الحالتين هو الخيال (١) . ويأتي كولنجوود بمثل على ذلك عندما يشير المؤرخون الى ان القيصر كان في روما في يوم من الأيام وكان في الغال في يوم اخر ، ولكن لو اكملنا الحدث عن طريق ذكر تفاصيل خيالية كاسماء الاشخاص الذين قابلهم عبر الطريق ، والحديث الذي دار بينه وبينهم ، هذه من نوع التفاصيل التي يأتي بها الروائي التاريخي ، ولكن لو ان التفاصيل التي نضيفها لاتنطوي على شيء لاتحتمه المادة التأريخية لكانت هذه اضافه تاريخية مشروعة . فكولنجوود يؤدي هنا دور الخيال في كلا العملين وإن المؤرخ الكامل يلزم ان يكون على درجة من الخيال ، وان الصورة التي يقدمها عن موضوعه تكون تصويراً من نسج الخيال ممتداً بين نقط ثابتة حددتها المادة التأريخية .

ويذهب الى حد القول بانه « لايوجد ثمة فارق بين انتاج المؤرخ ، وبين نتاج الروائي ، بوصف الاثنين من نسج الخيال ، والنقطة التي يختلفان فيها ، هي ان الصورة التي يرسمها المؤرخ قصد بها ان تكون صادقة : وان ، الروائي ليلتزم بشيء واحد فقط — ذلك هو رسم صورة متشابكة متماسكة . صورة ذات مغزى ، اما المؤرخ فيلتزم بالواجبين معا» (٢) . وعليه فمسع

---

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ٤٢٥
(٢) نفسه .

تأكيده على وجود عنصر الخيال الذي يشترك فيه المؤرخ والروائي في بناء صورتهما للماضي إلا ان كولنجوود يعود ويشير الى الفرق بينهما ، فيجعل للمؤرخ واجبين ، فصورته يجب ان تكون صادقة وذات مغزى ، ويجعل للروائي واجباً واحداً هو ان تكون صورته متماسكة وذات مغزى ، ولكن الروائي في اي حال من الاحوال ليس مؤرخاً ولايكتب تأريخاً ، وانما يقدم عملاً يحمل طابع التاريخية الروائية ، ذلك ان الابداع الروائي في هذا المجال يقوم بالضرورة على فكرة من التأريخ ، ولكن كلا من التأريخ والرواية ينتمي الى ميدان معين من المعرفة ، له منهجه الذي يختلف عن الاخر وصدقه الذي يسعى الى الوصول اليه .

ان موضوع الفرق بين الاثنين يعود الى آرسطو اولا عندما قدم الشعر على التأريخ في كتابه «فن الشعر» عندما قال « وواضح كذلك مما قلناه ان مهمة الشاعر الحقيقية ليست في رواية الامور كما وقعت فعلاً ، بل رواية مايمكن ان يقع والاشياء ممكنة : اما بحسب الاحتمال او بحسب الضرورة ، ذلك ان المؤرخ والشاعر لايختلفان بكون احدهما يروي الاحداث شعراً والاخر يرويها نثراً وانما يتميزان من حيث كون احدهما يروي الاحداث التي وقعت فعلا ، بينما يروي الاخر الاحداث التي يمكن ان تقع » (1) .

صحيح ان « الماضي» هو الموضوع المشترك بين الروائي والمؤرخ ، إلا ان الرواية التاريخية عمل فني ، يستمد قيمته او اكثرهما من ذاته ، ومن جمالياته الخاصة وقضاياه المثارة . فاذا ماكان له اصل تأريخي ، فالامر باق على حاله لان العمل الفني التأريخي لايستمد مشروعية وجوده من مشابهته للتأريخ ،وانما على تناوله للتاريخ بشكل يبدو منسجماً مع المنطق الانساني وغير متناقضه مع مسلمات التأريخ التي ليست موضع شك . فالرواية هنا لاتقدم الحقائق التاريخية كما هي ، بل يحاول الروائي تصوير الحياة الانسانية من خلالها

(1) ارسطو ، فن الشعر ، ص ٢٦

وهو لايعنى بها لذاتها ، كما يفعل المؤرخ ، وانما تهمه روعة الصورة التي يستخرجها من تلك الحقائق ، فهناك هدف يسعى اليه الروائي وهو ان يرينا كيف تصرف الاشخاص والأحداث بسيران بشكل تفرضه طبيعة الاشخاص والأحداث في فترة تاريخية معينة (١) ، ويلعب خيال الروائي دوراً كبيراً في تحقيق ذلك فهو يستعين بخياله لملء الفراغات التي يتركها التاريخ ويعدها الروائي جزءاً من مظاهر الحياة انذاك . فالمؤرخ يحاول ان يدرك الماضي بوصفه شيئا قائما بذاته اي يلقي الضوء على حقيقة احداثه في حين يقوم الروائي باعادة صياغة احداث الماضي ليعيد اليها الحياة . فتولستوي (١٨٢٨ — ١٩١٠) تناول فترة غزو نابليون لروسيا القيصرية في رواية (الحرب والسلام) ومن خلال عدد من المشاهد والشخوص يتوصل تولستوي الى تجسيد الظواهر والأبطال الذين يكشفون بترابطهم مع الاحداث ذات الحجم التاريخي من الفكرة الرئيسية للرواية (٢) ، فتولستوي يرمي الى معالجة الماضي معالجة اوسع مما يفعله المؤرخ لكي تبدو الحياة للعيان في ترابط منطقي اوسع ففي هذه الحالة الروائي التاريخ يمزج الجانب التاريخي با لجانب الروائي في عمله. فالاول (اي التاريخ) له دور هيكلي تنظيمي ان صح التعبير ، والثاني (اي الروائي) يمثل التكامل الحياتي وتجسيده الفني . وذلك مرتبط بشكل كبير بقدرة الروائي الابداعية . فهو يفاضل ويقارن بجمالية فنية بين الحياة اليومية وسبل المعيشة التي تظهر دقائق حياة الناس في ابسط مظاهر الحياة البشرية وبين مشاهد ذات أهمية تاريخية (٣) .

ولكي يستطيع الروائي اعادة خلق الماضي في روايته وتعبيره عن العصر الذي يتناوله يأتي بحوادث واشخاص من صنع الخيال . تعيش جنبا الى جنب مع شخصيات تاريخية حقيقية . وهو يحاول بذلك تقديم تجربة الانسان في ذلك العصر بكل مآسيه وافراحه ، ويقوم بتصوير الشخصية الانسانية بجوانبها المختلفة ، كحياتها الخاصة وعالمها الداخلي واسلوب حياتها وتصوير سلوك

١- ولترألن ، الرواية الانكليزية ص ١٧٢

٢- ادينكوف ، ف ، غ ، فن الادب عند تولستوي ، ص٩٩

3- Butter Field, The Historical Novel, P-10.

الناس العاديين بشكل ينكشف معناه العميق خلف الجوانب العادية العارضة وارتباطها ارتباطا وثيقاً بالجو التاريخي للعصر . ويستطيع بذلك تقديم فهم تصوري لاذهان الناس في الفترة التي يتعامل معها ولافكارهم التي تكمن خلفها افعالهم وقد تمكن « ولتر سكوت » على سبيل المثال من خلق عدد كبير من الشخصيات غير التاريخية لكنها مثلت فتراتها التاريخية خير تمثيل ، وهذا مكنه على ابراز العلاقة بين الانسان والمكان، والأنسان والمجتمع ، والانسان وماضيه اي تاريخه . ففي رواية « قلب مدلوثيان » (١) "Heart of Midlothian" » كانت «جيني دينز» بطلة هذه الرواية وهي شخصية غير تاريخية من صنع سكوت ، الا أنه استطاع بواسطتها ان يرسم ملامح عصر كامل من تاريخ انكلترا وان يعرض مشهداً تاريخياً وتشريحيا في غاية الاهمية .(٢)

والذي يجعل الرواية التاريخية رواية حية وتراثاً قيما في الاداب العالمية هو مسؤولية الروائي الحقيقية تجاه الماضي ، ولو ان المفهوم الذي لديه عن الحقيقة التاريخية قد لاينطبق تماما مع المضمون الموضوعي للتأريخ ، الا انه يحاول تقديم رؤيته العامة له ، وذلك بالتعاطف المتخيل مع اناس عاشوا في تلك الفترة وخاضوا تجربتها . فعندما يكتب جارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) في «قصة مدينتين» (٣)رؤيته للثورة الفرنسية يربط بين الاختيارات الشخصية لابطال روايته ومعنى الازمة التاريخية،من فترة معقدة مضطربة من التاريخ ولايحاول ديكنز تناول احداث حقيقية ،ولكن عندما يفعل ذلك يحاول اعطاء طابع واقعي لاحداث روائية فهو يبحث عن الكيفية التي اخذت حياة اولئك الافراد شكلها في لحظات محددة في التاريخ ، وطبيعة تلك الحقبة التاريخية

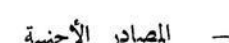
(١) «قلب مدلوثيان» رواية نشرها ولتر سكوت سنة ١٨١٨ وهي واحدة من سلسلة من رواياته التأريخية التي تربو على العشرين . وتعد واحدة من اهم رواياته وخاصة في تنوع شخصياتها التي تتوزع اجتماعياً بين الطبقات الدنيا في المجتمع الى شخصية الملكة ، «كارولا ين» وهذا التنوع اوسع من نجده في اية رواية في تلك الفترة .

(٢) ارنولد كتل ، مدخل الى الرواية الانجليزية ، ج١،ص ١٤٠

(٣) نشرت رواية «قصة مدينتين» سنة ١٨٥٩ ، والمدينتان هنا هما لندن وباريس ابان الثورة الفرنسية ، ويقدم ديكنز وصفاً حياً وممتعاً لمدينة باريس .


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com





ب- المصادر الأجنبية

12- Baker, Ernest, **The History of the English Novel**, vol111 H.F. & G. Witherby, London, 1929.

13- Butterfield, H., **The Historical Novel**, Cambridge, 1924.

14- Cam, Helen, **Historical Novel**,Historical Association, London, 1961.

15- Flieshman, A., **The English Historical Novel**, John Hopkins Press, Baltimor, 1472.

15-Sanders, Andrew, **The Victorian Historical Novel** 1840-1880, Macmillan Press Ltd., London, 1978.

17-Sheppard, A.T., **The Art and Practice of Historical Novel**, Humphrey Toulmin, London, 1930.

ظاهرة السقيا وابعادها الدلالية في القصيدة العربية

الدكتور حسين يوسف خريوش
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة اليرموك
أربد — الأردن

الملخص

الظاهرة التي يتناولها البحث هي ظاهرة ذات نطاق واسع ،وتنوع في المعنى ، يصعب حصرها في اتجاه بعينه . فهي تشكل اتجاهات وابعاداً متباينة ، فنحن نرى فيها تغلب العنصر الديني . وعند ذلك يمكن نسبتها الى الدين وجعلها قوة مهمة في الشعور الديني. فهي تفسير او تأويل لشعائر دينية . وقواعد متعلقة بالعادات.

وان اكثر مايعنينا في هذه الدراسة ان نستخرج النسق المعرفي في هذه الظاهرة، واظهار غرض الشاعر فيها . فالسقيا تحاول ان تبعث تجانسا حياتيا تم فقدانه بقوة الموت ، بحيث توحي بتكامل معين . بين الموت والحياة . « فتتجاوب الأضداد » في اعماق الانسان مبرزة تلك الصورة الفنية .

وتتوافق هذه النظرة الحياتية مع منازع حياتية أخرى ، أي ان هذه السقيا لاتقتصر على الرؤية الرثائية التي يتحقق فيها الفناء بمعناه الظاهر للانسان ، وانمّا هي تتفق مع نزعة الانسان الذي يستشعر حالة انفصامية . بسبب الابتعاد المكاني والزماني .

The phenomenon of asking for raining "Suqia"
and its indicative dimensions in the
Arabic poetry

Dr Hussain Y. Khrawish
Yarmouk University
Irbid - Jordan

Abstract

The phenomenon discussed by the research is considered to be a wide and common one, where the variety of meaning makes it difficult to limit it in a particular stream . It expresses various aspects which might be contradicted; we can see the religious element dom inating it,and then we can connect it to religion and make it a strong religious feeling since it illustrates some of the religious signs and other basis of customs .

What we focus on, in the study, is to point out the knowledge method expressed throughout this phenomenon and what the poet aims method asking for raining at"Suqia"which tries totransmit a kind of likeness or homogenity & life which has been lost by the effect of death strength where "contradictions response to each other" in the depth of human beings to give such image .

This sight to life is compatible to other life contradiction, which mean that asking for raining 'suqia' is not limited in the bewaiting or lamenting scene where essation occurs to human beings, but it is in a complete agreement with man trend when he feels the schizophrenia conditions because of place or time isolation .

اولا: ماهية الظاهرة وفلسفتها

إن احد اكثر مظاهر القصيدة العربية لفتاً للنظر، لا سيما في المرثية، هو شيوع استخدام ظاهرة «السقيا»، وهذه الظاهرة في بعض تشكيلاتها الفنية لا يقيدها هذا المعنى الضيق الذي يمثله التشبيه او الأستعارة مثلا. ولكنها تأخذ أبعادا أرحب في بناء القصيدة الواسع. بحيث تتشابك هذه الابعاد مع وحدات القصيدة الاخرى. في رؤية كلية واحدة منسجمة.

ان هذا المصطلح التركيبي « ظاهرة السقيا» يتسع ليشمل كثيراً من معاني الحياة المتجددة، وليس هو تلك الرؤية الجامدة تحت أي معنى من معاني الموت او الفناء. وبحثنا هذا انما ينقسم الى شقين: يتمثل الأول في البحث عن ماهية هذه الظاهرة، ويتمثل الاخر في مدى اهمية هذه الظاهرة وفعاليتها العقلية والفكرية والفنية. وهذا البحث ليس فلسفياً بقدر ما يرمي الى بحث ارتباط هذه النظرة التأملية بالقصيدة الرثائية وتاريخها. وسأستخدم طريقة بحث تسعى الى:

١ — تعريف المعاني المتنوعة ذات الأرتباط الوثيق بظاهرة السقيا التي كان لها مفاهيم متنوعة ومتطورة في تاريخ المرثية العربية.

٢ — وصف الاختلاف الذي اكتنف معنى هذه الظاهرة الذي برز خلال العصور الأولى ودور عصر ماقبل الاسلام في خلق معناها الاصيل وتمريره الى العصور المتأخرة التالية.

٣ — ايضاح الكيفية التي اصبحت فيها المرثية العربية القديمة مرتبطة بهذه العملية «السقيا» خلال تلك العصور، واخيراً.

٤ — الأشارة الى بعض التضمينات « المعتقدية» لهذه الظاهرة.

اكتسبت كلمة «السقيا» منذ اقدم استخدام لها معنى جوهريا واحدا، يتردد صداه في العديد من المعاني اللغوية والشعرية، وتعني ضمن دلالاتها الأساسية، «دلالة معتقدية». فالسقيا—بالف[illegible] الأمم، وسقاه الله الغيث وأسقاه (١)،

---

(١) العرب تقول لكل ماكان من بطون الانعام ومن السماء او نهر يجري لقوم أسقيت، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاه، ولم يقولوا أسقاه كما قال تعالى (وسقاهم ربهم شراباً =

وقد جمعهما لبيد في قوله (٢) :

سقى قومي بني مجْدٍ ،واسقى نُميرا والقبائل مــن هــلال

وفي الدعاء: سقيا له ورَعْيا وسقاه ورعاه : قال له سقيا وزعيا . وسقيت فلاناً واسقيته اذا قلت له سقاك الله : قال ذو الرمة (٣) :

وقفت على ربع لمية ناقتــي فما زلتُ أسْقي ربعها وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد . ممـا أبثـــه تكلمني احجارُه وملا عبُــهُ

لذا ، فان الدلالة الاساسية لكلمة السقيا ، هي الدعاء والنشاط في العالــم الانساني ، وبهذه الدلالة ، انما كانوا يستخدمونها .« واستسقى الرجــل واستسقاه : طلب منه السقي ، وفي الحديث خرج يستسقي ، فقلب رداءه ، وتكرر ذكر الاستسقاء في الحديث . وهو استفعال من طلب السقيــا ، أي انزال الغيث على البلاد والعباد» (٤) .

ونجد الدلالة نفسها ، ولكن باطار ديني مختلف عند العرب في عصــر ماقبل الاسلام وعصر الاسلام ففي الحديث ، « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» (٥) . هي ما كانت قريش تسقيه

= طهورا) سورة الانسان ، آية ٢١ . وقال ،(والذي هو يطعمني ويسقين) سورة الشعراء: أية ٧٩ . وربما قالوا لما في بطون الا نعام ، ولماء السماء ، سقى وأسقى ، كما في بيت لبيد . (اللسان : سقى) وانظر ، شرح الحماسة ، للمرزوقي ، ج ١ / ١٠٠ – ١٠١) .

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت (١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م، ص ١١٠). ومجد ، ابنة تيم بن غالب – وهي ام كلاب و كليب ابني ربيعة بن عامر ، وبسببها عد بنو عامر من الحمس . لأنها قريشية . وانظر المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة . نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، الطبعة الثانية،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر،١٩٦٨ ، ح ١/ ١٠٠ – ١٠١ .

(٣) ديوان ذي الرمة . تحقيق عبد القدوس ابو صالح . دمشق . مطبعة طربين ، ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م ، الجزء الثاني ، ص ٨٢١ .

(٤) اللسان ، مادة سقي .

(٥) انظر : البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . حققه حسن السندوبي ،الطبعة الثانية . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م . ج ٢/ ٢٤ . وجمهرة خطب العرب ، لأحمد زكي صفوت . مكتبة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٢م ج /١ ١٥٦ .

الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والاسلام (٦) .

فالسقيا تكون جوهرية وأصيلة في مفهوم العصر الجديد ، كما هي في مفهوم عصر ماقبل الاسلام. الا ان قدرة الشاعر قبل الاسلام على ادراك هذه الظاهرة في واقع الحياة ليس مجرد ابتكار من ابتكارات مخيلته . ولكنه يرجع في الفكر العربي قبل الاسلام لما هو ابعد من الفترة المعروفة ، اي . إن هذه الحقيقة الفنية يمكن ان تتشكل في نفس الشاعر من خلال الالهام الذي يستحضره الشاعر في اللحظة الانفعالية للحدث .

باستخدام الشعر في هذه الحقبة لهذه الظاهرة . انما بدأ دورها التأريخي المتعدد المعاني . ونحن لايسعنا معرفة الواقع الأصيل لها . ما لم نبتعد عن فورية الاحساس ، ومجمل التأثيرات الخارجية . اذ ان هذه الظاهرة تدل على وجود « واقع » يوحي بامكانية تكييف الدلالة الاجتماعية البعيدة لهذه الكلمة . الا اننا لانفهم حينئذ الاستخدام المبكر لها . كما ان كلمة «السقيا» — كما سيتضح من بعد — ، تعني ضمنا « المعتقد » . وبهذا فهي ترى في الفن مجالا خاصاً بالروح ، ينهض بالعالم المادي الأدنى الى الأسمى ، وانها — السقيا — تقدم صورة صادقة عن الواقع في مرحلة معينة من مراحل تطور وعي الانسان الجاهلي ، ويصبح اول من يتأمل المعنى الجديد ، ونورد فيما يلي بعض الأشعار المتضمنة لهذه المعاني :

قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

سَقى الاله ضريحاً جَنّ اعظمه	وروحه بغزير المُزْن هطال (٧)
سقى جدثا ،اكنافَ غمرة دونه	من الغيث ديمات الربيع ووابله (٨)

(٦) اللسان ، مادة سقى .
(٧) ديوان الخنساء ، تحقيق اكرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٦٣ . ص ١٠٩
(٨) الديوان : ص١٢٦ .

أُسقى الالـــه ضريحه من صوب دائمة الرهــائم (٩)

وقال اوس بن حجر يرثي نضالة بن كلدة :

لازال ريحان ونغو ناضر يجري عليك بمسبل هطال (١٠)

وقال المثقب العبدي :

سَقَى تلك من دار ومَنْ حلَّ رَبْعَها
ذهاب الغرادي : وبلها ومُديمها (١١)

وقال عمرو بن قميئة :

فسقى منازلهاوحلتهـــــا قرد الرباب لصوته زجل (١٢)

وقال طُرفة بن العبد :

فسقى بلادك غير مفسدهــا صوب الربيع وديمـة تهمي (١٣)

وقال سحيم عبدبني الحسحاس :

أغاضر حياك الالـــه وأسقيت بلادك صوب الرائـــح المتحير (١٤)

ويكاد هذا الثبات في المصطلح لايغادر هذه الظاهرة عند الشعراء على مختلف عصورهم ، كما في قول عبدالرحمن الداخل يناجي نخلة :

نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمريء السماكين بالوبل (١٥)

---

(٩) الديوان ١٣٤ .

(١٠) ديوان اوس بن حجر : تحقيق محمد نجم . دار صادر ، بيروت ١٩٦٧ . ص ١٠٨ .

(١١) ديوان المثقب العبدي ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٧١ . ص ٢٣٤ .

(١٢) ديوان عمرو بن قميئة : تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربيـــة. بالقاهرة ١٩٦٥ . ص ٩٤ .

(١٣) ديوان طرفة بن العبد : تحقيق لطفي الصقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق ، ١٩٧٥ م ، ص ١٤٦

(١٤) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ١٩٦٨. ص ٥٢ .

(١٥) الاحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب – تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ . ج ٣/ ٤٧٠ . والحلة السيراء ابن الأبار . محمد بن عبد الله القاضي : تحقيق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة . الطبعة الأولى . ١٩٦٣ . ج /٣٧ .

وكقول الشاعر ابراهيم النميري الغرناطي . يرثي خاله من قصيدة :

سقاه على الامراع كل مجلجـل ... مـن الغيث هطال العشيات هتان
اذا حركته في البروق سياطهـا ... رمت بعشار المزن في كل بستان
ولازال يندي فوقه كل سجسج ... من الظل محفوف بروح وريحان(١٦)

وكقول احمد شوقي يرثي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١ م :

فيا قبر، كُنْ روضةً مـن رضىً ... عليه ، وكن باقةً من زهـر
سقتك الدموع . فان لم يـدُمن ... كعادتهن سقاك المطـر(١٧)

وفضلا عن ذلك ، ثمة ثبات في المعاني والدلالات التي يمنحونها لتلك المصطلحات والكلمات المترادفة ، وبالرغم من ذلك ، فان المرونة الكبيرة في استخدام هذه المصطلحات التي تبلغ حد الانتماء . هي بحد ذاتها من المصادر الأساسية لتأثير فكر سابق او شاعرية واسعة . وبعد ذلك عدت هذه المرونـة في الفن الرثائي للاجيال التالية دليلا على طاقات السابقـين . اذ لانرى في العصور الأسلامية المتأخرة ، خروجا عن الأنتماء الى هذا المناخ الشعري .وخاصة في هذه الظاهرة التي نحن بصددها . فقد التقت الاهتمامات عند هؤلاء الشعراء وآمنوا بان هذه الظاهرة ، تمدهم بعقيدة او بتصور فكري ما نحو الميت ، بل منحتهم حرية وحافزا وطاقة كبيرة للتأمل . وهم لايجدون مغبة في اقتباس اي فكرة من افكارهم او تحويرها ، طالما هي تشحذ مخيلتهم ، فكان طلب السقيا أحد اكثر عناصر شعرية القدماء التي تم اقتباسها وتحويرها في القصيدة الرثائية في معناها القديم والحديث .

وباستثناء الاستخدام الذي ورد عند بعض الشعراء في « فن الغزل» لهـذه الظاهرة — كما سيأتي الحديث عنه — فانها — والى العصور المتأخرة — قد شملت مدى مختلطا من المعاني ذات الارتباط بالمعتقد الايماني وبالخبرة العادية

---

(١٦) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان : لا بن الأحمر . اسماعيل بن يوسف ، وتحقيـق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ . ص ٣١٧ .
(١٧) ديوان الشوقيات . احمد شوقي . المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٧٠ . ج ٣ /٨٤ .

والحياة في هذا العالم ، وما الى ذلك. ويمكن ان نعرف ماذا كان يخطر ببال ابن زيدون الشاعر الاندلسي (ت٤٦٣هـ) . حينما كتب قصيدته «النونية» الى «ولادة» (ت ٤٨٤هـ) التي وصف فيها « الواقع المأساوي والقاسي « عندما استخدم « طلب السقيا» . كما في قوله .

ليسق عهدكم عهد السرور ، فما كنتم لأرواحنا الا رياحينا
ياساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والوديسقينا(١٨)

فالشاعر . يدعو لهذا العهد بالسقيا والنماء ، واستمر هذا الأستخدام الدعائي والأستسقائي في القصيدة الرثائية . في توافقه العميق مع كلمات الأقدمين ومصطلحاتهم .

ان تصور هؤلاء الشعراء — لهذه الظاهرة — كان هو بمضمونه وشكله مامنح ادباء العصور التالية الحرية لمتابعة هذا التصور ، وتقريب تصوراتهم من تصورات الأولين . وان ماكان يجري من تحول لهذه الظاهرة نحو التامل الفلسفي ، هو ماطرأ على فلسفة هذه الظاهرة . كالحديث عن المعتقد وتصور الاخرة . دون ان يقضي عنها استخداماتها الاخرى الخاصة بالقبر الذي هو رمز للموت،اذ انقلب هذا الأحساس الى مايشبه الراحة والأطمئنان نحو الأخرة للاعتقاد بان رمس الهالك هو بيت الحق كما يظهر ذلك في هذين البيتين للضبي يقول :

ولقد علمتُ بان قصري(١٩)حفرة مابعدها خوف عليَّ ولاعَدَمْ
فأزور بيت الحق زورة َماكث فعلام أحفلُ ماتَقَوَّضَ وانْهَدَمْ؟(٢٠)

---

(١٨) ديوان ابن زيدون : تحقيق علي عبد العظيم . دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٥٥ ص ١٤٣ وما بعدها .

(١٩) القصر ، الغاية ، يقال وقصرك ان تفعل كذا ، وقصارك وقصاراك . أي جهدك وغايتك وآخر أمرك . (حاشية ١ . ص ٤٠٣ من رسالة الغفران) .

(٢٠) المعري . أبو العلاء . رسالة الغفران : تحقيق عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٠٣ .

فالشاعر هنا ، تتحول عنده هذه « الثنائية» الى امتداد نحو الاخرة ، وانكماش نحو الدنيا ، بحيث تجد غناها في الاخرة ، كما لم تجده في الدنيا .

وهذا التصور يقع في محيط البيت او الأبيات من الشعر .او حتى بناء القصيدة بحادثة معينة . او اشياء تحمل دلالات خاصة ، او يكون بإضمار الشاعر لدلالة معنوية محددة . تتضمنها تراكيب لغوية بعينها ، فكل ذلك يحتاج معه الى انعام نظر في النص الشعري ، وتقليب دلالاته

ثانيا: خصائص الظاهرة وأبعادها

١ — البعد الديني

روى ابن بشكوال في كتابه الصلة ، ان عبدالرحمن بن عبدالله الأديب المعروف بابن شبلاق — ومنهم من يقول شبراق بالراء — قال « رأيت في النوم كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير ، وفيها قبر حواليه الريحان الكثير . وقوم يشربون . فكنت أقول لهم : والله ما زجرتكم الموعظة ،ولاوقرتم المقبرة قال : فكانوا يقولون : وماعرفت قبر من هو ؟ فكنت اقول لهم : لا : قال: فقالوا لي : هذا قبر ابي علي الحكمي الحسن بن هاني (٢١) «قال: فكنت اولي فيقولون : والله لاتبرح او ترثيه ، فكنت اقول :

جادتك ياقبر نشاصُ (٢٢) الغمام وعادَ بالعفو عليه السلام
ففيك أضحى الطرف مُسْتودعا واستترت عنا عيون الكلام (٢٣)

يظهر النص ، ان عمل الشاعرهنا في السقيا ، يتجاوز مايجوز وقوعه ، وما هو ممكن على مقتضى الرجحان او الضرورة ، ذلك انه يقفز به الخيال الى عالم آخر يحاول ان يتيم معه تواصلا على مايقتضيه واقع الحياة الأولى .

---

(٢١) هو الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح مولى الجراح بن عبد الله . الشاعر العباسي المشهور .

(٢٢) النشاص : السحاب المرتفع .

(٢٣) كتاب الصلة : لا بن بشكوال . ابي القاسم خلف بن عبد الملك . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ . القسم الثاني ، ص ٣٢٥ .

فالسقيا بهذا المعنى، هي الأداة التي يحاول الشاعر القديم من خلالها ان يضفي على تجربته بعدا « حياتيا » ، وبدون هذه العملية تظل التجربة النفسية مهوشة ويمكننا ان نقول، بتعبير آخر ، ان السقيا ، اخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي .

وعلى ذلك ، ينبغي ان يكون لها فلسفة تتجاوز الرؤية الظاهرة ، ولانشك ، بأنهم كانوا يزدلفون بها الى «الله» ، وذلك من الاسباب المباشرة ، التي تقربهم الى الله زلفى، ولابأس ان يكون ذلك متأتيا عن الخوف من ظلمة المصير ووحشته وكذلك فانا يمكننا ان نذهب الى أنها تحمل الدعوة لروح الميت.

وعلى العموم، ينبغي للمسألة ان تتناول ضمن اطارها الشامل كبث الحياة في الأشياء واشاعة الراحة والطمأنينة ومامن شأنه ان يبعث على التواصل الحياتي بصفة عامة. وذلك ان الفكرة التي يطمأن اليها ، تقوم على ان الماء هو الحياة ، وانه يمتلك قوة تثير الاهتمام بآثارها الظاهرة والخفية وما تحدثه من تغييرات.

ان تاريخ السقيا ، هو التاريخ لمعاني الحياة التي نشأت فيها السقيا يعكس اسلوبا حياتيا ، وعادات معينة ، كانت انعكاسات لتصورات الانسان عن عالمـــه ودراسة السقيا تعود بنا الى الماضي البعيد ، اذ نجد ان اقدم الاستسقاءات قد ارتبطت بالاعتماد الديني. ولم تقتصر على العهد الجاهلي . وانما قد تجاوزت الى عاد وثمود (٢٤) .

---

(٢٤) فإن هؤلاء — عادا وثمودا — لما ظلموا في الأرض . وجحدوا واصابهم قحط شديـد . اوفدوا الى مكة يستسقون لهم . وهنالك ظهرت لهم سحائب ثلاث ، بيضاء وحمراء وسوداء فاختار رئيس وفدهم السوداء طمعاً بكثرة مائها . فاستبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ولكنها كانت ريحاً فيها عذاب اليم . اهلكهم على سبع ليالٍ وثمانية أيام (راجع القرآن سورة ٢٦ . آية ٢٤ . وسورة ٦٩ . آية ٦ — ٨) . وتفيد الرواية ان هذا الوفد نزل على معاوية بن بكر . بظاهر مكة . وهنالك ينهض الى الحرم يدعو لعاد . والأشعار تحمـل هذا المعنى ، وهي لمعاوية بن بكر :

الا يا قيل ويحك قم فهينهم ... لعل الله يسقينا غمامـاً
فيسقي أرض عاد إن عـادا ... قد أمسوا لايبينـــون الكلاما

(راجع في خبر عاد ، تأريخ الطبري : ١٣٤/١ — ١٣٧) .

فالسقيا ،قديمة،ترادف الحياة نفسها،والأستدلال عليها من الأشعار فقط.
قد لايتحقق به الغرض ،لان الأشعار التي عرفتها المصادر والدواوين خلا اغلبها من الأشارة اليها ، مع ان الفن الشعري اوغل في القدم الى عهد حمير والتبابعة بل يرفع الى زمن طسم وجديس . ثم يوغل في القدم حتى تقوله عاد وثمود .

ولكن الاخبار السابقة — من ان وفدا لعاد جاء يستسقي لها في مكة المكرمة تعطينا الاطمئنان ، الى ان هذه الظاهرة كانت معروفة ، وان الناس يستسقون في حال الجدب والعطش . وان الحقيقة الدينية عنصر اساسي في ظاهرة السقيا على ماذكرنا في اول البحث . فمكة هي المكان الذي يهرع اليه ، وخاصة فيما يقوله احد افراد الوفد اثر رجوعه من مكة :

عَصَتْ عاد رسولهم فـأمسـوا عطاشا ماتبلهم السمـاءُ
وسُيِّر وفدهم شهراً ليسقوا فأردفهم من العطش العماء (٢٥)

وهذا دليل على ان الأساطير التي تشير اليها هذه الاشعار ،انما كانت متداولة في ذلك الزمن وماقبله ، اذ لايمكن ان تكون قد ارتجلت ارتجالا ، دون ان يكون لها اصل ومن المعلوم ان القرآن أشار الى عاد وثمود ،وهذا يدل على ان العرب الجاهليين ،كانوا على علم بأساطير تلك القبائل .. (٢٦)

والجدير بالتنويه ههنا ، ان قيمة هذه النصوص ، ترجع الى انها تكشف عن حقبة قديمة ، تلقي شعاعا قويا ينير مانحن بصدده :وتعيننا على تبصرة هذه القيم وادراك كنهها وعلى اساسها يمكن القول ،بأن تلك الحقبة تعدأصيلة في هذه المفاهيم المعتقدية ، فالاشارات التي تحملها السقيا في شعر ماقبل الاسلام،ترسخ الاعتقاد بالبلوغ الى حقائق دينية . قريبة الى التوحيد في صورته القديمة .
وبدهي ان الذين خلفوا هذه النصوص التي تحمل هذه الضراعات الى السماء بالاستسقاء لم يكونوا بعيدين عن المشاعر الدينية القوية ، ولم يكونوا بعيدين عن

---

(٢٥) راجع تأريخ الطبري « تأريخ الرسل والملوك » . لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ ج ١/ ١٣٤ — ١٣٧

(٢٦) في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت . دار النهار للنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٩ . ص ٢٥٨ .

الحياة العربية القديمة التي عرفتها الجزيرة ، فخلعت على هذه الاثار هذه القيمة الثقافية الخاصة .

وعلى ذلك ، فان الاهمية للسقيا في حياة الانسان ، ليست فقط لما تمثله من الاتجاه الى العبادة ، ولكن ايضاً .لان الماء يؤدي دورا حياتيا ، فالابتهال الى الله سبحانه يمثل في العملية الاستسقائية شيئا من التضحية ..وقد تتخذ اشكالا جديدة لتساير التطور الانساني ، لكن الناس يجدون انفسهم ربما بحكم العادة ،او الرغبة في المحافظة على الميراث « الشعبي» او لغير ذلك من الدوافع — يجدون انفسهم ميالين الى الاهتمام بكثير من مظاهرها .. (٢٧)

وقد يتعسر على البحث ان يفهم ،اوان يفسر الدلالات المختلفة المرتبطة بها —ظاهرة السقيا—فان الانسان شديد الاحساس بالقوى الظاهرة والخفية التي تحيط به وانه يسعر بتأثيرها من حوله .فهو ليس بمستطيع ان يفهمها فهما واضحاً لقد كان الموت من الاشياء المعنية التي يحس بأنه متأكد من تعاقبها على حياته ولكنه يخاف قوة الموت ، ويملأه الرعب منه ، مثله في ذلك ، مثل أخطار الجوع ، ومواسم الاجداب ، فإن ذلك كان يفترسه على تطاول الاوقات .

وتعد السقيا أحد مضامين المرثية الرئيسية . وذلك لما لها من تأثيرات ودلالات فيما يعتقده الانسان ويؤمن به . فهي تنساق على الألسنة . وتجري في ا لأمثال والحكم . وفي التشبيهات والأستعمالات الحياتية .

ومن الطبيعي — بعد ذلك — ان تكون السقيا من المؤثرات الحيوية في حيـاة الانسان اذ يسعى الانسان الى ان تكون لديه « فكرة» يتمثل فيها الشيء الأجدى بالنسبة لحياته هو .اوبالنسبة لمن افتقدهم . فانه يجد فيها مايمثل الخصب والخير لقبره .

فاذا ماتوجه الشاعر بالدعاء الى الله ، لان تتنزل الرحمة على الميت ، فان في ذلك مايشبه الاحساس بالندم ، فكأنما السقيا تعمل على دفق جديد من الحياة

(١٧) دراسات في التراث الشعبي ، فوزي العنتيل ،دار المعارف بمصر . ١٩٦٥ — ص ١٢٧

فاذا كان الجسد يفنى . فان معنى جديداً من الحياة تدعو اليه السقيا لان يتجدده يوماً فيوماً .

ان هذه الحياة الطبيعية الناشئة ، ليست الحياة الوحيدة ، فيطمح الشاعر الى حياة سامية تفوق الحياة الطبيعية وتسمو بها . وان في العنصر المائي الحتمية التي تمنح الحياة ، ومن هنا ، فان الشاعر الذي تضنيه العلة يفتقر الى عون خاص من الله تعالى . لان الهموم قد تتنازعه ، فيصبح مكروب النفس ، ويستسلم — عندئذ — للدعاء على هيئة طلب السقيا .

فلعل ذيوع النصرانية . وقبلها اليهودية (٢٨) في بلاد العرب يقوي مجال التأثير بهذه الظاهرة في هذا الجانب الذي يكون الماء اهم مقوماته ، ومن هنا كان الاعتقاد قويا ان تكون النصرانية « قد أدخلت على العربية الفاظا وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ، وفوق هذا ، فان النصرانية كانت من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئا من الثقافة اليونانية . كما هو شأن اليهودية » (٢٩) ذلك ان بلاد العرب لم تكن بمنأى حتى ظهور الاسلام عن اليهودية والمسيحية ، فالتاريخ يحدثنا ان قبائل يهودية كانت نازلة في اجزاء مختلفة من الجزيرة . كذلك المسيحية قد شقت طريقها اليها منذ حوالي القرن الخامس الميلادي (٣٠) وذلك يعني ان الديانات القديمة لشبه الجزيرة العربية تتمثل في عناصرها الروحية وان اختلفت في طقوسها . بسبب التطورات الاجتماعية التي تعرضت لهــا

(٢٨) ذلك انه يمكن القول ، ان لهذه الظاهرة صلة بالموروث التوراتي من اساطير وخرافات ومصطلحات دينية جديدة أدخلها اليهود معهم الى ارض الجزيرة . وخاصة ان اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد ان تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً لا نها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني . ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطىء البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية . (راجع ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ص ٢٨ . وفجر الاسلام ، ص ٢٩) .

(٢٩) في طريق الميثولوجيا ، ص ٣٢ . وفجر الاسلام . ص ٣٢ .

(٣٠) التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين علي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ٢٤٩ . ١٩٥٨ ، ص ٢٤٩ .

الجزيرة العربية . فدارس الديانات العربية ، يجد الصلة قوية جداً بين ثقافات الشرق والغرب او الشمال والجنوب (٣١) .

ولذلك ، يجب الانتصور ان اديان العرب قبل الاسلام «لم تتأثر بمؤثرات خارجية .فلم تأخذ من الامم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً.جريا على نظرية القائلين بعزلة العرب ، وبعدم اتصالهم بالخارج . وبانهم بدو ، لاعلم لهم ولا رأي ولادين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الاسلام .. (٣٢) .

على انا نرى ان تقدير هذا التأثر ومقدار تغلغله –على اي صورة من الصور في الحياة العربية . يستلزم ان تولي هذه القضية بعض العناية .فيما كان لها من ارتباط بالأدب نفسه .

يمكن لنا ان نلحظ ان ثمة تيارين بارزين قد عملا في تكوين هذه الظاهرة ، ولكن على تفاوت بينهما .اولهما تيار عربي خالص .نشأ من البيئة العربية نفسها وتولد عن فكرها ومعتقدها.وثانيهما تيار اجنبي تأثر بأبعاد الديانتين :اليهودية والنصرانية فضلا عن تأثره بمصادر ميثولوجية يونانية اخرى . وثيقة الصلة بالتفاعل الحضاري ، مع اليهودية والنصرانية .

ويوجد اذن ، فرضيتان أساسيتان يقوم عليهما البحث . الفرضية الأولى : أن البعد الديني هو النهج الذي كانت تتشكل على اساسه هذه الحقيقة في المرثية . وما زال يسودها ويتحكم فيها ، والفرضية الثانية هي : ان هناك صلة جوهرية قائمة بين السقيا والناحية الدينية والحياتية . وانه لا يمكن تفسير ظاهرة السقيا في مستوى الفن الشعري وحده ، دون الرجوع الى جذور الرؤية الدينية نفسها. في مستوييها الديني والحياتي والفكري على السواء .

واذا كان لنا ان نتطرف في هذه الدعوة . فاننا لا ننسى انها ليست الا ظاهرة واحدة من جملة ظواهر انسانية ، منها مايتصل بحياة الانسان الروحية . ومنها

---

(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(٣٢) المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي . دار العلم للملايين . بيروت. ومكتبة نهضة بغداد- الطبعة الثانية ١٩٧٨، ج ٦/ ١١ .

ما يتصل بحياته المادية ، وان هذه الظواهر كلها تترابط فيما بينها بدرجات متفاوتة من القوة ؛ ومعنى ذلك انه لم يكن بد من البحث عن هذه « القضية » في الرؤية الدينية .

وبذلك يثبت الاعتقاد ، بأنه لا يمكن فهم هذه الظاهرة الشعرية في معزل عن جو هرها الديني . وان السقيا جزء من حتمية حضارية لايفسرها الفن ذاته . بقد رما يفسرها التصور الديني « ولو أوغلنا في القدم متعمقين في اصل اللغات لوجدنا ان هذه الظاهرة انما تنبثق في البدء من اصل واحد ، وتتفرع بانشقاق الشعوب ، وتختلف بأختلاف طرق المعيشة التي اخذ بأسبابها كل شعب في نطاقه على حدة . ولهذا نجد كثيراً من الشبه الأصلي في ميثولوجيا الشعوب المتجاورة والمتباعدة منها» (٣٣) فلا عجب اذا كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام ، عن طريق التواصل الحضاري الذي تأثرت به الجزيرة ، وأثرت .

٢– التصور الأخلاقي

واذا كانت السقيا تتأثر كغيرها من الظواهر ، بالتغيرات الاجتماعية بمعنى ان الموضوعات « الاستسقائية» تختلف من مجتمع لاخر – او من عصر لاخر – تبعاً لاختلاف الطقس الاجتماعي فان السقيا نفسها تعمل على تصوير ذلك التغير الاجتماعي ، فقد يلاحظ الباحث لهذه الظاهرة في عصر من العصور ، انها سرعان ما تصبح بمثابة القوة المجسدة لتصور الناس . وتوحيد مشاعرهم المختلفة . اذ نشتد دلالتها ، أو تقل او توجد معاني جديدة .

فاذا اضفنا الى هذا كله ، ذلك الدور الحيوي الذي تؤديه السقيا للشاعر الراثي ، أو الناس بوجه عام ، من الضراعة الى التألم . فضلا عن الحنين والتشوق أدركنا – على الفور – مدى الجدية التي تقوم بها السقيا في التغير الأجتماعي .

(٣٣) في طريق الميثولوجيا ، ص ١٦ .

ولعل هذا ما يجعل « للمرثية» تميزا فنياً وموضوعياً في الوقت نفسه ، بما تحشده من فيض عاطفي . بيد أن أهم التصورات التي تنضاف الى ما قد تقدم هو التصور الأخلاقي الذي يمكن ان يكون مقياساً حقيقياً يرشد أبعاد هـذه العملية ، من حيث هي المنفذ الذي نطل من خلاله على اعماق الشاعر الثقافيـة والحضارية ، فذلك وثيق الصلة وعميق الارتباط بالقيمة الاجتماعية ـ علـى ما سيأتي ـ . ذلك ان البكائية ذات أبعاد حقيقية في البنية الفكرية والدينية ، أو حتى ألاطار الفني الذي يصوغ منظور الشاعر لهذه القضية ، منذ عهوده‍ــــا الجاهلية الاولى .

وقبل ان نتبين الحقيقة الخلقية التي تقف وراء هذه الظاهرة . نشير الى ان أنواع السقيا ـ كما سيتضح ـ لا تتيح للباحث ان يمضي ضمن رؤية واحدة . بل هناك رؤى متعددة . نتيجة تعدد هذه السقيا ـ على ما سيتضح أيضاً ـ فهي لقبر الميت تمثل موقفاً انسانياً ، كقول النابغة يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني (٣٤) .

سقى الغيث قبرا بين بصرى وجاسم ... بغيث من الوسمي قطر ووابـــل
ولازال ريحان ومسـك وعنبـر ... على منتهاه ديمة ثم هاطـــل

وكقول احدهم يرثي امرأته : (٣٥)

سقى جدثاً تضمـن أمّ عمـرو ... بنخلة ماالستهـل مـن الغمــام
ومـا للأرض أستسقي ولكـن ... لأصداء أقمـن بهـا وهـام

وكقول الحسين بن مطير (٣٦)

ألما على معن وقولا لقبـره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعـا

(٣٤) ديوان النابغة الذبياني . تحقيق محمد أبو الفضل . ابراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٧٧ . ص ١٢١ .

(٣٥) الممتع في علم الشعر وعمله : لعبد الكريم النهشلي القيرواني ، تحقيق : الدكتور محمد زغلول سلام ، منشأة العارف بالاسكندرية . ١٩٧٧ ، ص ١٨٥ .

(٣٦) ديوان الحماسة : بشرح المرزوقي : ٩٣٤/٢ .

فيا قبر معن أنت أول حفـرة من الارض خطت للسماحة مضجعا

وكذلك هي عندما يستسقي أحدهم للزمان ، ويخص الأيام والليالـي الماضيات، كما في قول أبي أسماعيل أبان بن عبد الحميد اللاحقي على لسان الرشيد يرثي جاريته هيلانة (٣٧) .

سقـى الله دهرا كان يجمع بيننـا ويرغـم فيـه أنف كل حسود

وكقول أبي تمام غالب الملقب بالحجام : (٣٨)

غدَوا في مشرق الدنيا ونفسي تناجيهم بأقصـى المغربيـن

اانسى عهدهم وهم بقلبـي وأشكـو فقدهـم وهـم بعينـي

سقى زمنـاً سقاهم كلّ صفـو وقـد قذيت جفـون الحاسدين

اما التضرع في السقيا للوطن ، أو للمكان على عمومه ، فلذلك شأن يختلف عن بقية الشؤون الأخرى . كما في قول النابغة (٣٩)

سقى دار سُعْدى حيث حلّت بها النوى

فأفعَمَ منها كل رَبْع وفدْفَـد

وقال علقمة الفحل (٤٠)

فلا تعدلي بيني وبين مغمّـر سقتك روايـا المزن حين تصوبُ

سقاك يمان ذو حبي وعارض تروح بـه جنحَ العشي جَنُـوبُ

وقال حسان بن مالك بن ابي عبدة (٤١)

---

(٣٧) الصولي . ابو بكر محمد بن يحيى ، الأوراق – قسم أخبار الشعراء . عني بنشره هيروث دون ، مطبعة الصاوي ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ ، ص ١٨ .

(٣٨) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام . تحقيق احسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت . الطبعة الثانية . ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ ، ٨٢٢٣/٣ .

(٣٩) الديوان ، ص ٢١٢ .

(٤٠) ديوان علقمة الفحل ، تحقيق لطفي الصقال . دار الكتاب العربي . حلب ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤ .

(٤١) الضبي ، احمد بن يحيى بن عميرة ، بغية الملتمس في تأريخ رجال الاندلس ، دار الكتاب العربي . ١٩٦٧ ، ص ٢٧١ . رقم ٦٦٢ .

سقى بلداً أهلي به وأقاربـي غـوادي الـقـبال الحَيَا وروائـح
وهبّتْ عليهم بالعشي وبالضحى نواسم مـن بـرد الظلال فوائـح

وقال متمم بن نويرة يرثي اخاه مالكا (٤٢)

سقَى الله أرضا حلها قبرُ مالك رهام العوادي المزجيات فأمرعا

وقال البارودي يتشوق الى الوطن وهوفي حرب الروس (٤٣)

فيا «روضة المقياس» حياك عارض من المزن خفّاقُ الجناحين دالـحُ
ضحوكُ ثنايا البرق ، تجري عيونُهُ بودق به تحيا الرُّبا والصحاصح
تحوكُ بخيط المزن منه يد الصبـا لها حُلّة تختالُ فيهـا الأباطـح
منازلُ حلَّ الدهرُ فيها تمائمي وصافحني فيهـا القنا والصفائح

وهكذا ، فان الرؤى تتباين ، فليس للحالة الوجدانية ، او الاتجاه الوجداني لدى الانسان — عندئذ — الاستجابة نفسها .

وعلى ذلك نحاول ان نستجمع اشعاث اولئك جميعاً . لعله يعطي تجسيداً يقرب السمة الأخلاقية لهذه الظاهرة . ذلك لأن السقيا يحددها المكان والزمان والانسان نفسه في مجالات شخصيته المتعددة . فالحزين الذي يستسقي للقبر . قد يكون استسقاؤه عن حقيقة حياتية. تحاول الا تستشعر الاحساس بالفقدان، او على الأصح.اذ هو يستسقي، فانه يستذكر الموت والحياة في ثنائية واحدة فكأنما يريد للحياة ان تمتد وتتواصل في القبر الذي يدعو له أن يمرع وتكون له حياة من نوع ما ،لا في معناها المادي المحسوس حسب ، بل في الأستذكار المعنوي ، فان هذا ينم عن رؤية ايمانية ترى ان في الكون موتاً وحياة . ولكـن الحياة هي الأبقى ، وان شرخت بقوة الموت الى حين .

(٤٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد . شرحه وحققه احمد امين وآخرون . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ . ٣/٢٦٥ .

(٤٣) ديوان البارودي . المطبعة الأميرية بالقاهرة . ١٩٥٣ م . ج ١/ ٩٢ .

والمتألم او المتوجع الذي يستسقي لحقيقة الزمان. فأستسقاؤه لايفارق محور اللحظات الماضية . والأوقات الحاضرة ، وهذه الرؤية الحاضرة – على هذا الأساس–التي تخللتها حالة الشاعر نفسه هي المحور الحتمي المناقض لمعاناة الشاعر ،فكأنما يريد ان يخلق عالماً بديلا ينفذ الى الماضي الهانىء . وهو لا يملك الا ان يستسقي ، لأنه يستريح الى وجود هذه المادة الحياتية . وقد يكون استسقاؤه من هذا الانفصام والانشقاق بين الماضي والحاضر ، تنفيساً عن شعور برفضهما، سواء في نفسه او في الأخرين .

كذلك قد يكون تضرع الشاعر بالسقيا للزمان منطوياً على نفسية متألمة ، ترقب التغير وتستلهم النظرة الواقعية للحياة . والأستجابة الجادة للمتغيرات . اما الضراعة في السقيا للمكان فتكاد تجمع النزعتين السابقتين معاً ، وتضيف اليهما ذلك الروح الجمالي بعدا ثالثاً ، فالمائية التي يستقي بها من الصفاء والطهارة بحيث تبعث جواً يشيع النظارة من خلال التحول الذي كان متصفاً بالأنقطاع والابتعاد والافتراق الى الاستمرارية المجسدة لحس تحولي في الطبيعة نفسها نحو الخصب والخير، وذلك من الخصائص الجوهرية للاستسقاء المكاني ، سواء أكان وطناً لأهل . ام وطناً لحبيب ، فالسقيا في جوهرها ههنا تدعو الى حالة توازنية في أكثر الاشياء تضادا ومفارقة . أي انها تحاول ان تأتي بقانون مطلق للطبيعة .

فاذا حاولنا ان نسترجع الأضرب السابقة التي تستثيرها السقيا أمكننا ان نجد اختلافات في النوع والمستوى الوجداني ، لاستجابة الحدث ويستدل على ذلك من خلال المراثي نفسها ، اذا كانت « شخصية » ، او « رسمية» فالمعيار الوجداني يتوقف فيهما على الاسباب الاجتماعية ، اي ان المرثي والتعبير عن الاحساس بفقدانه ، يعطيان نوعية السقيا ، ويعطيان مستوى الأحساس الشاعري .

وليس أدل على ذلك ، من ان نقف على حقيقة السقيا في تعاقبها عبر الأعصر فالشاعر العربي قبل الاسلام ، يكاد لايخرج في سقياه عن « ميثولوجيا » اعتقادية لايخرج عن مفهومها الطقسي بالاعتقاد الحياتي في القبور ، ولكنه مع ذلك لايستسقي دائماً بالطريقة نفسها ، ذلك لأن الاستجابة لديه ، تختلف بأختلاف آدابه العامة ، وقواعده الاجتماعية وطريقته في الحياة ، فنحن نجد الشاعر ينشغل بهذه الظاهرة في قصائد تنفرد بالأهمية والظهور حسب الموضوع الذي يتحدث عنه ، ولكنها في الأغلب تبقى عنصراً يشع بالحياة في المواضع كلها سواء للحياة او الموت ، فالماء عميق الدلالة ، اذ يذكر مع المرأة او الطبيعة ، أو الحيوان ، أو يستدل به على نمط سلوكي ، كقرى الاضياف (٤٤) ، كقول الشاعر العريان بن سهلة الجرمي ، أحد شعراء هذه الحقبة ، وقد عدل الى دار رجل كريم :

فقلت له : اني اتيتُكَ راغبا بِسَذعلبة تدْمى واني امرؤ عان
فقال : الااهلا وسهلا ومَرْحبا جعلتك من حيث أجعل اشجاني
فقلت له : جادت عليك سحابة بنوء يُنَدّى كلّ فغو وريحان
وقلت : سقاكَ اللهُ خمرُ سُلافة بماء سحاب حائر بين مصدان (٤٥)

اوفي التضرع لقبر الميت كما مر .

٣ – سيكولوجية السقيا

ليس موضوع طلب السقيا – اذن دراسة للقصيدة الرثائية . واذ اكتب هذه العبارة ، فاني ابدأ من موقع بعيد، من اجل ان انفذ في تقريبه في فقرات لاحقة

(٤٤) انظر : نصرة عبد الرحمن . « مقال» المطر ومواضع وروده في الشعر الجاهلي ، مجلة دراسات ، ص ١٠٢ وما بعدها ، المجلد السادس ، العدد ٢ . ١٩٧٩ م .

(٤٥) ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقي ، ج ١٦٢٨/٤ . (المصدان : جمع مصاد ، وهي شقوق الجبال والفغو : ما له رائحة طيبة من النبات وكذلك الفاغية . والذعلبة : يوصف بها النعامة والناقة الشديدة السريعة ، وسلافه الخمر : اول ما يخرج من عصيرها. واضافة الخمر اليها على طريق التبيين) .

ليس دراسة السقيا ، بوصفها تاريخاً وشخصيات واحداثاً . بل هي محاولة لاكتناه ابعاد هذه القيمة الحياتية وسبر اغوارها ، وفي هذا السياق . قد تبدو السقيا ظاهرة ذات تشكيل حقيقي واضح في البنية الأساسية للمرثية ، يمكنها ان تدعيه لنفسها ، ذلك ان الشاعر يرى في «المرثي» او من يمتلك المعاينة نفسها نتيجة حتمية لقوة الموت ، فيندفع أمام هذه الظاهرة ليصوغ منها في النهاية خيطاً آخر يصل ما انفصم ، او يوصل ما انقطع من خيوط الحياة الدنيا للمرثي.

ونحن بهذا التفسير لانريد ان ننتزع من هذه الظاهرة عصارتها ، ونجردها من شكلها الفني ، ومن وظيفتها الجمالية ، فالسقيا لها وظيفة ، وتلبي حاجة نفسية عند الانسان ، ويستلزم هذا ، ان تكون السقيا مرتبطة بالانشطة الفكرية والاجتماعية التي تواكبها ، انها ليست مجرد خيال لاضابط له ، بل تحكمها أسباب نفسية وحضارية .

فإذا كانت القطرة من الماء هي البداية الاولى للحياة ، او لاستثارة معنى الدفق الحياتي ، فإنها انما تجسد الشعور بالارتياح والسعادة .

وليس اعمق في الدلالة على ذلك من الماء — ماء السماء — عند الاطفال ، انما هو حشد لمعنى اللذة والسرور ، وعند الناس العاديين ، يأخذ معنى الرضا والابتهاج ، وفي الحالين معا ، فإن البعد الوجداني ، سبب اساسي يعلل السقيا ويفسرها .

واذا كان الموت وما يفرزه من عدمية مؤقتة — ليست أبدية — من العوامل الوجدانية التي تنطوي عليها ظاهرة السقيا وتستدعيها ، شأنها شأن عوامل الارتياح والانبساط ، اللذين يعقبان العملية كلها ، فإن قطرات الماء نفسها التي يضرع اليها الشاعر ، تعد عظيمة الأهمية ، فيما تشغله من حيز في محيط القصيدة ، ومن بعد يفسر العملية ، أو يجد لها تعليلا ، حتى تتميز شاعريته بعيدة عن « العدمية» الى الخصب والحياة .

ومن هنا ، كانت الناحية الشعورية من اهم مايميز ظاهرة السقيا ، أو الباعثة عليها ، وهذا ما يجعل مبدأ اللذة والاطمئنان عاملين اساسيين على صعيد السقيا نفسها . وهذا ما يمكن ان نعنيه بالضبط من ان السقيا لها وظيفتها النفسية في تخفيف الوقع الجلل ، وترطيب الأحزان والأشجان التي تنبعث من النفس بكثافة ليست تحد ، وانفكاك النفس من التفكير العميق الاسر في انعدام الحياة.

ومن يدري ، فلعل هذه هي الفكرة المحورية التي أدار الشعراء موضوعات قصائدهم عليها في حيز السقيا ، ذلك ان السقيا هي نوع من الفعل الارادي الذي يلجأ اليه الشاعر ، ليتحرر من كابوس الظلمة الحالكة الممثلة لقوة الموت . ويعفي نفسه من عبء التقصير ، فالسقيا هي المنفذ الى معنى الحياة ، أو هي الوسيلة الناجعة التي بها يتحقق للشاعر ما يريده ، او يبلغ اليه . تماما كما يسعى في احلامه الى تحقيق مالم يحققه في اثناء حياته ، وكأنما هو يلجأ الى السقيا او «الماء» عندما يلحقه جفاف حياتي من نوع ما . عساه ان يتحقق له نوال رغبته والتخفيف من حدتها .

ولذلك ، كثيراً مانجد حيز السقيا يشغل خاتمة القصيدة ، ولهذا عميق الدلالة فإن الشاعر بعد أن يستنفذ وسائله البكائية الشخصية في الأجزاء الأولى من القصيدة بالجدية والاهتمام نراه يميل الى السقيا ، في وضع استسلام . وهذا طبيعي في موقف التضرع للقوة العليا ، ولكنه نوع — على كل حال من «الصحة النفسية» يعين على تجاوز الواقع ، كما في قول الشاعر الأعمى التطيلي ، يرثي حمد بن البناقي : (٤٦)

سقاك كدمعي ، أو كجودك وابل ... من المزن بين السَّحِّ والهَمَلان
شآبيب غيث لاتــــزالُ ملثَّــــةً ... بقبرك حتى يلتقــي الثــريان

وكقول الشاعر الرصافي البلنسي ، يستسقي لقبر عبد الله الذي يرثيه :

سقاك ، ولاأخص رباب مُزْنٍ ... لعل ثراك قد سئم الربابا

---

(٤٦) ديوان الأعمى التطيلي : تحقيق د . احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٢ ص ٢٣١ .

ولكن ما يسوغ على التكافي — لقبرك ان يكون له شرابا
فإني ربما استسقيتُ يوماً — لك الجونين : جفني والسحابا
فتخجلَ من ملوحتها دموعي — إذا ذكرتْ شمائلك العذابـا
تكادُ على التتابع وهي حُمْر — تحيَّرُ في محا جـري ارتيابا
فليتَ أحمَّ مسك(٤٧)عاد غيما — فحام على ضريحك ثم صابـا
وزاحم في ثراك الدمع حتـى — يشق الى مفارقك الترابا (٤٨)

وليس ورود هذه الظاهرة في خاتمة القصيدة نسقا مطردا ، لايكاد ينخرم او ينكسر ، ليس شيئاً من هذا التناسق الختامي لظاهرة السقيا في القصيدة لـم يتغير او لم يتبدل ، بل كانت هناك مواضع كثيرة تنشغل بهذه الظاهرة فـي القصيدة ذات الأهتمام ، في الوسط منها ، وهو وضع مألوف ،ويكاد يكون طبيعياً ، ولكنه في الدلالة عميق الأثر ، ويحتمل قوة تضرعية أقوى من الحالة الأولى ، عندما كانت السقيا تشغل نهايات القصائد ، لأنها قضية منطقية ، يفزع الانسان الى بعثها من غير ان يستنفده البكاء ، كما في رثاء المتنبي لجدته :

وأصبحت أستسقي الغمام لقبرها
وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصما (٤٩)

وكما في قول ابن الأبار يرثي ابا الربيع الكلاعي :

سقى الله أشلاءً بسفح أنيشة سوافح تزجيها ثقال الغمائم (٥٠)

وكذلك فإن الدلالة أعمق في كونها في الرأس من القصيدة ، أو في مطاعها كما في قول أبي بكر بن شيرين ، الذي رثى ابن الحكيم اللخمي المتوفـى سنة ٧٠٨ هـ . الذي قتل صبيحة عيد الفطر :

---

(٤٧) أحم مسك : المسك الأسود .
(٤٨) الديوان : جمعه وحققه احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ، ط ١ . ١٩٦٠ ، ص ٤٠
(٤٩) ديوان ابي الطيب ، بشرح العكبري ، ضبطه مصطفى السقا واخرون . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الأخيرة ، ١٩٧١ ، ٤/ ١٠٢ – ١٠٩ .
(٥٠) عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة بقية السفر الرابع : تحقيق احسان عباس . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤ . ص ٩١ .

سقى الله اشلاءً كُرُمنَ على البلـى
وما غضَّ من مقدارها حـادث البلا (٥١)

ولعل توارد السقيا في مواضع مختلفة ، يحتمه وثوق الحال بالمرثي ، أو من في مقامه ، فان الصلة : شخصية او رسمية في الموقف الرثائي ، تنزل هـذه الظاهرة منزلتها في بنائية القصيدة ، وليس ثمة ما يستدعي ايجاد احصائيـة استقصائية ، لأن في النظرة المجردة ، ما يعطي ايجابية يطمأن اليها .

على ان السقيا ، تبقى نوعاً من « استنفاد الطاقة وتفريغها» تتحرر فيه النفس مما تعانيي وتكابد ، لأنها تجد لها منفذاً في الموقف الأستسقائي ، تتفجر عنه الأستجابة . ومن ثم ، فإن طبيعة السقيا تتباين فيما بينها حسب القصد النفسي الذي تؤديه في حياة الشاعر .

ولكن اذا كانت الوظيفة للسقيا هي الوصول بالشاعر الى بعث حالة من حالات الرضا النفسي ، فهل يقتصر هذا الأحساس بالرضا على مجرد ايجاد التوازن النفسي في حياته ، او ان هذا الاطمئنان النفسي له ملامحه الأجتماعية التي تكسبه أبعاده الحقيقية ؟!

٤ ــ البعد الاجتماعي

ليس أدل على ان السقيا قيمة اجتماعية من عملية السقيا نفسها . فإنها ــ السقيا ــ تستلزم وجود فرد أو أكثر يحفز الاحساس بالاستجابة الدعائية ، وهـنى ههنا ، الميت وقبره ، بمعنى اذا اقتصر على الميت نفسه ، وهو في الأغلب لايتوقف ولايمكن له ان يتوقف عند الميت دون الالتفات الى ذويه وجماعته والمعتقد أن هذا التلفت من الشاعر الى الجماعة نفسها ــ في موقف الموت ــ ، جدير بالاهتمام ببعث الشعور بالمشاركة الوجدانية الجماعية ، حتى يستغرق

(٥١) لسان الدين بن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . ٣٠٢/٢ والمقري : نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر . بيروت ، ١٩٦٨ . ٥٤١/٥ .

الشاعر في عملية السقيا . كما يظهر ذلك قول الشاعرة الخنساء في حزنها على اخيها صخر في مدى تأثير الحس الجماعي :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي (٥٢)

اضافة الى أن السقيا ، تستلزم دائماً وجود الاخر الذي يكون سبباً موضوعياً لأن يفيض الله سبحانه سجال رحمته على مثواه . وهذا يفسر الحضور الجماعي الذي لايستطيع الانسان ان يخرج عليه ، أو يحيد عنه .

ولذلك فان من اشراط السقيا ان يوجد الأخر . او ترتبط العملية نفسها بالتصرف في وسط الاخرين ، بحيث انه لا يمكن للشاعر ان يستحضر السقيا في القصيدة ، الا اذا استتبع في ذهنه العلاقة الأجتماعية .

وعلى ذلك يمكن للباحث ان يطمئن الى ان السقيا تتوثق بالحاسة الاجتماعية ، من حيث هي وسيلة اوجدها المجتمع ، او العقل الجماعي ثم حملها الأفراد بإيحاء منطقي سليم ، يمنح السقيا الرحابة في الأفق الأجتماعي الذي يتعامل معه الشاعر ، ويطبق قواعده في دقة بالغة ،قد توحي الى الذهن أنه اقرب الى الآلية . التي خلت من الحس والتفكير .

غير ان هذا الادراك القياسي — في هذه الحالة — لايمكن ان يكون صحيحاً ، لأنه لا يليق بالعاطفة الانسانية من ناحية . ولأن السقيا تحمل للجميع معاني مشتركة ، ودلالات تؤلف فيما بينهم من ناحية أخرى ، حتى لو كانت السقيا تحمل معاني اخرى ، لم تبلغ حد الموت مثلا . كالحنين والشوق ، او محاولة الرأب لأوصال انصدعت ، فانها — أي السقيا — تبقى في الاطار التأثيري نفسه ، أي انها تبقى تستدعي الحس الاجتماعي ، لأنها انما تعمل على تقوية الروح والتعاطف بين الناس ، فان هذا بحد ذاته

(٥٢) الديوان : دار صادر . بيروت . ١٩٦٣ . ص ٨٤ .

دور جليل تبثه السقيا في البنية الاجتماعية ، بحيث يقف سبباً قوياً امام قرائح الشعراء ، لما يولونه من اهتمام بهذه الظاهره في قصائدهم الرثائية ويغالون في قيمتها .

٥ — البعد الفني الجمالي

على أننا في هذا القدر من البحث ، عكفنا على اظهار هذه الظاهرة . في محاولة ربطت أبعادها بعضها الى بعض ، في اطرها الطبيعية والنفسية والاجتماعية ، وما قد أفرزته هذه الحقائق من مسلك اخلاقي ينظم هذه العملية ، وبذلك يقف البحث عند تحقيق مقصده الأول ، ويبقى عليه ان يخطو خطوة تالية ضمن الرؤية نفسها ، عله يستجلي فنية هذه الظاهرة في منحاها الأدبي .

ذلك ان موقع السقيا في المرثية لا تستغرقه القيمة الفنية بقدر ما هو استجابة عاطفية ووجدانية ، ولعل هذه الحقيقة لاتنطبق على مضامين الفنون الأخرى ، التي تقوى على احداث الأثر الفني ، لأن التضرع بالسقيا — أنى كانت — لاتقابل الجانب الادراكي العقلي ، ولاتعتمد مخاطبة الوعي ، بل تعتمد على العاطفة ، وتخاطب الوجدان ، ومن ثم فهي « قيمة » تحمل بذورا فنية .

ولكن اذا كانت السقيا بحسب رؤيتنا لها . تجسيداً لمعان حياتية ، كما ألمحنا في أثناء البحث ، فهل معنى ذلك ان السقيا تتجرد من كل طابع جمالي ، لأنها لا يمكن أن تتيح للشاعر التوقف والتثبت بأستيحاء معان جمالية في موقف الموت أو الفراق ؟ ؟

يكفي ان نقول إن السقيا نفسها تستثير الحياة ، وهل الحياة الا النضارة ، والجمال ، ومتى كانت النفس الشاعرة يستلهمها المعنى الواحد دون غيره. وخاصة في موقف الاحزان والأشجان؟ومعنى هذا ان ما في الطبيعة الانسانية

من معان يمكن ان يتوارد في الخاطر ، فتصبح من دلالات هذه الظاهرة .

والذي يقود اليه البحث ههنا أن السقيا يمكن ان تكتسب عمقاً جمالياً أو ان تكون ذات دلالة جمالية ، على الرغم من بلورتها للمعنى الحياتي ، ذلك لأنها تحدث أثراً فنياً عميقاً يحمل على التطهير في موقف رثائي .

على ان السقيا قد تقوم بنوع آخر من التطهير — في موقف الحنين — يفيض على الشاعر الهدوء والرضا والاستسلام ، حين تلقي بـه الغـربة ، فتنقطع الأوصال ، أو يفارق محبوباً ، تقلبت به الأيام . عند ذلك يستسقي ، أي ينفث همومه ، فيهدأ ويطمئن ، وفي ذلك نوع من التطهير ، لأن النفس تتعلق بالأسباب ، فيحمل ما تقواه على الاعتقاد بالممكن ، فيثير في النفس انفعالي الخوف والشفقة ، الشفقة على ماحدث له — للميت أو المفارق — والخوف من ان المصير مثل مصيره ، « فالشفقة تنصرف الى المرثي الـذي لايستحق الشقاء ، والخوف ينصرف الى من يشبهنا» (٥٣).

وقد ظهر وجود جانب السقيا في الشعر العربي ، في فنون الغزل والحنين والشوق والرثاء على نحو خاص . واذا حاولنا رصد طبيعة تلك السقيا فـي هذه الفنون نجد طرفي هذه السقيا يتمثلان بالشاعر والميت وقبره ، اوبالشاعر والعنصر المائي ، فالحيا دخل الى هذه الفنون من أوسع الأبواب ، وذلـك بسبب الاحساس بالفناء ، او الجفاء ، او انبتات الصلات وصرمها ، معـاً جعل الشعراء عموماً يقفون عند هذه الظاهرة .

واذا نظرنا الى السقيا وفلسفة وجودها في القصيدة الرثائية وجدنا دورها فعالا ، فهي تفعل في الأحداث بشكل عملي وحي ملموس .

والسقيا نهر ذو روافد متعددة ، فهذه السقيا لا تأتي من جانب الطبيعـة فقط ، بل تأتي من جانب المحب في القصيدة الغزلية او من جـانـب

(٥٣) كتاب ارسطو طاليس في الشعر : نقل ابي بشر متي بن يونس القنائي ، تحقيق شكري عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة . ١٩٦٧ . ص ٧٦ .

الراثي نفسه ، فقد يوحد الموقف الحبي بين المحبين، بحيث يمتزج وجودهما إمتزاجاً روحياً ، ويتوحدان في عملية السقيا .

وكذلك الحال بين المرثي والراثي في قصيدة الرثاء ، التي هي بناء عضوي متكامل لابد لكل عضو فيه، ولا بد لكل اطراف الرؤية الشعرية ، أن يكون لها دور في إحياء القصيدة كائناً حياً متكامل الوجود واذا نظرنا الى آثار السقيا على القصيدة ، ودورها فيها نجدها أحياناً جزءاً لايتجزأ من الوجود الأساسي للقصيدة ، وذلك حين تقوم السقيا بين الشاعر والمحبوبة ، أو بين الشاعر والمرثي ، فكل من الطرفين : الشاعر والمحبوبة ، أو الشاعر والمرثي ، هما طرفا الوجود الفني للقصيدة ، فيكون تأثير وجود السقيا . هو من صلب القضية الفنية ، تماماً مثل وجود الذات الشاعرة .

وللسقيا ايضاً أثرها في توحيد أجزاء الرؤية الفنية ، وذلك حين تقف موقفاً توسطياً بين المحب والمحبوب ، او الراثي والمرثي ، اذ يخلع الشاعر صفات الحياة والحركة والتفاعل على السقيا .

وتخلق السقيا ايضاً وحدة عضوية بين اجزاء القصيدة المتناثرة ، فبدلا من ان يترجم الشاعر ذاته ، ثم يصف السقيا من حيث هي عنصر وجودي قائم ، فإنه يربط بين ذاته وقضيته الفنية ، ثم يربط بين هذه الذات -المتجسدة في قضيتها- وبين السقيا ، فتصبح المشاركة الوجدانية بين هذه الاجزاء كلها مشاركة فاعلة ، تربط بين تلك الاجزاء في وجود واحد ، يجعل من القصيدة كائنا عضوياً متكاملا ، لكل عضو فيه عمله المحدد .

٦ – حول تفسير السقيا

تعد هذه السقيا نقلة جديدة في التشخيص ، ذلك انها جسدت الخصب في قيمته الحياتية ، وهذا من قبيل التصعيد في تشخيص الظاهرة لكي تكون وظيفتها وخصوصاتها اكثر تحديداً بالنسبة لعالم الشاعر ، فكأنما مهمة السقيا

في هذه الحال — ان تبرز التعارض بين الخصب والجدب ، والحياة والموت ، وأن توجد العلاقة القوية بينهما .

و اذا كان الموت والحياة متضادين ، فلا بد للشاعر من أن يبحث عن وسيلة تجمع بين هاتين الظاهرتين المتعارضتين ، وتقرب بينهما ، وهذا يفسر فلسفته في خلود الروح ، ويبرز مغزى السقيا التي تحكي عن علاقة الاموات بالأحياء ، فاذا كانت قوة الموت تختطف الأحياء وتبعدهم في عالم آخر ، واذا كان الانسان ليست لديه حيلة قط في مخالفة الأموات ، فإن القضية تكون عندئذ ، عن طريق التفسير لحياة ما بعد الموت ، وايجاد العلاقة المستمرة بين الأحياء وبين من كانوا يعيشون .

وهكذا ، تحاول السقيا ان توجد العلاقة الوثيقة بين المتعارضات ، بحيث تبدو الحياة منجذبة نحو الانسان نفسه ، فالغاية النهائية للانسان ، ان تتوافق قوتا الحياة والموت ، والخصب والجدب . لأن توافقهما يضفي على الأنسان مغزى وقيمة . ولا غرو بعد ذلك ، ان نجد الشاعر على الصعيد الزماني : الماضي والحاضر يطلب السقيا ليخفف الصراع بين الموت والحياة المتنافرين أيضاً.

فاذا تساءلنا بعد ذلك عن فلسفة لهذه السقيا الحياتية فاننا نجيب عن ذلك بأن الانسان هو الكائن الحي الذي تكفل بصنع الحضارة ، بدافع تميزه عن الكائنات الاخرى ، وقد هداه تفكيره إلى ان تكون لحياته استمرارية معينة ، فكانت السقيا — في ظنه — مظهراً يجسد البعد الأخر في الحياة .

وبهذا تستطيع السقيا ان تكشف لنا عن قيمة حضارية متكاملة ، وهذا يقودنا إلى ان ندرك طبيعة السقيا وتحركها في وجدان الشاعر ، فهي تتحرك على مستويين : مستوى كوني ومستوى اجتماعي ، فالمستوى الأول كثير الحضور في نفس الشاعر ، حين يلتجيء إلى «الاله» يستسقيه ، بحيث لا يملك لنفسه حولا ولا قوة ، ومن هنا تبرز العلاقة الدينية ، فالانسان لا يملك أن يفعل سوى الاستسقاء .

والمستوى الاجتماعي يبرز لدى الشاعر ، بأنه تربطه وشائج معينة بالمرثي ، فيذرف الدمع ، لأنه في الحقيقة غير مسؤول فيستسلم .

ولا مفر للباحث — امام هذا — عندما يحاول ان يكتشف دلالة رمز السقيا ، أن يستوعب تلك المعرفة ، بدلا من أن يكتفي بالتفسير لهذا الرمز في اثناء الشرح الوظيفي ، فقد كان الشاعر العربي قبل الاسلام على سبيل المثال ، يستعين بالسقيا ويطلبها لجلب الخير ، إلى ان اصبحت السقيا رمزاً للقوة الخيرية ، وقد يخيل إلي ، ان هذه الحقيقة ، تكفي لتفسير رمز السقيا ، عندما يتساءل عن السبب في الاستعانة بالسقيا ، او الالتفات اليها ، وخاصة في جلب المعنى الخيري .

فالسقيا — اذن — تلتزم ببناء محدد ، ومن شأن البنائية ان تكشف عن المتناقضات التي اثيرت في نفس الشاعر ، ويؤكد هذا قول الخطيب التبريزي في أن طلب السقيا للقبور « أن تبقى عهودها غضة من الدروس ، طرية لايتسلط عليها ما يزيل جدتها ونضارتها » (٥٤) وكذلك قول المرزوقي : «والقصد في الدعاء بالسقيا إلى أن يمد الله المدعو له بما يزيد في نمائه ونضارته» (٥٥).

ومن هنا ، لم تكن السقيا ذات وظيفة نفسية مهمة فحسب لتحقيق التوازن العاطفي لدى الانسان ، بل ان وظيفتها تجاوز ذلك إلى تحقيق نوع من التكامل النفسي والاجتماعي ، في الوقت نفسه ، فالسقيا بمقدار ما لها من وظيفة نفسية ، لها دلالتها الاجتماعية على ما تقدم القول .

ولكن اذا كانت السقيا هي التجسيد للمعنى الحياتي نفسه ، فما مدى دلالاتها التي تشكلها في القصيدة على الصعيدين الفني والانساني ؟؟

ان هذا السؤال يقودنا مباشرة إلى تناول المشكلة الرئيسية التي واجهت الشاعر ، واعني بها مشكلة تعليل السقيا وتفسيرها بقصد الوقوف على معرفة

---

(٥٤) ديوان الحماسة ، بشرح التبريزي ، طبعة بولاق . ٣/٥٠ .
(٥٥) ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقي . ١/ ١٠١ .

الاسباب التي تبعث في الشاعر ان ينحو هذا المنحى ، ومحور المشكلة يدور حول احتمال ان هذه الأسباب في الطبيعة الخارجية ، او هي في الشاعر نفسه .

فقد ترجع الأسباب في هذه الظاهرة إلى الطبيعة ، فينظر اليها على انها حدث من احداث الطبيعة ، او ظاهرة تولدها الطبيعة في شعور الشاعر ، بحيث يصبح على الباحث ان يعود إلى الطبيعة نفسها ، لينقب عن تلك العلل التي تولد في الشاعر فاعلية الاستجابة لمعنى السقيا او المطر على العموم : فالطبيعة تحمل هذه الدلالات الحياتية اوالخيرية ، التي تجعل الشاعر يلتفت اليها بالمعنى والقول ، وهذا ما تشخصه لنا كثرة من الابيات اوالصور الشعرية . يقول عمر بن احمد إبن الأمير محمد بن هشام في رثاء والده سنة ٣١٥هـ :

الا ايها القبرُ الذي ضمّ جسمَه سقاكَ من الأنواء هتّان ممْرع (٥٦)

ويقول ابو الأصبغ القرشي، يرثي ابا عامر بن شهيد سنة ٤٢٦ هـ :

أريد بسقيا الغيث إحياءَ حُفْرة كلدرنا بها نجم العلا المتوقـــدا
ولم ار مثلي بات مُسْتَسْقِيَ الحيا لماء حياء، كان يشفي من الصدا (٥٧)

غير ان البحث عن هذه الظاهرة في طيات الطبيعة ، يجعلنا نستبعد ان تكون الطبيعة بأسرها مصادر تنجم عنها هذه القيمة الفنية في موضوع القصيدة ، انما حقيقة هذه الظاهرة تكمن في ماتنطوي عليه من ابعاد ودلالات ، وهذا يقضي ان ليس شيء يطلب لذاته ، وانما السقيا ، هي الظروف التي تحيط بالحقيقة الكبرى ، وهي حقيقة الموت والحياة ، كما تقدم الحديث .

والذي يهمنا الآن ، هو اننا على هذا الأساس ، يمكننا ان نرجع حالات طلب السقيا جميعاً ، إلى القيمة الحياتية التي هي الماء ، فمعظم اسباب السقيا مهما تنوعت ترتبط على نحو ما بهذه القيمة .

---

(٥٦) ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة بالقاهرة ،ط١ ١٩٦٣ . ٢١٤/١ .

(٥٧) ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . ٢٨٨/١/١ .

ولعل هذا يجعلنا نطلق على هذه الظاهرة «طلب الحياة» بمعنى ان السقيا ، في صميمها ذات دلالة اجتماعية ، لأن ما يبكينا ، او يحزننا هو سوء التوافق مع الظروف المستجدة ، وخروجها على المألوف العام .

على اننا لو حاولنا ان نفهم السقيا في كونها ظاهرة انسانية ، ذات دوافع نفسية ووظيفة اجتماعية ، فضلاعما لها من دلالة جمالية ، لتبين لنا ان هناك مظاهر للسقيا ، تتوافق مع الحياة البشرية نفسها ، فليست السقيا بشيء ذي دلالة واحدة ، وما نستسقي لسبب واحد ، وما نفكر في الاستسقاء على نحو واحد ، فالسقيا ليست هي السقيا الواحدة ، ونحن نستسقي لأسباب كثيرة ، وليس لسبب واحد لا يتكرر ، بل انه قد يكون لكل حالة سقيا تصدر عنها ، ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنما هي لغة كاملة لها اسلوبها الخاص .

قال الفقيه القاضي ابو محمد عبدالحق بن عطية ، يتخلق بأخلاق الشيب قبل المشيب :

سقْيا لعهد شباب ظلتُ امرح في ريحانه ، وليالي العيش اسحار
ايامَ روض الصبا لم تذو اغصنه ورونق العمر غض والهوى جار(٥٨)

وقال ابوعبدالله بن عائشة ، بعد ان اشتعل رأسه شيبا ، ولاحقته الكهولة ، فأقصر عن ايام الشباب ، ولم يبق له الا التشوق والحنين :

فيا راكبا يستعمل الخطوَ قاصداً الا عُج بشُقْر رائحاً ومُغاديا
وقفْ حيث سال النهرينسابُ ارقما وهبَّ نسيم الأيك ينفثُ راقيا
وقل لأثيلات هناك واجرع سقيت اثيلات وحييت واديا (٥٩)

---

(٥٨) العماد الأصفهاني : خريدة القصر : تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم . دار نهضة مصر . ٥٣٠/٢ .

(٥٩) ابن خاقان ، أبو نصر فتح بن محمد ، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان . تحقيق حسين يوسف خريوش . مكتبة المنار . الزرقاء . ١٩٨٩ . ٩٥٢/٤ .

وقال ابن العربي الفقيه ، يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب فيها اهل الوداد :

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر خيال خليل قد حوى قصب الفخر
سقى الله مصرا والعراق واهلها وبغداد والشامين منهمل القطر (٦٠)

وقال اليماني يستسقي لغير الميت :

سَقْيا لواديك الأغن مربعُـه إنّ الشباب به مريع ممْـرِعُ
إن كان خدّكِ فيه ورد يانـع فهواك في عيني وقلبي اينعُ (٦١)

ومعنى هذا التلون في السقيا ، ان الشعور بطلبها ، يلبي استثارة موجودة في اعماق الانسان ، لأحساسه بالتعاطف والمشاركة الوجدانية ، مع مـن يخاطب .

وهكذا ، نجد ان السقيا عند بعض الشعراء تقترن بمجموعة من المؤثرات «الفسيولوجية» وتقترن عند شعراء آخرين بمجموعة من الميول الدينية ، وقد تقترن بالدلالة الاجتماعية ، وترتبط بالمناخ الاجتماعي ، ومنهم من يرتقي بها إلى المجال الجمالي .

* * *

(٦٠) ابن خاقان ، ابو نصر الفتح بن محمد : مطمح الأنفس ، تحقيق علي الشوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . ١٩٨٣ . ص ٦٣ .
(٦١) الذخيرة : ٣٥٥/١/٣ .

لاشك ، إن هذه الظاهرة — السقيا — كانت تصور مرحلة دينية متقدمة ، كانت الأدعية والصلوات ، اهم رموزها التعبدية ، وقد تمثل الشعر هذه الآثار في المرثية التي كان التضرع والابتهال اهم خصائصها ، وهذا من الأمور الطبيعية بالنسبة للإنسان القديم في شعوره الديني. ولذلك ليس بمعجب ولا بمستغرب ان ينعكس هذا الاحساس التعبدي في الاطار الفني الشعري ، رمزاً للعالم المفقود، ثم استحال تقليداً فنياً ، طور به الشاعر الجاهلي قصيدته الرثائية ، بحيث غدا اعمق ملامحها .

وعلى ذلك ، فالسقيا ، كانت تحاول ان تبعث تجانساً حياتياً تم فقدانه بقوة الموت وجبروته ، بحيث توحي بتكامل معين ، بين الموت والحياة ، «فتتجاوب الاضداد» في اعماق الانسان ، من باب الأمل المنشود ، مبرزة تلك الصور الفنية .

وتتوافق هذه النظرة الحياتية ، مع منازع حياتية اخرى ، اي ان هذه السقيا ، لا تقتصر على الرؤية الرثائية التي يتحقق فيها الفناء بمعناه الظاهر للإنسان ، وانما هي تتفق مع نزعة الانسان ، الذي يستشعر حالة انفصامية بسبب الابتعاد المكاني والزماني .

المصادر والمراجع

١ – **القرآن الكريم** .

٢ – **الاحاطة في أخبار غرناطة** : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١ ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

٣ – **الأوراق . قسم اخبار الشعراء** . لأبي بكر الصولي ، نشره هيروث دون ، مطبعة الصاوي ، ١٩٣٤م .

٤ – **كتاب ارسطو طاليس في الشعر** .نقل ابي بشر متي بن يونس القنائي ، تحقيق : شكري عياد ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، ١٩٦٧م .

٥ – **بغية الملتمس** في تأريخ رجال الأندلس ، للضبي ، احمد بن عميرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧م .

٦ – **البيان والتبيين** ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حققه حسن السندوبي ، ط٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ – ١٩٣٢م .

٧ – **تاريخ الرسل والملوك** ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٨ – **التاريخ العربي القديم** ، فؤاد حسنين علي «ترجمة» ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م .

٩ – **جمهرة خطب العرب** ، لأحمد زكي صفوت ، مكتبة البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢م .

١٠ – **الحلة السيراء**، لأبن الابار ، محمد بن عبدالله ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ط١ ، ١٩٦٣م .

١١ – **الحيوان** ، للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٣ ، ١٩٦٩ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت .

١٢ ــ خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، للعماد الأصفهاني ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر .

١٣ ــ **دراسات في التراث الشعبي**، فوزي العنتيل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .

١٤ ــ **ديوان الاعمى التطيلي**، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٣م .

١٥ ــ **ديوان امية بن ابي الصلت**،جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ ،ط ٢، ١٩٧٧م ، المطبعة التعاونية بدمشق .

١٦ ــ **ديوان اوس بن حجر** ، تحقيق محمد نجم ، دار المصادر ، بيروت ، ١٩٦٧م .

١٧ ــ **ديوان الخنساء** ، تحقيق اكرم البستاني ،دار صادر ،بيروت ، ١٩٦٣م.

١٨ ــ **ديوان ذي الرمة** ، تحقيق عبدالقدوس ابو صالح ، دمشق ، مطبعة طربين ، ١٩٧٢م .

١٩ ــ **ديوان سحيم عبد بني الحسحاس** ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، دار الكتب المصري ، ١٩٦٨م .

٢٠ ــ **ديوان الشوقيات** ، احمد شوقي ، المكتبة التجارية بمصر ، ١٩٧٠م.

٢١ ــ **ديوان طرفة بن العبد** ، تحقيق لطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٥م .

٢٢ ــ **ديوان ابي الطيب المتنبي** ، شرح العكبري ، ضبطه مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٧١م .

٢٣ ــ **ديوان عمرو بن قميئة**،تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ١٩٦٥م .

٢٤ ــ **ديوان علقمة الفحل** ، تحقيق لطفي الصقال ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ١٩٦٩م .

٢٥ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .
٢٦ ـ ديوان المثقب العبدي ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات بالقاهرة ، ١٩٧١م .
٢٧ ـ ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧م .
٢٨ ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام الشنتريني ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م .
٢٩ ـ الذيل والتكملة ـ بقية السفر الرابع ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤م .
٣٠ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن نباتة ، جمال الدين المصري ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٩٦٤م .
٣١ ـ سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى ، مطابع الفجر الحديثة ، حمص ، ط١ ، ١٩٦٧م .
٣٢ ـ شرح ديوان الحماسة ، الخطيب التبريزي ، طبعة بولاق .
٣٣ ـ شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، نشره احمد امين وعبد السلام هارون ، ط٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨م .
٣٤ ـ كتاب الصلة ، لابن بشكوال ، ابي القاسم خلف بن عبدالملك ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .
٣٥ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، حققه احمد امين وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٣٦ ـ فجر الاسلام ، احمد امين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م .
٣٧ ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب ، محمود سليم الحوت ، دار النهار للنشر ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٣٨ ــ **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، لابن خاقان، الفتح ابن نصر، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٩م.

٣٩ ــ **لسان العرب**، جمال الدين محمد بن مكرم الانصاوي «ابن منظور»، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٤٠ ــ **مطمح الأنفس**، لابن خاقان، الفتح ابي نصر، تحقيق علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٤١ ــ **المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام** جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة نهضة بغداد، ط٢، ١٩٨٧م.

٤٢ ــ **الممتع في علم الشعر وعمله**، لعبد الكريم النهشلي القيرواني، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٧٧م.

٤٣ ــ **كتاب الموت**، سكرات الموت وشدته، لأبي حامد الغزالي، تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٧٧م

٤٤ ــ **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، لإبن الأحمر، اسماعيل إبن يوسف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.

٤٥ ــ **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، المقري، شهاب الدين، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٦ ــ **الدوريات**: نصرة عبد الرحمن: المطر ومواضع وروده في الشعر الجاهلي، مجلة دراسات، المجلد السادس، العدد ٢، ١٩٧٩م.



المتنبي وأزمة الرحيل عن حلب
قراءة نقدية نفسية

الدكتور بسام قطوس / استاذ مساعد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة اليرموك

ملخص

كان النقاد العرب القدامى يصفون النص الثري (المتعدد) بأنه «حمّال اوجه» وهذا يعني ان النص يستوعب عدداً من القراءات المحتملة من جهة المتلقي ،وأنه ينطوي على اكثر من معنى واحد .

هذه القراءة تحاول ان تستحضر المكبوت والغائب الدّلالي في علاقة المتنبي بسيف الدولة خلال ازمة رحيل الأول عن حلب ، كما تصورّها قصيدتاه «الميميّة» التي قالها مغاضباً ، و «اللاميّة» التي حاول ان يعتذر فيها بطريقة فنية هي غاية في الجمال والدهشة .

وتُعنى الدراسة في كيفية تشكل الصورة الشعرية لدى المتنبي ، والكشف عن إطاراتها المرجعيّة ، وقدرته في ان يمتاح من مخزونه الفكري المختزن في «لاوعيه» ، وكيفية توظيفه في اللحظة المناسبة . وهي، إذ تستثمر الغائب الدّلالي لا تهمل الحاضر الدّلالي ، وإنما تتجاوز ما يقال إلى ما يُسْكتُ عن قوله ليشكل هذا السكوت عنه موقفاً اكثر إيحاء من القول الصريح .

تسويغ

يبين لنا التحليل النفسي للإبداع الفني أن كل عمل فني ينتج عن سبب نفسي ، ويحتوي على مضمون ظاهر وآخر خاف ،مثله مثل الحلم ، ومن هنا وجدنا من يعرف التحليل النفسي للأدب بأنه تحليل المضمون الخافي للعمل الأدبي . (١) ونظراً لأن الدوافع إلى الأبداع كثيرة ، ولصعوبة تحديد ماهية الإبداع ، يعترف بعض النقاد أن التحليل النفسي الأدب هو تحليل لأعمق الدوافع الكامنة في نفس المبدع ، وترجمة مابقى مستترا في «لاوعيه» ، دون أن يهمل الدوافع الواعية ، سواء تلك الخارجة عن نطاق العمل الإبداعي : كالرغبة في الكسب المادي والشهرة ، أو تلك التي تدخل في عملية الإبداع ، كالالتزام بقواعد البناء الفني (٢). وقد كتبت دراسات نقدية كثيرة في الأدبين الغربي (٣) والعربي (٤) في هذا المجال ، وقفت على بعضها مستلهما البعد النظري ، وممهداً لقراءة المتنبي وفق هذا التصور .

في هذا الدراسة أحاول أن استجيب لهاجس طالما راودني وهو كيف يمكننا أن نفيد من علم النفس ، وبخاصة التحليلي منه ، في دراسة الأعمال الأدبية من غير أن نجور على أدبنا وأدبائنا ؟

(١) سامية احمد أسعد ، في الأدب الفرنسي المعاصر ، (الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦ م ، ص : ٧٥) .

(٢) محمود السمرة ، في النقد الأدبي ، (بيروت ، الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٤ م ، ص ص ٨٦ - ٨٨) .

(٣) انظر ، على سبيل المثال :
سيجموند فرويد ، التحليل النفسي والفن : ليوناردو دافنشي ودوستويفسكي ،ترجمة سمير كرم ، (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٩ م) . والهذيان والأحلام في الفن ، ترجمة : جورج طرابيشي ، (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٨ م) .
كارل يونج ، C.G.Jung
Modern Man in search of A soul, London, kegan Paul,1941.

(٤) انظر على سبيل المثال :
محمد خلف الله أحمد ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده (القاهرة ، ١٩٤٧ م
محمد النويهي ، نفسية أبي نواس) (القاهرة ، ١٩٥٣ م) .
عز الدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ م)

وبعد طول تأمل وتفكير رأيت أنه يمكن لنا أن نفيد من علم النفس التحليلي في أمرين مهمين للدراسة النقدية ، وهما :

الأول : إيضاح أو تفسير المعنى الكامن (الداخلي أو الماورائي) للعمل الفني وهذا في صلب النقد الأدبي .

والثاني : الأستعانة ، في هذا التفسير ، بمعرفة الحالة النفسية التي كان يعيشها الشاعر قبل إبداع قصيدته ، فكانت حافزاً له على إبداع قصيدته ، ومعرفة مزاج الشاعر في تلك اللحظة الإبداعية أو قبلها .

إنها محاولة تطمح إلى قراءة النص الشعري مستفيدة مما يمكن ان يكشفه لنا علم النفس التحليلي ، وبخاصة مفهوم يونج في « اللاوعي الجماعي » (٥) ونظريته في الإسقاط (٦) ، من عوامل نفسية ساهمت في إبداع العمل الفني ووجهته وجهة معينة كالنقمة ، أو الرفض أو الحب ، أو الازدراء أو القلق أو غير ذلك . وليس يعني هذا أن نميل إلى علم النفس ، على حساب المنهج الفني الذي يقوم على التذوق أولا ، ودراسة الخصائص الفنية وسبر أغوارها ومعرفة مدى مراعاتها للأصول الفنية المتعارفة في أي من الفنون ، وبهذا وحده ، لايفقد النقد الأدبي وظيفته الحقيقية ولايغمض عينيه عن الافادة من العلوم الانسانية ، ويؤكد ، مرة أخرى ، أن النقد فن فيه نكهة العلم .

أما القصيدتان الرئيستان اللتان سأدرسهما فهما « الميمية » و « اللامية » اللتان أشرت اليهما فيما مضى .

---

(٥) The Collective Unconscoins.

(٦) ProjectionTheory (وهي العملية النفسية التي يحول بها الفنان تلك المشاهد الغريبة التي تطلع عليه من أعماقه اللاشعورية إلى موضوعات خارجية يمكن أن يتأملها الاخرون) .
(انظر : ويلهلم رايش ، الإنسان والحضارة والتحليل النفسي ، ترجمة أنطون شاهين (دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٥م) ثمة مقال ليونج بعنوان « علم النفس وفن الشعر » ، ص ص ٢١ - ٥١ .
وقاسم حسين صالح ، الإبداع في الفن (دارالرشيد للنشر ، ١٩٨١ م ، ص ص ١٨ - ١٩) .

وقد يخطر للقارىء سؤال عن سبب اختيار هاتين القصيدتين بالذات من بين قصائد المتنبي الكثيرة ؟ والجواب على ذلك يتصل بناحية منهجية تكمن في أن القصيدتين تعالجان أزمة الفراق النفسي التي عاشها المتنبي قبل أن يرحل عن سيف الدولة الحمداني أمير حلب بعد أن توطدت العلاقات بينهما قرابة تسع سنوات ، والقصيدتان موجهتان إلى سيف الدولة الحمداني على إثر احساس المتنبي بموجدة الأمير الحمداني عليه ، واستشعاره بفقدان الوداد الذي كان يمحضه إياه سيف الدولة . إن القصيدتين متزامنتان (٧) ، فقد قيلتا قبل رحيل المتنبي عن سيف الدولة في حلب ومغادرته إلى مصر بعدما حل به في مجلسه من إهانة سكت عليها الأمير الحمداني ، فالقصيدتان يشدهما خيط إنساني رفيع يتمثل في رفض المتنبي للظلم ، ويبدو فيهما ، على الرغم من غضب المتنبي لعدم انتصار سيف الدولة له ، ذلك الحب الحقيقي الخالص الذي يكنه المتنبي لسيف الدولة . ومن هنا فإن القصيدتين تجسدان القلق النفسي والحيرة التي استشعرها المتنبي قبيل مغادرته حلب ، ومفارقته سيف الدولة ، وفيهما يلمح إلى معركة الحساد الذين أفسدوا علاقته بسيف الدولة كما أن فيهما عتاباً مبطناً يكاد يصل الى مرتبة السخط على سيف الدولة وحاضري منتداه من الشعراء واللغويين .

قبيل الرحيل عن حلب :

أحس المتنبي بغير قليل من الالم من حساده الذين يحضرون مجلس

(٧) قيلت القصيدتان سنة إحدى واربعين وثلاث مئة ، وكانت الميمية أسبق بتسعة عشر يوماً، ومما يدل على ذلك قول الواحدي : دخل أبو الطيب على سيف الدولة بعد تسعة عشر يوماً (يريد من تأريخ الميمية) وادخلوه إل خزانة الأكسيه فخلع عليه ونضح بالطيب ثم أدخل على سيف الدولة ، فسألة عن حاله وهو مستحي ، فقال ابو الطيب : رأيت الموت عندك أحب إلي من الحياة عند غيرك ، فقال : بل يطيل الله عمرك ، ودعا له ، ثم ركب أبو الطيب وسار معه خلق كثير إلى منزله ، وأتبعه سيف الدولة هدايا كثيرة ، فقال أبو الطيب بمدحه وأنشده إياها (يريد اللامية) في شعبان سنة إحدى وأربعين وثلا ثمائه) . (انظر : ديوان المتنبي . وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ج ، ١٩٨٠ م ، ج ٣ ، ص ١٩٨) .

سيف الدولة الحمداني ويؤلبون عليه قلب الأمير ، تارة بالتشهير به وإبراز عيوبه والتندر بتباهيه ، واخرى بالتشكيك في حبه لسيف الدولة وإخلاصه له .

فبدأ كل واحد منهما (المتنبي وسيف الدولة) يستشعر فقدان الوداد تجاه الاخر ، وكان الحساد من الشعراء والعلماء لايتركون فرصة إلايوغرون فيها قلب سيف الدولة على المتنبي في السر والخفاء (٨) ، ولكن المتنبي كان يجهر بمعاداتهم وبضعفهم ، فيرد عليهم في مثل قوله :

وما أنا إلا سمهري حملته فزين معروضا وراع مسددا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
وسار به من لايسير مشمرا وغنى به من لايغني مغردا
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنني بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والأخر الصدى(٩)

وتذكر إحدى الروايات ان الشاعر أبا فراس الحمداني قال لابن عمه سيف الدولة :

إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مئتي دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام ، وعمل فيه ، وكان المتنبي غائباً ، وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة ،وانشده :

ألا مالسيف الدولة اليوم عاتبا فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

فأطرق سيف الدولة ، ولم ينظر إليه كعادته ، فخرج المتنبي من عنده متغيرا .

---

(٨) محمود محمد شاكر ، المتنبي ،(القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٧ م) ، السفر الثاني ص ، ٢٢٣) .
(٩) الديوان ، ج ٢ ، ص ص ١٣ — ١٥ .

ويبدو أن المتنبي قد أدرك انصراف الأمير عنه ، وتقريبه لبعض خصومه فأراد انْ يجزي إعراضاً بأعراض ، فأبطأ في مدح الأمير ، ثم أظهر الأمير غضبه بأعراضه عن المتنبي بمحضر من الناس ، فعاد المتنبي خجلا كئيباً قد أسقط في يده ، وأراد أن يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير قصيدة يقول فيها :

أرى ذلك القرب صار ازورارا	وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة	أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحييا	وأزجر في الخيل مهري سرارا
وأعلم أني إذا ما أعتذرت	إليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا	ت إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القليـ	ـل هم حمى النوم إلا غرارا
وما أنا أسقمت جسمي بـه	ولا أنا أضرمت في القلب نارا
فلا تلزمني ذنوب الزمـان	إلي أساء وإياي ضارا
وعندي لك الشرد السائرا	ت لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولي	وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك مالم يقل قائـل	ومالم يسر قمر حيث سارا

فهو يكاد يعترف بذنبه صراحة ، ويعتذر عنه بأنه لم يتعمده ، وإنما هو مسوق إليه ، وان الهموم التي القاها عليه الزمان هي وراء كل ذلك . ثم يحاول ان يذكره ببعض ما قاله فيه مما سار في الا فاق غير ان الأمير لم يقبل منه » ولم يعطف عليه (١٠) .

ويمضي المتنبي في استطالته على الشعراء واستعلائه على الخصوم ، ويمضي أعداؤه في الكيد له ، والوقيعة به ، يخفون الكيد حين يرون إقبال

(١٠) يوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، حققه مصطفى السقا وزملاؤه ، دار المعارف ، ١٩٦٣ م ، ص ٨٧ . ومحمود محمد شاكر ، المتنبي ، ص ، ٣٢٢ . والديوان ص ١٩٦ ، وطه حسين ، مع المتنبي ، صص ٢٦١ - ٢٦٢ .

الأمير على شاعره ، ويظهرونه حين يحسون من الأمير مللا أو فتورا (١١)
ويصرح المتنبي بمعاداته في قصيدته التي أنشده إياها سنة ثلاث وأربعين و ثلاثمائة ، حيث يقول :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لاتجيبه وأغيظ من عاداك من لاتشاكل
وما التيه طبي فيهم غير أنني بغيض إلي الجاهل المتعاقل
وأكثر تيهي أنني بك واثق وأكثر مالي أنني لك آمل
لعل لسيف الدولة القرم هبة يعيش بها حق ويهلك باطل

فهو يعلن ، صراحة ، ثورته على خصومه ، ويصب عليهم جام غضبه ، ويستعين عليهم بالأمير كما يتضح من البيت الأخير ، وفي هذه السنة نفسها قال قصيدته الميمية التي منها :

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فإنك معطيه وإني ناظم
وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا انا مذموم ولا أنت نادم
على كل طيار إليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

وما كادت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة تحل حتى انشد آخر ما انشده من الشعر ، ميميته التي أذنت بأنقطاع الصلة بينهما ، يقول فيها :

لاتطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولاتبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

قال عبد المحسن علي بن كوجك : إن اباه حدثه قال : كنت بحضرة سيف الدولة وأبو الطيب اللغوي (١٢) ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو عبد الله

(١١) انظر طه حسين ، مع المتنبي ، ص ٢٦٧ .
(١٢) عبد الواحد بن علي الحلبي المعروف بابي الطيب اللغوي ، صاحب التصانيف الجليلة ، أصله من عسكر مكرم ، قدم حلب وأقام بها إلى أن قتل في دخول الدمستق سنة (٣٥١هـ)

إبن خالويه النحوي ، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي ، والمتنبي ساكت ، فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ، فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغوي ، وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : اسكت ويحك فانك أعجمي ، وأصلك خوزي ، فما لك وللعربية؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك . إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا ، فكان ذلك أحد اسباب فراقه سيف الدولة (١٣) .

ويبدو أن أبا الطيب المتنبي تلكأ عن مدح الأمير الحمداني ، فبدأ سيف الدولة يعتب على تقصير الشاعر في مدحه ، فكان المتنبي يكيل له الأعذار عن توانيه قائلا :

وماكان ترك الشعر إلا لانه   تقصر عن وصف الأمير المدائح

ان هذه الحوادث وغيرها مما كان يجري في الخفاء بين المتنبي وخصومه تجمعت لتترك أثراً سلبياً في نفس المتنبي . فاستغلها الحساد والخصوم ليؤلبوا قلب سيف الدولة عليه ، فبدأ يتوجس خيفة من المتنبي ويشك في حبه وبدأ يمله ، وكان المتنبي يقابل هذا بالإعراض والمبالغة في التمنع ، فيزيد ذلك من غيظ سيف الدولة . ولما زاد الأمر و تكرر هذا الفعل اضطر المتنبي أن ينشد سيف الدولة في محفل من العرب و العجم قصيدته :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

معبراً فيها عن قلقه من فتور العلاقة بينهما ، عاتبا على سيف الدولة مدلا فيها بنفسه وشعره ، معرضاً بشانئيه .

(١٣) يوسف البديعي ، المصدر السابق ، ص ٨٧ ، ومحمود محمد شاكر ، المتنبي ، السفر الثاني ، ص ٢٩٤ .

وقد اضطرب مجلس سيف الدولة لانشاده هذه القصيدة ، واشتد غضب الحاشية ، فسعوا عند الأمير ، واجترأوا على المجاهرة بالنعي عليه والطعن ه ، حتى قال طه حسين : « والشيء الذي لاشك فيه هو ان المتنبي إن وفق لارضاء الفن في هذه القصيدة فقد أخطأه التوفيق لارضاء سيف الدولة»(١٤) إلا ان أبا الطيب عاد بعد تسعة عشر يوماً ، إذ تهيأ له ان القرب من سيف الدولة ما يزال خيراً من البعد عنه ، بقصيدته اللامية مسقطا فيها كل أحزانه على « محبوبته» التي جعلها رمزاً لسيف الدولة ، دون ان ينسى جرحه الذي جرحه ، فكان يظهر في ثنايا القصيدة في مثل قوله :

قد ذقت شدة أيامي ولذتها فما حصلت على صاب ولا عسل

وأخذ المتنبي يستعد للفراق ، فاستأذنه ذات يوم ، في المسير إلى إقطاعه فأذن له . واحتار أين يتجه وهو الذي هجا الإخشيديين والعراقيين ، وبعد طول تفكير اهتدى إلى أن هجاءه للعراقيين كان أشد وقعاً وأكثر إيلاما من هجائه الإخشديين ، ففضل الذهاب إلى كافور ، فخرج من حلب سنة ست وأربعين وثلاثمائة متظاهرا انه ذاهب إلى معرة النعمان ، ومن هناك اتجه إلى الجنوب ، ولم يتوقف في حمص ، لأنها من أعمال سيف الدولة(١٥).

الحب اللاواعي :

نترك الان ما قاله الرواة موثقا إلى اصحابه لنقول : إن المتنبي ، على الرغم من مغادرته سيف الدولة إلى غير رجعة ، ظل يذكر سيف الدولة معرضا أو مادحا أو مشاركا بأحداثه ، وظلت عواطفه متأججة قرابة ثلاثين عاماً على غير عادته : إذ كان كلما خرج من عند أمير عزف عن مديحه ونسيبه (١٦) .

---

(١٤) طه حسين ، مع المتنبي (دار المعارف ، ١٩٨٠ م ، ط ١٢ ، ص ٢٦١) :
(١٥) انظر : الديوان ، مقدمة الديوان ، ص ٤٤ .
(١٦) مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص ، ٢٠٨ .

ويرى حسين عطوان (١٧) أن المتنبي أحب سيف الدولة ، لأنه وجد فيه الفتى العربي الأصيل الذي تمثلت فيه كل الخصال العربية التي افتقدها في غيره من الحكام ، فقد وجد فيه الفارس المغوار الذي يحقق كل صفات الرجولة والبطولة التي ربط نفسه بها ، وعاش لها يطلبها ويسعى من أجلها .

ولعل مما يظهر حب المتنبي الحقيقي لسيف الدولة ، على الرغم من كل ما جرى بينهما ، أنه لما بلغه وفاة أخت سيف الدولة الكبرى بميافارقين سنة ثلاثمائة وثنتين وخمسين من الهجرة ، ما كان منه إلا ان رثاها بقصيدة من غرر قصائده ، ومنها :

يا أخت خير أخ يابنت خير أب   كناية بهما عن أشرف النسب
طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت منه بآمالي إلى الكذب

فأرسل إليه سيف الدولة يشكره ويدعوه إلى زيارته ، الا انه اعتذر وطي اعتذاره عتاب عن تهاونه بحقه (١٨) . حتى حين كان يلج بالمتنبي الغضب على سيف الدولة لم يكن ليستطيع أن يكتم حبه الداخلي ، فكان يتسرب من خلال أبيات في القصيدة وكان « لاوعيه » يجود بما اختزن له من حب حقيقي

القراءة النقدية :

والان اقوم بدراسة فنية للقصيدتين مستعيناً بالمنهج الذي رسمته مبتدئاً بقصيدته « الميمية » على وفق الترتيب الزمني الذي قيلت فيه.

---

(١٧) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ، (بيروت ، دار الجيل ١٩٨٣ م ، ص ٣٢٤) .

(١٨) لعل مما يوضح خوفه من الوشاة ، واشفاقه من استئناف حياة يملؤها الحسد والكيد ، قوله من البائية التي أنفذها اليه بعد أن بعث اليه سيف الدولة يستقدمه :

فهمت الكتاب أبر الكتب   فسمعا لأمر أمير العرب
ما عاقني غير خوف الوشاة   وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم   وتقريبهم بيننا والخبب

(انظر ، طه حسين ، مع المتنبي ، ص‌ص ٢٧٠ - ٢٧١) .

أولا : الميمية

هذه القصيدة تنم عن نفسية قلقة ، ثائرة ، غير راضية بالوضع في بلاط سيف الدولة ، وتكشف عن إنسانية شاعر قمع في مجلس أحب الناس إليه، وكان الذي أهانه في غير مستواه من حيث قدراته الابداعية بله حبه سيف الدولة حباً صادقاً . وقد جاءت ألفاظ القصيدة خشنة قاسية تحمل المعنى وضده وتقرع سمع الأمير الحمداني وحاضري منتداه الأدبي ، اذ ما اعتدنا أن يقف شاعر أمام خليفة أو أمير مثلما وقف المتنبي ، فقد كان النقاد العرب يشيرون إلى مبدأ اللياقة في خطاب الخلفاء والأمراء ، وذوي الشأن ، وفي ذلك شواهد كثيرة تجل عن الحصر في هذا المقام .

تدور القصيدة في أربعة محاور ، كل محور منها خدم الفكرة الرئيسة ، التي تقوم على التضاد بين موقفين :—

الأول — حب المتنبي الحقيقي لسيف الدولة .(مالي اكتم حبا قد برى جسدي!)

والثاني — فتور سيف الدولة بازائه ، وصمته على الحساد الذين اهانوه قولا او فعلا أو برود قلبه ، كما قال المتنبي :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وإذن ، فالفكرة المحورية في القصيدة تتضح في تمرد الشاعر ، وعدم رضاه ورفضه بأن يستمع سيف الدولة لحساده ، وأن يهان في مجلس أحب الناس اليه .

وحول هذه الفكرة ، فكرة الرفض ، والثورة والغليان ، والقلق ، تتداخل العلاقات بين عناصر القصيدة ، لتشكل في النهاية بنية قصيدة المتنبي ، محققة الوحدة الموضوعية والنفسية في آن معا ؛ إذ على الرغم من كون القصيدة تبدو للناظر انها اشتملت على المدح والافتخار والعتاب ، فأن هذه

الموضوعات تلتقي في إطار القلق ، والرفض ، والخوف من مصير علاقته بسيف الدولة من خلال الإيحاء بجو نفسي واحد .

المحور الاول

ويقوم على طرح همّ المتنبي الشخصي وقلقه من نهايات هذه العلاقة بينه وبين سيف الدولة ، (الابيات الثلاثة الاولى) .

فهو يظهر حزنه الشديد وشدة غليانه بسبب حبه الشديد لسيف الدولة وإعراض الاخر عنه وبرود قلبه ، إذ لم ينتصر لهذا الحب ، وقد ضمن هذه الأبيات تساؤلا حزيناً ، ولكنه ذكي ، أظهر فيه السبب النفسي الكامن وراء إخفائه حبه وهو شدة حساسيته ، وألمع إلى مناوئيه بأنهم يدعون ، كذبا وزورا ، حبه ، وأنه لايجيد صنعة التملق كما يفعل غيره . وتشي كلمة (أكتم) في البيت الثاني ، بغير قليل من معاناته وكبته إحساساته ومغالبتها من خلال هذه المبالغة في الكتمان التي جاد بها الفعل «كتم» بعد الزيادة والتشديد ، ومن هنا فان الأعطيات لو كانت تقسم بقدر الحب الحقيقي لكان أحرى بالمتنبي أن يفوز بصدر مجلس الأمير ، وبأعظم نصيب ، على هؤلاء «المتشاعرين» المدعين .... ، وأنا هنا أنقل ما في «وعي» المتنبي ، أو «لاوعيه» ليس غير .

المحور الثاني – (ثمانية أبيات من ٤ – ١١) .

وفي حمأة هذا الغليان النفسي ينتقل المتنبي نقلة فنية مبررة محسنا التخلص إلى مدح سيف الدولة ، فيقول :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم

وكأنه يلفت نظر الامير ومن في مجلسه إلى انه ارسخ قدماً من هؤلاء «الحساد» في علاقته بسيف الدولة ، وانه رافقه في السلم والحرب ، وأنه احق بالصحبة من غيره ، وأنه ، طوال هذه المدة ، خبره ،

فكـان أحـسن خلـق الله كلا همـو وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

وهنا يجد الشاعر الفرصة مواتية لمدح الأمير بسبعة ابيات ذكر فيها شجاعته، وشدة بأسه ، ومهابته ، والزامه نفسه اصعب الأمور دون اسهلها ، من قوله :

فـوت العـدو الـذي يممتـه ظفـر

(إلى قوله) تصافحت فيه بيض الهند واللمم

المحور الثالث

ويبدأ هذا المحور ، وهو اهم محاور القصيدة واوجعها ، إذ يصرح فيه المتنبي بكل ما في نفسه من قلق ورفض ، وتتم النقلة ، من غير تكلف او قفز ، حيث يخاطبه في صدر البيت الثاني عشر قائلاً :

يـا اعـدل الناس إلا في معاملتـي

مسبغاً عليه صفة العدل ، ولكنه يستثني من حكمه عدله في معاملته فحسب . ثمّ ما يلبث أن يردّه وعيه إلى أنه امام سيف الدولة وليس أمام إنسان عادي يمكن ان يخاطبه بهذه الصيغة الجافة ، فيسعفه ذكاؤه إلى أن يتخلص من هذا المأزق في عجز بيته بأن اعتبر سيف الدولة خصمه وحكمه في آن معاً ، فاستعدى عليه حكمه بقوله :

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وهنا يبدأ في تقريع سيف الدولة ولومه بطريقة فنية غاية في الذكاء ، متهماً إياه بأنه لا يفرق بين الشحم والورم ، وكأنه يحذره من أن يخطىء بحقه، ويدعوه إلى أن يعرف منزلته بين الشعراء . ثم يقرع سمعه ببيتين قويين فيهما من الحنق والغيظ ما فيهما ، إذ يقول :

وما انتفاع أخي الدّنيا بنـاظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي وأسمعت كلماتـي مـن به صمم

فما كاد يأتي البيت الأول الذي بدا وكأنه حكمة عامة تفيد بأن الإنسان

إذا لم يستطع التمييز بين الظلمة والنور فإنه لا فائدة ترجى من عينيه ، حتى أكد في البيت الثاني على أن المقصود هو سيف الدولة ، وحاضرو منتداه ، فهو يقول لهم : إن الاعمى ، على فساد حاسة بصره ، قد ابصر ادبي وعرف شعري وان الاصم ، على فساد حاسة سمعه ، قد سمع بشعري ، وان شعري وذكري طارا في الآفاق ، فما حالُ من لم يقدّر شعري حق قدره ، وما حال من لم يعرف منزلتي حق المعرفة ؟

وهكذا يستمر المتنبي ، في ثمانية أبيات اخرى (١٩) بالإدلال بنفسه ، والاعتداد بشجاعته وتفوقه وإبداعه محاولا ان يقاوم عقدة النقص (٢٠) التي استشعرها بعد إهانته في مجلس الأمير وسكوت الثاني على اهانته .

ومن حقنا أن نسأل : ما مبرر الفخر بالنفس والحديث عن الشجاعة في مثل هذا الموقف ؟ والجواب على ذلك ان اعتزاز المتنبي بقوتـه وشجاعته وحديثه عن فروسيته وقطعه الفلوات له ما يبرّره نفسياً في القصيدة ،وما يجعله متصلا بما سبقه وممهداً لما سيتلوه من قول . إنه يريد أن يلفت نظر الأمير إلى أنه ليس إنساناً عادياً ، وإنما هو فارس شجاع مقدام قادر على مقاطعته مثلما هو قادر على القدوم اليه رغم كل ما يعترض طريقه من مصاعب وأهوال بَلْهَ كونَهُ قادراً على أن يكيل الصاع صاعين لمن اهانه في حضرته ، وان امتناعه عن فعل ذلك ما هو إلا ضرب من الاحترام والتأدب في مجلس من يكتم حبه ، ذلك الحب الذي يَرى جسده على حد تعبيره .

---

(١٩) تبدأ من قوله : أنام (ملء جموني عن شواردها) ، وتنتهي بقوله :
(حتى تعجب مني القور والأكم) .

(٢٠) Feeling of Inferiority صاحب هذا المصطلح النفسي الفرد إدلر A.Adler أحد تلامذة فرويد ، ويرى أن النبوغ مدفوع بالشعور بالنقص ، سواء أكان جسيماً أم معنوياً ، حقيقياً أم متوهماً ، ويرى أن ثمة طرقا نفسية للتغلب على هذا الدافع منها الفن بالنسبة للمبدعين ، وأطلق على هذه الطريقة اسم التعويض (Compensation)
(انظر : فاليرى ليبين ، مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة ، بيروت ، دار الفارابي ١٩٨١ م ، ص ٢٣) .

المحور الرابع :

ويدلف الشاعر إلى المحور الرابع (٢١) الذي يتم به بناء القصيدة ، بنقلة فنية لا تقل عن سابقتها جمالا وسلاسة وحسن تخلص ، إذ يخاطبه قائلا :

يا من يعز علينا أنْ نفارقهم وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم

فهو يمتدحه معلناً انه راغب في الرحيل عنه ، على شدة تعلقه به ، وما إنْ يشعر انه تمكن من قلبه بهذا المدح حتى وجه اليه نقداً مبطناً بكل كبرياء واعتزاز بالنفس ، قائلاً :

ما كان اخلقنا منكم بتكرمة لو أن امركمُ من امرنا أَمَمُ

ونلحظ هنا اختلاط العتاب بالاعتزاز ، فهو يعز عليه أن يفارق سيف الدولة على الرغم من كونه لم يرع له حرمة ، وما كان أخلقه منه بتكرمة لو كان ممن يحنظ الود . وفي خضم هذا المعترك يطفو على سطح وعيه ما يوحي بعقدة النقص التي احسّها في مجلسه ، فيحاول ان يستمزج الأمير مرّة أخرى فيقول :

إن كان سرّكمُ ما قال حاسدنا فما لجرح إذا ارضاكمُ ألمُ

ارأيت إلى هذه الرغبة الجامحة في التكتم على الإهانة ، وفي المداراة ؟! وقبل أن يختم قصيدته يذكره مرة اخرى بالعشرة ، وانه لم يرعها ، وذوو العقول يراعون المعرفة ويقدّرونها حق قدرها . ويتهمه بأنه يبحث له بحثاً عن عيب فلا يجده ، وهذا مما يكرهه الله ، ولا ترتضيه مكارم الأخلاق ، فبالحريّ أن يكافئه سيف الدولة لا العكس .

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إنّ المعارف في أهل النهى ذمم

ويجد المتنبي الفرصة مواتية ، مرة ثانية ، لمدح نفسه والتحدث عن شجاعته ويخلص منها إلى أن يحمله مسؤولية ارتحاله عنه ، وذلك بداية من قوله : —

---

(٢١) من قوله (يامن يعز علينا ان نفارقهم) إلى نهاية القصيدة

ما اصعب العيب والنقصان عن شرفي إلى قوله أن لا تفارقهم فالراحلون هم.

ويختتم الشاعر قصيدته بثلاثة ابيات اخرى تتضمن مجموعة من الحكم التي يلمّح فيها إلى ما يجول بخاطره تجاه سيف الدولة فيقول : إنّ شرّ ما كسبه الإنسان هو ما عابه وأذله ، إذ إن عطايا سيف الدولة ، على كثرتها، تعادل تقصيره في حقه وإيثاره لحسّاده . ثم يصرّح بأنه لا فضل لأعطياته اذا ساواه في العطاء مع خساس الشعراء ممن ليس لهم فصاحة العرب ، فيقول:

شرّ البلاد مكان لا صديق بـه ... وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم
وشرّ ما قنصته راحتي قنـص ... شهب البزاة سواء فيه والرّخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عُرْب ولا عَجَم

وتشاء عبقرية المتنبي وذكاؤه أن يخفف من غلوائه وعنفوانه قليلاً ، مؤكداً أنّ ما قاله من شعر ، وإنْ أمضّكَ وأزعجك يا سيف الدولة ، ما هو إلاّ عتاب يجري بين المحبين فباطنه غير ظاهره ،كما أنه ضمن الدّر لحسن نظمه ، وإنْ يكن كلاماً معهوداً في ظاهر لفظه ، حيث يقول :

هـذا عتـابك إلا أنـه مقـة ... قد ضمّن الدّرّ إلاّ أنه كلم

لله درّك يا أبا محمد ، إن هذا الكلام ، بحق ظاهره غير باطنه !

وبعد ،

فإن هذه المحاور الأربعة ، على اختلافها ، تتضافر لتقدم لوحة واحدة مكتملة الوحدة ، يبررها منطق القصيدة الداخلي ، وتربط اولا منها بآخر ، وتشد مفاصلها شداً محكماً لا خلل فيه ولا تشتت .

إن حيوية هذه القصيدة وصدقها وحرارتها قد جعلت منها بناء حياً إلى يومنا هذا ، وما كان ذلك ليتم لولا قدرات الشاعر التعبيرية ، ولولا تمكنه من أدواته الفنية ، وصدق عاطفته ، تلك العاطفة الإنسانية العميقة التي توجه بصيرته الفنيـة ، وتدلّه على ادوات التعبيـر القادرة على امتصاص خلجات نفسه ، واقتطاف قمة غليانه النفسي ، بحيث يشكل عملا فنياً صادقاً فيه نبضه الخاص ، وله طعمه الخاص ، ونكهته الفريدة .

ثانياً : اللامية .

لن تغريني كلمة طه حسين ، الذي رفض الوقوف عند هذه القصيدة ودراستها دراسة مستأنية ، حيث يقول : « ولا أقف عند هذه القصيدة ، فهي لاتعجبني ، وإن أعجبت المعاصرين ، وأرضت سيف الدولة كل الرضا (٢٢) . وإني لأستغرب هذا الموقف يتخذه طه حسين من القصيدة ، فبالاضافة إلى كونها قطعة فنية غاية في الإبداع الفني ، فهي تكشف عن صدق عواطف المتنبي نحو سيف الدولة ، وإخلاصه له ، وصفاء نيته ، ونقاء سريرته . فقد كان في « الميمية » ثائراً ورافضاً بفعل الحساد والخصوم فعاد في « اللامية » يصوب ما بدر منه في لحظة غضب ، فما كاد يناول سيف الدولة نسختها حتى نظر فيها ، فلما انتهى إلى قوله

أقل أنل أقطع احمل علَ سَلِّ اعدْ

زدْ هشَّ بشَّ تفضل أدْنِ سُرَّ صلِ

حتى وقع تحت كل كلمة ما يناسبها ، ولما وصل إلى كلمة « أعد » وقع : أعدناك إلى حالك من حسن رأينا (٢٣) . وهذا يدل على ان « الميمية » أغضبته ، وفعلت فعلها في نفسه ، فلما قال « اللامية » رضي عنه .

ولعل أول ما يشغلنا في هذه « اللامية » علاقة المتنبي مع محبوبته ، فهي علاقة تقوم على التناقض ، حتى إن السيف لم يبرح خصر المتنبي وهو يزور حبيبته ، فظل قائماً بينه وبين تلك الحبيبة . وهذه إشارة إلى الخوف والحذر ، وانه لم يخلع سيفه حتى وهو في قمة نشوته بلقاء المحبوبة وهو يعانقها ، فمن هي تلك المحبوبة إذن ؟

وقد طرقت فتاة الحي مرتديا ... يصاحب غير عزهاة ولا غزل

فبات بين تراقينا ندفعه ... وليس يعلم بالشكوى ولا القبل

(٢٢) مع المتنبي ، صص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (دار الكتب العلمية ، ١٩٧٩ م ، ج ١ ، ص ١١٧) .

ابة علاقة حب هذه التي يخشى فيها الحبيب على نفسه فلا يفارقه سيفه ؟ إنه حب حذر إذن فيه خوف ومشقة !

وهل افتتاح القصيدة بالوقوف على الأطلال في هذا العصر الذي تطورت فيه الحضارة تطوراً واسعاً له ما يبرره نفسياً ؟ وما الذي شجا المتنبي حقاً حتى بكى وحده قبل أن يبكي أصحابه وأبله ؟ ولماذا استجاب بهذه السرعة واستسلم للحزن ؟

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل	دعا فلباه قبل الركب والإبل
ظللت بين أصيحابي أكفكفه	وظل يسفح بين العذر والعذل
أشكو النوى ولهم من عبرتي عجب	كذاك كنت وما أشكو سوى الكلل
وما صبابة مشتاق على أمل	من اللقاء كمشتاق بلا أمل

نحن نعرف أن الاطلال تثير في النفس شيئاً خاصاً بتلك النفس ،وليس بالأطلال ذاتها ، ونعلم أن التعبير الفني يأخذ مساحة من نفسية المعبر ، فإن كان سعيداً فإنه يلقي من نفسه على المكان سعادة ، وإن كان حزيناً فإنه يلقي على المكان حزناً وهكذا دواليك ، فما كان ليل امرىء القيس (بأطول من الليل العادي) إلا لأنه حزين ! والمتنبي كذلك ، لو لم يكن هو نفسه معنياً بشيء ما يبكيه ، فلماذا يكفكف دمعه ويخفيه عن الركب خوفاً من ان يلحظوه ؟ اليس هؤلاء الأصيحاب يشتركون معه في هذا الإحساس ؟ حقاً إنهم لايشاركونه في قضيته ! لأنه يعاني منها وحده كما يضح في القصيدة.

فأي نوى يشكو ؟ انه يشكو الفراق ،وهم يتعجبون من بكائه ! فقد كان على مثل مايرون من البكاء حين كانت المحبوبة قريبة منه لايحجبه عنها غير الستر ،فكيف وقد حجبها الفراق،فاي ستار بينه وبين حبيبته تلك ؟ وكيف يبكي وهي قريبة منه ؟

أن ذلك الستار النفسي الذي احبه المتنبي هو الستار الذي صنعه حساده من

خلال مجلس سيف الدولة ، وسيف الدولة هو المحبوب المقصود ، وهذا الحاجز النفسي عبر عنه المتنبي في غير بيت في مثل قوله :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي
وتدّعي حب سيف الدولة الأمم

أو قوله من هذه القصيدة :

وما صبابة مشتاق على امل من اللقاء كمشتاق بلا امل

إنه أمل ضائع بفعل الحساد الذين جعلوا الشقة بين المتنبي وسيف الدولة بعيدة جداً . وإذن فالوصول إلى الحبيبة وهو هنا (سيف الدولة) ليس سهلا لأنها منيعة في اهلها ، وحبيبها (هو هنا المتنبي) يخشى على نفسه اذا زارها:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها لايتحفوك بغير البيض والأسل

ومن هنا فإنه عندما يفكر بالهجر يرى أنه أصعب على نفسه من القتل :

والهجر أقتل لي مما أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل

قد تبدو هذه المقدمة للدارس أو المتأمل مقدمة غزلية خالصة ، ولكن المدقق في سيرة المتنبي ونفسيته يوم كان عند سيف الدولة ونفسيته يوم أن كان عند كافور لا يمكن ان يخدع بها ، وسرعان ما يدرك أنها مقدمة رمزية في جوهرها تغص بأنواع المشاعر والانفعالات التي تموج بها نفسه ، بعد ان افسد الخصوم والاعداء مابينه وبين سيف الدولة من المودة والصفاء(٢٤).

فهو في الظاهر يتحدث عن محبوبته الممنعة ، وفي الباطن يتحدث عن آماله وأمانيه وسعيه وراء المجد ، فثمة معنى أعمق من المعنى الظاهر يعمل على مستوى « اللاوعي والوعي» في القارىء ، والمتنبي يقوم بعملية تشبه العمليات الدفاعية التي تستخدمها « الأنا» ضد الخارج ، فقد كان في وعيه يحب سيف الدولة حباً حقيقياً ، وقد اختزن هذا الحب حتى استقر في

---

(٢٤) حسين عطوان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

«لاوعيه» وأصبح حقيقة كامنة وكان كلما حاول كبت مشاعره لامر حادث : كإعراض سيف الدولة عنه ، أو استماعه لحساده ، برز ذلك الحب ، وخرج من مكمنه .

وقد التفت القدماء إلى هذه الناحية الرمزية ، ولكنهم لم يجلوها تجلية واضحة ، فهذا الثعالبي يتحدث عن جملة محاسن المتنبي فيقول : «ومنها مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق ، مع الإحسان والإبداع (٢٥) كما التفت المحدثون إلى هذه الظاهرة ، ومنهم عبد الوهاب عزام (٢٦) ، وطه حسين (٢٧) ويوسف خليف (٢٨) ، وحسين عطوان (٢٩) وقد ربطوا ربطاً واضحاً بين حياة المتنبي ونفسيته ، وما كان يثور فيها من المشاعر والانفعالات .

ويحسن أن نتذكر ، في هذا المقام ، ماقاله المتنبي في لقائه بسيف الدولة : رأيت الموت عندك أحب إلى من الحياة عند غيرك ، وإذن فقد فكر المتنبي طويلا في أمر العودة إلى سيف الدولة قبل أن يتخذ قراره بالمقاطعة ، فوجد حقاً أن الهجر أقتل له مما يراقبه ، ووجد أنه أصبح غريقاً فما خوفه من البلل ؟

ومن هنا فإن القصيدة تقوم على محورين يشكلان علاقة ضدية بين موقفين نفسيين ، هما :

المحور الاول

ويصور حالة اليأس والبكاء بسبب الهجر والقطيعة بينه وبين سيف الدولة، ويظهر ذلك منذ بداية القصيدة ويستمر حتى نهاية البيت الخامس حيث يبدأ

---

(٢٥) يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ، ١٩١ ، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ص ١٠٠ ،
(٢٦) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، بغداد ، مطبعة الجزيرة ، ١٩٣٦ م ، ص ، ١٤٨ ،
(٢٧) مع المتنبي ، ص ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .
(٢٨) «مطالع الكافوريات وكيف تصور نفسية المتنبي» ، مجلة المجلة ، العدد السادس عشر ، السنة الثانية ، ١٩٥٨ م ، ص ص ٨٥ — ٩٦ .
(٢٩) المرجع السابق ، ص ص ٢٨٩ — ٣٥٤ .

بإعادة التوازن النفسي ويقارن بين امرين أحلاهما مر ، إذ يقول

والهجر أقتل لي مما أراقبه   أنا الغريق فما خوفي من البلل

فهو يعتبر أن هجر سيف الدولة بسبب البعد أقتل مما يمكن أن يحدث له لو أعاد العلاقة ، وكأنه الغريق وما دام غريقاً فإن البلل بالنسبة إليه شيء عارض ، وإذن فهو يدعو نفسه للتحمل ، وبخاصة ان كل الذين يحيطون بسيف الدولة بهم مثل ما بالمتنبي ولكنهم لايتحدثون .

ما بال كل فؤاد في عشيرتها   به الذي بي وما بي غير منتقل

ففي هذا البيت نوع من «التعويض النفسي» وكأنه يسلي نفسه عن رجوعه أو عن رغبته في الرجوع ، وبطئا منها ، وهكذا يستمر الشاعر في حديثه مبيناً مهابة المحبوبة (سيف الدولة) في قلوب الناس ، وانها مطاعة وان الناس يتشبهون بها وكأنه يشير ، من طرف خفي ، إلى انه لايستطيع أن يقاوم وحده ، وأن الكل يريد الرضا من الأمير ، ثم يختم كلامه موضحاً بعض ما تشي به نفسه القلقة ، فيقول :

قد ذقت شدة ايامي ولذتها   فما حصلت على صاب ولاعسل

واضح أنه يخشى نهاية المصير ، فهو يتحدث عن نفسه هو وعن علاقته بسيف الدولة : وهذا ما تؤكده الأبيات القائلة :

فقد أراني الشباب الروح في بدني   وقد أراني المشيب الروح في بدلي

فهو الان ليس أهلا للوقوف في وجه احد ، لان عهده قد مضى ، وانه يمكن الاستغناء عنه (إنه يعزي نفسه حقاً) ولكنه يحسن التخلص إلى ممدوحه بطريقة فنية في الذكاء بعد أن بين ضعف حاله فقال :

وقد طرقت فتاة الحي مرتديا   بصاحب غير عزهاة ولاغزل

فبعد أن تردد طويلا بين المجيء وعدمه قرر ان يأتي مصطحباً معه سيفه الذي لايكسب الذكر الا من مضاربه . ولكن اي سيف ؟ إنه السيف الذي أهداه إليه الأمير ، وهنا يدخل المحور الثاني :

ويقوم على إعادة التوازن النفسي وإعادة الثقة لنفسه ، وهذا واضح من بداية حديثه عن فروسيته وشجاعته من قوله :

لا أكسب الذكر إلا من مضاربه أو من سنان أصم الكعب معتدل

ولكنه عزا هذا الفعل وذاك الشرف (شرف الفروسية) إلى الامير الذي جاد له بذلك السيف ، وهنا وجد الفرصة مناسبة لمدحه فمدحه في بقية القصيدة ، وقد أرسل المتنبي اثنين وثلاثين (٣٠) بيتاً يمدح فيها الأمير الحمداني فوصفه بالشجاعة والكرم وعراقة المحتد ، فكان بارعاً حتى في طريقة مدحه ، وكان لا يترك فرصة إلا يعبر من خلالها عما تجيش به نفسيته ، وكأنه يسقط بعض همومه وبعض ما في نفسه على الحالة التي يعيشها ، فقد رضي بالرجوع إلى الأمير على الرغم من الحاسدين ، لانه وجد الحول أخف من العور ، والعور أخف من العمى يقول مخاطباً سيف الدولة :

إن كنت ترضى بأن يعطوا الجزى بذلوا
منها رضاك ومن للعور بالحول

صحيح أنه يتحدث عن الروم الذين حاربهم سيف الدولة ، ولكن من ينظر بعمق إلى المعنى البعيد يدرك أنه يكني فيه عن نفسه ، وكأنه يقول : إن كنت ترضي منهم بأن يبذلوا الجزية وتعفو عن رقابهم فعلوا ، وذلك لإيمانهم بأن الحول أخف من العور ؛ يعني أن الجزية خير لهم من القتل . إنه يخاطب نفسه بطريقة رمزية قائلا : إن مراقبتي سيف الدولة عن بعد أقتل لي من البقاء بقربه ، وقد كرر هذا المعنى في غير ما بيت (والهجر أقتل ... ابيت .)

ومرة أخرى يجد الفرصة مواتية للإدلال بنفسه والاعتداد بشعره ، فيقرن

(٣٠) من قوله : (ومن علي بن عبدالله معرفتي) إلى نهاية القصيدة .

شعره بمجد سيف الدولة ، وأن الاثنين سارا في الآفاق ، وإن كلاً منهما حقيقة لادعوى ، وأنهما أي (شعر المتنبي ومجد سيف الدولة) سارا في الدنيا شرقاً وغرباً .

وهنا ينتهز الفرصة ليطلب من شعره ومجد سيف الدولة (في ثلاثة أبيات) أن يحملا للناس رسالته وهي : قولا للناس أي متقلب في نعماء سيف الدولة مغمور بمكارمه ، متصرف في فواضله ، أقلّبُ الطّرف بين الخيل والخدم:

ناديت مجدك في شعري وقد صدرا — يا غير منتحل في غير منتحل

بالشرق والغرب أقوام نحبهم — فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل

وعرّفاهم بأني في مكارمه — أقلّبُ الطّرف بين الخيل والخول

إنّها محاولة واضحة «للتعويض النفسي» عن كل ما ألمّ به في مجلس سيف الدولة «خصمه وحكمه» . وهي قطعة فنية غاية في الجمال استطاع أن يوظفها الشاعر كعادته دائماً في نقل مايدور بنفسه من قلق وحيرة وهمّ لبعد سيف الدولة ، واستطاع أن يكسر فيها ذلك الحاجز النفسي الذي منعه من العودة والرجوع إلى سيف الدولة ثانية ، واستطاع أن يتخلص فيها إلى مدحه أحسن تخلص ، وأنْ يقاسمه المدحة بذكاء وفطنة .

وبعد ،

فإنّ هذه القصائد تكشف لنا الأسباب النفسية الكامنة خلف إبداعها ، وأثر «اللاشعور» في خلق صورة الشعرية ، التي وظفها توظيفاً دقيقاً في خدمة موقفه رافضاً ومستسلماً . فقد استطاع المتنبي ، بما يمتلك من أدوات فنية متعددة ، وحس إنساني مرهف ، أن يتسامى بعواطفه إلى طرح همه النفسي ، مؤكداً مشروعية قصائده ، وأصالتها الفنية .

ABSTRACT

This paper attempts at establishing a methodological perspective to study Al-Mutanabbi's two poems: (Al-Mimiyya and Al-Lamiyya). An effort is made to make use of the findings of research in psychoanalysis)concerning some psychological factors contributing to literary creation.

The study is also concerned with image formation in these two poems attempting to explore their reference frame work and the ability of the poet to extract from his subconscious intellectual and cultural reservoir and how he employs this reservoir at the right moment.



جوانب
من النظام الصوتي في اللغات السامية
(الصوامت)

الدكتور

محمد جبار المعيبد

كلية التربية — جامعة البصرة .

اللغات السامية ، هي مجموعة لغات كانت لغة الكلام لأقوام سكنـوا ، منذ الالف الثالث قبل الميلاد ، المنطقة المحصورة بين جنوب غرب آسيا وبعض المناطق الشرقية من افريقيا . وبعبارة أوضح : المنطقة العربيـة من الجانب الاسيوي وأثيوبيا من الجانب الافريقي .

اعتاد دارسو الساميات ، تقسيم هذه اللغات تقسيماً جغرافياً لغوياً الى :

١ — اللغات السامية الشمالية وتتفرع الى :

أ — اللغات السامية الشمالية الشرقية ، وتمثلها اللغة الاكدية (بلهجتيها الاشورية — البابلية) .

ب — اللغات السامية الشمالية الغربية ، وتمثلهـا اللغة الكنعانية (الاوغاريتية والعربية والفينيقية)والارامية (السريانية) .

٢ — اللغات السامية الجنوبية ، وتتفرع الى :

أ — العربية (لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ومابعدهما) .

ب — اللغة العربية الجنوبية (لغة النقوش / المسند)واللغة الأثيوبية (الجعزية القديمة ، ولهجاتها الحديثة) .

هذا التقسيم الجغرافي للغات السامية لايعني وجود صفات لغوية تميـــز مجموعة عن أخرى ، وأنما نجد أحياناً العكس ، وهو وجود لغة في

مجموعة من هذه المجموعات تختلف اختلافاً كبيراً عن شقيقاتها في المجموعة نفسها ، وتتفق اتفاقاً كبيراً أيضاً مع لغة في مجموعة أخرى .

هذه اللغات انقرض أكثرها منذ زمن بعيد ولم يعد لغة للكلام . واللغة الوحيدة التي بقيت محتفظة بحيويتها اللغوية وصفاتها السامية وثروتها اللغوية من الألفاظ هي اللغة العربية .

أما اللغات الأخرى من الساميات التي نعتها الدارسون بأنها لغات حية ولها متكلمون الان ، فاللغتان العبرية والاثيوبية ، فضلاعن بعض لهجات الارامية (السريانية) ولهجات العربية الجنوبية الحديثة .

والعبرية الحديثة لاصلة لها — في كثير من خصائصها اللغوية ومفرداتها واصواتها — بعبرية التوراة ، فهي لغة لم تكن لغة كلام منذ أكثر من ألف عام ، وانما كانت لغة طقوس وشروح دينية ولم تكن لغة حياة .

واللغة الأثيوبية (الجعزية) كانت لغة للكلام في أثيوبيا حتى القرن الثاني عشر ، أو الثالث عشر الميلادي (1) ، حلت بعدها لغات سامية اخرى متفرعة عنها هي : الأمهرية والتيكرية والتيكرينية ، وغيرها ، وصارت الأمهرية فيما بعد اللغة الرسمية للبلاد ، مما أبعد (الجعزية) اللغة القديمة عن أن تكون لغة الكلام ، وأنما صارت لغة طقوس دينية .

حينما تعمق دارسو الساميات في هذه اللغات ، افترضوا لها أصلا واحدا — كما في اللغات الأوربية — تفرعت عنه بقية اللغات ، وهذا الأصل سموه : اللغة السامية الأم Proto-Semitic . وبدؤا من خلال هذا الافتراض تلمس الخصائص اللغوية لهذا الأصل من خلال اللغات التي وصلت الينا ، أو التي عثر على نقوشها ، أو آثارها اللغوية المكتوبة . ولسنا هنا بصدد التعرض لهذه الخصائص اللغوية في السامية الام ، أو في اللغات

(1) Leslau (1970) P. 467

السامية الأخرى ، وانما يهمنا جانب واحد منها هو : الاصوات ، أو النظام الصوتي في السامية الام وماتفرع عنها من لغات :

أتفق معظم دارسي الساميات (٢) على افتراض نظام صوتي واحد للسامية الام يتألف من الأصوات (الصوامت — Consonant) الآتية :

١ — الأصوات الشفوية

(أ) صوتان انفجاريان (شديدان) ، أولهما مهموس (پ — p) وثانيهما مجهور (ب) .

(ب) صوت انفجاري (شديد) — شفوي / أنفي ، مجهور هو (م).

٢ — أصوات مابين الاسنان

(أ) صوتان احتكاكيان (رخوان) ؛ أولهما مهموس (ث) وثانيهما مجهور (ذ) .

(ب) صوت جانبي مطبق مجهور (ض) .

(ج) صوت مطبق (غير جانبي) مهموس (ظ) .

٣ — الأصوات الاسنانية

(أ) صوتان انفجاريان (شديدان) ، أولهما مهمـــوس (ت) وثانيهما مجهور (د) .

(ب) صوت انفجاري مهموس مطبق (ط) .

(ج) أصوات احتكاكية (رخوة) :

(الاول) مهموس يتكون من وضع طرف اللسان عند حافـــة الاسنان (س)

(الثاني) مهموس يتكون من وضع طرف اللسان عند اللثة ، مع تقعر بسيط في مؤخرته (صوت بين السين والشين) .

---

(٢) انظر : بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٣٩ ، وكانتينو ، دروس في علم أصـــوات العربية ٢٦ — ٢٧و Cray, L.H. (1934) P.8; Moscati,S. (1964), P.24.

(الثالث) صوت مهموس ، كالسابق ، مع شدة في التقعر (ش) .

(الرابع) صوت لثوي – غاري ، احتكاكي ، مهموس – مطبق (ص) .

(الخامس) صوت احتكاكي ، مهموس غير مطبق (ز) .

(د) صوت أنفي (ن) .

(ه) صوت جانبي (ل) .

(و) صوت متردد (مكرر) (ر) .

٤ – الاصوات الطبقية (اللهوية)

(أ) صوتان انفجاريان (شديدان) ، اولهما مهموس (ك) ،وثانيهما مجهور (گ – g).

(ب) صوت انفجاري (شديد) ، مهموس مطبق (ق)

(ج) صوتان احتكاكيان ،أولهما مهموس (خ) ،وثانيهما مجهور (غ).

٥ – الاصوات الحلقية (البلعومية)

(أ) صوتان احتكاكيان (رخوان) ، أولهما مهموس (ح) وثانيهما مجهور (ع) .

٦ – الأصوات الحنجرية

(أ) صوت انفجاري (شديد) مهموس (الهمزة)

(ب) صوت احتكاكي (رخو) مهموس (ه) .

٧ – الأصوات شبه الصامتة (أنصاف المدّ)

(أ) صوت احتكاكي شفوي (و) .

(ب) صوت غاري (ي) .

استند افتراض هذا النظام الصوتي للغة السامية الأم على دراسات مقارنة لما وصل الينا من الاثار المكتوبة للغات السامية المذكورة آنفاً . وانتهى — هذا الافتراض — الى وجود تسعة وعشرين صوتاً ، هي مجموع الاصوات التي مرت ، واذا أجرينا مقارنة بين أصوات السامية الأم وأصوات اللغات (اللهجات) التي تفرعت عنها ، فنصل الى ما يأتي :

١ — **العربية** : فيها ثمانية وعشرون صوتاً ، تفتقد الى الصوت الصفيري (بين السين والشين) . وتطور فيها صوتان هما :

(گ — g ← ج) و (پ — p ——← ف) .

٢ — **العربية الجنوبية (لغة النقوش)** : فيها تسعة وعشرون صوتاً وهي أكمل اللغات السامية أصواتاً . فيها صوت واحد متطور عن السامية الام هو : (پ — p ——← ف) .

٣ — **الأوغاريتية** : فيها ثمانية وعشرون صوتاً ، وتفتقد الى صوت(الضاد) فقط من بين أصوات السامية الأم .

٤ — **الأكدية** : فيها عشرون صوتاً فقط ، وهي أقل اللغات السامية أصواتاً وتفتقد الى مجموعة أصوات مابين الاسنان ، (ث — ذ — ظ — ض) والصوت الصفيري (بين السين والشين) ، والصوت الطبقي (غ) ، وأصوات الحلق (ح ، ع) ، والصوت الحنجري (ه) .

٥ — **الحبشية الجعزية** : فيها خمسة وعشرون صوتاً . وتفتقد الى اصوات مابين الاسنان (ث — ذ — ظ) والى الصوت الصفيري (بين السين والشين) ، والصوت الطبقي (غ) وتطور فيها (پ — p ——← ف)

٦ — **العبرية** : فيها ثلاثة وعشرون صوتاً ، وتفتقد الى اصوات مابين الاسنان (ث) و (ذ) و (ظ) و (ض) ، والصوتين الطبقيين (خ) ، (غ) .

٧ – **الفينيقية** : فيها ثلاثة وعشرون صوتاً ، وتتفق مع العبرية في فقدانها الاصوات المذكورة أعلاه .

٨ – **الارامية** : فيها ثلاثة وعشرون صوتاً ،وتتفق مع العبرية والفينيقية في فقدانها أصوات مابين الأسنان و الاصوات الطبقية ، ولكنها فقدت الصوت الصفيري (بين السين والشين) في مرحلة متقدمة .

الاصوات المشتركة بين اللغات السامية ، المار ذكرها ، سبعة عشر صوتاً هي (الهمزة – ب – ت – د – ر – ز – س – ش – ص – ط – ق – ك – ل – م – ن – و – ي) . وهناك اربعة اصوات تتردد في هذه اللغات كافة ، باستثناء لغة واحدة ، كالـ(گ – g) مثلا لا يرد في اللغة العربية ، والـ(ع – ح – هـ) لا ترد في اللغة الأكدية .

لذلك سنؤكد في حديثنا التالي على الاصوات غير المشتركة بين هذه اللغات ، لا سيما تلك التي حدث فيها تطور وتبدل .

١ – **الاصوات الشفوية**

مر بنا أن في السامية الام ثلاثة اصوات شفوية هي : (الميم ، والباء ، والپاء – p) . الصوتان الاولان موجودان في اللغات السامية كافة . أمّا الصوت الثالث الشفوي المهموس فقد حدث فيه تطور في اللغتين العربيـة والعربية الجنوبية ، فأصبح صوتاً احتكاكياً اسنانياً شفوياً هو : صوت (الفاء) وقد حدث التطور نفسه في الاثيوبية (الجعزية) ، لكن وجد فيها إلى جانب الصوت الجديد (الفاء) صوت الپاء المهموسة الذي يبدو انه دخلها بتأثير اللغات الافريقية المجاورة (الكوشية) والامثلة الآتية توضح ما تقدم :

الأكدية (٣) : پو pū ——←فم وفو (في العربية) و (العربية الجنوبية)(٤)

الاوغاريتية (٥) : پحل phl ——←فحل (في العربية) .

(3) Kiemshneider (1978) Part 11, P. 23

(4) Rossini, K. (1931) P. 217.

(5) Gordon, C.H. (1965) P. 467.

العبرية (٦) : پاصل Psl ← فَصَل (في العربية) ، و (العربية الجنوبية) (٧)
الفينيقية (٨) : پتح Pth ← فتح (في العربية) ، و (العربية الجنوبية) (٩)
الارامية (١٠) : پحد Phd ← فخذ (في العربية) ، و (العربية الجنوبية) (١١)
الاثيوبية (١٢) : فحم Fhm ← فحم (في العربية) .

٢ـ أصوات مابين الاسنان

هذه السلسلة من الاصوات (التاء والذال والظاء والضاد) احتفظت بها العربية والعربية الجنوبية كاملة ، واحتفظت الأوغاريتية بالثلاثة الاولى منها وفقدت من بقية اللغات السامية .

وقد رجح بروكلمان (١٣) فقدانها من اللغة الارامية رمزاً وكتابة «وهو ان تلك الاصوات كانت لاتزال تحتفظ بالنطق الأصلي غير أن الآراميين عندما اخذوا الابجدية الكنعانية ، رمزوا للأصوات التي في لغتهم وليست في الكنعانية ، بأقرب رموز الكنعانية اليها» .

ويمكن تبني السبب نفسه في فقدان الاكديين هذه الاصوات عندما استعملوا رموز اللغة السومرية في التعبير عن الاصوات الاكدية المذكورة .

---

(6) Gesenius, W. (1977) P. 822.

(٧) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ٤٧

(8) Harris, Z. (1936) P. 139.

(٩) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ٤٧

Rossini,K. (1931) P. 221; Jame, W.F. (1962) P. 446.

(10) Cook, S.A. (1898) P.97.

(١١) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ٤٣

(12) Gordon,C.H. (1965) P. 467

(١٣) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٥٠

أ ـ الثاء

يرد هذا الصوت في الاوغاريتية والعربية والعربية الجنوبية ويعبر عنه في اللغات التي فقدته اما بالشين (الاكدية، والعبرية والارامية المتقدمة) (١٤)، وأما بالتاء (في الارامية المتأخرة) (١٥) وأما بالسين والتاء (في الجعزية)(١٦)

ففي الاكدية (١٧) : ثلاث ←—— شلش Shalash

وشلاشت Shalàsht

والعبرية (١٨) : ثلاث ←—— شالوش Shalûsh

والارامية : ثلاث ←—— شلشا Shalsha (١٩)

وتلاتا talàta (٢٠)

والجعزية (٢١) : ثور ←—— سور Sawr او تور tawr

توم ←—— سوم uSm او توما tuma

والفينيقية (٢٢) : ثلاث ←—— شلش Shalsh

(ب) الذال

هذا الصوت من الاصوات الاصيلة المفترضة في اللغة السامية الام. لايرد الافي ثلاث لغات سامية فقط، هي : العربية، والعربية الجنوبية والأوغاريتية، التي تتباعد جغرافياً وزمنياً.

---

(14) Coxon,P.W. (1979) P.15.

(١٥) المصدر نفسه

(16) Leslau,W, (1958), P.155.

(17) Riemschneider (1978) Part II ,P.30.

(18) Gesenius,W (1977) P.1025.

(19) Cook,S.A. (1889) P.114.

(20) Cook,S.A. (1898) P.121; Gesenius,W. (1977) P.1025.

(21) Leslau,W. (1958) P.155.

(22) Harris,Z. (1936) P.150.

هذا الصوت اصبح يعبر عنه في اللغات التي فقدته بصوت آخر اقرب الى الذال مخرجا او صفة . ففي الاكدية والعبرية والاثيوبية صار (زايا) ، وفي الارامية (دالا) او (زايا) كما في هذه الامثلة :

ففي الاكدية (٢٣) : أذن ← اوزنو uznu

والعبرية (٢٤) : أذن ← او زن ozen

والفينيقية (٢٥) : ذبح ← زبح zbh

والارامية (٢٦) : اذن ← أدنا edna (٢٧)

ذكر ← زكر zkr ؟

والاثيوبية (٢٨) : اذن ← ازن əzen

على اننا نجد احياناً هذا الصوت – الذال – يصبح دالا في الاوغاريتية (فخذ ← بخد phd) (٢٩) ، كما تصبح (الذال) (دالا) في الاكدية إلى جانب الزاي (فخذ ← بوخادو puhadu (٣٠)

الظاء

على الرغم من تأكيد الدارسين للساميات وجود هذا الصوت في اللغة السامية الأم ، فانه لم يبق الا في ثلاث لغات هي : الاوغاريتية ، والعربية ، والعربية الجنوبية . وأبدل باصوات مقاربة له في المخرج او الصفة في اللغات الاخرى. ففي الأكدية والعبرية والفينيقية والاثيوبية تحول إلى صوت (الصاد) ، وانفردت الارامية بتحوله إلى صوت (الطاء) ، كما في الامثلة التالية :

---

(23) Gesenius,W. (1977) P.23.

(٢٤) المصدر نفسه

(25) Harris,Z. (1936) P.98.

(26) Rowly,H. (1929), R.20.

(٢٧) المصدر السابق ص ١٨

(28) Gesenius,W. (1977), P.23.

(29) Gordon, C.H. (1965) P.467.

(٣٠) المصدر السابق

الأكدية (٣١) : ظأن ← صينو senu
الأوغاريتية (٣٢) : ظبي ← ظبي zby
العبرية (٣٣) : ظفر ← صپر spr
الارامية (٣٤) : ظفر ← طپار tpr
الاثيوبية (٣٥) : ظل ← صلا لوت Selàlôt

الضاد

لم يبق رمز لهذا الصوت الا في ثلاث لغات سامية ، هي العربية والعربية الجنوبية والاثيوبية (الجعزية) . وكما مر من قبل فان دارسي الساميات افترضوا مخرج هذا الصوت في السامية الام من بين الاسنان ، كالظاء لكنه يختلف عن هذا بأنه مجهور ، واطباقه جانبي (اطباق حافة اللسان الى الاضراس) ، بينما الظاء مهموس ، واطباقه غير جانبي (ظهر اللسان مع الحنك الأعلى) .

هذا الصوت — الضاد — لم يعد موجوداً لا رمزاً ، ولا نطقاً في الاثيوبية الحديثة (الأمهرية) . وانفردت العربية بوجود رمزه في العربية الفصحى (القديمة) والعربية الفصحى (الحديثة) . والوصف الذي وصل الينا عن مخرج الضاد القديمة عند سيبويه (٣٦) ومن بعده لاينطبق مع افتراض الدارسين الساميين ووصفهم اياه في السامية الام . فمخرجه عند سيبويه ليس من بين الاسنان وانما من بين اول حافة اللسان وما يليه من الاضراس، اما

(31) Riemschneider (1978) Part II,P.28.
(32) Gordon,C.H. (1965) P.407.
(33) Gesenius,W. (1977) P.862
(34) Rowley,H. (1929) P.29. المصدر السابق ، و
(35) Moscati, S. (1964) P.28.

(٣٦) الكتاب ٤ / ٤٣٣

في العربية الفصحى (الحديثة) فان رمزه الكتابي موجود لكن مخـرجـه يختلف عما وصفه سيبويه ، فصار ينطق في بعض اللهجات (ظاء) في حين ينطق في لهجات اخرى (دالا) مفخمة ، وهذا يوصلنا الى نتيجة هي : ان صوت الضاد لم يعد موجوداً في العربية صوتا ، وبفقدانه من العربية فقـد من آخر لغة سامية احتفظت به .

اما في اللغات الاخرى ، فان الضاد فقد من نظامها الصوتي وابدل بآخر او أكثر . فقد صار (صادا) في الاكدية والاوغاريتية والعبرية والفينيقية، كما في الامثلة التالية :

الأكدية (٣٧) : مَرَضَ ←—— مرصو mursu

الأوغاريتية (٣٨) : مَرَض ←—— مرص mrs

العبرية (٣٩) : ضـلـع ←—— صلع SL c

الفينيقية (٤٠) : أرضـ ←—— أرص ᵓrs

اما في اللغة الارامية ولهجاتها ، فأن الضاد أخذ مسارا آخر يختلف عـن بقية اللغات السامية ،فقد صار (قافا) في أقدم النقوش الارامية ،و (عينا) في النقوش المتأخرة ،ففي نقوش القرنين الثامن والتاسع ق .م مثل له برمز (القاف) ، كما في الامثلة التالية :

مرض ←— مرق (٤١) mrq

أرض ←— أرقا (٤٢) ᵓrqa

---

(37) Riemschneider (1978) Part II, P.19.
(38) Gordon, C.H. (1965) P. 474.
(39) Gesenius,W. (1977) P.854.
(40) Harris,Z. (1936) P.81
(41) Muaibed, M.J. (1983) P.23.

(٤٢) المصدر السابق

وفي نقوش القرن الخامس ق . م نجد الضاد السامية تمثل برمز (العين) مرة وبرمز (القاف) أخرى ،جنباً الى جنب في نقش واحد (٤٣) .وبدءاً من نهاية القرن الخامس ق.م وما بعده صار يرمز لهذا الصوت برمز (العين) فقط ،وباستثناء نقوش اللغة الندائية التي حافظت على صوت (القاف) ممثلا للضاد السامية (٤٤) . في حين حافظت السريانية على صوت العين بديلا عن الضاد . وهناك استثناءات لايعتد بها كانت فيها الضاد أو الجيم (كً — g) ممثلة لصوت الضاد (٤٥) .

اما في اللغة الاثيوبية القديمة (الجعزية) فان هناك رمزاً لصوت الضاد لكننا — كما يقول ليسلو (٤٦)— لانعرف تماماً النطق الاصلي له في هذه اللغة ، لاسيما ان نطق رجال الدين الان للضاد في الجعزية هو كالصاد . أما في اللغات الحديثة (الأمهرية والهرارية والتيكرية والتيكريتية) فلم يعد موجوداً فيها ، وتحول الى صوت آخر كالدال والصاد (٤٧) .

٣ — الاصوات الاسنانية

هذه السلسلة من الأصوات المؤلفة من احد عشر صوتاً : جميعها —باستثناء واحد — موجودة في هذه اللغات كلها .هذا الصوت المستثنى هو احد الاصوات الصفيرية الذي وجد في أصوات وفقد من أخرى .

فمن خلال ما تقدم من عرض للاصوات الاسنانية في النظام الصوتي للسامية الأم ، وجدنا افتراضاً قائماً على استقراء ما تبقى من اللغات السامية

(43) Sayce,A.H.(1906)No.B:15('ra); 16(rqa); Cowley,A(1923)No·6:15('rqa), 16 ('r a).

(44) Fleisch,H. "Dad", EI, II, P.75; cf. Drower, E.S. and Macuch, R. (1963) P. 39 ('rqa).

(45) Muaibed, M.J. (1983) PP. 25–26.

(46) Leslau,W. (1958) P.148.

(47) Muaibed,M.J. (1983) P.3

الحية منها والمنقرضة ، يذهب الى وجود ثلاثة أصوات صفيرية احتكاكية (رخوة) مهموسة ، هي : س (١) و س (٢) و ش .

السين الأولى يمكن عدها سينا خالصة لانها تقابل صوت السين في كل هذه اللغات ، ولا تقع موقع غيرها في الابدال الصوتي . اما السين الثانية فهي صوت بين السين والشين .

إن اللغات السامية التي احتفظت بثلاثة رموز لهذه الاصوات الثلاثة هي : العبرية (ومعها الفينيقية والارامية القديمة) والأوغاريتية والعربية الجنوبية. العبرية رمزت بالرمز (ש) للسين والشين معاً ، مع اختلاف في التنقيط يميناً او يساراً . ورمزت للسين الثانية برمز يسمى السامخ (ס) أما العربية الجنوبية ففيها الرموز : س (١) ሐ ، وس (٢) >> .

والشين Ʃ . والأوغاريتية فيها رمزان بالحروف المسمارية للسين وثالث لصوت الشين .

يقابل هذا الثالوث الصفيري صوتان في بقية اللغات السامية هما : السين والشين ، أدى هذا الاختلاف في عدد الأصوات الصفيرية الى حدوث تبدل صوتي بين السين والشين ، مما جعل بعض الجذور اللغوية ترد بالسين في لغات ، وبالشين في لغات اخرى ، ولم يحسم الخلاف بين الباحثين حول هذا التبادل الصوتي بين الأصوات الثلاثة حتى الان (٤٨) ، وان كانت اللغة العربية الحديثة قد وحدت هذا الثالوث الصفيري بصوتين هما : السين والشين (٤٩) .

---

(48) Stehale,D. (1940), PP. 509-38; Beeston, A.f.L. (1951), PP. 1-26; Lasor, W.S. (1957), PP. 161-73.

(٤٩) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٥٠

ويمكن ملاحظة هذا التبادل من خلال الامثلة التالية

الكلمة	العربية	العربية الجنوبية	الاثيوبية	العبرية	الاكدية	الأوغاريتية
خمس	خمس	خمس (٥٠)	خمس (٥١)	حامش (٥٢)	خامشو (٥٣)	خمش (٥٤)
سبع	سبع	سبع (٥٥)	سابعو (٥٦)	شبيع (٥٧)	سيبي (٥٨)	شبع (٥٩)
منّ	منّ	منّ (٦٠)	—	شن (٦١)	شنو (٦٢)	—
شمس	شمس	شمس (٦٣)	—	شمش (٦٤)	شمشو (٦٥)	شيمش (٦٦)

(٥٠) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ٦١

(51) Gesenius,W. (1977) P.331.

(٥٢) المصدر السابق

(53) Gelb, I.J. (1957), P.129; Gesenius,W. (1977), P. 331.

(54) Gordon,C.H. (1965), PP. 402-3.

(٥٥) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ١٢٣

(٥٦) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٥٢

(57) Gesenius,W. (1977), P.987.

(٥٨) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ١٠٥

(59) Gordon,C.H. (1965), P. 487.

(٦٠) قارن ، بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ٢٧

(61) Gesenius,W. (1977), P.1042.

(62) Riemscheneider, (1978), Part II,P. 32; Giib, I.J. (1957), P. 279

(٦٣) بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ١٢٣

(64) Gesenius,W. (1977), P. 1039.

(65) Gelb,I.J. (1957), P.276.

(66) Gordon,C.M. (1965), P.493.

٤ ــ الأصوات الطبقية (اللهوية)

خمسة أصوات تخرج من هذا الحيز ، هي :

(ك) و (ق) و (كً ــ g) و (خ)و (غ) .

الصوتان الأولان يردان في اللغات السامية كافة ، وسنقصر حديثنا على الاصوات الثلاثة الأخرى :

١ ــ كً ← ج (الجيم)

صوت الجيم العربي صوت فريد بين أصوات اللغات السامية ، وهو متطور عن (كً ــ g) السامي في زمن متقدم من أزمان ماقبل الاسلام اذ نجد سيبويه ، حينما يتكلم عن الاصوات العربية ومخارجها وصفاتها نجده يذكر هذا الصوت على انه الصوت الأصيل في العربية ، وان هناك صوتاً فرعياً آخر ، بين الجيم والكاف ، عده صوتاً غير مستحسن في لغة من ترتضى عربيته كما لايستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر (٦٧) وهذا الصوت الفرعي هو الصوت السامي (كً ــ) . ويبدو أنه كان صوتاً شائعاً عند سكان العراق في القرنين الاولين بعد الاسلام . كما يبدو ان آثاره ظلت حتى القرن السادس الهجري في بغداد (٦٨) ، فضلا عن كونه الصوت البديل عن الجيم العربية في العامية المصرية ولا سيما القاهرية ، والعامية اليمنية .

التطور الذي حدث هو « تحول نطق هذا الصوت من الطبق الى الغار ، اي من أقصى الحنك الى وسطه . (٦٩) كما تغيرت صفته من الانفجارية (الشديدة) الى الاحتكاكية (الرخوة) .

(٦٧) سيبويه ، الكتاب ٤٣٢/٤

(٦٨) ابن الجوزي ، تقويم اللسان ، مقدمة المحقق ٥٢

(٦٩) د. رمضان عبد التواب ، المدخل الى علم اللغة ٢٢١

٢ ــ الخاء

الخاء من الأصوات الطبقية ، ويرد في معظم اللغات السامية ، بأستثناء العبرية والارامية والفينيقية ، وهذه اللغات تشكل الجزء الغربي من اللغات السامية الشمالية . وتتفق الى حد كبير في نظامها الصوتي وعدد اصواتها . وتعبر هذه اللغات الثلاث عن (الخاء) بصوت آخر هو (الحاء).

ففي العبرية (٧٠) والارامية (٧١) : أخ ← أح ɔah.

والفينيقية (٧٢) : طبخ ← طبح tbh

وعلى الرغم من وجود (الخاء) في الجعزية الاثيوبية ، الا انه يعبر عنه في الأمهرية بصوت (الهاء) (٧٣) ، أو بصوت له قيمة الخاء في الألفاظ الدخيلة من العربية الى الامهرية (٧٤) .

٣ ــ الغين

يرد هذا الصوت في العربية والعربية الجنوبية والأوغاريتية فقط . وقد انكر دارس الساميات (Ruzicka (٧٥)) وجود هذا الصوت في السامية الام واللغات السامية الأخرى باستثناء اللغة العربية ، ذاهباً إلى ان هذا الصوت ناشىء في العربية عن صوت العين. ووجوده في العربية الجنوبية ما هو الامتداد لظاهرة وجوده في العربية. اما في الأوغاريتية فقد وجد رمز الغين مطابقاً في بعض النقوش لرمز العين ، مما دفعه إلى انكار هذا الصوت في السامية الام والساميات الأخرى . لكن تطابق الجذور اللغوية لكثير من الألفاظ العربية والأوغاريتية التي يكون فيها الغين صوتاً اساسياً، والتي تحمل

(70) Gesenius,W. (1977), P.26.

(٧١) المصدر نفسه

(72) Harris,Z. (1936), P.105.

(٧٣) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٤٨

(74) O'Leary, De Lacy (1923), P. 44.

(75) (Ruzicka) , Moscati (1964) PP. 38-9

الدلالة نفسها ، يضعف هذا الانكار (٧٦) ، لا سيما ان اللغة الاوغاريتية هي أقدم اللغات السامية الشمالية الغربية .

يعبّر عن هذا الصوت في اللغات السامية الأخرى التي فقدته بما يأتي :

١ – في الاكدية ، حيث لا يوجد صوت العين ، فان الغين يعبر عنه بصوت الهمزة ، القريبة مخرجاً من صوت العين ، لاسيما في اول الألفاظ :

غار (شجر) ← غارو ← ايرو eru (٧٧)

وقد يعبّر عنه بالخاء اذا كانت الغين في وسط اللفظة :

صغير ← صخيرو ← sehéru (٧٨)

٢ – في العبرية والفينيقية والارامية يعبّر عنه بصوت العين . بينما يعبّر عنه في الاثيوبية برمز القاف :

العبرية : غروب ← عيرب carab (٧٩)

الفينيقية : غَرفة ← عرفة عربة carpt (٨٠)

الارامية : غراب ← عوربا curba (٨٠ – أ)

الاثيوبية : بلغم ← بلقم balqam (٨٠ – ب)

٥ – الأصوات الحلقية والحنجرية

تتميّز اللغات السامية ، عن غيرها من اللغات ، بوفرة اصوات الحلق والحنجرة ، وهي اربعة اصوات :

---

(76) Gordon,C.H. (1965), PP. 463–5; Al-Yasin, Izz al-Din (1952) PP. 88–9.

(٧٧) طه باقر ، من تراثنا اللغوي ١١٨

(78) Reim schneider, (1978), P. 28.
(79) Gesenius,W. (1977), P.787.
(80) Harris, Z. (1936), P. 35.
(80–A) Gesenius,W. (1977), P. 788.
(80–b) Leslau,W. (1958), P. 156.

الحاء والعين والهمزة والهاء . وقد شذّت اللغة الأكدية عن اخواتها الساميات بفقدانها هذه الاصوات ، باستثناء الهمزة ، فضلا عن فقدانها الصوت الطبقي (الغين) ، المار ذكره. لذا سنقصر حديثنا على هذه الأصوات ، دون غيرها :

أ ـ الحاء

١ ـ مثل صوت الحاء ، عند فقدانه ، في الاكدية صوتاً او اصواتاً اخرى قريبة من مخرجه ، هي : الخاء والهمزة ، واحياناً صوت الياء ، كما في الامثلة التالية :

فتح ←	بتاؤم	pataum	(٨١)
فتحه ←	بتخو	pithu	(٨٢)
نحن ←	نينو	ninu	(٨٣)
حمار ←	اميرو	iméru	(٨٤)
حقل ←	ايقلو	eqlu	(٨٥)
ملّاح ←	ملاخو	malahu	(٨٦)

٢ ـ كانت الحاء ممثلة في اصوات الحبشية القديمة (الجعزية) ، لكنها اختفت من الأمهرية الحديثة وصارت تنطق هاء او همزة في اول الكلمة (٨٧).

(81) Gelb, I.J. (1957), P. 219.

(82) Riemschneider, (1978), P.17.

(٨٣) المصدر السابق ٢٣

(84) Mercer,S. (1961), P.9

(٨٥) المصدر السابق ١١

(86) Riemschneider, (1978), P.17.

(87) O'Leary, De Lacy, (1923) P.44;

ب ـ العين

١ ـ فقد صوت العين من اللغة الاكدية ، كما سبقت الاشارة ، وان كان بعض الباحثين يرجح وجوده في الأكدية القديمة (٨٨) ، وقد عزا الباحثون (٨٩) هذا الفقدان إلى تأثر الاكدية بخط اللغة السومرية التي تفتقد الى صوت العين (٩٠) . هذا الصوت المفقود صار اما همزة او فقد تماماً من غير ان يعبر عنه بصوت آخر (٩١) كما في الأمثلة الآتية :

عَمّ ← إمو emu (٩٢)
أربع ← إربو erbū (٩٣) او : ريبو rebu (٩٤)
راعي ← ريأو réɔu (٩٥)
عين ← إنو Tnu (٩٦)

٢ ـ في اللغة البوتانية المتأخرة ، احدى اللهجات الفينيقية ، صارت (العين) اما ضعيفة واما فقدت تماماً او عبّر عنها بالهمزة (٩٧) كما يعبّر عنها احياناً بصوت (الحاء) او (الهاء) (٩٨) .

٣ ـ كانت العين ممثلة في اصوات اللغة الاثيوبية (الجعزية) ، لكنها فقدت في اللغة الأمهرية الحديثة ، وعبر عنها بصوت الهمزة (٩٩) .

---

(٨٧) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٤٨

(88) Riemschneider, (1978), PP. 5-6.

(٨٩) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ١٦ و Moscati,S. (1964), P.41.

(٩٠) د. فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ٣٨

(91) Moscati,S. (1964), P.41.

(92) Riemschneider (1978), P.8.

(٩٣) المصدر نفسه ٩

(٩٤) المصدر نفسه ٢٦

(٩٥) المصدر نفسه ٢٦

(٩٦) المصدر نفسه ١٢

(٩٧) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٤٨

(97) Hariss,Z. (1936), P. 62;

(٩٨) المصدران السابقان ، وفي الاول منهما أمثلة على هذه التحولات

(99) O'Leary, De Lacy (1923), P.47.

ج – الهاء

هذا الصوت فقد من الاكدية ، كما يبدو ، في وقت مبكر ، يمكن القول انه لم يرمز اليه بصوت آخر لفقدان السومرية هذا الصوت أيضاً(١٠٠) . مُثّل صوت الهاء ، كما العين من قبل ، بالرمز اليه إما بصوت الهمزة ، او فقدانه من الكلام ، كما في الامثلة التالية :

هيكل	←	اكالو	ekàllu	(١٠١)
الـه	←	إلو	ilu	(١٠٢)
نهر	←	نارو	nàru	(١٠٣)
ظهر	←	صيرو	sérue	(١٠٤)

٦ – **الاصوات** شبه الصامتة

وأعني بـ (شبه الصامتة) الصوتين : الواو والياء ، في حالة كونهما صوتي مدّ ويُسلكان في التأليف الصوتي مسلك الصوامت ، كما يتبادلان المواقع مع الصوامت (١٠٥). من هذا المنطلق ادرجنا هذين الصوتين ضمن صوامت اللغات السامية التي تشكل صوتاً اساسياً في جذور الكلمة السامية ، الثلاثية بشكل خاص .

فبينما نجد في معجمات العربية والعربية الجنوبية (١٠٦) الفاظاً يشكل الواو والياء (فاءها) او (عينها) او (لامها) ، فان هذا الامر لا ينطبق على اللغات السامية الأخرى .

(١٠٠) د. فوزي رشيد ، قواعد السومرية ٣٨

(101) Mercer,S. (1961) P.11.

(١٠٢) المصدر السابق ٧

(103) Riemschneider (1978), P. 21; Gelb, I.J. (1957), P. 190.

(104) Riemschneider (1978), P. 28.

(١٠٥) د. غالب المطلبي ، في الاصوات اللغوية ، دراسة في اصوات المد العربية ٤٢

(١٠٦) انظر ، بيستون وآخرون ، المعجم السبئي ص ١٥٤ ومابعدها . Rossini, K. (1931), P. 134

ففي الأكدية ، ولهجاتها ، كان الواو موجوداً في اول اللفظ ، في اللغات البابلية القديمة والاشورية القديمة ، لكنها سقطت فيما بعد او تحولت إلى صوت الهمزة ، او عبّر عنها برمز الميم (١٠٧) .

أما الياء فقد اختفت ، كالواو ، من اول الكلمة في الغالب او اصبحت همزة (١٠٨) (يوم ——— أومو ūmu) كما اختفت من وسطها اذا كانت بعد صامت ، وبقيت اذا كانت بين صامتين ، حركتين قصيرتين (١٠٩) .

اما في اللغات السامية الشمالية الغربية ، فهناك خصيصة تطورية تميزت بها هذه اللغات هي تحول (الواو) إلى (ياء) في اول الكلمات (١١٠) مقارنة بالعربية والعربية الجنوبية .

ففي العبرية (١١١) والارامية (١١٢) والاوغاريتية (١١٣) ، تحولت (الواو) في اول الالفاظ إلى (ياء) ، باستثناء واو العطف وبعض الالفاظ القليلة ، كأسماء الاعلام . من ذلك :

وَقَدَ ← ياقد yāqad	(في العبرية) (١١٤)
ولَد ← يالاد yàlàd	(في العبرية) (١١٥)
ورث ← يرث yrth	(في الاوغاريتية) (١١٦)
وسن ← يشن yshn	(في الاوغاريتية) (١١٧)

(١٠٧) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ، ٥٢ و ، Moscati.S. (1964), P.45
(108) Moscati,S. (1964), P.45.
(١٠٩) بروكلمان ، فقه اللغات السامية ٥٢
(110) Moscati, S. (1964), P.46; O.Leary, De lacy (1923), P.65.
(111) O'Leary (1923), P.60; Cf. Gesenius, W. (1977), PP. 251-2.
(112) O'Leary, De Lacy, (1923), P.66.
(113) Gordon, C.H. (1965), PP. 392-3.
(114) Gesenoius,W. (1977), P.438.
(١١٥) المصدر السابق ٤٠٨
(116) Gordon, C.H. (1965), P. 45.
(١١٧) المصدر السابق

الخاتمة

من خلال ما تقدم يمكننا ان نطرح امام الباحث المختص باللغات السامية ونظامها الصوتي ، الملاحظات الآتية :

١ ـ اللغة الأكدية

هذه اللغة ، كما مر ، هي اقدم اللغات السامية التي عثر على نصوصها ونقوشها. وهذا القدم يدفع بالباحث إلى افتراض انها اقرب إلى اللغة السامية الأم عهدا . لكن هذا الافتراض لا يؤيده نظامها الصوتي الناقص، المؤلف من عشرين صوتاً ، فقد فقدت اصوات ما بين الأسنان (ث ، ذ ، ض ، ظ) كما فقدت الأصوات الطبقية والحلقية والحنجرية (غ ، ح ، ع ، ه) .

معظم الدارسين ذهبوا إلى ان الرموز (الكتابة) المعبرة عن اصوات الأكدية متأثرة بالرموز الكتابية السومرية . اي ان ما لم يعبر عنه من اصوات الاكدية السامية لا وجود له في اصوات السومرية ورموزها . وهذا يتفق إلى حد كبير مع النظام الصوتي في اللغة السومرية (١١٨) اذ تفتقد هذه اللغة الأصوات التي افتقدتها الاكدية .

هناك تفسيران (١١٩) لفقدان هذه الأصوات ،

الاول : ان هذه الاصوات تحولت ، في الاكدية ، في وقت مبكر قبل اتصالها وتأثرها باللغة السومرية .

الثاني : انها كانت تنطق كما في اللغة السامية الأم ، لكنها لم تدوّن ، لعدم وجود رمز لها . مما جعل الأكديين يستعملون الرموز الكتابية السومرية الخالية من هذه الاصوات ، معبرين بها عن اصواتهم السامية .

---

(١١٨) د. فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ٣٨

(119) Muaited, M.J. (1983), PP. 14-15.

والتفسير الثاني اكثر قبولا ، ولكنه يقودنا إلى تساؤل: هل نسي الاكديون نطقهم السامي لهذه الاصوات؟ الاحتمال الأكثر قبولا انهم نسوا هذا النطق، لأنهم لم يطوروا النظام الكتابي السومري وإيجاد بديل لهذه الأصوات المفقودة.

الاصوات الحلقية والطبقية المتبقية في الاكدية هي (الخاء) و (الهمزة) ، وبرمزي هذين الصوتين عبّر الاكديون عن اصوات الطبق والحلق والحنجرة امّا اصوات ما بين الاسنان ، فقد عبرت الاكدية عنها باصوات اسنانية، (ث ←ش) و (ذ ←ز) و (ظ وض← ص) .

٢ – اللغة الاوغاريتية

وهذه اللغة، على الرغم من كونها احدى اللغات الكنعانية ، الا انها تختلف عن شقيقاتها (العبرية والفينيقية) في نظامها الصوتي فهي – كما مر بنا – أكمل هذه اللغات اصواتاً ، وتفتقد إلى صوت واحد هو صوت (الضاد) ، عبرت عنه كتابياً برمز (الصاد) لكننا نجد استثناء ، في ما عثر من نصوص اوغاريتية (١٢٠) ، اذ مثلت الضاد كتابياً برمز الظاء وهذا التمثيل الكتابي (او الخلط) بين الضاد والظاء هو اقدم خلط بين هذين الصوتين وصل الينا في اللغات السامية ومن المحتمل ان يكون (الخلط الكتابي) اشارة إلى تقارب هذين الصوتين في المخرج في مرحلة متقدمة من تاريخ اللغة الاوغاريتية .

٣ – العبرية والفينيقية والارامية

يواجه الدارس، في هذه اللغات الثلاث، باستمرار فقدان اصوات ما بين الاسنان الاربعة (ث ، ذ ، ض ، ظ) ، والتعبير عنها كتابياً برموز اصوات (الشين والزاي والضاد) كما في اللغة الاكدية ، باستثناء الارامية . لكن هذه اللغات تختلف عن الاكدية بفقدانها الصوت الطبقي (الخاء) ،

(١٢٠) المصدر السابق ١٧

فضلاعن صوت (الغين) . وقد عبرت اللغات الثلاث عن الصوت الاول برمز (الحاء) ، كما عبرت عن الصوت الثاني برمز (العين) .

اما الارامية فقد خالفت اللغتين الاخريين في التعبير عن بعض اصوات بين الاسنان التي فقدتّها هي (الذال) و (الظاء) و (الضاد) ، اذ عبرت عن الصوت الأول برمز (الدال) ، وعن الصوت الثاني برمز (الطاء) وعن الصوت الثالث برمز (القاف) اولا وبرمز (العين) في مرحلة متأخرة .

٤ ــ العربية والعربية الجنوبية

هاتان اللغتان تتفقان اتفاقاً كبيراً في نظامهما الصوتي. والاختلاف الوحيد بينهما هو في وجود الاصوات الصفيرية الثلاثة في الجنوبية، في حين اقتصرت العربية على صوتين صفيريين هما: السين والشين ،وعلى الرغم من هذا الاختلاف فان الجذور المعجمية لمعظم الألفاظ التي تشكل من السين او الشين لا تختلف في اللغتين، مما يشير إلى: (١) انهما كانا في الأصل يشكلان لغة او فرعاً، من اللغة السامية الأم (٢) ان العربية كان فيها ثلاثة اصوات صفيرية في مرحلة متقدمة من تاريخها، ثم تخلصت من احد هذه الاصوات الثلاثة، وهو الصوت ما بين السين والشين ، في مرحلة لاحقة .

يؤيد ما تقدم ان الصوت الشفوي المهموس (پ ــ P) :في كلا اللغتين، تطور إلى صوت مقارب له في المخرج ومشابه في الصفة هو الصوت /الاسناني/ الشفوي المهموس (الفاء) . وهذا التطور لم يحدث في أية لغة سامية باستثناء الاثيوبية (الجعزية) المتأثرة إلى حد كبير بالعربية الجنوبية .

٥ ــ الاثيوبية (الجعزية)

كانت هذه اللغة في الاصل فرعاً من العربية الجنوبية ، نَواتُها سكان عرب هاجروا من اليمن إلى الجانب الافريقي الأخر في اثيوبيا وغيرها ، وحملوا معهم الكتابة الجنوبية (المسند) . لا بد ان يكون هذا الفرع مشابهاً للأصل في مرحلة متقدمة من تاريخ الجعزية .

ما وصل الينا من نقوش مكتوبة بهذه اللغة يكشف لنا عن اختلاف في نظامها الصوتي ، عن العربية الجنوبية . هذا الاختلاف يكمن في فقدان الاثيوبية اصوات ما بين الاسنان (الثاء والذال والظاء) فضلا عن الصوت الطبقي (الغين). إلى جانب وجود صوت (گ — g) فيها وعدم تطوره إلى صوت الجيم وبذلك تقترب هذه اللغة من اللغات السامية الشمالية، الغربية منها والشرقية باستثناء الاوغاريتية .

لكننا نجد فيها جوانب صوتية تُقرّبنا من اللغات الجنوبية: العربية والعربية الجنوبية. منها وجود صوت الضاد، وتطور الباء المهموسة (P) إلى صوت الفاء ، إلى جانب وجود هذه الباء (p) التي يظن ، كما أشرنا ، انها من تأثيرات اللغات الافريقية الكوشية .



مصادر البحث ومراجعه

أ- العربية

١ - ابن الجوزي - **تقويم اللسان**- تحقيق : د. عبد العزيز مطر .القاهرة (دار المعرفة) ٩ .

٢ - بروكلمان ، كارل - **فقه اللغات السامية** ترجمة د. رمضان عبد التواب ، منشورات جامعة الرياض ١٩٧٧ .

٣ - بيستون ، وريكمانز والغول وفولر - **المعجم السبئي** ،منشورات جامعة صنعاء ١٩٨٢ .

٤- رمضان عبد التواب - **المدخل الى علم اللغة**، القاهرة ،(الطبعة الثانية) ١٩٨٥ .

٥ - سيبويه- **الكتاب**-تحقيق :عبد السلام هارون،القاهرة ،(سلسلة تراثنا) ١٩٦٦ - ١٩٧٧ .

٦ - طه باقر - **من تراثنا اللغوي القديم**،منشورات المجمع العلمي العراقي ١٩٨٠ .

٧- غالب فاضل المطلبي - **في الاصوات اللغوية ،دراسة في اصوات المد العربية** . بغداد ، وزارة الاعلام (١٩٨٤) .

٨ - فوزي رشيد - **قواعد اللغة السومرية**، بغداد - وزارة الاعلام -١٩٧٢.

٩ - كانتينو ، جان - **دروس في علم أصوات العربية** -نقله الى العربية : صالح القرمادي ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٦٦ .

٢ــ المصادر الاجنبية

1- Peeston, A.F.L. (1951)

"Phonology of the Epigraphic South Arabian "Unvoiced Sibi-Lants", in Transactions of the Philological Society, (Oxford, U.K.)

2- Cook, S.A. (1898).

A Glossary of the Aramaic Inscriptions, (Cambridge, U.K)

3- Cowley, A. (1923)

Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C. (Oxford, U.K.)

4- Coxon, P.W. (1979)

"The Problem of Consonantal Mulations in Biblical Aramaic" in : ZDMG, vo. 129, pp. 8-22.

5- Drower, E.S. and Macuch, R. (1963)

A Mandaic Dictionary (Oxford, U.K)

6- FLeisch, H.

"Dad", in: EI2, II, P. 75.

7- Gelb, I.J. (1957)

Glossary of Old Akkadian (Chicago, U.S.A).

8- Gesenius, W. (1977)

Hebrew and English Lexicon of the Old Testament. (Trans. by: E. Robinson, Oxford, U.K.)

9- Gray, L.H. (1934)

Introduction to Semitic Comparative Linguistics (New York' U.S.A.)

10- Harris, Z. (1936)

A Grammar of the Phoenician Language.(New Haven, U.SA.)

11- Jamme, W.F. (1962)

Sabaen Inscriptions From Mahram Bibqis-Marib. (Baltimore U.S.A.)

12- LaSor,W.S. (1957)

"The Sibilants in Old South Arabic", in: JQR, p.p. 161-173.

3- Leslau, W. (1958)

"Arabic Loanwords in Geez", in: JSS, III, p.p. 146-68.

14- Leslau, W. (1970)
"**Ethiopic and South Arabian**", in: **Current Trends in Linguistics**: (Paris), VI, pp. 467-527.

15- Mercer, S.A.B. (1961)
Assyrain Grammar (New York, U.S.A.)

16- Moscati, S. (1964)
An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages: Phonology and Morphology (Wiesbaden, Germany)

17- O,Leary, De Lacy (1928)
Comparative Grammar of the Semitic Languages (London, U.K.)

18- Riemschneider (1978)
An Akkadian Grammar (Trans, by: Th. Caldwell, J.N. Oswalt and J.F. Sheen, Milwaukee, U.S.A.)

19- Rossini, K. (1931)
Chrestomathia Arabica Meridionalis Epigraphica (Rome).

20- Rowley, H. (1929)
The Aramaic of the Old Testament (Oxford, U.K.)

21- Sayce, A.H. (1906)
Aramaic Papyri Discovered at Assuan. (London, U.K.)

22- Stehale, D. (1940)
"**Sibilants and Emphatics in South Arabic in JAOS**, 60 pp 519-38

23- Yasin (AL-), Izz a-Din (1952).
The Lexical Relation Between Ugaritic and Arabic (New York. U.S.A



شخصية الرسول (ص) في شعر حسان بن ثابت

علي كمال الدين الفهادي
كلية الاداب / جامعة الموصل / قسم اللغة العربية

في البداية أود أن أشير الى اعتماد البحث على تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين لديوان حسان بن ثابت ؛ لأن المحقق عني عناية فائقة في رد الشعر الموضوع على الشاعر . كما أود أن أشير ايضاً الى تجنب البحث لكل الأشعار التي حامت حولها الشكوك ، والتي وردت في كتاب السيرة النبوية لابن هشام ولم يوثقها المحقق .

من المفيد أن نذكر ان حجم الشعر الذي تشرف بذكر الرسول (ص) من شعر حسان قليل إذا قيس بحجم الديوان الذي خلفه حسان ، لأن شعر العصر الجاهلي يخلو من ذكر الرسول خلوا تاماً ، أما الشعر الاسلامي فينشغل الشاعر فيه بالفخر بقومه ، وبهجاء المشركين ، فكان نصيب الرسول (ص) منه قليلا .

وعلى الرغم من قلة هذا الشعر الذي تناول الشاعر فيه الرسول (ص) فقد شهد اهتماماً كبيراً بهذه الشخصية الكريمة ، مما جعل الشاعر اهلا لأن يلقب بلقب (شاعر الرسول) .

ليس من السهل أن يتناول المرء بالدراسة عظيماً من عظماء التاريخ ، وقائداً من قادة الأمم الذين علا شأوهم في بناء صرح أممهم ، وشموخ أمجادها فما بالك بمن يكتب عن نبي غيّر مجرى التأريخ ووجه العالم ، وأقام للإنسانية صرحاً تفخر به البشرية وتعتز حتى يرث الله الارض ومن عليها ، إن الكتابة عن شخصية الرسول الكريم (ص) مهما بلغت من النضج

والعمق والشمول ، فلن تبلغ شيئاً يسيراً مما خطه الرحمن في محكم كتابه عندما رسم لنا تلك الشخصية بكل ابعادها ، الجثمانية والنفسية (١) تلك الشخصية التي اكتنفتها الرعاية الإلهية من صلب أدم حتى أشرقت في الوجود العربي لتخرج الأمة العربية من الظلام إلى النور يقول ابن هشام : «فشب رسول الله – صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريده من كرامته ورسالته ، حتى بلغ ان كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، واكرمهم حسباً ، واحسنهم جواراً واعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وابعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرماً ، حتى ماإسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة » (٢).

لقد استطاع الرسول (ص) أن يجمع من عناصر الشخصية القومية التي تؤهله لقيادة التاريخ ، ما جعله اهلا لحمل رسالة السماء الى الارض ، معتمداً في ذلك على الأمة التي أنجبته فغدت به وبرسالته خير أمة أخرجت للناس ، وكان خير إنسان لبني الإنسان « فكان محمد (ص) مستكملا للصفات التي لاغنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ : كانت له فصاحة اللسان واللغة .

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة .

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها (٣) .

ولعل من عوامل النجاح الكثيرة التي اكتنفت دعوته (ص) ، اعتماده على الشعر وسيلة من وسائل الدفاع والهجوم ، فقد خصص لدعوته أفضل شعراء الأنصار ، وعقد لواء القول الشعري لأعلاهم نفسا –حسان بن ثابت

---

(١) ينظر سيرة الرسول (ص) صور مقتبسة في القرآن . محمد عزة دروزه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ١٦٧/١ .

(٣) عبقرية محمد العقاد : ٢٠

الذي عرف شعره الأسلامي «بالغيرة الصادقة والحب العميق والرابطة القلبية القوية حين يتحدث عن رسول الله (ص) (٤) فقد أثر عن الرسول (ص) أنه قال «أمرت عبد الله بن رواحة ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب إبن مالك ، فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» (٥) لقد شفى حسان نفوس المسلمين يوم دافع عنهم أبسل دفاع «فكان سلاحاً خطيراً في أيدي المسلمين لايقل خطورة عن أسلحتهم الحربية الأخرى فهو صحيفتهم اليومية وهو لسان دعايتهم» (٦) .

نشأ حسان قبل الأسلام في يثرب بين الأوس والخزرج اللذين عاشا في نزاع دائم : « في كنائفهم صحائف سود من تأريخهم المشؤوم ، حيث كانوا لايلتقون إلا على حرب ولايفترقون إلا على موعد حرب حتى صارت الأشلاء طعامهم ، والدماء شرابهم ، والأحن والاحقاد مما يدور على السنتهم ويستقر في أعماقهم ، فطرحوا كل ذلك عنهم ، واقبلوا خفافاً على اجنحة الشوق للقاء الرسول (ص) يحملون له الحب ، ويصبون الى الأمن ، ويتطلعون الى الخير» (٧) .

لقد تأثر حسان بالبيئة التي نشأ فيها وشارك قومه محنهم وأفراحهم وفاخر بأنتصاراتهم وهجا اعداءهم وجعلت هذه البيئة من حسان شخصية قوية «مقبلا على الحياة ، محاكياً أترابه فيما يفعلون ، فهو في الخزرج مكتوٍ بالنزاع مع الأوس ، شهد كثيراً من مآسي الطعان وأدرك محر كاتبه الخفية قبل العلنية ولعله كان في وضع ، وعمر لايهيئان له تغيير شيء مافي العلاقات ، وهو الطموح جدّ المبالغة» (٨) .

(٤) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية د. محمد محمد حسين : ٢٣٢
(٥) الأغاني لأبي فرج الاصفهاني : ٤/ ١٣٥٧
(٦) حسان بن ثابت شاعر الرسول د. سيد حنفي حسنين : ١٧٤
(٧) شخصية الرسول الكريم د. علي الحبوبي : ٣٩٢
(٨) رحلة في زمن حسان بن ثابت : عبد الاله الصائغ : ٨٤ .

ولذا هب حسان سريعاً الى الاسلام وفزع للوقوف بجانب الرسول العظيم الذي غير علاقات العداء بين قومه وأبناء عمومتهم الى علاقة سلام وحب ومؤاخاة بعد أن اكتوى الشاعر بنار نزاعهم وسالت بدمائهم وديان يثرب .

فوقف الشاعر شاكراً لرسول الله هذا الشرف الكبير يوم جعله شاعر الدعوة الأول ، ممتنا لعمله العظيم الذي وحد قومه الأنصار ثم أخى بينهم وبين من هاجر من المسلمين ،فراح يرسم صورة رائعة لهذا القائد النبي ، ويفاخر بقومه من الانصار الذراع الطويلة الضاربة لهذا النبي الكريم راسماً لهذه الشخصية أبعاداً ثلاثة هي :

ا ـ الملامح والهيئة والنسب .

ب ـ المزايا الذاتية .

ج ـ النبوة والرسالة .

ـأـ

تناول حسان بن ثابت في شعره ملامح الرسول الكريم (ص) وهيئته فرسمها بحب بالغ واهتمام كبير ، غير أنه لم يقف طويلا عند تفصيلات تلك الملامح ، ولعل ذلك راجع الى التصور الاسلامي الذي التزمه حسان في رسم ابعاد الشخصية الإنسانية للمسلم والتي لا تبدي اهتماماً كبيراً بالملامح والهيئة بقدر ما توجه عنايتها إلى العناصر النفسية والسلوكية ، فهذا رسول الله يقول : (إن الله لا ينظر إلى اجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم) (٩) وكان حسان يلتزم هذا التوجيه في مدحه ورثائه للرسول والفخر به فيفيض حديثه يوم يتناول ذكر النبوة ونفسية الرسول الكريم ، ويوجز الحديث عند ذكر الملامح والهيئة ومع ذلك فقد وصف لنا صورة الرسول كأجمل ما يكون الوصف وذكرها بأروع ما يكون الذكر يقول حسان(١٠)

---

(٩) رياض الصالحين للنووي : ١٣

(١٠) ديوان حسان بن ثابت تحقيق د. سيد حنفي حسنين

إضافات الديوان القصيدة : ١

١ ـ وأحسن منك لم ترقطّ عيني　　وأجمل منك لم تلد النساءُ
٢ ـ خلقت مُبرّءاً من كل عيب　　كأنك قد خلقت كما تشاءُ

هكذا يراه حسان ما وقعت العين على احسن منه ، وما ولدت الوالدات اجمل من الرسول (ص)، لقد خلق كما تشتهي نفسه وتهوى . وإذ يمدح حسان الرسول (ص) فانه يصف طلعته البهية التي تشبه الهلال المبارك .

٣ ـ مثل الهلال مباركاً ذا رحمة　　سمحَ الخليقة طيب الأعواد (١١)

ويكرر حسان هذه الصورة في الفخر بقومه الذين يقودهم الرسول الكريم (١٢) .

مبارك كضياء البدر صورتُهُ　　ما قال كان قضاءً غير مردود

ويعيد حسان صورة القمر عند هجائه لبني قريظة (١٣)

٣ ـ غداة أتاهم يهوي اليهم　　رسول الله كالقمر المنير

تلك صورة رسول الله عند حسان ، إنها صورة الهلال والقمر والبدر الذي يتوسط السماء يهدي الناس بنوره سواء السبيل ، والرسول (ص) هيئة أخرى في الحرب فهو يقود المهاجرين والانصار يوم بدر ويمشي في مقدمة الجيش تدل هيئته على العزم والثبات يقدم على العدو دون تهيب او تردد .

١ ـ مُستشعري حَلَقِ الماذي يقدمهم
جَلْدُ النحيزة ماض غيرُ رعديد (١٤)

ففي ملامح رسول الله وهيئته القوة والعزم والجلد، وهي صفة تأتي في الموطن الذي يحتاج إلى القوة ، مقدمة الجيش امام الصفوف .

---

(١١) ديوان حسان القصيدة : ٢٢٩
(١٢) ديوان حسان القصيدة : ١١٦
(١٣) المصدر نفسه القصيدة : ١١٩ يهوي : يسرع
(١٤) المصدر نفسه القصيدة : ١١٦ النحيزة : الطبيعة

ولا يفوت حساناً أن يوضح ذروة النسب العريق الذي ينتمي الرسول (ص) إلى شجرته الكريمة القديمة في المجد والحسب (١٥) .

٢ ـ إنّ العرانين من كعب وعـامرها
وهاشم وقديم المجد والحسب

٣ ـ منهم رسول الهدى والله فضّله
ما في الانام له عدل ولا كثب

إن الإشادة بانتساب هذا السيد الماجد الكريم إلى البيوتات الكريمة وانتماءه إلى غصن أصيل ، وفرع طيب ، في شجرة طيبة مباركة ، يذكره حسان عندما يهجو المشركين ويفاخرهم ، فيعمد إلى وضع نسب الرسول (ص) في مواجهة انسابهم ، فيعلو عليهم نسبه وتغطي اشراقته وميض انسابهم الخافت يقول في هجاء ابي سفيان (١٦).

٢ ـ تسامتني غضبة من فرع فهر
وقد أعيت مناعيهم اباكما

٣ ـ ذؤابة هاشم والفرعُ منهم
وقد قصرت عن العليا يداكا

٦ ـ رسول الله والأبطال منا
فما تحمي لدى هيج حماكا

هذه صورة النسب الهاشمي وهذه افنان الغصن المحمدي الوارف الظلال يقفها الشاعر بوجه ابي سفيان (١٧) .

---

(١٥) المصدر نفسه القصيدة : ٢٦
(١٦) المصدر نفسه القصيدة : ١٢
(١٧) المصدر نفسه القصيدة : ٢٤

١ – أبلـغ أبـا سفيـان أنَّ محمـداً
هو الغصنُ ذو الأفنان لا الواحد الوغدُ

إن حساناً يفاخر بهذا النسب ليحط في نسب اعداء الرسول (ص) من المشركين ، لأن الطعن بالأحساب والأنساب آلم وأوجع لمن اشرك ، وهذا اسلوب اعتمده كعب بن مالك أيضاً في هجائه للمشركين يقول الدكتور شوقي ضيف «ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على مهاجاتهما صورة الهجاء القديمة لأنها هي التي كانت توذي نفوس القريشيين المكيين ، ولو انهما رمياهم بالشرك وعبادة الاوثان لما لامنهم إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزون بها . ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة ، فطعنا في الأحساب والأنساب (١٨) .

لم يقف حسان وقفة طويلة لرسم الصورة المنظورة للرسول الكريم (ص) لأنه وجه اهتمامه وعنايته لرسم الصورة النفسية لمحمد الإنسان والنبي .

– ب –

وتجدر الاشارة إلى قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت «خُلُقُ القرآن» (١٩) وتلت قوله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» (٢٠) وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جداً من شأنها أن تساعد على إعطاء صورة مشرقة قوية صادقة لأخلاق النبي (ص) وفضائله ...وما كان عليه من الحميمية والرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد (٢١) .

وفي شعر حسان بن ثابت ما يصور هذه الفضائل ويشير اليها بصور مختلفة، تأتي في إطار من الفخر والمديح والرثاء والهجاء وتأتي رداً على المشركين في

(١٨) تأريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي د. شوقي ضيف : ٥٠
(١٩) البيان والتبيين للجاحظ : ٢٨/٢
(٢٠) سورة القلم ، الآية : ٤
(٢١) ينظر سيرة الرسول – دروزة : ٥٣ ومابعدها

شعر الهجاء الذي تناولهم به حسان بن ثابت وفي هذه الصور جميعاً يمازج حسان بين الفضائل الخلقية للسيد العربي الماجد وفق الأعراف القبلية التي ابقى عليها الاسلام وبين الفضائل التي جاءت بها الرسالة الاسلامية السمحاء .

ويتناول الشاعر الفضائل الفردية للرسول (ص) في وقت السلم والصفاء . ففي المديح تبرز شخصية الرسول الماجد العفيف الخلق صاحب الرأي السديد يبذل النصح لمن شاوره ، رحيم ، يغلب السماح على طبعه ، سيد ماجد طيب الاعواد يقول حسان (٢٢) .

١ – والله ربي لا نفارق ماجداً عفَّ الخليقة سيدَ الأجــداد

٢ – متكرماً يدعو إلى ربِّ العُلا بذلَ النصيحة رافع الأعمادِ

٣ – مثل الهلال مباركاً ذا رحمة سمحَ الخليقة طيب الأعـوادِ

والرسول (ص) كامل الصفات كامل الخلق لا تشوبه شائبة ولا يعيبه عيب (٢٣) .

٢ – خلقت مُبرّءاً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلقتَ كما تشاءُ

اما في الرثاء فقد أطال حسان في عرض شمائله الكريمة وخصاله الحميدة(٢٤). فما حملت أنثى مثل محمد ولا مشى فوق الأرض اوفى ذمة منه ، وفيّ لجيرانه ، وفيّ بمواعيده ، خير الناس كلّهم جميعاً ، كأنه النهر الذي يمنح الحياة فكان فقدانه حرماناً للشاعر من ذلك الرواء العظيم (٢٥) .

٢ – بـالله مـا حملت أنثـى ولا وضعتْ

مثل النبيِّ رسول الرحمـة الهـادي

٣ – ولا مشـى فوق ظهـر الأرض من احد

اوفى بذمةِ جـار او بميعـاد

---

(٢٢) ديوان حسان القصيدة : ٢٢٩

(٢٣) ديوان حسان القصيدة الاولى من اضافات الديوان

(٢٤) دراسات في الأدب الإسلامي د. سامي مكي العاني ١٥٨

(٢٥) ديوان حسان القصيدة : ٨٧

٦ — خير البرية انني كنت في نهر
جار فأصبحت مثل المفرد الصادي

وفي هجاء المشركين تبدو شخصية النبي الذي لا يعد له رجل في البشرية كلها (٢٦).

٣ — منهم رسول الهدى والله فضله
ما في الأنام له عدل ولا كتب

والرسول كريم كثير العطاء بر بقسمه وبمينه (٢٧).

٤ — أعني النبي أخا التكرم والندى
وأبر من يولي على الإقسام

فتلك جميعاً فضائل فردية رسمها حسان وجسدها في شخص الرسول. ويثبت حسان فضائل هذه الشخصية كالشجاعة والاقدام في الحرب بين المسلمين وكيف يتضافر الأنصار لنصر الرسول والدفاع عنه وعن دينه (٢٨).

١٩ — وكنا متى يغز النبي قبيلة
نصل حافتيه بالقنا والقنابل

ويعدد القبائل التي حاربها الرسول وفرت جميعاً من المعارك التي لاقاها بها.

٢٣ — فنسروا وشد الله ركن نبيه
بكل فتى حامي الحقيقة باسل

ويصور حسان بسالة بني النجار يوم أحد وقتالهم امام شخص الرسول، ثم يذكر قتلى المشركين، ومنهم أبي بن خلف الجمحي الذي قتله الرسول (ص) بيده وكان أبي يعلف فرسه كل يوم فرقاً من الذرة ويقول: فرسي

---

(٢٦) ديوان حسان القصيدة : ٢٦
(٢٧) ديوان حسان القصيدة : ١٦٦
(٢٨) ديوان حسان القصيدة : ٥٥

هذه أعلفها كلّ يوم فرقاً لأقتل عليها محمداً فقال رسول الله (ص): «بل أنا أقتله إن شاء الله» فلما كان يوم احد نظر اليه النبي (ص) فطعنه في ترقوته بحربة (٢٩) .

١٢ – وقد غادرتْ تحت العجاجة مسنداً
أبيـاً وقد بـلّ القميص نجيـعُ

١٣ – بكفِّ رسول الله حين تلففت
على القوم مما قد يثرنَ نقـوعُ

وبعد معركة بدر يقف الرسول على جثث المشركين في قليب بدر ويناديهم : «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، أمّا انا فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، فقيل له : يا رسول الله : أتنادي قوماً جيفوا فقال : «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون» فيقف حسان بعد ذلك ليشير إلى هذا الموقف الفذ ويرسخه في الاذهان شعراً بعد أن رسخه رسول الله نثراً (٣٠) .

١٤ – يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب

١٥ – الم تجدوا حديثي كان حقاً وأمرُ الله يأخذ بالقلوب

١٦ – فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مصيب

في هذه الابيات تبدو شخصية القائد المقنع واضحة ، إنه يريد أن يرسخ فكرة العذاب والنار في أذهان المسلمين ليزدادوا إيماناً على إيمانهم وتزداد ثقتهم بالنصر الذي وعد الله رسوله فيسأل قتلى بدر عما بعد الموت لكنهم لايجيبون فيتكفل حسان بالاجابة عنهم «ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مصيب» .

إن عظمة شخصية الرسول القائد تتجلى في التزام صحبه الكرام لدينه وعقيدته والإيمان بحكمة قيادته إيماناً يدفعهم إلى الاقدام على الموت دون خشية

(٢٩) ديوان حسان القصيدة : ٦
(٣٠) ديوان حسان القصيدة : ٣١ الكباكب : الجماعة من الناس

وتردد ، ويطيعونه في كل شيء دون مجادلة او نقاش يقول حسان يصف المسلمين يوم بدر (٣١) .

١ — فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غيرُ محدود

ويرسم حسان أبعاد هذه الطاعة غير المحدودة لشخصية هذا القائد الصادق المصدق (٣٢)

٢١ — ركنّا اليه ولم نعصه غداة أتانا من ارضي الحَرَمْ

٢٢ — وقلنا صدقت بما جئتنا هَلُم الينا وفينا أقم

٢٣ — فناد بما كنت أخفيتهُ نداءً جهاراً ولا تكتتم

٢٧ — فطار البغاةُ بأشياعهم اليه يظنون أنهُ يُختَترَمْ

٢٨ — فقمنا بأسيافنا دونهُ نجالدُ عنه بغاةَ الأُمم

ويؤكد حسان شخصية الرسول المطاع في إجابته لوفد تميم حتى لا تحدثهم أنفسهم بعصيانه او الوقوف بوجهه ، فهذا قائد لايناقشه قومه في أمر او توجيه ينفذون اوامره بالاقامة والرحيل ، حتى انتصر على النصارى واليهود من اهل الصليب والبيع (٣٣)

١٦ — أعطوا نبيَّ الهدي والبرَّ طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا

١٧ — إن قال سيروا اجدَّ السير جهدُهم
أو قال عُوجُوا علينا ساعةً ربعوا

١٨ — ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت له البيعُ

---

(٣١) ديوان حسان القصيدة : ١١٦
(٣٢) ديوان حسان القصيدة : ٣٢
(٣٣) ديوان حسان القصيدة : ١١٣

إن شخصية الرسول في شعر حسان شخصية قائد بلغ من حب أتباعه له أنهم يفدونه بحياتهم فيقومون دونه سداً منيعا بوجه أعدائه وشانئيه ، وعلى رغم أنوف اعدائه يقاتل دونه المسلمون كل باغ وظالم ويفدونه بالبنين والبنات

١ — منعنا رسول الله إذ حلّ وسطنا
على أنف راض من معدّ وراغم

٢ — منعناه لما حلّ وسط بيوتنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم

٣ — جعلنا بنينا دُونهُ وبناتنا
وطبنا لهُ نفساً بفيء المغانم (٣٤)

ويرسم هذه الشخصية التي تفدّيها الروح في رثائه لشهداء بدر الذين وفوا بوعدهم للرسول يوم آمنوا به وصدّقوه وأطاعوه في كل أمر وسمعوه في كل رأي حتى استشهدوا على عهده (٣٥) .

٥ — وفوا يوم بدر للرّسول وفوقهم
ظلال المنايا والسيوف اللوامعُ

٦ — دعا فأجابوه بحقٍّ وكلّهم
مطيع لهُ في كلّ أمر وسامعُ

٧ — فما بدّلوا حتى توافوا جماعة ولا يقطع الآجال إلا المصارعُ

وحين يدافع حسان عن الرسول (ص) ويهجو من يهجوه من أمثال أبي سفيان بن الحارث ، يجعل من نفسه وأمه وابيه وعرضه وقاية لعرض الرسول القائد الذي لا يستوي من يهجوه بمن يدافع ويذود عنه يقول في هجاء أبي سفيان (٣٦) .

(٣٤) ديوان حسان القصيدة : ١١٢
(٣٥) ديوان حسان القصيدة : ١١٤
(٣٦) ديوان حسان القصيدة : ١

٢٢ — ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء
٢٣ — فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
٢٤ — هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
٢٥ — أتهجوه ولست له بكفوء فشركما لخيركما الفداء
٢٦ — فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

هذه شخصية الرسول القائد بفضائلها النفسية والخلقية التي جعلت منه «نموذجاً حياً للشخصية القوية التي تستطيع بقوة إيمانها أن تصلح ما أفسد الدهر فقد استطاع (ص) في حياته أن يغير طباع قومه وأفكارهم ، وأن يقوّم المعوج من اخلاقهم ، وأن يدفعهم بقوة في طريق المثل الأعلى ويرفعهم إلى مستوى من الحياة أسمى وأزكى (٣٧).

—ج—

وصف القرآن الكريم النبي (ص) بقوله : «ياأيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» (٣٨) .

ان شخصية الرسول النبي في شعر حسان بن ثابت واضحة كل الوضوح تكاد تطغى على السمات الأخرى للشخصية ويرجع ذلك إلى الإيمان العميق بالدين الذي اقتنع به حسان فاعتنقه (٣٩) وتبدو لهذه الشخصية معالم شتى .

تظهر الشخصية النبية للرسول في شعر حسان محاطة بما يؤكد هذه النبوة والرسالة وارتباطها بالله والسماء والوحي . يقول الشاعر في هجاء أبي سفيان (٤٠).

(٣٧) صور من حياة الرسول — أمين دويدار : ١٠ — ١١
(٣٨) سورة الاحزاب الاية ٤٥ , ٤٦ , ٤٧ , ٤٨
(٣٩) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية د. مصطفى الشكعة : ٩٦
(٤٠) ديوان حسان القصيدة : ١

١٩ - وقال الله قد ارسلت عبداً يقول الحقَّ ليس بـه خفـاءُ
٢٠ - شهدت به فقوموا صدّقوه فقلتم لا نجيــب ولا نشـاء
٢١ - وجبريل أميــن الله فينـا وروح القدس ليس لـبه كفـاءُ
ويقول (٤١) .

١ - شهدتُ باذن الله أنّ محمداً رسولُ الذي فوق السماوات من عل

والنبي يسنده الله بجند من عنده ينزلها من السماء فيها جبريل وغيره من ملائكة الله (٤٢).

١٢ - برجـال لستمُ أمثالهـم أيّـدُوا جبريـل نصراً منزل
٤ - فأنزل ربّي للنبـي جنوده وايده بالنصر في كل مشهد (٤٣).

وفي معركة الخندق ارسل الله ريحاً فرقت جمع المشركين انتصاراً لنبيه الكريم ، إنها شخصية تدعمها السماء (٤٤) .

١٢ - وأقرَّ عينَ محمد وَصحابه وأذَلَّ كلَّ مكذّب مُرتاب

ويفيد حسان فائدة كبيرة من الاحداث التي دلت على نبوة الرسول الكريم ومعرفته للخفي من الامور فيوثق هذه النبوة بالشاهد والدليل لرسم شخصية الرسول ومن هذه الشواهد

مقتل المجذّر يوم أحد في مكان لم يصل اليه المشركون ، فـرجـمَ المسلمون الظنون ولم يحققوا شيئاً وعمِيَ خبره ، فأتى جبريل النبيّ (ص) فأخبره عن الله تبارك وتعالى أن الحارث بن سويد الصامت قتَلَهُ وأمرَهُ بقتله عن الله عزَّ وجل فأمر الرسولُ بضرب عنقه فقتل فقال حسان مشيراً إلى ذلك (٤٥) .

---

(٤١) ديوان حسان القصيدة : ٢٠٥
(٤٢) ديوان حسان القصيدة : ٣٠
(٤٣) ديوان حسان القصيدة : ١١١
(٤٤) ديوان حسان القصيدة : ٢٥
(٤٥) ديوان حسان القصيدة : ٢٠٠ وينظر سياق الخبر في هامش صفحة ٣٠٢

١ – يا حار في سنة من نوم أولكم　　أمْ كنت ويحك مغتراً بجبريل
٢ – أم كنت يا ابن زياد حين تقتله　　ذي غرة في فضاء الأرض مجهول
٣ – وقلتم لن نرى والله يبصركم　　وفيكم مُحكمُ الأيات والقيل
٤ – محمد والعزيز الله يخبره　　بما تكنْ سريراتُ الأقاويل

ومن ذلك سرقة درعي الرسول: سرق طعمة بن أُبَيْرق درعين من رسول الله (ص) وأخفاهما عند يهودي فنزلت الآية الكريمة «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحبُ من كان خواناً أثيما» فخاف طعمة وهرب إلى مكة فقال حسان (٤٦).

٤ – ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم　　وفينا نبيٌ عنده الحكمُ واضعُه

وكذلك ما جاء في خبر أبي واسع الذي كان شديد العداوة للرسول (ص) فقال النبي عليه السلام:

«اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» وخرج أبو واسع في سفر له ومعه عدَّة من قومه، فتخطى اليه السبع من بينهم حتى أكله» (٤٧) فقال حسان يذكر النبي الذي يستجاب دعاؤه (٤٨).

٣ – رحْمَ نبيَ جَدُّهُ جَدُّهُ　　يدعو إلى نور هُدًى ساطع
٤ – أسبلَ بالحجر لتكذيبه　　دون قريش نُهْزَةُ القاذع
٥ – فاستوجبَ الدعْوة منه فقد　　بيَّن للناظر والسامع
٦ – إن سلَّطَ الله به كلْبَهُ　　يمشي الهوينى مشيةَ الخادع
٧ – فالتهم الرأس بيافوخه　　والحَلْقَ منهُ فَغْرةَ الجائع
١٢ – قد كان فيه لكمْ عبرة　　للسيِّد المتبوع والتابع

---

(٤٦) ديوان حسان القصيدة : ١٨٦ وينظر سياق الخبر في هامش صفحة ٢٨٦
(٤٧) ديوان حسان القصيدة ١٦٢ أبو واسع هو عتيبة بن أبي لهب
(٤٨) ديوان حسان القصيدة : ٥٣

وهكذا فان شخصية الرسول قد فضلها الله على البشر فمـا يقول...... (ص) قضاء وقدر (٤٩) .

٢ ــ أعني الرسول فان الله فضله   على البريـة بالتقوى وبـالجـــود
٦ ــ مبارك كضيـاء البدر صورته   ما قال كـــان قضاءً غير مردود

ويشير حسان في مفاخرة وفد تميم إلى شخصية الرسول الذي وحّدَ الأمة في وقت كثر فيه الخلاف وسادت الفرقة (٥٠) :

١ ــ أكرمْ بقوم رسول الله قائدهم   إذا تفرقت الأهواءُ والشيَـــعُ

وشخصية النبي المصدّق الذي يفخر المسلمون بتصديقه ومنـــاصرتـــه والمجاهدة في سبيله نراها في قول الشاعر (٥١) .

١٨ ــ نصرنا وآوينا النبيَّ وصدّقت   أوائلنا بالحـقِّ أولَ قـائـــل

إن هذا النصر والتأييد والتصديق موظف للحصول على رضوان النبي الشفيع لأنه لا شفاعة لغير الأنبياء (٥٢) .

٥ ــ وفوا يوم بدر للرّسول وفوقهُم   ظلال المنايا والسيوف اللـوامعُ
٨ ــ لأنهم يرجون منـه شفـاعـــةً   إذا لـم يكنْ إلا النبيين شافـع
٩ ــ وذلك ياخيـر العباد بلاؤنـــا   ومشهدنا في الله والموت نـاقع
١٠ ــ لنا القدمُ الأولى اليك وخلفنا   لأوّلنا في طـاعة الله تـابـعُ

قال تعالى «وادعُ إلى ربّكَ إنّكَ لعلى هُدى مستقيم» (٥٣) وقال ايضاً «وانّكَ لتهدي إلى صراط مستقيم» (٥٤) .

---

(٤٩) ديوان حسان القصيدة : ١١٦
(٥٠) ديوان حسان القصيدة : ١١٣
(٥١) ديوان حسان القصيدة : ٥٥
(٥٢) ديوان حسان القصيدة ١١٤
(٥٣) سورة الحج الاية : ٦٧
(٥٤) سورة الشورى الأية : ٥٢

إن الرسول (ص) يدعو الناس إلى الهداية والاسلام وينير دربهم للاهتداء إلى سواء السبيل بالتكرم والنصيحة (٥٥) :

١ – والله ربي لا تفارقُ ماجداً عفَّ الخليفة سيدَ الأجداد
٢ – متكرّماً يدعو إلى ربَّ العُلا بذلُ النصيحةُ رافعَ الاعماد

ومحمد (ص) رسول الرحمة الهادي ليس له مثيل يبذل المعروف للناس .

٢ – بالله ماحملت أنثى ولا وضعت مثل النبيِّ رسول الرحمة الهادي(٥٦)
٥ – مصدقاً للنبيين الألى سلفوا وابذلُ الناس للمعروف والجادي

إن هذه الهداية التي تمتع بها الرسول (ص) فرقت حجب الظلام وأزاحت عنه العماية (٥٧) .

٤ – قرمٌ أضاءت له الظلماء وانقشعت عنه العماية والأهوال والكرُبُ

إنَّ الفخر بالانتساب الى النبي (ص) يأتي في شعر حسان لأن النبي هو القائم بأمر الله والإسلام والوحي لذا كان الاعتزاز بالانتماء اليه والى دينه كبيراً والدفاع عنه وعن دينه مفخرة من المفاخر (٥٨) .

١ – الله أكرمنا بنصر نبيـــه وبنا أقامَ دعائم الإسلام
٢ – وبنا أعزَّ نبيّه وكتابـــه وأعزنا بالضرب والإقدام
٣ – في كل معترك تُطير سيوفنا فيه الجماجم عن فراخ الهام

ويفخر حسان بمناصرة قومه لله والرسول والاسلام ، وأن الله اكرمهم بتلك الايام التي نصروا بها رسول الله (٥٩) .

٢ – وأكرمنا الله الذي ليس غيرَهُ إله بأيام مضتْ مسالها شكَّلُ
٣ – بنصر الإله والنبيِّ ودينه واكرمنا باسم مضى مالهُ عدلُ
٤ – أولئكَ قومي خيرُ قوم بأسرهم فما عدَّ من خير فقومي لهُ أهلُ

(٥٥) ديوان حسان القصيدة : ٢٢٩
(٥٦) ديوان حسان القصيدة : ٨٧ الجادي الذي يطلب ماعنده
(٥٧) ديوان حسان القصيدة : ٢٦ القرم : السيد
(٥٨) ديوان حسان القصيدة : ٣٥
(٥٩) ديوان حسان القصيدة : ٣٤

ويفخر حسان بخؤوله قومه لهذا النبي الكريم فيقول (٦٠) .

٥ – ونحن ولدنا من قريش كريمها   ولدنا نبيّ الله من آل هـاشـم

إن الجهاد في سبيله وفي سبيل دينه مظهر من مظاهر قوة شخصية النبي تلك القوة النابعة من امتزاج الرسالة والنبوة في شخصية الرسول الكريم ذلك الامتزاج والتوحد الذي جعل الجهاد من أجل هذا النبي وهذه الرسالة مفخرة واعتزازاً لمن يجاهد دونها يقول حسان (٦١) .

١٠ – أما قريش فإني غير تاركهم   حتى ينيبوا من الغياث للرّشـــد

١٢ – ويشهدوا أن ماقال الرسول لهم   حق ويوفوا بعهد الواحد الأحد

ومرة اخرى يفخر حسان بطاعة الرسول والايمان به وتشجيعه على بث دعوته والوقوف بجانبه بالنفس والمال والأولاد والسيف (٦٢) .

٢٠ – فلما أتانـا رسول الإلـــه   بالنور والدين بعدَ الظُلَـــمْ

٢١ – رَكنّا اليـه ولـم نعصه   غداةَ أتانا من أرضي الحرَمْ

٢٢ – وقلنا صدقتَ بما جئتنا   هَلُمّ إلينا وفينا أقـــمْ

٢٣ – فناد بما كنتَ أخفيتَـه   نداء جهاراً ولا تكتتـــم

٢٤ – فنشهد أنكَ عبدُ المليك   أرسلتَ نوراً بدين قيّـــم

٢٥ – فإنّا وأولادَنا جنّـــة   نقيكَ وفي مالنا فاحتكـــم

٢٦ – فنحنُ ولا تُكُ إذ كذّبو   ك لم ننبُ عنكَ ولم نحتشمْ

٢٧ – فطار البُغاةُ بأشياعهـــم   إليه يظنون أنهُ يُختَــرَمْ

٢٨ – فقمنا بأسيافنـا دونَـــه   نجالدُ عنهُ بغاةَ الأمـــمْ

ويؤكد حسان هذا الفخر بالقتال المستمر حتى تتابع الناس في الدخول في دين محمد (ص) (٦٣) .

---

(٦٠) ديوان حسان القصيدة : ١١٢ أم عبد المطلب بن هاشم من بني النجار وهي سلمى بنت زيد بن عمرو .

(٦١) ديوان حسان القصيدة : ٥٢

(٦٢) ديوان حسان القصيدة : ٣٢

(٦٣) ديوان حسان القصيدة : ١١٢

٤ – ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالمرهفات الصوارم
٧ – لنا الملك في الإشراك والسبق في الهدى ونصر النبيّ وابتناءُ المكارم

على أن هذا الفخر يتحول الى عتاب للرسول الكريم ولكنه عتاب رفيق رقيق لين هاديء ينشده الشاعر يوم جعل الرسول قبيلة سليم على مقدمة الجيش الذي دخل فاتحاً مكة وجعل قيادتها لخالد بن الوليد فكان حسان يرى أن الانصار أحق أن يكونوا في مقدمة الجيش لسابقتهم في الإسلام ولأيامهم التي أبلوا حق البلاء فيها في الله ورسوله (٦٤) .

٤ – وأت الرسول فقل ياخير مؤتمن للمؤمنين إذا ماعُدّلَ البشر
٥ – علامَ تدعى سليم وهي نازحةٌ أمام قوم هُمُ أووْا وهمْ نصروا
٦ – سماهم الله أنصاراً لنصرهم دينَ الهدىَ وعوان الحرب تستعر
٧ – وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا للنائبات فما خاموا وما ضجروا

الخاتمة

لقد تمكن حسان بن ثابت من رسم شخصية الرسول الكريم (ص) في شعره أبرزَ فضائلها النفسية والخلقية ، ورسم لها أبعاد القيادة والنبوة ، وكان في توضيحه لأبعاد هذه الشخصية و تصويرها متأثراً بالقيم التي يجلها العرب قبل الاسلام ، وأبقى الإسلام على إجلالها واحترامها ، كما تأثر بالقيم الاسلامية التي آمن بها فظهرت واضحة المعالم على شخصية الرسول في شعره .

لقد شغف حسان شغفاً كبيراً بالفخر بقومه الخزرج وعلا فخره بالانصار عموماً ، فلم يترك مناسبة تمر من غير الاشادة بهم والاعتزاز بنصرتهم ودعمهم للاسلام ووقوفهم الى جوار نبيهم .

ولو قدّر لحسان أن ينسى هذه النزعة ، نزعة الفخر بقومه في حديثه عن شخصية الرسول الكريم ، أقول لو قدر له ذلك لوفقَ أكبر التوفيق في رسم

(٦٤) ديوان حسان القصيدة : ٨٦ خاموا : جبنوا وينظر دراسات في الأدب الأسلامي ٢٨٢

أبعاد هذه الشخصية العظيمة ، وعلا مرتبة أعلى من المكانة التي حلّق بهـا في سماء الفن يوم رسم تلك الصورة .

بقي أن نشير الى أن شخصية الرسول (ص) وما تحمله من دلالات حضارية عظيمة في توحيد الأمة العربية وقيادتها وما تحمله من دلالات دينية كبيرة . كانت أكبر كثيراً من شعر حسان . فلم يستطع شعر حسان ولا شعر غيره من الشعراء أن يرقى الى مستواها (٦٥) .

وهكذا كانت شخصية الرسول (ص) «من أكثر الشخصيات تأثيراً في عصرها والعصور التي تلته ويتجلى أثر شخصيته في الأدب العربي ، واضحاً ، مشرقيّه ومغربيّه ، فقد ظل معيناً ثراً يستلهم منه الأدباء ، صورة المثل الأعلى إذ كان جماعاً للقيم والاخلاق الرفيعة الى جانب خصوصيته بالوحي والرسالة التي أبلغها فدخل الناس فيها أفواجاً (٦٦) .

١٥/ ٤/ ١٩٨٧

(٦٥) في الشعر الإسلامي والأموي د. عبد القادر القط : ٤٨

(٦٦) المديح النبوي في الشعر الاندلسي – عهد الموحدين . منجد مصطفى بهجت : ٤٥٥

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١ – **الأدب في موكب الحضارة الاسلامية – كتاب الشعر** – د. مصطفى الشكعة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٤م .

٢ – **الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني** ، تحقيق : ابراهيم الإبياري ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٩ – الجزء ٤ .

٣ – **البيان والتبيين للجاحظ** تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، مؤسسة الخانجي بمصر .

٤ – **تأريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي** د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة ١٩٧٦ .

٥ – **حسان بن ثابت شاعر الرسول** د. سيد حنفي حسنين ، مطبعة مصر ، القاهرة .

٦ – **دراسات في الأدب الإسلامي** د. سامي مكي العاني ، المكتب الإسلامي ١٩٧٥م ساعدت جامعة بغداد على نشره

٧ – **ديوان حسان بن ثابت** – تحقيق د. سيد حنفي حسنين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ ، القاهرة .

٨ – **رياض الصالحين للنووي** تحقيق : عبدالله أحمد أبو زينة ، وكالة المطبوعات الكويت – دار القلم – بيروت ، لبنان ١٩٧٠م .

٩ – **سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم – صور مقتبسة من القرآن الكريم** محمد عزة دروزة ، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاؤه ، الطبعة الثانية الجزء الأول .

١٠ – **السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام المعافري المتوفى ٢١٣هـ** قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الازهرية ، شركة الطباعة الفنية المتحدة .

١١ – صور من حياة الرسول – أمين دويدار ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

١٢ – **عبقرية محمد عباس محمود العقاد** ، دار الهلال ١٩٦٦ .

١٣ – **في الشعر الإسلامي والأموي** د. عبدالقادر القط . دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٩ .

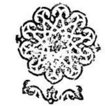
١٤ – **الهجاء والهجاؤون في الجاهلية** د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠

الدوريات

١ – **مجلة (آداب الرافدين)** لكلية الآداب بجامعة الموصل ، العدد ١٣ لسنة ١٩٨١ .

٢ – **مجلة (الكتاب)** العدد الأول لشهر كانون الاول لسنة ١٩٧٥ السنة التاسعة.





في سورة الملك — دراسة بلاغية تحليلية —

أحمد فتحي رمضان

كلية الآداب / قسم اللغة العربية

مدرس مساعد

توطئة

إن تفرد النص القرآني في أسلوبه وبنيانه الجمالي والبلاغي من الحقائق الخالدة التي تستغني بنفسها عن إقامة الدليل ، فهو نسيج وحده في تراكيبه ومعانيه وأسراره البلاغية ... وقد صيغت تلك التراكيب القرآنية من الأداة نفسها (اللغة) المستعملة عند العرب ، ومع ذلك فإن التراكيب القرآنية انفردت وتميزت في خصائصها التعبيرية والتصويرية عن أي عبارة اوتركيب آخر ، فهي قد بنيت « بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة» (١) من طرق التعبير البياني الأصيل.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة ، فإن البحث محاولة لتلمس أسرار البيان العربي في القرآن الكريم بوصفه نصاً أعلى في البلاغة والفن والجمال التعبيري ، فلا يصح لنا ذوق البلاغة بمعزل عنه . ومثلما تلتمس أسرار البيان العربي في شعر الشعراء ، ونثر البلغاء ، فمن الأولى أن نتلمسها في القرآن الكريم وإذا كنا قد عرفنا البلاغة علماً وثقفناها صناعة ولفظاً ، فإننا — وعلى حد قول بنت الشاطيء — مانزال في أشد الحاجة إلى أن نجتليها ذوقاً أصيلا وحساً مرهفاً في آيات الفصاحة العليا والبيان المعجز» (٢) .

والبحث إذ يحاول تلمس أسرار البيان العربي في القرآن ، فإنه لايتلمسها إلا في الجانب البلاغي ، في سورة واحدة — موضوع البحث — هي : (سورة الملك) ، لأن أسرار القرآن لاتنحصر في الجانب البلاغي — كما هو

(١) النكت في إعجاز القرآن ، للرماني ، ص ١١١ .
(٢) الإعجاز البياني للقرآن ، د. عائشة عبد الرحمن — بنت الشاطيء — ، ص ٢٢١ .

معلوم – وإنما أسراره تتعدى ذلك إلى كثير من الجوانب التي لا تخضع الى حصر او تحديد

والجانب البلاغي الذي سيعنى به البحث سيجتلي من خلال الوقوف على الظواهر البلاغية التي تشكلت في نسيج آيات السورة الكريمة ، إذ أن هذه الظواهر البلاغية المتنوعة التي انتظمت في السورة هي ليست تجريدية تراد لذاتها ، وإنما هي تحتضن الأفكار والمعاني على نحو متناغم ، تبدو الأفكار والمعاني من خلالها ذات ايحاء وحيوية وقوة تأثير ، فهي جزء من بناء نص معجز له أهدافه الفكرية والنفسية والجمالية ، ويسعى إلى التوجيه والتسديد وبث أسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة .

وسورة الملك من السور المكية ، وعدد آياتها ثلاثون آية ، وشأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج – بالدرجة الأساس – موضوع العقيدة في أصولها الكبرى (١) ، وهي حافلة بألوان من الظواهر البلاغية مما دعاني إلى دراستها ، وقد ساهمت بفاعلية ونشاط في اثراء دلالاتها ، وعرضها عرضاً فنياً جمالياً معجزاً ، تحقق أهدافها وأغراضها في مخاطبة الفكر والنفس والوجدان .

وسيبين البحث توزيع الظواهر البلاغية في السورة ، بعد أن نورد نصها الكريم :

– بسم الله الرحمن الرحيم –

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الذي خلقَ سَبْعَ سموات طباقاً ما ترى في خَلْقِ الرَّحمن من تفاوت فَارجع البصرَ هل ترى من فُطُور (٣) ثُمَّ ارجع البَصَرَ

(١) ينظر : صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني : ٣/ ٤١٤ .

كرَّتين ينقلبْ إليكَ البَصَرُ خاسئاً وهو حسير (٤) ولقد زيَّنا السَّماء
الدُّنيا بمصابيحَ وجعلْناها رجُوماً للشياطين وأعتدْنا لهُم عذابَ السعير (٥)
وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّمَ وبئسَ المصيرُ (٦) إذا أُلقُوا فيها
سمعوا لها شهيقاً وهي تفور (٧) تكادُ تميزُ من الغيْظ كلما أُلقيَ فيها
فوْجٌ سألهم خزنتها ألَمْ يأتِكُمْ نذير (٨) قالوا بلى قدْ جاءنا نذير
فكذَّبنا وقُلنا مانزَّلَ اللهُ منْ شيء إنْ أنتم إلا في ضلال كبير (٩) وقالوا
لوكُنّا نسْمَعُ أو نعقلُ ماكنّا في أصحاب السعير (١٠) فاعترفُوا بذنبهم
فسُحقاً لأصحاب السَّعير (١١) إن الذين يخشوْنَ ربَّهُم بالغيب لهُمْ
مغْفرَة وأجر كبير (١٢) وأسروا قوْلكم أو اجهروا به إنه عليم بذات
الصُّدور (١٣) ألا يعْلمُ من خلقَ وهوَ اللطيف الخبير (١٤) هوَ الذي
جعَلَ لكُمُ الأرضَ ذلولاً فامشُوا في مناكبها وكُلوا منْ رزْقه
وإليه النشورُ (١٥) ءأمنتمُ منْ في السَّماء أنْ يخسفَ بكمُ الأرضَ
فإذا هي تمورُ (١٦) أمْ أمنتُم منْ في السَّماء أنْ يُرسلَ عليكم حاصباً
فستعلمون كيف نذير (١٧) ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف
كانَ نكير (١٨) أوَلم يروْا إلى الطيْرِ فوقهُم صافات ويقْبضْن
مايُمْسكهُنَّ إلا الرحمنُ إنَّهُ بكلِّ شيء بصير (١٩) أمّن هذا الذي هوَ
جُنْد لكُمْ ينصرُكُمْ منْ دون الرحمن إن الكافرونَ إلافي غُرور (٢٠)
أمْ منْ هذا الذي يرْزُقكمْ إن أمْسكَ رزْقهُ بلْ لجوُّا في عتو ونفور (٢١)
أفمَنْ يمشي مُكباً على وجْهه أهدى أمْ من يمشي سوياً على صراط
مُستقيم (٢٢) قلْ هو الذي أنشأكمْ وجعَلَ لكُمُ السّمعَ والأبْصار
والأفئدةَ قليلا ما تشكروُن (٢٣) قلْ هو الذي ذرأكُمْ في الأرض وإليه
تحشرون (٢٤) ويقولونَ متى هذا الوعْدُ إن كنتم صادقينَ (٢٥) قلْ
إنما العلْمُ عند الله وإنما أنا نذير مُبين (٢٦) فلماَّ رأوهُ زُلْفةً سيئت
وجوهُ الذين كفروا وقيل هذا الذي كُنْتُمْ به تدَّعُون (٢٧) قل ارأيْتُم

إن أهْلكَنِيَ اللهُ ومَنْ مَعي أو رحمنا فمنْ يجير الكافرين من عذاب اليم (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمونَ مَنْ هُو في ضَلال مبين (٢٩) قل أرأيتم إن اصْبحَ ماؤكُم غوراً فمَنْ يأتيكُمْ بماء مَعين (٣٠) . (صدق الله العظيم)

استقراءاً لايات السورة الكريمة نلحظ أن الظواهر البلاغية التي اصطلح على تسميتها بـ : (المعاني والبيان والبديع) قد توزعت فيها على نحو متفاوت حسبما يتطلبه السياق في أداء المعاني والأفكار التي قصد توصيلها إلى المخاطب .

ويمكن توزيعها على النحو الاتي :

أولا : علم المعاني .

الظواهر البلاغية التي تنضوي تحته تشغل حيزاً كبيراً من السورة ،وفي طليعتها : ١- الأسلوب الاستفهامي ، إذ يرد في أربع عشرة آية وبالأدوات الاتية :

أ - الاستفهام بالهمزة في سبع آيات (٨ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) .

ب - الاستفهام بـ (من) في ثلاث آيات (١٤ ، ٢٨ ، ٣٠) .

ج - الاستفهام بـ (كيف) في آيتين اثنتين : (١٧ ، ١٨) .

د - الاستفهام بـ (متى) في آية واحدة : (٢٥) .

هـ - الاستفهام بـ (هل) في آية واحدة : (٣) .

فالاسلوب الاستفهامي يُشكّل - وعلى نحو لافت - ظاهرة بلاغية بارزة في السورة ، وبخاصة الاستفهام الذي يخرج معناه مجازاً إلى (الإنكار والتعجيب) ،فيما عدا موضع واحد يخرج فيه الاستفهام إلى التقرير (توبيخاً وتبكيتا) للكافرين ، وهم يُلْقَوْن في نار جهنم : (الم يأتكم نذير؟) آية رقم (٨) .

وهذا الأسلوب يعدّ أداة حيوية فاعلة في السورة ، فهو يعمل بفاعلية على تحقيق اهدافها ومقاصدها ، إذ من شأن الاستفهام إثارة التساؤلات في ذهن المتلقي ،فهو في السورة يمثل طرقات متوالية في أذهان المتلقين وعقولهم ليبعثها على التفكير والتدبر بما تقرره السورة من حقائق وتصورات على صعيد السماوات وما فيها من عجائب من كمال الخَلْق ، وجمال الزينة ، وعلى صعيد الموت والحياة وما فيهما من قدرة الله وبلائه ،وحكمته وتدبيره ،وعلى صعيد عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، وما فيهما من حقائق تدلل على قدرة الله وعظمته ، وعلى صعيد الرزق الذي يسّره اللهُ للانسان ، وغير ذلك من الموضوعات التي تعالجها السورة .

فالاستفهام يعمل بقوة على إطلاق العقل والحواس والبصيرة لتتأمل تلك الحقائق وتتدبّر ...

٢ ـ أسلوب التقديم والتأخير : ويرد في اربع آيات (٦ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٩)

٣ ـ أسلوب القصر : ويرد في ثلاث آيات (٩ ، ٢٠ ، ٢٦) .

٤ ـ أسلوب الأمر : ويرد في ثلاث آيات (٣ ، ٤ ، ١٥) .

٥ ـ تقديم المسند اليه (هو) على (الخبر الفعلي) في ثلاث آيات (١٥ ، ٢٣ ، ٢٤) .

٦ ـ تكرار اسم الموصول (الذي) في ثمان آيات : (١ ، ٢ ، ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤) .

ثانياً : علم البيان

ورد من اساليبه في السورة ما يأتي :

١ ـ الاستعارة المكنية : في ثلاث آيات (٧ ، ٨ ، ١٥) ، وهي استعارة تقع في المفردات .

٢ ـ الاستعارة التمثيلية : في آية واحدة (٢٢) ، وهي استعارة تقع في التركيب .

٣ ـ الاستعارة في الحرف : في خمس آيات (٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٩) .

٤ – الكناية : في آيتين اثنتين (٤ ، ١٥)

٥ – العكس في الكلام : في آيتين اثنتين (١٠ ، ١١) .

٦ – المجاز في آية رقم واحد في قوله – سبحانه – : (بيده المُلْـكُ ..) وهي من آيات الصفات التي تتعلق بذات الله . ومعنى المجاز فيها يوجه على سبيل الكناية .

ثالثاً : علم البديع .

ورد في السورة من أساليب البديع (فن الطباق) بنوعيه الصريح والضمني وقد شغل حيزاً كبيراً في السورة ، وتوزع على النحو الاتي :

١ – الطباق الصريح ، سواء كان بين الاسمين أو بين الفعلين أو بين مشتقات الفعل ، ونلاحظ هذا النوع من الطباق بأنواعه في الايات الاتية : .

أ – في الايات (٢ ، ٢٢ ، ٣٠) طباق بين الاسمين .

ب – في الايات (١٣ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨) طباق بين الفعلين .

ج – في الاية (١٩) طباق بين الفعل واسم الفاعل – من مشتقات الفعل –

د – الطباق بين صورتين : صورة أصحاب السعير من آية (٦ – ١١) مع صورة الذين يخشون ربهم بالغيب .. في آية (١٢).

٢ – الطباق الضمني : وهذا النوع من الطباق حاصل بين آية (١٥) الأرض الذلول ، مع الايات بعدها (١٦ – ٢١) .

هذا ما اهتدى إليه البحث من ظواهر بلاغية في السورة الكريمة وسيجلي البحث وظيفتها التعبيرية والتصويرية في أداء المعاني والأفكار ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

تحليل السورة بلاغياً :

تبدأ السورة الكريمة بمطلع مجمل غاية في الإيجاز ، وغاية في الحسن والجمال . والايجاز هو : « عبارة عن تأدية المقصود من الكلام بأقل

عبارة متعارف عليها» (١) ، أي أن تكون الألفاظ أقل من المعـانـي ، مع الوفاء بالمعنى ، وإلا كان إخلالا يفسد الكلام . ويسميه بعض المعـاصرين «التكثيف» (٢) . ويعد الايجاز مصدراً مهماً من مصادر الإيجاز في التعبير الأدبي الفني .

وقد عد البلاغيون (البلاغة) مرادفاً من مرادفات (الايجاز) ، وذلك لأنه كما يقول أبو هلال العسكري « بالقلوب أوقع ، وإلى الحفظ أسـرع ، وبالألسن أعلق ، وللمعاني أجمع ، وصاحبها أبلغ وأوجز » (٣) .

ومطلع السورة :

«تبارك الذي بيده المُلْكَ وهو على كلٌ شيء قدير»

غاية في الايجاز لأن موضوعات السورة المؤلفة من (ثلاثين آية) على تنوعها وتعددها تنبثق عنه ، وتتصل به أتصالا عضوياً وثيقاً ، وهي في الـوقـت نفسه مفسرة مبينة له .

فمن ملك الله وقدرته—المذكورين في تركيب الاية— كانت موضوعات السورة : من خلق الموت والحياة والابتلاء بهما. وخلق السماوات وتزيينها بالمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين . وخلق جهنم وإعدادها للكـافريـن . وخلق الأرض وجعلها ذلولا للبشر . وجعل الخسف والحاصب والنكير ألواناً من العذاب يصيب بها الضالين المكذبين ، وغير ذلك من موضوعات السورة . كالرزق ، وآية الطير في جو السماء ، والانشاء والسمع والأبصار والأفئدة ، والذرء في الأرض والحشر ، والماء الذي تقوم به الحياة ...

كلها تتصل بمطلع السورة المجمل الموحي ، وهي مفسرة له ومؤكدة لمعناه.

وهو غاية في الحسن والجمال لكونه منبهاً وملخصاً للمعنى الكبيـــر للسورة وهو : قدرة الله المطلقة ،وسلطانه الشامل وإرادته الكاملة ، وعجز

(١) الطراز ، للعلوي : ٣/ ٣١٦ – ٣١٧ . وينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ص ٧٦ ومابعدها .

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ، ص ٢٥٤ .

(٣) الصناعتين ، للعسكري ، ص ١٧٤ .

الانسان وضعفه أمام مالك الملك – سبحانه – ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : فإن الحسن والجمال قد تبدى فيه – أيضاً – في تمهيده للايقاع الموسيقي المتسق مع مابعده من الايات التي انتهت فواصلها بحرف الراء ، مثل (المطلع) في إحدى وعشرين آية من السورة ، وبقيتها انتهت الفاصلة بحرف الروي (النون) ، ماعدا آيتين هما ، (٢٢ و ٢٨) انتهت الفاصلة فيها بحرف الميم .

وعلى الرغم من تقارب هذين الحرفين (الميم والنون) موسيقياً بوصفهما حرفي الغُنَّة التي تخرج من الخيشوم ، إلا أنهما قد أحدثا تنوعاً موسيقياً ملحوظاً في السورة . ويرى بعض الباحثين أن « هذا الانتقال في الفواصل من النون إلى الميم هو تنويع ومراوحة تؤذن بإثارة اليقظة وتجديد الإنتباه » (١) في تلقي الايات من معان وأفكار ...

وحسن المطلع وجماله عند البلاغيين « دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الأذهان ، فإنه أول شيء يدخل الأذن وأول معنى يصل إلى القلب وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل » (٢) في فهم المرامي والأهداف التي يسمى إليها التعبير . فالمطلع هو (أول مايلامس السمع) وقد « أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه ، وأبلغها ، وأكملها » (٣) كما أتى مطلع هذه السورة الكريمة .

ويلفت الانتباه في هذا المطلع الفعل (تبارك) بمعنى « تعاظم وتعالى » (٤) في مجاورته للفظة (الملك) في الاية ، فهو يوحي – بهذه المجاورة – بالنماء

(١) أحرف المد الطويلة والقصيرة ، عبد الحميد حسن ، ص ٣٢٤ ، نقلا عن الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوي ، ص ٢٣٦ الهامش .
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم ، ص ١٣٧ .
(٣) الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ٣/٣١٧ .
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن ، للطبري : ٢٩/ ٢ .

والبركة والفيض في هذا الملك – كما سنرى ذلك في السورة صوراً من فيضه وبركته – سبحانه – بمصادر الرزق التي أنعمها على مخلوقاته وبخاصة الإنسان ، وبحفظه لهذه المخلوقات ورحمته بها ، والتي أبدعها غاية في الكمال والجمال ، وغير ذلك مما تقرره السورة جملة وتفصيلا .

وقد ألقى ظلال التعظيم والتفخيم اسم الموصول (الذي) (٥)، فضلا عن التقديم في (بيده الملك) الذي أفاد الاختصاص ، وهو المعنى اللائق بشأنه – تعاظم ملكه وجلت قدرته – وأكد معنى التعظيم والتفخيم وقواه التعبير (بيده الملك) فهو كناية موحية عن الهيمنة والاستيلاء ، والسلطان الشامل ، والقدرة والإرادة المطلقتين من كل قيد في التصرف في هذا الملك العظيم . قال الصابوني : « الذي بقبضة قدرته ملك السموات والارض يتصرف فيهما كيف يشاء »(١) فوراء هذا التعبير الكنائي دلالة بالغة على أنه – سبحانه – هو المالك لهذا الملك ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وحين يشاء وحيث يشاء « وهو على كل شيء قدير » .

مقدرته – سبحانه – مطلقة من كل قيد ، فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء (٢) .

والمطلع بإيجازه المكثف يلقي في عقل المتلقي وحسه معنى حقيقة الاعتماد على الله ، والرجاء فيه ، فهو صاحب الملك الحقيقي ، ولا مالك غيره ، ولا معبود سواه .

ثم تتوالى ادلة قدرته – سبحانه – دليلا بعد دليل :

« الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليَبْلُوَكم أيكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفورُ »

---

(٥) سيتكرر اسم الموصول (الذي) في سبع آيات (٢ ، ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤) مما يعمق معنى (التعظيم والتفخيم) على نحو جلي ، وهو المعنى اللائق بشأنه سبحانه .

(١) صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٥ .

(٢) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٢ .

وهنا نلحظ الطباق(*) بين الإسمين (الموت والحياة) ، والطباق من شأنه أن يعمل على إبراز التناقض في المعنى بين الكلمتين ، والمعاني تتمايز بالتضاد وهي تعمل في مجال واحد « فتكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة » (١) فيكشف الطباق بمستواه الأول على نحو جلي قدرة الله العظيمة ، وإرادته التي تفعل ما تريد بلا حدود أو قيود ، كما يكشف عن حكمته تعالى ، فالحياة التي توحي بالحركة والعطاء والإغداق ، قد تصبح سكوناً وأخذاً وحرماناً متمثلة بـ (الموت) فيتجلى من خلال ذلك ضعف الإنسان وعجزه أمام مالك الملك – سبحانه – كما أن (الموت والحياة) يشكلان موازنة حكيمة بديعة تنظم الحياة وتحققها على نحو لايجور أحدهما على الاخر ، وبهما تجري الحياة بهذا النظام ، الحكيم المتعاقب المرسوم .

والمستوى الثاني للطباق تأثيره الخاص المتميز ، إذ يتجلى هذا التأثير بجمعه بين الأضداد (الموت والحياة) مما « يخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارىء ووجدانه فيتبين ما هو حسَن منها ويفضله على ضده ... فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن » (٢) .

ويصعد هذا المستوى للطباق في الاية تقديم الموت على الحياة « خلق الموت والحياة » فلهذا التقديم بلاغته المؤثرة ،اذ يتضافر هذا التقديم مع الطباق في الكشف عن الحركة الفكرية ، بأبعادها المختلفة في حنايا تركيب الاية ، والقرآن يضع « اللفظ في مكانه إذا أبدل فسد معناه أو ضاع الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة » (٣) ، وقد كشف الزمخشري عن

(*) هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضده ، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما إسمين أو فعلين أو حرفين .

(١) في البنية والدلالة ، د. سعد أبو رضا ، ص ٣٧ .

(٢) البلاغة والتطبيق ، د. أحمد مطلوب و د. حسن البصير ، ص ٤٤٣ .

(٣) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ، ص ٢٩ . وينظر : الإعجاز البياني للقرآن ، ص ١٩٤ ، ٢٦٥ .

بلاغة هذا التقديم بقوله : « وقدم الموت على الحياة ، لأن أقوى النـــاس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الاية أهم »(١) ؛ فهو يلحظ التناسب في تناسق ألفاظ تركيب الاية في أداء الدلالة النفسية التي يهدف إليها القرآن ، وهي : إبراز أثـــر الموت في الانسان بوصفه داعياً قوياً مؤثراً في النفس الانسانية يحدوها إلى إختيار العمل الصالح على غير الصالح ، لأن وراء الموت بعثاً وجزاءاً لابد منهما .

والموت والحياة بوصفهما نظامين للحياة ، وبهما تتجلى الحكمة البالغة ، فإنهما ينتهيان إلى غاية :

«ليبلوكم أيكُم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور»

فليس الموت والحياة عبثاً (*) لغير قصد أو غاية ، إنما يقترنان بغـايــة محتمة تجعل لهما قيمة ووقعاً مؤثراً في حياة الانسان حساً وفكراً وسلوكاً .

ولفظة «أحسن» موحية بالمعاني ، ومن معانيها : إنها تحث الانسان أن يأخذ دوره الموكول إليه ، فحياته على هذه الأرض إنما هي فرصة للابتلاء والإختبار ، فهو محاسب على أفعاله في كل صغيرة وكبيرة ، وهي موحية —كذلك— بالمكانة السامية لهذا الإنسان عند بارئه أن يكون محل ابتلاء واختبار، كما تلقي في عقل الانسان وحسه اختيار العمل الصالح ، وترك الغفلة واللهو وتبعث فيه اليقظة الدائمة لأن يستثمر حياته في الخير والبناء ، فهو سينقلب بعد الموت حيث الحساب والجزاء .

والله — سبحانه — لايكل الإنسان إلى نفسه ، وإنما يمدُّه بالعون والرعاية

(١) الكشاف : ٤٦١/٤ . وينظر التفسير الكبير ، للرازي : ٣٠ / ٥٥ .

(*) ينظر سورة (المؤمنون) آية : ١١٦ . وفي الاية التي نحن بصددها حسن تعليل بديع في قوله (ليبلوكم) مما يضفي على الاية قيمة بلاغية .

والمغفرة إذا أناب إليه . والله — كذلك — غالب في انتقامه ممن عصاه :

« وهو العزيز الغفور »

قال الطبري : « هو القوي الشديد انتقامه ممن عصاه وخالف أمره الغفور ذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه » (١)

ومن قدرته — سبحانه — : خلق السماوات العلى بكمالها وجمالها المعروضين للتفكر والتأمل :

«الذي خلق سبعَ سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصرَ هل ترى من فطور ثم ارجع البصرَ كرّتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير» .

نلحظ في تركيب الايتين أسلوب الانشاء الطلبي (*)، ويتمثل في أسلوب الأمر (فارجع البصر ... ثم ارجع البصر) ، وأسلوب الاستفهام (هل ترى من فطور) . وقد أسهم في صورة حيوية فاعلة في جلاء المعنى الكامن والمتمثل بـ (الكمال) في خلق السماوات ، بعد أن نبهت الاية على عظمة الله بتكرار اسم الموصول (الذي)، وهو يلقي — كذلك — بظلاله (التعظيم) على هذا الخَلْق ، فهو خلق عظيم ، وصعّد من تصوير عظمته قوله : «خلْقُ الرحمن من تفاوت» بدلا من قوله بالضمير ، (خلقهن) تنبيهاً على عظمة خلقهن ، قال الزمخشري :« وحقيقة التفاوت : عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولايلائمه ... وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : (خلق الرحمن) تعظيماً لخلقهن ،وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت : وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب») (٢) .

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢/٢٩ .

(*) الانشاء الطلبي : هو الكلام الذي يستدعي مطلوباً او شيئاً غير حاصل وقت الطلب ، وهو خمسة أنواع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء .

(٢) الكشاف : ٤/ ٤٦١ .

فالاتيان بما تضمنتاه من إنشاء طلبي تستدعيان أمر : التفكر والتأمل في هذا الخلق العظيم ، والانشاء يحقق هذا الأمر في صورة حيوية فاعلة ، إذ يعمل على مضاعفة إحساس المتلقي بالفكرة التي يهدف إليها التعبير القرآني .

ففعل الأمر (فارجع البصر) أوحى بمعنى مجازي يتمثل في (الاعتبار) بخلق السماوات ، ويتضاعف هذا الإحساس بالمعنى بالاستفهام (هل ترى من فطور؟) الذي دلّ مجازاً على معنى (النفي) ، نفي أن يكون في السماوات من فطور أي « من صدوع أو شقوق » (١) ، ويمكن توجيه الاستفهام على معنى الاستبعاد والاستحالة ، استحالة أن يقع البصر على فطور ، وكلا المعنيين المجازين يتناسب مع الهدف الذي ترمي إليه الايتان .

فالاستفهام يقرر حقيقة الكمال المطلق في خلق السماوات ويؤكده . ولكي يثبت السياق هذه الحقيقة في العقول والقلوب ، فإنه يعمد إلى أسلوب التحدي الأكثر إثارة للمتلقي ، وذلك بتكرار فعل الأمر (ثم ارجع البصر كرتين) وهو إطناب يزداد الأسلوب به تحدياً وإثارة ، فيعمل بشكل فاعل على الارتقاء بحالة المخاطب تأملا وتفكراً لتحقيق الاستجابة النفسية التي يرمي إليها القرآن وهي الوقوف على المعنى وراء هذا الخلق العظيم .

وليس المراد (بكرتين) العدد نفسه (التثنية) وإنما هو دلالة على الكثرة (٢)، كثرة التطواف بالبصر والقلب والفكر في تملي خلق السماوات .

وبعد هذا التطواف المتكرر : « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أي : «يرجع إليك بصرك خاشعاً ذليلا ، لم ير ما تريد (وهو حسير) أي وهو كليل متعب قد بلغ الغاية في الإعياء » (٣) ، وفي التعبير القرآني كناية

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٢ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٤/ ٤٦١ : وصفوة التفاسير : ٣/ ٤١٦ .
(٣) صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٦ .

موحية بكثرة النظر ، كما أنها توكيد — في الوقت نفسه — لمعنى الكمال المطلق في هذا الخلق العظيم ، ودلالة بالغة على خالقه العظيم — سبحانه —.

فتوظيف السياق القرآني لأسلوب الانشاء الطلبي يرمي إلى معان عميقة تتجاوز المعاني الظاهرية الحقيقية للأمر والاستفهام ، وقد دلّ على هذه المعاني وحددها السياق الذي تآلفت فيه ، وهي معان عميقة لأنها تعد نقلة كبيرة للمخاطب فكراً وحساً وروحاً من حيز وواقع محدود متمثلا بالأرض التي يعيش فيها إلى عالم كبير هو عالم السماوات ، وذلك من خلال مايثيره هذا الأسلوب من خيال في المتلقي يعمل على إدراك المعاني والتفاعل معها وصولا إلى المعنى الكبير الذي تهدف إليه السورة .

ويتواشج الكمال في خلق السماوات مع الجمال على صعيد واحد ، بل إن الكمال في الخلق يستلزم الجمال ، فهما اعتباران لحقيقة واحدة : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير» .

والاية تكشف مفهوم الجمال وتجليه بلفظة (زينا) ، فالجمال في الاية مقصود ، فهو اعتبار لحقيقة الكمال والإبداع في الخلق . والجمال يتبدى للمتلقي من خلال زينة السماء الدنيا بالمصابيح الساطعة المتلألئة للعين والفكر ، وهي تبعث في عقل الإنسان ونفسه مشاعر الإحساس بالجمال وهو يتملى هذا الخلق .. وهو أظهر مايتجلى في خلق السماء الدنيا .

فالجمال في القرآن يحتل مساحة واسعة فيه يرتقي بالانسان حساً وعقلا وشعوراً ، والجمال في القرآن ليس جمالا منحصراً في السماء ، بل يمتد على مساحات واسعة في العالم والطبيعة ، وقارىء القرآن يلتقي به « في كل زاوية من زوايا الكون ومنعطف من منعطفات الطبيعة .. ويلتقي به كذلك من خلال الحياة في تدفقها الابدي .. ومن خلال النبات والحيوان .. ثم من خلال

الانسان نفسه ، سيد المخلوقات الذي خلقه الله سبحانه في « أحسن تقويم »(١) والذي صوره فأحسن صورته ، فالجمال في صميم العالم والطبيعة ، وفي قلب الحياة والأحياء ، وفي تركيب المخلوقات ، وفي جسد الإنسان ، وملامح وجهه ، والجمال في العلاقات (المتناسبة) ، والتوزيع الفذ ، والمساحات المتناظرة بين الأشياء ، بعضها مع بعض ، وبين المخلوقات بعضها مع بعض.. بدءاً بتركيب الذرة ، وانتهاءاً بالعقل والروح وقوة الإرادة .. والجمال في القيم المنضبطة الموزونة ، التي يتحرك الانسان بهديها ، وعلى ضوئها وإلزامها » (٢) .

ولابد من الإشارة المهمة التي نؤكدها — غير مرة — : إن الجماليات التي يوصلها التعبير القرآني — كما في الاية — ترتبط بغايات القرآن ومقاصده ، فالجمال وسيلة فاعلة لتحقيق أهداف القرآن ، إذ أن « الخلق الجمالي في العالم والطبيعة ، ليس هدفاً بحد ذاته ، وإنما هو وسيلة أريد بها تمكين الإنسان من التحقق بعلاقة أكثر حيوية وتدفقاً وصميمية بالكون .. الأمر الذي يقوده إلى خالق الكون ، من خلال أشد نقاط الارتكاز في شخصيته قدرة على التواصل والفاعليه » (٣) .

ومن هنا فإن المفهوم الجمالي في القرآن يتقاطع إن لم يتناقض تماماً مع مفهوم الجمال في الفلسفات والمذاهب المتضاربة المتباينة . فليس الجمال في القرآن غرضاً بحد ذاته ، وليس في القرآن (برناسية) تدعو إلى (الفن للفن) (٤) ، أو (الجمال للجمال) ، وإنما الجمال في القرآن وسيلة حيوية فاعلة في تحقيق أهداف القرآن التي هي في محصلتها لصالح الإنسان .

(١) سورة التين : ٤ .

(٢) مدخل الى نظرية الأدب الأسلامي ، د. عماد الدين خليل ، ص ١١ . وينظر : حديث عن الجمال في الاسلام ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، ص ١٠ .

(٤) ينظر مثلا : الجمالية ، ر، ف . جونسون ، ترجمة : د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص ١٦ ومابعدها .

والاية توحي بثراء الدلالة واتساعها ، فالمصابيح بما تبعثه من جمال نور وهداية (*) ، توحي على الضد منها (الشياطين) بالظلام والضلال .
فالجمال والنور والهداية هي اعتبارات وحقائق مركوزة في صميم الوجود ، وهي ثابتة واضحة ، ونقيضها المعاني التي توحي بها الشياطين ، وهي طارئة زائلة تنتهي هي واتباعها من الكافرين — الذين أخرجتهم من النور إلى الظلمات — (١) إلى جهنم كما توضح السورة ذلك .

ومثلما أقرت الاية رجم الشياطين في الدنيا ، وعذاب السعير في الاخرة ، كذلك فإن للذين كفروا العذاب في الدنيا ، والعذاب في الاخرة سواء بسواء ، وذلك بسبب العلاقة الملحوظة بين الشياطين والذين كفروا :
«وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير» .

ثمة نلحظ الوصل (بالواو) ،لاشتراك الاية في الحكم مع الاية السابقة ، وذلك للجهة الجامعة بين الشياطين والكافرين واشتراكهما في العذاب ، وفي هذا الوصل ايحاء بشدة العذاب وفظاعته ، اذ يقترن مع الشياطين أعداء الله ويصعد من شدة العذاب وفظاعته أسلوب التقديم في الاية ، حيث تقدم الخبر وهو المسند (وللذين كفروا) على المبتدأ وهو المسند إليه (عذاب) جهنم ، ولهذا التقديم (*) بلاغته ودلالته ،إذ أفاد معنى الاختصاص ، فعذاب جهنم مهيأ ومخصص للذين كفروا ، فليس ثمة مأوى لهم إلا جهنم ، فهم

(*) ذكر المفسرون ان للنجوم وظائف ثلاث : زينة في السماء ، ونور وهداية للناس ، ورجوماً للشياطين ، ينظر مثلا : جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٣ — ٤ . والكشاف : ٤٦٢/٤ . وصفوة التفاسير : ٤١٦/٣ . وقد اعتمد المفسرون على ماورد في القرآن من آيات تحدد هذه الوظائف ، منها الاية التي نحن بصددها إذ تحدد وظيفتين ، وآية أخرى برقم (٩٨) من سورة الأنعام .

(١) ينظر سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .

(*) التقديم : هو تبادل في المواقع ، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى ، لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي . ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، د. منير سلطان ، ص ١٣٨.

يختصون بعذابها ، والتخصيص يؤكد الوعيد الشديد ، ويهول عذاب جهنم ويعظمه ، كما أن التخصيص بمعناه ينسجم مع سياق السورة الكريمة أيما انسجام ، إذ أبرزت السورة في سياقها الروح الكامنة في غيبيات لانراها ولكن نؤمن بها — كما سيأتي مع صورة جهنم — إذ يجليها الأسلوب الاستعاري التشخيصي (* *) في صورة كائن حي هائج ممتليء غيظاً وغضباً على الكافرين. وهذه الروح الكامنة في الموجودات جميعاً — المنظورة وغير المنظورة — يجليها القرآن في مواضع اخرى أجلى بيان (١) .

فالكون وما فيه من مخلوقات كلها منقادة لله ، وحدة واحدة ، تؤمن بربها وتسبح له بروحها الخاصة التي لاندركها ، لذلك تغتاظ السماوات والأرض وكل الموجودات من الكافرين في الأرض ، وتنكر على الكافرين كفرهم بغيظ وتعجب ، ومع جهنم — بوجه خاص — وهي من الموجودات غير المنظورة الان — نحس في وصف عذابها التصويري المروع للقلوب والنفوس معنى الإنكار والتعجب من الكافرين بربهم على نحو جلي .

فالتخصيص في الاية ينسجم مع هذا الملمح الفكري والروحي ، تهويلا وتفظيعاً لعذاب الكافرين الذين انحرفوا عن طريق الحق القديم الثابت في صميم الكون والمخلوقات. فجهنم مخصصة لهم ، وأنهم أصحابها

(**) التشخيص : هو إضفاء الصفات الإنسانية على مالا يعقل في الطبيعة ، فيبث الحياة والحركة في مفاصل الصورة ، وقد عبر عبد القاهر الجرجاني عن ذلك بقوله « فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية » أسرار البلاغة ، ص ٤١ . والتشخيص هو عملية نفسية صرف ، ووظيفته التأثير في نفس المتلقي ، إذ يظهر التشخيص العبارة القرآنية وهي نابضة بعناصر الحياة من خلال تخيل الحياة في غير الأحياء ، وإضفاء الصفات الأنسانية على الموجودات فيزاح بذلك العطاء المادي عن الجمادات فتكشف عن روحها ، فتتجاوب روح الانسان معها فيتعمق شعوره وإحساسه بهذه الموجودات ، الخيال هو المبدأ الجوهري في أسلوب التشخيص إذ يعمل على تمثيل المعاني تمثيلا واضحاً ، يتأثر بها الانسان المتخيل أبلغ تأثير .

(١) ينظر سورة الاسراء : ٤٤ . وينظر بداية السور الاتية : الحديد ، والحشر ، والصف والجمعة ، والتغابن .

الجديرون بها دون غيرهم ، جزاءاً على كفرهم بربهم العظيم الذي يؤمن به ويسبح له كل شيء .

وفي هذا يتجلى لنا ملمح جمالي آخر على صعيد الانسان والقيم والأخلاق يتواشج مع الجمال في السماء الدنيا الذي نبهت عليه السورة ، وهذا الملمح الجمالي يتمثل في : أن الحياة الايمانية تمثل حالة التوافق والإنسجام والألفة مع الطبيعة والحياة . وأن الحياة الكافرة تمثل حالة الأنحراف والإصطدام بسنة الكون والطبيعة والحياة .

وجلاءاً لمعنى الإنكار والتعجب الذي توحي به جهنم ، يوظف سياق السورة الاسلوب الاستعاري التشخيصي في تصويرها ، وتصوير أصحابها الضالين الكافرين ، وبهذا الأسلوب تشخص جهنم — وهي نابضة بالحياة والحركة — في لوحة متكاملة مفزعة رهيبة (*):

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .

ثمة نلحظ جهنم بالاستعارة المكنية التشخيصية وهي مخلوق حي ضخم هائج له شهيق ، والشهيق هو الصوت الفظيع (١) القبيح المنكر ، وهي تكاد تتقطع من الغيظ من شدة الغليان ، فنيرانها مشبوبة هائجة تغلي حنقاً وغيظاً

(*) وتتضح أبعاد اللوحة المفزعة الرهيبة لجهنم لو قرأنا الايات الاستعارية التشخيصية الأخرى التي صورت جهنم وهي : قوله تعالى من سورة الفرقان ، آية ، ١١ — ١٢ ، «بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » وقوله من سورة المعارج ، آية : ١٥ — ١٨ . « كلا إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فاوعى » وقوله من سورة ق ، آية : ٣٠ «يوم نقول لجهنم هل أمتلات وتقول هل من مزيد» . إذ تكتمل اللوحة لجنهم فنرى لها خواص وعناصر جديدة هي الرؤية والحوار فضلا عن التغيظ والشهيق والزفير ، وبذلك تشخص جهنم متحفزة تنتظر الكافرين على غيظ وحنق وهي تراهم من مكان بعيد ،وهي تسأل فتجيب بشراهة وظمأ لا يعرف الإكتفاء ، وهي تتكلم وتدعو الكافرين فلا يفلت منها أحد .

(١) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٧ .

على الكافرين . وهذا التصوير مقصود يبث الخوف في النفوس والهلع . قال الزمخشري : « إذا ألقوا فيها ، أي طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ، ويرمى به .. (سمعوا لها شهيقاً) تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، (وهي تفور) تغلي بهم غليان المرجل بما فيه . وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً» (١) ، فالاستعارة المكنية التشخيصية فيها تشبيه جهنم بمخلوق حي هائج ، ثم حذف المشبه به وأبقى في التعبير خاصية من خواصه تمثلت بـ (بالشهيق والتغيظ) على سبيل الاستعارة المكنية .

والكلمات المختارة في صورة جهنم شديدة الايحاء بمعناها ، وكأن المعنى يصور بالألفاظ « شهيقاً وهي تفور » و« تكاد تميز من الغيظ » فحروف هذه الكلمات بموسيقاها تصور المعنى تصويراً دقيقاً لجهنم وهي مغتاظة غاضبة (*) .

لذلك فإن هذه الألفاظ الاستعارية المسموعة هي كالصور وكأنها شاخصة أمام العين ، وهذا ما عبر عنه ابن رشيق وهو ينقل رأي بعض النقاد في أن «الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار » (٢) أو كما عبر ابن سنان الخفاجي عن ذلك بقوله: « تجري من السمع مجرى الألوان من البصر» (٣).

---

(١) انكشاف : ٤/ ٤٦٣ .

(*) إن اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في العطاء الموسيقي ذلك أن الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ولكنها تنبع من اللغة نفسها ، من أئتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتناسقها وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالته عليه ، وقد بلغت هذه الخصيصة - تصوير المعاني بالألفاظ - في القرآن الذروة في التكامل والوضوح ، الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، د. كاصد ياسر حسين ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ . وينظر في دلالة الجرس على المعنى : دلالة الألفاظ ، د. ابراهيم أنيس ، ص ٦٢ ومابعدها . وجرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي هلال ، ص ٢٨٨ . ومابعدها .

(٢) العمدة ـ ١/١٢٨ .

(٣) سر الفصاحة : ٦٦ .

ويقول ابن الأثير واصفاً الألفاظ : « فالذي يستلذه السمع منها ، ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح »(١). ولاشك في أن المفردات الاستعارية التي صورت جهنم هي معبرة مؤثرة في السمع ، وذلك مقصود لتحقيق الاستجابة في النفس المتلقية من خلال إثارة الانفعال المناسب المتمثل بالخوف والهلع والتحذير من الوقوع في جهنم .

وساهم أسلوب الاستفهام التقريري في الاية : « ألم يأتكم نذير » في تصوير العذاب الشديد ، فالاستفهام معناه : توبيخ الكافرين وترذيلهم ، فليس ثمة عذاب أشد وقعاً وتأثيراً من توبيخ الضائق المكروب وتأنيبه ، فالاستفهام أداة حيوية في تصوير هذا العذاب النفسي الذي يواجهونه فوق عذابهم المادي في جهنم ، قال الصابوني : « وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ، ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم ، وعذاباً فوق عذابهم » (٢) .

وهذا النوع من الاستفهام لايحتاج معه المتكلم (السائل) إلى جواب من المخاطبين (أصحاب جهنم) ، لأن التقرير معناه أن «تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده ، لكنك تخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام ، ذلك لأنه أوقع في النفس ، وأدل على الإلزام » (٣) فيكون الغرض من الاستفهام في الاية إقرارهم بمجيء النذير ، لما في الاستفهام من حجة دامغة يصعّد من تصوير العذاب والموقف المخزي ويؤكده :

«قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إنْ أنتم إلا في ضلال كبير»

وتقترن بإجابتهم ظواهر بلاغية تعمل على نحو فاعل في كشف نفسية هؤلاء الكافرين المكذبين للنذير في حياتهم الدنيا ، استحقوا بها عذاب جهنم المادي والمعنوي ، فأسلوب النفي في ردهم للنذير « وقلنا : مانزل الله

---

(١) المثل السائر : ١/١١٤ .

(٢) صفوة التفاسير : ٣/٤١٧ .

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها . د. فضل حسن عباس ، ص ١٩٠ .

من شيء » يجلي إمعانهم في التكذيب ، وتماديهم في النكير ، فهو أسلوب مؤكَّد بـ (من) ينكرون فيه أن الله نزل شيئاً عليهم وعلى غيرهم ، بهذا العموم وهذا الإطلاق ، فأسلوب النفي المؤكد يكشف عن ادعائهم العريض الفارغ ، وعن غرورهم وتبجحهم ، وعن سخريتهم من الرسول النذير.. ثم يضيء (أسلوب القصر) المؤكد بالنفي والاستثناء على نحو أجلى نفسيتهم الكافرة المتبجحة على الله ورسله بقولهم للرسل المنذرين : « إنْ أنتم إلا في ضلال كبير» فهو اسلوب مكثف ينطوي تحته النفي والاثبات : نفي وظيفة (الانذار) عن الرسل ، واثبات (الضلال الكبير) لهم ، فوسموا رسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم – بالضلال بهذا الاسلوب المؤكد ، إذ حصروا مهمة الرسل ووظيفتهم في دائرة الضلال لايتعدونها إلى غيرها بزعمهم – ، وكأن الرسل المنذرين (بالقصر) يجسّمون في صورة الضلال بل هم الضلال بذاته كما صور ذلك حرف الجر (في) فقد جاء في سياق قولهم بالمعنى الاستعاري التصريحي ، وذلك بأنتقاله من مجال متواضع عليه إلى مجال مجازي جديد (*)، ومن شأن هذا الاستعمال الاستعاري للحرف أن يعطي لتركيب الاية ايحاءاً وخصوبة في التعبير عن المعنى الذي يهدف إليه القرآن .

فالحرف (في) الاستعاري منح سياق الاية قوةً في التعبير عن موقف الكافرين من رسل الله المكرمين ، إذ أصبح (الضلال) وهو معنى معنوي (تجريدي) بحرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية المكانية في استعماله الأصلي

(*) قد ألمح الزمخشري الى تسمية هذا النوع من الاستعارة في الحرف بالتصريحية في كشافه وذلك في تحليله للام الواردة في قوله تعالى :« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً..» ٣/٣٠٩ ، وقد ورد في القرآن كثير من الايات استعملت فيها الحروف ، استعمالا استعارياً . ينظر للمثال السور الاتية : البقرة : ٥ ، ١٣٧ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ . وآل عمران : ١٦٤ . والانعام : ٧٤ ، ٩٣ ، ١١٠ . والاعراف : ٦٠ ، ٦٦ ، ١٨٦ ، ويونس ، ١١ . وهود: ١٧ ، ٢٨ ، ٦٢ ، ١١٠ ، ١١١ ، . والحج : ٦٧ والنمل : ٧٩ . ولقمان : ٥٠ وسبأ ، ٢٤، وغيرها من السور الكريمة .

أصبح وكأنه أوعية لهم ، متلبس فيهم ، متمكن منهم أشدّ التمكين ، وهو تصوير يوحي بشدة اتهامهم للرسل المكرمين بالضلال ، وشدة الغضب عليهم ، وقوة دافع الانتقام منهم ، وبهذا تتناسق هذه الاستعارة الحرفية مع سياق الاية ، فهي منبئة كاشفة عن نفوس الكافرين الممتلئة تبجحاً وغروراً وضلالا ، على نحو واضح مصور ، لاجزاء لهم عليه إلا عذاب جهنم .
ثم تأتي الأداة (لو) كاشفة عن حسرة الكافرين أصحاب السعير وعذابهم بعد إعترافهم بكفرهم بالله وبرسله وبالعذاب الذي لم يصدّقوا بوقوعه : «وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ماكُنّا في أصحاب السعير. فأعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير» .

فالكفر صورة من صور الطمس والإرتداد على الأدبار ، وتعطيل – كما بيّنت الاية – لقوى الإدراك في الإنسان ، وهي قوى هادية الى بارئها المالك القدير ، وهي تنجي من عذاب جهنم . والسياق يستعمل الأداة (لو) وهي حرف امتناع لامتناع – على لسان الكافرين وهم في مثواهم جهنم ، ولهذا الأستعمال نكتة بيانية تتعلق بحالهم النفسي : إذ فيها ايحاء شديد بالندم والحسرة على ما انتهوا إليه من مصير ، والنفي (ماكنا في أصحاب السعير) فيه اعتراف وتحسر على أنفسهم ، ويصعد السياق معنى التحسر والاستهزاء بهم وعلى لسانهم – بالأستعارة التهكمية (أصحاب) ، لأن أصحاب تستعمل أصلا في مجال الخير والصدق والكرم ، جاء في أساس البلاغة :« صحبه فأحسن صحابته ، وصاحبه صحاباً كريماً ، واصطحبوا وتصاحبوا ، وهما خير صاحب ومصحوب ، ووجدته صاحب صدق.» (١) وهذا النوع من الإستعارة يقوم على « استعارة اسم أحد الضدين او النقيضين للاخر بواسطة إنتزاع شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم » (٢).

(١) للزمخشري ، مادة (صحب) ، ص ٢٤٩ .
(٢) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ١٧٧ .

فالاستعارة تحقق دلالتها البليغة المؤثرة في المتلقي ، إذ أن التضاد الحاصل عن طريق العكس في الكلام يحقق إيصال معنى الاية على نحو أشد وقعاً ، وأكثر ألماً في النفس المتلقية لما فيه من إظهار التحسر والندم ، كما انّ الاستعارة تشير إلى ان الكافرين هم الجديرون بجهنم وعذابها ، فهي خير صاحب لهم وصديق ، وإن كانت بئس الصاحب وبئس الصديق .

«فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير» .

قال الطبري : « فأعترفوا بذنبهم : فأقروا بذنبهم ... فسحقاً لأصحاب السعير : فبعداً لأهل النار» (١) . وقال الزمخشري : « بذنبهم : بكفرهم في تكذيبهم الرسل (فسحقاً) أي : فبعداً لهم ، اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لاينفعهم» (٢) .

و« سحقاً» جملة انشائية دعائية من الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم ، والدعاء من الله قضاء . أي : « أبعدهم الله من رحمته وسحقهم سحقاً» (٣) وايقاع لفظة (سحقاً) طاقة مضافة في التعبير ، فهي تصور المعنى بجرسها الموسيقي فيتناسق مع السياق ويتسق في تصعيد العذاب وشدته على هؤلاء الكافرين الذين لارجاء لهم في مغفرة ، ولامأوى لهم إلا السعير ، فهم أصحابها الملازمون لها .

ثم تأتي الصورة المقابلة (*) لصورة جهنم وأصحابها الكافرين ، صورة الذين يخشون ربهم بالغيب ومايبالونه من مغفرة وأجر كبير ، على طريقة

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/٤ .
(٢) الكشاف : ٤/٤٦٤ .
(٣) صفوة التفاسير : ٣/٤١٧ - ٤١٨ .
(*) المقابلة والطباق معناهما واحد . ويراد بهما اشتمال التعبير على كلمتين متضادتين أوجملتين متقابلتين . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب : ٢/٥١ . ومابعدها .

القرآن في تقابل الصورتين (**) : صورة العذاب (ترهيباً) ، وصورة النعيم : (ترغيباً) :

« إن الذين يخشَوْن ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير »

والتقابل بين الصورتين المتضادتين يجلي تمايزهما على نحو عميق ، ويعمل بصورة حيوية فاعلة على جلاء المعنى وتقريره في النفس المتلقية لإحداث الاستجابة النفسية (ترهيباً وترغيباً) لأهداف القرآن ومقاصده .

وانسجاماً مع معنى خشية المؤمنين من الله (بالغيب) أي : « يخافون ربهم بالغيب وهم لم يروه » (١) ، تأتي الاية بعدها متعلقة بها ، وقد وظف (الطباق) لجلاء المعنى وتوكيده :

«وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنهُ عليم بذات الصدور»

والتضاد الحاصل بالطباق بين الفعلين (أسروا) و(اجهروا) من شأنه أن يجلي حقيقة علم الله المطلق ، ويؤكدها في النفوس والقلوب ، من خلال ابراز التناقض بين الفعلين بوصفه وسيلة حيوية للإبانة عن الشيء . فالله - سبحانه - يتساوى عنده السر والجهر ، بل إن علمه يتجاوز السر إلى ماهو أخفى منه « إنه عليم بذات الصدور» أي : عليم « بضمائر الصدور التي لم يتكلّم بها » (٢) فهو يعلمها ، ويعلم خلجات الشعور ، وماهو ملازم للصدور .. فالطباق فضلا عن قوله : « إنه عليم بذات الصدور» الذي يتآزر في الاية مع الطباق في الإبانة والكشف عن حقيقة علم الله المطلق ، الذي لايند عنها شيء مهما كان خفياً . وهو معنى كبير يعمل - متى ما استقر في القلب والنفس وهو مايهدف إليه القرآن - على بعث الرقابة الدائمة

(**) ينظر مثلا السور الاتية : البقرة ، آية ٢٥ - ٢٦ ، ٣٩ : ٤٠ . النساء - ١٤ - ١٥ ، ٥٧ - ٥٨ . المائدة : ١٠ - ١١ - الكهف : ٣٠ - ٣١ . الدهر : ٥ - ٦ ومابعدها وغير ذلك كثير .

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩ / ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

والتقوى من الله ، فلا يكون من الانسان الذي اختاره الله للابتلاء والأختبار إلاّ الخير الدائم الموصول .

وتوكيداً لهذه الحقيقة – حقيقة علم الله المطلق – التي يجهلها الجاهلون ، وينكرها المنكرون ، يوظف السياق أسلوب الاستفهام :

«ألا يعلمُ من خلَق وهو اللطيف الخبير» .

فالاستفهام (ألا يعلمُ مَنْ خلَق) خرج إلى معنى الإنكار والتعجيب من المنكرين ، أي : « ألا يعلم الخالق مخلوقاته ؟ كيف لايعلم من خلَق الأشياء وأوجدها سرّ المخلوق وجهره ؟ (وهو اللطيف الخبير) أي والحال أنه اللطيف بالعباد ، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، الخبير الذي لايعزب عن علمه شيء ، فلا تتحرك ذرة ، ولاتسكن أو تضطرب نفس إلا وعنده خبرها » (١) فالاستفهام فضلا عن أنه أداة حيوية للإثارة والتنبيه على حقيقة علم الله المطلق لما يثيره في العقول والنفوس من تساؤل ، فإنه كذلك أوحى بالإنكار والتعجب ، فهو إنكار على المنكرين الذين يَسْتخْفونَ بأقوالهم وأفعالهم ظناّ منهم الإفلات من علم الله المحيط ، وهو تعجيب ممّن يظن أن الحقيقة كذلك فاللهُ خبير بما يعملون ، ولايندّ عن علمه كلّ خاف ومستور .

ولايخفى أن في الاية والتي سبقتها – كذلك – ايحاء التحذير والتهديد بالكافرين المنكرين الذين لايؤمنون .

ومن دلائل قدرته في ملكه وامتنانه على العباد قوله :

« هو الذي جعل لكم الأرضَ ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» .

---

(١) صفوة التفاسير : ٣/٤١٨ .

نلاحظ عدة ظواهر بلاغية في تركيب الاية تضافرت على توصيل المعنى توصيلا فنياً جمالياً . والظواهر البلاغية تمثلت في الاستعارة المكنية (الأرض الذلول) والكناية في (مناكبها) ، والتقديم والتأخير في (وإليه النشور) ، فضلا عن فعلي الأمر (فأمشوا) و(كلوا) اللذين أكدا بما خرجا إليه من معنى مجازي فكرة (الامتنان والاعتبار) ، ، امتنان الله — سبحانه — بمصادر الرزق على العباد لعلهم يعتبرون ، وإليه يهتدون (*) .

والاستعارة المكنية (الأرض الذلول) استعارة بديعة موحية ، وفيها تشبيه الأرض بدابة ذلول ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى خاصية من خواصه (ذلولا) على سبيل الاستعارة المكنية . فالذلول صفة من صفات الحيوان ، كما جاء في القرآن : «أوَ لَمْ يَرَوا أنّا خَلَقْنا لهم ممّا عَمِلَتْ أيدْينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذلّلْناها لَهُمْ فمنها رَكوبُهُمْ ومنْها يأكلون» (١) ، يقال : «بعير ذلول . وفرس ذلول . إذا أمكن من ظهره ، وتصرّف على مراده راكبُه . وضدّ ذلك وصفهم للمركوب المانع ظهره ، والممتنع على راكبه بالصّعب والمصعَب . والمعنى : أنه سبحانه جعل الأرض للناس كالمركوب الذلول ، ممكنة من الإستقرار عليها ، والتصرُّف فيها ، طائعة غير مانعة ، ومذعنة غير مدافعة» (٢) . فإخراج صورة الأرض بالدابة الذلول صورة موحية بالعطاء المتجدد الذي لا ينفد ، وهي وإنْ كانت تبدو إستعارة قريبة ، فإنّ فيها من المعاني الكثيرة التي تكشّفت في صفة (ذلولا) إذ تتجدد معانيها مع الزمن ، بتجدد عطاء الأرض في الوان النعيم والخيرات. والكناية في الآية (مناكبها) موحية بفرط التذليل الرحيم . قال الزمخشري : «المشي في مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ، لأن المكبين وملتقاهما من

(*) وفي الاية حسن تقسيم بديع في إخراج المعاني وتوصيلها الى القارىء أو السامع .

(١) سورة يس ٧١ — ٧٢ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ، ص٣٤٠ .

الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك. وقيل: مناكبها: جبالها. قال الزجّاج: معناه سهّل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ التذليل (١).

فالإفراط في التذليل لخيرات الأرض للإنسان رحمة من الله سبحانه —، وإذا كان معنى الأرض الذلول يعني في أذهان القدامى، معاني قريبة، كتذليل السير فيها، في برها وبحرها، واستغلال مواردها القريبة التي تتمثل في الزرع والحصاد... فإن العلم اليوم فضلاً عن هذه المعاني اهتدى إلى أشياء والوان من الخيرات التي لم تكن لتخطر في بال القدامى. لذلك فالعلم في كل يوم يكشف جانباً كان خفياً في النص القرآني في الفهم والإدراك لمعنى التذليل والتسخير للأرض.

وهذه الأرض الذلول التي تدر بألوان شتى من النعم الظاهرة والباطنة على هذا الإنسان برحمة الله التي هيأت الأسباب الكفيلة ليواصل الانسان حياته عليها ترتبط بغاية حكيمة تنتهي اليها، وهي تمثّل صورة من صور الابتلاء المذكورة في بداية السورة:

«واليه النّشور»

بتقديم الخبر (اليه) وهو المسند على المبتدأ (النشور) وهو المسند اليه، وقد أفاد هذا التقديم التخصيص، فالنشر لايكون إلاّ إلى الله وحده — سبحانه — فيسأل عباده عن شكر ما أنعم به عليهم.

ولهذا التقديم أثره النفسي في المتلقي، لأن الهدف من التقديم هو التركيز على المقدّم، والاهتمام به، والتفكير فيه، والتركيز النفسي عليه، لأنه الأهم، ولأنه أول ما تقع عليه العين فتتأثر به.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٤٦٥.

فالتقديم في الآية بلاغته ودلالته ، وهو ليس تقديماً من أجل الفاصلة فحسب ، وإنما هو تقديم من أجل المعنى قبل كل شيء وهو : تخصيص النشر بالله وحده دون غيره ، فضلاً عن الايقاع الفريد الذي أحدثته الفاصلة انسجاماً مع ايقاع السورة وجرسها الصوتي ، فليس رعاية الفاصلة هي التي اقتضت هذا التقديم ، وإنما اقتضاه المعنى في السياق اولاً ، ومنطق الإعجاز في القرآن يقتضي : «أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضي لفظها في سياقه ، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه» (١) وليس في هذا الكلام تهوين من «قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي لنسق القرآن الباهر الذي نجتلي فيه فنية البلاغة ، تؤدي المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع . فالبلاغة من حيث هي فن القول ، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ... وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر» (٢) .

ثم تأتي الآيات الأخرى بصياغتها الاستفهامية لتشكل طباقاً ضمنياً مع ما سبق من آية الأرض الذلول ، فيتجلى بهذا الطباق معنى قدرة الله بعمق — موضوع السورة الرئيس — وهي تفعل ما تشاء . كما يكشف الطباق بجلاء ضعف الانسان وعجزه أمام المالك القدير .

فمن شأن الطباق أن يثير التأمل والتفكير في المتلقي ، إذ يبعث فيه معاني تلك القدرة العظيمة التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ، فتجعله لا يستكين إلى الرزق القريب الأسباب الذي تمدّه به الارض الذلول التي إذا شاء الله أن يهزّها من تحته ، ويُمَوِّر السماء من فوقه ...

والاستفهام المتكرر مع الانكار والوعيد والتهديد يلقي في عقل المتلقي وحسه تلك المعاني والايحاءات بقوة تأثير تجعله دائم التوفز والحركة والخشية :

(١) الأعجاز البياني للقران ، ص٢٥٨ .
(٢) الاعجاز البياني للقرآن ، ص٢٥٨ .

«ءَأمنتم مَنْ في السماء أنْ يخسف بكم الأرضَ فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أنْ يُرسلَ عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير . ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير» .

الآيات وعيد للكفار المكذّبين (١) الذين قلوبهم في أكنّة ، وفي آذانهم وَقْر ، وعلى أبصارهم غشاوة . والآيات تمثّل مطارق متوالية على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لإيقاظها ، فهي معطّلة ، ليطلّعوا على الحقيقة التي هم عنها غافلون لاهون . فالآيات تهديد وإنكار ووعيد .

وقد ساهم الأسلوب الاستفهامي بحيوية وقوة تأثير في إخراج المعاني ، والاستفهام يتمثل بالأداة (الهمزة) في : «أأمنتم ... أم أمنتم ..» ، والأداة (كيف) في (فكيف كان نكير) . وصعّد من ايحاء الإنكار والتعجيب الذي أوحى به الاستفهام وتواشج معه أسلوب التهديد والوعيد المتمثل في (فستعلمون كيف نذير) .

وهذه المعاني المجازية من شأنها أن تفتح المنافذ أمامهم هنا وهناك للتفكير والتدبر . فهذه الأرض التي جعلها الله «ذلولا» يمشون فيها مطمئنين ، إذا شاء الله جعلها (تمور) أي : «تضطرب وتهتز بهم هزّاً شديداً عنيفاً» (٢) فيخسفها بهم كما خسفها بقارون (*) ، او يرسل عليهم (حاصباً) أي حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل» (**) (٣) .

فالاستفهام بالهمزة هو إنكار وتعجيب ، إنكار كفر الكافرين ، والتعجيب منهم ، فهم يأمنون مكر الله وعذابه ، ويطمئنون إلى هذه الحياة دون التطلّع إلى ايمان وشكر وحياة أخرى . والاستفهام بـ (كيف) خرج إلى التهديد والوعيد بهم عند معاينتهم لعذاب الله وعقابه .

---

(١) ينظر : صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٨ .

(٢) صفوة التفاسير : ٤١٨/٣ .

(*) ينظر سورة القصص ، آية : ٨٢ .

(**) ينظر : سورة هود ، آية ٨٣ في شأن قوم لوط . وسورة الفيل ، آية : ٤ .

(٣) ينظر : صفوة التفاسير : ٤١٨/٣ .

وها هي مصارع الغابرين ، وما حاق بهم من عذاب وعقاب فذاقوا وبال كفرهم :

«ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير»

ومصارع الغابرين الكافرين المكذّبين تنطق بآثارها بما تثيره في الحس والوجدان من قصص دالة على مصير الكافرين ، بسبب الكفر الذي أحلّ بهم عقاب الله وعذابه . والاستفهام بـ (كيف) : (فكيف كان نكير؟) خرج إلى الإنكار وتعظيم عذابهم ، انكار الله — سبحانه — كفرهم وتكذيبهم بعقابه ، كمايوحي الاستفهام بشدة العذاب الذي حاق بهم فهو غاية في الهول والفظاعة .

فالاستفهام أكسب المعنى خصوبة وامتلاءاً ، فهو مشحون بالايحاءات المحذّرة المنذرة من الكفر وعاقبته الوخيمة التي تؤدي إلى نار جهنم التي سبق وصفها الفظيع في السورة .

ولاشك في أن اسلوب الاستفهام الذي أخرج المعاني بهذه القوة التعبيرية الفنية المؤثرة ، هو في الوقت نفسه تسلية للرسول الأمين — صلى الله عليه وسلم — الذي جاهد نفسه مع هؤلاء الكافرين جهاداً كبيراً ، فالله هو القادر على كل شيء ، وأن الكافرين الجاحدين بقبضته — سبحانه — لا يفلتون منه .

وجلي أن الطباق الضمني بين آية الأرض الذلول بوصفها صورة من صور الرحمة الإلهية ، وبين الآيات الثلاث بعدها بوصفها صورة من صور العذاب والعقاب الإلهي ، يُجلّي وعلى نحو عميق المعنى الكبير الذي يتصل بمطلع السورة ، وهو قدرة الله وعظمته ، فهو بيده الأمر وهو على كلّ شيء قدير . ومن خلال تطابق الصورتين المتضادتين يتجلى — أيضاً — ضعف الانسان وعجزه أمام الله الذي يفيض برحمته على هذا الانسان الذي يكفر ولا يشكر ،

فيبدو الكفر غاية في البشاعة والجحود إزاء رحمة الله ورعايته وبركته ، وهذا معنى يوحي به الطباق الضمني لتفظيع الكفر وعاقبته الوخيمة .

ومن صور الرحمة الإلهية في ملكه ، رحمته بالمخلوقات الأخرى ، وقد ذكر السياق منها (الطير) ، فقد هداها الله لما خلقها ، ودبّر لها وقدّر ما تحتاج اليه برحمته ورعايته :

«أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطّير فوقَهم صافّات ويقبضْنَ ما يُمسكُهُنّ إلاّ الرحمن إنّه بكل شيءٍ بصير» .

نلاحظ الاستفهام (بالهمزة) ، وقد خرج معناه إلى (التوبيخ والتعجيب) ، تعجيب المخاطب من حال الطير وهو سابح في جو السماء بقدرة الله ورحمته، كما يوحي الاستفهام بالتوبيخ ، توبيخ الإنسان على غفلته عن هذه الآية ــ آية الطير ــ التي لفت اليها اسلوب الإستفهام لفتاً قوياً ، فهي تدلّل على عظمة الخالق ورحمته بمخلوقاته .

فالاستفهام في الآية أداة فاعلة في إثارة عقل المتلقي وحسه ووجدانه ليتأمل هذه الآية العجيبة ويتدبّر . وقد ساهم فن الطباق بين (صافّات) و (يقبضن) في تصوير هذه الآية ،وهو طباق دقيق في وصف عملية الطيران ، اذا طابق بين (صافات) اسم فاعل، وبين الفعل (يقبضن) ولم يقل(قابضات) كما قال (صافّات) ، وقد كشف الزمخشري عن سرّ هذا الطباق بقوله : فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ، ولم يقل : قابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة : لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مَدُّ الأطراف وبسطها ، وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيءَ بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافّات ،ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح» (١) ، فلما كان الغالب في عملية الطيران هو «فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبر

(١) الكشاف : ٤٦٥/٤ .

عنه بالأسم (صافّات) وكان القبض متجدداً عبر عنه بالفعل (ويقبضن).»(١).

واختيار هذه الألفاظ المعبِّرة المتناسبة مع الحدث هي من صفات القرآن ، فهو «شديد الدقة فيما يختار من لفظ ، يؤدي به المعنى» (٢) أكمل أداء ، وأجلى تصوير ، ليشعر به السامع أتمّ شعور وأقواه .

فدلالة الطباق في تصوير حركة الطير الخارقة في الجو التي تقع في كل لحظة تشي بالقدرة و العظمة يدعو القرآن المتلقي لتدبرها ، كما يوحي الطباق ايحاء الجمال والكمال في حركة الطير وهو يسبح في جو السماء بيسر وسهولة الكمال في الخلقة ، خلقة الطير ، والجمال المستمد من حركاته من تحليق وانخفاض وارتفاع . فالصورة بالاسلوب الاستفهامي والطباق فضلاً عن أنها مدعاة للتفكير والتدبر ، فإنها كذلك مدعاة للمتعة والترويح في مشاهدتها والتأمل فيها .

والكمال يتجلّى في تدبيره — سبحانه — وتقديره :

(ما يمسكهن إلاّ الرحمن)

بما دبّر — سبحانه — من نواميس في جوّ السماء وقدر ، وبما هيّىء للطير من خلقه على «شكل وخصائص تأتي منها الجري في الجو) إنه بكل شيء بصير) يعلم كيف يخلُق وكيف يُدَبر العجائب» (٣) ، فهو البصير ، بمخلوقاته ، ورحمته بها لا تغيب أبداً ، فهو (الرحمن).

ثم يعود سياق السورة وبأسلوب الاستفهام الذي يشكّل ظاهرة بلاغية بارزة فيها ، ليثير العقول ، ويلفت الانتباه بقوة إلى الحقائق التي عالجتها السورة ، ومنها على نحو خاص : حقيقة (القدرة والإرادة) التي يغفل عنها الكافرون :

---

(١) صفوة التفاسير : ٤١٩/٣
(٢) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، ص٥٨ .
(٣) الكشاف : ٤٦٥/٤ .

«أمْ مَنْ هذا الذي هو جند لكم ينصرُكُم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلاّ في غرور . أمْ من هذا الذي يرزقكم إنْ أمسكَ رزقَهُ ؟ بل لجوُّا في عُتُوٍّ ونفور . أفَمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى ؟ أمْ مَنْ يمشي سوياً على صراط مستقيم» .

فبعد أنْ خوّف اللهُ الكافرين بخسف الأرض الذلول من تحتهم ، وبإرسال الحاصب من فوقهم ، وبمصارع الغابرين من الكافرين الضالين من قبلهم ، يعود سياق السورة يخوّفهم مرة أخرى بعد أن عرّفهم بقدرته وتدبيره ورحمته من خلال مشهد الطير السابح في جو السماء ، يخوفهم بقوته — سبحانه — وبأسباب الرزق القريبة التي بين أيديهم يستمتعون .

(أَمْ مَنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن)

الاستفهام خرج إلى الإنكار ، وفيه ايحاء التوبيخ والتهديد . إنكار أن يكون للكافرين أنصار يدفعون عنهم العذاب . وفي الوقت نفسه هو توبيخ على أوهامهم وغرورهم ، وتهديد لهم بعذاب الله وعقابه .

«إن الكافرون إلاّ في غرور » . وأسلوب القصر (بالنفي والاستثناء) يفيد اختصاص الكافرين بالغرور ، فقد قصرهم في دائرة الغرور لايتعدون إلى غيرها ، وزاد التعبير قوة وحيوية الحرف (في) فقد شخص الكافرين وهم مغموسون في غرورهم ، بل يخرجهم التعبير القرآني في صورة الغرور ذاته ، وماغرورهم إلا « ظنهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى وأنها تنفع أو تضر» (١) . وهذا جهل عظيم منهم ، وضلال مبين ينكره القرآن بالاسلوب الاستفهامي أشد الإنكار .

«أمنْ هذا الذي يرزقكم إنْ أمسكَ رزقه بل لجّوا في عُتُوٍّ ونفور» . الاستفهام بالهمزة خرج إلى الإنكار ، وفيه ايحاء التهديد والتوبيخ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٦/٢٩ .

كالاية السابقة ، وهذا التكرار بالاسلوب الاستفهامي والمعاني والايحاءات من شأنه أن يعمق المعنى ويرسخه في أذهان المتلقين وعقولهم ... لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن .

فالاستفهام هو إنكار أن يكون لهم رازق غير الله ، وينكر عليهم أوهامهم وضلالهم ، وهو — أيضاً — توبيخ لهم وتهديد ، من عتوهم ونفورهم عن الحق والهداية . ورزقهم هو بيد الله — سبحانه — يفيض به عليهم برحمته ، ولوشاء لأمسك عنهم الرزق فسلب منهم الحياة التي وهبهم والطباق في الاية بين (يرزقكم) و(أمسك رزقه) يعمق الفكرة ، إذ الطباق بين الرزق وعدم الرزق من شأنه أن يلفت انتباههم إلى الحقيقة التي عنها يغفلون ، فبالتضاد تتمايز الأشياء وتتجلى للعقل والفكر والحس فيحقق التعبير هدفه في عقل المتلقي ونفسه ...

ولكن الكافرين في عتوهم ونفورهم مغموسون يتفكرون ولايتدبرون ولهذا فإن تركيب الاية يستعمل (بل) :

« بل لجوا في عتوٍّ ونفور»

و (بل) هنا تفيد الإضراب ، والإضراب هو : الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه ، أي : الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتقريع . فالكافرين فضلا عن أنهم لايتفكرون ولايتدبرون بأسباب الرزق التي يسّرها اللهُ لهم ، فهم في حالة أكثر فظاعة وأشد سوءاً ، وهي أنهم قد «تمادوا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار» (١) فالتعبير القرآني يكشف على نحو جلي حقيقة نفوس الكافرين المعرضة عن الحق المستكبرة ، فهم قد تلبّسوا — كما يُصور الحرف في — في طغيان عات ، وفي إعراض نافر عن الحق والهدى .

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٦/٢٩.

ولبيان حالة الكافر، وحالة المؤمن، فإن سياق السورة يوظف الاستعارة التمثيلية المصوِّرة للمعنى في كلتا الحالتين، وفي إطار الأسلوب الاستفهامي الإنكاري الذي يقابل بين الحالتين المتضادتين ممّا يزيد التعبير الاستعاري خصوبة وحياة. فالاستفهام(أداة حيوية فاعلة في الإثارة والإيقاظ، والمقابلة تعمل على توكيد المعنى وتقويته في نفس المتلقي وعقله فيتأثر به أبلغ تأثير.

أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمْ من يمشي سوياً على صراط مستقيم».

فالاستفهام بالهمزة خرج إلى الإنكار، إنكار أن يستويا مثلا في حياتهما ويوحي الاستفهام - كذلك - بإيحاء التعجيب، التعجيب ممّن يجعلهما يستويان.

والاستعارة التمثيلية هي «مثل للمؤمن والكافر» (١) على وجه التصوير الحسي، إذ استعار التعبير القرآني للكافر التركيب (يمشي مكباً على وجهه)، واستعار للمؤمن التركيب (يمشي سوياً على صراط مستقيم). ويجلي التركيبان المستعاران حقيقة كل منهما أجلى بيان للعين والفكر. فالكافر بالاستعارة التي بثت الحياة في مفاصل الصورة جسّدت حقيقة الكافر وقرّبتها بالطريقة الحسية الموحية الأكثر تأثيراً من الطريقة الذهنية التجريدية في الحس والوجدان وذلك لما فيها من «البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار» (٢) فالانكباب على الوجه يوحي بالتعثر والاضطراب والعمى، وكذلك الكفر فهو حاجب أبصار القلوب عن إدراك الايمان والهدى، فالكافر كالاعمى الماشي على غير هدىً وبصيرة.

والمشي سوياً على صراط مستقيم يستند إلى النور، وهو الإيمان الذي تحول بالصورة الحسية إلى حالة مجسدة لصاحبه، فهو النور الكاشف الهادي للطريق كما تهدي الأسرجة المنيرة جوانب الطريق للسائرين فيه فلا يضلون ولا يتنكّبون في ليل الكفر والضلال، فهم على هدىً وبصيرة.

---

(١) الكشاف: ٤/٤٦٦.
(٢) النكت في اعجاز القرآن، ص٩٢.

فالتصوير الاستعاري يحملنا عمداً على تخيل صورة جديدة لحال المؤمن من جهة ، وحال الكافر من جهة أخرى . وهذه هي فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنها «تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً» كما يقول عبدالقاهر الجرجاني (١) .

ثم يذكر تعالى الإنسان وبخاصة — الكافرون الجاحدون — بنعمه الجليلة التي أنعمها عليهم ، ليعرفوا فضل الله عليهم ، وليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والضلال ، فهم قد قابلوا نعم الله وما وهبهم من وسائل الهدى وأدوات الإدراك التي عطّلوها فلم ينتفعوا بها ، قد قابلوها بالكفر والإعراض وعدم الشكر :

«قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» .

استهلال الآية بفعل الأمر (قل) له دلالته وبلاغته في سياق الآية ، فمعناه على وجه الإلزام والوجوب (*) . لأن حقيقة أن الله أنشأ الانسان من العدم بقدرته لا يشك فيها العقل البشري على وجه الإلزام والوجوب . والتأمل في خلق الانسان (المادي والروحي) كما ذكّر القرآن بذلك فضلاً عن تأمل العالم والطبيعة يوصل إلى الايمان بالله الخالق العظيم على وجه اليقين .

وتوكيداً لهذه الحقيقة وترسيخاً لها في أذهان المتلقين ، فقد بُنيَ تركيب الآية على تقديم المسند اليه (هو) على الخبر الفعلي (أنشأكم) . وهذا البناء في التركيب من شأنه تقوية الحكم وتقريره ، لأنه «يجري في المقامات التي تدعو

---

(١) أسرار البلاغة ، ص٤١ .

(*) كما ان صيغة الفعل (قل) قد ترددت اكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن الكريم لتؤكد — والله أعلم بمراده — أن هذا القران من عند الله وان الرسول — صلى الله عليه وسلم مبلغ أمين عن ربه ليس له علم أن يزيد او ينقص أويحذف أو يهمل أمراً او حكماً ...

إلى التوكيد والتقرير مثل مواجهة الشك في نفس المخاطب والرغبة في إقناعه، ومثل ردّ الدعوى التي يدّعيها المخاطب ... وغير ذلك من مقامات التقوية والتقرير» (١).

والآية قد ذكرت بالترتيب: (السمع والأبصار والأفئدة) وهي وسائل الهدى والإدراك. وقد لحظ بعض العلماء هذا الترتيب والتقديم في الآية، انطلاقاً من أن القرآن الكريم قد «وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب» (٢)، فهو يقدّم الألفاظ أو يؤخرها حسبما يقتضيه المقام ولفائدة معنوية، فقالوا: إن القرآن قد قدّم السمع على البصر لأن السمع افضل (٣)، والظاهر: «أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع اولى» (٤). وذكروا غير ذلك من الأسباب (٥). وأفضلية السمع على البصر ملحظ لطيف تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة وتؤكد مدلوله. فهو إعجاز من إعجازات القرآن العلمية.

ونعمة الايجاد والإنشاء لهذا الإنسان من العدم تستلزم الشكر، فهي نعمة عظيمة، ولكن الشاكرين قليلون وعلى وجه من التوكيد:

«قليلاً ما تشكرون»

إذ أفادت (ما) في التركيب توكيد هذه الحقيقة، أي قلّما تشكرون ربكم على نعمه التي لا تحصى، قال الطبري: «قليلاً ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم» (٦).

---

(١) خصائص التراكيب، د.محمد أبو موسى، ص١٧٠.

(٢) التعبير القرآني، د.فاضل صالح السامرائي، ص٥١.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ٢٥٤/٣.

(٤) التعبير القرآني، ص٥٣.

(٥) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(٦) جامع البيان في تفسير القرآن: ٧/٢٩.

ثم تأتي الآية بعد ذلك تذكّر الإنسان أن إنشاءه والخصائص والنعم التي وهبه الله إياها بقدرته ورحمته ، إنما هي للابتلاء والاختبار في هذه الحياة الدنيا التي بعدها حساب وجزاء ، فالحياة ليست عبثاً لغير قصد أو غاية :

«قل هو الذي ذرأكم في الأرض واليهِ تحشرون»

فالخلق أو الذرأ في الأرض حقيقة يعيشها الانسان من فضل الله ورحمته ، وفعل الأمر (قل) يفيد الإلزام والوجوب لأنها حقيقة لا شك فيها ، فالله — سبحانه — هو الذي خلق الإنسان ، وهيىء هذه الأرض ويسّر فيها الحياة بما أودع فيها من النعم التي لاتُحصى ، ويسّر فيها الانسان الحركة والانتشار. ويقرِّر هذه الحقيقة ويؤكدها تقديم المسند اليه (هو)على الخبر الفعلي (ذرأكم).. وفي الآية اكثر من ظاهره بلاغية منحتها قوة تعبيرية في أداء المعنى وتوصيله إلى القارىء او السامع . فنلمح في الآية الطباق بين (ذرأكم) و (تحشرون) ؛ لإن الذرء وان كان بمعنى الخلق الا انه افاد معنى(الانتشار) والحركة في أرجاء الأرض . والطباق بما فيه من تضاد بين المعنيين فإنه يعمل على تعميق المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي وحسه ووجدانه ، فيكون الطباق وسيلة حيوية فاعلة في تقرير هذه الحقيقة والتذكير بها ، حقيقة أن بعد الخلق والنشر في الأرض ، والتمتع بنعمها غاية تنتهي اليها : وهي الحشر ثم الجزاء . وخصّص أسلوب التقديم والتأخير حقيقة الحشر إلى الله وحده دون غيره :

«واليه تحشرون» .

وهذه حقيقة لا شك فيها ، ولكن الكافرين الشاكين المرتابين لا يؤمنون بها :

«ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين» .

والاستفهام بـ (متى) يكشف عن حقيقة نفوس الكافرين الذين لا يؤمنون . فالاستفهام خرج إلى معنى الإستبعاد والإنكار ، فهم ينكرون الحشر والجزاء الذي يُجزَون فيه عما عملوا في الحياة الدنيا . والاستفهام يوحي — كذلك — باستهزائهم وسخريتهم من الحشر والجزاء ، أي : « يكون الحشر والجزاء

الذي تعدوننا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر ، وهذا استهزاء منهم» (١) .

ولبيان حقيقة علم الساعة والحشر التي يشك فيها الكافرون ، فإن السياق القرآني يوظِف اسلوب القصر بـ (إنمّا) مرتين لتأدية المعنى بدقة ووضوح : «قل إنمّا العلمُ عند الله وإنمّا أنا نذير مبين»

فقد خصّص اسلوب القصر (العلم) بالساعة وميقاتها بالله وحده لا تتعداه إلى غيره ، فالعلم بها عنده وحده دون الخلق جميعاً .

وخصص اسلوب القصر (الانذار) والبيان على الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«وإنما أنا نذير مبين»

أمّا العلم بالساعة والحشر فعند صاحب العلم الواحد الذي لا شريك له . فأسلوب القصر في هذا السياق أكد المعنى ، وأخرجه على نحو من الدقة والتحديد ، فعلم الساعة عند الله فلا يعلمها إلاّ هو ، ولايُجَلّيها وقتها إلاّ هو ، فهو المالك القادر . وأمّا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فله وظيفته : الإنذار المبين الواضح لا يتعداه ، بل إنّ التعبير القرآني يشخص الرسول في صورة المنذر لا يتعدى إلى شيء آخر توكيداً للمعنى على نحو من الوضوح الذي لالبس فيه ، وتفريقاً دقيقاً بين معنى الحقيقتين اللتين يهدف اليهما القرآن . وتخويفاً من أهوال الساعة ، وتقريباً لصورتها وأحوالها التي تسوء الكافرين المستعجلين بالعذاب وقيام الساعة ، فإن السياق يصوّرها وكأنها حاضرة للعيان والقلوب ، فيبغتهم بعذابها وهم بعد في الدنيا :

«فلمّا رأوهُ زُلفةً سيئَتْ وجوهُ الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون» .

---

(١) صفوة التفاسير : ٣/٤٢٠ .

قال الطبري : «فلمّا رأى هؤلاء المشركون عذاب الله زلفة : قريباً وعاينوه سيئت وجوه الذين كفروا : ساء الله بذلك وجوه الكافرين» (١) .

وبلاغة الآية الكريمة ترتكز على هذا الانتقال السريع المباغت المفاجىء للذين كفروا ، فهو ينقلهم فجأة من الدنيا إلى الآخرة لمواجهة ما كانوا به يكذّبون من العذاب الذي ينتظرهم ، فينقلب شكهم وارتيابهم بهذا العذاب إلى حقيقة ماثلة أمامهم يعاينوها بأبصارهم . فها هو العذاب الذي كانوا به يكذّبون في مشهد حاضر يبهتهم ، وقد صوّرت الكناية (سيئت وجوه) حالهم الذي هم فيه في ذلك الموقف بهذا الايجاز المكثف ، فالكناية دلالة بالغة عن آثار الاستياء الشديد التي ظهرت على وجوههم من الكآبة والغم والحزن ، قال الزمخشري : «سيئت وجوه الذين كفروا ، أي : ساءت رؤية الوعد وجوههم : بان عليها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة ، وكلحوا ، كما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب» (٢)

فالكناية (سيئت) تصوير مكثف لحالهم ، فهي موحية بمعان شتى عن موقفهم في ذلك اليوم . ويصعد سياق الآية من استيائهم بالتأنيب والتوبيخ والسخرية ، فقد كانوا في الدنيا يسخرون :

«وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون»

أي «وقالت لهم الملائكة توبيخاً وتبكيتاً : هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءاً وتكذيباً» (٣) . فالتعبير القرآني خبر خرج معناه مجازاً إلى التوبيخ والتبكيت .

وكان الكفار يتربصّون بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من المؤمنين أن يهلكوا فيستريحوا منهم حين دعاهم رسول الله إلى الله وخوّفهم عذابه (٤) ، فأمره اللهُ أن يقول لهم :

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/٨ .
(٢) الكشاف : ٤/ ٤٦٦ .
(٣) صفوة التفاسير : ٤٢١/٣ .
(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٧٦/٣٠ .

«قل أرأيتم إنْ اهلكنيَ اللهُ ومَنْ مَعِيَ أو رحِمنا فمَنْ يجيرُ الكافرين منْ عذاب اليم؟» .

والاستفهام في الآية : (فمن يجيرُ الكافرين من عذاب اليم) وسيلة فاعلة في التخويف ، وهو ما تهدف اليه الآية لتبعث في نفوس المخاطبين من الكفار حالة التدبر والتفكير في شأنهم ، والتراجع عن موقفهم الذي هم فيه . والاستفهام خرج معناه إلى الإنكار ، إنكار أن يكون للكافرين مجير من عذاب الله ، كما أن «وضع لفظ (الكافرين) عوضاً عن الضمير «يجيركم» تشنيع وتسجيل عليهم بالكفر» [1] ، فالتشنيع بالكفر يستفاد من أسلوب الآية التي وظّفت اسلوب التلميح الأكثر تأثيراً في النفس وأوقع ، فهو لم يواجههم بكفرهم صراحةً : «فمن يجيركم من عذاب اليم» وإنما قال : «فمن يجير الكافرين من عذاب اليم» .وهذا الأسلوب ، فضلاً عن الاستفهام من شأنه أن يفعل فعله في النفوس المخاطبة ، إذ يبعث فيها التفكير والتأمل لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف اليها القرآن . فالتلويح والتلميح بالعذاب الذي ينتظر الكافرين اكثر إثارة وتأثيراً من اسلوب التصريح . وفي هذا يتجلى الأسلوب القرآني الحكيم بإعجازه في مخاطبة النفس الانسانية فالله الذي خلق النفس الإنسانية أعلم بها من حاملها ، ويعلم أي الأشياء ترغبها وتنجذب اليها ، وأيها مدعاة للنفور والرهبة ... فهو يخاطبها بما يثيرها إثارة روحية رفيعة ليحدث الإستجابة النفسية ، ومن ثَمّ تحقيق مقاصد القرآن وأهدافه .

ثم يبين السياق القرآني حال المؤمنين وثقتهم بربهم الرحمن وتوكلهم عليه ، مع توظيف السياق لأسلوب التهديد والوعيد بالكافرين الذين هم في العذاب والضلال المبين :

«قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين» التقديم والتأخير في .(وعليه توكلنا) .يؤكد اطمئنان المؤمنين بايمانهم ،

---

(١) صفوة التفاسير : ٤٢١/٣ .

وتوكلهم على الله ـ سبحانه ـ دون غيره ، فقد أفاد تقديم مفعول (توكلنا) التخصيص : فالتوكل لايكون إلا على الله وحده ؛ ولفظ (الرحمن) يشير إلى رحمة الله بهم . وأما تأخير مفعول آمنا فلنكتة بيانية تتمثل في التعريض بالكافرين ، وقد لحظ الزمخشري ذلك بقوله : « فإن قلت : لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا ؟ قلت : لوقوع آمنا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم ، كأن قيل آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، ثم قال : وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ماأنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم » (١) . وقال الزركشي في هذا التقديم والتأخير في الاية ، تقديم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وتأخير (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) قوله : « الايمان لما لم يكن منحصراً في الايمان بالله بل لابد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الاخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه بخلاف التوكل فإنه لايكون إلا على الله وحده . لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن بأختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لايملك ضراً ولانفعاً فيتوكل »عليه(٢)

ثم تنتهي الاية بأسلوب التهديد والوعيد الملفوف :

«فستعلمون من هو في ضلال مبين» .

تخويفاً لهم وتهديداً من الكفر وعاقبته ، والاية لاتصرح بضلالهم كذلك ، وإنما توصل المعنى على سبيل التلميح الأوقع في النفس تأثيراً وشدة ، وهو أسلوب حكيم من شأنه أن يحدث الأثر النفسي فيهم فيتفكروا ويتدبّروا في حالهم وموقفهم .

ثم تنتهي السورة الكريمة بآية هي غاية في حسن الختام ، لأنها تتصل بموضوع السورة الرئيس وغرضها العام ، وهو : بيان عظمة الله وقدرته

---

(١) الكشاف : ٤/٤٦٧ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٢/٤١٢ .

على كل شيء ، وأنه بيده الملك يفعل مايشاء وكيفما يشاء ... ، كما تبين ضعف الإنسان وعجزه أمام مالك الملك الرحمن الرحيم :

« قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمَنْ يأتيكم بماء معين» .

والماء مصدر الحياة وبه تقوم ، ولو شاء الله لحرمهم هذا المصدر .

فالاية تقر في الضمير قدرة الله وإرادته المطلقتين ، وأنه بيده الملك ولتثبيت هذه الحقيقة في القلوب والنفوس يوظّف التعبير القرآني الأسلوب الاستفهامي (فمن يأتيكم بماء معين ؟) ليلفت الانتباه لفتا قوياً إلى نعمة الماء مصدر الحياة القريب للتأمل والتدبر ، ويعمّق المعنى في المتلقي الطباق بين الصورتين : صورة الماء وهو غائر في الأرض لايقدرون عليه (غوراً) ، وصورة الماء وهو فائض متدفق جار (معين) ، فهما صورتان متضادتان الاولى تشير إلى الهلاك والموت ، والثانية تشير إلى الحياة . وكلاهما (الموت والحياة) بيد الله ، لايقدر أحد أنْ يهبهما لأحد ، فهو خالقهما كما قررت السورة ذلك في بدايتها ، وكما أوحى بذلك أسلوب الأستفهام في الاية الذي خرج معناه إلى الأنكار ، إنكار أن يأتي بالماء المعين غير الله ربّ العالمين .

ـ الخاتمة والنتائج ـ

في نهاية البحث نسجل أهم النتائج التي تمخضت عنه ، ويمكن إجمالها بما هو آت :

ـ لاحظ البحث أن الظواهر البلاغية التي وردت في السورة الكريمة قد توزعت في نسيجها على نحو متفاوت حسبما يتطلبه السياق في أداء المعاني والأفكار التي قصد توصيلها إلى المخاطب ، إذ أن هذه الظواهر البلاغية هي ليست تجريدية تراد لذاتها ، وإنما هي تحتضن الأفكار والمعاني على نحو متناغم ، تتجلى الأفكار والمعاني من خلالها ذات ايحاء

وحيوية وقوة تأثير ، فهي جزء من بناء نص معجز له أهدافه الفكرية والنفسية والجمالية ، ويسعى إلى التوجيه والتسديد وبث اسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة .

- فعلى صعيد إثارة عقول المخاطبين ونفوسهم إثارة قوية ، لاحظ البحث أن أسلوب الاستفهام يرد في السورة على نحو لافت للنظر ، فهو قد شكل ظاهرة بلاغية بارزة ، وبخاصة الاستفهام الذي يخرج معناه مجازاً إلى (الإنكار والتعجيب) إنكار الأوهام والضلالات والمعتقدات التي عليها الكافرون والتعجيب منها . فكان الأسلوب الاستفهامي أداة حيوية فاعلة في الإثارة والتأثير ، فهو يمثل أصداء تحرك القلوب والعقول ليبعثها على التفكير والتدبر بما تقرره السورة من حقائق وتصورات جديدة على صعيد الكون والطبيعة والحياة ... فالاستفهام عمل بقوة على إطلاق العقل والحواس والبصيرة لتتأمل تلك الحقائق .. وتتدبر ...

- ولحظ البحث أن فن الطباق بأنواعه قد ورد في السورة على نحو لافت أيضاً ، وقد شكل هو الاخر ظاهرة بلاغية ملحوظة . والطباق من شأنه إبراز التناقض في المعاني ، والمعاني تتمايز بالتضاد فتكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة ، فيعمل الطباق على خلق صور ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارىء ووجدانه فيتبين ماهو حسن منها ويفضله عن ضده ... فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن ، فكان الطباق أداة حيوية فاعلة في توكيد المعاني وترسيخها في المتلقي فيحقق التعبير القرآني هدفه ...

- لاحظ البحث وظيفة الاستعارة المكنية التي تمثلت في التشخيص . إذ يظهر التشخيص العبارة القرآنية وهي نابضة بعناصر الحياة من خلال تخيل الحياة في غير الأحياء ، وإضفاء الصفات الانسانية على

الموجودات فيزاح بذلك الغطاء المادي عن الجمادات فتكشف عن روحها فتتجاوب روح الانسان معها فيتعمق شعوره وإحساسه بهذه الموجودات كما رأينا ذلك مع تشخيص صورة جهنم — وهي من الموجودات غير المنظورة الان — فكانت صورتها بالتشخيص مؤثرة في النفس أبلغ تأثير . أو كما رأينا مع استعارة الدابة الذلول للأرض — وهي من الموجودات المنظورة — التي نعيش عليها .. فكانت صورتها بالتشخيص الذي بث الحياة والحركة فيها مؤثرة موحية بالمعاني التي لاتنضب ...

— أيقن البحث أن التعبير القرآني يوصل معانيه من خلال الظواهر البلاغية متواشجة مع الجمال . على صعيد واحد ، إذ الجمال في السورة مقصود ومرتبط بغاياتها ومقاصدها ، فهو وسيلة فاعلة لتحقيق اهداف القرآن ومقاصده وليس هو غرضاً بحد ذاته ...

هذه أهم النتائج وأميزها ، نرجو أن نكون قد وفقنا في تسجيلها وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

— المصادر والمراجع —

— القرآن الكريم

— **الاتقان في علوم القرآن** ، للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ، ط١ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

— **أسرار البلاغة** ، لعبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : هـ. ريتر ، مطبعة وزارة المعارف — استانبول ، ١٩٥٤ .

— **أساس البلاغة** ، للزمخشري ، تحقيق : عبدالرحيم محمود — إحياء المعاجم العربية ، ط١ ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م بمصر .

— **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطىء — ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

- **البرهان في علوم القرآن** ،للزركشي ،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ، ط٣ ، بيروت .
- **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني –** ، د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، ط١ ، الأردن ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- **بلاغة الكلمة والجملة والجمل** ، د. منير سلطان ، دار المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٨ .
- **البلاغة والتطبيق** ، د. احمد مطلوب ود. حسن البصير ، مطابع جامعة الموصل ، ط١ – ١٩٨٢ .
- **بيان إعجاز القرآن** ،للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ود. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، ١٩٧٦ .
- **التعبير القرآني**، د.فاضل صالح السامرائي ،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ١٩٨٩ .
- **التفسير الكبير** ، للفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، د.ت .
- **تلخيص البيان في مجازات القرآن** ، للشريف الرضي ، تحقيق : محمد عبدالغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية ، البابي الحلبي ، ط١ ، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .
- **جامع البيان في تفسير القرآن** ، للطبري ، ط١ ،المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٢٩هـ .
- **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب** د. ماهر مهدي هلال ، الجمهورية العراقية . وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ (سلسلة دراسات رقم ١٩٥) .

- **الجمالية** ، ر.ف. جونسون ، ترجمة: د. عبدالواحد لؤلؤة ، الجمهورية العراقية – وزارة الثقافة والفنون ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٨ (سلسلة الكتب المترجمة رقم ٥٣) .
- **حديث عن الجمال في الإسلام** ، د. عمادالدين خليل ، مطبعة منير – موصل ط١ ، ١٩٨٤ .
- **خصائص التركيب** – دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني – ، د. محمد أبو موسى ، دار التضامن للطباعة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .
- **دلالة الألفاظ** ، د. ابراهيم أنيس ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٣ .
- **سر الفصاحة** ، لابن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح : عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م .
- **صفوة التفاسير** ، لمحمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، ط٢ ، بيروت ١٩٨١ .
- **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي** ، د.جابر احمد عصفور ، دار المعارف ، مطبعة القاهرة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧م .
- **الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، للعلوي ، مطبعة المقتطف – مصر ١٩١٤م .
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ١٩٧٢ .
- **الفاصلة في القرآن** ، محمد الحسناوي ، دار الأصيل للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٧ .
- **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان** ، ابن قيم الجوزية ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ .

- في البنية والدلالة - رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية - ، د. سعد أبو رضا ، الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٧ .
- كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، ط١ ، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للزمخشري ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ط٢ ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر لابن الاثير ، تحقيق : د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، مطبعة نهضة مصر ، ط١ ، ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩م .
- مدخل إلى نظرية الأدب الاسلامي ، د. عمادالدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ١٩٨٧ .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
- مفتاح العلوم للسكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م .
- في بلاغة القرآن ، احمد احمد بدوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٠ .
- النكت في إعجاز القرآن ، للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله احمد ود. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط٣ - ١٩٧٦م .

(المجلات)

- الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، د. كاصد ياسر الزيدي ، مجلة آداب الرافدين (جامعة الموصل) العدد (٩) ايلول ١٩٧٨ .

الحديث الموضوع
اسباب وضعه ، طرق معرفته ، احكامه

عبد الباسط خليل محمد الدرويش
قسم اللغة العربية / كلية التربية
جامعة البصرة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد : — لقد اهتم علماء الحديث بالسنة النبوية فقاموا بجهد كبير في نقلها ثم تصنيفها في الكتب المعروفة وتنقيتها من الضعيف والموضوع ، فكان ثمرة هذا الجهد المبارك الكتب الستة المعتمدة لدى المسلمين التي حوت اكثر الاحاديث الصحيحة من غيرها من المؤلفات التي صنفت بعدها ، ولهذا عنى البحث بالجهود الكبيرة التي بيّن فيها المحدثون كيفية معرفة الحديث الموضوع واسباب وضعه واحكامه ، فارتشفت من رحيق ازهارهم واقتطفت من اطايب كلامهم ، فعرّفت الحديث الموضوع ، ثم بينت اسباب وضعه ، ثم طرق معرفته ، ثم احكامه ، وبعض المؤلفات فيه ، ثم ختمته بخاتمة بينت فيها النتائج التي تمخض عنها البحث ، والله اسأل ان ينفعني به وجميع المسلمين انّه سميع الدعاء .

المبحث الاول

الاسباب التي دعت اهل الاهواء إلى وضع الحديث

نود قبل الدخول إلى معرفة اسباب وضع الحديث ان نعرف الحديث الموضوع ونذكر نبذة من تاريخه ، فقد عرف علماء الحديث بأنّه

الحديث المختلق المصنوع المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم (١).
ولقد تحرى المحدثون في قبول الحديث صحة نقله عن الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت قاعدتهم تقول : لايجوز لاحد من المسلمين ان يأخذ الحديث عمّن هب ودبّ ، ويجب ان يتحرى في ذلك حفاظاً على دينه ، فقد قال ابن سيرين : العلم دين فانظر عمن (٢) تأخذ دينك ، وقال الربيع بن خيثم ان من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه ، وان من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تنكره (٣) ، وقال مالك بن انس : ان هذا العلم هو لحمك ودمك وعنه تسأل يوم القيامة فانظر عمّن تأخذ (٤) ، وقال ابن الجوزي : ايّاك ان تسمع الحديث من كذاب او متهم او لايعرف يروي فانّه يخلط ولا يدري (٥) ، فكان المحدثون لايروون عن صاحب بدعة يدعو إلى هواه ، ولا عن سفيه معلن سفهه ، ولا عن رجل يكذب في احاديث الناس ولا عن رجل له زهد وصلاح وعبادة لا يعرف ما يحدث (٦) .
وبعد ان حفظ الله الشريعة الأسلامية بحفظ القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالى في سورة الحجر آية (٩) [انا نحن نزّلنا الذكر وانّا له لحافظون] فقيّض الله لها علماء ميّزوا الصحيح من السقيم في كل زمان ومكان ولما كان عصر الصحابة وهم عدول لم يكن فيهم من عرف بالكذب ، فلما جاء عصر التابعين نبعت الفتن وظهرت بعض البدع فمال اصحابها إلى الكذب في الحديث، فهذا ابن سيرين يقول : لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت

---

(١) تدريب الراوي للسيوطي ١/٢٧٤ ، والتقييد والايضاح للعراقي ص /١٣٠ .
(٢) المحدث الفاصل للرامهرمزي ص /٤١٤ .
(٣) الموضوعات لا بن الجوزي ص / ١٠٣ ، وتوجيه النظر للجزائري ص / ١٧٨ ، ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٦/٢ ، والكفاية للخطيب البغدادي. طبعة مصر ص / ٦٠٥ .
(٤) المحدث الفاصل ص / ٤١٨ .
(٥) الموضوعات ١/ ١٢ .
(٦) رسالة في علوم الحديث للطائي ص / ٢٨ - ٢٩ .

الفتنة قالوا سمّوا لنا رجالكم فينظر إلى اهل السنة فيؤخذ حديثهم (١).،
فظهر ضعفاء في عصر التابعين لكنهم قليل ، حتى جاء اوائل القرن الثاني الهجري فكان من بين الرواة ضعفاء كثيرو الخطأ كابي هارون عمارة بن جوين العبدي ثم ظهر بعد منتصف القرن الثاني من يتعمد الكذب فتصدى لهم شعبة ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري وابن عيينة ويحيى القطان وعبدالرحمن بن مهدي ومن بعدهم يحيى بن معين وعلي بن المديني واحمد إبن حنبل وغيرهم ومن بعدهم البخاري ومسلم وابو حاتم الرازي ثم الترمذي والنسائي وغيرهم في حدود الثلاثمائة للهجرة ، ودونت المصنفات بعد ذلك فميزت الاحاديث الصحيحة من السقيمة ، ثم توالت المؤلفات فظهر من العلماء من يكشف ستارها ويبيّن عوارها ، فظهرت كتب الضعفاء والموضوعات وسنذكر في آخر البحث اقسام هذه الكتب بعون الله تعالى .

ثم نأتي بعد ذلك إلى ذكر الاسباب التي دعت اهل الاهواء إلى وضع الحديث . فقد اختلفت الاسباب لاختلاف مراد واضعه نذكر منها :

١ــ احتساب الأجر : فكان بعض اهل الزهد والصلاح ممن غفلوا عن الحفظ والتمييز يضعون الحديث في الترغيب والترهيب احتساباً للاجر عند الله ورغبة في حث الناس على عمل الخير واجتناب المعاصي كما وضع نوح بن ابي مريم احاديث في فضائل القرآن سورة سورة (٢).

٢ ــ الاختلاط : كان من المحدثين قوم ثقات لكن اختلطت عقولهم في آخر اعمارهم فخلطوا في الرواية فكان الوضع يقع منهم لا عن تعمد (٣).

---

(١) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ٨٤/١ ، والضعفاء الكبير للعقيلي ١٠/١ ، وميزان الاعتدال للذهبي ٣/١ ، والجرح والتعديل لابن ابي حاتم الرازي ٨/١/١ والعلل للترمذي ٧٤٠/٥ ، والتعريف بالقرآن والحديث لمحمد الزفزاف ص /٢٠٧ .

(٢) تدريب الراوي ٢٨٢/١ ، وتنزيه الشريعة ١٢/١ ، والمجروحين لابن حبان ٤٨/١ ، والموضوعات ٣٥/١ .

(٣) المجروحين ٤٨/١ ، والموضوعات ٣٥/١ ، والمصنوع ص / ١٩٨ .

٣ ـ الغفلة : وهناك قوم من المحدثين غلبت عليهم السلامة والغفلة فكان احدهم يلقن فيتلقن ومنهم من ابتلي باولاد ورواة يدخلون في حديثهم مالم يعلموا (١) .

٤ ـ تعمد الكذب : ومن المحدثين من كان يتعمد الكذب وهم على ثلاثة اقسام : ـ

آ ـ قوم رووا الخطأ من غير ان يعلموا انّه خطأ فلما عرفوا وجه الصواب اصروا على الخطأ آنفة من ان ينسبوا إلى الغلط (٢) .

ب ـ قوم رووا عن كذابين احاديث موضوعة ووجد لهم رواة ضعفاء ومدلسون نقلوا ذلك الكذب ونسبوه اليهم ، فالكذب من اولئك المجروحين والخطأ منهم (٣) .

ج ـ قوم تعمدوا الكذب الصريح وهم : ـ

١ ـ الزنادقة : وقصدوا افساد الشريعة مثل عبد الكريم بن ابي العوجاء (٤).

٢ ـ بعض اصحاب المذاهب : وقصدوا نصرة مذهبهم كما وضع احد الخوارج حديثاً في نصرة مذهبه (٥) .

٣ ـ قوم استجازوا وضع الاسانيد لكل كلام حسن (٦) .

٤ ـ قوم وضعوا الاحاديث قصداً للاغراب كما وضع ابراهيم بن ابي حية احاديث على جعفر الصادق وهشام بن عروة فيركب حديث هذا على حديث هذا ليستغرب (٧) .

---

(١) تنزيه الشريعة ١٢/١ ، وتدريب الراوي ٢٨٦/١ .
(٢) المجروحين ١/ ٤٨ ، والموضوعات ٣٥/١ ، وتذكرة الموضوعات ص / ٧ .
(٣) المجروحين ١/ ٤٨ ، والموضوعات ١/ ٣٥ .
(٤) الموضوعات ٣٥/١ ، وتنزيه الشريعة ١١/١ ، وتذكرة الموضوعات ص /٧ .
(٥) المصادر السابقة .
(٦) المصادر السابقة .
(٧) الموضوعات ٤٢/١ ـ ٤٣ ، وتنزيه الشريعة ١٢/١ .

المبحث الثاني

طرق معرفة الحديث الموضوع

يعرف الحديث الموضوع بطرق كثيرة وضعها المحدثون ، قال ابن ابي حاتم الرازي : — تعرف الآثار الصحيحة من السقيمة بنقد العلماء الجهابذة الذين خصهم الله عز وجل بهذه الفضيلة ورزقهم هذه المعرفة في كل دهر وزمان (١) .

وقال الحاكم : لا يعرف الحديث الصحيح بروايته فقط بل بالفهم والحفظ وكثرة السماع (٢) .

وقال ابن قيّم الجوزية : يعرف الحديث الموضوع من غيره من تضلع في معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه حتى صارت له ملكة مختصة بمعرفة السنن والاثار (٣) .

وقال الماوردي : يعرف الحديث الموضوع من الكذاب لأن له امارات تدل عليه كالتلقين والتشكيك فاذا لقنته حديثاً تلقن واذا شككته بحديث تشكك فيه واذا رددت عليه قوله ارتبك فلم يكن عنده برهان الصادقين(٤). وقال ابن دقيق العيد أن لمعرفة ذلك هبة نفسانية او ملكة يعرف بها المحدث الفرق بين الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها فقد سئل بعض المحدثين كيف تعرف الشيخ الكذاب ؟ قال اذا روى لاتأكلوا القرعة حتى تذبحوها علمت انه كذاب (٥) . ويفهم من هذه الاقوال انه لا يعرف صحيح الحديث

---

(١) تقدمة المعرفة طبعة الهند ص /٢ .

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم طبعة المدينة المنورة ص /٥٩ .

(٣) المنار المنيف ص /٤٣ — ٤٤ .

(٤) ادب الدين والدنيا ص /٢٣٧ .

(٥) الاقتراح ص /٢٣١ — ٢٣٣ ، ووردت اشارة لذلك في فتح المغيث ٢٤٩/١ ، وفتح الباقي ٢٨١/١ ، وتنزيه الشريعة ٦/١ .

من سقيمه الامن افنى عمره في معرفة السنة والاثار بعد طول المدة والممارسة والصبر مع ان ذلك موهبة من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده . ومما مضى نفهم ان المحدثين وضعوا دلالات يعرف بها الحديث الموضوع من غيره منها : —

١ — اقرار واضعه وضع الحديث (١) ، كما ورد عن الخليفة المهدي انه قال : اقر عندي رجل من الزنادقة انه وضع اربعمائة حديث فهي تجول في ايدي الناس (٢) .

٢ — ما ينزل منزلة اقراره (٣) ، وذلك بتعيين المتفرد بالحديث ومعرفة تاريخ مولده وتاريخ سماعه فيتبين انه سمع في مكان لم يدخله الشيخ الذي حدث عنه ، كما ادعى مأمون الهروي انه سمع هشام بن عمار فسأله ابن حبان : متى دخلت الشام ؟ قال سنة ٢٥٠هـ فقال له ابن حبان : ان هشاماً الذي تروي عنه مات سنة ٢٤٥هـ ، فقال هذا هشام آخر ، وهذا هو دأب الكذابين (٤) .

٣ — او بقرينة في حال الراوي (كأن يقول سمعت فلاناً وقد علمنا وفاة المروي عنه قبل وجوده) (٥) .

٤ — او بقرينة في حال الحديث المروي : (٦) كأن يكون مناقضاً لنص القرآن او السنة المتواترة او الاجماع القطعي او صريح العقل كحديث

---

(١) تنزيه الشريعة ٥/١ .

(٢) الكفاية طبعة مصر ص /٦٠٥ ، وكشف الخفا للعجلوني ص /٨٠ ، والتقريب للنووي ص/١٥ ، وعلوم الحديث ومصطلحه للصالح ص ٢٦٤ .

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص /٨٩ .

(٤) تنزيه الشريعة ١/٥-٦ .

(٥) تدريب الراوي ٢٧٦/١ .

(٦) مقدمة ابن الصلاح ص /٨٩ ، وتذكرة الموضوعات ص / ٦ .

(لا تسبوا الديك فانه صديقي) (١) ، وحديث (من زارني وزار ابراهيم في عام واحد دخل الجنة) (٢) .

٥ ــ ركاكة الفاظ الحديث الموضوع وسماجتها بحيث يمجها السمع ويدفعها الطبع (٣) كحديث (اربع لا تشبع من اربع انثى من ذكر ، وارض من مطر ، وعين من نظر ، واذن من خبر) (٤) ويدخل في ذلك الركة في المعنى كالافراط في الوعيد على الامر الصغير او الوعد العظيم على الفعل اليسير كحديث (لقمة في بطن جائع خير من بناء الف جامع) (٥) .

٦ ــ ان يصرح بتكذيب راويه جمع كبير يمتنع تواطؤهم على الكذب كتصريح علماء الحديث ان محمد بن سعيد الشامي المصلوب كذاب (٦).

٧ ــ ان يكون مما يلزم المكلفين علمه فينفرد به واحد، وهذا الواحد كذاب فيحكم على الحديث بالوضع ، اما اذا لم يكن الراوي المنفرد كذاباً فربما اعتقد بوجه او طريق آخر فيكون حديثاً مفرداً لاموضوعاً (٧).

٨ ــ كل خبر اوهم باطلا ولم يقبل التأويل فمكذوب (٨) .

٩ ــ اشتمال الحديث على مجازفات يستحيل ان يقولها النبي صلى الله عليه وسلم كحديث (من قال لا اله الا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف الف لغة يستغفرون الله له) (٩) .

---

(١) الباعث الحثيث ص /٨٣ ، والحديث والمحدثون ص /١ .
(٢) احاديث القصاص ص /٨٣ .
(٣) تدريب الراوي ٢٧٦/١ ، وتذكرة الموضوعات ص / ٦ .
(٤) المنار المنيف ٩ .
(٥) تنزيه الشريعة ٧/١ .
(٦) المصدر السابق ٦/١ ، والباعث الحثيث ص /٨٣ ، مختصراً .
(٧) تنزيه الشريعة ٧/١ .
(٨) تدريب الراوي ٢٧٧/١ ، والباعث الحثيث ص /٨٣ .
(٩) المنار المنيف ص /٥٠

١٠ ـ كون الحديث مما يسخر منه ، كحديث (لو كان الارز رجلا لكان رجلا حليماً ، وما اكله جائع الا اشبعه (١) .

١١ ـ مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة مناقضة بيّنة ، فكل حديث اشتمل على فساد او ظلم او عبث او مدح بباطل او ذم حق او نحو ذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم منه بريء ، مثل احاديث مدح من اسمه محمد او احمد وان كل من تسمى بهذه الاسماء لا يدخل النار) (٢) .

١٢ ـ ان يكون الحديث مخالفاً لدلالة القرآن والسنة والاجماع ، كحديث (رأيت ربي بمنى يوم النفر على جمل اورق عليه جبة صوف امام الناس) (٣) . قبّح الله واضعه .

١٣ ـ ان يكون الحديث مخالفاً لمقتضى الحكمة والمنطق السليم كحديث (جور الترك ولا جور العرب) واحاديث ذم الترك والمماليك والحبشة والسودان ، واحاديث الحمام واتخاذ الدجاج وذم الاولاد كلها كذب (٤) .

١٤ ـ ان يكون الحديث مخالفاً للعقل كحديث (ان سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلت خلف المقام ركعتين) (٥) .

وحديث (ان الله خلق الفرس فاجراها فعرقت فخلق نفسه منها) وهذا لا يضعه مسلم بل ولا عاقل ، والمتهم به محمد بن شجاع الثلجي .

---

(١) المصدر السابق ص /٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٣) تذكرة الموضوعات ص ١٢/ – ١٣ ، وتأويل مختلف الحديث ص/٨ .

(٤) المنار المنيف ص /١٠١ .

(٥) تدريب الراوي ٢٧٨/١ .

وفي سنده ايضاً ابو المهزم قال عنه شعبة : او اعطي درهماً وضع خمسين حديثا (١) .

١٥ - تكذيب الحس له كحديث (الباذنجان لما اكل له) (٢) .

١٦ - ان يكون الحديث ناقضاً للتاريخ الصحيح كحديث (وضع الجزية على اهل خيبر) وفيه ان الذي وضعها سعد بن معاذ (رض) مع العلم ان سعداً توفي بعد غزوة الخندق بقليل وقبل غزوة خيبر فكيف يضعها سعد وهو ميت آنذاك ، ولم تكن الجزية معروفة عند الصحابة الا بعد غزوة تبوك (٣) .

١٧ - ان تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث (عوج بن عنق الطويل) (٤) .

١٨ - التنبؤ بوقائع مستقبلية يبطلها التاريخ مثل حديث (اذا كانت سنة كذا وقع كيت وكيت) (٥) .

١٩ - ان ينقب عنه طالب الحديث فلا يجده في صدور العلماء ولا في بطون الكتب (٦) ، لكن العراقي اعترض فقال : -

ان استيعاب استقراء جميع الكتب في جميع الاقطار عسر متعذر (٧).

٢٠ - ان يكون الحديث لا يشبه كلام الانبياء فضلا عن كلام النبي صلى الله عليه وسلم كحديث (ثلاثة تزيد البصر ، النظر إلى الخضرة والماء الجاري والوجه الحسن) (٨) .

---

(١) المصدر السابق واللالىء المصنوعة ٣/١ .
(٢) المنار المنيف ص /٥١ .
(٣) المصدر السابق ص /١٠٢ .
(٤) المصدر السابق ص /٧٦ .
(٥) المصدر السابق ص /٦٣ .
(٦) تنزيه الشريعة ٧/١ .
(٧) تدريب الراوي ١ /٢٧٧ .
(٨) المنار المنيف ص ٦١ .

٢١ ـ ان يكون الحديث باطلا في نفسه كحديث (المجرة التي في السماء من عرق الافعى التي تحت العرش) (١) .

٢٢ ـ ان يكون في الحديث راو يدّعي انه ادرك من العمر فوق ما جرت به سنة الله في خلقه فحديثه موضوع (٢) ، مثل احاديث رتن الهندي التي رواها فادعى انه لقي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يظهر الا بعد الستمائة للهجرة (٣) .

٢٢ ـ ان تثبت دوافع نفسية-لوضع الحديث كما وضع بائع الهريسة حديث (الهريسة تشد الظهر) (٤) .

٢٤ ـ ان يكون الحديث كلاماً يشبه كلام الاطباء مثل حديث (اكل السمك يذهب الجسد او يذيب الجسد) (٥) .

٢٥ ـ ان يكون الحديث من ادّعاء بعض الصوفية والطرقية كأن يقول الصوفي (ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لقنه كذا وكذا بطريق الكشف ان لم يكن له سند صحيح متصل لان طريق الكشف او الرؤيا لايتقرر بهما حقيقة شرعية عند علماء المسلمين (٦) .

٢٦ ـ ان يكون الحديث خبراً عن امر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر عظيم ثم لا يرويه الا راو واحد كحديث (اخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد علي (رض) وقوله له انت وصيي واخي والخليفة من بعدي) ثم اتفق الجميع على كتمان هذا الامر (٧) .

---

(١) المصدر السابق ص /٥٩ .
(٢) الحديث والمحدثون ص /٤٨٤ .
(٣) تذكرة الموضوعات ص /١٠٢ .
(٤) المنار المنيف ص /٦٤ .
(٥) الفوائد المجموعة ص /٢٧٥ .
(٦) الحديث والمحدثون ص / ٤٨٤ .
(٧) المنار المنيف ص /٥٧ .

المبحث الثالث

احكام الحديث الموضوع

١ ـ تحريم الكذب في الحديث : ـ

يعتبر الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من اكبر الكبائر لانه يؤدي إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال وهذا كفر محض، بل ربما نقل صاحبه من ملة الاسلام إلى غيرها ، فمن تعمّد الكذب على الله ورسوله فان الله يفضحه في عقر داره ، قال سفيان الثوري : ما ستر الله احداً يكذب في الحديث (١) وقال عبدالله بن المبارك : لو همّ رجل في السحر ان يكذب في الحديث لاصبح الناس يقولون فلان كذاب (٢) ، والكاذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتكب فاحشة عظيمة لانه يخالف قوله صلى الله عليه وسلم (من كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار) (٣) ، وهذا الحديث متواتر رواه اكثر من سبعين صحابياً (٤) وقيل اكثر من تسعين (٥) ، لذا فقد إنتقد المحدثون الكذابين وتحرواعنهم وبيّنوهم للناس كي يحذروا من شرهم قال زيد بن اسلم : من عمل بخبر صح انه كذب فهو من خدم الشيطان (٦)، ومع ذلك فالكذب كله حرام في الحديث وغيره فقد ذهب بعض الجهلة إلى اجازة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : انّا لم نكذب على النبي وانما كذبنا له ويكفي ان يقال لمثل هؤلاء الجهلة : ان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تحتاج إلى من يكملها وهذا يدل على ضعف عقولهم وكثرة

---

(١) الموضوعات ٣٥/١ ، وتنزيه الشريعة ١١/١ وتذكرة الموضوعات ص/٦ .
(٢) الموضوعات ٤٢/١ – ٤٣ ، وتنزيه الشريعة – ١٢/١ .
(٣) صحيح البخاري ٣٨/١ ، وصحيح مسلم ٦/١ ، والترغيب والترهيب ٥٤/١ وتحذير الخواص وغيرها .
(٤) جواهر الاصول ص /٥٩ .
(٥) تنزيه الشريعة ٩/١ – ١٠ .
(٦) تذكرة الموضوعات ص /٧ .

اكاذيبهم (١) ، منهم الكرامية وهم اتباع محمد بن كرام السجستاني (٢) ، وقد ذكر السيوطي ان احمد بن عبدالله الجويباري كان يضع الوف الاحاديث للكرامية (٣) وذكر العيني : ان الكرامية وبعض المبتدعة اجازوا وضع الحديث في الترغيب والترهيب وهو خلاف اجماع المسلمين (٤) .

٢ - تحريم رواية الحديث الموضوع الا على سبيل القدح :-

لا تحل رواية الحديث الموضوع مع العلم بانه موضوع الا بعد بيان حاله (٥) ، اما الاحاديث الضعيفة التي يغلب الظن فيها انها تحتمل الصدق فقد اجاز روايتها بعض العلماء في الترغيب والترهيب فقط (٦) ، فرواية الحديث الموضوع حرام لقوله صلى الله عليه وسلم (من حدّث عني بحديث يرى انه كذب فهو احد الكذابين) (٧) ، كذلك لا يجوز لاحد رواية الحديث الذي يغلب على ظنّه انه موضوع الا ان يبيّن حاله (٨) ايضاً ، فان كان لا محالة من بيان حكم الحديث من صحة وضعف ولم يستطع ذلك فليذكر سند الحديث فانه ابسط لعذره ، اما من لم يبرز سند الحديث واورده بصيغة الجزم فخطؤه افحش (٩) الا ان اكثر المحدثين قالوا : اذا ساق المصنف الحديث باسناده فقد بريء من عهدته (١٠) .

٣- حكم متعمد الكذب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :-

اختلف العلماء في حكم متعمد الكذب في حديث رسول الله صلى الله

---

(١) اختصار علوم الحديث ص /٨٠ .
(٢) الباعث الحثيث ص /٧٨ - ٧٩ .
(٣) اللاليء المصنوعة ٣٩/١ .
(٤) تذكرة الموضوعات ص /٧ وجواهر الاصول ص /٧٣ .
(٥) جواهر الاصول ص /٥٢ ، ونزهة النظر ص /٤٧ ، وإختصار علوم الحديث ص /٧٨
(٦) الخلاصة في أصول الحديث ص /٧٧ ، ومقدمة ابن الصلاح ص /٨٩ .
(٧) صحيح مسلم ٥/١ .
(٨) نزهة النظر ص /٥٢ ، وتوجيه النظر ص /٢٨٩ .
(٩) الباعث الحثيث ص /٨٨ .
(١٠) تذكرة الموضوعات ص /٦ .

عليه وسلم هل يكفر من غير ان يستحله ام لا — فذهب الجمهور من العلماء في المشهور عنهم انه لا يكفر ، في حين ذهب بعضهم إلى انه يكفر (١) ، الا ان ابن حجر نقل عن العلماء انهم اتفقوا على تكفير من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، لكن الذهبي قال ان كان الكذب في الحلال والحرام يكفر اجماعاً وان كان في الترغيب والترهيب لا يكفر عند الجمهور (٣) ، هذا حكمه ، اما هل يقتل ام لا ؟ فقد ذهب بعض العلماء إلى قتله حتماً (٤) ، فكان ممن قتلوا جزاء كذبهم : —

١ — بيان بن سمعان قتله عبدالله بن خالد القسري ،

٢ — عبدالكريم بن ابي العوجاء قتله الخليفة المهدي ،

٣ — محمد بن سعيد الشامي المصلوب (٥) .

٤ — حكم رواية التائب عن الكذب : —

اختلف العلماء في قبول رواية التائب عن الكذب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما اتفقوا على ردها قبل التوبة ، فقال بعض العلماء: لو تاب وحسنت توبته قبلت روايته بعدها وهو قول المتقدمين منهم وقال بعضهم : لاتقبل ابدا ، وهو قول المتأخرين منهم (٦) ، والراجح عندي ما ذكره الخطيب البغدادي في كفايته (٧) ، والطيبي في خلاصته (٨) ، ان الكاذب في حديث الناس اي في غير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ثبتت توبته قبلت رواية الحديث عنه ، اما الكاذب في حديث رسول

---

(١) جواهر الاصول ص /٥٢ .
(٢) نزهة النظر ص /٤٧ .
(٣) تدريب الراوي ٣٥٩/١ .
(٤) المصدر السابق ٣٢٩/١ .
(٥) المصدر السابق ص /٤٨٢ .
(٦) جواهر الاصول ص /٤٤ .
(٧) الكفاية ص /١١٧ .
(٨) الخلاصة في اصول الحديث ص /٧٧ .

الله صلى الله عليه وسلم فلا تقبل الرواية عنه ويرد حديثه ابدا سواء تاب او لم يتب .

٥ ـ التورع عند جرح الرواية : ـ

لايجوز لاحد من الناس ان يجرح احداً من الرواة الحديث الا لضرورة شرعية قال ابن دقيق العيد : ـ اعراض المسلمين حفرة من حفر النار وقف على شفيرها طائفتان من الناس المحدثون والحكام (١) ، ويحث الذهبي المحدثين على التورع فيما ينقلونه ويروونه بسؤال أهل المعرفة كي لا يجرح نقلة الاخبار او يزكيهم بدون علم ، فلا بد من امان الطلب والفحص وكثرة المذاكرة والتيقظ والفهم مع التقوى في الدين المتين والانصاف والاتقان والا فلا يفعل احد من ذلك شيئاً ، وانشد :

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان كان المحدث ذا فهم وصدق ودين وورع والا فلا يدخل في هذا البحر المتلاطم ، وان كان ممن غلب عليه الهوى والعصبية لرأي او مذهب فلا يتعب نفسه لانه مهمل لحدود الله تعالى (٢) ، ومما يقدم بفهم انه لايجوز التجريح بسببين اذا حصل بواحد (٣) وهنا مسألة متفرعة من هذا وهي ان جرح الرواة ليس من الغيبة فقد صرح يحيى بن سعيد القطان عندما سأل مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وشعبة عن الرجل يكذب في الحديث او يهم ايبين امره فقالوا جميعاً : بين أمره للناس (٤) وكان شعبة يقول :

---

(١) تدريب الراوي ٣٢٩/١ ، والجرح والتعديل لجمال الدين القاسمي ص/٤ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/١ .

(٣) فتح المغيث ص ٤٨/٢ .

(٤) الموضوعات ٥٠/١ .

تعالوا نغتاب في الله تعالى (١). فجوز المحدثون الجرح صيانة للشريعة وذبا عنها لقوله تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) سورة الحجرات آية رقم ٦ ، فتصدى العلماء لهذا فكان شعبة اول من حمل ذلك اللواء من اتباع التابعين (٢) وقيل ليحيى القطان : اما تخشى ان يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله ؟ قال : لأن يكون هؤلاء خصمائي احب الي من ان يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني : لم لم تذب الكذب عن حديثي (٣). ويقول ابو تراب النخشبي لأحمد بن حنبل : لاتغتب العلماء فيقول له احمد : ويحك هذا نصيحة ليس هذا غيبة (٤) ، وهو قول اسماعيل بن علية ايضاً (٥) قال السيوطي ان الجرح ليس من الغيبة بل هو واجب ديانة لاجماع اهل العلم (٦) .

٦ ـ حكم بعض الاصطلاحات التي تخص الحديث الموضوع : ـ

وردت عن المحدثين اصطلاحات تعد من اشد عبارات التجريح ومصطلحاته عندهم :ـ

١ ـ قولهم في الحديث (لا اصل له ـ لا اصل له بهذا اللفظ ـ ليس له اصل ـ لا يعرف له اصل ـ لا يوجد له اصل او نحوها ، فيريد المحدثون بذلك ان الحديث ليس له اسناد ينقل به وما لا اسناد له فلا حجة فيه .

٢ ـ قولهم ، لا اعرفه ـ لم اعرفه ـ لم اقف عليه ـ لا اعرف له اصلا لن اجد له اصلا ـ لم اقف له على اصل ـ لااعرفه بهذا اللفظ ـ

---

(١) شرح علل الترمذي ص /٧٧ ، والموضوعات ص /٥٠ .
(٢) الوسائل الى مسامرة الاوائل ص/١١٤ .
(٣) تهذيب التهذيب ٣٤٤/٤ ، والجرح والتعديل ٣٧٠/١/٢ ومقدمة ابن الصلاح ص/١٢٧ ومعرفة السنن والاثار ٦٥/١ ،واصول الحديث / محمد عجاج الخطيب ص /٢٦٢.
(٤) شرح الترمذي ص/٧٨ ، وتدريب الراوي ٣٦٨/٢ .
(٥) شرح علل الترمذي ص /٧٧ .
(٦) تحذير الخواص ص / ١١٧ـ ١١٩ .

لم اره بهذا اللفظ — لم اجده هكذا — لم يره فيه شيء — لا يعلم من اخراجه ولا من اسنده ونحوها فاذا لم يتعقبه احد يكفي بالدلالة على ان الحديث الذي قيل فيه ذلك انه موضوع .

٣ — قولهم صحيح — لايثبت — لم يصح — لم يثبت — ليس بصحيح — ليس بثابت — غير ثابت — لايثبت فيه شيء ونحوها ، فهذه الألفاظ اذا قيلت في كتب الضعفاء او الموضوعات فالمراد ان الحديث موضوع ، واذا وردت في كتب الاحكام فالمراد بها نفي الصحة الاصطلاحية فلا يلزم من ذلك نفي الحديث الحسن او الضعيف ويلزم من صنف في كتب الضعفاء او الموضوعات ان يكون الحديث موضوعا (١) .

الخاتمة

من نتائج البحث التي توصلت اليها مايأتي :

١ — كشف البحث بعض طرق الوضاعين وزيفهم الذي سلكوه في وضعهم الحديث .

٢ — وبين الأسباب التي من اجلها وضع الحديث.

٣ — وبين بعض الاصطلاحات التي اتبعها بعض أئمة الحديث يسلك طالب الحديث طريقهم حتى لا يضل الطريق السوي .

٤ — وبين اهم الطرق التي تعين طالب الحديث على معرفة الحديث الموضوع .

٥ — كما اظهر بعض احكام الحديث الموضوع من حرمة او قبول توبة او نحوها . و الله اسأل ان يعلمني منه رشدا وان ينفع به امة من الناس ويهديهم ويهدينا سواء السبيل ، انه نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) تدريب الراوي ١٩٥/١ ، وتحقيق عبدالفتاح ابو غدة على كتاب المصنوع املا علي القاري ص ٨/ — ١٠ .

ملحق
بأسماء بعض كتب الموضوعات وغيرها

يمكن تقسيم الكتب التي احتوت الاحاديث الموضوعة وغيرها الى ثلاثة اقسام لزيادة معرفة طالب الحديث بذلك : ١ ـ الكتب الخاصة بالاحاديث الموضوعة . ٢ ـ الكتب التي اشتملت على الضعفاء والمجروحين وفيها احاديث موضوعة . ٣ ـ الكتب التي اشتملت على الصحيح والضعيف والموضوع .

١ ـ الكتب الخاصة بالاحاديث الموضوعة : ـ

١ ـ الاباطيل للحسين بن ابراهيم الجوزقاني (ت /٥٤٣ ﻫ) .

٢ ـ المغني عن الحفظ والكتاب بقولهم لم يصح شيء في هذا الباب لعمر إبن بدر الدين الموصلي (ت / ٥٤٣ ﻫ) .

٣ ـ العقيدة الصحيحة في الموضوعات الصريحة له ايضاً .

٤ ـ الموضوعات لابن الجوزي (ت / ٥٩٧ ﻫ) .

٥ ـ الموضوعات لابن تيمية ، مخطوط .

٦ ـ الاحاديث الموضوعة له ايضاً .

٧ ـ احاديث القصاص له ايضاً .

٨ ـ تبيين العجب في ما ورد من الاحاديث في رجب لابن حجر العسقلاني

٩ ـ الموضوعات لابن عبد الهادي وهو مخطوط .

١٠ ـ الموضوعات للمقدسي وهومطبوع .

١١ ـ الباعث على الخلاص من حوادث القصاص للعراقي ، وهو مطبوع

١٢ ـ مختصر محمد بن يعقوب الفيروز ابادي من كتاب المغني من حمل الاسفار للعراقي .

١٣ ـ الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث للبرهان الحلبي سبط الدين بن العجمي .

١٤ ـ اللالىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) .

١٥ ـ ذيل اللالي ء المصنوعة له ايضاً .

١٦ ـ النكت البديعيات له ايضاً .

١٧ ـ التعقبات له ايضاً .

١٨ ـ الذيل على الموضوعات له ايضاً .

١٩ ـ الوجيز له ايضاً .

٢٠ ـ تحذير الخواص من اكاذيب القصاص له ايضاً .

٢١ ـ الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة لمحمد الشامي الصالحي (ت ٩٤٢ هـ) .

٢٢ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة في الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني (ت /٩٦٣ هـ) .

٢٣ ـ تذكرة الموضوعات لمحمد بن طاهر الفتني الهندي (ت /٩٨٩ هـ).

٢٤ ـ الهبات السنيات في الأحاديث الموضوعات لعلي بن سلطان القاري (ت / ١٠١٤ هـ) .

٢٥ ـ الاسرار المرفوعة في الاحاديث الموضوعة له ايضاً .

٢٦ ـ اللؤلؤ المصنوع في الحديث الموضوع له ايضاً .

٢٧ ـ الدرر المصنوعات في الاحاديث الموضوعات لمحمد بن احمد السفاريني الحنبلي

٢٨ ـ الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة لمحمد بن علي الشوكاني (ت /١٢٥٠هـ) .

٢٩ ـ الآثار المرفوعة في الاحاديث الموضوعة لابي الحسنات عبدالحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ) .

٣٠ ـ اللؤلؤ المصنوع فيما قيل لا اصل له او باصله موضوع لابي المحاسن القاوقجي (ت /١٣٠٥هـ) .

٣١ ـ الاحاديث الموضوعة التي يرويها العامة والقصاص على الطرقات لمجدالدين عبدالسلام بن تيمية .

٣٢ ـ تحذير المسلمين من الاحاديث الموضوعة على سيد المرسلين لمحمدبن البشير طاهر المالكي الازهري (ت /١٣٢٥هـ) .

٣٣ ـ اداء ماوجب في بيان ما وضع الوضاعين في رجب لابن دحية بن الخطاب الاندلسي .

٣٤ ـ احاديث المعراج الموضوعة للغيثي .

٣٥ ـ قلائد المرجان في الحديث الوارد كذبا في الباذنجان لابراهيم بن محمد الناجي .

٣٦ ـ موضوعات الصغاني له في ذلك رسالتان .

٣٧ ـ موضوعات المصابيح جمع وشرح سراج الدين عمر بن علي القزويني .

٣٨ ـ كتاب للشيخ علي بن ابراهيم العطار .

٣٩ ـ موضوعات القضاعي .

٤٠ ـ فضل العلماء للمحدث شرف البلخي .

٤١ ـ احاديث الشيخ بن ابي الدنيا ، وكلها باسناد واحد .

٤٢ ـ احاديث ابن نسطور الرومي .

٤٣ ـ احاديث بشر ونعيم بن سالم وخراش عن انس .

٤٤ ـ احاديث دينار عن انس .

٤٥ ـ احاديث ابي هدبة ابراهيم بن هدبة القيسي .

٤٦ ـ مسند انس البصري وهي مقدار ثلاثمائة حديث .

٤٧ ـ الموضوعات للكرمي وهو مخطوط .

٤٨ ـ الار بعون الودعانية للقاضي ابي نصر بن ودعان الموصلي ، قال عنها جمال الدين المزني : لا يصح منها حديث واحد مرفوع وانما يصح شيء يسير منها يحتاج إلى تمييز ونوع من التتبع .

٤٩ ـ رسالة في الاحاديث الموضوعة في كتاب الشهاب للقضاعي وهو تلخيص لموضوعات ابن درباس ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الاوقاف المركزية في بغداد تحت رقم مجاميع ٢٩٤٨/٥ في تسع اوراق.

٥٠ ـ نسخة العقل وضعها داود بن المحبر واوردها الحارث بن ابي اسامة في مسنده .

٥١ ـ حديث ابن عباس في الاسراء والمعراج اورده ابن مردويه في تفسيره وهو نحو كراسين .

٥٢ ـ نسخة وضعها اسحاق الملطي .

٥٣ ـ نسخة من رواية عبدالله بن احمد عن ابيه عن علي الرضا .

٥٤ ـ نسخة احمد بن اسحاق بن ابراهيم بن نبيط ، كلها موضوعة .

٥٥ ـ نسخة مروية عن ابن جريج عن عطاء بن سعيد ، وفيها الوصية بالجماع .

٥٦ ـ العلويات لمحمد بن محمد بن الاشعث .

٥٧ ـ كتاب العروس لابي الفضل جعفر بن محمد بن محمد بن علي .

٥٨ ـ فقه العوام وانكار امور اشتهرت بين الانام لتاج الدين الفزاري .

٥٩ ـ تلخيص موضوعات الجوزقاني للذهبي .

٢ ـ كتب اشتملت على الضعفاء والمجروحين وفيها احاديث موضوعة : ـ

١ ـ تاريخ إبن معين .

٢ ـ تاريخ ابن ابي شيبة .

٣ ـ تاريخ ابن ابي خيثمة .

٤ - تاريخ ابن الجارود .
٥ - تاريخ ابن سعد ، وهو غير الطبقات .
٦ - تاريخ خليفة بن خياط .
٧ - التاريخ الكبير للبخاري ، وهو مطبوع .
٨ - التاريخ الاوسط له ايضاً وهو مطبوع .
٩ - التاريخ الصغير له ايضاً وهو مطبوع .
١٠ - الضعفاء الكبير له ايضاً .
١١ - الضعفاء الصغير له ايضاً .
١٢ - الضعفاء والمجروحين لابن حبان البستي ، وللدارقطني حواش عليه .
١٣ - تاريخ ابن حبان .
١٤ - التاريخ لابي زرعة .
١٥ - الضعفاء الكبير للعقيلي ، وهو مطبوع ،
١٦ - الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي وهو مطبوع ، وله ذيل لابن الرومية ، ذيل لابن طاهر .
١٧ - الضعفاء لابي الفتح الازدي .
١٨ - الافراد للدارقطني .
١٩ - تاريخ العجلي .
٢٠ - الضعفاء والمنسوبين إلى البدعة من المحدثين لابي يحيى الساجي البصري .
٢١ - الضعفاء صنف العلماء بهذا الاسم عدة مصنفات منها ، مصنف البرقي وابي نعيم الجرجاني الاستراباذي .
٢٢ - الضعفاء والمتروكين وبهذا الاسم صنف بعض العلماء منهم النسائي وابن السكن والدارقطني وعلاءالدين المارديني وابن الجوزي وللذهبي على كتاب ابن الجوزي مختصر وذيل .
٢٣ - المغني في الضعفاء للذهبي .

٢٤ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ايضاً وعليه ذيل للعراقي ، وزاد ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان واختصره ابو زيد الفاسي في مختصر الميزان ، وللبرهان الحلبي نثر الهميان في معيار الميزان وللمناوي كتاب على لسان الميزان .

٢٥ ـ تواريخ المدن كتاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة وواسط واصبهان وبغداد ودمشق ونيسابور ومصر وقزوين وغيرها ، وبعض هذه الكتب فيها التراجم والاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة ؛ ومنها ما نص مصنفوها على بيان الاحاديث الموضوعة ، ومنها ما لم ينصوا عليها ، ولا توجد في بعض الكتب احاديث بل تراجم الوضاعين فذكرتها للتحذير منها فقط .

٣ ـ كتب احتوت على الحديث الصحيح والضعيف والموضوع .

١ ـ العلل المتناهية في الاحاديث الواهية لابن الجوزي ، وهو مطبوع .

٢ ـ تلخيص العلل المتناهية للذهبي .

٣ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية وهو مطبوع .

٤ ـ المغني عن حمل الاسفار في الاسفار للعراقي (وهو تخريج كتاب احياء علوم الدين للغزالي) .

٥ ـ الامالي له ايضاً .

٦ ـ بعض التفاسير منها تفسير الواحدي والثعلبي والزمخشري)المعروف بالكشاف) ففي هذه التفاسير احاديث موضوعة ، ولا جرم لان اصحابها ليسوا من اصحاب الحديث .

٧ ـ تخريج احاديث الكشاف لابن حجر العسقلاني .

٨ ـ المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية له ايضاً ، وهو مطبوع .

٩ ـ تسديد القوس له ايضاً .

١٠ ـ زهر الفردوس له ايضاً .

١١ ـ اللالىء المنثورة في الاحاديث المشهورة له ايضاً .

١٢ ـ التذكرة في الاحاديث المشتهرة لبدرالدين الزركشي .

١٣ ـ كشف الالتباس فيما خفي على كثير من الناس لغرس الدين الخليلي .

١٤ ـ المقاصد الحسنة في الاحاديث المشتهرة على الالسنة للسخاوي .

١٥ ـ تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع .

١٦ ـ ما الفه الطبع وليس له اصل في الشرع لعبدالوهاب الشعراني .

١٧ ـ شهاب الاخبار للقضاعي .

١٨ ـ فردوس الاخبار للديلمي ، زاد فيه على الشهاب .

١٩ ـ مسند الفردوس لابنه منصور الديلمي ، زاد فيه على فردوس ابيه .

٢٠ ـ القصاص والمذكرين لابن الجوزي .

٢١ ـ كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس لاسماعيل بن محمد العجلوني .

٢٢ ـ اتقان ما يحسن من الاحاديث الدائرة على الألسن لنجم الدين محمد بن محمد الغزي العامري .

٢٣ ـ النوائح العطرة في الاحاديث المشتهرة للقاضي محمد الصفدي الصغاني .

٢٤ ـ اسنى المطالب في احاديث مختلفة المراتب لمحمد بن درويش الحوت البيروني الصغاني .

٢٥ ـ مصنفات ابن مردويه وابن عساكر وابن النجار والديلمي وابي نعيم الاصبهاني والطبراني وابن منده والحكيم الترمذي الذين لم ينصوا على بيان درجة الاحاديث .

٢٦ ـ كتب المواعظ والرقائق ككتاب نزهة المجالس ومنتخب النفائس للصفوري ، وتنبيه الغافلين ، وقرة العيون وهما للسمرقندي ، وقصص الانبياء للثعلبي ، ودرة الناصحين للخوبوي ، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ، والروض الفائق في المواعظ والرقائق للحريفيش .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١ - **احاديث القصاص لابن تيمية** : تحقيق محمد الصباغ ط١ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م المكتب الاسلامي .

٢ - **اختصار علوم الحديث لابن كثير** ، دار ابن كثير العلمية ، بيروت ١٣٧٠هـ / - ١٩٥١م .

٣ - **ادب الدين والدنيا لابي الحسن الماوردي** ط١٦ ، دار احياء التراث ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٤ - **اصول الحديث علومه ومصطلحه** ، محمد عجاج الخطيب ط١ ، دار التراث ، بيروت ، ١٣٢٨هـ .

٥ - **الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد**، تحقيق قحطان الدوري، الارشاد ، بغداد ، ١٩٨٢م .

٦ - **الباعث الحثيث** ، احمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٥٠م .

٧ - **تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة** ، دار الجيل ،بيروت ١٩٧٣م .

٨ - **تحذير الخواص من اكاذيب القصاص للسيوطي** ،تحقيق محمد الصباغ ، المكتب الاسلامي ، ١٩٧٢م .

٩ - **الترغيب والترهيب للمنذري**، دار احياء الكسب العربية ،مصر ١٣٤٦هـ.

١٠ - **تدريب الراوي شرح تقريب النووي للسيوطي** ، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ، السعادة ، مصر ، ١٩٦٦م .

١١ - **تذكرة الحفاظ للذهبي** ، ط٣ ، النظامية بالهند .

١٢ - **تذكرة الموضوعات محمد بن طاهر الفتني** ط٢ احياء التراث ، بيروت .

١٣ - **التعريف بالقرآن والحديث** محمد الزفزاف ، مصر .

١٤ - **التقريب في اصول الحديث للنووي** محمد الزفزاف، مصر، مطبعة محمد علي صبيح واولاده، مصر ١٩٦٨م .

١٥ ـ تقدمة المعرفة لابن ابي حاتم الرازي، دائرة المعارف، الهند، ط ١، ١٣٧١هـ .
١٦ ـ التقييد والايضاح للعراقي دار الفكر، بيروت .
١٧ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة في الاحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف وصاحبه ط ١ عاطف، مصر .
١٨ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت .
١٩ ـ توجيه النظر، طاهر الجزائري، الجمالية، مصر، ١٩١٠م .
٢٠ ـ الجرح والتعديل لابن ابي حاتم الرازي، دائرة المعارف بالهند ١٩٥٢م .
٢١ ـ الجرح والتعديل لجمال الدين القاسمي، الرسالة، بيروت، ١٩٨١م .
٢٢ ـ جواهر الاصول للفصيح الهروي، تحقيق اطهر المباكفوري، العلمية، المدينة المنورة، ١٩٧٣م .
٢٣ ـ الحديث والمحدثون محمد محمد ابو زهو، ط ١، مصر ١٩٥٨م .
٢٤ ـ الخلاصة في اصول الحديث لابي الحسين الطيبي، تحقيق صبحي السامرائي، الارشاد، بغداد ١٩٧١م .
٢٥ ـ رسالة في علوم الحديث، كمال الدين الطائي، مطبعة سلمان الاعظمي بغداد ١٩٧١م .
٢٦ ـ شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي، تحقيق صبحي جاسم، مطبعة العاني، بغداد ١٣٩٦هـ .
٢٧ ـ صحيح البخاري، دار التراث العربي، بيروت .
٢٨ ـ صحيح مسلم بن الحجاج، دار الكتب العلمية، بيروت .
٢٩ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ط ٢ ـ ١٩٧٢م .
٣٠ ـ الضعفاء الكبير للعقيلي تحقيق د. عبدالمعطي امين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م .
٣١ ـ العلل للترمذي، المكتبة الاسلامية، ١٩٥٧م، بذيل سنن الترمذي .

٣٢ ـ **علوم الحديث ومصطلحه** ، د. صبحي الصالح ، ط٦ ، دار الملايين بيروت ١٩٧١م .
٣٣ ـ **فتح الباقي شرح الفية العراقي** زكريا الانصاري ، ط١ الجديدة ، فاس ، ١٩٥٧ ، بذيل التبصرة والتذكرة للعراقي .
٣٤ ـ **فتح المغيث شرح الفية الحديث للسخاوي** ، تحقيق : عبدالرحمن محمد عثمان ، ط٢ ، العاصمة ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
٣٥ ـ **الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة للشوكاني** ، تحقيق عبدالرحمن المعلمي ، ١٩٧٩م .
٣٦ ـ **الكبائر للذهبي** ، دار احياء التراث ، بيروت .
٣٧ ـ **كشف الخفا ومزيل الالتباس للعجلوني** ، الفنون ، حلب .
٣٨ ـ **الكفاية للخطيب البغدادي** ، ط السعادة ، مصر ، وط الهند .
٣٩ ـ **لسان الميزان لابن حجر** ، ط١ ، الهند ، ط٢ بيروت .
٤٠ ـ **اللاليء المصنوعة للسيوطي** ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٥م .
٤١ ـ **المجروحين لابن حبان** ، ط١ الهند ١٩٧٠م .
٤٢ ـ **المحدث الفاصل للرامهرمزي** ، تحقيق محمد عجاج ط١ ، دار الفكر بيروت ، ١٩٧١م .
٤٣ ـ **المصنوع في الحديث الموضوع لملا علي القاري** تحقيق : عبدالفتاح ابو غدة ط١ ، دار البيان ، بيروت ١٩٦٩م .
٤٤ ـ **معرفة علوم الحديث للحاكم** تحقيق معظم حسين ، ط٢ ، الهند ، ١٩٧٧م .
٤٥ ـ **معرفة السنن والاثار للبيهقي** ، الاهرام .
٤٦ ـ **مقدمة ابن الصلاح** تحقيق ، د. نور الدين عتر ، الاصيل ، حلب ، ١٩٦٦م .
٤٧ ـ **المنار المنيف لابن قيم الجوزية** ، تحقيق . ابو غدة ، حلب ، ١٩٧٠م .

٤٨ ـ **الموضوعات لابن الجوزي** ، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ، ط١ المكتبة السلفية، المدينة المنورة ، ١٩٦٦ م .
٤٩ ـ **ميزان الاعتدال للذهبي** ط١ ، دار احياء الكتب العربية، مصر ١٢٨٢ﻫ
٥٠ ـ **نزهة النظر لابن حجر العسقلاني** ، البيان ، بيروت .
٥١ ـ **الوسائل إلى معرفة الاوائل للسيوطي** : تحقيق ، د. اسعد طلس، النجاح بغداد ، ١٩٥٠ م .



إفادة (لن) تأبيد النفي

محمد حسين نجم
كلية الآداب / قسم اللغة العربية
جامعة الموصل

كان الزمخشري قد ذهب إلى أنّ «لن» تفيد تأكيد النفي ، ونسب اليه القول بافادتها للتأبيد ، وقد خالفه في إفادتها التأبيد والتأكيد نحاة كثيرون. فهل تفيد «لن» تأبيد النفي ؟ وهل تفيد تأكيده ؟

للإجابة عن هذا التساؤل أخترت أن أدرس «لن» وقصرت هذه الدراسة على إفادتها تأبيد النفي ، أمّا إفادتها لتأكيده فسوف أخصّها بدراسة أخرى إنْ شاء الله تعالى .

وقد قسّمت الموضوع على قسمين : تتبعت في القسم الأول آراء النحاة في «لن» وأستقريت في القسم الثاني إستعمالها في القرآن الكريم .

القسم الأول : لن عند النحاة

لن عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) حرف نفي ، وهي تنفي الأفعال المستقبلة التي دخلت عليها السين وسوف ، قال : «ولن أضرب ، نفي لقوله سأضرب(١)» وقال أيضاً : «وإذا قال : سوف يفعل فإنّ نفيه لن يفعل» (٢) ، ولم يذكر سيبويه أنها تفيد تأبيد النفي .

وتابع النحويون سيبويه على أنّ «لن» حرف ينفي الأفعال المستقبلة دون إفادة معنى التأبيد ، فها هو ذا المبرّد (ت ٢٨٥هـ) يقول : «وهي نفي قولك سيفعل ، تقول : لن يقوم زيد ، ولن يذهب عبدالله (٣) ، ولم يذكر أنها تفيد تأبيد النفي .

---

(١) الكتاب : ١٣٥/٤ — ١٣٦ .
(٢) الكتاب : ١١٧/٣
(٣) المقتضب : ٦/٢

وتابع أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) سيبويه . وقال : لن يفعل نفي سيفعل[٤] ولم يذكر إفادتها للتأبيد .

وإلى مثل ذلك ذهب أبو علي الفارسي [٥](ت ٣٧٧هـ) ، والرّماني [٦] (ت ٣٨٤هـ) وأبن جني [٧] (ت ٣٩١هـ) وعبد القاهر الجرجاني [٨] (ت ٤٧١هـ) .

وبقيت «لن» حرفاً ينفي الأفعال المستقبلة دون إفادة معنى التأبيد أو غيره ، إلى أن جاء الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) . فذهب إلى أن «لن» تفيد تأكيد النفي ، قال : «...فإنْ قلت : ماحقيقة (لن) في باب النفي ؟ قلتُ : «لا» و «لن» أختان في نفي المستقبل إلا أنّ في «لن» توكيداً وتشديداً ، تقول لصاحبك لأقيم غداً ، فإنْ أنكر عليك قلت : لن أقيم غداً كما تفعل في أنا مقيم وإنّي مقيم» [٩] . فهو هنا يُصرّح بأنّ «لن» تفيد توكيد النفي وقد كرّر ذلك في عدة مواضع من الكشاف [١٠] ، وذكره في المفصل [١١] والأنموذج [١٢] .

أما معنى التأبيد ، فقد ذكر أبن مالك [١٣] والمرادي [١٤] وأبن هشام [١٥] والسيوطي [١٦] انه قاله في الأنموذج . وفي الأنموذج ، لم يقل الزمخشري

(٤) الأصول : ١/١٥٢ .
(٥) المقتصد في شرح الايضاح : ٢ / ١٠٤٩
(٦) معاني الحروف : ٢٠٠
(٧) اللمع : ٢١٩
(٨) المقتصد في شرح الايضاح : ٢/ ١٠٤٩
(٩) الكشاف : ١/٢٤٨
(١٠) ينظر : ١/٦٠٤ و ٣/٢٢ و ٤/ ١٧١ .
(١١) المفصل : ١٤٣ .
(١٢) الأنموذج ضمن مجموع ص ١٠٢
(١٣) شرح الكافية الشافية : ٣/ ١٥٣١
(١٤) الجنى الداني : ٢٨٤
(١٥) مغني اللبيب : ١/٢٨٤
(١٦) همع الهوامع : ٢/ ٣ - ٤

بالتأبيد ،وإنما قال بالتأكيد قال : «ولن نظيرة «لا» في نفي المستقبل ولكن على التأكيد» (١٧) . وعلّق الأردبيلي – شارح الأنموذج– على هـــذه العبارة بقوله : «وفي بعض النسخ التأبيد بدل قوله التوكيد» (١٨) .

إنّ الزمخشري لم يصرّح بـ «التأبيد» في كل كتبه التي أطلعت عليها ، فهو لم يقل ذلك صراحة في الكشّاف أو المفصل أو الأنموذج، فلمَ نسب النحويون اليه القول بأن «لن» تفيد تأبيد النفي ؟

للإجابة عن هذا التساؤل أقول : إن الزمخشري كان مُهيّأً لأن ينسب إليه مثل هذا الرأي ، يظهر لنا ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى : (قال ربِّ أرني أنظر اليك قال لن تراني) (١٩) ، فقد ذهب إلى أنّ رؤية الله سبحانه مستحيلة في الدنيا والآخرة ، وقال : «إنّ الرؤية هي إدراك ببعض الحواس وإنما يصح ذلك فيما كان في جهة وماهو بجسم ومحال أن يكون الله في جهة» (٢٠) .

إن الزمخشري لايجيز رؤية الله سبحانه أبداً لافي الدنيا ولا في الآخرة لأنّ الرؤية تجعله من جملة الأجسام والأعراض (٢١) ، والله سبحانه في مفهوم الزمخشري ليس له هيئة ، وهو لم يذكر أنّ النفي بـ «لن»الذي هو الذيأفاد التأبيد، وإنما يصدرمن مذهبه الأعتزالي الذييرىأن رؤية الله سبحانه لاتحصل في الدنيا والآخرة .

---

(١٧) الانموذج : ١٠٢

(١٨) شرح الأنموذج ، مخطوط لم ترقم صفحاته .

(١٩) الأعراف : ١٤٣

(٢٠) الكشاف : ٢/ ١١٣ .

(٢١) الكشاف : ٢٨٢/١ .

أمّا مانسبه اليه النحاة من قوله بالتأبيد في الأنموذج فأغلب الظن أنه تحريف لكلمة «التأكيد» بإبدال الكاف باءً والفرق بينهما في الرسم يسير (٢٢) ويشجع على هذا التحريف ماذهب اليه الزمخشري من نفي أبدي للرؤية (٢٣) . ولم يوافق أحد من النحاة على أن «لن» تفيد تأبيد النفي إلا ابن عطيه (٢٤) (ت ٥٤٢ هـ) وابن يعيش (ت ٦٤٢ هـ) من القدماء والدكتور مهدي المخزومي من المحدثين .

فقد ذهب ابن عطية الى أن لن تفيد تأبيد النفي ، وقال فيما يرويه لنا السيوطي ، في قوله تعالى «لن تراني» : «لو بقينا على هذا النفي لتضمن أن موسى لايراه أبداً حتى ولا في الآخرة لكن ثبت في الحديث المتواتر أن أهل الجنة يرونه» (٢٥) .

ذهب ابن يعيش الى أن «لن» تفيد تأبيد النفي ، قال : «ولن تنفي فعلاً مستقبلاً قد دخل عليه السين وسوف ، وتقع جواباً لقول القائل : سيقوم زيد وسوف يقوم زيد ، والسين وسوف تفيدان التنفيس في الزمان فلذلك يقع نفيه على التأبيد وطول المدة ، نحو قوله تعالى : (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم) (٢٦) وكذلك قول الشاعر :

---

(٢٢) لفت انتباهي في رسالتي للماجستير الموسومة « شعبان الاثاري وجهوده في النحو » ما نسبه النحاة الى الزمخشري من ذهابه الى إفادة « لن» لتأبيد النفي وقد ذكرت انه لم يذكر التأبيد في الأنموذج ، (ينظر ص ١٨٩) .

وقد رجحت في حديث مع الدكتور عبد الوهاب العدواني ان مانسبه النحاة الى الزمخشري من قول بالتابيد هو تحريف لكلمة « تأكيد» لكنني أثرت الابتعاد عن هذا الرأي ، ولم أذكره في هذا البحث ، وعندما جاءتني ملاحظة أستاذنا الفاضل الدكتور طارق الجنابي وهي ترجح التحريف عدت إلى ترجيحي القديم .

(٢٣)

(٢٤) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم الغرناطي ، ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفى سنة ٥٤٢ هـ، كان فقهياً جليلا عارفاً بالاحكام والحديث والتفسير ، نحوياً أديباً غاية في توقد الذهن وحسن الفهم ، ألف تفسير القرآن العظيم (بغية الوعاة : ٢/ ٧٣) .

(٢٥) همع الهوامع : ٢/ ٣ - ٤ .

(٢٦) البقرة : ٩٥ .

ولن يراجع قلبي حبّها أبداً ٭ زكنت من بُغضهم مثل الذي زكنوا (٢٧)

فذكر الأبد بعد «لن» تأكيد لما تعطيه «لن» من النفي الأبدي» (٢٨) .

وابن يعيش إذ يقرر أنّ «لن» للنفي الأبدي يخشى أن يصطدم هذا مع ماثبت في الحديث الشريف من أن (رؤية الله تعالى تحصل في الآخرة لأهل الايمان لذلك قال في قوله تعالى (لن تراني) : «ولا يلزم منه عدم الرؤية في الآخرة لأن المراد : أنك لن تراه في الدنيا ، لأن السؤال وقع في الدنيا والنفي على حسب الإثبات» (٢٩) .

وذهب الدكتور مهدي المخزومي إلى أن «لن» تفيد تأبيد النفي مناصراً بذلك مانسب إلى الزمخشري فقال : «والزمخشري ، فيما يبدو على حق في أستظهاره ذلك ــ التأبيد والتأكيد ــ لأنها تنفي سوف في قولهم : سوف يفعل وسوف نص على المستقبل» (٣٠) . وأستشهد على ذلك بقوله تعالى (قال ربَ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين) (٣١) وقال : «ومقتضى ظاهر هذه الآية أن ذلك عهد قطعه على نفسه لايحيد عنه ، ومثل هذا قول أبي طالب (٣٢) .

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسّد في التراب دفينا(٣٣)

ومما تقدم يظهر لنا أن الذين وافقوا على مانسب إلى الزمخشري من إفادة «لن» تأبيد النفي قد أستندوا إلى أنها تنفي فعلاً مستقبلاً قد دخلت عليه

---

(٢٧) البيت لقعنب بن أم صاحب ، استشهد به إبن يعيش في شرحه على المفصل : ١١٢/٨ واستشهد به إبن السيد البطليوسي في الاقتضاب : ٢٩٢ .

(٢٨) شرح ابن يعيش : ١١١/٨ – ١١٢

(٢٩) شرح ابن يعيش : ٨/ ١١٢

(٣٠) في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٥٦ .

(٣١) القصص : ١٧

(٣٢) ينسب هذا البيت الى أبي طالب عم الرسول الكريم ، وقد استشهد به إبن مالك في شرح الكافية الشافية : ٨٤٩/٢ ، وابن هشام في المغنى : ٢٨٥/٢ .

(٣٣) في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٥٦

السين أو سوف وهما تفيدان التنفيس في الزمان ، وأسندوا إلى ذكر كلمة «الأبد» بعد «لن» فهي عندهم تأكيد لما تعطيه لن من النفي الأبدي .

وقد خالف في إفادة «لن» معنى التأبيد نحاة كثيرون منهم أبن مالك (ت ٦٧٢هـ) قال : «وأشرت إلى ضعف قول من رأى تأبيد النفي بـ «لن» وهو الزمخشري في أنموذجه وحامله على ذلك أعتقاده أن الله تعالى لايرى ، وهو أعتقاد باطل بصحة ذلك عن رسول الله (ص) ، أعني ثبوت الرؤية» (٣٤).

وقال في التسهيل : «وينصب المضارع بـ «لن» مستقبلاً بحد وغير حد خلافاً لمن خصها بالتأبيد» (٣٥) .

ومنهم الرازي (ت ٦٠٦هـ) قال : «إنها لاتفيد النفي الدائم» (٣٦) بدليل قوله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) (٣٧) مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة (٣٨) .

ومنهم الرضي (ت ٦٨٨هـ) قال : «لن تنفي المستقبل نفياً مؤكداً وليس للدوام والتأبيد كما قال بعضهم» (٣٩) ، ولم يبين لنا دليله .

ومنهم المرادي (ت ٧٤٩هـ) قال : «ولا يلزم أن يكون نفيها مؤبداً خلافاً للزمخشري» (٤٠) .

ومنهم أبن هشام (ت ٧٦٢هـ) قال : «لو كانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في (فلن اكلـّم اليوم إنسياً) (٤١) ولكان ذكر الأبد في (ولن يتمنوه أبداً) تكراراً ، والأصل عدمه» (٤٢) .

---

(٣٤) شرح الكافية الشافية : ٣/ ١٥٣١
(٣٥) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ٢٢٩ .
(٣٦) التفسير الكبير : ٢٢٣/١٤
(٣٧) البقرة : ٩٥
(٣٨) التفسير الكبير : ٢٢٣/١٤
(٣٩) شرح الرضي على الكافية : ٢٣٥/٢
(٤٠) الجنى الداني : ٢٨٤
(٤١) مريم : ٢٦
(٤٢) مغني اللبيب : ٢٨٤/١

ومنهم أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) قال : «وأستقباله — لن — محدود بوقت وبغير وقت ، ولا يدل على نفي الفعل في جميع الزمان المستقبل (٤٣)

ومنهم خالد الأزهري (ت ٩٠٥هـ) قال : «ولا تقتضي لن تأبيد النفي خلافاً للزمخشري في أنموذجه لأنها لو كانت للتأبيد للزم التناقض بذكر اليوم في قوله تعالى (فلن اكلم اليوم إنسياً) (٤٤) وللزم التكرار بذكر «أبداً» في قوله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) (٤٥) ، ولم تجتمع مع ماهو لانتهاء الغاية نحو قوله تعالى (فلن أبرح الارض حتى يأذن لي أبي)» (٤٦) (٤٧) . وذهب الى أن «لن تنفي المستقبل إما إلى غاية ينتهي إليها نحو (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجعَ الينا موسى) (٤٨) فإن نفي البراح مستمر إلى رجوع موسى ، وإما الى غير غاية نحو (لن يخلقوا ذباباً) (٤٩) فإن نفي خلق الذباب مستمر أبداً لأن خلقهم للذباب محال وأنتفاء المحال مؤبّد قطعاً» (٥٠) .

ومنهم السيوطي (ت ٩١١هـ) الذي أختار التأكيد دونْ التأبيد (٥١) . فأبن مالك والرازي والرضي وأبو حيان والمرادي وأبن هشام وخالد الازهري والسيوطي كلهم لايوافقون على إفادة «لن» معنى التأبيد ، ويلحظ أن أبن مالك وخالد الأزهري ذهبا إلى أن النفي بها يكون أبدياً وغير أبدي ، وهذا ماعبر عنه أبن مالك بقوله «وتنصب المستقبل بحد وغير حد» (٥٢) وعبر

---

(٤٣) ارتشاف الضرب : ٣٩١/٢ .
(٤٤) مريم : ٢٦ .
(٤٥) البقرة : ٩٥ .
(٤٦) يوسف : ٨٠ .
(٤٧) شرح التصريح على التوضيح : ٢٢٩/٢ .
(٤٨) طه : ٩١ .
(٤٩) الحج : ٧٣ .
(٥٠) شرح التصريح : ٢٢٩/٢ .
(٥١) همع الهوامع : ٤/٢ .
(٥٢) التسهيل : ٢٢٩
(٥٣) شرح التصريح على التوضيح : ٢/ ٢٢٩ .

عنه خالد الأزهري بقوله : وهي لنفي الفعل المستقبل إما إلى غاية ينتهي إليها وإما إلى غير غاية» (٥٣) .

وخالف مانسب الى الزمخشري الدكتور تمام حسان فقال وهو يتحدث عن نفي الماضي بالمضارع « ولعل ذلك هو الذي جعل النحاة ينسبون معنى الزمن إلى أدوات النفي مع أن الأداة لايمكن أن تفيد زمناً ، وإنما يمكنها أن تفيد الجهة وهي تفيدها فعلاً في حالة الجملة المنفية» (٥٤) فالاختلاف بين زمن وزمن عند الدكتور تمام حسان هو أختلاف في الجهة التي هي القرينة على مايبدو لي .

وكذلك خالف الدكتور كمال ابراهيم بدري وذهب إلى أن «لن» مع المضارع تستعمل لنفي المستقبل البعيد والقريب ، قال : «...عندما قلت : سيسافر زيد كان نفيها: لن يسافر زيد ، وعندما أستعملت سوف بدلاً عن السين كان النفي أيضاً : لن يسافر زيد ، ولم يتغير وعليه ف «لن» مع المضارع تستعمل لنفي المستقبل البعيد والقريب» (٥٥).

ورفض إفادتها للتأبيد فقال : «حين قلت سيسافر زيد كان النفي لن يسافر زيد ، والنفي هنا يشمل غداً وغيرَ غد ، فيصح أن يكون النفي مؤبداً ، أما ذا أردتُ أن يكون النفي قاصراً على يوم الغد تُعين عليَّ أن أقول : لن يسافرَ زيد غداً ، على هذا فأنا أوافق النحاة الذين رفضوا معنى التأبيد في «لن » فهي غير مختصة بذلك والنفي ينبغي أن يكون نقيضاً لمعنى الاثبات» (٥٦).

إن الدكتور كمال ابراهيم بدري يذهب إلى أن نفي لن يكون نفياً أبدياً وغير أبدي ، فهي لاتختص بالنفي الأبدي فقط ، وإنما تنفي نفياً غير أبدي عندما يقترن بها الظرف .

---

(٥٤) اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٤٨ .

(٥٥) الزمن في النحو العربي : ١٧٩

(٥٦) المصدر نفسه : ١٧٩

ومن المخالفين الدكتور علي جابر المنصوري قال : لن حرف لنفي المستقبل بغير دوام — إلاّ إذا توفرت قرينة عينت دوامه — ولذلك فهو إذا ما دخل على الفعل المضارع نفى وقوعه في السياق نفياً مؤقتاً» (٥٧) .

ولا أدري علامَ — أستند الدكتور علي جابر في ذهابه إلى أنها تنفي الفعل نفياً مؤقتاً إلاّ إذا توفرت قرينة تعين دوامه ، وسنرى أنّ هذا الرأي يخالف أستعمال «لن» في القرآن الكريم .

ومما تقدم يظهر لنا أن الذين رفضوا فكرة التأبيد في نفي «لن» قد أستندوا إلى الاسس الآتية :

١ — ان رؤية الله سبحانه وتعالى تحصل لأهل الجنة في الآخرة ، وقد ثبت هذا في الحديث الصحيح ، وعليه فإنّ نفي «لن» في قوله تعالى (لن تراني) ليس أبدياً .

٢ — ان اليهود يتمنون الموت من شدة العذاب في الآخرة ، وعليه فإن نفي «لن» في قوله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) ليس أبدياً .

٣ — يتناقض التأبيد مع كلمة اليوم في قوله تعالى (فلن اكلّم اليوم إنسياً) ومع كلمة «غداً» في قولنا : لن يحضر زيد غداً .

٤ — يتكرر معنى التأبيد عند أقتران منفيها بكلمة «الأبد» في قوله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) والأصل عدم التكرار .

٥ — يقيّد منفيها بغاية ينتهي عندها ، كقوله تعالى (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) .

٦ — القرائن هي التي تدل على الزمن لا الأدوات .

ومن أجل أن نعرف مدى إفادة «لن» لتأبيد النفي أو عدم أفادتها له ، نحتم علينا أن نستقري أستعمالها في القرآن الكريم .

---

(٥٧) الدلالة الزمنية في الجملة العربية : ١١٧ — ١١٨ .

القسم الثاني — لن في القرآن الكريم

وردت «لن» في القرآن الكريم في مئة وخمسة مواضع ، وهي في جميع تلك المواضع قد دخلت لنفي الفعل المستقبل .

ونفي «لن» في القرآن الكريم نوعان :

النوع الأول — النفي الدائم : وهو نفي لم يحدد بزمن آخر ينتهي عنده الفعل المنفي ، فهو نفي مستمر لم تحدد فيه «لن» بزمن آخر يقيّد دوامها ، وهو ما سماه بعض النحويين بـ «النفي الأبدي» .

وقد وردت «لن» دالةً على النفي الأبدي في اربعة وتسعين موضعاً (٥٨). نذكر منها على سبيل المثال اقواله تعالى :

١ — «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فآتوا بسورة من مثله وآدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فآتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة» . البقرة : ٢٤

٢ — «فلن يخلف الله عهده» . البقرة : ٨٠

٣ — «قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك» هود : ٨١

---

(٥٨) ينظر : البقرة : ٢٤ ، ٦١ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١٢٠
آل عمران : ١٠ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧
النساء : ٥٢ ، ٨٨ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٢
المائدة : ٢٢ ، ٤١ ، ٤٢ . الانعام : ١٢٤ : الاعراف : ١٤٣ الانفال : ١٩ ، التوبة : ٥١ ، ٥٣ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٤ هود : ٣١ ، ٣٦ ، ٨١ . الاسراء : ٣٧ ، ٩٧
الكهف : ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥ .
طه : ٧٢ ، ٩٧ ، الأنبياء : ٨٧ . الحج : ١٥ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٧٣ المؤمنون : ٤٧ ،
القصص ، ١٧ ، الاحزاب : ١٦ ، ٦٢ ، سبأ : ٣١ فاطر : ٢٩ ، ٤٣ ، المؤمن : ٣٤ ، الزخرف : ٣٩ ، الجاثية ١٩ .
محمد (ص) : ٤ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، الفتح : ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، المجادلة : ١٧
الممتحنة : ٣ ، المنافقون : ٦ ، ١١ ، التغابن : ٧ ، الجن : ٢ ، ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ٢٢ ،
المزمل : ٢٠ ، القيامة ٣ ، النبأ : ٣٠ ، الانشقاق : ١٤ البلدة .
ويلاحظ أن الاية الواحدة قد ترد فيها «لن» مرتين .

٤ ــ «ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم» البقرة : ٩٥

٥ ــ «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه» آل عمران : ٨٥

إنّ نفي «لن» في الآيات السابقة هو نفي أبدي ، لأنه لم يحدد بزمن آخر ينتهي عنده ، فالعرب الذين تحداهم الله سبحانه على أن يأتوا بسورة مثل القرآن قد عجزوا عن مُحاكاته ، ونفيُ إتيانهِم بسورة واحدة من مثله مستمر أبداً . وفي الاية الثانية ، نجد أن نفي إخلاف الله لعهده مستمر أبداً ؛ وفي الاية الثالثة نجد أنّ نفي وصول السفهاء من قوم لوط اليه مستمر أبداً وهكذا الشأن في الآيتين الرابعة والخامسة ؛ فاليهود لا يتمنون الموت أبداً وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل من احد غير الإسلام ديناً أبداً .

وإنّ نفي «لن» الأبدي واضح في جميع الآيات الأربع والتسعين التي ذكرنا أرقامها في هامش سابق باستثناء خمس أيات هي :

١ ــ « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» البقرة : ٨٠

٢ ــ «ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات» آل عمران : ٢٤

٣ ــ «لن يضروكم إلا أذىً» آل عمران : ١١١

٤ ــ «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» التوبة : ٥١

٥ ــ «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً» النبأ : ٣٠

فإن القارىء قد يتراءى له أن دوام نفي «لن» واستمراره قد حدد بسبب الاستثناء منها ، والحقيقة انها بقيت في هذه الآيات تنفي نفياً مستمراً ففي الآيتين الأولى والثانية نجد أن نفي مس النار لهم مستمراً ابداً باستثناء أيام معدودة . ونجد في الآية الثالثة أنّ نفي الضر مستمر أبداً باستثناء أذىً قليل ، وفي الاية الرابعة نجد أن نفي الإصابة بشيء لم يكتبه الله مستمر أبداً ؛ وإنما يصيب الانسان ما كتبه الله عليه. وأما الآية الأخيرة فإننا نجد نفي زيادة أشياء أخرى مستمر ابداً ، فلا مجال لتوقع شيء جديد يخفف عنهم ، إنما يزادون عذاباً .

ويلحظ أن «لن» وهي تنفي نفياً أبدياً قد اقترنت بكلمة «أبداً» في خمس آيات هي :

١ – «ولن يتمنوه أبداً ذلك بما قدمت ايديهم» البقرة : ٩٥

٢ – «فقل لن تخرجوا معي أبداً» التوبة : ٨٣

٣ – «ولن تفلحوا إذاً أبداً» الكهف : ٢٠

٤ – «وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً» الكهف : ٥٧

٥ – «بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً» الفتح : ١٢

لذلك ذهب قسم من النحاة إلى أن نفي «لن» غيرُ أبدي ، لأنها قد اقترنت بكلمة «الأبد» وهذا تكرار للمعنى ، والأصل عدمه .

ونحن نقول : إن كلمة الأبد يراد بها توكيد معنوي لكلمة سابقة تضمنت معنى الدوام والإستمرار وهي «لن» .

النوع الثاني – النفي غير الدائم

وهو نفي يحدد فيه واستمرار نفي «لن» بغاية ينتهي عندها ولا يجاوزها وهذا يمكن أن نسميه بالنفي غير الأبدي .

وقد وردت «لن» في سياق نفي غير ابدي في إحدى عشرة آية هي :

١ – «وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» البقرة : ٥٥

٢ – «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» البقرة : ١٢٠

٣ – «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها» المائدة : ٢٢

٤ – «قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها» المائدة : ٢٤

٥ – «قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله» الانعام : ١٢٤

٦ – «قال لن ارسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله» يوسف : ٦٦

٧ – «فلن أبرحَ الأرضَ حتى يأذن لي أبي» يوسف : ٨٠

٨ — «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجرَ لنا من الارض ينبوعاً» الاسراء: ٩٠

٩ — «ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» الاسراء: ٩٣

١٠ — «فلن أكلمَ اليوم إنسياً» مريم : ٢٦

١١ — «وقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى» طه : ٩١

إنَّ نفي «لن» في الآيات السابقة يستمر ويدوم إلى زمن آخر ينتهي عنده، فهو نفي غير أبدي، فنفي الإيمان في الآية الأولى يستمر إلى أن يتحقق طلبهم في رؤية الله جهرة سبحانه عما يطلبون، وفي الآية الثانية نجد أن نفي رضا اليهود والنصارى عن الرسول الكريم يستمر إلى أنْ يتبع الرسول(ص) ملتهم، وهذا لا يكون أبداً، أما في الآية الثالثة فإن نفي الدخول مستمر إلى زمن خروج القوم الجبارين، وهكذا النفي في بقية الآيات.

ويلحظ أن «لن» في الآية الثالثة قد اقترنت بكلمة الأبد، وهي في سياق نفي محدد، والذي يبدو لي أن «لن» موضوعة للنفي الدائم المستمر إن لم تحدد بزمن تنتهي اليه، فإن حددت بزمن فإنَّ دوام نفيها يستمر إلى ذلك الزمن حسب، وذكر الأبد في هذه الاية تأكيد لمعنى الدوام الذي تضمنته «لن» فنفي الدخول دائم مستمر مدة دوام القوم الجبارين فيها.

ويلحظ أيضاً أن نفي «لن» قد حدد بـ «حتى» التي بمعنى إلى أن في تسع آيات، وبكلمة اليوم في آية واحدة، و بـ «ما دام» في آية واحدة أيضاً. إنَّ تحديد نفي «لن» بزمن ينتهي عنده هو خير دليل على أنَّ «لن» موضوعة للنفي الدائم المستمر، وإلاّ لما احتاجت إلى ما يقيد هذا النفي ويحد من دوامه واستمراره.

وهكذا نرى أنَّ «لن» في القرآن الكريم موضوعة للنفي الدائم المستمر إنْ لم تحدد بزمن، فإن حُددت بزمن فإنَّ دوام نفيها يستمر إلى ذلك الزمن لذلك فهي تنفي نفياً أبدياً، ونفياً غير أبدي.

وأن استعمالها في النفي الأبدي هو الغالب، وقد وصلت نسبته الى اكثر من ٩٠٪ .

ومن هنا يظهر لنا أنّ ابن هشام قد غالى عندما نفى عنها معنى التأبيد، فإنّ «لن» كما رأينا تفيد التأبيد كثيراً وتفيد غير التأبيد ، وإني لأعجب من موقف ابن هشام هذا ، وهو الرجل الذي تشهد له الدنيا بالدقة وعلو المكانة في النحو .

وكان ابن مالك موفقاً في ذهابه إلى أن «لن» تنفي المستقبل بحد وبغير حد» وعبارته هذه دقيقة تنسجم مع استعمال «لن» في القرآن الكريم .

وكذلك كان الشيخ خالد الأزهري موفقاً في ذهابه إلى أن «لن» تنصب المضارع إمّا إلى غاية ينتهي عندها وإمّا إلى غير غاية .

وقد جانب التوفيق الدكتور علي جابر المنصوري في ذهابه إلى أن نفي «لن» هو نفي مؤقت إلاّ إذا توافرت قرينة على دوامه ، على حين أننا وجدنا عكس ذلك تماماً ، فنفي «لن» هو نفي دائم إلاّ إذا توافرت قرينة تحد من دوامه .

اما الأدلة التي استند اليها النحاة الذين رفضوا تأبيد النفي بـ «لن» والتي لخصناها في ص١٣ من هذا البحث فيمكن الردّ عليها بما يأتي :

١ — إن نفي لن هو نفي أبدي بالحسابات الدنيوية ، فالأبد هنا يستغرق الزمن الدنيوي كله ، لا الزمن في الآخرة ، وعليه لا يلزم في قوله تعالى : «لن تراني» عدم حصول الرؤية في الآخرة ، لأن طلب الرؤية حصل في الدنيا ، فيكون نفي الرؤية في الدنيا أيضاً ، والنفي يكون حسب الاثبات.

٢ — ما ذهب اليه قسم من النحويين من أنها لو كانت للتأبيد لحصل التناقض في قوله تعالى : (فلن أكلم اليوم إنسياً) يمكن الرد عليه بأن «لن» تفيد التأبيد إن لم يحدد منفيها بزمن ، وهي في هذه الآية قد حددت بكلمة اليوم ، فهي ليست للتأبيد ، وإنما يستمر نفيها خلال هذا اليوم .

٣ – ما ذهب اليه بعض النحويين من أنها لو كانت للتأبيد لحصل التكرار في قوله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) بذكر كلمة الأبد ، يمكن الرد عليه بأن كلمة الأبد هي توكيد لمعنى الدوام والاستمرار الذي تضمنته «لن».

٤ – ما ذهب اليه بعض النحاة من أنها لا تفيد التأبيد لأنها قد تقترن بزمن ينتهي فيه النفي ، نرد عليه بأن «لن» لو لم تكن موضوعة للدوام والتأبيد لما احتاجت إلى ما يحد هذا الدوام ويقيد هذا الاستمرار بعد أن كان مطلقاً .

٥ – وأما من قال ان القرائن هي التي تدل على الزمن لا الأدوات فنقول : إن لن هي قرينة على نفي المستقبل بتأبيد إن لم تحد بزمن فإن حدت فهي قرينة على الدوام والاستمرار إلى ذلك الزمن .

نتائج البحث

أظهر البحث ما يأتي :

١ – أن «لن» عند سيبويه ومن جاء بعده من النحاة الى القرن السادس الهجري ، هي حرف ينفي الافعال المستقبلة ، ولم يذكر احد إفادتها لمعنى التأبيد او التأكيد .

٢ – وأن النحاة قد نسبوا إلى الزمخشري القول بإفادتها لتأبيد النفي ، وأنه قال هذا في الانموذج ، وفي الانموذج لم يقل الزمخشري بالتأبيد ، وانما قال بالتأكيد ، وهو لم يذكر التأبيد في كل كتبه التي اطلعت عليها .

٣ – ولم يوافق احد من النحاة على إفادتها لتأبيد النفي إلا ابن عطية وابن يعيش .

٤ – وأن نفي «لن» في القرآن إما أن يكون دائماً ، غير محدد بزمن ينتهي اليه ، وهو ما نراه أبدياً ، أو أن يكون محدداً بزمن ينتهي عنده ، وهو ما نراه نفياً غير أبدي .

٥ — وقد وردت «لن» في القرآن الكريم في مئة وخمسة مواضع استعملت في اربعة وتسعين موضعاً للنفي الأبدي ، واستعملت في أحد عشر موضعاً للنفي غير الأبدي .

٦ — وقد اقترنت وهي تنفي نفياً أبدياً بكلمة «أبداً» في خمس آيات ، وكلمة الأبد هذه يُراد بها توكيد معنوي لما تضمنته «لن» من معنى الدوام والاستمرار .

٧ — وقد حدد نفي «لن» في الآيات الإحدى عشرة التي جاءت فيها دالة على النفي غير الأبدي بـ «حتّى» التي بمعنى «إلى أنْ» في تسع آيات وبكلمة «اليوم» في آية واحدة ، و بـ «مادام» في آية واحدة أيضاً .

٨ — وأن ابن هشام قد غالى عندما نفى عنها إفادة التأبيد ، وقد رأينا أنها أفادت التأبيد كثيراً .

٩ — وأن ابن مالك هو اول من ذهب إلى أنها تنصب المستقبل بحد او بغير حد ، وتبعه في هذا الشيخ خالد الأزهري صاحب التوضيح .

١٠ — وأن قول أغلب النحاة : «ولا تفيد تأبيد النفي» قول غير دقيق ، لأن «لن» تفيد تأبيد النفي بكثرة وتفيد غير التأبيد بقلة .

قائمة المصادر

القرآن الكريم

١ – **ارتشاف الضرب من لسان العرب** – ابو حيان الأندلسي ، تحقيق الدكتور مصطفى احمد النحاس ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

٢ – **الاصول في النحو** – أبو بكر بن السرّاج ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ١٩٧٣م .

٣ – **الأنموذج في النحو** – جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ضمن مجموع فيه نزهة الطرف في علم الصرف للميداني ، والاعراب في قواعد الاعراب لابن هشام) دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١م .

٤ – **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** – جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان .

٥ – **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** – جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك ، تحقيق محمد كامل بركات ، دار الكاتب العربي ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٦ – **التفسير الكبير** – الامام الفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، طهران ط٢ ، د.ت .

٧ – **الجنى الداني في حروف المعاني** – حسن بن قاسم المرادي ، تحقيق الدكتور طه محسن ، مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٨ – **الدلالة الزمنية في الجملة العربية** – الدكتور علي جابر المنصوري ، مطبعة الجامعة ، بغداد ١٩٨٤م .

٩ – **الزمن في النحو العربي** – الدكتور كمال إبراهيم بلري ، دار أمية ، الرياض .

١٠ ـ **شرح المفصل** ـ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت .

١١ ـ **شرح أنموذج الزمخشري** ـ جمال الدين محمد الأردبيلي ، مخطوط في مكتبة اوقاف الموصل ، برقم : ٩/٨ رضواني .

١٢ ـ **شرح التصريح على التوضيح** ـ الشيخ خالد الأزهري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، د.ت .

١٣ ـ **شرح الكافية الشافية** ـ جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك ، تحقيق الدكتور عبدالمنعم احمد هريدي ، دار المأمون للتراث ، مكة المكرمة ١٩٨٢م .

١٤ ـ **في النحو العربي نقد وتوجيه** ـ الدكتور مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

١٥ ـ **الكافية في النحو** ـ ابن الحاجب ، شرح رضي الدين الاستراباذي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .

١٦ ـ **كتاب سيبويه** ، تحقيق عبدالسلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت .

١٧ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

١٨ ـ **اللغة العربية معناها ومبناها** ـ الدكتور تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، ١٩٧٩م .

١٩ ـ **اللمع في العربية** ـ أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق حامد المؤمن مطبعة العاني ، بغداد ١٩٨٢م .

٢٠ ـ **معاني الحروف** / الرماني ، تحقيق الدكتور عبدالفتاح شلبي ، دار الشروق ، جدة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ط٢ .

٢١ – **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** – ابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٢٢ – **المفصّل في النحو** – جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق بروش ، لايبزك ١٨٤٠ .

٢٣ – **المقتصد في شرح الايضاح** – عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، بغداد ١٩٨٢م .

٢٤ – **المقتضب** – أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت .

٢٥ – **همع الهوامع شرح جمع الجوامع** – جلال الدين عبدالرحمن السيوطي تصحيح السيد محمد بدر النعساني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .



الصبية والعمل المبكر
دراسة ميدانية في مدينة الموصل

الدكتور
محمد حربي حسن

الدكتور
حميد كردي الفلاحي

المبحث الاول : الاطار المنهجي للبحث

اولا : مشكلة البحث

ان موضوع عمل الصبية المبكر موضوع مهم وخطير في وقتنا الحاضر ، اذ ان عمل الصبية المبكر يشكل ظاهرة غير منسجمة مع التطور الحضاري والاجتماعي الذي يمر به قطرنا العراقي . كما يعد مخالفة واضحة لاحكام قانون العمل رقم (٧١) لسنة (١٩٨٧) وقانون رعاية الاحداث ، رقم (٧٦) لسنة (١٩٨٣) والأتفاقيات الصادرة عن منظمة العمل الدولية التي دأبت جاهدة على تنظيمه وفق اطر تشريعية دقيقة ، فضلا عن قناعاتها بضرورة القضاء على عمل الصبية المبكر تدريجيا وحث الاعضاء على توفير الظروف الملائمة لتنشئة الاحداث والصغار تنشئة صالحة وقوية (١) . ويأتي الأهتمام بموضوع الصبية في العراق من الحجم العددي لهم بوصفهم فئة شابة تشكل العنصر الفعال في بناء المجتمع . لاسيما ان نسبة هؤلاء الاحداث في قطرنا وفق الاحصاء العام للسكان لعام ١٩٧٧ من سن (١٥) سنة فما دون بلغت (٤٩٪) من المجموع الكلي للسكان .

ان هذا الرقم كاف لتحفيز العاملين في مجال التخطيط على الاهتمام بهذه الفئة السكانية الشابة لما لها من دور فعال في عملية التقدم والتنمية الجارية في القطر (٢) .

---

(١) د. زكية العماري . الصبية والعمل المبكر في ضوء التشريع العراقي
بحث مقدم الى الندوة العلمية لرعاية الاحداث . بغداد للفترة ١٥ – ١٧ آب ١٩٨٧ ص ٥
(غير منشور) .

(٢) د. عبد السلام سبع . واقع المرأة العاملة والاحداث في الوطن العربي .
بحث مقدم الى الندوة العلمية حول واقع المرأة العاملة ، بغداد ١٩٨٥ ص ٣١١ .

لقد انتبهت العديد من الدول الى ظاهرة عمل الصبية فعقدت النـدوات والحلقات الدراسية للوقوف على اسباب هذه الظاهرة ووضع المقترحات للوقاية منها وعلاجها .

ان انخراط الصبية في العمل المبكر يفقدهم بعض الفرص التعليميـة ، والتربوية والاجتماعية المتاحة امامهم وبالتالي يؤثر سلباً عليهم وعلى المجتمع بشكل عام كما يعوق تنفيذ خطة التنمية الاجتماعية والاقتصادية على الوجه المطلوب (٣) ان فئة الصبية تساهم في زيادة البطالة حيث ان ظروف العمل في عصر العلم والتكنولوجيا بأمس الحاجة الى القوى العاملة المتعلمة والمتدربة. فضلا عن ان عمل الاطفال يعد مشكلة اجتماعية وقانونية وصحية وتربوية . لان تشجيعهم على الاشتغال في هذه السن يساعد على تركهم الدراسة وهم صغار لم يتزودوا بعد بالخبرات العلمية والحياتية اللازمة لبنـاء شخصياتهم ونضجهم . فلا بد اذن من توفير الفرص الملائمة لمتابعة دروسهم وتعليمهم بدلا من تركهم يعملون في الصغر وهم جهلاء (٤) .

كما ان التحاق الصبي بالعمل في سن مبكرة دون خبرات كافية تؤهلـه للتكيف وعدم اكتمال نضجه الجسمي والنفسي والاجتماعي كل هذا يساعد على عدم استطاعته اجتياز التجربة الاجتماعية بنجاح وبالتالي يمكن ان يقع فريسة للسلوك الانحرافي المرضي (٥) . وقد يتعرض الصبي إلى الوقوع في ايدي رجال العصابات مما يؤدي إلى توريطه في اعمال خطيرة تسهل انحرافه

---

(٣) د. منى يونس بحري . ظاهرة ترك الصبية للمدرسة والأنخراط للعمل . بحث مقدم الى الندوة العلمية الاولى لرعاية الاحداث للفترة من ١٥ - ١٧ آب ١٩٨٧ ص ٢ .

(٤) د. عدنان العابد ، حماية الاحداث على المستوى الدولي وفي القوانين العربية . بحث مقدم الى ندوة المرأة العاملة والاحداث في الوطن العربي ،بغداد ١٩٨٥ ص ١ .

(٥) د. أكرم نشأت . عوامل جنوح الاحداث . المنظمة العربية للدفاع الأجتماعي ، سلسلة الدفاع الاجتماعي . العدد الثالث . الرباط ١٩٨٨ . ص ٣٠ .

نحو الجريمة نتيجة عدم ادراكه وقلة خبراته وانعدام رقابة ولي امره . وقد يؤدي عمل الصبية إلى الانحراف الجنسي (اللواط) مع بعض زملائه في العمل او بعض المنحرفين ويحصل الصبي لقاء ذلك على منفعة مادية كالحماية ويكون هذا بالنتيجة احتراف الصبي اللواط او الاتجار به (٦) .

ويعد عمل الصبية مشكلة سياسية ايضاً فهو يؤدي إلى انخفاض وعيهم االتربوي والسياسي فيصبح من المتعذر عليهم ادراك الاخطار المحدقة بامتهم مما يضعف اندفاعهم لحماية الثورة ومكتسباتها (٧) .

بالاضافة إلى ذلك هناك اعتبارات اقتصادية في عمل الاطفال حيث يمثل الصبية ثروة قومية بما يمثلونه من موارد مستقبلية للعمل المنتج . فلابد من المحافظة على هذه الثروة ورعايتها والحصول على ثمارها المرجوة عند البلوغ (٨) .

ثانياً : اهمية البحث واهدافه

يستمد هذا البحث اهميته من الاهتمام الكبير الذي اولته الثورة والحزب القائد للطفولة ورعاية الشباب وتوفير افضل الظروف لتعليمهم وتنشئتهم تنشئة اسرية صحيحة تصنع منهم رجالا قادرين على تحمل مسؤوليتهم الوطنية والقومية .

وهنا لا يفوتنا قول الرفيق المناضل صدام حسين (حفظه الله) . (اذا اردنا ان نضمن مجتمعاً قوياً بجسمه وعقله ، علينا ان نبدأ بتربية الطفل تربية شاملة تتناول جميع جوانبها الصحية والعقلية والوجدانية . كي نتمكن من خلق اطفال اقوياء ينتفع المجتمع بهم حتى يدخلوا معترك الحياة بميادينها الواسعة وتغيراتها المستمرة) (٩) .

---

(٦) د. مصطفى حجازي . الاحداث الجانحون . دار الطليعة . ط٢ . بيروت ١٩٨١ ص ١٦٨ .

(٧) د. مثى يونس بحري . مصدر سابق . ص ٦ .

(٨) د. عدنان العابد . مصدر سابق ص ١ .

(٩) حديث للقائد صدام حسين عند استقباله نخبة من طلائع القطر المتفوقين دراسياً . جريدة الثورة . العدد ٤٢٩٢٥ في ١٩٨١/٦/٢ .

اما اهداف البحث فيمكن تلخيصها بالنقاط الاتية : -

١ - تحديد حجم عمل الصبية و مجالاته .

٢ - التعرف على اسباب عمل الصبية المبكر .

٣ - معرفة الاثار السلبية للعمل المبكر للصبية .

٤ - التوصل إلى مقترحات تعالج هذه الظاهرة .

ثالثاً :- فرضيات البحث

يتطلب تحقيق اهداف البحث محاولة الاجابة على التساؤلات التي تفرض نفسها عند التعرض لمشكلة البحث واهم تلك التساؤلات ما يأتي : -

١ - هل اتسعت ظاهرة اشتغال الصبية لتصبح مشكلة اجتماعية في مدينة الموصل ؟

٢ - ما اهم اسباب انتشار هذه الظاهرة ؟

٣ - هل هناك اثار سلبية واضحة لاشتغال الصبية ؟

٤ - ما البدائل العلاجية لهذه المشكلة ؟

واعتماداً على الاطر النظرية ونتائج البحوث الميدانية السابقة تم صياغة فرضيات البحث في محاولة للاجابة على هذه التساؤلات . فكانت :

الفرضية ١ : -/ تنتشر ظاهرة العمل المبكر للصبية في مدينة الموصل بشكل واضح .

الفرضية ٢ : -/ انخفاض مستوى دخل الاسرة متغير رئيسي لعمل الصبية المبكر .

الفرضية ٣ : -/ انخفاض المستوى التعليمي لولي الامر متغير رئيسي لعمل الصبية المبكر .

الفرضية ٤ : -/ عمل الصبية المبكر سبب رئيسي لترك الدراسة .

رابعاً : منهج البحث وادواته :

اعتمد هذا البحث المسح الاجتماعي (المسح الوصفي) منهجاً لمعرفة الصفات العامة للمجتمع ومعرفة الاماكن والمواقع لبعض الصفات السكانية والاجتماعية والاقتصادية (١٠).

اما الادوات المستخدمة فهي : —

١ — استمارة استبيان : لجمع البيانات اللازمة لاختبار فرضيات البحث وتتكون من ٣٤ سؤالا تحتوي على اربعة جوانب . ويضم الجانب الاول المعلومات الشخصية عن الصبية وتشمل الجنس ، والعمر ، ومحل السكن ، والمستوى التعليمي .

اما الجانب الثاني فيشمل الظروف العائلية ، عدد افراد الاسرة ، ومهنة ولي الامر ، والتحصيل الدراسي لرب الاسرة ، وعلاقة الصبي بالاسرة ، ومقدار الدخل الشهري للاسرة وغيرها .

وشمل الجانب الثالث دوافع وظروف العمل ، مهنة الصبية ، واسباب الاتجاه نحو العمل ، وكيفية اختيار المهنة ، والجمع بين الدراسة والعمل ، ومقدار الاجر اليومي ، وغيرها .

يبحث الجانب الرابع المشكلات الناجمة عن العمل المبكر ومنها مشكلات في اثناء العمل ، وخضوع الصبية للفحص الطبي ، والتمتع بالاستراحة في اثناء العمل .

٢ — المقابلة : بغية الحصول على المعلومات المطلوبة تمت مقابلة عينة من الصبية للوقوف على اسباب ودوافع وظروف العمل المبكر .

٣ — الملاحظة المباشرة وغير المباشرة . حيث تم استخدامها في البحث من خلال ملاحظة الصبية في مختلف النشاطات التي يقومون بها وفي الاماكن التي يوجدون فيها .

---

(١٠) د. معن خليل . الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي . دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٩٨٣ ص ٥١ — ٥٥ .

خامساً : عينة البحث

بالنظر لعدم توفر احصائية تبين لنا عدد الصبية العاملين وتوزيعهم الجغرافي في مدينة الموصل ، فلم يكن امامنا خيار اخر غير اتباع طريقة العينة الصدفية (١١) فقد تم حصر المهن التي يمارسها الصبية في مدينة الموصل و تم اختيار عينة تتكون من (١٠٠) صبي لمختلف النشاطات التي يمارسونها .

سادساً : مجالات البحث :

١ ـ المجال البشري : تحدد المجال البشري للبحث بالصبية العاملين دون السن القانونية للعمل .

٢ ـ المجال الجغرافي : فقد تحدد بمدينة الموصل وشمل الورش والمحلات في الاحياء الصناعية حيث يعمل الصبية كما شمل بعض مناطق مدينة الموصل حيث يوجد الصبية باعداد كبيرة وهم يمارسون مهنا مختلفة مثل باب الطوب ، والمجموعة الثقافية ، وشارع الزهور ، والدواسة ، والسرجخانة .

٣ ـ المجال الزمني : تحدد بالفترة الزمنية من ١٩٨٨/١٠/٢ إلى ١٩٨٩/٤/١ .

سابعاً : الدراسات السابقة

فيما يأتي عرض وجيز لبعض الدراسات التي تناولت الموضوع .

١ ـ ظاهرة ترك الصبية المدرسة والانصراف للعمل (١٢) .

بحث استطلاعي اعدته د. منى يونس بحري / الاتحاد العام لنساء العراق عام ١٩٨٦ استهدفت الدراسة حصر اسباب ترك الصبية من طلبة المرحلتين الابتدائية والمتوسطة مدارسهم والانصراف إلى العمل وتوصلت الدراسة إلى ان هناك اسباباً اقتصادية ، وتربوية واجتماعية وراء هذه الظاهرة ، نذكر

---

(١١) Rodolphe Ghiglione, Benjemin Matalon, les enquetes Soicologices Armand Colin, paris, (1978. p29—40)

(١٢) د. منى يونس بحري . مصدر سابق .

منها : اهمال ولي الامر ارشاد الطالب ، اضطرار الطالب للعمل لمساعدة الاسرة مالياً ، مصاحبة رفاق السوء ، اهمال ولي الامر والادارة متابعة الصبي في المدينة ، تفكك الاسرة ، تحمل بعض الصبية مسؤولية اعالة الاسرة لعجز رب العائلة عن العمل او وفاته ، معاونة اهله في مواسم معينة من السنة ، تفضيل ولي الامر المهنة الحرة على الدراسة .

٢ ـ ظاهرة الصبية والعمل المبكر ، اثارها وسبل معالجتها (١٣) .

دراسة مكتبية اعدها مركز البحوث والدراسات في مديرية الشرطة العامة ١٩٨٥ ، استهدفت الدراسة التعرف على طبيعة هذه الظاهرة وموقف المشرع العراقي منها ، كذلك معرفة اسبابها ونتائجها لغرض التوصل إلى بعض التوصيات والمقترحات لمعالجتها وتوصلت الدراسة إلى ان الاسباب التي تكمن وراء عمل الصبية المبكر هي الحاجة الاقتصادية ، والتفكك الاسري ، وفشل الصبي في المدرسة ، وتقليد الاخرين ، والاعتزاز بحرفة العائلة .

٣ ـ الدوافع الاساسية لعمل الصبية المبكر (١٤) .

دراسة ميدانية في مدينة بغداد : إعدتها الباحثة راهية عباس العادلي ، استهدفت الدراسة التعرف على الدوافع الاساسية لعمل الصبية وتقديم بعض التوصيات والمقترحات التي تحد من هذه الظاهرة . وقد توصل البحث إلى ان اهم اسباب عمل الصبية هو ترك المدرسة والانصراف للعمل ، وتشجيع بعض الاسر .

ثامناً : تعريف المصطلحات

١ ـ العمل : (كل ما يبذل من جهد انساني ، فكري او تقني او جسماني لقاء اجر سواء كان دائمياً او عرضياً ، مؤقتاً او موسمياً (١٥)).

(١٣) صادق حسين علي ، ظاهرة الصبية والعمل المبكر . اثارها وسبل معالجاتها . مركز البحوث والدراسات في مديرية الشرطة العامة / بغداد ١٩٨٥ .

(١٤) راهية عباس العادلي . الدوافع الاساسية لعمل الصبية المبكر . بحث مقدم الى الندوة العلمية الاولى لرعاية الاحداث للفترة من ١٥ – ١٧ آب ١٩٨٧ .

(١٥) قانون العمل رقم ١٥١ لسنة ١٩٧٠ المعدل ، المادة السادسة ص١٩ .

والعمل المبكر لاغراض هذا البحث هو الجهد الانساني الفكري او الجسماني او التقني الذي يبذله افراد دون السن القانونية المسموح بها للعمل لقاء اجر معين في سبيل القيام بخدمات او انتاج سلع .

٢ ــ الصغير : من لم يتم التاسعة من عمره (١٦) .

٣ ــ الحدث : من اتم التاسعة من عمره ولم يتم الثامنة عشرة (١٧) .

٤ ــ الصبي : عرف المشرع العراقي الصبي بأنه من اتم التاسعة من عمره (١٨) ولم يتم الخامسة عشرة . اما تعريف الصبي لاغراض هذا البحث فهو (الحدث الذي لم يكمل الخامسة عشرة من عمره ولا يجوز له دخول اماكن العمل قانوناً) .



المبحث الثاني

الخصائص الديمغرافية والاجتماعية والثقافية للمبحوثين

يستعرض هذا المبحث البيانات الخاصة بعينة البحث من الصبية العاملين من حيث الجنس والعمر والمستوى الثقافي والاجتماعي اطاراً يساعدنا في فهم الظروف التي دفعت هؤلاء إلى سوق العمل .

اولا : ــ الجنس

يتضح من الجدول (١) ان ظاهرة عمل الصبية المبكر لم تقتصر على الاطفال من الذكور فقط ، وانما توجد نسبة من الاناث تمارس العمل حيث تم تمثيل كلا الجنسين في عينة البحث وبلغت نسبة الذكور فيها (٩٤٪) ونسبة الاناث (٦٪) فقط ويعود سبب انخفاض نسبة الاناث في عينة البحث إلى عامل

---

(١٦) وزارة العدل ، قانون رعاية الاحداث ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ص ٥ .

(١٧) المصدر نفسه ص ٥ .

(١٨) المصدر نفسه . ص ٥

اساس وهو محدودية الاعمال التي يمارسها الصبية من الاناث. لقد لاحظنا ان وجودهن يتركز في نشاط واحد فقط هو بيع الخبز وقد تركزت اماكنهن في شارع الزهور وباب الطوب .

جدول (١) توزيع عينة البحث حسب الجنس

الجنس	العدد	٪
ذكور	٩٤	٩٤٪
اناث	٦	٦٪
المجموع	١٠٠	١٠٠

ثانياً : العمر

اورد قانون العمل رقم (٧١) لسنة (١٩٨٧) في المواد (٩٠ ــ ٩٧) احكاماً تتعلق بتشغيل الاحداث مراعياً اعمارهم وقابليتهم البدنية لغرض المحافظة على صحتهم وسلامتهم .

وقد عرف القانون في المادة (٩٠ ــ أ) الحدث بأنه (كل من لم يكمل الثامنة عشرة من العمر) [١٩] اما المادة (٩١ ــ أ) فقد منعت تشغيل الاحداث الذين لم يكملوا الخامسة عشرة من العمر ، وحظرت عليهم دخول اماكن العمل [٢٠] وقد اجازت المادة نفسها تشغيل الاحداث الذين بلغوا الخامسة عشرة من العمر في الاعمال النهارية عدا المرهقة والضارة منها .

يتضح من ذلك ان قانون العمل العراقي قد اجاز للاحداث العمل في بعض الاعمال البسيطة عند بلوغهم الخامسة عشرة من العمر . اما فيما يخص التوزيع العمري للصبية عينة البحث فإن الجدول رقم (٢) يوضح لنا ذلك .

---

(١٩) وزارة العمل والشؤون الاجتماعية . قانون العمل رقم ٧١ لسنة ١٩٨٧ . دائرة العمل والتدريب المهني . بغداد ١٩٨٨ ص ٢٥ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ٢٥ .

جدول (٢) التوزيع العمري لعينة البحث

الفئة العمرية (سنة)	العدد	٪
٩ — ١١	١٩	١٩٪
١٢ — ١٤	٦٣	٦٣٪
١٥ — ١٧	١٨	١٨٪
المجموع	١٠٠	١٠٠

حيث تظهر ارقام الجدول خرقاً واضحاً لاحكام قانون العمل النافذ حالياً حيث ان ما يقارب (٨٢٪) من عينة البحث تقل اعمارهم عن (١٥) سنة وهم بذلك يعدون ضمن الفئة التي لا يسمح القانون المذكور بتشغيلهم . اما المسموح لهم بالعمل بموجب القانون المذكور فلا تتجاوز نسبتهم (١٨٪) من العينة ومن الجدير بالذكر ان قانون رعاية الاحداث رقم (٧٦) لسنة (١٩٨٣) عرف الحدث بانه (من اتم التاسعة من عمره ولم يتم الخامسة عشرة) (٢١) وهو على صنفين : الصبي من اتم التاسعة من العمر ولم يتم الخامسة عشرة والفتى من اتم الخامسة عشرة من عمره ولم يتم الثامنة عشرة ووفقاً لهذا التقسيم فإن (٨٢٪) من عينة البحث الفئة العمرية (٩ — ١٤ سنة) يعدون صبية في حين ان الفتيان لا تتجاوز نسبتهم (١٨٪) .

ثالثاً : المستوى التعليمي : —

يعد معرفة المستوى التعليمي للصبية عينة البحث مؤشراً مهماً ، حيث ان هناك قناعة بين اوساط الباحثين والمنظمات الدولية المهتمة بعمل الاحداث هي ان الفشل في الدراسة يعد احد العوامل الرئيسة في ترك الصبية الدراسة مبكراً والتوجه نحو العمل (٢٢) .

(٢١) قانون رعاية الاحداث . مصدر سابق ص ٤ — ٥

(٢٢) عبد القهار عبد الجبار . الاحداث والعمل المبكر . بحث مقدم الى الندوة السنوية الرابعة لبحوث الاصلاح الاجتماعي للفترة ١٥ — ١٦ /١١/١٩٨٦ . وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، بغداد ١٩٨٦ ص ٥٣ .

والجدول (٣) يوضح لنا المستوى التعليمي لعينة البحث موزعة حسب العمر ، وتؤشر بياناته المعطيات الاتية : —

جدول (٣) المستوى التعليمي لعينة البحث موزعة حسب العمر

الفئة العمرية (سنة) المستوى التعليمي	٩ — ١١	١٢ — ١٤	١٥ فأكثر	المجموع
امي	٢	١١	٣	١٦
ابتدائية	١٧	٤٥	١٢	٧٤
متوسطة	—	٧	٣	١٠
المجموع	١٩	٦٣	١٨	١٠٠

— بلغت نسبة المتعلمين في عينة البحث (٨٤٪) توزعت بين المرحلة الابتدائية (٧٤٪) والمرحلة المتوسطة (١٠٪) .

— بلغت نسبة الامية (١٦٪) من عينة البحث ومعظمهم (اكثر من الثلثين) يقع ضمن الفئة العمرية (١٢ — ١٤ سنة) الامر الذي يعني وجود تسرب دراسي مما يتعارض مع قانون التعليم الالزامي رقم (١١٨ لسنة ١٩٧٦) حيث يلزم كافة الاولاد بين عمر (٦ —١٥ سنة) بالدراسة ويكون المتكفلون الشرعيون برعاية الاولاد مسؤولين في حالة عدم التحاق اولادهم بالمدرسة خلال هذه المرحلة العمرية ، فضلا عن ذلك فإن هذا يتعارض ايضاً مع قانون محو الامية .

— البيانات توضح ايضاً حجم مشكلة الرسوب بين الصبية في عينة البحث . حيث ان (١٦٪) ممن هم في المرحلة الابتدائية ينحصر ضمن الفئة العمرية (١٥ سنة) فأكثر .

رابعاً : حجم العائلة

يؤشر حجم العائلة التي ينتمي اليها الصبية الظروف الاجتماعية و الاقتصادية للصبية العاملين ، فقد اكدت نتائج البحوث والدراسات التي اهتمت بعمل الاحداث وجود علاقة بين عمل الصبية والظروف الاجتماعية والاقتصادية لعوائلهم ، وان اغلب هؤلاء ينحدر من عائلات تتصف بكبر حجمها وبظروفها السكنية المكتظة التي لا تتوفر فيها الظروف الصحية المطلوبة ومثل هذه الظروف موجودة في جميع الدول النامية تقريبا وخاصة تلك الدول التي يكون فيها معدل النمو السكاني عالياً (٢٣) .

يوضح الجدول (٤) عدد افراد الاسرة التي ينتمي اليها الصبية العاملون . ضمن ثلاثة احجام من العوائل : —

جدول (٤) توزيع عينة البحث حسب عدد افراد الاسرة

عدد افراد الاسرة	التكرار	٪
٥ فأقل	١٤	١٤٪
٦ — ٨	٤٠	٤٠٪
٩ فأكثر	٤٦	٤٦٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

النوع الاول هو العائلة الصغيرة (النواة) والتي تتكون من الزوج والزوجة وثلاثة اولاد وهي تمثل الفئة الاولى في الجدول ويمثلون (١٤٪) من المبحوثين .

والنوع الثاني هو العائلة المتوسطة الحجم حيث تضم الزوج والزوجة والاولاد وبعض اقارب الزوج او الزوجة ويمثل هؤلاء (٤٠٪) من العينة .

(23) Elias Mendelievich, «children at work» ;international Labour office, Genve 1979, P.34

اما النوع الثالث فهو العائلة الكبيرة والممتدة والتي تتكون من الزوج والزوجة واولادهما وزوجاتهم واخوات واخوان الزوج اوالزوجة(٩ اشخاص فأكثر) وتضم هذه الفئة نسبة عالية (٤٦٪) من المبحوثين .

نستنتج مما سبق بأن (٨٦٪) من الصبية العاملين ينتمون الى اسر كبيرة الحجم (٦ اشخاص فأكثر) الامر الذي يؤشر حجم الاسرة دافعاً اساسياً لعمل الصبية المبكر .

خامساً : الدخل الشهري لعوائل الصبية :

يعد الدخل الشهري للاسرة متغيراً اساسياً وسبباً دافعاً لعمل الصبية المبكر . وقد تم توجيه سؤال مفتوح للصبية العاملين هو (ما مقدار الدخل الشهري للاسرة ؟). وكانت الاجابات كما هي موضحة في الجدول (٥) وتوضح الآتي : ـ

جدول (٥) الدخل الشهري للاسرة

الدخل الشهري (دينار)	التكرار	٪
ـ١٠٠	٢٧	٪٢٧
١٠٠ ـ ١٩٩	٣٨	٪٣٨
٢٠٠ فأكثر	٣٥	٪٣٥
المجموع	١٠٠	٪١٠٠

ـ (٢٧٪) من عينة البحث مقدار الدخل الشهري لاسرهم (اقل من ١٠٠ دينار) .

ـ(٣٨٪) مقدار الدخل الشهري لاسرهم يتراوح بين (١٠٠ ـ ١٩٩ دينار).

ـ (٣٥٪) صرحوا بأن دخل اسرهم (٢٠٠ دينار فأكثر) .

وهذا يعني ان اكثر من (٧٣٪) من عينة البحث يبلغ الدخل الشهري

لاسرتهم (١٠٠ دينار فأكثر) غير أن هذه النسب لا يمكن اعتمادها مؤشرا لارتفاع دخل الاسرة وانما يجب ان تأخذ بنظر الاعتبار عدد افراد الأسرة وتوضيحاً لذلك تم تقسيم الدخل الشهري للاسرة على عدد افرادها بهدف استخراج معدل دخل الفرد الواحد من العائلة وكما هو موضح في الجدول رقم (٦) حيث تؤشر بياناته الآتي :

جدول (٦) معدل الدخل الشهري للفرد الواحد

معدل دخل الفرد الواحد (دينار)	التكرار	٪
اقل من ١٠	٤٥	٤٥ ٪
١٠ ــ ١٩	٢٧	٢٧ ٪
٢٠ــ٢٩	١٥	١٥ ٪
٣٠ــ٣٩	٨	٨ ٪
٤٠ فأكثر	٥	٥ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠ ٪

ــ حوالي نصف العينة يحصلون على دخل شهري يقل عن عشرة دنانير .

ــ حوالي ربع العينة معدل دخلهم بين عشرة ــ عشرين ديناراً .

ــ (٨ ٪) فقط من العينة معدل دخلها الفردي يصل الى ثلاثين ديناراً فأكثر .

ــ (٥ ٪) فقط يبلغ دخل الفرد الواحد اربعين ديناراً فأكثر .

نستنتج مما سبق انه كلما زاد عدد افراد الاسرة قل دخل الفرد الواحد الامر الذي يدفع بالاسر كبيرة الحجم الى تشغيل اطفالها لسد تكاليف المعيشة .

سادساً : مهنة اولياء امور الصبية :

تعبر مهنة اولياء امور الصبية العاملين عن الاوضاع الاجتماعية

والاقتصادية لاسرهم ومن خلال اجابات الصبية العاملين اتضح ان اولياء امورهم يمارسون مهناً مختلفة ولكي تتضح امامنا الصورة حاولنا تصنيف مهنهم حسب المعايير الاتية (*) :

(١) المهنة ذات الدخل الثابت المتوسط وهي تشمل (موظف ، معلم، متقاعد) .

(٢) المهنة ذات الدخل غير الثابت المتوسط وتشمل (ميكانيك ، صاحب دكان) .

(٣) المهنة ذات الدخل الثابت الضعيف وتشمل (حارس ، فلاح ، شرطي عسكري) .

(٤) المهنة ذات الدخل غير الثابت الضعيف وتشمل (سائق ، ربة بيت ، عامل ، عاجز ، حمال) .

جدول (٧) توزيع الصبية حسب مهنة ولي الامر

ثبات الدخل / حجم الدخل	ثابت	غير ثابت	المجموع
متوسط	١١	١٥	٢٦
ضعيف	٢٠	٥٤	٧٤
المجموع	٣١	٦٩	١٠٠

توضح بيانات الجدول (٧) ان (٧٤٪) من اولياء امور الصبية العاملين (عينة البحث) يمارسون مهناً ذات دخل ضعيف معظمها غير ثابت. و(٢٦٪) مهنهم ذات دخل متوسط اكثر من نصفها غير ثابت . وهذا ما يؤشر عدم كفاية الدخل ومحدوديته سبباً مشجعاً للابناء على العمل المبكر لسد تكاليف المعيشة لاسرهم .

(*) التصنيف المعتمد خاص بهذا البحث .

سابعاً : المستوى الثقافي لاولياء امور الصبية

من النتائج التي توصل اليها الباحثون بخصوص اسباب ترك الصبية المدرسة والانخراط في العمل بسن مبكرة هو انحدارهم من عوائل ذوات مستويات ثقافية وتعليمية منخفضة . لان تلك العوائل لاتستطيع تقدير اهمية الدراسة والتحصيل العلمي لابنائها ، اذ ربما تنظر اليه بمثابة ترف وليس ضرورة اجتماعية (٢٤) .

ولعل النظر الى بيانات الجدول (٨) الذي يعكس المستوى الثقافي لاولياء امور الصبية يوضح الاتي :

جدول (٨) توزيع عينة البحث حسب التحصيل الدراسي لاولياء امورهم

التحصيل الدراسي	العدد	٪
امي	٤٣	٪٤٣
يقرأ ويكتب	٢٤	٪٢٤
ابتدائية	٢٢	٪٢٢
متوسط	٥	٪٥
ثانوية	٥	٪٥
جامعية	١	٪١
المجموع	١٠٠	٪١٠٠

- ما يقارب نصف العينة (٤٣٪) من اولياء امور الصبية لايعرفون القراءة والكتابة .
- ما يقارب ربع العينة لاولياء امور الصبية (٢٤٪) لم يكملوا التعليم الابتدائي .

(٢٤) عبد القهار عبد الجبار . مصدر سابق ص ٤٥ .

- اكثر من خمس العينة لاولياء امور الصبية (٢٢٪) يحملون الشهادة الابتدائية .
- ١٠٪ فقط من العينة يحمل اولياء امورهم شهادة المتوسطة فاعلى من بينهم جامعي واحد. وبذلك يمكن القول بأن مايقارب (٩٠٪) من المبحوثين ينتمون لعوائل ذات مستوى تعليمي منخفض .

ثامناً : الحالة الاجتماعية للعائلة

اهتم المفكرون والعلماء بدراسة شؤون العائلة قديماً وحديثاً وذلك لكونها الوحدة الاجتماعية التي تقوم بدور اساس في حياة الافراد والجماعات . ويرى هؤلاء ان تماسك المجتمع واستقراره يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتماسك العائلة وارتباط افرادها . كما ان انحلال الحياة الاجتماعية في اي مجتمع من المجتمعات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتحلل وتفكك وتدهور العائلة فيه (٢٥) وبهذا فإن فقدان الصبية لابائهم سواء بالوفاة او الطلاق سوف يعرضهم إلى الحرمان وبالتالي يجعلهم يعيشون حياة اجتماعية غير طبيعية .

وفيما يخص حالة الابوين لعينة البحث نجد من الجدول (٩) .

جدول (٩) الحالة الاجتماعية للعائلة

حالة الابوين	العدد	٪
كلاهما على قيد الحياة	٧١	٧١٪
فاقد الاب	١٩	١٩٪
فاقد الام	٨	٨٪
كلاهما متوفيان	١	١٪
منفصلان	١	١٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

(٢٥) د. صبيح عبد المنعم ، مليحة عوني القصير . علم اجتماع العائلة . وزارة التعليم العالي والبحث العلمي / جامعة بغداد / مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٥ ص ٣ .

ان (٧١ ٪) من عينة البحث يعيشون حياة طبيعية وان اولياء امورهم على قيد الحياة . وان(٢٩٪) من العينة يعانون من نقص في تكوين الاسرة اي انها تشكو من فقدان الاب او الام او كليهما وهي نسبة عالية تتجاوز ربع العينة .
ان فقدان (٢٩٪) من المبحوثين لاحد الابوين يعني بالضرورة دوراً مؤثراً للحالة الاجتماعية للاسرة في توجيه الابناء للعمل ؛ خاصة ان معظم هؤلاء (١٩٪) من العينة يفتقدون الاب .

تاسعاً : عائدية سكن الأسرة

فيما يخص عائدية سكن اسر الصبية العاملين يؤشر الجدول (١٠) ان (٦٢٪) من افراد العينة يملكون الدار التي يسكنونها وان (٣٨ ٪) اكدوا بأن الدار مؤجرة ، وهذه نسبة لا يمكن الاستهانة بها لانها تعني دفع ايجار شهريا مما يشكل عبئاً مادياً اضافياً .)

جدول رقم(١٠) العينة حسب عائدية السكن

عائدية السكن	العدد	٪
ملك	٦٢	٪٦٢
ايجار	٣٨	٪٣٨
المجموع	١٠٠	٪١٠٠

عاشراً : المشكلات الاسرية

حاولنا في بحثنا هذا ان نتعرف على المشكلات الاسرية للصبية العاملين ونقصد بها المصاعب التي تعاني منها العائلة في الجوانب المادية والاجتماعية والصحية ومن خلال عينة البحث اتضح ان الاسر تعاني من مشكلات عديدة كما هي موضحة في جدول (١١) .

جدول (١١) المشكلات التي تعاني منها اسر المبحوثين

المشكلات الاسرية	العدد	٪
مادية	٧٥	٧٥ ٪
اجتماعية	١٦	١٦ ٪
صحية	٩	٩ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

حيث اكد (٧٥٪) من افراد العينة بأن عوائلهم تعاني من مشكلات مادية تتمثل في انخفاض دخل الاسرة وعدم كفايته في سد نفقات المعيشة . بينما اكد (١٦٪) من العينة ان اسرهم تعاني من مشكلات اجتماعية . واكد (٩٪) منهم على المشكلات الصحية المتمثلة بعجز اولياء امورهم .

حادي عشر : علاقة الصبي بالاسرة

تعد معرفة علاقة الصبي باسرته مؤشراً مهماً يوضح طبيعة العلاقة التي تجمع بين الصبي ومحيطه الاسري. ومن خلال النظر إلى معطيات جدول رقم (١٢) يتضح الاتي :

جدول (١٢) توزيع العينة حسب طبيعة العلاقة مع الاسرة

علاقة الصبي بالاسرة	العدد	٪
جيدة	٦٧	٦٧ ٪
رديئة	١٩	١٩ ٪
اعتيادية	١٤	١٤ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠ ٪

— الغالبية العظمى من الصبية (٦٧٪) اكدوا على ان علاقتهم باسرهم جيدة وهذا يعني انهم يعيشون في ظل ظروف عائلية طبيعية .

- (١٩٪) من افراد العينة اكدوا على ان علاقتهم باسرهم رديئة وهذا يعني انهم يعيشون تحت ظروف عائلية غير طبيعية . وقد اكد باقي افراد العينة (١٤ ٪) على اعتيادية العلاقة التي تربطهم باسرهم .

لقد حاول البحث التعرف على اسباب سوء العلاقة بين الصبي واسرته ، فقد تبين كما هو موضح في جدول (١٣) . ان الغالبية من العينة (٤٧٪) اكدت على استخدام العائلة للضرب لمعاقبة ابنائها عند ارتكاب خطأ ما .

جدول (١٣) توزيع العينة حسب اسباب سوء العلاقة مع الاسرة

اسباب سوء العلاقة	العدد	٪
استخدام الضرب	٩	٤٧ ٪
تفكك الاسرة	٤	٢١ ٪
عدم محاولة فهم مشكلاته	٦	٣٢ ٪
المجموع	١٩	١٠٠ ٪

واكد (٣٢٪) منهم على عدم محاولة العائلة فهم مشكلاتهم الاساسية بينما اكد (٢١ ٪) على عامل التفكك الاسري كسبب في سوء العلاقة . وقد وجهنا سؤالا إلى جميع افراد عينة البحث . فيما اذا سبق لهم ان هربوا من منازلهم . وقد اكد (٨٦ ٪) من العينة على عدم حصول ذلك ولكن (١٤ ٪) منهم اكدوا حصول ذلك بفعل اسباب كثيرة منها المشاجرة ، أو الخوف من ولي الامر نتيجة الرسوب في المدرسة ، او انهم لا يحبون البيت ، او عدم حصولهم على النقود من العائلة بمقدار كاف لهم .

المبحث الثالث / دوافع وظروف العمل

ان ظاهرة عمل الصبية المبكر كأي ظاهرة اجتماعية اخرى لا يمكن ارجاعها لسبب واحد بل ترجع جذورها إلى اسباب مختلفة ومتنوعة لذلك يحاول هذا المبحث الكشف عن الاسباب والدوافع والظروف وراء انخراط الصبية في

العمل المبكر ، ويبدأ البحث بالقاء الضوء على المهن الحالية للصبية واسباب إتجاههم نحو العمل والطريقة التي تم فيها اختيار المهنة الحالية ثم التعرف على العلاقة بين العمل والدراسة .

اولا / المهن الحالية للصبية

من خلال مشاهداتنا الميدانية لواقع الحياة في مدينة الموصل اتضح لنا ان الصبية يمارسون اعمالا كثيرة ومتنوعة وأغلب هذه النشاطات ذات طابع خدمي ولذلك تم تمثيل كل النشاطات في العينة .

والجدول (١٤) يوضح لنا المهن التي يمارسها الصبية وقت اجراء الدراسة .

جدول (١٤) توزيع العينة حسب مهنهم

المهنة	العدد	٪
صباغ احذية	١٧	١٧ ٪
بائع سكاير	١٥	١٥ ٪
بائع مواد تجارية واستهلاكية	١٥	١٥ ٪
بائع خبز	٦	٦ ٪
ضلاعة (بنجرجي)	٦	٦ ٪
مصلح سيارات	٥	٥ ٪
خراط (تورنجي)	٢	٢ ٪
كهربائي	٣	٣ ٪
لحام	٢	٢ ٪
مبدل دهن	٥	٥ ٪
قصاب	١	١ ٪
حداد	٥	٥ ٪
صانع سيارة	٢	٢ ٪

تابع جدول (١٤)

المهنة	العدد	٪
مصلح دراجات	٣	٣ ٪
حمال	١٠	١٠ ٪
بائع غاز	٣	٣ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠ ٪

من خلال النظر الى الجدول (١٤) يتضح لنا ان الصبية في مدينة الموصل يمارسون مهناً ونشاطات اقتصادية مختلفة تأتي في مقدمتها المهن ذات العلاقة بتصليح السيارات حيث بلغت النسبة (٢٨٪) وهي (حداد، ضلاعة «بنجرجي»، مصلح، «فيتر»، خراط «تورنجي»، كهربائي لحام، مبدل دهن) ومن الجدير بالذكر ان هذه المهن تتطلب كفاءة وتدريباً مسبقين والمهنة التي تمثل المرتبة الثانية في عينة البحث هي مهنة صباغ الاحذية حيث بلغت نسبة الذين يمارسونها ضمن عينة البحث(١٧٪) وتأتي بعدها بيع المواد التجارية والاستهلاكية (١٥٪) وكذلك بيع السكائر (١٥٪) من افراد العينة، وتوزعت المهن الاخرى بين الحمال (١٠٪) وبائع خبز (٦٪) ومصلح دراجات(٣٪) وبائع غاز (٣٪) وقصاب(١٪) وصانع سيارة(٢٪).

لقد حاولنا ان نتعرف فيما اذا كانت المهنة الحالية هي اول مهنة للصبية ام لا فقد كانت الاجابات كما هي موضحة في الجدول (١٥) ان ٨١٪ من

جدول (١٥) توزيع العينة حسب الخبرة والممارسة للمهنة

هل هذه اول مهنة شغلت بها	العدد	٪
نعم	٨١	٨١٪
لا	١٩	١٩٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

افراد العينة اكدوا ان هذه هي اول مهنة يشتغلون بها بينما اكد الباقون ١٩ ٪ بأنهم مارسوا مهناً سابقة توزعت بين نجار ، وحداد ، وعامل بناء ، وبائع سكائر ، وقد انحصرت اعمار الذين عملوا في مهن سابقة بين ٨ ــ ١٢ سنة.

وفي محاولة للتعرف على اسباب ودوافع انخراط هؤلاء الصبية بالعمل في وقت مبكر تم توجيه السؤال الاتي الى عينة البحث :

مااسباب اتجاهكم نحو العمل؟ وكانت الاجابات كما هي موضحة في الجدول رقم (١٦) .

جدول (١٦) اسباب اتجاه الصبية نحو العمل المبكر

اسباب اتجاه الصبية نحو العمل	العدد	٪
ضعف الحالة الاقتصادية للاسرة	٤٣	٤٣ ٪
لانه المعيل الاول للاسرة	٩	٩ ٪
معاونة الاسرة في مواسم معينة	٥	٥٪
تفضيل ولي الامر المهنة الحرة على الدراسة	١٠	١٠ ٪
عدم الرغبة في الدراسة	٣٣	٣٣٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

يعد ضعف الحالة الاقتصادية للاسرة السبب الاول حيث اكد عليه (٤٣٪) من عينة البحث ويأتي بالدرجة الثانية عدم الرغبة في الدراسة حيث اكد عليه (٣٣٪) من افراد العينة . وجاء بالمرتبة الثالثة بين الاسباب تفضيل ولي الأمر المهنة الحرة على الدراسة حيث اكد ذلك (١٠٪) . اما السبب الرابع فقد اكد عليه ٩ ٪ من افراد العينة وهو انهم المعيلون الوحيدون لعوائلهم وهو سبب اقتصادي ايضاً . وهناك سبب اخر اكد عليه (٥٪) فقط من افراد العينة هو معاونة الاسرة في مواسم معينة .

يتضح مما تقدم ان اسباب عمل الصبية المبكر يرجع بالدرجة الاساسية الى عوامل اقتصادية حيث اكد عليه مايقارب (٦٧٪) من افراد العينة .

ان معرفة الكيفية التي تم فيها اختيار الصبية عينة البحث المهنة الحالية مؤشر مهم يساعدنا كثيراً في تفسير ظاهرة عمل الصبية و لذلك تم توجيه السؤال الاتي :

كيف اخترت المهنة الحالية ؟ و كانت الاجابات كما في الجدول (١٧) حيث تشير بياناته الى ان الصبية قد تلقوا عوناً و مساعدة من جهات عديدة في العثور على اول مهنة لهم .

جدول (١٧) كيفية اختيار المهنة

اختيار المهنة	العدد	٪
الاهل	٢٦	٪٢٦
الاصدقاء	٤٤	٪٤٤
الجيران	٢٥	٪٢٥
اختيار ذاتي	٥	٪ ٥
المجموع	١٠٠	٪١٠٠

فقد اكد (٤٤ ٪) من افراد العينة على انهم اختاروا هذه المهنة بفضل الاصدقاء واكد (٢٦ ٪) منهم على دور الاهل في توجيههم نحو هذه المهن ويأتي دور الجيران بالمرتبة الثالثة حيث اكد عليه (٢٥ ٪) من العينة ويبدو دور الصبي في اختيار المهنة لنفسه ضئيلا ، فلم يؤكد عليه سوى (٥٪) من افراد العينة فقط .

ان اختيار المهنة يثير الاهتمام بمسألة اخرى هي هل الصبي يعمل لحسابه الخاص ام لحساب اشخاص اخرين . و قد كانت اجابات المبحوثين تؤكد ان (٧١ ٪) منهم يعملون لحساب اشخاص اخرين اي انهم يعملون لقاء

اجور يومية او اسبوعية . وبلغت نسبة الذين يعملون لحسابهم الخاص (٢٩ ٪) فقط . ان عمل الصبية لحساب اشخاص اخرين يقترن بمسألة العلاقة التي تربطهم مع ارباب العمل .

وقد تم توجيه السؤال عن هذه العلاقة الى (٧١ ٪) من افراد العينة وجاءت النتائج لتؤشر ان (٢٥ ٪) من افراد العينة يعدون علاقتهم جيدة برب العمل . غير ان (٥٤ ٪) منهم اكدوا سوء العلاقة برب العمل وهذا يعني ان النسبة الكبيرة من الصبية العاملين لحساب غيرهم يعانون من المعاملة السيئة في العمل وقد اشار (٢١ ٪) من العينة الى ان علاقتهم مع ارباب العمل اعتيادية.

ثانياً / مقدار الاجر اليومي واوجه التصرف به.

يقع المردود المادي للعمل في مقدمة الأسباب الدافعة للعمل المبكر ، لذا توجه البحث الى مقدار الاجر اليومي الذي يحصل عليه الصبية ومن ملاحظة البيانات الواردة في جدول (١٨) نجد ان ٥٠٪ من الصبية عينة البحث يحصلون على اجر يومي بمقدار (٦) دينار فأكثر . وهو دخل عال مقارنة بعمر الصبي حيث يتجاوز دخلهم الشهري (١٨٠) ديناراً . وهذا مايدفع بعض اولياء امور الصبية الى تشجيع ابنائهم على العمل المبكر لكونه يضمن دخلا عالياً يساعد الاسرة في سد تكاليف المعيشة .

جدول (١٨) مقدار الاجر اليومي للصبية

مقدار الاجر اليومي	العدد	٪
اقل من ٣ دنانير	١٣	١٣ ٪
٣ــ٥ دينار	٣٧	٣٧ ٪
٦ فأكثر	٥٠	٥٠ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠ ٪

ومن بيانات الجدول يتضح ايضاً ان (٣٧٪) من العينة يبلغ اجرها اليومي بين (٣ ــ ٥) دينار ، كما ان (١٣٪) منهم يقل اجرهم عن (٣) دنانير يومياً. وبعامة نستطيع ان نستنتج ان العمل المبكر للصبية يضمن دخلا جيداً يعد حافزاً قوياً للاسرة على تشجيع الصبية على الابقاء في العمل خاصة ان غالبية الصبية يقدمون مواردهم للاسرة . حيث نجد من الجدول (١٩) ان (٥٦٪) من العينة يسلمون اجرهم اليومي إلى اولياء امورهم وهذا يعني ان النسبة العالية من اسر هؤلاء تعتمد كلياً على عمل ابنائهم. وقد اكد (٢٧٪) من العينة انهم يسلمون جزءاً من الدخل إلى الاسرة . وهناك (١٣٪) يصرفون ما يحصلون عليه و (٤٪) اكدوا بانهم يدخرون دخلهم اليومي .

جدول (١٩) اوجه التصرف بالاجر اليومي

اوجه التصرف بالاجر	العدد	٪
يسلمه إلى ولي الامر	٥٦	٥٦ ٪
يعطي جزءاً منه للاسرة	٢٧	٢٧ ٪
يتصرف به	١٣	١٣ ٪
يدخره	٤	٤ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠٪

ثالثاً / الآثار السلبية للعمل المبكر

قدم البحث في الفقرتين السابقتين تصوراً عن واقع عمل الصبية (طبيعة الاعمال والمردودات المادية التي يحققها لهم) وكذلك تصوراً للسمات الفردية والاجتماعية لهم (الجنس ، العمر ، التحصيل الدراسي ، المستوى الاجتماعي والتعليمي للاسرة). وبذلك كشفت الصورة عن عدد من المتغيرات الاساسية ذات العلاقة بالعوامل التي تدفع الصبية إلى التبكير في العمل ، ويبقى امام البحث سؤال جوهري اخر هو ما هي النتائج المترتبة على العمل المبكر وهل للعمل المبكر مشكلات حقاً ؟

يتجه البحث في محاولة لتوضيح هذا الجانب إلى مسألتين اساسيتين :

الاولى: يهتم بها التربويون وتخص الاثار السلبية المترتبة على مستوى التحصيل الدراسي للصبية وهل يعوقهم العمل عن مواصلة الدراسة ؟

الثانية: تخص الاداريين وتتصل بالمشكلات في العمل وهل يعاني الصبية من مشكلات خاصة معينة لها اثارها المستقبلية في تكوين شخصياتهم ؟

أ‌- عمل الصبية والدراسة :

نتعرض هنا إلى العلاقة بين عمل الصبية والمدرسة ، هل الصبية العاملون يجمعون بين العمل والدراسة ؟ ام انهم تركوا المدرسة وتفرغوا كلياً للعمل؟ وقد تم التوجه إلى الصبية عينة البحث بالسؤال الآتي : هل انت مستمر في الدراسة ؟ وجاءت الاجابات في جدول (٢٠) لتوضح لنا الموقف من الدراسة فضلا عن العلاقة بين العمر والاستمرار بالدراسة. حيث تؤشر بيانه الاتي :

جدول (٢٠) العلاقة بين العمل والاستمرار في الدراسة

الاستمرار بالدراسة / العمر	نعم	٪	لا	٪	المجموع
٩ - ١١ سنة	٧	٣٧٪	١٢	٦٣٪	١٩
١٢ - ١٤ سنة	١٨	٢٩٪	٤٥	٧١٪	٦٣
١٥ فأكثر	٣	١٧٪	١٥	٨٣٪	١٨
المجموع	٢٨		٧٢		١٠٠

تشير بيانات الجدول إلى ان حوالي ثلاثة ارباع الصبية تركوا المدرسة وان اغلبهم يقعون في الفئات العمرية الخاضعة للتعليم الالزامي . كما يلاحظ ان التوجه إلى ترك الدراسة يرتبط بعلاقة طردية مع العمر فالفئة العمرية دون (١٢) سنة هم الاقل تركاً للدراسة (٦٣٪) منهم اما الفئة العمرية (١٥ فأكثر) فهم الاكثر تركاً للدراسة حيث ان (٨٣٪) منهم اجاب بانه غير مستمر في الدراسة .

وللتعرف على اسباب ترك الصبية المدرسة والانصراف للعمل تم توجيه سؤال اخر إلى الذين اجابوا بانهم غير مستمرين على الدراسة حول اسباب ترك الدراسة ، فكانت الاجابات كما في الجدول رقم (٢١) .

ويتضح من الجدول ان اكثر الاسباب قوة في ترك الدراسة هو عدم الرغبة حيث اشار لذلك اكثر من نصفهم (٥٦ ٪) ، ويأتي اعتماد الاسرة على الصبي في الاعالة السبب الثاني في الاهمية وبنسبة تقارب الخمس (١٨ ٪) كما ان الرسوب يعد سبباً واضح التأثير في ترك الدراسة (١٥ ٪) اما سوء المعاملة في

جدول (٢١) اسباب ترك الدراسة

اسباب ترك الدراسة	العدد	٪
عدم الرغبة في الدراسة	٤٠	٥٦ ٪
الرسوب في المدرسة	١١	١٥ ٪
اعتماد الاسرة على الصبي في الاعالة	١٣	١٨ ٪
سوء المعاملة في المدرسة	٣	٤ ٪
اسباب اخرى	٥	٧ ٪
المجموع	٧٢	١٠٠ ٪

المدرسة فيمثل نسبة ضعيفة (٤ ٪) بين اسباب ترك الدراسة . كما كانت هناك مجموعة من الاسباب اكدها (٧ ٪) من التاركين هي :

١ ــ بعد المدرسة عن البيت
٢ ــ انتقال العائلة من منطقة إلى اخرى داخل المحافظة
٣ ــ تغير الدراسة من اللغة الكردية إلى العربية
٤ ــ انتقال العائلة من محافظة إلى اخرى

لقد اهتم التربويون بظاهرة ترك الصبية المدرسة دون اكمال المرحلة التعليمية التي هم فيها والانصراف إلى ممارسة بعض الاعمال البسيطة وتم عقد الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية لدراسة هذه الظاهرة بغية الوقاية منها وعلاجها حيث ان ترك الصبية المدرسة يفقدهم كثيراً من الفرص التعليمية والتربوية

والاجتماعية المتاحة امامهم وبالتالي فرص الترقي التربوي والاجتماعي مما يؤثر سلبياً على الاسرة والمجتمع (٢٦) .

ان هذه الظاهرة لا يمكن تجاهلها دون البحث عن حلول لها . ففي بعض الدول المتقدمة حققت انظمتها التعليمية نتائج تتصف بالمرونة مقدمة البدائل لمختلف الحاجات والقابليات (٢٧) .

ففي النرويج يمكن ان يتحول الطالب (الصبي) الذي يقبل في الدراسة إلى مدارس اخرى اكثر ملاءمة مع قدراته.وبالنسبة للاطفال الذين لا يستطيعون التكيف مع المدرسة تحل مناهج التدريب المهني محل المناهج الاكاديمية .

وفي بريطانيا يزود اولئك الذين يفشلون في الامتحانات النهائية بشهادة توضيح قدراتهم وانجازاتهم ، وفي كوبا يقوم مساعدو المدرسين بزيارات منزلية ومناقشة مشاكل الطالب مع عائلته .

وفي استراليا ، تعرض حالات الهروب من المدرسة على محكمة خاصة وقد تقرر المحكمة الحاق الطالب بدورات تدريب مهني .

وتبرز الحاجة عندنا في العراق إلى تغير في نظام التعليم الاساسي بما يوفر البدائل الملائمة للقابليات المختلفة والحاجات البيئية المتباينة . ومن الضروري اعتبار التدريب المهني ضمن هذا النظام من الشروط الاساسية للحصول على اذن بالعمل .

ب ـ المشكلات الناجمة عن العمل المبكر

مما لاشك فيه ان للعمل دوراً كبيراً في تكامل شخصية الانسان فهو الوسيلة التي يستطيع من خلالها الفرد اشباع حاجاته الاقتصادية والاجتماعية .

---

(٢٦) د. منى يونس بحري . مصدر سابق ، ص ٢

(٢٧) تقرير بالانكليزية مقدم الى الندوة المعدة من قبل المركز القومي للبحوث الاجتماعية في جمهورية مصر العربية بالتعاون مع منظمة اليونسكو ، ١٩٨٦ . ترجمة قيمر عبد الكريم ص ٢٠

والعمل هنا يعطي فرصاً للاندماج في الوسط الاجتماعي ، كما يزيد من معرفة الفرد بالاخرين واحوالهم الاجتماعية. بيد ان هذه الاهمية العالية للعمل تصبح ضارة احياناً . فالعمل المبكر لصغار السن يختلف اختلافاً كبيراً في نتائجه على شخصية الطفل ومستقبله مهنة وسلوكاً . ذلك ان العمل المبكر للصبية يعرضهم إلى مشكلات كثيرة اجتماعية وصحية وتربوية وغيرها . كما يترك كل عام عدد من الاحداث الصغار مدارسهم بمزاولة اعمال بسيطة تضمن لهم ولاسرهم دخلا . في حين يمضي الاخرون من اقرانهم اعواماً اخرى على مقاعد الدراسة والعلم متطلعين إلى مستقبل افضل . فالاثار السلبية لعمل الصبية في سن مبكر له انعكاسات سلبية على قيم الصبي وعاداته السلوكية لكونه غير قادر على التمييز بسبب قلة الخبرة العملية وعدم اكتمال النضج العقلي وبالنتيجة يؤدي العمل إلى نفورهم من العمل . وقد يحدث احياناً ان يكون رب العمل سيئاً فيدفع بالصبي إلى مهاوي الانحراف ، سواء بشكل مباشر او نتيجة التقليد حيث تكون الرغبة عالية بتقليد الكبار .

نرى يومياً عشرات الصبية الذين يتسكعون في الطرقات ، يبحثون عن الاعمال السهلة كصبغ الاحذية او بيع بعض السلع (الاكياس ، العلك ، السكائر وغيرها) وينتشرون على ابواب دور السينما وامام البارات والنوادي الليلية ، وفي المناطق المكتظة بالسكان . وقد يؤدي وقوع هؤلاء في ايدي بعض الاشرار والمنحرفين إلى اكتسابهم عادات سيئة كالتدخين وتعاطي المشروبات الكحولية وغيرها. وقد يقع البعض منهم في ايدي رجال العصابات كالنشل وغيرها فيدفعونهم نحو ارتكاب الاعمال غير القانونية. وهذا البحث محاولة للتعرف على طبيعة المشكلات التي واجهت الصبية من خلال عملهم . وقد تم توجيه السؤال الاتي إلى الصبية.(هل تعرضتم إلى مشكلات في اثناء العمل؟) فكانت الاجابات كما هي موضحة في الجدول (٢٢) تؤكد (٣٤٪) من افراد العينة تعرضوا للمشكلات اثناء العمل. وهي نسبة عالية تتجاوز الثلث اي ان صبياً من كل ثلاثة صبيان يعملون يتعرضون للمشكلات .

جدول رقم (٢٢) تعرض الصبية إلى المشكلات ونوعها

التعرض إلى المشكلة	العدد	٪	نوع المشكلات	العدد	٪
نعم	٣٤	٣٤ ٪	اعتداء رب العمل	٨	٢٤ ٪
لا	٦٦	٦٦ ٪	اعتداء العاملين	١٥	٤٤ ٪
			مشكلات اخرى	١١	٣٢ ٪
المجموع	١٠٠	١٠٠ ٪	المجموع	٣٤	١٠٠ ٪

اما طبيعة هذه المشكلات فقد جاءت في اجاباتهم عن سؤال اخر نجد بياناته في ذات الجدول (٢٢) حيث تشير إلى ان اسباب معاناة الصبية من المشكلات تعود عند ما يقارب ربعهم (٢٤٪) إلى اعتداء رب العمل. وما يقارب نصفهم (٤٤٪) إلى العاملين. و هكذا نجد ان رب العمل وزملاء العمل يمثلون (٦٦٪) من المشكلات لهؤلاء الصبية الذين صرحوا بمعاناتهم من مشكلات في العمل. اما الثلث الآخر من المشكلات فهو ناجم عن الاتي :

١ ــ اعتداء الزبائن

٢ ــ حوادث العمل (الاصابات و الجروح)

٣ ــ اعتداء الشباب

بالاضافة إلى ما تقدم فإن الصبية العاملين يتعرضون إلى استغلال ارباب العمل تتمثل بتشغيلهم ساعات طويلة لقاء اجور زهيدة او العمل في ظروف صعبة واماكن لا تتوفر فيها الشروط الصحية. وهنا لا بد من الاشارة إلى ان بعض الاحداث يعملون لحسابهم الخاص ونسبهم في العينة (٢٩ ٪) كبائعي السكائر ، وصباغي الاحذية ، وبيع بعض المواد الاستهلاكية وغيرها. وان (٧١ ٪) منهم يعملون لحساب اشخاص اخرين وهم يمارسون مهناً مختلفة.

لقد نصت المادة رقم (٩١) الفقرة (٣) من قانون العمل رقم (٧١) لسنة (١٩٨٧) على انه يشترط لتشغيل الحدث ثبوت لياقته البدنية وقدرته الصحية

بموجب شهادة طبية صادرة من جهة مختصة(٢٨)واستناداً إلى هذا تم توجيه سؤال إلى الذين يعملون لحساب اشخاص اخرين وخصوصاً الذين يمارسون اعمالا صعبة كتصليح السيارات وغيرها . (فيما اذا جرى لهم فحص طبي قبل دخولهم ميدان العمل ام لا؟)والنتائج التي حصلنا عليها تؤكد بأن (٨٨٪) منهم اكدوا عدم حصول ذلك فضلا عن ان اغلب هؤلاء اكدوا عدم منحهم مدة استراحة في اثناء العمل . وانما يجرى تشغيلهم ساعات عمل طويلة ، وهذا تجاوز واضح لقانون العمل الذي اشترط ان تتخلل ساعات العمل اليومي وقت استراحة لا تقل عن ساعة يراعى في تحديدها كون العمل المتواصل لايزيد على اربع ساعات(٢٩) .

نتائج البحث وتوصياته

اولا : النتائج

١ـ غالبية الصبية العاملين (٨٢٪) تقل اعمارهم عن سن العمل (١٥ سنة) المحدد في قانون العمل رقم (٧١) لسنة ١٩٨٧ . الامر الذي يعني انخفاض كفاءة الاجهزة الرسمية المختصة بتطبيق هذه الاحكام وكذلك المعنية بتنفيذ السياسة التعليمية .

٢ ـ ماتزال نسبة كبيرة من المشمولين بالتعليم الالزامي تعاني من الامية الامر الذي يعني وجود تسرب دراسي يتعارض مع احكام قانون التعليم الالزامي رقم (١١٨) لسنة ١٩٧٦ . الذي تتحمل اجهزة وزارة التربية والادارة المحلية جانباً اساسياً من مسؤولية تنفيذه .

٣ ـ اظهرت النتائج علاقة واضحة بين العامل الاقتصادي ودخل الاسرة وبين التوجه للعمل المبكر ، حيث كانت مهن اولياء امور الصبية في الغالب ذات المورد الضعيف او غير الثابت ، كما ان معظمهم ينتمي

---

(٢٨) قانون العمل رقم ٧١ لسنة ١٩٨٧ ، ص٢٥

(٢٩) نفس المصدر ص ٢٥ .

الى اسر منخفضة المستوى المعاشي (انخفاض معدل دخل الفرد في الاسرة) وقد اكد هذه العلاقة ماحدده الصبية من اسباب لتوجههم الى العمل .

٤ ــ اما العامل الاجتماعي فيعد متغيراً مؤثراً في التوجه للعمل المبكر فقد اتضح ان اغلب افراد العينة ينتمون الى اسر يزيد عدد افرادها عن (٦) اشخاص . كما ان نسبة كبيرة منهم تنتمي الى اسر ناقصة التكوين (فقدان احد الوالدين او كليهما او اسر تعاني من التفكك والخلافات (الانفصال او عدم التوافق بين الوالدين) .

كما ان نسبة غير قليلة من الصبية صرحت بسوء علاقتها مع العائلة.

٥ ــ اوضحت نتائج البحث اهمية واضحة للعامل الثقافي في توجيه الصبية للعمل المبكر ،حيث نجد ان اغلب افراد العينة ينتمون الى اسر لا يعرف اولياء امورها القراءة والكتابة . وقليل منهم اكمل الدراسة الأعدادية . من الجانب الاخر يعاني الكثير من هؤلاء الصبية من مصاعب في التنشئة الاجتماعية كأستخدام ام العائلة الضرب وعدم تفهم مشكلات الابناء وتفضيل الابناء العمل على الدراسة ، الامر الذي يعكس قيما غير سليمة في البناء التربوي والثقافي لأسر الصبية .

٦ ــ وكانت دوافع العمل المبكر كما صرح بها افراد العينة كما يأتي :

١ ــ ضعف الحالة الاقتصادية ٤٣٪

٢ ــ عدم الرغبة في الدراسة ٣٣٪

٣ ــ تفضيل ولي الامر المهنة على الدراسة ١٠٪

٤ ــ المشكلات المادية للاسرة ١٤٪

٧ــاما عن النتائج التربوية والثقافية للعمل المبكر والاثار السلبية المترتبة على تحصيل الصبية الدراسي فقد اتضح ان ترك الدراسة او العمل المبكر هما متغيران مترابطان وهما نتيجة وسبب لبعضهما حيث اشار

غالبية الصبية الى عدم الرغبة والرسوب اسباباً لترك الدراسة . الامر الذي يعكس خللا كبيراً في مؤسساتنا التعليمية من حيث وجود تقصير في متابعة التلاميذ تربوياً ودراسياً اثناء سنوات الدراسة وكذلك في فعاليات الارشاد التربوي والتوجيه المهني .

٨ ـ وعكست الدراسة ايضاً تصوراً واضحاً عن الاثار الأجتماعية والنفسية المترتبة على الابكار في العمل . حيث عبرت نسبة عالية من العينة عن معاناتها من المشكلات اثناء العمل وعلى وجه خاص من اعتداء رب العمل او العاملين واحياناً من الزبائن او نتيجة حوادث واصابات العمل الامر الذي ينعكس بلا شك على نضجهم الذهني والنفسي والاجتماعي .

٩ ـ اكدت نتائج الدراسة الميدانية قصوراً كبيراً في تطبيق نظم الصحة والرعاية المعنية الخاصة بتشغيل الاحداث حيث ان اغلبهم لا يخضع لفحوصات اللياقة للعمل ، ويتم تشغيلهم لساعات اطول ، كما انهم لا يحصلون على اوقات الاستراحة المقرر لهم . بما يعني تقصيراً في عمل الاجهزة المعنية في وزارتي الصحة والعمل والشؤون الأجتماعية .

التوصيات

١ ـ اجراء دراسات ميدانية اشمل على مستوى القطر العراقي لكشف العوامل التي تقف وراء ظاهرة العمل المبكر للصبية بما يساعد على التجاوز او التخفيف من اسبابها . ويمكن توجيه الجامعات ومراكز البحث العلمي لاجراء مثل هذه الدراسات مع التأكيد على توجيه الرسائل العلمية لها .

٢ ـ العمل على توسيع نظم التأمينات الاجتماعية لتشمل جميع الشرائح الاجتماعية دون الاقتصار على الموظفين والعمال ، مع ضرورة السعي

لاستحداث نظام المساعدات العائلية تضمن تحقيق المستوى المعـاشي المناسب لكل العراقيين وابعاداً للاسر العراقية من الحاجـة لتشغيـل ابنائها الصغار .

٣ ـ السعي لرفع مستوى البناء التعليمي والثقافي للمجتمع بجعل الحد الأدنى للتعليم المرحلة المتوسطة هدفاً مرحلياً لغاية عام الفين والمرحلة الأعدادية هدفاً للسنوات العشر القادمة . مع التأكيد على اهمية رفع نسبة خريجي الجامعات والمعاهد الفنية وذلك لضمان تحسين البناء القيمي والموقف الاسري من التعليم ومن العمل المبكر .

٤ ـ العناية بمشكلات الاسرة والعلاقات العائلية ودعوة المتخصصيـن والباحثين لدراستها وتشخيص اسبابها وسماتها الانية والمستقبلية كونها (الاسرة) الاداة الحقيقية للأعداد الاجتماعي وتنشئة الأجيال السليمة. مع الزام وزارة الثقافة والاعلام بتخصيص برامج تربوية واجتماعيـة في كل وسائلها (المقروءة والمسموعة والمنظورة) بهدف التوعية الأجتماعية السلمية وزيادة الاهتمام بالعائلة العراقية على مستوى الريف والمدينـة وعلى مستوى الاباء والابناء .

٥ ـ الزام وزارة التربية بفتح مدارس مهنية لقبول خريجي الدراسة الأبتدائية غير القادرين او غير المؤهلين لمرحلة التعليم العام بهدف تأهيلهم مهنياً لاعمال تناسب قدراتهم ورعايتهم بما يضمن توجيههم تـوجيهاً مهنياً سليماً مع سرعة دخولهم الى فئة النشيطين اقتصادياً . وكذلك تتناسـب مع تحملهم اعباء العمل ومسؤوليات رعاية الاسرة في سن صغيرة.

٦ ـ الزام وزارة التربية بتقديم مؤشرات سنوية عن ظاهرة التسرب الدراسي في التعليم الابتدائي والتعليم العام . مع اجراء دراسات بالتعاون مـع الجامعات لتقصي اسبابها . وكذلك الزامها بتنشيط برامج التوجيـه والارشاد التربوي والمهني . وباضافة درجة باحث اجتماعي او نفسي

لملاكات المدارس لمتابعة عملية البناء والتنشئة (الاعداد الأجتماعي) للاجيال .

٧ ـ التنسيق بين الجهات المعنية وعلى وجه الخصوص الادارة المحلية، ووزارة التربية، والرعاية الاجتماعية، والشرطة المحلية، والصحة) لوضع برامج عمل لمتابعة المخالفات لقانون العمل، رقم ٧١ لسنة ١٩٨٧ حول تشغيل الاحداث وعمل الصبية. وكذلك احكام قانون التعليم الالزامي رقم (١١٨) لسنة ١٩٧٦ .

٨ ـ الزام وزارة العمل بالتنسيق على مستوى الاقطار العربية والمنظمات الدولية ومع الجامعات العراقية لتنظيم مؤتمرات علمية حول :

أ ـ عمل الصبية وترك الدراسة .

ب ـ مشكلات العمل المبكر (الاجتماعية والنفسية والصحية والتربوية) .

جـ ـ التنشئة الاجتماعية والمشكلات العائلية .

د ـ دور المدرسة في التوجيه والارشاد التربوي والمهني .



العوامل الاسرية للجريمة
دراسة ميدانية

اعداد
عبدالله مرقس رابي
استاذ مساعد
قسم الخدمة الأجتماعية

مقدمة

تناولت عدة دراسات ظاهرة الاجرام من مختلف جوانبه . من حيث اسبابه وضبطه ، وتمتد هذه الدراسات الى ما يقارب قرناً من الزمن ، منذ ان فتح العالم الإيطالي المعروف (لومبروزو) باب العلم للدراسة المجرم ودون الاقتصار على دراسة الجريمة فقط ، فكثرت البحوث لتشخيص الاسباب المؤدية الى الاجرام ، ومنها مايتعلق بالجوانب الاجتماعية التي تتضمن العوامل الاسرية ، سواء للبالغين من المجرمين أو الأحداث الجانحين.

وفي قطرنا تركزت البحوث حول العوامل الاسرية لجنوح الاحداث فقط ، وانعدمت في محافظة نينوى تقريباً بأستثناء دراسة (الدكتور فخري الدباغ) عن جنوح الاحداث بصورة عامة . فكان هذا الدافع الاساسي الذي جعل الباحث يقوم باجراء البحث عن المجرمين البالغين.الذي تضمن محاولة للدراسة الحالة الاسرية الأصلية لهم ، والحالة الاسرية للمتزوجين منهم ، وذلك عن طريق التعرف على بعض المواقف الأجتماعية والنفسية التي تعرضوا لها منذ الطفولة في اسرهم ، ويتألف البحث من ثلاثة مباحث الأول يتناول جانباً نظرياً ، والثاني اجراءات البحث ، وتضمن الثالث تحليل ومناقشة نتائج البحث .

المبحث الاول / الاطار النظري

اهمية البحث والهدف منه : —

تبدو اهمية البحث واضحة في انه يبحث بأهم العوامل الاجتماعية التي تدفع الفرد لارتكاب الجريمة التي تتفاقم يوماً بعد آخر في مختلف المجتمعات، وهي العوامل الأسرية ، وتأتي اهميته من جهة اخرى في انه يبحث في هذه العوامل ضمن محافظة نينوى التي تفتقر الى هذه الدراسات .وقد يخرج ايضاً ببعض المقترحات التي نستفيد منها للحد من انتشار الجريمة .

اما الهدف من البحث فهو التعرف على العلاقة بين الحالة الاسرية وارتكاب الافراد للجريمة .

الاسرة وعلاقتها بالجريمة :—

ان الاهتمام بالعوامل الاسرية وعلاقتها بالجريمة امتداد للأفكار التي نظرت الى الجريمة كظاهرة اجتماعية ، حيث يعد الوسط الاجتماعي الاسري من العوامل الاجتماعية المهمة التي تدفع الفرد لارتكاب الجريمة، فليس هناك شك في ان وجود الاسرة في حد ذاته يعد عاملا من العوامل المهمة للتنشئة الاجتماعية السوية . لان وجود الاسرة هو الذي يسمح للفرد بالتدرب على الحياة الاجتماعية (١) . لان ما يضعه المجتمع من معايير وقواعد اخلاقية يتم نقلها الى الافراد عن طريق التنشئة الاجتماعية ، فهذه القواعد تضبط بشكل فاعل السلوك الفردي لصالح المجتمع (٢) . اذ تبدأ علاقة الاسرة مع الأبناء منذ ميلادهم ، حيث تؤكد الدراسات الاجتماعية والنفسية ان تجارب التعلم الأولى للأطفال في التنشئة المبكرة تؤسس انماط سلوك وعادات وتصورات تتسم بالديمومة ، والتأثير في استجابات الفرد عند النضج (٣) .

(١) الدكتور محمد زكي ابو عامر ، دراسة في علم الاجرام والعقاب ، مصدر سابق. ص ٢١٠ .

(٢) سونيا هانت وجينيفر هيلتز ، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية، ترجمة الدكتور قيس النوري . دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ١٦٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١١٥ .

وبهذا تكون الاسرة الوحدة الاجتماعية الأولى التي تحدد وتصمل شخصية الفرد طالما انها تلعب دوراً هاماً وبارزاً في تمرير النماذج السلوكية للفرد (٤). ولعل هذا هو السبب الرئيس في أن نسبة كبيرة من البحوث ومدارس الفكر في علم الاجرام خلال هذا القرن قد اهتمت بالعلاقة بين الحالة الاسرية والجريمة (٥) . اذ انها احياناً لاتعدو أن تكون احدى الجماعات العديدة التي قد ترتبط بالسلوك المنحرف ، سواء كان هذا الارتباط في ضوء المعايير او في ضوء العلاقات الاجتماعية (٦) . ويتبين بوضوح دور الاسرة المؤثر والفعال بالجريمة في المجتمع المعاصر ، اذ ان المتغيرات الجديدة كالتحضر ، والتصنيع ، والحراك الاجتماعي وشبكات الاتصال المعقدة ، وانساق القيم المتغيرة ، كان لها الشأن في الأثر على بناء الاسرة واداء وظائفها ، فحولت بعض الاسر الى حالة التصدع .

ففي دراسة لكل من (شلدون جلوك) و (اليانور جلوك) سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٩ على (٥٠٠) نزيل في اصلاحية (ماستشوسس) ظهر ان حوالي ٦٠ ٪ من النزلاء جاءوا من اسر متصدعة (٧) . وفي دراسة اخرى لكل من (شو) و(ماكاي) حول الوضع الاسري لمجموعة من المنحرفين وجد ان ٤٢,٥ ٪ منهم جاءوا من اسر متصدعة بالمقارنة مع مجموعة ضابطة حيث أن ٣٦,١٪ كانوا من الاسر غير المتصدعة (٨) . وفي المانيا توصل (بون هوبر) من دراسة (١١٠) من المجرمين الخطيرين الذين حكم عليهم ، ان ٤٥ ٪ قد احاطت بهم ظروف اسرية سيئة (٩) .

---

(٤) آدوين ، هـ . سذرلاند ، مبادىء علم الاجرام ، مصدر سابق ، ص ٢٢٧ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢١٧ .
(٦) الدكتور محمد الجوهري وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨٠ .
(٧) الدكتور سعد جلال ، اسس علم النفس الجنائي ، مصدر سابق ص ٢٣٦ .
(٨) الدكتور سعد المغربي ، السيد احمد الليثي ، المجرمون ، مصدر سابق ، ص ١٩٣ .
(٩) السيد رمضان ، الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي ، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ . ص ١٦٢ .

وما يتعلق بالتعامل بين الوالدين والأبناء ، فقد وجد (هيلي وبرونر) في دراستهما على (٤٠٠٠) حالة ان ٤٠ ٪ منهم قد جاءوا من اسر ينعدم فيها التقويم وتسود النشئة الخاطئة (١٠) .

وبالنسبة الى الحرمان العاطفي ، فقد وجد (هيرتزول وستوريا) بفحصهما عدداً من الدراسات حول الموضوع ، بان هناك علاقة بين الجريمة والحرمان العاطفي للأبناء بسبب فقدان أحد الوالدين (١١) .

اما مايتعلق بالحالة الاقتصادية للاسرة ، فيرى فريق من العلماء من اشهرهم العالم الهولندي (وليم بونجيه) و(كولاني) و(توراني) وجود علاقة بين سوء الاحوال الاقتصادية للأسرة وارتكاب افرادها للجريمة (١٢). وتبين ان للظروف السكنية علاقة بدفع الفرد للجريمة (١٣) .وظهر كذلك وجود علاقة بين المستويات التعليمية لافراد الاسرة وارتكابهم للجريمة (١٤) .

وللقيم الاجتماعية التي تعتقد بها الاسرة كان تكون ريفية أو حضرية تأثير على الفرد وتدفع به الى الجريمة .اذ تكثر جرائم القتل للثأر وغسل العار في الريف وتقل في الحضر ، وعلى الأغلب تمتاز الجريمة في الريف بدافع الانتقام حتى لو كانت السرقة احياناً (١٥) .

---

(١٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(١١) نفس المصدر السابق ، ص ١٦١ .
(١٢) عبد الجبار عريم ، نظريات علم الاجرام ، مصدر سابق ، ص ٨٨- ٨٩ .
(١٣) الدكتور محمد زكي ابو عامر ،دراسة في علم الاجرام والعقاب ، مصدر سابق ، ص ٢١٣ .
(١٤) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .
(١٥) السيد رمضان ، الجريمة والانحراف ، مصدر سابق ، ص ١٤٨ .

المبحث الثاني

اجراءات البحث

أولا : تحديد المفاهيم :

وردت مفاهيم اساسية في البحث وفيما يأتي المقصود بها لاغراض هذا البحث فقط : —

١ — الجريمة : تعرف الجريمة قانوناً . هي كل فعل يقرر له النظام القانوني عقوبة جنائية . وتعرف اجتماعياً : تلك الأفعال التي تمثل خطراً على المجتمع أو تجعل من المستحيل تحقيق التعايش والتعاون بين الأفراد والذين يكونونه (١٦) .

٢ — المجرم :
وهو الشخص الذي يرتكب الفعل الاجرامي متى اسند اليه ذلك بشكل جدي (١٧) .

٣ — الاسرة : تشير الى مجموعة من المكانات والأدوار المكتسبة عن طريق الزواج والولادة ، وتتكون من الأب والأبن والأم والأبناء وبعض الاقرباء (١٨) .

٤ — الحالة الاسرية : تشير الى الظروف الاجتماعية — بما فيها نمط العلاقات الاجتماعية والعواطف والظروف الاقتصادية والثقافية للاسرة .

٥ — العلاقات الاجتماعية : هي اي اتصال أو تفاعل او تجاوب يقوم بين

---

(١٦) الدكتور محمد ابراهيم زيد ، مقدمة في علم الاجرام والسلوك الاجتماعي ، ١٩٧٨ ، ص٣٨ .

(١٧) الدكتور محمد زكي ابو عامر ، دراسة في علم الاجرام والعقاب ، مصدر سابق ، ص ٥١ .

(١٨) الدكتور محمد الجوهري وآخرون ، ميادين علم الاجتماع ، مصدر سابق ، ص ٢٣٩ .

شخصين أو أكثر لغرض اشباع الحاجات الأساسية والثانوية للاشخاص الذي يكونون العلاقة ، ويدخلون ضمن حدودها (١٩).

٦ ـ الحرمان العاطفي . يستعمل هذا المصطلح لتغطية عدد من حالات الاضطراب (رابطة التعلق) والتي تؤثر سلباً في الطفل عندما يفقد أحد الأبوين بسبب الوفاة او الطلاق أو النزول في المستشفى (٢٠) .

٧ ـ القيم : تمثل مبادىء تحتضنها اعداد كبيرة من اعضاء المجتمع وتتصف بكونها مرغوبة ومقبولة وانها تتغلغل في كافة اقسام وعناصر حضارة المجتمع (٢١) .

ثانياً : فرضيات البحث :

١ ـ كلما زادت العلاقات الاجتماعية بين افراد الاسرة سوءاً ، ازداد احتمال ارتكاب الفرد للجريمة .

٢ ـ كلما زاد الحرمان العاطفي لأبناء الاسرة ، ازداد احتمال ارتكاب الفرد للجريمة .

٣ ـ كلما زادت الحالة الاقتصادية للاسرة سوءاً ، ازداد احتمال ارتكاب الفرد للجريمة .

٤ ـ كلما زاد تمسك الاسرة بالقيم الريفية ، ازداد احتمال ارتكاب الفرد للجرائم الانتقامية .

٥ ـ كلما ارتفع المستوى التعليمي قلت الجرائم المرتكبة بين افراد الأسرة.

---

(١٩) الدكتور محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٤٣٧ .

(٢٠) سونيا هانت وجنيفر هيلين ، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ، مصدر سابق ، ص١٢٣ .

(٢١) الدكتور قيس النوري ، الحضارة والشخصية ، مطبعة جامعة الموصل ، ص ١٩٨١ ، ص ٤١ .

ثالثاً : عينة البحث :

شملت عينة البحث (١٥٠) نزيلاً من قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى ، وقد تم اختيارهم عن طريق العينة العشوائية البسيطة .

رابعاً : أداة البحث :

وضع استبيان يتكون من مجموعة اسئلة تتعلق بالفرضيات ، ولغرض تحقيق صدق الاستبيان الظاهري ، فقد عرض على مجموعة من الخبراء (*) .

خامساً : مجالات البحث :

امتدت فترة اجراء البحث من ١٩٨٧/٩/١ لغاية ١٩٨٧/١٠/٣١ وينحصر المجال البشري للبحث بنزلاء قسم الاصلاح الاجتماعي للكبار في نينوى ، والذي يشكل المجال المكاني للبحث ايضاً .

سادساً : منهج البحث :

يعد البحث من البحوث الوصفية التحليلية ، والمنهج المتبع هو المسح الاجتماعي عن طريق العينة واستخدم الباحث النسبة المئوية والوسيط كوسائل احصائية لتحليل البيانات .

المبحث الثالث

تحليل النتائج ومناقشتها

لغرض مناقشة النتائج سندرجها وفقاً لفرضيات البحث وكما يأتي : —

الفرضية الاولى : العلاقات الاجتماعية

ان الاسرة هي المدخل الاساسي للتواصل مع المجتمع فإذا كانت علاقة الافراد في الاسرة غير مرضية فيحدث رد فعل من بعضهم للظرف السائد من العلاقات ، فقد يؤدي ذلك إلى الانحراف السلوكي احياناً . (٢٢)

(*) عرض الاستبيان الى السيد سعد الدين خضر معاون المدير العام لدائرة الاصلاح الأجتماعي للكبار والدكتور سطام محمد الجبوري .

(٢٢) الدكتور السيد علي شتا ، علم الاجتماع الجنائي ، دار الاصطلاح ، السعودية ، الدمام ، ١٩٨٤ ، ص ٩٢ .

ولغرض التعرف على نمط العلاقات الاجتماعية السائدة في اسر المبحوثين فقد تناول الباحث ما يأتي : —

١ — العلاقة بين المبحوثين والوالدين :

العلاقة الاجتماعية بين الوالدين والأبناء من اهم العوامل التي تؤثر في نوع المعاملة التي يتلقاها الأبناء من آبائهم . كما انها تؤثر تأثيراً كبيراً على البيئة السائدة في الاسرة ، ومن ثم في بناء شخصية الأبناء ، وقد تبين من نتائج البحث أن ٥٠ ٪ من المبحوثين ذكروا بأن طبيعة معاملة الآباء لهم تقوم على الإهمال. و٢٣,٣ ٪ عوملوا بقسوة ، في حين أن ٢٦,٧ ٪ فقط كانت طبيعة معاملة الآباء لهم تتسم بالحب والعطف ، اما معاملة الأمهات فإختلفت عن معاملة الأباء ، حيث ذكر ٦٥,٣ ٪ من المبحوثين انهم تلقوا الحب والعطف من الأمهات و٢٤,٧ ٪ اهملتهم امهاتهم ، في حين ان ١٠٪ فقط كانت معاملة الأمهات لهم تتسم بالقسوة .

٢ — العلاقة بين الوالدين : —

ان نمط العلاقة الاجتماعية بين الوالدين هي الاخرى تؤثر في بناء شخصية الأبناء ، حيث عندما تسود العلاقة السيئة تزيد من الاضطرابات ، فينشغل الوالدان في مشاكلهم ، مما يضطر الأبناء احياناً إلى الهروب من هذا الواقع الأليم ، ومن ملاحظة نتائج البحث تبين ان ٤٠٪ من المبحوثين كانت علاقة والديهم ببعضهم اعتيادية . وان ٢١,٣ ٪ كانت علاقة والديهم ببعضهم سيئة ، و ٣٨,٧ ٪ أجابوا بأنها كانت جيدة .

وتبين ان ٣٠,٧ ٪ من المبحوثين اشاروا إلى وجود المشاجرات بين الوالدين ، و ٢٠ ٪ اجابوا بان المشاجرات تظهر احياناً ، في حين اشار ٤٩,٣ ٪ إلى قلة حدوثها .

٣ — العلاقة بين المبحوثين وزوجاتهم :

وتبين من نتائج البحث أن ٦٢,٦ ٪ من المبحوثين متزوجون ، لذا يتطلب

التعرف على طبيعة العلاقة بين المبحوث وزوجته ، اذ لها تأثير كبير في عملية التكييف للحياة الزوجية ، ومن ثم الاستقرار الاسري او عكسه . وقد تبين من الجدول (٥) ان ٤٥,٩ ٪ منهم كانت علاقتهم اعتيادية ، و ١٤,٣٩٪ منهم علاقاتهم مع زوجاتهم سيئة .

٤ ـ تناول المسكرات :

لا شك ان الإدمان على المسكرات يعد احد العوامل التي تؤكد صلته بالجريمة . وقد تبين من بعض الدراسات بان ٩٥ ٪ من الآباء الذين يعاملون أبناءهم معاملة سيئة من مدمني الخمر (٢٣) . ومن جهة اخرى تعد عاملاً مهماً لاضطراب العلاقة بين الزوجين وبالتالي تسيء العلاقة بين افراد الاسرة عموماً .

لقد تبين ان ٢١,٣٪ من المبحوثين اشاروا إلى ان آباءهم كانوا يتناولون المسكرات ، و ١٢,٧٪ منهم يتناولونها احياناً ، في حين ان ٦٦٪ لم يذكر ذلك. وتبين أن ٤٢٪ من المبحوثين يتناولون المسكرات ؛ و ٢٧,٣٪ يتناولونها احياناً و ٣٠,٧ ٪ لم يتناولوها اطلاقاً .

٥ ـ تبين من نتائج البحث ان ٥٦,٧٪ من المبحوثين ذكروا وتعبيراً من وجهة نظرهم بان سوء المعاملة الاسرية لهم كانت سبباً رئيساً دفعهم لارتكاب الجريمة .

اذن في ضوء هذه النتائج نستطيع القول ان سوء العلاقات الاسرية باتجاهاتها المختلفة تساهم في دفع الفرد إلى ارتكاب الجريمة وبهذا نقف على صحة الفرضية الأولى

الفرضية الثانية : الحرمان العاطفي

قد تخفق بعض الاسر في تدريب الأبناء على التعامل مع اوضاع المجتمع

---

(٢٣) الدكتور محمد زكي أبو عامر ، دراسة في علم الاجرام والعقاب ، مصدر سابق ، ص ١٩٩ .

بطريقة تحترم القانون، وقد يرجع ذلك إلى اهمال التهذيب بسبب غياب أحد الوالدين (٢٤) . وهذه الحالة تسبب الحرمان العاطفي للأبناء ، ويؤثر هذا الحرمان بأشكاله على تجارب الفرد السابقة واللاحقة ، وقد توصل (برتون) و (وايتنك) إلى دليل مفاده إن الأبناء الذين يترعرعون في ثقافات حيث يكون الأب غائباً كثيراً ما يتعرضون إلى حالات ازدواجية وتناقض بخصوص دورهم الجنسي . ويظهرون اشكالاً مبالغاً بها من السلوك الذكري ، وبهذا الخصوص توصل بعض الباحثين في دراساتهم إلى ان الاجرام يزداد بين أبناء الاسر الخالية من الآباء(٢٥).وذلك لطغيان الميول العدوانية عند هؤلاء وتستمر معهم أثناء البلوغ (٢٦) . ولأجل التوقف على صحة هذه الفرضية فقد تناول الباحث ما يأتي : —

١ — فقدان احد الوالدين :

أ — الوفاة :

تبين من بيانات البحث ان ٤٤٪ من آباء المبحوثين متوفون و٣٢,٧٪ امهاتهم متوفيات.وللتعرف على مدى تأثير وفاة احد الوالدين في الأبناء حاولنا معرفة فيما اذا كان المبحوث طفلاً او بالغاً اثناء الوفاة . فقد تبين أن ٣١,٣ ٪ من المبحوثين كانوا اطفالاً عند وفاة احد الولدين ، و ١٨,٨ ٪ منهم كانوا في فترة المراهقة ، اي ان نسبتهم بلغت قبل البلوغ ٥٠,١ ٪ في الوقت الذي يضطلع الآباء بدور كبير في بناء شخصية الأبناء ، وخصوصاً في فترة الطفولة والمراهقة . وقد بلغ متوسط اعمارهم (١٥,٨) سنة .

ب — الطلاق :

تبين من نتائج البحث ان ١٤,٠ ٪ من المبحوثين ذكروا وجود حالة الطلاق بين الوالدين ، التي تؤدي إلى تعرض الأبناء لوضع غير طبيعي ، فبعد أن

(٢٤) آدوين هـ . سذرلاند ، مبادىء علم الاجرام ، مصدر سابق ، ص ٢٣٨ .

(٢٥) سونيا هانت ، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ، مصدر سابق ، ص ١٢٩ .

(٢٦) صباح حنا هرمز ، يوسف حنا ابراهيم ، علم النفس التكويني ، الطفولة والمراهقة، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، ص ١٩٣ .

كانوا يشعرون بالضمان والمحبة بين والديهم يجدون انفسهم فجأة موزعين بين الولاء للأم او للأب ، وهذا يخلق عدم الضمان العاطفي والنفسي والخوف والضياع ، فيتكون لديهم عقد نفسية اهمها الشعور بالنقص وقلة الضمان العاطفي ، وقد يسبب ذلك فشلهم في الحياة الاجتماعية وبالتالي يتعرضون إلى نتائج وخيمة ، وقد تصل إلى الانحراف السلوكي (٢٧) .

٢ ــ التنشئة الاجتماعية للأبناء :

تبين من بيانات البحث بأن ٣٨,٧ ٪ من المبحوثين ذكروا بان التنشئة الاجتماعية في اسرهم كانت مقتصرة على الأم فقط ، و ٣٣ ٪ اقتصرت على الأب ، اي ان ثلثي افراد العينة تعرضوا إلى تنشئة اجتماعية غير سليمة، وقد يرجع السبب إلى وفاة احد الوالدين او الطلاق ، واحياناً يكون السبب تعدد الزوجات ،فيكون تركيز واهتمام الأب على أبناء زوجة معينة دون الاخريات حيث تبين بأن ٣٤,٧ ٪ من آباء المبحوثين متزوجون لاكثر من مرة واحدة.

٢ ــ التمييز في المعاملة :

يميز بعض الأباء في تعاملهم مع ابنائهم ، فقد يخلق ذلك التمييز اثاراً نفسية في حياتهم الاجتماعية تؤدي إلى الاضطراب السلوكي ، وبهذا الصدد تبين من نتائج البحث بأن ٣٧,٣ ٪ من المبحوثين تعرضوا للتمييز في المعاملة من قبل الوالدين بينهم وبين اخوتهم، وان ٦٤,٧ ٪ منهم لم يتعرضوا لذلك . ومن جهة اخرى تبين أن ٤١,٣٪ من المبحوثين تعرضوا إلى المعاناة في طفولتهم وأن ٥٨,٧ ٪ منهم لم يتعرضوا .

نستنتج مما سبق بأن هذه الحالات جميعها وبتداخلها مؤشرات توضح بأن كثيراً من المبحوثين تعرضوا إلى حالة الحرمان العاطفي في طفولتهم فانعكست على حياتهم المستقبلية ، وبهذا نستطيع الوقوف على صحة الفرضية .

---

(٢٧) السيد محمد بدوي ، مدخل الى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية ، ١٩٨٤ ص٨٢ .

الفرضية الثالثة : الحالة الاقتصادية

ان الفقر والفاقة ونقص الموارد اللازمة لاشباع الإنسان من كل ما يعتقد ان له الحق فيه ، عوامل من الممكن ان تصبح اسباباً للجريمة (٢٨) .

فقد توصلت الدراسات الاجتماعية في اميركا إلى أن الانتماء الطبقي للاسر له أثر كبير في اختلاف الجرائم التي يرتكبها الأفراد (٢٩) . وللبحث في هذه العلاقة تناولنا ما يأتي : —

١ — المهنة :

حاولنا التعرف على طبيعة مهن المبحوثين من جهة وعلى مهن الوالدين من جهة اخرى لتشكل مؤشراً للظروف الاقتصادية التي عاشها المبحوثين قديماً وحديثاً ، حيث تبين من بيانات البحث ان ٤٨,٧٪ من المبحوثين عسكريون ، و٢٥,٣ ٪ منهم عمال غير مهرة ، وتأتي مهن اخرى متفرقة وبنسب متفاوتة.

أما آخر مهنة لأبائهم فكانت كما تبين في نتائج البحث اعمال غير مهرة ، وبنسبة ٤٤,٧ ٪ . و ٢١,٣ ٪ فلاحون ، و ٢٠٪ مهن فنية حرة ، و ٩,٣ ٪ موظفون وبهذا نستنتج ان اغلبية مهن الأباء كانت ذات مردودات مالية منخفضة ، مما يشير إلى مستوى اقتصادي متدن لاسرهم . وكذلك الغالبية العظمى من امهات المبحوثين هن ربات البيوت، وبنسبة ٩٧،٣٪ .

٢ — المدخولات الشهرية لاسر المبحوثين : —

من اهم المعايير التي بواسطتها نستطيع قياس المستوى الاقتصادي هو مجموع المدخولات الشهرية لاسر المبحوثين ، فتبين من نتائج البحث ان ٦٢,٧٪ من افراد العينة مدخولات اسرهم متدنية حيث تراوحت بين (٥٠ — ١٠٠) دينار ، و ٢٢,٧ ٪ منهم تراوحت مدخولات اسرهم من (١٠١ — ١٥٠)

---

(٢٨) محمود التوني ، علم الاجرام الحديث ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص١٧١ .

(٢٩) Donald Gilbert, Mckenley, Socail Class and Family life, the Free press, New york, Second printing. 1966, P . .267.

دينار ، و ١٤,٦ ٪ فقط كانت مدخولات اسرهم اكثر من (١٥١) دبناراً شهرياً. وبلغ متوسط دخل الاسرة (٩٠,٨) ديناراً شهرياً، وتبين من نتائج البحث إن أغلبية المبحوثين ليس لهم مورد من مصادر اخرى غير الراتب الشهري وبنسبة ٩٠,٧ ٪

٣ ـ حجم اسر المبحوثين : .

من الطبيعي ان المبحوثين عاشوا في اسر اصلية متباينة في حجمها، وقد توصل كل من (بوسارد واليانور) في دراستهما الى ان الاسر الكبيرة في بعض الاحوال اكثر عرضة للتصدع والانهيار لأن معظمها تمر بأزمات أقتصادية تؤدي الى الحرمان الأقتصادي لافرادها (٣٠) .

وقد تبين من بيانات البحث بأن ٤٥,٣ ٪ من المبحوثين عاشوا ضمن اسر يتراوح عدد افرادها من (٦-٩) . ٤و٤١٪ بلغ عدد افرادها اكثر من (١٠) . في حين من كان عدد افراد اسرهم اقل من (٦) بلغت نسبتهم ١٣,٣ ٪ فقط . وبهذا نستنتج ان اغلبية المبحوثين عاشوا ضمن اسر كبيرة الحجم . حيث بلغ متوسط عدد افراد الاسرة الواحدة (٣و٩) اشخاص. الأمر الذي حرم كثيراً من هؤلاء في اشباع احتياجاتهم الضرورية قبل بلوغهم ، حيث اجاب ٤١,٣ ٪ منهم بأنهم قد حرموا من اشباع احتياجاتهم كثيراً ، ٣٢٪ منهم احياناً .

وفيما يتعلق بالاسر التي كان المبحوثين مسؤولين عنها بعد الزواج يتبين ان ٦٩,١ ٪ من المبحوثين المتزوجين عدد افراد اسرهم أكثر من (٦) افراد، و ٣٤,١ ٪ منهم اكثر من (١٠) أفراد ، وبلغ وسيط عدد افراد الأسرة الواحدة (٨,١) شخصاً .

---

(٣٠) الدكتور سناء الخولي ، الاسرة والحياة العائلية ، مركز الكتب الثقافية ، مصر ، ١٩٨٤ ص ٢٣٠ .

٤ ـ طبيعة المسكن والمحلة :

تشير الدراسات السابقة الى ان المستوى الاقتصادي للاسرة يؤثر في اقبالها على الأقامة في مسكن حديث وصحي ، أو في مسكن ضيق ورخيص غير صحي (٣١) .

وللتعرف على طبيعة المسكن لاسر المبحوثين تناولنا مايأتي :

أ ـ عائدية المسكن :

تبين من نتائج البحث بأن ٥٣,٣ ٪ من المبحوثين عائدية مسكنهم ملك صرف ، و٤٠,٧ ٪ منهم ايجار ، وأن ٦ ٪ تعود مساكنهم للدولة .

ب ـ عدد غرف المسكن :

ظهر من نتائج البحث بأن ٣١,٣ ٪ من أفراد العينة تعيش اسرهم في مساكن تتكون من غرفة أو غرفتين . و ٤٨,٧ ٪ منهم تعيش اسرهم في مساكن تتكون من (٣ـ٤) غرف ، وبلغ متوسط غرف المسكن الواحد (٣,٧) غرفة .

جـ ـ نوعية المسكن(*) :

تبين من بيانات البحث ان ٥٠ ٪ منهم يعيشون في مساكن رديئة و ٣٠ ٪ في مساكن متوسطة الجودة ،في حين ان ٢٠٪ منهم فقط يعيشون في مسكن جيد .

د ـ طبيعة المحلة:

كشف الدراسات السابقة عن وجود علاقة بين المناطق السكنية والسلوك الاجرامي ، فتبين ارتفاع معدلات الجريمة في المناطق المتخلفة بالمدينة . تلك المناطق التي تحيط بالمناطق التجارية والصناعية ، ووسط المدينة ، وتكون مكتظة بالسكان ،وأحياناً تعيش اسرة كاملة في غرفة واحدة (٣٢).

---

(٣١) السيد رمضان ، الجريمة والانحراف ، مصدر سابق ، ص ١٤٣ .

(*) تم التعرف على نوعية المسكن والمحلة حسب تقدير المبحوث نفسه .

(٣٢) الدكتور محمد عاطف غيث ، المشكلات الاجتماعية والانحراف السلوكي .

وقد تبين ان ٥٤ ٪ من المبحوثين تقع مساكنهم في محلات رديئة ، و٣٤,٧٪ في محلات متوسطة الجودة ، في حين ١١,٣٪ تقع مساكنهم في محلات جيدة .

وفي ضوء ماتقدم نستطيع الوقوف على صحة الفرضية .

الفرضية الرابعة : التمسك بالقيم الريفية

تزداد معدلات الجريمة في المدينة وتتناسب مع سعتها وهي تضاهي الجريمة في الريف (٥- ١٠) مرات في نسبتها حيث تتعدد انواع الجريمة في المدينة وتكون محدودة في الريف (٣٣) . وهذا الأختلاف يرجع الى جملة من العوامل أهمها : العلاقات الاجتماعية العميقة والمتبادلة بين سكان الريف ، اذ تضطلع بدور مهم في حل خلافاتهم ،فضلا عن اختلاف طبيعة الريف والمهن السائدة فيه عما هو في المدينة (٣٤).وكذلك الأختلاف في المعتقدات السائدة في البيئة الاجتماعية المحيطة بالاسرة فتكون عاملا مساعداً على ارتكاب الجريمة (٣٥) .فغالباً ما تكون الجريمة بين افراد الريف بدافع الانتقام لشرف الاسرة ورد اعتبارها وهيبتها بين الاسر الاخرى.وذلك لسبب حكم بنائها وتكوينها وخضوعها للقيم التقليدية (٣٦) التي تكون الرغبات ،الاهداف المتفق عليها اجتماعياً والتي تدخل في عمليات التعلم والتنشئة الاجتماعية (٣٧) .

(33) Keith Davis and Robert L. Blomskrem, Busines and Socity Environment and Responssibility. Third Edition, Mc Graw, Hill Koga-Kusha, I.T.D. Tosho printing, Tokyo, Japan, p. 364.

(٣٤) الدكتور محمد زكي أبو عمر ، دراسة في علم الاجتماع والعقاب ، مصدرسابق، ص٢٢٤ .

(٣٥) الدكتور رمسيس بهنام ، علم الاجرام ، مصدر سابق ، ص ١٤٠ .

(٣٦) السيد علي شتا ، علم الاجتماع الجنائي ، مصدر سابق ، ص ١١٤

(٣٧) الدكتور غريب محمد سيد احمد ، علم الاجتماع الريفي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧١ .

وعموماً فالجرائم الناجمة بدافع القيم الاجتماعية تشمل القتل أخذاً للثأر والتي تعد عملية انتقام يقوم بها فرد أو أكثر . ويعد الأخذ بالثأر نشـاطـاً عاطفياً تحكمه قواعد اجتماعية معينة تؤثر في الحالة الادراكية للجاني ممـا يؤدي به الى التفكير جدياً في الاعداد والترتيب للقتل (٣٨) وللتعرف علـى دور القيم في دفع الفرد لارتكاب الجريمة تناولنا ما يأتي :ـ

١ــ محل الولادة والأقامة الحالية :

نلاحظ من نتائج البحث أن ٤٦,٦٪ من المبحوثين ولادتهم في الريف وان ٢٢,٧٪ منهم في مركز المحافظة .و ٢٠٪ في مركز قضاء ، و١٠,٧ ٪ في مركز الناحية . أما الأقامة الحالية للمبحوثين فقد تبين ان ٥٧,٣٪ منهم يسكنون المدينة ،و٢١,٣٪ في القرية ،و١٦ ٪ في مركز القضاء و٤,٧ ٪ في مركز الناحية ، ولهذا تبين من بيانات البحث ان ٢١,٣٪ من المبحوثيـن أجابوا بأن القيم الاسرية دفعت بهم الى ارتكاب جريمتهم مقابل ٧٨,٧ ٪ لم يذكر ذلك ومن ملاحظة بيانات البحث تبين بأن ٢٣,٣ ٪ اجابوا بأن أحد افراد الاسرة دفع بهم الى ارتكاب الجريمة مقابل ٧٦,٧٪ لم يذكر ذلك.

٢ ــ تبين بأن ٥٦,٣ ٪ من الجرائم التي ارتكبت تأثراً بالقيم الاجتماعية كانت في القرية ، ويليها ٢١,٩ ٪ في مركز الناحية ، ومن ثم ١٥,٦٪ في مركز القضاء ، وفي مركز المحافظة ٦,٢ ٪ .

نستنتج من البيانات المذكورة بأنه كلما ابتعدنا عن المدينة ازدادت الجرائم المرتكبة تأثراً بالقيم الاجتماعية بسبب الزيادة في قوة تأثير هذه القيم عـلى الفرد في الريف ، وضعف تأثيرها على الافراد في المدينة، ومن جهة أخرى أتضح من بيانات البحث أن ٢٠ ٪ من المبحوثين أجابوا بأن الدفاع عن الشرف كان السبب الرئيس لارتكابهم الجريمة .

وبهذا نستطيع ان نقف على صحة الفرضية .

(٣٨) الدكتور محمد ابراهيم زيد ، مقدمة في علم الاجرام والسلوك الاجرامي ، مصدر سابق ص٢٥٣ .

الفرضية الخامسة : المستوى التعليمي

تشير الدراسات السابقة الى وجود تلازم بين الأمية والأجرام ، اذ لوحظ ان الجرائم تكثر نسبتها عند الأميين ، وانهم اكثر عدداً في السجون من المتعلمين (٣٩) ، وللتعرف على المستوى التعليمي وعلاقته بارتكاب الجريمة ، تناولنا المستويات التعليمية للوالدين ومن ثم للمبحوثين .

١ ـ المستوى التعليمي للوالدين :

تبين من نتائج البحث إن أكثرية آباء المبحوثين اميون ، وكذلك الحال بالنسبة للامهات ، وبنسبة ٧٠٪ ، ٨٩,٣ ٪ على التوالي ، في حين بلغت نسبة من انهى الاعدادية والجامعة ٤,٣٪ من الآباء وانعدمت عند الامهات .

٢ ـ المستوى التعليمي للمبحوثين :

تبين بأن ٣٢ ٪ من المبحوثين اميون ، في حين من انهى التعليم الاعدادي بلغت نسبتهم ١٤,٧ ٪ ، ومن هنا نستنتج بأنه كلما ارتفع المستوى التعليمي قلت نسبة الجريمة . وبهذا نستطيع الوقوف على صحة الفرضية .

التوصيات

في ضوء النتائج يوصي الباحث بما يأتي :

١ ـ القاء المحاضرات واجراء الندوات للآباء عن طريق مجالس الشعب ومجالس الآباء والأمهات في المدارس ويشخص فيها مايأتي : ـ

أ ـ أفضل الطرق للتعامل مع أبنائهم .

ب ـ مضار سوء العلاقات الاجتماعية بين الوالدين وتأثيرها على الأبناء .

ج ـ مضار تناول المسكرات وآثارها على البيئة الاسرية .

---

(٣٩) الدكتور رمسيس بهنام ، علم الاجرام ، مصدر سابق ، ص ١٥٠ .
لم ننشر جداول البحث لاغراض تتعلق بالطبع والنشر .

د ـ آثار الطلاق على الأبناء .

٢ ـ تحديث المناطق القديمة في المدينة .

٣ ـ مساهمة الدولة في توفير المساكن الصحية للمواطنين .

٤ ـ تشديد الرقابة على المناطق القديمة في المدينة .

٥ ـ تغير اتجاهات الاسر الريفية التي تؤمن بالقيم السلبية كظاهرة الثأر وغسل العار والتركيز على الشباب ، وابداء التوعية بأن القانون يأخذ حقوقهم .

٦ ـ التوعية بأحكام القوانين لمختلف شرائح المجتمع ، وبمختلف قنوات الأتصال ذات العلاقة المباشرة بالمواطنين .

٧ ـ التوعية بمضار وآثار الجريمة على الاسرة والمجتمع .





المشكلات الاجتماعية للابناء القاصرين

دراسة ميدانية للقاصرين في محافظة نينوى

أحمد حسن حسين
مدرس مساعد ـ كلية الاداب
جامعة الموصل

صباح احمد النجار
مدرس مساعد ـ كلية الاداب
جامعة الموصل

المقدمة

القاصرون فئة تعرضت لعوامل جعلتهم يفقدون أحد والديهم أو كليهما وهم في مرحلة عمرية لاتؤهلهم للتصرف الواعي بما يحقق مصلحتهم ومصلحة المجتمع ، عليه ، جاءت اهمية الوصايا عليهم ، بغية توفير متطلباتهم وحل مشكلاتهم والحيلولة دون انجرافهم لمسلك الانحراف .

وجاء اهتمام الدولة بالقاصرين من خلال تشريع قانون رقم (٧٨) لسنة ١٩٨٠ ، الذي ينص على انشاء دوائر خاصة لرعاية القاصرين تقوم بمتابعة احوالهم ورعايتهم اجتماعياً ونفسياً وتربوياً واخلاقياً فضلاً عن المحافظة على اموالهم وتنميتها والدفاع عنهم عند ارتكابهم لفعل يعاقب عليه قانوناً ، ومتابعة الاوصياء عليهم .

على الرغم من وضوح جوانب القانون في اعلاه ، الأن القاصرين مازالوا يعانون من مشكلات اجتماعية تنبع من اسرهم واقربائهم فضلاً عن تلك التي تنبع من علاقاتهم بالأوصياء وبدار رعاية القاصرين ، وهذا ناتج عن قصور دور رعاية القاصرين على تنفيذ ماورد في القانون في اعلاه فضلاً عن قلة الكوادر العلمية المختصة ، وقلة الوعي الاجتماعي بأهمية دار رعايـــــة القاصرين بالنسبة للقاصرين واموالهم .

مشكلات البحث :

ان العناية بالقاصرين والاهتمام بشؤونهم لما يتميزون به من اهمية خاصة باعتبارهم فئة تعرضت لعوامل واسباب جعلتهم يفقدون كلا والديهم أو أحدهما وهم في مرحلة عمرية لاتؤهلهم للتصرف الواعي على نحو يحقق مصلحتهم ومصلحة المجتمع ، كان احد الاسباب التي دعتنا الى دراسة هذا الموضوع دراسة علمية متفحصة لمعرفة مايواجهونه من مشكلات على الصعيد الاسري والعلاقة مع الوصي فضلاً عما يواجهونه من مشكلات مع دائرة رعاية القاصرين في محافظة نينوى .

الهدف من البحث :

يهدف هذا البحث التوصل الى مايأتي :

- معرفة الظروف الاسرية والاجتماعية للابناء القاصرين .
- معرفة علاقات القاصرين واسرهم بالأوصياء
- معرفة المشكلات الاجتماعية التي يتعرض لها القاصرون في اسرهم ، والمشكلات التي تتعرض لها مع دائرة رعاية القاصرين في نينوى .

اهمية البحث :

تتجلى اهمية البحث في أنه يتناول موضوعاً في غاية الاهمية ، وقد وقف عند المشكلات الاسرية والاجتماعية للابناء القاصرين وطبيعة علاقاتهم مع الأوصياء ومع دائرة رعاية القاصرين، بهذا فانه يمهد السبيل لاجراء دراسات مماثلة للقاصرين في محافظات اخرى .

اجراءآت البحث :

منهج البحث : يعد هذا البحث من البحوث الوصفية التحليلية التي تعتمد على جمع الحقائق وتفسيرها لاستخلاص دلالاتها ، والمنهج المستخدم هو المسح الاجتماعي بطريقة العينة .

العينة : مما لاشك فيه انه ليس بامكان الباحث تغطية جميع عوائل القاصرين في محافظة نينوى ، لذا تم الاعتماد في تحديد حجم العينة على المعادلة الاحصائية الآتية :

$$ن م = \frac{ع^{٢}}{(ع س َم)^{٢}} \quad (١)$$

لو فرضنا ان الانحراف المعياري لمجتمع البحث = ٨,٤

ودرجة الدلالة = ±٢ وبمستوى الثقة ٩٩٪

$$حيث\ ان\ (ع س َم)^{٢} = \frac{٢}{٢,٥٨} = (٠,٨)^{٢}$$

$$فأن\ حجم\ العينة \quad \frac{(٨,٤)^{٢}}{(٠,٨)^{٢}} = \frac{٧٠,٦}{٠,٦٤} = ١١٠$$

وقد تم سحب مفردات العينة بمراجعة عناوينهم في اضابير دائرة رعاية القاصرين وبطريقة العينة العشوائية البسيطة ، حيث تمت مقابلة هـذه المفردات بمساعدة الباحثين الاجتماعيين في شعبة البحث الاجتماعي فـي الدائرة أعلاه .

مجالات البحث : امتدت فترة جمع البيانات من ١٩٨٨/٩/١ لغاية ١٩٨٨/١١/١٥ ، بعد ان تم تحديد موقع سكن القاصرين ضمن مدينة الموصل والتي تشكل مجالا مكانياً وبشرياً لهذا البحث .

اداة البحث : تم تصميم استمارة خاصة بموضوع البحث ، وتم عرضها على عدد من الخبراء (*) بغية التعرف على نواحي النقص فيها ، وزعت بعدها على «٢٥» قاصراً لغرض اختيارها اولياً .

Pretest حيث تم اجراء بعض التعديلات عليها واعدت بصيغتها النهائية لجمع البيانات– Pastest –هذا فضلا عن مراجعة الدراسات والأدبيات التي تناولت المشكلة .

الوسائل الاحصائية: :

النسب المئوية

الوسط الحسابي

الانحراف المعياري

اختبار مربع كاي

تحديد المفاهيم :

المشكلة الاجتماعية : تظهر المشكلات الأجتماعية كنتائج لعمليات التغير الاجتماعي غير المتجانسة لاختلاف القيم والمعايير والانماط السلوكية قبل وبعد هذه العمليات مما يخلق نمطاً متعارضاً من القيم والممارسات يؤدي الى الصراع بين القديم والجديد .

وتعرف المشكلة الاجتماعية ، على انها ، اية موقف بحاجة الى تغيير من الحالة التي هو عليها الى حالة افضل (٢) عليه ، انها ظاهرة اجتماعية مرتبطة بموقف اجتماعي غير مألوف يتطلب تغييراً لما هو افضل .

القاصر : يعرف القاصر قانوناً، بالصغير والجنين ومن تقر المحكمة انه ناقص الاهلية أو فاقدها، والغائب، والمفقود، الااذا دلت القرينة على خلاف ذلك(٣)

والقاصر لاغراض هذا البحث .هو الطفل المشمول برعاية دائرة القاصرين لحرمانه من الرعاية الاسرية بسبب فقدان أحد الأبوين أو كليهما نتيجة للطلاق أو الهجر ، أو الموت أو السجن .

(*) السيد زيد عبد الكريم — مدرس — كلية الاداب — جامعة الموصل
السيد محمد ياسين — مدرس — كلية التربية — جامعة الموصل
السيد عبد الله مرقص — مدرس — كلية الاداب — جامعة الموصل
السيد مدير دار رعاية القاصرين—نينوى

الخصائص الديموغرافية والاجتماعية للقاصرين :

١ ـ **الجنس** : يتضح من الجدول (١) أن ٥٤,٦ ٪ من مفردات العينة هم من الذكور و ٤٥,٤٪ منهم اناث .

٢ ـ **العمر** : يعد العمر متغيراً بالغ الاهمية لان القاصرين يتوزعون الى فئات عمرية مختلفة ، وكما تشير بيانات الجدول (٢) فأن ٢,٧ ٪ من القاصرين اعمارهم اقل من سنة وان ١٣,٦ ٪ منهم تقع اعمارهم ضمن الفئة [١ ـ ٤] سنة و ٢٥,٤٪ منهم تقع اعمارهم ضمن الفئة [٥ ـ ٨] سنة و ٢٧,٤ ٪ منهم اعمارهم تتراوح بين [٩ ـ ١٢] سنة و٣٠,٩ ٪ من القاصرين تقع اعمارهم بين [١٣ ـ ١٦] سنة .

وبلغ الوسط الحسابي لاعمار القاصرين ٩,٣ سنة بانحراف معياري قدره ٤,٤ سنة .

٣ ـ **الخلفية الأجتماعية** : نقصد بالخلفية الاجتماعية ، الانحدار الأجتماعي للقاصرين والتي يتحدد بموجبها سلوكية القاصر وانماط علاقاتها الاجتماعية حيث يتبين من الجدول (٣) ان القاصرين ينحدرون من شرائح اجتماعية مختلفة وبواقع ٢٨,٣٪ من خلفية اجتماعية مهنية و ٣٦,٣ ٪ من خلفية اجتماعية عمالية و ٢٠ ٪ من خلفية اجتماعية فلاحية و ٢٦,٣ ٪ من خلفية اجتماعية وظيفية .

٤ ـ **حجم الاسرة** : تتأثر الظروف الأسرية بما في ذلك وظائفها الأساسية بحجم الاسرة ،حيث تشير بيانات الجدول (٤) الى أن الوسط الحسابي

لحجم أسر القاصرين هو ٥,٨ فرداً وبانحراف معياري قيمته ٢,٨ فرداً ، وبلغ نسبة الأسر المنتمية الى فئة [١ – ٣] فرداً ٢٠,٩ ٪ ومن [٤ – ٦] فرداً ٤١,٨ ٪ومن [٧ – ٩] فرداً ١٤,٥ ٪ ومن [١٠ – ١٢] فرداً ١٢,٧ ٪ .

٥ – **مهن الوصايا** : تعد المهنة من المتغيرات التي تؤثر في امكانية الفرد وقابليته على اداء الأدوار المنوطة به : فغالباً ما يؤثر اداء دور معين يتطلبه مركز الفرد في ادواره الاخرى أو يعيقه في انجاز التوقعات الخاصة بتلك الأدوار .

عليه ، ان المكلفين بالوصايا وحسب نتائج الجدول (٥) يعملون في اعمال تتطلب منهم توقعات تأخذ القسط الأكبر للتوقعات المخصصة لادوارهم الاخرى ، وهذا يؤثر في طبيعة الرعاية التي يقدمها الوصي الى القاصر ، ويوضح الجدول ان ٩ ٪ من الاوصياء يعملون في مهن وظيفية و ٤٥,٤ ٪ منهم ربات بيوت و ١٦,٤٪ ينتمون الى السلك العسكري و ٢٣,٦٪ منهم يعملون في مهن حرة و ٥,٦ ٪ منهم في مهن مختلفة .

استناداً لما سبق ، نجد ان ٤٥,٤٪ من الأوصياء هم من النساء (امهات القاصرين) ويرجع السبب في ذلك الى اعطاء حق الوصاية للأم في حالة فقدان الأب وخاصة في حالات الاستشهاد والفقدان .

٦ – **الدخل الشهري لأسر القاصرين** : يعكس الدخل الشهري المستوى المعاشي لأسر القاصرين ، وعلى الرغم من أن المستوى المعاشي والمؤشرات المرتبطة به لا يُحدده الدخل الشهري فحسب ، الا انه يعد العامل المهم في تحقيق الحاجات الضرورية وخاصة الاساسية منها والكمالية للأسرة .

عليه ، فأن مدى كفاية الدخل لمتطلبات أسر القاصرين ضرورة

تفرضها واقع حال هذه الاسر ، وخاصة تلك التي تفتقر الى مصادر اخرى للدخل ، حيث ان التغير الاجتماعي وما افرزته من متطلبات جديدة على صعيد الحاجات الأسرية وارتفاع الاسعار أدت الى تعرض بعض الاسر الى ضغوط اقتصادية .

والجدول (٦) يوضح ان ٣٣,٧ ٪ من أسر القاصرين دخلهم الشهري أقل من ١٠٠ دينار و ١٦,٣ ٪ منهم دخلهم الشهري يتراوح بين [١٠٠ ــ ١٤٩] ديناراً و ١٩٪ منهم يقع دخلهم ضمن الفئة [١٥٠ــ ١٩٩] ديناراً و ١٠,٨ ٪ منهم يتراوح دخلهم الاسري بين (٢٠٠ ــ ٢٤٩) ديناراً و ٨,٢ ٪ منهم يتراوح دخلهم بين [٢٥٠ ــ ٢٩٩] ديناراً و ١١,٨ ٪ منهم يقع ضمن الفئة [٣٠٠ دينار فأكثر].

وبلغ الوسط الحسابي للدخل اسر القاصرين ١٦٣,٨ ديناراً بانحراف معياري قدره ٥٩,٧ ديناراً .

ويوضح الجدول (٧) مدى كفاية دخل اسر القاصرين لمتطلباتهم حيث اكد ٣٨,١٪ من أسر القاصرين ان دخلهم الشهري يسد الحاجات الخاصة بأسرهم و ٦١,٨ ٪ منهم اكدوا ان دخلهم الشهري لايسد نفقات اسرهم .

والملاحظ ان ٦١,٨ ٪ من الاسر لايكفي دخلها الشهري لتلبية حاجاتهم ، لمحدودية دخلهم ولغلاء المستوى المعاشي ، مما يخلق انعكاسات سلبية على حياة القاصر واستقرار اسرته .

٧ ــ **ملكية السكن** : يتضح من الجدول (٦) أن متوسط الدخل الشهري لاسر القاصرين هو ١٦٣,٨ ديناراً واوضح ٦١,٨٪ من أسر القاصرين «ينظر الجدول ٧» ان الدخل الشهري لايسد متطلبات أسرهم ، عليه أن جزءاً من عدم كفاية الدخل الشهري للأسر يرجع سببه الى المبالغ التي تخصصه اسر القاصرين للأيجار ، والتي تؤثر على ميزانية الأسرة

ويتضح من الجدول (٨) أن ٦, ٦٣ ٪ يسكنون بيوتاً مؤجرة و ٤, ٣٦٪ يسكنون بيوتاً يملكونها .

٨ - **المستوى التعليمي** : يؤثر المستوى التعليمي للقاصر على طبيعة علاقاته الأجتماعية مع افراد اسرته والوصي عليه ومن ثم الجماعات المرجعية التي يرتبط بها ، ومن بيانات الجدول (٩) يتضح ان ٦, ٢٣ ٪ من القاصرين أميون و ٥, ٤٦٪ منهم في مرحلة الدراسة الابتدائية و ٥, ١٥ ٪ منهم في المرحلة المتوسطة و ٥, ١٤ ٪ منهم في المرحلة الثانوية .

المشكلات الاجتماعية للابناء القاصرين

تظهر المشكلات الاجتماعية عند الفرد عندما تختل الاساليب والموازين التي تحدد مجالات تفاعله مع المجتمع المحلي والجماعات المرجعية التي ينتمي اليها ، والقاصرون شريحة اجتماعية لها مشكلاتها الخاصة التي سنتطرق اليها بعد استقصاء الحياة الاجتماعية للقاصر والتي تشمل التنشئة الاجتماعية وعلاقته بالوصي ودور دار رعاية القاصرين في حل المشكلات التي تعترضه من خلال الزيارات الميدانية للباحثات الاجتماعيات ، والمساعدات المادية والمعنوية التي يمكن أن تقدمها .

وتضطلع الأسرة بدور اساس في عملية التنشئة الاجتماعية لأبنائها وذلك برعايتهم وتوفير مطاليبهم وحاجاتهم المادية والروحية والعاطفية ، لكن تعرض الأسرة الى التصدع ، بهجر أحد الوالدين أو وفاته يؤثر في قيام الأسرة بهذه الوظائف وقد تنتابها الخلل وتتعرض الى التفكك ، وتتعدى آثارها حينئذ نطاق الأسرة الى المجتمع . ومن المشكلات الاجتماعية للابناء القاصرين :

أ - **الخلافات الأسرية** :

يتضح من بيانات الجدول (١٠) أن ٣, ٥٧ ٪ من القاصرين يعانون من خلافات أسرية و ٧, ٤٢ ٪ منهم لايعانون منها وان كثيراً من تلك المشكلات

نجمت عن عدم توافق الأخوة في علاقاتهم مع بعضهم البعض وعدم الانسجام في التصرف بميزانية الأسرة أو بعض ممتلكاتها غير المنقولة .

ب- سوء التوافق الاجتماعي للقاصر واخوته :

يتضح من الجدول (١١) أن ٥١,٨ ٪ من القاصرين يعانون من سوء علاقاتهم الاجتماعية مع اخوتهم مما يعرضهم الى مشكلات معهم ، وان ٤٨,٢ ٪ منهم لايعانون من ذلك .

وبعد اجراء اختبار مربع كاي لم يظهر فرق معنوي بدلالة احصائية بين القاصرين الذكور والاناث في تعرضهم أو عدم تعرضهم لسوء التوافق الاجتماعي مع بعضهم البعض .

ان ترك القاصر يتعرض للمشكلات مع اخوانه دون مساعدته في حلها من قبل بقية افراد الاسرة ، أو الوصي أو دائرة رعاية القاصرين ، يجعله في موقف يلجأ فيه الى الانخراط في جماعات الزمر لقضاء حاجاته النفسية والاجتماعية .

والزمرة اطار اجتماعي ينمو فيه الحدث القاصر ويتعرض للمواقف الاجتماعية التي قد تسبب له صعوبات من شأنها ان تضايقه أو تسبب له شعوراً بعدم السعادة أو تكسبه خبرات جديدة تساعده على التفاعل مع مجتمعه المحلي .

ج- تدخل الاقارب في شؤون اسر القاصرين :

يعد تدخل الاقرباء في شؤون القاصرين واسرهم مشكلة تواجه اسر القاصرين ، ويأتي تدخلهم بصورة عامة في أسر الشهداء والمفقودين وذلك للحق القانوني الذي يتمتعون به من مكرمة الشهيد وتركته ، وتبدأ بوادر المشكلة من عدم التوافق بين اهل الشهيد من جانب واسرته من جانب آخر ، وكثيراً ماتحول تلك المشكلات الى المحاكم الخاصة للنظر فيها ، كما يتدخل اقرباء القاصرين في امور حياتهم اليومية بحجة وجود صلة الدم بينهم وبين الشهيد «وخاصة والدي الشهيد واخوته» وهذا من شأنه خلق حالة من التوتر النفسي

وعدم الاستقرار الاسري للقاصر واسرته ، ويتضح من الجدول (١٢) أن ٧٠,٩ ٪ من اقرباء القاصرين يتدخلون في شؤون اسرهم و ٢٩,١ ٪ منهم اكدوا ان اقربائهم لايتدخلون .

د ـ آثار عدم كفاية الدخل الشهري . :

اتضح من معطيات الجدول (٧) ان ٦١,٨ ٪ من اسر القاصرين دخلهم الشهري لايسد نفقاتهم ، وهذا من شأنه ان يترك آثاراً سلباً على تلك الأسر ، ويتضح من بيانات الجدول (١٣) ان ٣٠,٩ ٪ من اسر القاصرين يضطرون الى تشغيل اطفالهم القاصرين للحصول على دخل اضافي لأسرهم وغالباً ما يسلك هؤلاء الكسب من البيع بالمفرد في الشوارع العامة في حين أن ٢٣,٥ ٪ من الاسر تبيع بعض الحاجات المنزلية بغية توفير مبلغ مالي لموازنة حياتهم اليومية وأن ١٩,١ ٪ منها تلجأ الى بيع الممتلكات الخاصة بها كالسيارة أو العقار بعد الحصول على موافقات خاصة من دار رعاية القاصرين وان ٢٦,٥ ٪ منها تلجأ الى الأستدانة من الاقرباء ، وهذا يسهل السبيل لهؤلاء بالتدخل في شؤونهم الاسرية ، ان جميع هذه العوامل تؤثر سلباً في اسر القاصرين ؛ حيث ان العلاج الوقتي بتوفير دخل اضافي للأسرة وفقاً لما ذكرناه يؤثر في حياة الاسرة واستقرارها فضلاً عن اثر ذلك في حياة القاصر وسلوكه ، حيث ان لجوءه المبكر للعمل يعلمه انماطاً سلوكية غير سوية .

هـ ـ صلة الوصي بالقاصر وطبيعة معاملته له :

تعتمد معاملة الوصي للقاصر على صلته به ، فالوصي الام تعامل ابنها على نحو يختلف عن معاملة الوصي العم أو الخال أو أحد الأقرباء ، نتيجة لهذا الأختلاف ، يختلف رد فعل القاصر تجاه جهة ونمط المعاملة بتباين الدرجة القرابية للوصي ، فالوصي العم ، لايتوقع في معاماته للقاصر التوقعات نفسها التي يمكن أن تظهر في معاملة الوصي الأم لأبنها القاصر ، فقد يعامل الوصي العم القاصر بقسوة لأرتكابه خطأً ، في حين تلجأ الوصي الأم الى النصح والارشاد لمعالجة هذا الخطأ ، وذلك لأرتباط تعاملها بغريزة الأمومة .

والجدول (١٤) يوضح صلة الوصي بالقاصر ،حيث اتضح أن ٦, ٤٤ ٪ من القاصرين كُلفت امهاتهم بالوصاية عليهم، و ٧, ٢٢ ٪ منهم كُلف اخوانهم و ٦, ١٣ ٪ كُلف أعمامهم و ٩, ١٠ ٪ كُلف جدودهم بالوصاية عليهم في حين أن ٢, ٨ ٪ منهم كُلف خوالهم بمهمة الوصاية عليهم.

وفيما يتعلق بطبيعة معاملة الوصي للقاصر ، يتضح من معطيات الجدول (١٥) أن ٢٩٪من الأوصيا٪ يعاملون القاصرين بقسوة و ٢١ ٪منهم يعاملونهم باللين و ٢, ٢٨ ٪ يعاملونهم بتقديم الأرشاد والتوجيه لهم و ٥, ١٤ ٪ ينبهون القاصرين على اخطائهم و ٣, ٧ ٪ منهم يهملون القاصرين ويتركونهم دون رعاية تذكر .

و- القاصر والجماعات المرجعية :

١ - دار رعاية القاصرين :

لدار رعاية القاصرين باعتباره أحدى الجماعات المرجعية للقاصر دور كبير في تنمية شخصية القاصر، وارشاد اسرته لزيادة الاهتمام به ورعايته ويتجلى ذلك من خلال الزيارات الميدانية التي يقوم بها قسم البحث الاجتماعي لأسر القاصرين بغية التعرف على حاجاتهم المادية والمعنوية ، والعمل على حل مشكلاتهم الاجتماعية والتربوية التي يعانون منها ، ويتضح من الجدول (١٦) مدى تلقي أسر القاصرين لزيارات قسم البحث الاجتماعي في دائرة رعاية القاصرين، حيث يتضح من الجدول أن ٣٤,٥ ٪ من القاصرين يتلقون زيارات قسم البحث الاجتماعي وان ٤, ٦٥ ٪ منهم لايتلقون هذه الزيارات .

وان طبيعة زيارات القسم المذكور اتسمت بطابعين هما الزيارات المنتظمة وغير المنتظمة ، وهذا ماتوضحه معطيات الجدول (١٧) حيث أن ١, ٤٢ ٪ من القاصرين الذين تلقوا زيارات من قسم البحث الاجتماعي أفادوا أن طبيعة هذه الزيارات كانت منتظمة وأن ٩, ٥٧ ٪ منهم أفادوا بأنها غير منتظمة .

وهذا يرجع الى قصور دار رعاية القاصرين في هذا المجال حيث أن المحافظة على أموال القاصر مع ترك القاصر دون رعاية تذكر ، لايمكن ان تحقق الرسالة الانسانية التي انشئت الدار من أجلها .

ولا يقتصر دور دائرة رعاية القاصرين على الزيارات فقط ، بل يتعداه الى تقديم الارشادات المختلفة لأسر القاصرين وتختلف طبيعة هذه الارشادات بأختلاف مجالاتها ، فمنها ما تتعلق بالأسرة وانفاق المدخول وبالوصي ومنها ما تتعلق بتنظيم اوقات القاصرين وسبل قضاء اوقات فراغهم ويتضح من الجدول (١٨) أن ٨٧،٧ ٪ من القاصرين اكدوا بأنهم يتلقون ارشادات من دائرة رعاية القاصرين تتعلق بأمورهم الأسرية وعلاقاتهم مع اخوانهم ، واوضح ٥٥،١ ٪ منهم ، انهم تلقوا ارشادات تتعلق بالأنفاق وتحديد الميزانية اليومية للأسرة ، وبين ٤٤،٨ ٪ من القاصرين أن طبيعة هذه الأرشادات كانت تتعلق بتنظيم علاقاتهم مع الوصي والأخذ بتوجيهاته ، في حين أن ٣٠،٦ ٪ اكدوا بأن الارشادات كانت تتعلق بتنظيم اوقاتهم ومعرفة سبل قضاء اوقات فراغهم .

٢ ـ مشكلة الفراغ والترويح :

يعد الفراغ ضرباً من ضروب المطالب الفردية وهو يرتبط بأشباع الذات وتنمية القدرات والمواهب الفنية والابداعية وخاصة اذا استغل بممارسة انشطة تساعد على تقديم سلوك الفرد ويتبين من معطيات الجدول (١٩) أن ٧٩ ٪ من القاصرين يقضون اوقات فراغهم في المنزل ، وان ٤١،٨ ٪ منهم يقومون بزيارة الاقارب في اوقات فراغهم ، وأن ٣٦،٣ ٪ من القاصرين يقضون اوقات فراغهم بزيارة مدينة الالعاب مع ذويهم وان ٣٠ ٪ منهم يقضونها في مشاهدة برامج التلفزيون واللعب مع اصدقائهم .

وبما ان القاصرين يمثلون مراحل عمرية يجعلهم في مواقف يرغبون فيها للانتماء الى جماعات (كالاصدقاء في منطقة السكن او اصدقاء في

المدرسة ، ويعتمد انتماء القاصر لهذه الجماعات على مدى سماح الوصي له أو عدم سماحه ، والجدول (٢٠) يبين ان ٤٩٪ من الأوصياء يسمحون للقاصرين باللعب مع اقرانهم و ٣٢،٨ ٪ منهم لايسمحون و ١٨،٢ ٪ منهم يسمحون لهم احياناً بالانتماء الى جماعات اللعب .

استناداً الى ذلك فان القاصرين لايستغلون اوقات فراغهم بنحو يساعد على تنمية انماط سلوكية سوية لديهم او تنمي قابلياتهم الفردية ،ويرجع السبب في ذلك الى قلة توفر أماكن تسلية خاصة بهم أولمن في مراحلهم العمرية في مدينة الموصل .

أما الأسباب التي تجعل الأوصياء لايسمحون للقاصرين بالانتماء الى جماعات اللعب ،فيتضح من الجدول (٢١) حيث أكد ٣٨،٩ ٪ من القاصرين ان اوصياءهم لايسمحون لهم بالأنتماء الى جماعات اللعب خوفاً عليهم من رفاق السوء ، وان ٦١،٢ ٪ منهم ارجعوا السبب الى اهتمام الأوصياء بهم لحثهم على رفع مستواهم العلمي .

«نتائج البحث»

١ ــ ان الاحداث ينتمون الى أسر كبيرة الحجم حيث ان الوسط الحسابي لحجم أسر القاصرين كان ٥،٨ فرداً بانحراف معياري قدره ٢،٨ فرداً .

٢ ــ ان ٥٠ ٪ من أسر الأحداث ينتمون الى أسر قليلة الدخل نسبياً حيث يقعون ضمن الفئة أقل من ١٠٠ دينار ــ ١٤٩ دينار ، وان الوسط الحسابي للدخل الشهري لأسر القاصرين بلغ ١٦٣،٨ ديناراً بانحراف معياري قدره ٥٩،٧ ديناراً .

٣ ــ ان ٥٧،٣ ٪ من القاصرين يعانون من خلافات اسرية ناتجة عن عدم التوافق بينهم وبين اخوتهم في شؤون الأسرة .

٤ ـ ان ٥١,٨ ٪ من القاصرين يعانون من سوء العلاقة الأجتماعية بينهم وبين اخوتهم .

٥ ـ ان ٧٠,٩ ٪ من اقرباء القاصرين يتدخلون في شؤونهم الاسرية .

٦ ـ أن غالبية الأوصياء على القاصرين هم من الامهات وجاءت نسبتهن ٤٤,٦ ٪ . في حين يأتي الاخ والعم والجد والخال بنسب متفاوتة .

٧ ـ ان ٢٩ ٪ من اولياء القاصرين يعاملونهم بقسوة و ٢١ ٪ يعاملونهم باللين و ٢٨,٢ ٪ بالأرشاد والتوجيه و ١٤,٥ ٪ يعاملونهم بتنبههم على اخطائهم.

٨ ـ أن ٣٤,٥ ٪ من القاصرين يتلقون زيارات من دار رعاية القاصرين و ٦٥,٥ ٪ منهم لايتلقون .

٩ ـ أن القاصرين يعانون من مشكلة الفراغ والترويح حيث ان ٧٩ ٪ منهم اكدوا انهم يقضون تلك الاوقات في المنزل .

١٠ ـ ان ٤٩ ٪ من الاوصياء لايسمحون للقاصرين بالانتماء الى جماعات اللعب ، وان الاسباب ترجع الى الخوف على القاصر وجعله يهتم بدروسه .

توصيات البحث

بعد عرض نتائج البحث ، نوصي متخذي القرار بشؤون القاصرين بما يأتي :

١ ـ التقصي عن احوال اسر القاصرين المادية وتقديم المساعدة لمن هم بحاجة اليها .

٢ ـ العمل على حل المشكلات التي تنجم عن سوء التوافق بين القاصر واخوته عن طريق الباحثين الاجتماعيين والنفسانيين والمرشد التربوي في مدرسة القاصر .

٣ ـ العمل على وقاية القاصر واسرته من تدخل الأقارب في شؤونهم بأصدار تعليمات واحكام قانونية .

٤ ـ على الوصي اتباع الاساليب التربوية السوية في التعامل مع القاصر وينبغي عليه ان يكون على اتصال تام بالباحثين الاجتماعيين في دار رعاية القاصرين لطلب المساعدة .

٥ ـ الاعتماد على زيارات منتظمة للقاصرين واسرهم من قبل دار رعاية القاصرين لتقديم الارشادات لهم ولمعرفة مشكلاتهم .

٦ ـ العمل على استغلال اوقات فراغ القاصرين وتنمية قابلياتهم ومواهبهم عن طريق بعض المنظمات الخاصة بالفتوة والشباب .

٧ ـ تعزيز دور الباحثين الاجتماعيين في دار رعاية القاصرين في نينوى لتمكينهم من القيام بمسؤولياتهم نحو القاصرين على اتم وجه .

٨ ـ خلق التعاون بين دائرة رعاية القاصرين والمنظمات الجماهيرية بغية التعرف على مشكلات القاصرين واسرهم ، وتقديم الحلول المناسبة لها .

المصادر

الحسن . احسان محمد (الدكتور) و زيني ، عبد الحسين (الدكتور) **الاحصاء الأجتماعي** . مطابع جامعة الموصل ١٩٨١ ص ١٦٧ .

معجم العلوم الاجتماعية .نخبة من الأساتذة المصريين ،الهيئة العامة للكتاب ص٥٤٧ .

قانون رعاية القاصرين ٧٨ لعام ١٩٨٠ .

الملاحق

جدول (١) توزيع القاصرين حسب الجنس

الجنس	العدد	٪
ذكر	٦٠	٥٤,٦
أنثى	٥٠	٤٥,٤
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٢) توزيع القاصرين حسب الفئات العمرية

الفئات العمرية	العدد	٪
اقل من سنة	٣	٢,٧
١ـ٤	١٥	١٣,٦
٥ـ٨	٢٨	٢٥,٤
٩ـ١٢	٣٠	٢٧,٤
١٣ ـ ١٦	٣٤	٣٠,٩
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٣) يوضح الخلفية الأجتماعية للقاصرين

الخلفية الاجتماعية	العدد	٪
مهنية	١٩	١٧,٣
عمالية	٤٠	٣٦,٣
فلاحية	٢٢	٢٠
وظيفية	٢٩	٢٦,٤
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٤) حجم أسر القاصرين

حجم الاسرة	العدد	٪
١ــ٣	٢٣	٢٠,٩
٤ــ ٦	٤٦	٤١,٨
٧ــ٩	٢٧	٢٤,٥
١٠ــ١٢	١٤	١٢,٨
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٥) يوضح مهن الأوصياء

مهن المكلفين بالوصايا	العدد	٪
مهن وظيفية	١٠	٩
ربات بيوت	٥٠	٤٥,٤
مهن عسكرية	١٨	١٦,٤
مهن حرة	٢٦	٢٣,٦
مهن اخرى	٦	٥,٦
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٦) الدخل الشهري لأسر القاصرين

الدخل الشهري	العدد	٪
اقل من ١٠٠	٣٧	٣٣,٧
١٠٠ ــ ١٤٩	١٨	١٦,٣
١٥٠ــ ١٩٩	٢١	١٩
٢٠٠ ــ ٢٤٩	١٢	١٠,٨
٢٥٠ ــ ٢٩٩	٩	٨,٢
٣٠٠ــ فأكثر	١٣	١١,٨
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٧) كفاية الدخل الشهري

كفاية الدخل	العدد	٪
يكفي	٤٢	٣٨,٢
لا يكفي	٦٨	٦١,٨
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٨) ملكية سكن أسر القاصرين

ملكية السكن	العدد	٪
ملك	٤٠	٣٦,٤
ايجار	٧٠	٦٣,٦
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٩) المستوى التعليمي للقاصرين

المستوى التعليمي للقاصر	العدد	٪
امي	٢٦	٢٣,٦
ابتدائية	٥١	٤٦,٤
متوسطة	١٧	١٥,٥
ثانوية	١٦	١٤,٥
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١٠) الخلافات في أسر القاصرين

الخلافات	العدد	٪
هناك خلافات	٦٣	٥٧,٣
لاتوجد خلافات	٤٧	٤٢,٧
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١١) تعرض القاصرين لسوء التوافق الاجتماعي مع اخوانهم

سوء التوافق	الذكور		الاناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
يتعرض	٣٢	٥٣,٣	٢٥	٥٠	٥٧	٥١,٨
لايتعرض	٢٨	٤٦,٦	٢٥	٥٠	٥٣	٤٨,٢
المجموع	٦٠	١٠٠	٥٠	١٠٠	١١٠	١٠٠

جدول (١٢) تدخل الأقارب في شؤون القاصرين

تدخل الأقارب	العدد	٪
يتدخلون	٧٨	٧,٩
لا يتدخلون	٣٢	٢٩,١
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١٣) آثار عدم كفاية الدخل الشهري لـ ٦٨ أسرة

آثار عدم كفاية الدخل الشهري	العدد	٪
لجوء القاصر للعمل	٢١	٣٠,٩
بيع بعض الحاجات المنزلية	١٦	٢٣,٥
بيع بعض الممتلكات	١٣	١٩,١
الاستدانة من الاقرباء	١٨	٢٦,٥
المجموع	٦٨	١٠٠

جدول (١٤) صلة الوصي بالقاصر

الصلة	العدد	٪
الأم	٤٩	٤٤,٦
الاخ	٢٥	٢٢,٧
العم	١٥	١٣,٦
الجد	١٢	١٠,٩
الخال	٩	٨,٢
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١٥) طبيعة معاملة الوصي للقاصر

طبيعة المعاملة	العدد	٪
القسوة	٣٢	٢٩
اللين	٢٣	٢١
الارشاد والتوجيه	٣١	٢٨,٢
التنبيه	١٦	١٤,٥
الاهمال	٨	٧,٣
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١٦) تلقي أسر القاصرين لزيارات قسم البحث الأجتماعي

الزيارات	العدد	٪
يتلقون	٣٨	٣٤,٥
لا يتلقون	٧٢	٦٥,٥
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (١٧) نوع الزيارات للقاصرين الذين تلقوا زيارات من قسم البحث الاجتماعي

نوع الزيارات	العدد	٪
منتظمة	١٦	٤٢,١
غير منتظمة	٢٢	٥٧,٩
المجموع	٣٨	١٠٠

جدول (١٨) ارشادات دار رعاية القاصرين

نوع الارشادات	ت	العدد	٪
ارشادات تتعلق بالأسرة	١	٤٣	٨٧,٧
إرشادات تتعلق بالانفاق	٢	٢٧	٥٥,١
ارشادات تتعلق بالوصي	٣	٢٢	٤٤,٨
ارشادات تتعلق بوقت الفراغ	٤	١٥	٣٠,٦

جدول (١٩) اوقات فراغ القاصرين وسبل استغلالها

السبل	ت	العدد	٪
في المنزل	١	٨٧	٧٩
في زيارة الأقارب	٢	٤٦	٤١,٨
في مدينة الالعاب	٣	٤٠	٣٦,٣
في مشاهدة التلفزيون	٤	٣٣	٣٠

جدول (٢٠) يبين مدى سماح الوصي للقاصر بالانتماء الى جماعات اللعب

مدى السماح	العدد	٪
يسمح	٥٤	٤٩
لا يسمح	٣٦	٣٢,٨
احياناً	٢٠	١٨,٢
المجموع	١١٠	١٠٠

جدول (٢١) الأسباب

الاسباب	العدد	٪
خوفاً على القاصر من رفاق السوء	١٤	٣٨,٩
لجعل القاصرين يهتمون بدروسهم	٢٢	٦١,١
المجموع	٣٦	١٠٠



دور المكتبة المركزية بجامعة الموصل
في رفد عملية التعليم المستمر

امير محمد صادق الرواس
مـدرس
المكتبة المركزية لجامعة الموصل

المقدمة

المطلوب ان تكونوا نموذجيين في الجانب التربوي وفي العدالة والرؤية الشمولية للانسان .

الرئيس القائد

التعليم المستمر عبارة عن ثورة صامتة تعد المجتمع بشكل جديد للمشاركة في الحياة العلمية والسياسية والديمقراطية ومجتمع الادارة الذاتية .ومنذ القديم كان الفلاسفة والخطباء يعقدون حلقات الدراسة في ساحات اثينا او على المنصة في روما، وكان الاسلام الحنيف اول من دعا إلى التعليم المستمر وإلى التعليم مدى الحياة عندما اشار القرآن الكريم بقوله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، وقوله «اقرأ باسم ربك» والحديث الشريف «طلب العلم فريضة» و «اطلب العلم من المهد إلى اللحد».وفي المساجد والجوامع عقدت الحلقات والندوات والمناظرات وتلك كانت وسيلة التعليم المهمة لديهم.

وفي العصر الحديث تعد التربية الحديثة هي تلك التي تحمل خصائص العصر ومتغيراته لتساعد ابناءها لان يعيشوا روحية العصر وان لا يعيشوا عصوراً خلت واحداثاً أنقضت.لذا وجب ان يكون التعليم الحديث محافظاً ومجدداً معاً محافظاً على هوية المجتمع واصالته وقيمه ، ويكون بنفس الوقت انعكاساً لافضل ما في العصر من متغيرات .

وقد اصبح عالم الجامعات متقبلا وبصورة مؤكدة لفكرة التعليم المستمر وقد رصد في حساباته الاحتياجات العملية التي تحتاجها هذه العملية .

وجامعة الموصل اسهمت ومازالت شأنها شأن بقية الجامعات في هذا المضمار بوسائلها المتعددة ومنها المكتبة المركزية التي اعدتها ودعمتها لتكون رافداً من روافد التعليم المستمر . وقد تعرضت بالبحث لمعنى ومفهوم التعليم المستمر ودور الجامعات العالمية والعربية فيه وتناولت دور المكتبات الجامعية في رفد هذه العملية .وتعرضت لبعض انشطة المكتبة المركزية بجامعتنا بهدف ابراز دورها واسهامها في التعليم المستمر مستخدماً الاسلوب الوصفي المستند على الاحصائيات. للخروج بتوصيات حرصت على ان تكون ضمن واقعية ونطاق عملية التعليم المستمر .

التعليم المستمر ... مفهومه ومعناه

لعملية التعليم المستمر ارتباط واضح بالعقل الانساني الذي يعد طاقة من اعظم الطاقات اذا ما وجهت بالشكل الصحيح ، لذا كان التعليم المستمر يهتم بتنمية مواهب الفرد ومساعدته على فهم نفسه ، وما يمتلك من امكانيات بالعمل على توسيع افاق ادراك الفرد من اجل ان يسخرها لخدمة معينة .

والتعليم من الناحية اللغوية يقصد به — التوكيد — الكشف — المعرفة — كيفية استخدام المعرفة — اكتساب المعرفة او المهارة (١).فالتعليم هو التربية مدى الحياة او التنمية المنظمة والانضاج للعقل والملكات الفطرية ، ولاشك ان العلاقة وثيقة بين ما يقصد بالتعليم وما يقصد بالذكاء الذي عرف بانه المقدرة على التعليم .

ويمكن ان نقول ان التعليم المستمر معناه اتاحة فرص تعليمية مستمرة للفرد طوال مسيرة حياته يؤدي حتماً إلى تنمية جميع افراد المجتمع وتطويرهم

(١) كيد ، ج .ر : كيف يتعلم الكبار : ترجمة احمد خاكي ، ط ٢ . بغداد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٤ . ص ٢٣ — ٢٤ .

ليتمكنوا من تكييف انفسهم مع المتطلبات الحضارية ، وهو بعبارة اخرى خطط تعليمية ومنظمة تساعد الفرد على تحمل مسؤولياته الفردية والاجتماعية ، او هو نمو مستمر للخبرات في الاتجاهات المنشودة (٢).وقد قدم «لوفوجيل» تعريفاً للتعليم المستمر اتفق على مضمونه المختصون في منظمة اليونسكو عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، حيث ان التعليم المستمر او التربية المستمرة في صيغتها العامة مفهوم يتضمن الاعداد الشامل للانسان طبقاً لمسلك تربوي يستمر طوال حياته ويستدعي نظاماً كاملا يتصف بطبيعته المتسقة المتوحدة ويقدم الوسائل المناسبة التي تستجيب للتطلعات التربوية والثقافية لكل فرد بالشكل الذي يتوافق مع قدراته (٣) . وقد جاء في كتاب «تعلم لتكون Learning to be » الذي اعدته اللجنة الدولية لتطوير التعليم ضرورة تركيز المناشط التعليمية حول المتعلم من اجل اكتساب مزيد من الحرية كلما نما حرية لنفسه يقرر بنفسه ما يريد ان يتعلم وكيف واين يتعلم (٤) .

اما اللجنة الاستشارية للمجلس الاوربي فقد عرفت التربية المستمرة في اجتماعها في ١٩٧٢/١٠/٢٠ بأنها كل الطرق المتوفرة للانسان من طفولته الباكرة حتى شيخوخته ، وتعني ايضاً نظاماً كاملاً متكاملاً ومنسقاً لمواجهة الطموحات الثقافية والتربوية لكل فرد على ضوء استعداداته وامكانياته ، وتمكين كل فرد من تطوير شخصيته خلال سنوات حياته عن طريق نشاطات العمل والترويح المتوفرة لديه (٥) . وبهذا يكون التعليم المستمر في مفهومه

---

(٢) الحميدي ، عبد الرحمن سعد : حاجة التعليم العالي في البلدان العربية للاخذ بسياسة التعليم المستمر . مجلة اتحاد الجامعات العربية ، عدد متخصص (٢) ، ص ٤٤٦ .

(٣) محمد ، داود ماهر : التعليم المستمر ، الموصل ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ص ١٨ .

(٤) السيد ، محمود احمد : نموذج منهاج لاعداد معلم المدرسة الابتدائية ليؤدي وظيفة مزدوجة في تعليم الصغار والكبار . مجلة التربية الجديدة م/ ١٥ . ع : ٤٤ ، آب ١٩٨٨ ، ص ٢٤ .

(٥) توق محيي الدين واخرون : برامج الجامعات في اطار التعليم المستمر ، الجهاز المركزي لمحو الامية وتعليم الكبار ، ندوة خبراء لدراسة امكانية قيام الجامعة العربية المفتوحة ، عمان / الاردن ، ١٩٧٩ ، ص ٨٨ .

الواسع عاملاً قوياً من عوامل نمو الامة يمكنها من مجاراة المنافسة الدولية. وهو بنفس الوقت ضروري للمجتمعات ايا كان نوعها وذلك للاسباب الاتية :-

١- ان مبادىء العلوم والتقنية في حالة غير مستقرة وهي تتجه إلى التغيير السريع ومما يصاحب ذلك تغيير في الاساليب الاقتصادية والاجتماعية والقيم الثقافية والعلاقات الاجتماعية.

٢- قد يتعرض الفرد إلى احباطات سريعة اذا ما وجد نفسه غير قادر على ملاحظة التغييرات السريعة في مبادىء العلوم، مما يؤثر على مجتمعه في القيم وطرائق الحياة وما يلاحظه من تقادم مهارات العمل لديه مما يهدد الاتزان النفسي عنده، وبهذا يكون التعرف على الاثار السلبية الممكنة الحدوث نتيجة التغييرات ومواجهتها باساليب مختلفة من طرق التعليم المستمر.

٣- ان التقدم السريع يهدد البنى الاجتماعية التي يتفاعل معها الفرد بالتحلل والزوال في نطاق العائلة او العمل او الجماعات الصغيرة، لذا فان التعليم المستمر من وسائل اتقاء هذا الهدم الاجتماعي.

٤- تعاني الانظمة التربوية التقليدية من قصور وعجز ونقص شديد في قدراتها على اعداد الافراد لحياة منتجة فاعلة في وجه التغييرات السريعة في علوم العصر وتطوراتها.

٥- ارتفاع مستويات تكلفة التعليم مما لا تتحمله قدرة الفرد الاقتصادية.

٦- يتميز التعليم المستمر بالمرونة والتنوع في المحتوى وادوات واساليب ووقت المتعلم.

٧- ان مفاهيم التعليم المستمر اختيارية في جوهرها.

٨- ان نشاطاته متصلة تماماً مع ما يمارسه الفرد من اعمال في مجالات الحياة.

٩- ان الاتصال الفعال ضروري جداً للتعليم المستمر لان الفرد يتعلم من

خلاله وتنساب المعرفة والمهارات بين الافراد ولان الفرد يشعر من خلال الاتصال بانه «ينجز» ومن خلال ذلك يعكس احتياجاته .

الجامعات والتعليم المستمر

مما لا شك فيه ان الجامعة تعد شريكاً نشيطاً ومسؤولاً في تطوير واعداد الطرق المتعلقة بالتعليم المستمر واساليبه . لا سيما ان عالم الجامعات آمن بصورة متزايدة بالفكرة وغدت موضع اهتمام المؤتمرات الدولية التي تعقد من قبل اليونسكو والمنظمات الدولية كمنظمة التعاون الاقتصادي ، ومؤتمر عمداء الجامعات الاوربية والرابطة الدولية للجامعات ، واتحاد الجامعات العربية ، وتبادلت الجامعات في تلك الاجتماعات المعلومات والحوار حول الخطوات العديدة التي اتخذت بهذا الصدد . وقدمت الدراسات النقدية للنتائج مما يظهر ان الجامعات تتجه برغبة في اتجاه المشاركة بدور فعال في عملية التعليم المستمر مدى الحياة ، ولكن على اسس مدروسة .

يقول « ادغارفور» في هذا المفهوم « ان التعليم العالي ليس هو بالارستقراطي الكنه اسقاط للجامعة على الحياة وليس كما قيل ان الجامعة ستصبح منفصلة عن الامة بل ان الجامعة هي الامة تعلم وتتعلم» (٦) .

وفي تقرير نشر عام ١٩٨٣ تحت عنوان «امة معرضة للخطر» عن التعليم في امريكا تمكنت لجنة مشكلة بأمر من وزير التعليم الامريكي وبرئاسة تيريل بل Terrel Bell من نشر تقرير نقداً للخطط والنظم والمناهج التعليمية في امريكا . وقد اظهر هذا التقرير من خلال اختبارات المقارنة بين طلبتهم وطلبة ١٩ دولة صناعية اخرى انهم يحتلون المكانة الاخيرة في المستوى الاكاديمي . كما اشار التقرير الى ان اكثر من نصف

---

(٦) ادغار فور : فلسفة الاصلاح الجامعي ، ترجمة هشام ذياب ، دمشق ، مطبعة دمشق ١٩٧٣ ، ص ٨٢ .

الطلبة الموهوبين لايحققون مستوى تحصيلياً في المدارس يتفق مع ماأظهرته الاختبارات حول قدراتهم (٧) .

وحاول كل من تقرير لجنة روبن ١٩٦٣ في بريطانيا وتقرير لجنة كارنجي في الولايات المتحدة الامريكية تحديد حدود مشتركة حول اهداف التعليم على الرغم من اختلاف المجتمعات الانسانية ، فقد حدد تقرير روبن اربع وظائف للتعليم العالي هي : —

(١) التدريب المهني للافراد ذوي المستوى العالي.(٢) تنمية مهارات وقدرات التفكير عند الافراد. (٣) تنمية وتطوير المعلومات والمعارف الجديدة . (٤) الحفاظ على الثقافة الوطنية والقومية .

وواضح ان هذه الوظائف تتفق واهداف التعليم المستمر على الرغم من ان تقرير روبن تجاهل هدفاً آخر هو خدمة المجتمع Commuinity Serviec وحددت لجنة كارنجي وظائف قريبة هي :

١) توفير الافكار والتقنيات الجديدة وتطويرها .

٢) البحث عن المواهب وتدريبها وتوجيهها للاستفادة منها بأقصى درجة ممكنة .

٣) اغناء المعلومات وفهم المعطيات الحضارية والفرص المتوفرة للجمهور والاستمتاع بها (٨) .

وقد اثار التعليم المستمر اهتمام الجامعات في العالم . وفي الولايات المتحدة الامريكية اعدت الجامعات نفسها في وقت مبكر وادت لمجتمعاتها خدمات لاتحصى في هذا المجال في الستينات ، ففي عام ١٩٦٣ عقد نحو ٦٠,٠٠٠ مؤتمر في الولايات المتحدة لمناقشة التعليم المستمر ، وكان هناك

---

(٧) الراوي ، مسارع حسن : تربية المتفوقين عقلياً في البلاد العربية بين المبدأ والتطبيق، مجلة التربية الجديدة م، ١٥ ع : ٤٤ اب ١٩٨٨ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

(٨) توق ، محيي الدين واخرون ، المصدر السابق ص ١٠٤ — ١٠٥ .

٨٥ مركزاً لتعليم الكبار وعلى مستوى الجامعة عقد احد هذه المرا كنز ٩٠٠ حلقة للنشاط والمناقشة حضرها اكثر من ١٢٠ الف مواطن نوقشت فيها مواضيع مختلفة (٩) . وتتجه الولايات المتحدة الان الى مايسمى بالجامعة الالكترونية Electronic Univ.

وفي انكلترة اعلنت تشريعات قيام الجامعة المفتوحة في ١٩٦٩ وبدأت الدراسة فيها عام ١٩٧١ . وتأسست عام ١٩٧٢ الجامعة الوطنية للتعليم عن بعد في اسبانيا تحت اشراف وزارة التربية والعلوم ، وفي استراليا تأسست جامعة دبكن سنة ١٩٧٤ لتضم معهد جوردن التقني . لكلية ولاية فكتوريا التي اسست اصلا لتوفير التعليم الجامعي عن بعد . وفي الباكستان تم انشاء جامعة باكستان المفتوحة عام ١٩٧٤ . وفي اليابان تعد الجامعات مسؤولة تجاه بعض القضايا الاجتماعية الكبرى مثل تدريب المعلمين والتربية المهنية والصناعية وتطوير المكتبات وتطوير بعض اساليب التقنيات .

جامعات الوطن العربي

وفي الوطن العربي كان التعليم العالي حديث النشأة حيث انشئت اولى جامعاته عام ١٩٠٣ وهي الجامعة السورية وثاني جامعاته هي جامعة القاهرة التي انشئت عام ١٩٠٨ ، وبعد هذا التأريخ بثلاثين سنة انشئت جامعة الاسكندرية عام ١٩٣٨ ، ثم توقف المد التعليمي العالي بعدها عقدين من الزمن تلاها تحرك سريع خلال العقود الثلاثة الاخيرة عندما افتتحت في مختلف اقطار الوطن العربي العديد من الجامعات والمعاهد العالية والمتوسطة حتى بلغ عددها الان ٦٣ جامعة و ٣٢٠ معهداً متوسطاً فضلا عن عدد من المعاهد العالية .

---

(٩) مرسي ، محمد عبد العليم : التعليم العالي ومسؤولياته في تنمية دول الخليج العربي ، دراسة تحليلية تربوية لاعمال الندوة الفكرية الاولى لرؤوساء ومديري الجامعات الخليجية ٤ — ٧ يناير ١٩٨٢ ، الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٥ ص ٩٩ .

وهذا يعني ان التعليم العالي يتميز بالحداثة في الوطن العربي وانه نشأ معاصراً فأخذ من النظم التعليمية التي سبقت خلاصة تجاربها ومعاناتها، وبذلك يعد متطوراً منذ ولادته (١٠). وعن التعليم العالي يقول الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «التعليم العالي بما هو اعداد القيادات الفنية والتنظيمية والسياسية القادرة وبما هو قاعدة للبحوث العلمية والدراسات الفكرية هو قمة السلم التعليمي فهو مجتمع المعرفة الذي يقوم على مد المجتمع بأسباب التقدم والتطور في كل مجالات الحياة وهو مصدر القدرات التنموية علمياً وعملياً». كما يورد تقرير استراتيجية تطوير التربية العربية تحت عنوان تطوير التعليم العالي «ان مستقبل الامة العربية في المدى القريب والبعيد على السواء يتوقف على هذا التعليم باعتباره السبيل الى اعداد القوى البشرية المتخصصة ومجال توليد الفكر واعداد الباحثين والقادة في مجالات العمل والانتاج واداة تجديد الثقافة». وهكذا فان ربط تطور المجتمع وتقدمه بتطور وتقدم التعليم العالي حقيقة موضوعية وليس شعاراً او مبالغات لابراز دور هذا التعليم في حياة المجتمع وجعله قائداً لتقدمه (١١).

وفي الاونة الاخيرة غدت القدرة الاستيعابية للجامعات العربية عاجزة تقريباً امام الاعداد المتزايدة من الطلبة الراغبين في دخول التعليم الجامعي، هذا مع العلم اننا اذا ماقارنا نسبة الملتحقين بالتعليم الجامعي في الوطن العربي بما هو في الدول المتقدمة نجدها قليلة نوعاً ما، حسب احصائية اليونسكو لعام ١٩٨٤ التي تشير الى ان عدد الملتحقين بالتعليم الجامعي من كل ١٠٠،٠٠٠ نسمة في الولايات المتحدة ٥٤١٩ وفي الاتحاد السوفيتي

---

(١٠) رحمه، انطوان: سياسة تطوير التعلم العالي في الوطن العربي، ندوة سياسة تطوير التعليم العالي في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٦ – ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٥، دمشق، ١٩٨٥. ص ٢٨.

(١١) نفس المصدر السابق ص ٢٩.

١٩٧٢ وفي بريطانيا ٣١٤٨ وفي فرنسا ٢٠١٢ وفي المانيا الغربية ٢٣٧٨ وفي اليابان ٢٠٧٠ في حين انها في الوطن العربي ٨٢٦ طالباً فقط (١٢) .

أن الارقام التي اوردناها تظهر مايعاني منه الوطن العربي على مستوى التعليم الجامعي . علماً ان للتعليم العالي سلبياته التي يمكن ان نشخص منها مايأتي : —

أ — ان التعليم الجامعي مازال يقوم على « الرسالة» التي يعد فيها المدرس المادة المرسل لها بمحاضرته مدعومة ببعض الكتب والمراجع في حين يكون الطالب هو المستقبل فقط دون مشاركة فاعلة في العملية التعليمية

ب — ان النسبة عكسية في التعليم الجامعي بين عدد الطلبة الملتحقين بالجامعات وعدد الاساتذة مما يلقي على كاهل الاستاذ الجامعي عدداً من المحاضرات قد تكون اكثر من طاقته ومن بعد فأنها تؤدي الى تقليل فرص الاتصال المباشر بين الاستاذ والطالب .

جـ — مازال التعليم الجامعي لايراعي قدرات الطالب ومواهبه بدقة او قدرات ذوي القدرة الاستيعابية العالية مما يعمل على حصر الطاقات الأبداعية وعدم فسح المجال امام المبدعين بانهاء دراستهم بمدة اقل .

د — ان المناهج الدراسية تعد لحد الان قاصرة عن ملاحقة التطورات التقنية في العالم .

هـ — ان قبول الطالب الجامعي تتحكم فيه اعتبارات قد تجعلهم مرغمين على دراسة تخصصات دون رغباتهم ومواهبهم .

ان من اهداف الجامعات العربية التأثير على المجتمع ورعايته على مختلف الاصعدة بأعتبارها الاداة الفاعلة في طبيعة المجتمع وتطوره وذلك عن طريق الطلبة والاساتذة والانشطة الجامعية المختلفة التي تصدر عنها ، لذا كان واجباً عليها ان تحمل من ذاتها مجتمعاً علمياً متماسكاً ومتجانساً

---

(١٢) محمد ، داؤد ماهر ، نفس المصدر ص ٩٠ .

تتحقق فيه القيم والاهداف المرسومة لها من اجل ان يكون يخرجها عاملا فاعلاً على رفع المحيط الى المستوى الافضل (١٣) .

ويجب ان تبني الجامعات جسوراً بينها وبين المجتمع في مجالات متعددة على الاخص المجالين الصناعي والزراعي من اجل معالجة الفجوة العلمية والتكنولوجية التي يعاني منها الوطن العربي . ويعتبر التعليم المستمر من الوسائل الفعالة في دفع الجامعات العربية للوصول الى الأهداف والمستويات التي تبغي الوصول اليها ،وقد عقدت عدة ندوات وحلقات دراسية وقدمت بحوث مختلفة عن تجارب وممارسات ارست اسس للتعليم المستمر في الجامعات العربية .

فقد عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ندوة خبراء لدراسة امكان قيام الجامعة العربية المفتوحة في عمان (الاردن) للفترة من ٢٥ — ١٩٧٩/١١/٢٩ ، قدمت فيها دراسات متعددة في اتجاه تحقيق عملية التعليم المستمر للكبار . كما عقد مكتب التربية العربي لدول الخليج ندوة التعليم العالي عن بعد للفترة من ٢ — ٩ /١٩٨٦/١١ في المنامة (البحرين) ركزت فيها الدراسات على مشروع الجامعة المفتوحة عرضت فيها تجربة جامعة القدس المفتوحة وجامعة الامارات العربية في برنامج الانتساب الموجه . وانعقدت الندوة العربية للتعليم المستمر في اذار ١٩٨٧ في بغداد ، قدمت الجامعات العربية من خلال البحوث المتخصصة تجاربها في عملية التعليم المستمر ومنها جامعة اليرموك وجامعة الاردن وجامعة الكويت والامام محمد بن سعود وجامعة الخرطوم وجامعة الجزيرة في السودان وجامعات الارض المحتلة في فلسطين كذلك جامعة بغداد والمستنصرية والجامعة التكنولوجية

---

(١٣) القيس ، كمال : الجامعة بين الفكر والتنمية ، ورقة عمل مقدمة الى الندوة الفكرية الأولى لرؤوساء ومديري الجامعات في الدول الاعضاء بمكتب التربية العربي لدول الخليج ، البحرين ، ٤ — ٧ يناير ١٩٨٢ ط ٢ مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٥ ، ص ٣٤٠ .

والموصل والبصرة وصلاح الدين . كما عمدت مؤخراً جامعة بغداد بالتعاون مع الجامعات العراقية ومؤسسة المعاهد الفنية وتحت شعار مقـولـة الـرئيس القائد « الجامعات ليست مركزاً للتعامل مع الموجود ، انما هي مـر كـز للبحوث والتصور الذي ينقل الموجود الى حالة افضل» المؤتمر القطري الأول للتعليم المستمر للفترة من ٢١ ـ ١٩٨٩/٢/٢٣ .

وقد تبين ان الجامعات تتفاوت في نشاطاتها وتختلف في اساليبهـا فـي الوطن العربي نحو المجتمع بنسب مختلفة واساليب متعددة، لامجال للدخول في تفاصيلها في هذا البحث . الا اني لم اجد فيها مايشير الى اهمية المكتبات والخدمات التي تقدمها في رفد عملية التعليم المستمر الا ماجاء لماماً وفي سياق الكلام . مع انها تعد وسيلة الجامعات في الوقت الحاضر للوصول الى اهدافها في خدمة المجتمع ورفع المستوى العلمي والتعليمي فيها ، لذا كان لابد مـن القاء الضوء على دور المكتبات الاكاديمية والجامعية في هذه العملية ومـن خلال ماتقدمه المكتبة المركزية لرفد عملية التعليم المستمر في جامعتنا ودعمها.

المكتبة الجامعية ودورها في التعليم المستمر

يعد بعض المؤرخين في مجال المكتبات بداية التنظيم المهني الحـديـث لمهنة المكتبات هو عام ١٨٥٣ في امريكا حين انعقد مؤتمر المكتبيين والدارسين والاساتذة في مدينة نيويورك ليعلن للجمهور ان الوظيفة المتميزة للمكتبة هي تجميع استخدام الكتاب وتنظيمه وتنشيطه وان هناك اساليب فنية خاصـة يجب اتباعها للقيام بهذه الوظيفة بنجاح .

ومن بعد فهناك حاجة الى ان يجتمع امناء المكتبات بعضهم مع بعـض لتدارس كيفية القيام بالخدمة المكتبية بكفاءة ونجاح ، بعد ذلك وفي ايلول من عـام ١٨٧٦ صـدر اول عـدد من مجـلة المكتبـات الامريكيـة American Library Journal وعمـل ملفل ديوي ـ صاحب تصنيف ديوي العشري الشهير ـ مدبراً لتحريرها اضافة الى واحـد وعشريـن مـن

الامناء المتميزين ، ثم تشكلت الجمعية الامريكية للمكتبات نهاية عـــام ١٨٧٦ (١٤) .

ومنذ ذلك الوقت احتلت المكتبات والمعلومات مكانها الطبيعي في خدمة التطور التعليمي والعلمي والصناعي المعاصر وعلى اسس منهجية علمية سليمة. ويرى لانكستر Lancaster ان هناك عدة مستويات اساسية لتقويم اي نوع من الخدمات في المكتبات الحديثة المعاصرة وهي :

أ ـ تقويم الفاعلية Effectiveness

ب ـ تقويم فاعلية التكلفة Cost-Effectiveness

جـ ـ تقويم العائد Benefit

د ـ تقويم عائد التكلفة Cost Benefit (١٥)

كما ان تقويم المكتبة الجامعية يهدف اساساً الى تزويد ادارة المكتبة بالمعلومات والتحليلات النقدية Critical analysis لبرامج المكتبة وعملياتها ويقدم التوصيات اللازمة لاتخاذ القرارات المناسبة، مثل هذا التقويم قد يكون مفيداً من عدة نواح كما يراه Leyle

١) مساعدة اعضاء هيئة التدريس في اكتشاف المشكلات لكل من المكتبة وعملية التدريس .

٢) تقديم المعلومات اللازمة لاعداد برنامج لمواجهة احتياجات المستقبل .

٣) تقديم المعلومات اللازمة للمسؤولين في الجامعة والتي تتعلق بمشكلات المكتبة وكلفة حل تلك المشكلات (١٦) .

ولتقويم مجموعة اية مكتبة حديثة ومعرفة مستوى ادائها وماتقدمه من خدمات للمستفيدين هناك طريقتان : ـ

---

(١٤) بدر ، احمد ؛ مقدمة في علم المكتبات والمعلومات / مع دراسة خاصة عن مكتبات الكويت الكويت ، مؤسسة الصباح ، ١٩٧٩ ، ص ٩٩ .

(١٥) تمراز ، احمد علي : القياس والتقويم للمجموعات المكتبية ، دراسة في فلسفة الأساليب بين النظرية والتطبيق . مكتبة الادارة م ، ١٥ ع ٢ نيسان ١٩٨٨ ، ص ١٢٣ .

(١٦) Lyle G. : The Administration of College Library, 4 th. ed. N.Y. Wilson, 1974 P. 273.

أ ــ الطرق الكمية Quntitative Methods

ب ــ الطرق النوعية Qualtative Method

وتعد الطرق الكمية من الاساليب العلمية الدقيقة التي تستخدم للوصول الى كفاءة المكتبة الجامعية والخدمات التي تقدمها . الا ان لانكستر حذر من محاولة مقارنة مجاميع المكتبة المختلفة على اساس الحجم المطلق او على اساس عدد المجلدات Vol. Perstudent ، كما ان نسبة معدل النمو Percentage Rate of Growth تقدم وحدها صورة غير متكاملة عن نوعية المجموعة ومدى فائدتها في تقديم خدمات المعلومات ، ويؤكد كل من Glapp and Jordan ان مجموعات المكتبة الاكاديمية ينبغي ان تكون من الحجم بحيث تساند البرامج الدراسية ويمكن قياس ذلك بعدة عوامل :ــ

١ ــ عدد الطلبة المسجلين في الكلية او الجامعة enrolled وتصنيفهم طلبة دراسات عليا واولية .

٢ ــ عدد اعضاء هيئة التدريس ومدى اسهامهم في البحوث .

٣ ــ عدد الطلبة المتميزين Honor Students

٤ ــ عدد برامج الماجستير

٥ ــ المناهج الدراسية وعدد الاقسام

٦ ــ عدد برامج الدكتوراه (١٧)

ويمكن ان نضيف إلى ذلك سرعة الاستجابة لحاجة المستفيدين وقناعتهم بالخدمة المكتبية وسبل الانتفاع من موجوداتها من المواد الثقافية او ما يعرف بمدى دقة خدمات المعلومات Information Services التي تعني تقديم المعرفة تقديماً منظماً ليستفيد منها من يرغب في تطوير افكارهم

(١٧) تمراز ، احمد علي : المصدر السابق ص ١٣٣ – ١٣٥ .

ومعارفهم العلمية والثقافية والاجتماعية . ان مقارنة المؤشرات هذه تكون نتيجتها الحتمية هي مسايرتها للاهداف المرسومة للمكتبة الجامعية التي من اهدافها ضمان التكوين المستمر لمنتسب الجامعة والتعليم المستمر للمجتمع الذي تخدمه الجامعة بكافة فئاته .

انشطة المكتبة المركزية في التعليم المستمر

للتعليم المستمر اساليب متعددة وبرامج متنوعة يمكن ان تساهم الجامعة من خلالها ممارسة ودعم هذه العملية وتنفيذها لمنتسبيها اولا تدريسيين وطلبة ومجتمعها المحيط بها ثانياً، لتأكيد الاهداف المتوخاة من عملية التعليم المستمر والمحافظة على مستوى معاصرة منتسبيها للتغيرات السريعة والمتلاحقة الجارية في العالم للتقنية وبقية العلوم ومساهمتها الفاعلة في التأثير على المجتمع كلا والعمل على رفع مستواه وكفاءة فاعليته عملياً .

ومن الاساليب المتبعة في برامج التعليم المستمر : —

١ — المناهج الدراسية : التي لابد ان تتطابق مع اهداف الجامعة في خدمة المجتمع الذي تنبثق منه .

٢ — المحاضرة : التي تحتاج دائماً لما يعرف بالمختبر التعليمي Learning Labrotary

٣ — التدريب : وله اشكال متعددة منه التدريب الاساسي وتدريب الادامة وتدريب تحديث المعلومات والتدريب لمواجهة التغيرات الكبيرة ، والتدريب للاعداد لمواجهة المستقبل ومنه ما هو تعريفي او تطويري في اثناء العمل ومنه ما هو خارج اوقات الدوام ولكل من هذه مستلزماتها .

٤ — الدورات القصيرة والمؤتمرات والنشاطات : وتعمل هذه على توسيع افق الفرد وتوفير الفرصة لتجديد المعلومات التي سبق ان اكتسبها والاستفادة من الخبرات ومنها حاجته للانتماء عندما يلتقي الفرد مع زملائه من العاملين في اعلى حقل . وقد وضع هذا النشاط في اعلى

القائمة في دراسة اعدتها Stone عن العاملين في حقل المعلومات من نشاطات التعليم المستمر (١٨) .

٥ـ الاعارة والزيارات : وهي الالتحاق بمؤسسات اخرى من اجل نقل الخبرة ، واطلاع الاختصاصيين على مؤسسات متناظرة .

٦ـ البحوث والمقالات : لان الجامعة هي المكان الامثل للبحث العلمي ولقيام بحوث علمية رصينة ، ويؤكد D.C.Weber ان البحوث والمقالات هي النشاط التطويري الاساسي في حين يؤدي تقوقع العاملين وعدم الحركة إلى التخلف والتفكير المحدود .

٧ـ نظام للمعلومات : ذلك لاسناد النشاطات التي ذكرناها خاصة البحوث والمقالات ومجالات خدمة المجتمع والزيارات والدورات والتدريب . لان هذه لابد ان تستند على نظام للمعلومات يفترض ان يكون قائماً للاستفادة منه لاغراض البحث والاسترجاع التي يمكن ان تتم استجابة لرغبة المستفيدين على ان يغطي جميع السبل الممكنة للاتصال به .

ان الانشطة التي اوردناها من انشطة التعليم المستمر هي اهم النشاطات التي تمارسها الجامعات ومنها جامعة الموصل في هذا المجال ، ولجامعة الموصل نشاطات متعددة ومنذ سنوات في جميع هذه الممارسات وعلى المجتمع المحيط بها . وللمكتبة المركزية دور مهم وفاعل في رفد هذه العملية ودعمها وتهيئة مستلزماتها ذلك من خلال مختلف الانشطة التي ساهمت فيها مساهمة مباشرة او غير مباشرة او من خلال مقتنياتها وامكاناتها المتوفرة فيها ، او المتخصصين العاملين على تيسير نشاطاتها وفق الاسس العلمية الممكنة الخاصة بتقديم المعلومات او توفيرها وتهيئتها .

ان نظرة إلى الجداول الاتية التي تبين نشاطات المكتبة المركزية ومساهماتها

---

(18) Ston, E.W.: Factors related to professional development of Librarieans; Scarecrew press, 1969, P. 193.

في مجال دعم عملية التعليم المستمر على الرغم من امكاناتها المحدودة ويمكن ان نشير إلى اهم تلك الانشطة (١٩).

١) لدعم عملية التدريس والمناهج الدراسية وتحقيق المستوى العلمي الذي تسعى اليه الجامعة ساهمت المكتبة المركزية عن طريق تعزيز مجاميعها من المواد الثقافية لتصل إلى ما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ مطبوع بزيادة لعام ١٩٨٨ فقط — مع قلة تخصيصاتها المالية — قدرها ١٢٩٨ مطبوعاً باللغة العربية و٢٧٧٥ مطبوعاً بلغات غير العربية فضلا عما مجموعه ٣٠٥ اعداد دورية عربية و ٤٥٨٤ عدد دورية بلغات غير العربية حصلت عليها عن طريق الشراء والاشتراك يضاف اليها ١٠١١ مطبوعاً باللغة العربية و ٤٠٣ مطبوعات بلغات غير العربية و١١١٦ عدد دورية عربية و ١٥١٧ عدد دورية بلغات غير العربية حصلت عليها بوساطة الاهداء والتبادل مع الجامعات والمؤسسات العلمية المتناظرة كان ضمنها عدداً من الكشافات والمستخلصات ، حرصت المكتبة ان تكون جميع هذه المجاميع مما يشكل اضافات جديدة من اجل تحديث المعلومات المقدمة لاغراض البحث العلمي — انظر الجدول رقم (١).

٢) ان اعداد الاعارة والمستفيدين من مجاميع المكتبة من وسائل قياس أداء المكتبة في خدمة المستفيدين وتزويدهم بالمعلومات التي تساعد على البحث العلمي وتعزيز عملية التعليم التي هي احدى وسائل التعليم المستمر . فقد بلغ عدد المراجعين للمكتبة المركزية لعام ١٩٨٧— ١٩٨٨ فقط (٣٩٣,٣١٦) مراجع نفذت لهم مامجموعه ٢٦٥,٣٦٢ عملية اعارة — انظر الجدول رقم (٢) .

٣) ان نشاط قسم الوسائل السمعية والبصرية في المكتبة يعكس بشكل

---

(١٩) الجداول الاحصائية التي استخدمت في هذا البحث من الاحصائيات الشهرية والسنوية لاقسام المكتبة المركزية للفترات التي ذكرت ازائها .

واصبح دورها في عملية التعليم المستمر لمنتسبي الجامعة تدريسيين وطلبة ومراكز بحوث على اختلاف تخصصاتهم العلمية ولمن هم خارج الجامعة ومؤسساتها ومجتمع الجامعة المحيط بها . والجدول يوضح لنا امكانيات هذا القسم المتواضعة والنشاطات التقنية التي تمكن من تنفيذها والتي كانت احد روافد التعليم المستمر بالاجهزة القليلة التي يمتلكها .فقد تمكن القسم ان يعد برنامجاً لارشاد القراء بلغ عدد مشاهديه للفترة من ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨ من الطلبة والتدريسيين ١٧٤٨٢ مشاهداً ذلك بهدف تسهيل مهمة الوصول الى المعلومات في المكتبة .

كما ان القسم نفذ ١٦٤٨ عملية استنساخ حراري من الشفافيات لاغراض استخدامات التدريسيين وطلبة الدراسات العليا . كما قدم التسهيلات والامكانيات لعقد مؤتمرات وندوات علمية ومحاضرات لمختلف الاختصاصات ودورات تدريبية بلغ عددها ١٣٦ نشاطاً مختلفاً ـ انظر الجدول رقم (٣) هذا فضلا عن اعداد واخراج ١٦٠٠ سلايد علمي يستعين بها التدريسي او الطالب لتعليم وتعلم مختلف الاختصاصات كما استنسخ القسم ٦٢٤٣ شريط كاسيت لاغراض مختلفة اغلبها لتعليم اللغات بموجب طلبات من التدريسيين او الطلبة . واعد القسم كذلك عشرة برامج تعليمية بمساعدة اساتذة متخصصين في مواضيعها واصدر ٨٧ نشرية مختلفة عن مواضيع متخصصة .

واذا اضفنا الى هذا القسم انشطة الميكروفلم التي تم اعدادها بمشاركة من وحدة التصوير الدقيق في المكتبة فتكون شرائح الميكروفيش التي استنسخها القسم لـ ١,٢٥٠,٠٠٠ من مواصفات براءات الاختراع في اختصاصات مختلفة مع فهارسها بلغ عددها اكثر من ٦٠٠٠ شريحة اضافة الى ١٠٠٠ ميكروفلم واستنساخ ٤٠٠ ميكروفلم على ورق

فضلاً عما يقرب من ٣٥٠٠ شرائح ميكروفيش لاعداد راجعة من الدوريات العلمية حصل عليها قسم الدوريات لاكمال المجموعات الناقصة لديه بـ ٩٢ عنوان دورية ـ انظر الجدول رقم (٤ ـ ٥) .

٤) أ ـ القناة الثانية والمهمة التي استحدثتها المكتبة المركزية وساعدت على دعم البحث العلمي والتعليم المستمر تمثلت في وحدة البحوث التي عهدت اليها مهمة ايجاد قنوات متعددة لمنتسبي الجامعة لتحديث معلوماتهم بالعمل على توفير الرسائل الجامعية والبحوث والتقارير المنشورة وغير المتوفرة في مجاميع المكتبة للباحثين وذلك عن طريق قسائم مكتبة الاعارة البريطانية وقسائم مؤسسة Insitute for Scientific Information (ISI) وقد حققت هذه الوحدة فعلا الحصول على ٦٦٠١ بحث عام ١٩٨٨ فقط من تلك التي لاتتوفر في المكتبة و ٥١ تقريراً صادراً عن مؤسسات علمية و ١٦ كتاباً و ٣٧ دورية و ٦ رسائل جامعية واطلس و ١٥٨٤ بحثاً من مكتبة الاعارة البريطانية أو مكتبات الجامعات العراقية. ولكون هذه المواد جميعاً من احدث ماصدر في مجالات تخصصاتها لذا كان لها اهميتها في تغذية الباحثين بالمستجدات التي طرأت في تخصصاتهم ، وجعلتهم على اتصال وثيق بها .

كما غدت هذه الوحدة عوناً للباحثين بأرشادهم الى طرق واساليب الحصول على البحوث الحديثة بجهودهم الشخصية بعد ان تمدهم بالمعلومات عن البحوث المتوفرة وطريقة الحصول عليها. وفعلا فقد حصلت احدى الباحثات على ١٦٠٠ بحث و٤٥ دورية باعدادها الكاملة و ٤ كتب ورسالتين جامعيتين بطريقة الاتصال الشخصي مع الباحثين والمؤسسات العلمية عن طريق هذه الوحدة .

ب – وفي منتصف عام ١٩٨٩ ادخلت وحدة البحوث في المكتبة المركزية الى استخداماتها تقنية جديدة ومهمة جداً في مجال دعم البحث العلمي والتعلم المستمر بتسهيل مهمة اطلاع الباحثين على آخر المعلومات عن البحوث المنشورة في مجالات تخصصهم في قواعد المعلومات العالمية وذلك بأدخال استخدام تقنية الاقراص المكتنزة CD Rome Disk التي غدت بدلة عن طريقة البحث الالي المباشر Online للحصول على المعلومات ذات التكلفة الباهضة والتي استخدمتها المكتبة المركزية لفترة من الوقت بواسطة مركز التوثيق العلمي في بغداد .

فقد استطاعت هذه الوحدة من توفير متطلبات تشغيل الاقراص المكتنزة بالحصول على جهاز Player Disk الذي يربط بالحاسبة المايكروية . ثم وفرت ضمن مجاميعها اهم قواعد المعلومات العالمية التي يحتاجها الباحثون وهي :–

١ – مستخلصات الرسائل الجامعية Abstracts Dissertation والتي تغطي الفترة من ١٨٦١–١٩٨٤ وتعطي معلومات عن ١,٠٠٠,٠٠٠ رسالة جامعية باشارات ببلوغرافية للفترة من ١٩٨١– ١٩٨٤ مع مستخلصات للرسائل .

٢ – قاعدة معلومات الاعمال ABI/Inform وتغطي هذه القاعدة الفترة ن ١٩٨٤ – ١٩٨٩ وفيها مسح لما يزيد عن ٧٠٠ دورية عالمية في مجالات الادارة والاقتصاد وتقدم اشارات ببلوغرافية مع مستخلصات للبحوث ٢٠٠,٠٠٠ بحث .

٣ – قاعدة المعلومات الزراعية Argicultural on-line Access (AGRICOLA)

وتغطي الفترة من ١٩٧٩ - ١٩٨٩ وتحتوي على أكثر من ٢,٥ مليون اشارة ببلوغرافية في كافة المجالات الزراعية المتوفرة في المشروع التعاوني بين المؤسسات في المكتبة الزراعية الامريكية الوطنية . اضافة الى قاعدة معلومات البحوث الجارية Current Reserach Information System (CRIS) للفترة من عام ١٩٨٦ لغاية ١٩٨٩ التي تشير الى ٣٠,٠٠٠ من البحوث الجارية والمنجزة .

و جزء الثالث منها هو قاعدة معلومات المواد الزراعية في المكتبة (Agricultural Materials Libraries) (AML) وتغطي الفترة من ١٩٠٠ - ١٩٨٧ وترجع باشارات احياناً الى عام ١٥٤٣ .

٤ - قاعدة معلومات خدمات التقنية الوطنية (NTIS)
National Technical Inf. Ser.

وهي مسح للبحوث المنشورة بدعم الحكومة الامريكية في مجالات الدفاع والطاقة والفضاء والهندسة التطبيقية وتشمل الفيزياء الفضائية ، وتقنية العلوم الطبية ، وديناميك الهواء والاحتراق والطاقة وعلم المعلومات وبرامج NASA لمسح موارد الارض وعلم المحيطات والتخطيط الصحي وتحدث القاعدة سنوياً بالاشارة الى حوالي ٧٠,٠٠٠ تسجيلة ببيلوغرافية .

٥ - مكتبة الحاسبة Computer Library

وتغطي الفترة من ١٩٠٠ - ١٩٨٨ وتعطي الابحاث والكتب المنشورة في مجال الحاسبات ومايتعلق بها .

٦ ــ مكتبة الطاقة Energy Library

وهي مسح للدراسات التي تنشر في حقول النفط والطاقة الشمسية والفحم من الجوانب السياسية والاقتصادية الأستهلاك وتطوير المصادر البديلة كذلك الكتب المنشورة في هذا المجال ويحتوي القرص الواحد على ٢٩٠,٠٠٠ تسجيلة تشمل الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٨٨ .

٧ ــ مكتبة البيئة Envirnment Library

وهي تحتوي على ما يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ تسجيلة لتغطي الكتب المنشورة في مواضيع التلوث على الغذاء إلى تآكل طبقة الاوزون إلى انقراض عينات من الحيوانات . وتغطي الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٨٨ .

٨ ــ قاعدة معلومات مستخلصات الموارد المائية المختارة (SWRA)
Selected Water Resources Abstracts

وتتكون من قرصين تغطي الفترة من ١٩٦٧ــ١٩٨٩ تشير إلى ما يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ مستخلصة للكتب والمقالات والتقارير والموارد الثقافية الاخرى في مجال الموارد المائية والعلوم الطبيعية والجوانب الهندسية والقانونية المتعلقة بها .

٩ ــ قاعدة معلومات علوم الارض Earth Science Date Directory/ESDD

تعطي مسح شامل عن المواد المطبوعة لمواضيع علوم الارض والموارد الطبيعية وتصف ما يزيد عن ١٥٠٠ قاعدة يضاف لها سنوياً ٦٠٠ قاعدة وهي لغاية ١٩٨٩ .

وتصدر معها قاعدة كشاف علوم الارض Geoindex لغاية ١٩٨٩ ايضاً وفيها اشارات لاكثر من ١٥،٠٠٠ خارطة جيولوجية منشورة مع معلومات كاملة عنها للولايات المتحدة .

وتلحق بها قاعدة فهارس المكتبات الجيولوجية الامريكية U.S. Geological Survey Lib. للفترة من ١٩٧٥ ــ ١٩٨٩ وتشير إلى ما يزيد عن ١٢٥,٠٠٠ تسجيلة في مجال علوم الارض.

١٠ ــ السلسلة التربوية ERIC

وتعود هذه إلى وزارة التعليم والتربية الامريكية وهي قسمين الاول قاعدة الكشاف الجاري للدوريات التربوية

Current Index to Journal in Education/ CIJE

وهي كشاف لاكثر من ٧٥٠ دورية تربوية وتغطي الفترة من ١٩٦٩ ــ ١٩٨٩ . اما القسم الثاني فهو مصادر في التربية

Resourecs in Education وتحتوي اكثر من ٧٦,٠٠٠ اشارة لمواد غير منشورة كالتقارير الفنية وتقارير البحوث والاوراق المقدمة للمؤتمرات والوثائق الحكومية للفترة من ١٩٧٧ ــ ١٩٨٩ .

١١ ــ قاعدة معلومات الموارد التربوية في المكتبات EMIL

وتشير هذه القاعدة إلى اكثر من ٤٥٠,٠٠٠ تسجيلة للكتب المتعلقة باللغات الانكليزية والعالمية مع اشارة راجعة إلى ١٤٥٣ .وتغطي الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩٨٩ .

١٢ ــ قاعدة كشاف معلومـــات العلـــوم Science Cition Index

وتغطي هذه القاعدة السنوات ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ ، ١٩٨٩
وهي عبارة عن كشاف بكافة البحوث في مجالات وتخصصات العلوم البحته ــ التطبيقية والمنشورة في اغلب الدوريات العلمية العالمية وتصدر سنوياً .

١٣ ــ كشـــاف الـــعلوم الطبية Exerpta Miciicus

وتغطي هذه القاعدة الفترة ١٩٨٩ وتصدر بـ (٦٢) قسماً Siction
وتحتوي عـــلى ملخصـــات لكافـــة مـــا ينشـــر فـــى

العلوم الطبية وما يتعلق بها والمنشورة في الدوريات العالمية المتخصصة (٢٠).

ومنذ ان وضعت هذه القواعد في التداول اقبل الباحثون على استخدامها والافادة منها. ويبين الجدول رقم (٦) مدى الاقبال من قبل المستفيدين رغم قصر الفترة الزمنية حيث بلغ عدد الباحثين المراجعين لها (٤١٩) وعدد المستفيدين (٣٦٤) وعدد الاشارات المطبوعة (٥٤٣٢) انظر الجدول رقم (٧).

٥ – اقامت المكتبة المركزية معرضين للمطبوعات والدوريات التي وردت اليها والتي شكلت الاضافات الجديدة لمجاميعها وكان هذا من وسائل التعريف بالمواد الثقافية وتحديث معلومات منتسبي الجامعة عما استجد في تخصصات مختلفة ووسيلة للوصول إلى المعلومات الحديثة.

٦ – اصدرت المكتبة عدداً من البيليوغرافيات المتخصصة للاضافات الجديدة التي دخلت مجاميعها حسب الاقسام العلمية وقد وزعت على الاقسام العلمية كافة بهدف التعريف بالحديث من المواد المتوفرة، وكانت هذه عوناً لمنتسبي الاقسام العلمية للوصول إلى المعلومات الحديثة.

التوصيات

١ – حيث ان التعليم المستمر هو نشاط من انشطة الجامعة الحديثة لابد له ان يستند في ممارساته المختلفة سواء في البحوث او المقالات او مجالات خدمة المجتمع او الدورات التدريبية إلى نظام للمعلومات لابد للمكتبة ان تتبناه وان تكون مركزاً له ليكون موضع الثقة واستجابة المستفيدين، وان يحرص هذا النظام على ان يضم عدة قواعد للمعلومات، كأن

(٢٠) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي / المكتبة المركزية لجامعة الموصل، البحث الآلــي للاقراص المكتنزة. مطبعة التعليم العالي ١٩٨٩، ص٤ – ١٠

تكون فيه قاعدة بيانات البرامج العلمية وقاعدة بيانات محتويات مكتبات الجامعة وقاعدة بيانات البحوث والدراسات وقاعدة بيانات انشطة مراكز البحوث المتخصصة بالاضافة إلى قواعد بيانات بالعاملين والتدريسيين والطلبة العاملين في الجامعة .وان يجهز هذا النظام بوسائل اتصال وتقنية عالية تمكنه من بث معلومات دقيقة وحديثة تفي بالعديد من الاغراض التعليمية واغراض التعليم المستمر .

٢ ـ لان من ضرورات التعليم المستمر والمتغيرات الحديثة ان تخرج الجامعة بخدماتها خارج اسوارها وان تضم في برامجها التطويرية ابناء المجتمع لذا لابد من ان تمتد العلاقة ما بين المكتبة المركزية والمؤسسات والشركات والنقابات والمؤسسات الجماهيرية اصحاب المهن والحرف وان تفتح المكتبة ابوابها لاولئك الذين يشعرون برغبة في تطوير انفسهم وان تقدم خدماتها اليهم اسوة بمنتسبي الجامعة ..

٣ـ على المكتبة ان تعد نفسها لاعادة تطوير وتأهيل منتسبيها ومنتسبي الجامعة لفترة ما بعد الحرب . بالتركيز على اولئك الذين التحقوا منذ فترة طويلة بجبهات القتال وانقطعوا عن الاطلاع على ما استجد في اطار تخصصاتهم . وان تعد البرامج اللازمة لتحقيق هذا الهدف الذي سوف تظهر الحاجة اليه قريباً .

٤ ـ دعم وحدات المكتبة المركزية بادخال التقنيات الحديثة والضرورية لتعميم عملية التعليم المستمر كاجهزة النسخ الالكتروني Telefacmiis والحاسبات المصغرة Minicomputers لاغراض استخدام المستفيدين والدائرة التلفزيونية المغلقة لبث المحاضرات والبرامج التعليمية العامة وجهاز بث النصوص المصورة Vidiotex وأجهزة الميكروفورم الحديثة لتقديم الخدمات السريعة التي تعتمد عليها عملية التعليم المستمر واعداد العديد من البرامج التعليمية او الحصول

عليها Learning Packeges التي تعتبر من مستلزمات التعليم المستمر .

٥ ـ ان تعمل على زيادة كوادرها من اختصاصي المعلومات الذين بامكانهم تقديم خدماتهم للمستفيدين من اختصاصات مختلفة لدعم عملية التعليم المستمر .

٦ ـ تشجيع الناشرين للاشتراك بالمعارض التي تقيمها للمواد الثقافية للتعريف بالمستجدات والمتغيرات الحديثة في العلوم كافة .

جدول رقم (١)

الزيادة في مجاميع المكتبة لعام ١٩٨٨/١٩٨٩

نوع المطبوع	عربية	اجنبية	مصدرها
مطبوعات	١٢٩١	٢٧٧٥	شراء من المجهزين
مطبوعات	١٠١١	٤٠٣	اهداء وتبادل
عدد دورية	٣٠٥	٤٥٨٤	شراء من الناشرين
عدد دورية	١١١٦	١٥١٧	عن طريق الاهداء والتبادل

جدول رقم (٢)

السنة	تدريسيين	دراسات عليا	دراسات اولية	المجموع
١٩٨٦	١٢١٠٩	٥٠٦٨٣	٦٥٣٠٨	١٢٨١٠٠
١٩٨٧	٢٠١٥٣	٢٨٨٣٣	١٣٦٢٧٦	١٨٥٢٦٢
١٩٨٨	٢٥٦٠٤	٧١٨٣٧	١٦٧٩٢١	٢٦٥٣٦٢

جدول رقم (٣)

النشاطات التقنية

تسلسل	نوع النشاط	المستفيدون ٨٥ ـ ٨٩
١ ـ	برنامج ارشاد القراء	١٧٤٨٢
٢ ـ	استنساخ اشرطة تسجيل	٢٩١٥
٣ ـ	ندوات ومحاضرات ومؤتمرات	١٣٦
٤ ـ	استنساخ حراري	١٦٤٨
٥ ـ	استنساخ ميكروفلم ورقي	٤٠٠
٦ ـ	عمل سلايدات	١٦٠٠

جدول رقم (٤)

التسلسل	المواد المتوفرة في القسم	العدد
١ ـ	برامج تعليمية مبرمجة في العلوم المختلفة .	١٠
٢ ـ	سلايدات تم اخراجها في القسم لبرامج مختلفة .	٢١٨٠
٣ ـ	شفافيات تم اخراجها من القسم حسب حاجة الباحثين .	١٦٤٨٠
٤ ـ	استنساخ كاسيتات بلغات اجنبية للطلبة .	٦٠٠٠
٥ ـ	اخراج كاسيت للمواد التعليمية	٦٥
٦ ـ	اصدار نشريات مختلفة .	٨٧
٧ ـ	سلايدات جاهزة للبرامج التعليمية .	٧٠٧١
٨ ـ	كاسيت صوتي للبرامج التعليمية	٦٠١
٩ ـ	خريطة	٩٩
١٠ ـ	شريط فديو	٥٠
١١ ـ	مواد تعليمية	٢٦١
١٢ ـ	فلم سينمائي	٤٨

جدول رقم (٥)

التسلسل	المادة المصورة على الميكروفورم	العدد
١ ــ	رقائق ميكروفيش لبراءات اختراع	٦٢٠٠
٢ ــ	ميكروفيلم لمواد مختلفة / دوريات ومخطوطات	٢٥٠٠
٣ ــ	شرائح ميكروفيش لمخطوطات واطروحات	٥٥٣٧
٤ ــ	شرائح ميكروفيلم لمواد توثيقية وارشيفية خاصة بادارة الجامعة	٨٦٦٠

جدول رقم (٦)

احصائية بالخدمات التي تمت عن طريق وحدة البحوث

تسلسل	المادة	٨٥ ــ ٨٩
١ ــ	عدد البحوث	٩٦٤٩
٢ ــ	تقارير	٥٨
٣ ــ	كتب	٢٦
٤ ــ	مجلات	٧٨
٥ ــ	اطروحات	١٢
٦ ــ	اطلس	١
٧ ــ	خريطة	١

جدول رقم (٧)

استخدام الاقراص المكتنزة

الشهر	عدد الباحثين	المستفيدون	عدد الاشارات المطبوعة
حزيران ١٩٨٩	٤٢	٣٦	٢٩٨
تموز ١٩٨٩	٦١	٢٣	٤٦٢
آب ١٩٨٩	٨٣	٤٨	١٤٠٤
ايلول ١٩٨٩	٨٣	٧٠	١٢٩٦
تشرين اول ١٩٨٩	٨٠	٦٧	١١٥٦
تشرين ثاني ١٩٨٩	٥٤	٥٣	٥٠٣
كانون اول ١٩٨٩	١٧	١٧	٣١٣
المجموع	٤١٩	٣٦٤	٥٤٣٢

ابو العباس بن الرومية
عالم الاعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه
٥٦١ ـ ٦٣٧هـ/ ١١٦٥ ـ ١٢٣٩م

الدكتور
جزيل عبدالجبار الجومرد
استاذ مساعد / قسم التاريخ / كلية التربية

عصره :

عاش ابو العباس بن الرومية ستة وسبعين عاماً ، وعلى الرغم من ان معظم حياته قد تقضّت في بلاد الاندلس ، وبالاخص في مدينة اشبيلية ، الا ان رحلته التي استغرقت قرابة السنوات الثلاث ، وكان لها ثقلها الكبير في تكوينه العلمي وشهرته ، بالاخص بوصفه نباتياً ثم محدثاً ، دارت وقائعها على مسرح جغرافي اوسع مدى ، يتخطى حدود مدينته وبلاده الاندلس ، إلى المغرب وشمال افريقيا ومصر والحجاز والعراق واقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، وربما صقلية ايضاً ، كما سنأتي عليه تفصيلاً ، ومن هنا فان صورة عن اوضاع عصره باختصار في هذه البقاع قد تجعل من فهم سياق سيرته وثقافته وعلمه شيئاً اكثر يسراً .

كانت البلاد العربية والاسلامية في النصف الثاني من القرن السادس والنصف الاول من السابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، تعيش ارهاصات ضعف منبيء بافول ، فداخلياً كانت الانقسامات الاقليمية والمحلية كثيرة ومنتشرة ، والصراعات بين الدويلات والطوائف والفئات لا تعرف ركوداً ، والتمردات والثورات على هذا او ذاك من الانظمة السياسية الاقليمية المستقلة او شبه المستقلة ظاهرة متواصلة تأخذ بدايات بعضها باعقاب بعض . اما خارجياً فقد كانت حدود «دار الاسلام» تتعرض للغزو من جبهات عدة ، فتتآكل مع ضراوته اطراف مغارب تلك الدار ومشارقها على حد سواء ،

في الاندلس، في زمن ابي العباس بن الرومية ، كان الموحدون قد فرضوا سلطانهم على غالبية مدن تلك البلاد التي كانت لا تزال اسلامية ، بعد ان كانوا قد تملكوا بلاد المغرب وشمال افريقيا منذ سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م (١). وخلال مدة حكمهم للاندلس التي دامت قرابة عقوداً سبعة، وحدوا فيها ، تقريباً ، مدن تلك البلاد المسلمة ، من كبريات المدن الوسطى والجنوبية كبلنسية ومرسية وغرناطة ومالقه وجيان وقرطبة واشبيلية (٢) . الا ان هذه البلاد عانت في عهدهم من مشكلتين موهنتين ، اولاهما : الاضطرابات وحركات التمرد الداخلية في بعض المدن من وقت لآخر . وثانيتهما : تنامي خطر الممالك الاسبانية المسيحية في النصف الشمالي من الاندلس ، مملكة اركون ، وقشتالة ، والبرتغال ، والتي ازدادت قوتها وتفاقم خطرها على مدن الاندلس الاسلامية ، مع تزايد الانشقاقات والتمردات في داخل تلك المدن ، وخاصة بعد موت رابع خلفاء الموحدين الكبار ، محمد الناصر لدين الله بن يعقوب (٥٩٥ ـ ٦١١هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٤م) وتفكك الاسرة الموحدية ذاتها وتناحر امرائها وتمرد بعضهم على بعض (٣) . ثم انفجرت حركة محمد بن يوسف بن هود في مرسية (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م) التي امتد أوارها لكي يأتي على الوجود الموحدي في مدن الاندلس المذكورة تباعاً (٤) ، بما في ذلك مدينة ابن الرومية ، اشبيلية ، سنة (٦٢٦هـ /١٢٢٩م) (٥) . ولكن ابن هود عانى

---

(١) عبد الواحد بن علي المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تح محمد سعيد العريان ومحمد العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء - المغرب ، ط٧ ، ١٩٧٨ ، ص ٣١٠ - ٣١١ . وكذلك .

Stanly Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties, karachi, 1960, PP. 37-40.

(٢) انظر هاري . و ، هازارد : اطلس التاريخ الاسلامي . ترجمة ابراهيم زكي خورشيد مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بلا . ت ، ص١٩ .

(٣) محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ق٢ ، ص ٣٢٨ ، ٣٤٨ - ٣٦٦ .

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، تح محمد ابراهيم الكتاني وآخرين ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٦-٢٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .

من نفس المشكلة ، فقد شبت التمردات ضده (٦) ، مما فت في عضده وأوهن الاندلس جملة فسهل ابتلاع اجزائها عندما اعملت الممالك الاسبانية المسيحية اضراسها فيها .فبعد عهد من الانتصارات التي حققها خلفاء الموحدين الاوائل، التي كان اكثرها حسماً انتصار ثالثهم عبدالله بن يعقوب بن يوسف (٥٨٠ — ٥٩٥هـ/١١٨٤ — ١١٩٩م)على ملك قشتالة في موقعة الارك(٥٩١هـ/١١٩٥م)(٧) التي تركت موجة من التفاؤل العميق في نفوس مسلمي الاندلس وزودتها بمردود معنوي كبير ، بعد ذلك بدأ التراجع وكثرت الاحباطات في آخر عهد الموحدين وفي زمن ابن هود كما ذكرنا ، وكان اقساها سقوط قرطبة بيد القشتاليين بعد ان عجز ابن هود عن حمايتها (٦٣٣هـ/١٢٣٦م) (٨) ، فكان ذلك بمثابة النذير باجل الاندلس المحتوم، فقد اخذت المدن الاسلامية الاخرى تسقط مع مرور الزمن ، ومنها مدينة اشبيلية ، عقر دار ابن الرومية ، حيث استولى عليها ملك قشتالة سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) (٩) ، اي بعد وفاة ابن الرومية بتسع سنوات ، خلال الفترة نفسها ، كان المغرب وشمال افريقيا بيد الموحدين ، ولم يخرج من يدهم الا تونس وطرابلس سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٤٨م) لتؤول الى الحفصيين (١٠) ، وذلك بعد ان كان ابن الرومية قد انجز رحلته الى الشرق وعاد الى بلاده .

اما الى الشرق من الشمال الافريقي ، فمصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، فانها كلها كانت تحت حكم الايوبيين ، صلاح الدين(ت ٥٨٩هـ/

(٦) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٤١٤ .
(٧) انظر التفاصيل لدى يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ ، ص٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٩-٣٢٤ .
(٨) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٤٢٤ .
(٩) المرجع نفسه ، ص٤٣٢ .

(10) Lane-Poole: Op. cit. p. 44.

١١٩٣م) وخلفاؤه . فمنذ ان نجح صلاح الدين الايوبي في انهاء الدولة الفاطمية في مصر (٥٦٧هـ / ١١٧١م) واعلان ولائها للخلافة العباسية في بغداد (١١) ، فانه سعى ضمن جهود حثيثة الى توحيد تلك البلاد في جبهة واحدة تصدى بها للكيانات الصليبية التي كانت قد تأسست في بلادالشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي اثر الحملة الصليبية الاولى عليها ، فتمكن من دحر الصليبيين الفرنجة في معركة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) واسترد منهم بيت المقدس في السنة نفسها فضلا عن معاقل اخرى كانت بأيديهم ، كما تمكن من كبح جماح الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ ــ ٥٨٨ هـ / ١١٨٩ ــ ١١٩٢م) وافشل اهدافها الرامية الى اعادة احتلال بيت المقدس وسواه مما تم تحريره (١٢) . وقد خلف صلاح الدين اولا بعض ابنائه ثم اخوه الملك العادل ابو بكر (٥٩٦ ــ ٦١٥ هـ/ ١١٩٩ ــ ١٢١٨م) (١٣) ، الذي وصل في عهده ابو العباس ابن الرومية في رحلته الى مصر وبلاد الشام ، فالتقى به ورافقه مدة من الزمن في القاهرة سنة (٦١٣ ــ ٦١٤هـ / ١٢١٦ ــ ١٢١٧ م) (١٤) .ثم خلف العادل ابناؤه و كلهم سعى الى الجهاد ضد الصليبيين (١٥) .وقد تميز عهد الايوبيين في تلك البلاد ، بعد حركة الجهاد ضد الصليبيين ، برعاية العلم والعلماء ودعوتهم للقدوم الى تلك البلاد لاعمار مدارسها ودور حديثها التي اكثروا من انشائها في جميع

---

(١١) بهاء الدين بن شداد : سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال‌الدين الشيال ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٢ ، ص٤٥ .

(١٢) للتفاصيل انظر عبدالله سعيد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، دار الندوة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٢٩-٨٩ . وحول الحملة الصليبية الثالثة وافشال خططها انظر ابن شداد سيرة ، ص ١٠٣ - ٢٣٤ .

(١٣) السيد الباز العريني: الايوبيون ، دار النهضة العربية ،مصر ، ١٩٦٧ ،ص ١١٤ - ١١٨.

(١٤) موفق الدين ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٥٣٨ .

(١٥) العريني : الايوبيون ، ص ١٣٣ ــ ١٥٤.

المدن المهمة بحيث غدت مراكز استقطاب علمية وثقافية لمفكري العصر ومثقفيه من انحاء العالم الاسلامي كافة (١٦) ، وقد عرف الاندلسيون ذلك واشار اليه منذ مدة مبكرة احد اشهر رحالتهم ، ابن جبير (١٧) ، وهو ممن التقى بابن الرومية في الاسكندرية عند وصوله اليها في رحلته سنة (١٢١٦/٦١٣م) (١٨) وممن كان قد دعا الاندلسيين والمغاربة منذ ان كتب رحلته (بعد ٥٨١ هـ / ١١٨٥م) للارتحال الى المشرق وطلب العلم فيه ، وخاصة في بلاد الشام (١٩) .

في محاذاة بلاد الشام الى الشرق ، في اقليم الجزيرة الفراتية ، قامت دويلات المدن المتآلفة حيناً والمتناحرة حيناً آخر ، كأتابكية الزنكيين في الموصل واراتقة ديار بكر واتابكية البكتكين في اربل ، وسلاجقة الروم في اسيا الصغرى (٢٠) والى الجنوب من كل هؤلاء دار الخلافة العباسية ، في بغداد ، التي كانت في زمن ابن الرومية قد بدأت تستعيد بعضاً من سابق مجدها بفضل جهود الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ — ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ — ١٢٢٥م) بعد فترة من خضوع الخلافة للمتغلبين الديالمة البويهيين او الترك السلاجقة ، فاتسعت رقعة هيمنة الخلافة بعض الشيء بعد ان تقلصت وكادت تقتصر على بغداد ، وامتدت هيمنتها المعنوية على بلاد الشام ومصر والحجاز

---

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٨ — ٢٢٩ .

(١٧) محمد بن احمد بن جبير : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣٤٥ — ٤٥١ كذلك .

(١٨) محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا ، ت . سفر اول ، القسم الثاني ، ص ٣٩٠ .

(١٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٨ .

(20)Lane-Poole: Op. Cit. pp. 149, 153 , 152 142.

والعراق وبلاد الاسلام الى الشرق من دار الخلافة (٢١) . وفي عصر هـذا الخليفة ، وعصر خلفه وخلف خلفه المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦ـ ١٢٤٢م) ازدادت بغداد نشاطاً من الناحية العلمية فاستعادت مركزها الثقافي اثر اعتناء الناصر بتطوير المدرسة النظامية وبذل العناية لها ولعلمائها(٢٢) وكذلك عندما اسس المستنصر المدرسة المستنصرية الشهيرة فيها سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) (٢٣) قبل مدة قصيرة من اجتياح المغول البلاد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) .

كان هذا هو وضع الارض العربية الاسلامية التي نشأ عليها ابو العباس إبن الرومية . وتأثر تكوينه الثقافي بظروفها السياسية والثقافية ، وجال في رحلته بين ارجائها فتفاعل معها بيئة وثقافة ، فجاء تراثه الذي تركه خلاصة علمية لذلك التفاعل .

حياته :

تفق من عرف ابا العباس او عاصره من ترجم له على ان اسمه هو احمد إبن محمد بن مفرج الاموي(٢٤) . ويضيف الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م) بجعل مفرج ابناً لعبد الله (٢٥) ، وهو ما يكرره الذهبي نفسه في كتابين

---

(٢١) أنظر التفاصيل فيما كتبه الباحث مع خليل ابراهيم السامرائي وآخرين : تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٨ ، ص ٢٧٧- ٣٠٣ ، ٣٣٣-٣٤٠ .

(٢٢) محمد بن عمر الايوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ترجمة حسن حبشي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

(٢٣) للتفاصيل انظر «المستنصرية في التاريخ» ، ندوة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، وفيها العديد من البحوث .

(٢٤) محمد بن عبدالله بن الابار : تكملة الصلة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج١ ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧ . وعلي بن موسى بن سعيد : اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، تح ابراهيم الابياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص١٨١ . وعبدالعظيم بن عبد القوي المنذري : التكملة لوفيات النقلة تح بشار عواد ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ج٦ ، ص ٣٣٥ .

(٢٥) محمد بن قايماز الذهبي : تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥٨ ، مج٢ ، ص١٢٢٥ .

آخرين له وردت فيهما ترجمة ابي العباس (٢٦) . بينما نجد المؤرخ المتأخر، المقري (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) يجعل مفرجاً ابناً لابي الخليل الأموي (٢٧) ويبدو هنا ان المقري اخطأ عندما عد كنية مفرج ، ابي الخليل (٢٨) ، اسماً لوالده .

يشير لقب مفرج ، الاموي ، الى انه كان من موالي بني امية (٢٩) ، والذي نعرفه عن مولاه انه كان قد تبناه وانه احد اطباء قرطبة (٣٠) ، ومن هنا فان الجد مفرج هذا قرطبي وليس من اشبيلية التي صار حفيده ابو العباس إبن الرومية ينسب اليها فيما بعد (٣١) . وقد تعلم مفرج عن مولاه الطبيب علم الاعشاب الطبية والمعالجة بها (٣٢) ، وقد برز في هذا العلم بحيث غدا قدوة فيه (٣٣) ، ويبدو انه لم يتعلم العلم ويجيده فقط بل مارس العشابة (الصيدلة) حرفة ، وهو مافعله ابو العباس ، الحفيد ، فيما بعد .

اما محمد بن مفرج ، والد ابي العباس ، والمكنى بأبي عبد الله (٣٤) ، فلا نعرف عنه سوى انه اخذ علم النبات الطبي ، العشابة ، عن والده مفرج فكان قدوة فيه كابيه (٣٥) .

---

(٢٦) محمد بن قايماز الذهبي : سير اعلام النبلاء ، تح بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط٣ ، ١٩٨٦ ، ج٢٣ ، ص٥٨ .
والذهبي : المشتبه في الرجال ، تح علي البجاوي ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج١ ، ص٣٣٩ .

(٢٧) احمد بن محمد المقري : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٩ ، ج٣ ، ص٣٥٣ .

(٢٨) وردت الكنية هكذا لدى المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧ . ومحمد بن عبدالله لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في اخبار غرناطة ، تح محمد عبدالله عنان ، دار المعارف مصر ، ١٩٥٥ ، مج١ ، ص٢١٥ .

(٢٩) المنذري التكملة ، ج٦ ، ص ٣٣٥ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٧ .

(٣٠) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٣١) جميع المصادر الواردة في هامش (٢٤) .

(٣٢) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص٥١٢ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٤٨٧ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .

ولانعلم اكثر من هذا عن حياته وثقافته ، ولكن يبدوانه تزوج من امرأة رومية هي التي انجبت له ابنه أبا العباس ، يدل على هذا تلقب ابي العباس بأبن الرومية بوصفها اشهر كنية له (٣٦) . ويستنتج كراتشكوفسكي من ذلك ان امه كانت من نصارى الاندلس (٣٧) .ولانعرف لابي العباس اخوة او اخوات ، الا ان كنية الوالد ، ابي عبد الله ، قد توحي بأنه كان لابي العباس اخ بهذا الاسم .

ولد ابو العباس احمد بن الرومية سنة (٥٦١هـ /١١٦٥م) (٣٨) وبالتحديد في شهر محرم من تلك السنة (٣٩) . ورغم ان المصادر المعاصرة له تشير الى « انه من اشبيلية» (٤٠) . او « من اهل اشبيلية » (٤١) فليس هناك مايقطع بان ولادته كانت فيها ، وان كنا نرجح ذلك مع من قال به من المحدثين (٤٢) . فربما كانت اسرته قد استقرت في اشبيلية قبل ولادته .

تكوينه الثقافي والعلمي :

تابع ابو العباس احمد والده في امتهان حرفة العشابة (الصيدلة) ، فتعلم علم النبات والتطبيب به « عن ابيه وعن جده »(٤٣) ، ويخبرنا من التقى به

---

(٣٦) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص١٢١ . وابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ ، والمنذري : التكملة ، ج٦ ، ص٣٣٥ .

(٣٧) ا. كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ق١ ، ص٣٤٧ .

(٣٨) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢،ص٥١٣، والذهبي : سير ، ج٢٣ ، ص٥٨ .

(٣٩) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٣ .

(٤٠) ابن الابار : تكملة ، جا ، ص١٢١

(٤١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ص٥٣٨ .

(٤٢) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب ، جا ، ص٣٤٧ .وهو يستخدم عبارة «على مايظهر» وانظر محمد عبدالله عنان،تراجم اسلامية شرقية واندلسية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٠ ، ص٣٣٨ ، وهو يقول «وينتمي الى اسرة قرطبية من موالي بني امية ، ونزحت فيما بعد الى اشبيلية ، وفي اشبيلية ولد ابو العباس ..» .

(٤٣) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٢ .

انه كان له دكان متسع يجلس فيه لبيع الاعشاب والعلاج بها (٤٤) ، الا ان احداً لم يحدد لنا ماإذا كان قد ورث ذلك الدكان عن أبيه ام انه افتتحه بعد اكتمال معرفته النباتية وشيوع امر اتقانه لها . وعلى اية حال فالواضح انه بدأ منذ مدة مبكرة بدراسة النباتات والاعشاب وقواها الطبية وفوائدها الصيدلانية . واذا كان ابو العباس قد اشتهر بتبريزه في هذا العلم فانه برز الى جانب ذلك في علم الحديث وحفظه ومعرفة رجاله والتأليف فيه . فهذان هما العلمان ، النبات والحديث النبوي الشريف ، اللذان انصرف الى تحصيلهما اكثر من غيرهما وقضى في البحث فيهما معظم عمره . وقد قدم لسان الدين إبن الخطيب تفسيراً لطيفاً في سبب اهتمام ابي العباس بهذين العلمين سوية بقوله « قام – ابو العباس – على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات ، اذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الاصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الاديان والابدان ، وغير ذلك» (٤٥).
وعلى الرغم من صحة هذا القول من حيث اتفاق العلمين في منهج تحصيلهما وضبطهما ، الا انه ليس هذا هو تماماً ماحدا بأبن الرومية الى الجمع بين هذين العلمين والتبريز فيهما دون سائر العلوم ، بل هي ظروف ابي العباس الخاصة وظروف بلاد الاندلس والمغرب في وقته ، فعلمه بالأعشاب والنباتات تأتي له بتوارث المهنة عن ابيه وجده ، وكانت الصيدلة حرفة له ومصدر عيش (٤٦) فهي لم تأت اتفاقاً او عرضاً . اما دراسته للحديث والانكباب على ضبطه وحفظه فقد تأتى من تقدم علم الحديث في عصره على ماسواه من علوم الدين بعد القرآن الكريم ، دون غيرها من العلوم الدينية او النقلية بحكم سببين رئيسيين . اولهما ، ان الشيوخ في عصره اتجهوا

---

(٤٤) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ ، وهو يقول «وهناك قعد في دكان لبيعه – العشب الطبي – وهناك رايته ولقيته غير مرة» يجب التذكر بان ابن الابار ولد سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩
(٤٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٤٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٢ ، ص١٤٢٦ .

الى قراءة القرآن والسنّة لانهم وجدوا فيهما عزاءً عما صارت اليه البلاد، نتيجة استقواء الممالك المسيحية الشمالية، فكانت السنّة كالخيط يربطهم الى اجيال الاسلام الاولى، ومن هنا الاهتمام بالسند في الحديث، ذلك الخيط المتصل بالرسول (ص) (٤٧). اما السبب الثاني : فهو ذلك الاتجاه الرسمي الذي تنامى بعد سيطرة الموحدين على الاندلس والقائم على رد الناس الى القرآن اولا ثم كتب الحديث، اي العودة الى الاصول وترك فروع الفقه واختلافات مسائله ونبذها (٤٨) كما سيتضح لنا مع مسيرة البحث. وهكذا هيأت الظروف وجهة ابي العباس في تحصيل العلمين المذكورين.

يبدو ان تحصيل ابي العباس لمادة العلمين المذكورين جاء متزامناً، اي ان اهتمامه في التحصيل لم ينصرف الى احدهما اولا ثم الى الاخر بعده، بل كان كلما واتته الفرصة تابع هذا العلم، فاذا ماحالفته الفرصة لجمع اطراف العلم الثاني في الوقت نفسه عاناه وجمعه، فهو تارة يجمع علم النبات، وينتقل بين المدن والريف مشاهداً للاعشاب على الطبيعة فاذا ماحل في احدى الاماكن او المدن ممن اشتهر بعض محدثيها لازمهم واستجازهم وحدث عنهم. ومن هنا فان تحصيله للعلم يجب تتبعه على هذا الاساس وليس من خلال فصله عن بعضه.

لقد بدأ ابو العباس في تكوين نفسه ثقافياً في بلاده الاندلس، فاتصل بشيوخ عصره فيها، وقد عدّد هو لنا مجموعة منهم كابي البركات عبد الرحمن إبن داود الزيزاري وابن عربي وابن الجد واخرين (٤٩). وربما كان اشهر

---

(٤٧) حسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص٩٩.

(٤٨) انظر التفاصيل لدى المراكشي : المعجب، ص ٤٠٠-٤٠٢، وكذلك عبدالله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤٩) انظر اسماء شيوخه كلهم لدى المراكشي : الذيل، س١، ق٢، ص٤٨٨-٥١٠.

هؤلاء الذين اخذ عنهم العلم هو محمد بن عبدالله بن الجد الفهري (ت ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) وهو ابن مدينته ، اشبيلية ، الذي كان فقهياً متبحراً ، وقد قيل عنه انه انتهت اليه الرياسة في الحفظ والفتيا مما زاد من مكانته لدى حكام عصره فاستشاروه وكان كما قيل «فقيه الاندلس ، وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مُدافع ولا مُنازع ، لايدانيه احد في ذلك ولا يجاريه ..» (٥٠) . وقد تنقل ابو العباس بين مدن الاندلس الاسلامية الاخرى يستمع الحديث ويحصل الإجازات عن الشيوخ ، والاشارة إلى انه ذهب إلى قرطبة لهذا الغرض واضحة (٥١) ، اما غرناطة «فقد دخلها غير ما مرّة لسماع الحديث وتحقيق النبات ، ونقر عن عيون النبات بجبالها» (٥٢) ، وكذلك فعل في بقية المدن ، ويتبدى اثر تجواله في مدى سعة اطلاعه على نباتات الاندلس من خلال ماورد من اشارات فيما تبقى من نصوص كتابه (الرحلة) (٥٣) إلى اقليم الشرف في ظاهر اشبيلية (٥٤) ، وجبل شلير (سيرانيفادا) عند غرناطة (٥٥) ، ومدن جيان ورندة وجبالها (٥٦) ، وجبال غلزا شرقي الاندلس (٥٧) .

ثم كان توجه نظر ابي العباس إلى بلاد العرب والاسلام خارج الاندلس، فكانت له اول رحلة إلى المغرب ، عندما كان عمره ما بين التاسعة عشر والتاسعة والعشرين من العمر ، بعد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) حيث جاز مضيق جبل طارق إلى عدوة المغرب ، إلى مدينة سبتة ، لكي يلتقي بابي محمد بن

(٥٠) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص ٥٤٢ .
(٥١) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٨ .
(٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢٢١ .
(٥٣) ضاع كتاب (الرحلة) لابي العباس ابن الرومية كما ضاعت بقية كتبه ، ولم يبق منه الا مقتبسات ضمنها ابن البيطار ، العشاب المشهور ، في كتابه الشهير «الجامع لمفردات الادوية والاغذية» وسنشير اليه بالتفصيل لاحقاً .
(٥٤) ابن البيطار : الجامع ، ج٤ ، ص ٣٢ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٧ .
(٥٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٣٧
(٥٧) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٦ .

محمد الحجري (٥١٢ ــ ٥٩٢هـ/١١١٨ ــ ١١٩٦م) الذي كان «اية في الحفظ والعلم والزهد في الوظائف والاجتهاد في الاقراء» (٥٨) وكان قد حل سبتة بعد سنين من التنقل في بلاد الاندلس ، ولكن ابا العباس لم يحظ بلقائه عند عبوره اليه (٥٩) فعاد ادراجه ، وربما كان ذلك لانه وصل في الوقت الذي كان فيه الحجري قد استدعي من قبل الخليفة الموحدي ابو يعقوب إلى مراكش لاسماع الحديث حيث بقي فيها فترة قبل ان يعود إلى سبتة لكي يقضي بقية حياته فيها (٦٠) . وخلال فترة عودته كتب إلى ابي العباس مجيزاً له (٦١) .

صلته بالمذهب المالكي وتحوله إلى المذهب الظاهري :

يبدو جلياً ان ابا العباس نشأ على المذهب المالكي ، وانه اهتم بدراسته وتحصيله ، كما اهتم بدراسة علم الحديث وعلم النبات وتحصيلهما ، وربما كانت دراسته على العالم الشهير ابن الجد في الاغلب هي دراسة الفقه المالكي لما عرف عن هذا الشيخ من رسوخ باعه في الفقه المالكي دون الحديث كما يخبرنا ابن الابار بقوله عنه « فقيه الاندلس ، وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولامنازع لايدانيه احد في ذلك ولايجاريه .. مع اشتغاله بالتدريس والاسماع وانه لم يكن الحديث شأنه» (٦٢) . الا ان دراسة ابي العباس للفقه المالكي كانت اكثر تركيزاً واطول امداً مع شيخ اخر من شيوخ عصره المبرزين في المذهب المالكي ، المتبحرين فيه ، وهو محمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن زرقون (٥٣٨ ــ ٦٢١هـ/١١٤٣ ــ ١٢٢٤م) وكان ممن سكن

---

(٥٨) مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٠ .

(٥٩) المراكشي : الذيل ، س٢ ، ق٢ ، ص٤٨٨-٤٨٩ .

(٦٠) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص ٦٥٣-٦٥٤ .

(٦١) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٦٢) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص ٥٤٢ .

اشبيلية ونسب اليها (٦٣) . ومن هنا كانت فرصة ابي العباس في ملازمته والاخذ عنه مدة طويلة من الزمن (٦٤) . وقد عرف عن هذا الشيخ انه كان حافظاً مبرزاً ، شديد التعصب للمذهب المالكي منافحاً عنه ، الا انه لم يكن له بصر بالحديث باعترافه هو (٦٥) . ورغم انه قد اشير إلى طول ملازمة ابي العباس له ، الا ان اياً من مصادرنا لم يحدد طول تلك المدة ولا زمن انتهائها ،اذ اننا نعلم بان ابا العباس ترك استاذه لينحاز إلى المذهب الظاهري ، مذهب ابن حزم الاندلسي (٦٦) ،نائياً عن اتجاه استاذه الذي يبدو من عنوان احد مؤلفاته ، وهو (المعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم)(٦٧) ، بانه كان ناقداً للمذهب الظاهري ولابن حزم ، ومع مرور الوقت ازداد انحياز ابي العباس بن الرومية إلى المذهب الاخير (٦٨).وليس لدينا ما يبرر هذا الانعطاف الجذري وهذا الانفصال من قبل التلميذ عن استاذه ، فالمصادر القديمة ساكتة تماماً عنه،الا ان هناك اموراً تتعلق بتوجهات السلطات الرسمية في الناحية الدينية مما يمكن ان يسهم في القاء بعض الضوء على هذا الموضوع . فمنذ تأريخ ولادة ابي العباس ، بل وقبله بقليل ، كان الموحدون قد بدأوا بالتأكيد على ضرورة العودة الى الاصول في استخلاص الاحكام الفقهية ، وترك الاجتهادات والفروع القائمة على القياس والرأي ضمن المذهب المالكي ، وهو المذهب المعروف شيوعه في الاندلس والمغرب ، بل كانت تلك الرغبة من قبل الموحدين صارمة جداً احياناً ، من ذلك انه في سنة

---

(٦٣) عنان : عصر المرابطين ، ق٢ ، ص٦٥٩ . كذلك عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين. مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٦٠ ، ج١١ ، ص ٢١٩ :

(٦٤) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص١٢١ .والمراكشي: الذيل ، س١، ق ٢ ، ص٥١٢

(٦٥) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص٦١٦ .

(٦٦) هو ابو محمد علي بن احمد بن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤-١٠٦٤م) فقيه واديب ومؤرخ ولغوي و فيلسوف . ولد بقرطبة وتوفي في لبلة في الاندلس . كحالة : معجم ، ج٧ ، ص ١٦-١٧ .

(٦٧) انظر مؤلفاته الاخرى لدى كحالة : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص٢١٩ .

(٦٨) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١.

(٥٥٠هـ / ١١٥٥ م) امر الخليفة الموحدي الاول ، باحراق كتب الفقه ورد الناس الى كتب الحديث لاستنباط الاحكام (٦٩) . ورغم ان ذلك لم يتم فأنه دونما شك اثر في توجه الدراسات الدينية بأتجاه الحديث والظاهر ، خاصة ان الخليفة عمم تعليمات بهذا الخصوص الى كل طلبة العلم في المغرب والاندلس (٧٠) ، وعلى الرغم من ان ابنه وخليفته ، يوسف ، تعصب لفكرة ابيه وحاول تنفيذها ، الا انه لم ينه تماماً كتب الفقه المالكي (٧١) ، حتى ليروى انه قال للشيخ ابن الجد ، الذي ذكرنا اخذ ابي العباس العلم عنه ، في احدى مناقشاته معه حول الفقه « يا ابا بكر ليس الا هذا ، واشار الى المصحف ، او هذا ، واشار الى كتاب سنن ابي داود — وكان عن يمينه ، أو السيف .» (٧٢) . اما الخليفة الثالث يعقوب فقد نفذ رغبة أبيه وجده ، وامر باحراق كتب مذهب مالك ، ويقول شاهد عيان « لقد شهدت منها — اي تلك الكتب — وانا يومئذ بمدينة فاس مايؤتى منها بالاحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار » (٧٣) . كما أنه امر بترك الاشتغال بالرأي والخوض فيه ، وتوعد بمعاقبة المخالفين (٧٤) . ويبدو ان هذا كله دفع بالكثير من طلاب المعرفة عن سبيل دراسة الفروع الفقهية ، ومن ثم التوجه الى القرآن والسنة ، اما انسجاماً مع التيار الرسمي الذي له بعض مايبرره لتفشي الخلافات ، او ابتعاداً عن الزج بأنفسهم في اشكالية مخالفة الحكام الموحدين . كل ذلك في مدة شباب ابي العباس نفسه ، الذي توجه للحديث والظاهر اكثر من الرأي والقياس بحكم احد السببين المذكورين ككثيرين غيره . اما اولئك الذين لم ينسجموا مع الاتجاه الرسمي فقد نالتهم

(٦٩) علام : الدولة الموحدية ، ص٣٠٨ .
(٧٠) المرجع نفسه ، ص٣٠٨ .
(٧١) نفس المرجع والصفحة .
(٧٢) المراكشي : المعجب ، ص ٤٠٢ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص٤٠٠ روى ذلك المراكشي نفسه صاحب المعجب .
(٧٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠١ .

يد العقاب ، ومنهم ابن زرقون نفسه ، شيخ ابي العباس بن الرومية ،حيث انه كما يقول اليافعي (ت ٧٦٨ هـ /١٣٦٦ م) « كان من كبار المتعصبين للمذهب فاوذي من جهة بني عبد المؤمن — الموحدين — لما ابطلوا القياس والزموا الناس الاخذ بالاثر والظاهر »(٧٥) ، وجرى اعتقاله في مدينة سبتة ، ثم اطلق سراحه فعاد الى اشبيلية ، حيث توفي ودفن سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤ م) (٧٦) . ويظهر بان الافتراق بين التلميذ والشيخ حصل خلال فترة محنة الشيخ تلك (٧٧) . ولم يعد ابي العباس الى المذهب المالكي بعد ذلك التحول بل ازداد اعتقاداً بالمذهب الظاهري حتى عد « متعصباً له » (٧٨) . بل كان ، في عبارة احدهم « ظاهري المذهب ، منحياً على اهل الرأي ، شديد التعصب لابي محمد ابن حزم » (٧٩) . وبذل في سبيل ابراز المذهب الظاهري واعمال ابن حزم جهوداً كبيرة « وعنه انتشرت تصانيفه — اي تصانيف ابن حزم — اذ كان قد عني بها كثيراً واستحسنها وانفق عليها اموالا جسيمة حتى استوعبها جرماً فلم يشذ عنه منها الا ما لا خطر له ان كان قد شذ ، مقتدراً على ذلك معاناً عليه بجدته ويساره » (٨٠) .

رحلة ابي العباس بن الرومية إلى المشرق :

كلل ابو العباس تحصيله العلمي برحلته الى المشرق ، والرحلة من قبل الاندلسيين والمغاربة الى المشرق ليست شأناً غريباً ، بل امر متكرر ، وذلك

---

(٧٥)عبدالله بن سعد اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٠ ، جـ٤ ، ص٤٩ .

(٧٦) كحالة : معجم المؤلفين ، جـ١١ ، ص٢١٩ .

(٧٧) كي لا تلتبس الصورة على القارىء تجب الاشارة الى ان ماذكرناه لايعني معاداة الموحدين للعلم ، بل رفض الخلافات المذهبية ، ذلك انهم شجعوا العلوم التطبيقية من بناء وعمارة وطب وصيدلة ..الخ ، للتفاصيل انظر اشباخ : تاريخ الاندلس ، ص ٤٩٥ .

(٧٨) ابن الابار : تكملة ، جـ١ ، ص ١٢١ .

(٧٩) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٥١٢ .

(٨٠) نفس المصدر والصفحة .

سعياً منهم لاداء فريضة الحج الى بيت الله اولا ، ولاخـذ العلـم مـن شيـوخ المشرق ومدارسه ثانياً .

بدأ ابو العباس رحلته من الاندلس سنة (٦١٢ هـ /١٢١٥ م) في وقـت تعرضت فيه بلاده الى هجمات عنيفة من قبل الممالك الاسبانية المسيحيـة ، وهددت ضواحي مدينته اشبيلية نفسها (٨١) . ولكن ذلك لايعني اطلاقاً ان ابا العباس خرج من بلده الى المغرب ثم الى المشرق جرياً وراء حظوظ جديدة في اراض اكثر امناً واتدف عيشاً ، او فارق فرقاً من مستقبل غامض فـي مدينته ، ذلك ان فرصاً وافرة واتته في المشرق للبقاء والثراء (٨٢) ولكنه آثر عليها العود الى اهله وبلده بعد نيل بغيته من رحلته وتحقيق هدفه . والملاحظ بشكل عام فان علماء الاندلس رغم محنة العدوان الاسباني المسيحي عليهم والاضمحلال السياسي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميـلادي ، فانهم ظلوا عاكفين على الدراسة والسماع وتواتر العلم والاقراء والتأليف ، يتنقلون بين المدن لسماع حديث اونسخ كتاب وكأنهم في بلاد في غايـة الاستقرار ولاتحوم حولها الاخطار (٨٣) .

استغرقت رحلة ابي العباس ثلاث سنوات (٨٤) ، كان هدفه الاساس من القيام بها هواداء فريضة الحج (٨٥) ، ولكنها في الوقت نفسه كانـت رحلة علمية قل نظيرها ، فلقد لقي في رحلته تلك جملة كبيرة مـن اعـلام علماء الحديث في كبريات مدن المغرب والمشرق في ذلك العصر مـن رجال ونساء ، فأخذ عنهم واستجازهم ، ثم اسمع بعضهم بدوره (٨٦) ، ودون

---

(٨١) عنان : عصر المرابطين ، ج٢ ، ص ٣٥٤

(٨٢) انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ص٥٣٨ . وسوف نفصل ذلك لا حقاً

(٨٣) مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٢ .

(٨٤) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص٤٨٩ .

(٨٥) نفس المصدر والصفحة ، وكذلك ابن أبي اصيبعة : عيون ، ص ٥٣٨ .

(٨٦) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٨٩-٥١٢ .

تلك الاسماء في (برنامج) خاص (٨٧) ، وفي نفس الوقت اهتم بدراسة اعشاب المغرب والمشرق ، فبحث عنها في اطراف المدن التي حل بها وبضواحيها ، وكون ملاحظاته الخاصة عنها ، وسأل سكان تلك البقاع عن تسمياتهم لها واستخداماتها الطبية عندهم ، وناقش في اكثر من مناسبة علماء النبات في تلك البلاد فيما يتعلق بنباتات واعشاب بلادهم وبلاده (٨٨) ثم وضع حصيلة تلك التجربة مجتمعة في كتاب فريد في النبات اسماه (الرحلة) (٨٩) .

عبر ابو العباس البحر الى المغرب ، في مبتدأ رحلته ، سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) واول الاماكن التي نعلم يقيناً انه حل به هو بجاية (٩٠) ، وربما كان اول نزوله على الساحل الأفريقي في هذه الرحلة على ساحل هذه المدينة التي هي بمثابة ميناء حصين في لحف جبل تركب منها السفن الى الجهات الساحلية المختلفة للبحر المتوسط (٩١) ، وقد اخذ الحديث في هذه المدينة عن محدثين على الاقل (٩٢) . كما يبدو انه تجول في الريف الجبلي المحيط بالمدينة لذكره اسماء نباتين على الاقل مما ينبت بجبالها دون ذكرها يقطع برؤيته لها في مواضعها (٩٣) ، وينطبق هذا الشيء على ذكره لنباتات او اعشاب في المغرب الاقصى وسبتة (٩٤) ، دون ذكر زيارة تلك الاماكن في هذه الرحلة . ويتضح بأنه تجول في اطراف الاقليم الذي تعد بجاية احدى مدنه الغربية القصوى ، وهو اقليم افريقية ، والذي يمتد من بجاية او مليانة أو

(٨٧) نفس المصدر والصفحات .
(٨٨) سوف نأتي على نماذج من ذلك اثناء البحث .
(٨٩) سوف نتحدث عن هذا الكتاب بتفصيل اكبر عند الحديث عن اعمال ابو العباس .
(٩٠) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٨٩ .
(٩١) ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ج١ ، ص ٣٣٩ .
(٩٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .
(٩٣) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٢٠ ، ١٣٤ .
(٩٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ ، ٦ .

طنجة الخضراء غرباً الى الاسكندرية شرقاً ، عبر تونس والقيروان والمهدية وطرابلس وبرقة ، هذا على السواحل اوقريباً منها ، اما عمقاً فيمتد الأقليم من البحر الى الرمال التي في اول بلاد السودان في الداخل (٩٥) ، وفي تجواله في اطراف هذا الاقليم ، من بواد وجبال ، جمع معرفة طيبة عن اعشابها الطبية ذكرها في اكثر من موضع في(رحلته) بمسمياتها العربية او البربرية (٩٦)، وحل بمدينة تونس والتقى ببعض علمائها مجرد لقاء دون ان يستجيزهم بالتحديث عنهم (٩٧). كما اخذ عن احد اهل تونس معلومات عن بعض انواع الحجارة (٩٨) .ثم كان مروره بالقيروان والمهدية وقابس وطرابلس وبرقة في طريقه الى مصر ، وشاهد ماينبت فيها او في اطرافها من اعشاب ونباتات واشار الى ذلك مراراً في (الرحلة) (٩٩). الا انه كما يبدو لم يلتق بمن يستحق الذكر من العلماء والمحدثين في هذه الأماكن بدليل عدم وجود ذكر لها أو لاحد من اهلها في (برنامج شيوخه) .

ثم كان وصول ابي العباس الى ارض مصر ، حيث دخل الاسكندرية سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)(١٠٠)وفيها التقى بجملة من العلماء والمحدثين،وبعض العلماء الاندلسيين ، اشهرهم الرحالة محمد بن احمد ابن جبير صاحب الرحلة المشهورة (١٠١) ، ولابد انه افاد منه ببعض مايتعلق بأمور الرحلة وبعد حصوله على اجازات التحديث من علماء المدينة طوف في ضواحيها

---

(٩٥) الحموي : معجم ، ج١ ، ص ٢٢٨ .

(٩٦) كأمثله انظر ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص ١٥ ، ج٢ ، ص٣٢ ، ١٢٤ .

(٩٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .

(٩٨) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص٨ .

(٩٩) انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ ، ٥٢ ، ١٧٣ . ج٣ ، ص١٤٨ ، ج٤ ، ص ٣٢، ١١٠ ، ١٤٠ ، ٢١٠ .

(١٠٠) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص٥٣٨ .

(١٠١) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .

واطرافها كعادته لمعاينة الاعشاب والنباتات ، ورغم انه لم يصل الينا فيما وصل من متبقيات نصوص (الرحلة) سوى اشارة واحدة الى نبات من الاسكندرية (١٠٢) الا انه اشار كثيراً جداً الى نباتات مصر بشكل عام (١٠٣). ويبدو انه لم يطل المقام بالاسكندرية حيث يذكر بأنه لم يسعفه الوقت ليستجيز من كل من عرفه من محدثيها فأجاز له بعضهم كتابة بعد مغادرته (١٠٤) . وربما كان وراء عدم اطالته المقام بالاسكندرية ، فضلا عن ضيق الوقت امامه للحاق بموسم الحج ، دعوة الملك العادل ابي بكر إبن ايوب ، اخي صلاح الدين وسلطان بلاد الشام ومصر له ، للقدوم عليه في القاهرة ، حيث صادف انه كان موجوداً فيها اثناء قدوم ابي العباس الى مصر (١٠٥) . وقد تلقاه في القاهرة واكرمه ، ويخبرنا المؤرخ الطبيب الثقة ابن ابي اصيبعة ان العادل « رسم ان يقرر له – اي لابي العباس – جامكية وجراية (راتباً ثابتاً) ويكون مقيماً عنده . فلم يفعل . وقال : انما اتيت من بلدي لاحج ان شاء الله وارجع الى اهلي » (١٠٦) . وهذا العرض من قبل العادل انما يدل على مكانة ابي العباس العلمية وذيوع شهرته، فقد كان للملك العادل الكثير من الاطباء والعشابين المشهورين ولم يكن ليطمح الى مرافقه ابي العباس له مع وجودهم لولا ارتفاع قدر علمه . . خاصة اذا علمنا ان خير عشابي العصر في المشرق انذاك وهو رشيد الدين ابو المنصور الصوري (٥٧٣ – ٦٣٩ هـ/ ١١٧٧ – ١٢٤١ م) كان في صحبته في مصر انذاك ، وهو ماعرف عنه من معرفته بادوية واعشاب لم يعرفها من قبله وبمنهجه المتميز بتصوير هيئات النباتات في بيئاتها في جبال لبنان وبلاد الشام، وبكونه

(١٠٢) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص٨١ .
(١٠٣) كمثلة ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ ، ٣٣ ، ١٥٩ ، ج٢ ، ص٨١ ، ج٤ ، ١١٥ ، ١٤٠ .
(١٠٤) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٤٩٠ .
(١٠٥) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ٥٣٨ .
(١٠٦) نفس المصدر والصفحة .

هدفه ، والذي يدفع الى اعتقاد سلوكه هذا الطريق هو انه الطريق التجاري وطريق الحج بين بلاد الشام ومدن الحجاز في ذلك العصر (١١٣) . كما ان بعض الملاحظات التي قدمها ابو العباس نفسه في بعض شذرات (الرحلة) تؤكد هذا ، وتوحي بأنه سلك ذلك الطريق الى الحجاز . مكة والمدينة ؛ ولم يكن بعيداً عن الساحل ؛ فهو يقول عن احد النباتات «الإسرار .. وهو شجر ينبت في اقاصي البحر ، وفي السواحل من بحر الحجاز ؛ رأيته بمقربة من كفافة من طريق ايلة لمن يريد الخوزا (او الحوزة) .. سماه لي بعض اعراب الساحل بما سميته به» (١١٤) . والخوزا او الحوزة هي شعب او واد في الحجاز (١١٥) . وواضح ان ابا العباس قد افاد من وجوده في الحجاز فتجول في انحائه وتعرف على العديد من اعشابه ونباتاته سائلا الاعراب عن أسمائها واستخداماتها مقارناً إياها بما سبق له معرفته من اشباهها او نظائرها في اماكن اخرى سبق بحثه عنها فيها (١١٦) ، فدخل الأودية والجبال هنا وهناك وبالاخص قرب مكة ، فكثيراً مانجد له اشارات يستشف منها ماذكرناه ، كقوله « شجر معروف عند العرب بمكة » (١١٧) . او كقوله « رايته بمقربة من قديد ، وهو بجبال مكة كثير جداً » (١١٨) . او قوله عن نبات اخر وهو شجرة الزقوم «وسماها لي بعض اعراب عرفه (١١٩) . كما اشار الى تجواله في ضواحي المدينة للغرض نفسه يختصر ذلك قوله عن نبات من النباتات « رأيته بين المدينة والبقيع . وسألت عنه

---

(١١٣) انظر Historical Atlas of the Muslim Peoples, Amsterdam, 1957. pp. 16–17.

(١١٤) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٣٣ .

(١١٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣١٩ ، ٤٠٤ .

(١١٦) كامثلة انظر : ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص٣٣ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ج٣ ، ص٨٢ .

(١١٧) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص١٠٧ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٥ .

(١١٩) المصدر نفسه ، ج٢ ص ١٦٦ .

بعض الاعراب فسماه وعرفه .. » (١٢٠) ، اما الاشارات الى ملاحظاته ومشاهداته للنبات في الحجاز بشكل عام فكثيرة مما يدل على مابذله من جهد في البحث والتقصي والتجوال من اجل جمع المعلومات عن نباتات هذا الاقليم العربي . وكعادته فان أبا العباس لم يقصر جهده على تنمية معرفته النباتية وتوثيقها ، بل اخذ الحديث عمن وجده في مكة من نزلائها ، رغم ان عدد من ذكره منهم كان اثنين فقط (١٢١) .

اثر انتهاء ابي العباس من اداء فريضة الحج غادر الحجاز للتو متوجهاً الى العراق ، وقد مر وهو في طريقه الى بغداد بالكوفة وبابل (التحلة) (١٢٢) . ثم كان وصوله الى بغداد غرة صفر سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) . وقد سارع بعد وصوله بثلاثة أيام الى بدء سلسلة من اللقاءات مع رجال الحديث المشهورين في عاصمة الخلافة العباسية . وقد ورد ذكر العشرات منهم في (برنامجه) من رجال ونساء ممن سمع منهم او حصل على اجازة بالتحديث عنهم (١٢٣) كما انه اتصل بذوي المعرفة بالعقاقير والاعشاب في بغداد وافاد من معرفتهم وخاصة بنباتات واعشاب المشرق البعيد التي لم يتح له هو رؤيتها ، وفي اشارة له الى لقاء من هذا النوع يقول عن نبات التربد : « التربد بالعراق على الصفة التي تجلب الينا ، وهو مجلوب اليهم ايضاً من وادي خراسان . واخبرني الثقة العارف بالعقاقير ابو علي البلغاري ببغداد انه بحث في البلاد الخراسانية عن صفته وهيئته وورقه فاخبره الجلابون له ان ورقه على هيئة ورق اللبلاب الكبير الا انه مجدد الاطراف » (١٢٤) . او يشير الى نوع من الحجارة ، وهو حجر البارقي فيقول « هو حجر شكله شكل الحجارة

---

(١٢٠) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٠١

(١٢١) المراكشي : الذيل ، س ١ ق ٢ ، س ١ ق ٢ ، ص ٤٩٠

(١٢٢) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص ١٩٠ .

(١٢٣) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٠ – ٤٩٦ .

(١٢٤) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص١٣٦

المصرية .. اخبرني الثقة عنه ببغداد ، وهو من رآه ولم يعرفه حتى اخبر به وبخواصه العجيبة » (١٢٥) .

ترك ابو العباس بغداد مصعداً مع نهر دجلة باتجاه الشمال ، فحل في تكريت ، وفيها سمع على اثنين من المحدثين (١٢٦) ، ثم سار الى الموصل وسمع الحديث فيها على جملة من رجالها ، وصحب بعضهم ، نخص بالذكر منهم المحدث والمؤرخ الشهير علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بأبن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ/ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م) (١٢٧) ويبدو انه تجول في انحائها بحثاً عن نباتاتها كما انه تحادث مع بعض اهلها بهذا الشأن ، مثال ذلك مااورده من حديث عن نبات العاقول : « هو شوك معروف بالمشرق كله .. وهو كثير بالعراق .. وذكر لي بعض اهل الموصل ان عصارته عندهم تجلو بياض العين والظلمة عنها وهم يستعملونه ايضاً في برودات العين » (١٢٨) .

وليس فيما تبقى من كتابات ابن الرومية ، او غيره ما يشير الى ذهابه الى اربل ، رغم اننا نجد في برنامج شيوخه انه حصل من كوكبوري بن علي ابن بكتكن صاحب اربل واميرها (٥٦٨ ـ ٦٣٠ هـ / ١١٩٠ ـ ١٢٣٢ م)، على السماح بالتحديث عنه بعد ان طلب ذلك منه بوساطة بعض من تقدمه في الرحلة من اصدقائه (١٢٩) .

سار ابو العباس من الموصل قاصداً بلاد الشام ، وفي طريقه مر ببعض مدن الجزيرة الفراتية ،ومما ورد ذكر مروره بها ، مدينة دُنيصر (١٣٠) ،

---

(١٢٥) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٢ .
(١٢٦) المراكشي : الذيل ، س١ ،ق٢ ، جـ ٤٩٦ .
(١٢٧) المصدر نفسه ، س ١ ق٢ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ . وبخصوص ابن الاثير انظر كحالة: معجم المؤلفين ، جـ٧ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .
(١٢٨) ابن البيطار : الجامع ، جـ٢ ، ص٣ .
(١٢٩) المراكشي : الذيل ، س١ ق ٢ ، ص ٥٠٦ .
(١٣٠) المصدر نفسه ، س١ ق ٢ ، ص ٤٩٧ .

وهي مدينة على مسافة فرسخين (حوالي ١٢ كم) . الى الجنوب الغربي من ماردين . والتي كانت في عهد مروره بها قد اصبحت مدينة واسعة كثر سكانها ، وعظمت اسواقها ، بعد ان كانت قبل بضعة عقود من الزمن لاتعدو كونها قرية اعتيادية (١٣١) ، واخذ الحديث من احد رجالها (١٣٢). ثم مر بحران ، وشاهد بها بعض النباتات (١٣٣) ، ثم كان عبوره الفرات الى مدينة حلب من بلاد الشام .

لاغرابة في اتجاه ابي العباس الى بلاد الشام ، فلطالما استهوت بلاد الشام الاندلسيين والمغاربة ورحلة ابن جبير خير تعبير عن ذلك الغرام الذي حمله هؤلاء تجاه بلاد الشام (١٣٤) ،وكما يقول المنجد :« وقل ان رحل الأندلسي الى المشرق ولم يزر الشام . وحتى في اظلم عهودها ، كعهد الفاطميين ، وقد آثرها بعضهم على وطنه ، فاقام بها وتزوج منها وتعلم بها ، او افاد بعلمه اهلها ، ومكث اخرون زمناً فيها ثم عادوا الى بلادهم » (١٣٥) ، ونضيف فنقول انهم عادوا الى بلادهم وفي ذاكرتهم من بلاد الشام اطيب مافيها كما هو حال ابي العباس بن الرومية نفسه (١٣٦) .

حل ابو العباس بحلب ، ولم يحصل له سماع للحديث بها لان من سعى الى لقائه كان مريضاً (١٣٧) ففاته ذلك . ولكنه اطلع على بعض نباتات المكان واستخداماتها الطبية . ويقول في حديث له يسوقه عن نبات المميثا : « ورأيته بالشام على ماوصف . ورأيت منها نوعاً صغيراً جداً ينبت بين

---

(١٣١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٧٨ .
(١٣٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٧ .
(١٣٣) ابن البيطار : الجامع ، ج٣ ، ص ٨٥ .
(١٣٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(١٣٥) صلاح الدين المنجد : «دمشق في نظر الاندلسيين» ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، ١٩٥٨ ، مج ٦ . ص ٨٥ .
(١٣٦) انظر إنطباعات ابن الرومية لدى ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .
(١٣٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٩٩ .

الصخور الجبلية . وأهل حلب يستعملونه في علاج العين ويسميها بعضهم « الحضض » (١٣٨) . على ان اطرف تجربة له في تلك المدينة هي لقاؤه هناك بالعالم الشهير ومؤرخ سير الحكماء والنحاة القاضي ابي الحسن علي إبن يوسف الشيباني ، المعروف بأبن القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ/١١٧٢ - ١٢٤٨ م) ولم يخبرنا ابو العباس بذلك اللقاء ، انما القفطي هو الذي فعل ذلك . فقد دعا القفطي ابا العباس الى داره . ويبدو انهما تحادثا في امور شتى ، من بينها ما اخبر ابو العباس به صاحبه من انه حمل معه في بداية رحلته من اشبيلية حتى تونس كتاب « تعليم المتعلم » في اربعين مجلداً ، وهناك اخذه منه وزير الموحدين في تونس بطريقة فيها بعض العسف الشيء الذي اغضب ابن القفطي (١٣٩) . كما يقول ابن القفطي « اجتمعت به وتفاوضنا في ذكر الحشائش » (١٤٠) وكلاهما ممن عرف بطول باعه في هذا العلم ، ولايتوفر لدينا ، للاسف الشديد ، ماينبئنا بما دار بينهما عن هذا الموضوع (١٤١) ، الا ان المقري يورد نصاً لحوار بين احدهم وابن الرومية يمكن ان يكون الطرف المجهول فيه هو ابن القفطي ومفاده « قال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش ، فقلت له : قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب ، وذكروا انه يستعمل منه شيء كثير ، وهذا يدل على انه كان موجوداً كثيراً ، واما الآن فلايوجد ، ولا

(١٣٨) ابن البيطار : الجامع ، ج٤ ، ص ١٢٤

(١٣٩) جمال الدين علي بن يوسف بن القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ . ج٤ ، ص ١٨٦ -١٨٧ ، وقد تضمنت الروايه تفصيلات اخرى طريفة .

(١٤٠) عمر بن احمد بن النديم : بغية الطلب في تأريخ حلب ، مخطوط ، مج٢ ، ورقة ٤ ، نقلا عن هامش رقم (١) لمحقق كتاب المنذري : التكملة ، ج٦ ، ص ٣٣٦ لا يتمم المحقق نقل النص ويكتفي بهذا الجزء منه

(١٤١) يبدو ان هناك تتمة للحوار في بغية الطلب لم ينقلها المحقق كاملة في هامش التحقيق المذكور في (١٤٠).

يخبر عنه مخبر ، فقال (اي ابو العباس) : هو موجود ، وانما لايعلمون ابن يطلبونه ، فقلت « : واين هو . فقال : بالاحواز منه شيء كثير » (١٤٢) ويتضح بأن ابا العباس ترك لدى ابن القفطي انطباعاً جيداً عن علمه بحيث عده اعقل من رأى (١٤٣) ، وهذا يزيد من استغرابنا عندما لانجد ترجمة لابي العباس بن الرومية في كتاب ابن القفطي المشهور «تأريخ الحكماء» فهو لايمكن ان يكون قد تجاهله او جهله ، ولكن اما انه نسيه او ان ملخص الكتاب الزوزني ، حيث ان الاصل لم يصل الينا - هو المسؤول عن ضياع سيرة ابي العباس من الكتاب اثناء الاختصار ، او ان ابن القفطي كان قد انتهى من كتابه قبل لقائه بأبي العباس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧ م (١٤٤).

كانت المدينة التالية بعد حلب هي دمشق ، وفيها سمع على العديد من المحدثين واشهرهم ابن الحرستاني وابن ملاعب وابن العطار وهم من مشاهير محدثي العصر ، ووصلت الينا اشارته مرة واحدة الى دمشق فيما يتعلق بنباتاتها عندما اخبرنا بأن اهل دمشق يسمون شجرة الغبيراء التي لاتثمر الزيزفون (١٤٥) . ولكنه ذكر بلاد الشام بشكل عام في اكثر من مناسبة في احاديثه النباتية . ورغم اننا لانملك تفاصيل من اي نوع عن اقامته في هذه المدينة الا انها كما يبدو قد تركت في نفسه اثراً خالداً (١٤٦) ، كما كانت قد فعلت بالنسبة لمن قبله من الاندلسيين الذين زاروها (١٤٧) .

---

(١٤٢) المقري : نفح ، ج٣ ، ص ٣٥٤ .

(١٤٣) ابن القفطي : انباه ، ج٤ ، ص ١٨٦ . ويضيف في مكان اخر من نفس الكتاب ، بقوله « وهو اثبت من رايت واسكن» ج٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٣٣٤ .

(١٤٤) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٢٨٧ .

(١٤٥) المراكشي : الذيل ، س١ ، ق٢ ، ص ٤٩٧ - ٤٩٨ . وعن نبات دمشق انظر ابن البيطار : الجامع ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٤٦) يقول ابن سعيد وهو احد من صحب ابا العباس بن الرومية بعد عودته من رحلته بانه «كان كثيراً ما يطنب في الثناء على دمشق ويصف محاسنها ، فلا انفصل عنه إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها فاتمنى ان احل مواطنها...» ، إختصار القدح ، ص ١٨١ .

(١٤٧) المنجد : «دمشق في نظر الاندلسيين» ، ص ٨٥ .

لابد ان ابا العباس بعد تركه دمشق اتجه الى القدس ، لكي يزورها للمرة الثانية ، والذي يجعلنا نعتقد هذا جملة امور ، اولها اننا نعلم انه عاد الى مصر ومنها غادر في طريق عودته الى المغرب (١٤٨) ، بمعنى انه لم يغادر الى وطنه عبر البحر من الساحل الشامي وبالتالي فانه قد توجه براً الى مصر . ثم ثانياً ، فانه طالما قد سلك الطريق البري فلا يعقل ان يكون قد سار بمحاذاة الساحل الشامي جنوباً الى مصر لان الصليبيين كانوا لايزالون يسيطرون على كثير من المدن الساحلية المهمة ، كما انه في فترة وجود ابن الرومية في بلاد الشام كان الصليبيون يجرون استعدادات هائلة لغزو القدس من عكا بعد وصول قوات جديدة اليهم عبر البحر مما دفع بالملك العادل للعودة الى بلاد الشام من مصر في شعبان من السنة للتصدي لهم (١٤٩) ، اضف الى كل ذلك فان ذكر ابي العباس لمدينة القدس عدة مرات في نصوص رحلته ضمن احاديثه النباتية فقط (١٥٠) يوحي بأنه لابد انه قضى فيها مدة تتجاوز كونه قد مر بها مرة واحدة على عجل . من ذلك قوله في نبات ذنب الخروف « رأيته بالبيت المقدس كرمه الله تعالى ويسمونه بذنب الخروف وهو عندهم مجرب في عضة الكلب الكلب » (١٥١) ، ويقول عن نبات البلان « واغصانه يتخذ منها المكانس للطرق ببلاد القدس ونواحيه» ، وربما نستطيع ان نستشف من اشارة اخرى له انه كان فيها وقد تهددها الهجوم الصليبي المحتمل ذلك العام عندما يقول في سياق حديثه عن نبتة معينة «رأيت منها بجبال القدس امنه الله تعالى » (١٥٢) .

---

(١٤٨) المنذري : التكملة ، ج٦ ، ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(١٤٩) علي بن محمد بن الاثير : الكامل في التأريخ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، بلا . ت . ج٩ ، ص ٣١٤ .

(١٥٠) سبقت الاشارة الى هذا الموضوع في هامش (١١١) .

(١٥١) ابن البيطار : الجامع ، ج٢ ، ص ١٢٦ .

(١٥٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٢ .

نزل ابو العباس ، وهو في طريق عودته الى بلاده ، من بلاد الشام الى مصر ليحل بها بعض الوقت للمرة الثانية ، وقد التقاه هناك احد محدثي العصر وواحد من اشهر مترجمي رجال القرن ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٥٨١ – ٦٥٦ هـ/ ١١٨٥ – ١٢٥٨م) (١٥٣) ، الذي اخبرنا بلقائه به في عودته من الرحلة ، وفي هذه المرة قام هو بتحديث بعض العلماء واجازتهم في الحديث عنه (١٥٤) ، واشهر من اخذ عنه الحديث هناك هذه المرة احد كبار محدثي العصر . محمد بن عبد الغني ابن نقطة (٥٧٩ – ٦٢٩هـ/ ١١٨٣ – ١٢٣١م) (١٥٥) ، والذي بعد ان اخذ عنه وصفه بأنه كان «ثقة حافظاً صالحاً» (١٥٦) ورغم ان المنذري لم يتفق له سماع الحديث عن ابي العباس ، الا انه اخبرنا بأنه بعد انتهائه من التحديث غادر متجهاً الى المغرب (١٥٧) .

ان نص المنذري الاخير يوحي ضمناً بأن ابا العباس عاد الى المغرب ، اي انه سلك طريق قدومه الى مصر نفسه في عودته ، الا ان كراتشكوفسكي ذهب الى التخمين بأن ابا العباس ربما رجع الى الاندلس عن طريق صقلية (١٥٨) ، ولم يبين المصدر الذي دفعه الى مثل هذا التخمين ، واعتقد انه احد نصوص (الرحلة) الذي يصف فيه نبات البردي الموجود في صقلية بتفاصيل تمكننا من تصور مروره بها (١٥٩) ، ولكنها لاتقطع بذلك وعلى اية حال فقد عاد ابو العباس ابن الرومية بعد

---

(١٥٣) كحالة : معجم المؤلفين ، ج٥ ، ص ٢٦٤ .

(١٥٤) المنذري : التكملة ، ج ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(١٥٥) كحالة : معجم المؤلفين ، ١٠ : ١٧٩ .

(١٥٦) الذهبي : سير ، ج٢٣ ، ص ٥٩ .

(١٥٧) المنذري : التكملة ، ج٦ ، ص ٣٣٦ .

(١٥٨) كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص ٣٤٢ .

(١٥٩) ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص ٣٤٧ .

رحلة طويلة استغرقت « نحو ثلاثة اعوام » (١٦٠) ، فتكون عودته اذاً بحدود عام (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م) ، وهو في الثالثة والخمسين من العمر :

النشاطات العلمية لابي العباس في الاندلس :

اسهمت رحلة ابي العباس السابقة الذكر في تكوينه العلمي واعداده اعداداً راسخاً . كما عبر عنه المراكشي ، فأنه قد عاد « برواية واسعة وفوائد جمة ، وجلب كتباً نافعة وتصانيف غريبة » (١٦١) . ومسألة جمعه للكتب وشرائها ونسخها على اختلاف مواضيعها وتنوعها مسألة معروفة عنه قبل رحلته ، وقد ساعده على ذلك كونه موسعاً عليه في معيشته ، بحكم حرفته المربحة ، فاذا ما انضاف اليها زهده في الدنيا وحبه البالغ للعلم (١٦٢) امكن ان نتصور مايكون قد جمعه من تلك الكتب النفيسة .

انصرف ابو العباس قبل رحلته وبعدها الى علومه ، ينميها ، ويعلمها ، ويدونها ، والى حرفته ، يمارسها ويرفدها بما يتراكم لديه من علم فيها . ويمكن ان نقسم مناشط الرجل العلمية الى ثلاثة مجالات :

١ـ ممارسة الصيدلة ومايلازمها من معرفة النبات الطبي . فقد عاد ابو العباس الى دكانه ليمارس حرفته فيه وقد ذكر ذلك اكثر من معاصر له ، كأبن الابار الذي التقى به في ذلك الدكان اكثر من مرة وجالسه فيه (١٦٣) ، وابي الحسن بن سعيد (٦١٠ـ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ـ١٢٨٦ م) الذي ذكر مجالسته له في اشبيلية بعد عودته (١٦٤) . وقد كان ناجحاً في حرفته رائج الشهرة فيها يذكر ذلك معاصره واحد اصحاب ولده المراكشي ، فيصف اقبال الناس عليه لحاجتهم اليه مما يستغرق معظم

---

(١٦٠) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٤٨٩ .
(١٦١) المصدر نفسه ، ص ٥١١ .
(١٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .
(١٦٣) ابن الابار : تكملة ، جـ١ ، ص ١٢١ .
(١٦٤) ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .

وقته « اذ كان حسن العلاج في طبه ، موروداً الموضع لثقته ودينه ، امام اهل المغرب قاطبة في معرفة النبات ، وتمييز الأعشاب وتحليتها وعلم منافعها ومضارها ،غير مدافع عنه ولا منازع فيه » (١٦٥) و قد كرر اخرون من معاصريه من اهل المغرب هذه الشهادة (١٦٦) .بل وجاوز ذلك حدود المغرب الى المشرق عندما ذكره مؤرخ الأطباء ابن ابي اصيبعة بأنه « اتقن علم النبات ومعرفة اشخاص الادوية وقواها، ومنافعها واختلاف أوصافها ، وتباين مواطنها ، وله الذكر الشائع والسمعة الحسنة ، كثير الخير .. متحقق الامور الطبية »(١٦٧) .

ب- التحديث والتدريس : فالى جانب قيام ابي العباس بن الرومية بممارسة حرفته مسخراً علمه من اجل جعلها اكثر كفاءة ونجعاً فانه قام باعطاء الحديث لطالبيه ، وعنه اخذ الكثيرون ، فقد اخذ عنه جمع من اهل بلده ، فضلا عن كثير من آخرين ممن أخذوا عنه اثناء رحلته في المغرب ومصر والحجاز والعراق والشام (١٦٨) ، ولا عجب في ذلك فان شهرته كمحدث ليست اقل كثيراً من شهرته عشاباً وقد وصفه مؤرخ عصره ابن الابار بانه «بصير بالحديث ورجاله ، كثير التنفيه به..» (١٦٩) . وسبق لنا ذكر ماقاله حقه اشهر محدثي عصره في المشرق ، ابن نقطة ، عندما وصفه بالثقة الحافظ الصالح وذلك بعد ان سمع عليه احاديث (١٧٠) . ورغم ان ابن الابار نفسه لم يسمع الحديث عن ابي العباس فقد اخبرنا بان معظم اصحابه

---

(١٦٥) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٢.

(١٦٦) فهم على سبيل المثال ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١

(١٦٧) ابن ابي اصيبعة عيون ، ص

(١٦٨) انظر اسماءهم لدى المراكشي

(١٦٩) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١.

(١٧٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٢ ، ص ١٤٢٦

سمعوه عنه (١٧١). ونجد قائمة باسماء عدد ممن اخذ عنه لدى اخرين (١٧٢). وقد كان ابو العباس سمحاً مع طلبة العلم ، يقدم لهم كتبه كي يفيدوا منها ، بل ربما وهب لهم او لمن طلب منه بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود المرتفعة الثمن احتساباً وأملاً في افادة العلم والمتعلمين ، وله في هذا المجال اخبار كثيرة تدل على فضله وكرم طبعه (١٧٣) ، ولهذا فقد احبه تلامذته وخلدوا ذكره ، كما امتدحوه فيما بعد امام طلبتهم (١٧٤).

لم يكتفِ ابو العباس بتدريس الحديث ، بل درّس النبات والاعشاب الطبية ، وقد وصل الينا ذكر تلميذ واحد من تلامذته في هذا العلم ، ولكن جهبذ من جهابذة الاطباء العشابين ، ذلك هو عبدالله بن احمد بن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) صاحب كتاب (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) الشهير (١٧٥) . ولا نستطيع ان نحدد بدقة مقبولة مدى تأثير أبي العباس في تكوين العالم ابن البيطار ، اكثر من ان نقول انه ربما كان يخرج معه الى ضواحي اشبيلية والى اقليم الشرف المجاور لها يدرسون النبات على الطبيعة (١٧٦) وانه ربما كان يحضر مع معلمه الى دكانه . ولكن فقدان كتب المعلم ابي العباس ومعظم كتب ابن البيطار يجعل من الصعوبة بمكان تلمس اثر الاستاذ في تلميذه ، وان كان بالامكان ان نحتمل ان اثره فيه كان من حيث انضاج معرفة ابن البيطار وتطوير قابليته لفهم ونقد النتاج العلمي النباتي لقدماء اليونان كديسقوريدس وجالينوس (١٧٧) ، وهما مما قيل ان ابن البيطار

---

(١٧١) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ .
(١٧٢) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١١ .
(١٧٣) نفس المصدر والصفحة .
(١٧٤) كتب احد تلامذته سيرته كما سنعرضه فميا بعد . وانظر إبن الابار : تكملة ، ج ١ ، ص١٢١ ، وكذلك المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١١ حيث يقول « حدثنا عنه شيوخنا .. وكان محدثاً حافظاً ناقداً » .
(١٧٥) كحالة : معجم المؤلفين ، ج٦ ، ص ٢٢ .
(١٧٦) ابراهيم بن مراد : « ابن البيطار » ، مجلة المورد ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٧ ، مج ٦ ، عدد ٤ ، ص ١٢٩ .
(١٧٧) انظر لاحقاً التعريف بهذين العالمين في الحديث عن مؤلفات ابي العباس .

امتلك في معرفة نتاجهما في مجال النبات الطبي وفي نقدهما وشرح معطياتهما مايتعجب منه (١٧٨) ، ذلك ان ابا العباس بن الرومية نفسه كان قد اشتهر بدوره بالمامه بتراث ديسقوريدس وجالينوس النباتي وتأليفه في شرح اعمالهما ونقد ترجمتهما الى العربية (١٧٩) وربما كان ابو العباس هو الذي حفز ابن البيطار ، تلميذه ، للذهاب الى مصر للالتحاق بخدمة الايوبيين فيها لكي يضمن مستقبله لديهم ، بعد ان فضل هو العودة الى بلده على عروضهم له ، ففعل ابن البيطار عندما رحل بعد سنتين من عودة ابن الرومية ، ثم كان التحاقه بخدمة الملك الكامل الايوبي (٦١٥ — ٦٣٥هـ / ١٢١٨ — ١٢٣٨م) ابن الملك العادل ، في مصر ، لكي يصبح هناك رئيساً للعشابين (١٨٠) .

ولم ينس التلميذ استاذه ، فضلاً عن انه اقتبس منه حوالي الـ (٨٥) مرة في كتابه (الجامع) فانه اشار اليه بقوله «شيخنا»(١٨١)او «شيخنا ومعلمنا»(١٨٢).

جـ — التأليف . كان التأليف من جملة انشطة ابي العباس العلمية ، وقد الف عدة كتب ورسائل لم يصل الينا منها شيء للاسف الشديد ، سوى نقولات معدودة من كتاب (الرحلة) تضمنها كتاب (الجامع) لابن البيطار كما ذكرناه . ويغلب على الغرض من مؤلفات ابي العباس طابع خاص ، وهو انها اما مختصرات او تعليقات او استدراكات او تذييلات او شروح او نقد ، وقد عبر المراكشي عن ذلك خير تعبير في جمل وجيزة عندما قال ان لابي العباس «فيما ينتحله من الفنين تصانيف مفيدة وتنبيهات نافعة واستدراكات نبيلة بارعة ، وتعقبات لازمة ،» (١٨٣) . ولا مزيد على هذا وهو مانوحي به عناوين مؤلفاته الضائعة ، وهي كما يأتي :

---

(١٧٨) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٦٠١ .
(١٧٩) انظر لاحقاً مؤلفات ابن الرومية في النبات .
(١٨٠) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٦٠١ .
(١٨١) ابن البيطار : الجامع ، ج٤ ، ص ٢٠٩ .
(١٨٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٢٢ .
(١٨٣) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ .

١ – في الحديث النبوي

أ – المعلم بزوائد البخاري على مسلم (١٨٤).

ب – نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري (١٨٥).

جـ – اختصار (الكامل) في الضعفاء والمتروكين . في مجلدين (١٨٦).

والمقصود ب(الكامل) الذي اختصره هنا هو كتاب (الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة) لأبي أحمد عبدالله بن محمد المعروف بابن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) الذي كان في ستين جزءاً واعتبر من أكمل كتب الجرح والتعديل الذي اعتمد عليه الائمة (١٨٧).

د – الحافل في تذييل (الكامل) . وهو تذييل على الكتاب الذي اختصره كما ذكرناه سابقاً ، وقد كان في مجلد واحد ضخم (١٨٨).

---

(١٨٤) نفس المصدر والصفحة . وكذلك الذهبي : تذكرة ، ج٢ ، ص١٤٢٦ . وسير ، ج٢٣ ، ص ٥٩ . وكذلك ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ . ويسميه (زيادة المعلم بزوائد البخاري على مسلم) ويبدو هذا العنوان اكثر تنسقاً في بنائه. وكذلك المقري : نفح ، ج٣ ، ص ٣٥٣ . وكذلك مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، طبعة الاوفسيت – طهران ، ط٣، ١٩٤٧ ، ج٢ ، ص ١٧٤١ ، وهو يسميه خطأ (المعلم بما رواه البخاري على مسلم).

(١٨٥) المراكشي : الذيل ، س١ ، ج٥ ، ص ٥١٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ،

(١٨٦) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص ١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ . وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ١٢١ . حاجي خليفة : كشف : ج٢ ، ص ١٣٨٢ .

(١٨٧) حاجي خليفة : كشف ، ج٢ ، ص ١٣٨٢

(١٨٨) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢١ ، ويقول ابن الابار ان شيخه ابن الخطاب عن واجب كان يستحسن هذا الكتاب ويثني عليه ، والمراكشي ، س١ ق ٢ ، ص ٥١٣ ، وقد ورد لديه (تدليل) بدل (تذييل) . والذهبي : تذكرة ، ج٢ ، ص ١٤٢٥ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ . وحاجي خليفة : كشف ، ج٢ ، ص ١٣٨٢ .

هـ — توهين طرق حديث الاربعين . في اربعين باباً (١٨٩) .

و — اختصار (غرائب حديث مالك) (١٩٠) . و (الغرائب) هذا هو من جمع ابي الحسن علي بن عمر البغدادي الدار قطني (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) (١٩١) .

ز — التذكرة ، او (برنامج شيوخه) (١٩٢) . يفترض ان تكون هذه التذكرة بمثابة الجدول لاسماء الشيوخ الذين اخذ عنهم ابو العباس الحديث ، ويصفها ابن الابار بعد ان يسميها (فهرسة) بقوله : «وله فهرسة حافلة افرد فيها روايته بالاندلس من روايته بالمشرق» (١٩٣) . ويبدو انه توفي وقد ترك اكثر من نسخة من تذكرته تلك فيها تفاوت واخطاء يدلنا على ذلك قول المراكشي الذي اوردها في كتابه (الذيل والتكملة) عندما تحدث عن ابي العباس «هذا منتهى من انتقاه ابو العباس النباتي من الشيوخ الذين استجيزوا له حسبما مر تفسيره وعلى ماذكرهم في فهارس له منوعة بين بسط وتوسط وقفت منها كذلك بخطه وبخط بعض اصحابه والاخذين عنه» (١٩٤) .

---

(١٨٩) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ . وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ . وحديث الأربعين هو ماورد ان الرسول (ص) قال وهو «من حفظ من امتي اربعين حديثاً في امر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء» ويقول حاجي خليفة «واتفقوا على انه حديث ضعيف وان كثرت طرقه وقد صنف العلماء في هذا مالا يحصى من المصنفات» وعد حوالي (٦٨) كتاباً عدا شروحها والتعليق عليها ، انظر كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٢ — ٦١ .

(١٩٠) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١ ، والمراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص ٢١٩ .

(١٩١) انظر ترجمته لدى كحالة : معجم المؤلفين ، ج٧ ، ص١٥٧ — ١٥٨ .

(١٩٢) ليلاحظ ان تسمية برنامج او فهرسة او تذكرة تعني شيئاً واحداً ولكن الألفاظ اختلفت بأختلاف الأزمنة انظر ابا علي الحسن علي القلصادي : رحلة القلصادي ، تح محمد ابو الأجفان ، الشركة التونسية ، ١٩٧٨ ، من مقدمة المحقق ، ص٦٨ .

(١٩٣) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص١٢١

(١٩٤) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٠ ، والفهرس فيه من ص ٤٩٠ — ٥١٠ ولكن ينقص منه اسماء الشيوخ الأندلسيين وترد في صفحة اخرى من الترجمة نفسها

فالمراكشي في الحقيقة وفر نسخة محققة من التذكرة في كتابه ، عني بضبطها عناية كبيرة . وعندما يصف لسان الدين بن الخطيب بقوله«وبرنامج مروياته واشياخه مشتمل على مئين عديدة، مرتبة اسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها،(١٩٥) فانما يصف ماحققه المراكشي وصححه .

ح- اخبار محمد بن اسحق (١٩٦) .

وله في موضوع الصلاة والآذان .

ط- حكم الدعاء في ادبار الصلوات (١٩٧) .

ي- كيفية الآذان يوم الجمعة (١٩٨) .

٢ - في النبات .

ينطبق قول المراكشي سابق الذكر على نمطية اغراض مؤلفات ابي العباس إبن الرومية في النبات ، وذلك من حيث كونها استدراكات او نقوداً او تعليقات ، باستثناء كتابه الاصيل (الرحلة) الذي سنفصل الحديث عنه بعض الشيء . وهذه المؤلفات هي :

أ - شرح (حشائش) ديسقوريدس و (أدوية) جالينوس والتنبيه على اوهام مترجميها (١٩٩) .

والمعروف ان ديسقوريدس هو طبيب يوناني (٤٠ - ٩٠ ميلادية تقريباً) وهو اشهر العشابين في العالم القديم قبل الاسلام ، وقد ألف كتابه

---

(١٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، جا ، ص ٢١٨ .

(١٩٦) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص ٥١٣ ، وابن الخطيب : الاحاطة ، جا ، ص ٢١٨ . ولا ندري ماكنه هذا العمل .

(١٩٧) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ .

(١٩٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٩٩) نفس المصدر والصفحة ، وكذلك ابن الخطيب : الاحاطة ، جا ، ص٢١٩. ويسميه ابن ابي اصيبعة (تفسير اسماء الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) ، عيون ، ص ٥٣٨ .

(Materia Medica) بعد تجوال ودرس طويل الاعشاب وخواصها الطبية سنة (٧٠م) (٢٠٠) . وقد ترجم هذا الكتاب ثلاث مرات الى العربية .وسمي (بكتاب الاعشاب)وجرى شرحه عدة مرات كما فسر ونقد من قبل علماء النبات والاطباء المسلمين في اكثر من مناسبة قبل عهد ابي العباس بن الرومية(٢٠١)

اما جالينوس فهو الطبيب اليوناني الشهير (١٢٩ - ١٩٩ ميلادية تقريباً) والذي اشتهر كأعظم اطباء العالم القديم قبل الاسلام والذي ترك عدداً كبيراً من المؤلفات في مختلف فروع الطب (٢٠٢) ، وقد قام العرب المسلمون بترجمة معظمها في بغداد وغيرها ، بحدود القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلاديين ، ومنها الكتاب المقصود هنا (كتاب الادوية المفردة) وقد ترجمه حنين بن اسحق العبادي (١٩٤ - ٢٦٠هـ/٨١٠ -٨٧٣م) في بغداد (٢٠٣) والواضح ان ابا العباس شرح في كتابه المذكور مادة الكتابين مجتمعة كما نقد بعض صيغ الترجمة والاخطاء التي وقع فيها المترجمون العرب عند محاولتهم ايجاد البدائل العربية للتسميات اليونانية.

ب - التنبيه على اغلاط الغافقي في ادويته (٢٠٤) .

جـ - الرحلة .

---

(200) Encyclopaedia Britannica, Micropaedia, 15th .edition, U.S.A. 1979,. Vol. III p. 563.

(٢٠١) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٥ .

(202) Ency . Brit. Vol. IV. p. 385.

(٢٠٣) محمد بن اسحق بن النديم : الفهرست ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، بلا .ت ، ص٤١٨.

(٢٠٤) لا نعرف شيئاً يذكر عن الغافقي هذا ، وقد ترجم له ابن ابي اصيبعة ترجمة غاية في الايجاز ، اغلبها مديح للرجل ، دون ذكر تأريخ مولده او وفاته او اسم مؤلفه ويصف الكتاب هكذا «وكتابه في الادوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه ، قد استقصى فيه ماذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ واتم معنى . ثم ذكر بعد قوليهما ماتجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة.. فجاء كتابه جامعاً» ، عيون ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

بعد كتاب الرحلة اشهر كتب ابي العباس بن الرومية ، وربما كان أحد مصادر شهرته الكبيرة . وقد ورد اسم الكتاب لدى من اشار اليه هكذا فقط (الرحلة) (٢٠٥) دون اضافة . بأستثناء لسان الدين بن الخطيب فهو الوحيد الذي اسماه (الرحلة النباتية) (٢٠٦) وربما كان هذا الكتاب هو آخر ماالفه الرجل ، ويقول ابن الخطيب :« الرحلة النباتية» (٢٠٧) ، وهو الغريب الذي اختص به ، الاانه عدم عينه بعده . وكان معجزة في فنه» (٢٠٨) . وينتابنا الاستغراب كيف ان ابن ابي اصيبعة لم يذكر الكتاب عندما ترجم لابي العباس . وهو المعروف انه تلميذ ملازم لتلميذ ابي العباس ابن البيطار (٢٠٩) بينما يذكر لنا ابن العديم ، وهو معاصر شامي لابي العباس (٥٨٦ — ٦٦٠ هـ/ ١١٩٠ — ١٢٦١ م) بانه وقف على كتاب صنعه ابو العباس بن الرومية في الحشائش ورتب اسماءها على حروف المعجم ووصفه بأنه كتاب حسن كثير الفائدة (٢١٠) ، وهذا الوصف ينطبق على كتاب (الرحلة) لابن الرومية ، اما كيف وصل الكتاب الى ابن العديم فهذا دليل على ان نسخاً منه وصلت الى مصر قبل مرور وقت طويل على تأليف الكتاب ، وربما كان ابن البيطار هو واسطة جلبه فلابد انه حصل على نسخة منه بعد انتهاء تأليف استاذه له ، حيث من الواضح ان ابن البيطار كان يمتلك نسخة منه عندما اعد كتابه (الجامع لمفردات الأدوية) بحكم كثرة اقتباسه منه .

ضاع هذا الكتاب ولم يكن ليصلنا منه شيءلولا ان ضمن ابن البيطار في كتابه (الجامع) مقتبسات منه ، حيث ان كتابه احتوى (٨٥) اقتباساً

---

(٢٠٥) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ . وحاجي خليفة : كشف ، جـ٢ ، ص ١٤١٩ .

(٢٠٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ١ ، ص ٢١٩ .

(٢٠٧) يضيف المحقق كلمة (والمستدركة) بعد النباتية دون ذكر مصدره ، فأثرنا تجاهلها .

(٢٠٨) نفس المصدر والصفحة .

(٢١٠) ابن العديم : مخطوط البغية ، نقلا عن هامش محقق المنذري : التكملة ، جـ٦ ، ص٣٣٦ . هامش (١) .

من (الرحلة) ترد مبعثرة في انحاء اجزاء كتابه الاربعة ، مشاراً اليها بعبارات مثل « وفي كتاب الرحلة لابي العباس النباتي » (٢١١) او « ابو العباس النباتي في كتاب الرحلة» ، (٢١٢) . او « كتاب الرحلة» فقط ان لم يكتف بذكر اسم المؤلف دون اسم الكتاب . وليس من اليسير ان نشرح منهج الكتاب وبناءه ومحتواه طالما اننا لانمتلك الكتاب بكامله ، ولا نعلم كم تكون مقتبسات ابن البيطار من حجم الكتاب الاصلي ، اضف اننا لا نعلم هل ان اقتباسات ابن البيطار كانت اجزاءاً من قطع اكبر حجماً ام انها نصوص تمثل كل ماقاله ابو العباس بخصوص الموضوع المقتبس النص من اجله .
ومع ذلك يمكن ايجاز الملامح الرئيسة للكتاب كالاتي :

(الرحلة) هي خلاصة مشاهدات ومعاينات ودراسة ابي العباس للنباتات المختلفة التي مر بها في رحلته المذكورة سابقاً ، كما انها حصيلة حواره مع بعض علماء الاعشاب والعطارين في بعض المدن التي مر بها يضاف اليها ماجمعه من افواه اعراب البوادي او بربر الشمال الافريقي او بعض سكان المدن مما يتعلق بأسماء بعض الاعشاب وخواصها الطبية واوجه استخداماتها في الاقاليم التي تنبت فيها ، يضاف الى كل هذا وذاك القليل من معلوماته التي حصل عليها بالدرس في بلاده الاندلس اوقرأها في بعض كتب الصيدلة او النبات (٢١٣) . وبذلك فالكتاب لايمثل جملة معرفة ابي العباس بالاعشاب بل هو يمثل التفاصيل النباتية لرحلة علمية ، فهو تماماً كما يقول كراتشكوفسكي « ان الكتاب قد كرس فعلا بتمامه للمسائل النباتية وحدها،

---

(٢١١) ابن البيطار : الجامع ، جـ٢ ، ص١٤ ، ٧٧ .

(٢١٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٨١ . سيقوم الباحث بنشر النصوص المتبقية من الرحلة مع دراسة وافية .

(٢١٣) يذكر كتابين او ثلاثة فيما تبقى لدينا من نصوص ، منها كتاب «فقه اللغة» للثعالبي ، او « النبات» لابي حنيفة الدينوري .

وحفل بمعلومات جديدة في صددها . مثال ذلك مايورده من نباتات سواحل البحر الاحمر» (٢١٤) .

اما منهج الكتاب ، فان مادته رتبت تحت اسماء النباتات ، نباتاً نباتاً ، مرتبة هجائياً . وجرى تناول كل نبتة على حده ، ورغم اننا لانستطيع ان نجد تناولا منتظماً لجوانب بعينها في النبتة يجري تناولها في حال عرض المعومات عن كل نبتة ، الا انه يمكن القول انه جرى التأكيد على نطق اسم النبات وتحريك حروفه ، خاصة ان لم يكن الاسم عربياً مما قد ينتاب النطق بأسمه اللبس (٢١٥) ، كما يبين فيما اذا كان الاسم عربياً ام بربرياً ام يونانياً ، وغالباً ماتذكر الاسماء المختلفة للنبات الواحد بأختلاف الامكنة (٢١٦) ، من بواد ومدن وقرى ، مما مر به ابو العباس في رحلته او شاهده في بلاده وسمعه هناك ، وكثيراً ، وليس دائماً مايرد ، وصف اجزاء النبتة او العشبة المذكورة ، كجذورها اوسوقها او اوراقها او زهرها او ثمرها (٢١٧) . واذا ماشابهت النبتة نبتة اخرى ذكر ذلك من باب التمييز والتعريف للقارىء (٢١٨) ، وزيادة على كل هذا حوت بعض النصوص ، طرائف متفردة مما يتعلق بنبتة او عشبة دون غيرها ، اما من حيث تأثيرها ، او سبل استخدامها او طرق نقلها بعد جنيها الى الاسواق (٢١٩) .

بجانب كل المؤلفات السابقة فان المراكشي يذكر بأنه كان لابن الرومية مؤلفات اخرى صغيرة او كبيرة لم يسمها (٢٢٠) ، وربما كان احدها

---

(٢١٤) كراتشكوفسكي : تأريخ الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص٣٤٧ .
(٢١٥) كمثال انظر ابن البيطار : الجامع ، ج١ ، ص ٩٥ .
(٢١٦) كامثلة انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص٨٦ ، ج٣ ، ص ٩٥ .
(٢١٧) كمثال انظر المصدر نفسه ،ج٢ ، ص١٢ حديث المؤلف عن نبات القرصعنة .
(٢١٨) كمثال انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٣ .
(٢١٩) كأمثلة انظر المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٩ ، ج٤ ، ص٣ — ٤ ، ج١ ، ص٧٣ .
(٢٢٠) المراكشي ، الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٣ .

كتاب « الادوية المفردة » الذي ذكره ابن ابي اصيبعة (٢٢١) ، الا اذا كان هذا هو كتاب (الرحلة) الذي ذكرناه .

تقضت حياة ابي العباس بن الرومية في هذه المناشط العلمية المفيدة والتي توزعت على مساحة حياته جملة ، والى جانبها كان له بعض الولع بنظم الشعر ولكنه لم يكن ممن يرغب في ذكر مايؤلفه من شعر للاخرين ، ربما حياءً او لانه لم يعد الشعر شيئاً جدياً مما يجب ان يشغل به العالم نفسه ، يقول صاحبه ابن سعيد « وكان غير متظاهر بقول الشعر ، الا ان اصحابه يسمعون منه ويروون عنه ، وحملته عليه في بعض الاوقات ، فقال : تكفيك هذه الابيات ... [وهي في الثناء على مدينة دمشق التي كان يطنب في حديث الشوق اليها] :

خيم بجلقَ بين الكأس والوترِ في جنة هي ملء السمع والبصر (٢٢٢)

كما انه كان كثير النسخ للكتب فان لم يكن منصرفاً الى التأليف اوعلاج الناس في دكانه انصرف الى النسخ . هذا رغم افراط رداءة خطه (٢٢٣) . والتي قد تكون احد اسباب قلة انتشار كتبه ولكثرة اهتمامه بالنسخ والعلم وزهده بما سواه فان رواية تروى عن مرور ابن هود حاكم الاندلس ، وبلده اشبيلية من (٦٢٦ – ٦٣٥ هـ/ ١٢٢٨ – ١٢٣٧ م) به وهو ينسخ في دكانه ، فوقف ابن هود بباب الدكان وسلم على ابن الرومية ، الذي رد السلام دون ان يقوم للقائه ، ثم سرعان ماانكب على كتاب ينسخه ، فبقى ابن هود «واقفاً منتظراً ان يرفع اليه رأسه ساعة (طويلة) فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى » (٢٢٤) .

---

(٢٢١) ابن ابي اصيبعة : عيون ، ص ٥٣٨ .

(٢٢٢) ابن سعيد : اختصار القدح ، ص ١٨١ .

(٢٢٣) المراكشي : الذيل ،س١ ق٢ ، ص ٥١٢ .

(٢٢٤) ابن الابار : تكملة ، جـ١ ، ص١٢٢ . والمراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ . وقد ذكرتها كل المصادر الاخرى .

وفاته وذكراه :

توفي ابو العباس بن الرومية في اشبيلية سنة (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م) بأجماع المؤرخين (٢٢٥)، ورغم ان ابنه ابو النور محمد ذكر ان وفاته كانت منسلخ ربيع الاول من السنة (٢٢٦) . بينما اشار ابن الابار الى انها ليلة الاثنين مستهل ربيع الاول (٢٢٧) . فلا يبدو انهما مختلفان تماماً حيث وضح ابو جعفر بن الزبير فيما نقله المراكشي الغموض اذ بين ان ابا العباس توفي « بين الظهر والعصر في يوم الاحد الموفي ثلاثين من ربيع الاول (٢٢٨) .

لقد كانت وفاة ابي العباس قبل سقوط مدينته اشبيلية بيد ملك قشتالة بتسع سنوات . ويبدو ان من تبقى من افراد اسرته هاجروا منها انذاك . وان كنا لانعلم بالضبط عدد افراد اسرته او من بقي منهم بعده ، الا اننا نعلم بالتأكيد ان ابنه محمد ابا النور كان يعيش بعد ذلك في مراكش مجاوراً للمؤرخ المراكشي فيها (٢٢٩) . وتوحي كنية ابي العباس ، بأن له إبناً آخر هو عباس . ولكننا لم نسمع عنه شيئاً البتة

انبرى تلامذة الشيخ بعد وفاته يعملون على تخليد ذكراه فرثاه بعضهم. (٢٣٠) الا ان احدهم ، و هو الاخص به، المحدث الناقد ابو محمد بن قاسم الحرار الجزيري ، تهمم بجمع اخبار ابي العباس ، وحشد مآثره واثاره وتضمينهـا في مجلد واحد كبير (٢٣١) ، وقد انجز ذلك بالفعل،

---

(٢٢٥) انظر جميع المصادر التي سبق ايرادها في ترجمة حياة ابي العباس بن الرومية .

(٢٢٦) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٣ .

(٢٢٧) ابن الابار : تكملة ، ج١ ، ص ١٢٢ .

(٢٢٨) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص ٥١٣ – ٥١٤ .

(٢٢٩) المصدر نفسه ، ص٥١١ .

(٢٣٠) وردت اسماؤهم لدى ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢٢١ .

(٢٣١) المراكشي : الذيل ، س١ ق٢ ، ص٥١٣ .

وخرج بسفر قيم في سيرة الرجل ومراثيه اطلق عليه عنوان « نثر النور والزهر في نشر احوال الشيخ ابي العباس النباتي » (٢٣٢) . وتضمن بالاضافة الى ماذكرناه قصيدة جميلة في رثائه من (٦٩) بيتاً نظمها القاضي اسماعيل بن سعد المسعود بن عفير ، احد اصدقاء ابي العباس ، وكان الجزيري قد طلب منه نظمها ليضمنها في كتابه المذكور ، الذي ضاع لسوء الحظ ، وبقيت منه هذه القصيدة فقط (٢٣٣) ، وهي قصيدة جميلة تفوح بالثناء على الشيخ وتنتشر في اطرافها اسماءالورود والرياحين والأعشاب التي عاش معها ابو العباس ، ويكتنف قافيتها الآس والاغراس ، وربما تضمن كتاب الجزيري هذا ذكر القاب ابي العباس وكناه ، وهي كثيرة تراصفت وراء اسمه كلما اورد احدهم ترجمته ، فقد كني ابا العباس ، كما لقب نتيجة علمه وعمله بالنبات والاعشاب بجملة القاب ومنها النباتي ، وهو اللقب الذي استخدمه الجزيري في عنوان كتابه المذكور ، كما انه احد لقبين ذكرهما كثيراً تلميذه الاخر ابن البيطار عندما كان يشير اليه مقتبساً منه (٢٣٤) . كما نعت بالزهري ، نسبة الى الزهر والزهور (٢٣٥) ، وبحكم قيامه بأخذ الحديث ورؤيته وحفظه وضبطه والاجازة فيه فقد لقب بالحافظ لدى الكثيرين ، وهو اللقب الثاني الذي اورده ابن البيطار مراراً الى جانب سابقه (٢٣٦) ، ولكن ابا العباس عرف بأبن الرومية ، اكثر مما عرف بأية كنية اخرى كما يشير الى ذلك كل من ترجم له ممن ذكرناهم الا ان المراكشي يقول بأن ابا العباس « كان يكرهها ويقلق لها ، فشهر بالعشاب

---

(٢٣٢) ذكره ابن العديم : بغية ، هامش المنذري : التكملة جـ٦ ، ص٣٣٥ ، هامش (١) .

(٢٣٣) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص٥١٤ – ٥١٧ .

(٢٣٤) ورد في اكثر من موضع في (الجامع) مثلا ، جـ١ ، ص٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٥ ..

(٢٣٥) الذهبي : المشتبه ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

(٢٣٦) كمثال انظر الجامع ، جـ١ ، ص١٠٥ ، ١٧٨ ..

والنباتي» (٢٣٧) . وربما كان هذا هو السبب وراء عدم استخدام تلميذه ابن البيطار لهذه الكنية مطلقاً ، ولا الجزيري . كما لحظنا من عنوان كتابه في سيرته ، ولم يكن ذلك حتماً الا من باب الوفاء للشيخ وما احب ، رغم ان الاخرين من معاصريه واصدقائه كابن الابار وابن سعيد كان قد غلب لديهم استخدامها . ويبقى اخيراً لقب الحزمي الظاهري . وواضح انه متأت من كونه على مذهب ابن حزم كما سبق وذكرناه .

لقد لف الزمن اعمال الرجل وطواها فضيعها ، كما جنت الايام على (سيرته) التي اعدها تلميذه فغيبتها ، ومع هذا فان النبذ اليسيرة عن حياته واعماله نفذت عبر تراجم المترجمين ، كافية كي تؤبد له ذكراً في رقم الخالدين .



---

(٢٣٧) المراكشي : الذيل ، س١ق٢ ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

(*) يقدم الباحث جزيل شكره الى الأستاذ الدكتور منجد مصطفى بهجت – قسم اللغة العربية ، كلية الاداب ، جامعة الموصل لحرصه على مساعدة الباحث ببعض المصادر التي لم تتيسر له عن طريق آخر .

اشكال الطلاق والخلع والفراق في عصر الرسالة والراشدين
– ابعاد اجتماعية واقتصادية –

الدكتور
نجمان ياسين
كلية الاداب – جامعة الموصل

تمهيد :

من المعروف ان عرب ماقبل الاسلام كانوا يطلقون ثلاثاً، وكان الرجل يقول لامرأته : انت طالق واحدة فهو أحق الناس بها . فان طلقها أثنتين فكذاك . فان طلقها ثلاثاً ، فلا سبيل له عليها، وقد بين الشاعر الاعشى هذا الأمر في ابيات شعرية قالها عندما اجبره قومه على طلاق امرأة معينة (١). كما كان الرجل منهم يطلق امرأته وهي حامل فتكتم الولد وتذهب به الى غيره وتكتم مخافة الرجعة (٢) ولعلهم لم يكونوا قد عرفوا عدداً محدداً للطلاق . فكان الرجل منهم يطلق امرأته ماشاء من الطلقات فاذا كادت تحل من طلاقه راجعها ماشاء (٣) ومن سننهم انه لم يكن للنساء عدة يعتدونها عند الطلاق فكانت المرأة المتوفى عنها زوجها تقعد بعده سنة ، وقد ولد منهن عدة ابناء على فرش ازواجهن الجدد من ازواجهن الاولين . الامر الذي ادى الى مشاكل في النسب والميراث امتدت الى نهاية عصر الراشدين(٤). ولم تكن هذه المشاكل هينة لوجود اسماء كثيرة في قريش والعرب واجهت متاعب النسب والميراث (٥) وقد عد عرب ماقبل الاسلام . الايلاء طلاقاً فكان الرجل يولي من امرأته ويقول : والله لايجتمع رأسي ورأسك ولاأقربك ولاأغشاك . فكان اهل الجاهلية يعدونه طلاقاً (٦) .

(١) ابن حبيب . المحبر ، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .
(٢) الطبري ، جامع البيان ، ج٢ ، ص ٢٧١ .
(٣) القرطبي ، تفسير القرطبي ، ج٣ ، ص١٢٦ .
(٤) ابن حبيب ، المحبر ، ٢٣٨ – ٢٣٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .
(٦) الطبري ، جامع البيان ، ج٢ ، ص ٢٥٩ .

وعرف عرب هذه المرحلة الظهار كشكل من اشكال الفراق الذي يؤدي الى الطلاق ، فكان الرجل اذا قال لامرأته في الجاهلية انت علي كظهر أمي حرمت عليه (٧) .

وعرفت هذه المرحلة شكلا من اشكال العلاقة بين الرجل والمرأة بشأن الفراق والطلاق وهو العضل ، الذي نرى بأنه حالة معلقة بين الطلاق والبقاء في حيازة الرجل ، والغاية منه هي الاضرار المادي والنفسي بالمرأة اذ عرف عنهم انهم كانوا يعضلون اياماهن وهن كارهات للعضل حتى يمتن فيرثوهن اموالهن وقد كان العضل معروفاً بمكة اذ كانت قريش قد جربت ان ينكح الرجل المرأة الشريفة ، فان لم توافقه فارقها على الا تتزوج الا بأذنه واشهد عليها الشهود وكتب بذلك عهداً ، فاذا تقدم اليها خاطب يتوجب عليها ان تعطي الذي فارقها وترضيه ، وبخلاف ذلك يذلها ويعضلها ، فتبقى في وضع معلق صعب (٨) ويتضح ان الانصار في المدينة قد عرفوا العضل (٩) .

ووجد الخلع بتعويض عندهم ايضاً فقد جاء عن عامر بن الظرب قوله لابن أخيه وكان قد تزوج ابنته واراد طلاقها : وان لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك ، فرد عليه صداقه وخلعها فهو أول من خلع من العرب (١٠) .

وقد كان أمر الطلاق بشكل عام بيد الرجل دون المرأة ، ورأينا ثمة علاقات متداخلة بين ماهو اقتصادي وماهو اجتماعي في اشكال الطلاق والايلاء والظهار والعضل التي عرفها ومارسها عرب ماقبل الأسلام

---

(٧) الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، م٢ ، ج٣ ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٨) الطبري ، جامع البيان ، ج٤ ، ص٢٠٩ - ٢١٠ .

(٩) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٠٨ .

(١٠) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج٤ ، ص٧٦ .

ويبدو أن سيادة الرجل المتأتية عن الطبيعة الجغرافية لارض العرب والأعراف والتقاليد هي التي اتاحت له ان يهيمن في هذا الأمر ، شأنه في الامور الاخرى التي تنسجم مع المعطيات المكانية والزمانية، بيد أن ذلك لم يحل دون ظهور نساء ترك لهن أمر الطلاق ومفارقة ازواجهن فقد كانت سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار قد تزوجت هاشم بن عبد مناف وكانت لاتنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، اذا كرهت رجلا فارقته (١١) وهذا النص يرينا ان بعض النساء قد ملكن امر الطلاق بأيديهن ، ويبدو ان هذا الامتياز كان للارستقراطيات من النساء ، فابن حبيب يقدم لنا اسماء ست نساء لهن منعة اقتصادية وعشائرية (١٢) ويؤكد هذا ايضاً ان ماوية بنت عفزر كانت ملكة لاتتزوج الا من ارادت فبعثت غلماناً لها ليأتوها بأوسم من يجدونه بالحيرة ، وقد تزوجت حاتماً الطائي (١٣) - ، وان هنداً بنت عتبة بن ربيعة قالت لابيها :- اني امرأة قد ملكت امري فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه علي (١٤) وهي أمور تؤشر كما اسلفنا ان النساء المنحدرات عن اصول عريقة ، صاحبات الجاه والثراء ، كن الاستثناء في القاعدة ، التي كانت تؤشر وتؤكد امتلاك الرجل لحق الطلاق واشكال الفراق الاخرى .

تنظيم الاسلام للطلاق وأشكال الفراق :

واجه الاسلام ، ومن خلال القرآن الكريم ، الطلاق واشكال الفراق التي عرفها عرب ماقبل الاسلام والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والدينية الناجمة عنها . بمجموعة من الاحكام التشريعية التي استهدفت ارساء قيم

---

(١١) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص١٣٧ .

(١٢) ابن حبيب المحبر ، ص٣٩٨ .

(١٣) العسكري ، جمهرة الامثال ، ج١ ، ص١٤٥ - ١٤٧ .

(١٤) القالي ، الامالي ، ج٢ ، ص١٠٤ .

المجتمع الجديد الموحد ، وقد افصح الله عز وجل عن ذلك خير افصاح في قوله : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بأحسان ولا يحل لكم ان تأخذوا مما اتيتموهن شيئاً » (١٥) وفي قوله : « واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» (١٦) ، وقوله : « ياايها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا » (١٧) وقوله : «ياايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ».(١٨) وقوله : « فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف أوفارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم » (١٩) وفي قوله :« واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر ، واللائي لم يحضن واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن » (٢٠) .

وقد جاءت اجراءات الرسول – ص – العملية لتحقق البعد التطبيقي للاحكام التشريعية بشأن تنظيم الطلاق ،وابتداءً لابد من التأكيد بان الاسلام قد عد الطلاق ابغض الحلال عند الله (٢١) ويظهر ان الرسول – ص – قد عد طلاق الرجل إمرأته ثلاثاً واحدة ،وحاكاه في ذلك الخليفة الثاني (٢٢)

---

(١٥) البقرة / ٢٢٩ .

(١٦) البقرة / ٢٣١ .

(١٧) الأحزاب ، ٤٩ .

(١٨) الطلاق / ١

(١٩) الطلاق / ٢

(٢٠) الطلاق / ٤ .

(٢١) ابو داؤد ، السنن ، جا ، ص٥٠٣ .

(٢٢) المصدر نفسه ، جا ، ص٥٠٩ .

ان لم يكن الرجل قد دخل بالمرأة ، ويروى ان رجلا جاء الرسول — ص — وقال : إني طلقت امرأتي البتة . فقال : ماأردت بها ؟ قلت : واحدة قال : والله ؟ . قلت والله . قال : فهو ماأردت » (٢٣) وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، أذ أمره ابوه بطلاقها ثم سمعه يبدي الأسف والحزن فأمره بمراجعتها ، ففعل (٢٤) وقد تصدى عمر بن الخطاب — رض — للاستعجال في الطلاق وعدم التريث فيه ، وجعل الثلاث المجتمعة ثلاثاً لاواحدة اذ رأى الناس قد تتابعوا فقال : اجيزوهن عليهن (٢٥) ويظهر ان التوسع في الطلاق هو الذي حدا بعمر بن الخطاب — رض — ان يتخذ هذا الاجراء . والحق اننا لانعدم وجود من اشتهر بانه مطلاق مذواق كالمغيرة بن شعبة الذي كان قد أحصن وطلق الكثير من النساء (٢٦) والحسن بن علي — رض — الذي قيل له في ذلك فاجاب : « إن الله تعالى علق بهما الغنى فقال : « وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، وقال : وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، فانا اتزوج للغنى واطلق للغنى (٢٧) ولعل الخليفة علي بن ابي طالب قد خشي ان يجر طلاق الحسن — رض — للنساء

---

(٢٣) الترمذي ، السنن ، ج٣ ، ص٤٨٠ .
وانظر الشوكاني ، نيل الاوطار ، ج٧ ، ص١٦ ، الاصبهاني ، محاضرات الأدباء م٢ ، ج٣ ، ص٢٢٥ ، إبن القيم ، اعلام الموقعين ، ج٣ ، ص٤٦ ، حيث يوردون ان طلاق الثلاث في مجلس واحد قد عد تطليقة واحدة من قبل الرسول — ص— .

(٢٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج١ ، ص١٢٣ .

(٢٥) ابو داود ، السنن ، ج١ ، ص٥٠٩ ، الشوكاني ، نيل الاوطار ، المصدر السابق نفس المكان ، الاصبهاني ، المصدر السابق ، نفس المكان . ويورد مسلم عن عمر بن الخطاب قوله : « ان الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة» صحيح مسلم ، ج٢ ، ص١٠٩٩ .

(٢٦) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج٣ ، ص٣١ .

(٢٧) الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، م٢ ، ج٣ ، ص ٢٠٠ .

الى خلق عداوة بين القبائل فدعا أهل الكوفة الى الكف عن تزويجه بقوله : يا اهل الكوفة لاتزوجوا الحسن فانه رجل مطلاق، فقال رجل من همدان : والله لنزوجنه فما رضي امسك ، وماكره طلق (٢٨) وابطل الرسول — ص — وفقاً للنص القرآني العادة التي تتيح للرجل ان يطلق المرأة مايشاء ثم يراجعها قبل ان تنقضي عدتها فقد غضب رجل من الانصار على زوجته وقال لها : لااقربك ولا تحلين مني ، قالت : كيف ، قال اطلقك حتى اذا دنا اجلك راجعتك ثم اطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك ، قال فشكت ذلك الى النبي — ص — فانزل الله تعالى ذكره الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح بأحسان (٢٩) وقد طلق الرسول — ص — حفصة بنت عمر ابن الخطاب — رض — فرجعت الى اهلها الا انه راجعها بعد العدة تنفيذاً لأمر الله الذي اعلمه بأنها صوامة قوامة وانها من نسائه في الجنة (٣٠) وعد تحليل المرأة المطلقة بالزواج من غير الرجل الأول امراً لابد منه ان ارادت العودة الى زوجها الاول ، فقد جاء عن عروة بن الزبير قوله : « ... قال سمعتها تقول جاءت امرأة رفاعة القرظي الى رسول الله — ص — فقالت كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير وان مامعه مثل هدبة الثوب فقال لها تريدين ان ترجعي الى رفاعة ، لاحتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك (٣١) وقد امتد هذا الاجراء الى العصر الراشدي والاموي ، لأنه تشريع ، حيث تصدى عبد الله بن عمر — رض — لأجهاض حيلة في التحليل اذ « جاء رجل الى ابن عمر — رض — فسأله : عن رجل

---

(٢٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٢٩) الطبري ، جامع البيان ، حـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ القرطبي ، التفسير حـ٣ ، ص ١٢٦ .
(٣٠) الأصبهاني : محاضرات الادباء ، م٢ ؛ ج٣ ، ص ٢٢٦ .
(٣١) الطبري ، المصدر السابق ، حـ١٢ ، ص ٢٩١ .
مسلم ، صحيح مسلم ، حـ٢ ، ص ١٠٥٦ — ١٠٥٧ .
وانظر : ابن شبة ، تأريخ المدينة المنورة ، حـ٣ ، ص ١٠١٨ حيث قال عثمان بن عفان — رض — لرجل اراد ان يحل امرأة جاره : « الا نكاح رغبة غير مدالسة» .

طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول ؟ قال : لا . الا نكاح رغبة ، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله — ص — » (٣٢) وقد رأى أحد الباحثين المعاصرين ان هذا الأجراء قد وضع ، للمحافظة على سلامة المرأة ،وذلك إما لمنع الازواج من الطلاق بسرعة أو لمنع الرجل من ان يقطع علاقاته الزوجية بدون ان يسمح للمرأة بالزواج مرة ثانية (٣٣) ونستطيع ان نضيف الى ذلك ، ان هذا الاجراء يتضمن عقوبة للرجل في الوقت نفسه على المستوى النفسي . ونلاحظ ان التنظيم قد حفظ للمرأة المطلقة حقها المالي حتى قبل ان يدخل بها الرجل ، وقد فسر مفسر هذا الأمر بقوله: «...يا ايها الذين صدقوا الله ورسوله اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن يعني من قبل ان تجامعوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها يعني من احصاء اقراء ولا اشهر تحصونها عليهن فمتعوهن يقول اعطوهن مايستمتعن به من عرض أو عين مال...»(٣٤) كما فسر قوله تعالى : — ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . بقوله : هو الرجل يتزوج المرأة ولايسمي لها صداقاً ثم يطلقها قبل ان يدخل بها فلها متاع بالمعروف ولاصداق لها ، قال وادنى ذلك ثلاثة أثواب درع وخمار وجلباب وازار » (٣٥) كما حدد حق المرأة المطلقة قبل الدخول بها بنصف ما فرض لها من صداق الا اذا تركت ذلك عن قناعة (٣٦) كما ان العفو عن أخذ المتعة قد ترك بيد ولي امر المرأة الذي بيده عقد النكاح (٣٧) ويتضح ان مقدار المتعة كان رهن قدرة وامكانية الرجل المادية التي ارتبطت بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية بدلالة ان

---

(٣٢) ابن حجر المكي ، الافصاح عن احاديث النكاح ، ص ٧٨ .
(٣٣) وات ، مونتجمري ، محمد في المدينة ، ص ٤٣٣ .
(٣٤) الطبري ، جامع البيان ، حـ٢٢ ، ص١٤ .
(٣٥) المصدر نفسه حـ٢ ، ص ٣٢٨ .
(٣٦) المصدر نفسه ، حـ٢ ، ص ٣٣٤ .
(٣٧) المصدر نفسه ، حـ٢ ، ص٣٣٥ .

عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته ومتعها بخادم (٣٨) وان الحسن بن علي بن ابي طالب – رض – متع زوجة له بعشرة الاف درهم وزق عسل (٣٩) ومتع الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان مطلقته سكينة بنت الحسين بعشرين الف دينار (٤٠) وبدلالة ان ابن عباس قد رأى بأن المتعة اعلاها خادم وأدناها كسوة ، وان مالكاً رأى ان لاحد لها لا في قليل ولا في كثير وان بعض الفقهاء قد حددها بثلاثة دنانير لمن يستلم عطاءً (٤١) وربما استمر آخرون باعطاء الزوجة المطلقة خادماً كما فعل عبد الله بن الزبير ، او جارية كما فعل عروة بن الزبير (٤٢) .

وكما تمتعت بعض النسوة الارستقراطيات اللواتي لهن عزة ومنعة بحق الطلاق في ايديهن بالنسبة لعرب ماقبل الاسلام ، فقد اعطي حق الطلاق للمرأة الشريفة اجتماعياً في الاسلام ايضاً ، اذ ترك أمر الطلاق لبعض النساء وكن يطلقن ازواجهن الا انهن كن يرجعن الى الازواج الذين كانوا يحلفون بأنهم قد ملكوا المرأة حق تطليقة واحدة فقط . فقد ورد أن « ... رجلا من ثقيف ملك امرأته أمرها فقالت أنت الطلاق فسكت ثم قالت أنت الطلاق فقال بفيك الحجر . ثم قالت انت الطلاق : فقال بفيك الحجر فاختصما الى مروان بن الحكم فاستحلفه ماملكها الا واحدة وردها اليه (٤٣) والواقع ان حق الطلاق اعطي تكريماً للمرأة الارستقراطية والكريمة النسب (٤٤) وكان بعضهن يحسن التصرف فيه فقد قال الحسن بن علي بن حسين لامرأته

---

(٣٨) الطبري ، جامع البيان ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٣٨ .

(٤٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ج١٦ ، ص ١٥١ .

(٤١) انظر : مالك ، المدونة ، ج٥ ، ص٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٤٢) المصدر نفسه ، نفس المكان .

(٤٣) مالك ، الموطأ ، ص٤٦٠ ، وانظر : ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ج٣ ، ص ٩٦٨ حيث قرر عثمان بن عفان – رض – طلاق امرأة ملكت امرها بيدها . وافتى زيد بن ثابت في امرأة اخرى ، بأن تعود الى زوجها ، بينما مضى الأمر عبد الله بن عمر بشان امرأة ثالثة المصدر نفسه ، ص ٤٢٩ .

(٤٤) خليل ، خليل احمد ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي ، ص ٦٢

عائشة بنت طلحة : امرك بيدك : فقالت : قد كان عشرين سنة بيدك فاحسنت حفظه ، فلم أضيعه اذ صار بيدي ساعة واحدة وقد صرفته اليك فاعجبه ذلك منها وأمسكها » (٤٥) .

وانتبه التنظيم الى أهمية تقليص الطلاق وكراهية التوسع فيه ، فعد الرجل الذي يحدث نفسه بالطلاق غير مطلق للمرأة (٤٦) ولم يجز طلاق المعتوه المغلوب على عقله (٤٧) وبالمقابل وجدنا من قبل الخليفة الثاني يأمر ابنه عبد الرحمن بطلاق امرأته ولكنه يراجعها فيما بعد . كما وجدنا ابن عمر يطلق امرأته انصياعاً لأمر ابيه (٤٨) وطلق آخر امرأته انصياعاً لأمر أمه(٤٩). الا ان التنظيم قد حفظ حق المرأة المطلقة من قبل الزوج المريض فقد ورث عمر وعثمان وعلي وابي بن كعب – رض – وغيرهم من الصحابة المرأة المطلقة ثلاثاً في مرض وموت الزوج (٥٠) كما راعى التنظيم الجانب الانساني عند المرأة المطلقة، اذ قضى ابو بكر الصديق–رض– بأن تحتفظ مطلقة عمر بن الخطاب – رض – الانصارية بأبنه عاصم (٥١).

وعولج وضع المرأة الناشز وفقاً لقوله تعالى : « واللائي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » (٥٢) وفي قوله : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضاً

(٤٤) خليل ، خليل احمد ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي ، ص ٩٢ .
(٤٥) ابن عبد ربه ، طبائع النساء ، ص ١٨٢ .
(٤٦) الترمذي ، السنن ، ج٣ ، ص ٤٨٩ .
(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٤٩٦ .
(٤٨) الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، م٢ ج ٣ ص ٢١٦ .
(٤٩) المصدر نفسه ، نفس المكان .
(٥٠) ابن القيم ، اعلام الموقعين ، ج٣ ، ص ١٤٥ .
ابن رشد القرطبي ، بداية المجتهد ، ج٢ ، ص ٦٨ .
وقد اورد مالك أن « عثمان بن عفان ورث نساء بن مكمل منه وكان طلقهن وهو مريض» الموطأ ٤٧٥ .
(٥١) مالك ، المصدر نفسه ، ص ٦٥٦ ، وانظر : ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ج٢ ص ٧٦٧ – ٧٦٨ ، ج٣ ، ص ٩٦٧ .
(٥٢) النساء ٣٤/٥ .

فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير» (٥٣) والمرأة الناشز هي التي تخرج من موضعها (٥٤) ويظهر أن بعض النسوة قد نشزن في زمن الرسول – ص – فرخص لأزواجهن بضربهن – فأطاف برسول الله – ص – نساء كثير يشكون ازواجهن، فقال النبي – ص – : لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون ازواجهن، ليس اولئك بخياركم» (٥٥) وقد اعاد الرسول – ص – امرأة الشاعر الاعشى التي نشزت وعاذت برجل آخر بعد ان أخذت المرأة العهد والميثاق وذمة النبي بألا يعاقبها زوجها الاول»، (٥٦) كما ان الخليفة عثمان بن عفان – رض – قد اعاد الى عقيل بن ابي طالب زوجته فاطمة بنت عقبة بن ربيعة التي نشزت عليه (٥٧).

ووضع بعد انساني في طلاق الحائض، حيث تركت الحرية للزوج في ابقاء او مفارقة المرأة بالطلاق فقد ورد عن «...ابن عمر انه طلق أمرأته وهي حائض في عهد رسول الله – ص – فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك؟ فقال رسول الله – ص – مره فليراجعها ثم ليتركها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم ان شاء امسك بعد، وان شاء طلق قبل ان يمس فتلك العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء» (٥٨) وبقيت العدة مهمة في الطلاق في عصر الراشدين والعصر الأموي اذ تزوج حمران بن ابان امرأة في عدتها فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيره الى البصرة (٥٩).

---

(٥٣) النساء / ١٢٨ .

(٥٤) القالي، الامالي، جـ٢، ص ١١٣ .

(٥٥) ابو داؤد، السنن، جـ١، ص ٤٩٥ .

(٥٦) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٥٧) القرطبي، مختار تفسير القرطبي، ص ٢٨٩، ابن شبة: تأريخ المدينة، جـ ٣، ص ١٠٥٥ .

(٥٨) مسلم، صحيح مسلم، جـ٢، ص ١٠٩٣

(٥٩) سيف بن عمر الضبي، الفتنة ووقعة الجمل، ص ٤٢ .

واشترط ان تمضي المرأة عدتها في بيتها اذا طلقت البتة لان في هذا تحبيباً للمراجعة والعودة الى العقل وواقعية التشريع فقد جاء « ... ان يحيى بن سعيد بن العاصي طلق ابنة عبد الرحمن بن الحكم البتة فانتقلها عبد الرحمن إبن الحكم فارسلت عائشة ام المؤمنين الى مروان بن الحكم وهو يومئذ أمير المدينة فقالت : « اتق الله واردد المرأة الى بيتها » (٦٠) ففعل بمثل ماأشارت اليه . ومن قبل ضرب عمر بن الخطاب – رض – طليحة الأسدية التي زوجت في عدتها وفرق بينهما وقال :– ايما امرأة نكحت في عدتها فان كان زوجها الذي تزوجها لم يدخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الاول ثم كان الاخر خاطباً من الخطاب وان كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من الاول ثم اعتدت من الاخر ثم لايجتمعان ابداً» (٦١) وهذا التأكيد على العدة في الطلاق يعود الى ان الخلفاء الراشدين قد واجهوا بعض المشاكل العملية التي من شأنها اختلاط الانساب وضياع المواريث ، ومصادرنا تحدثنا عن اكثر من حالة اشترك فيها رجلان وقعا على امرأة في طهر واحد بحيث كانت المشكلة تحسم من قبل الراشدين عن طريق القرعة أو القافة لالحاق الولد بأبيه (٦٢) لأن الطفل في النظام الأمي ينتمي الى عائلة الأم سابقاً ، ولم يكن لمعرفة الوالد الحقيقي سوى اهمية ضئيلة حتى اذا ما اخذ الرجال بالاهتمام بأطفالهم اصبح من الطبيعي ان يحاولوا التأكد من أبوتهم الجسدية فيما يتعلق بأبناء زوجاتهم ، وقد شجع الاصلاح القرآني هذه النزعة التي تنحاز لتعزيز النظام الأبوي (٦٣) ومن هنا شدد الأسلام على عدم كتمان المرأة المطلقة

---

(٦٠) مالك ، الموطأ ، ص ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ – ٤٤٣ .

(٦٢) مالك ، الموطأ ، ص ٦٣٥ .

وانظر : ابن قيم الجوزية ، الفراسة ، ص ٢٠١ ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .

(٦٣) وات ، مونتجمري ، محمد في المدنية ، ص ٤١٨ .

للحمل ان كانت حاملا من زوجها الأول الذي فارقت (٦٤) وقد علق عمر بن الخطاب – رض – بعد ان قال لرجل ان يقرأ – لايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله في ارحامهن –«ان فلانة ممن يكتمن ماخلق الله في ارحامهن وكانت طلقت وهي حبلى فكتمت حتى وضعت» (٦٥) ويبدو ان سبب كتمان النساء حملهن هو خوفهن من مراجعة ازواجهن لهن (٦٦).

ومن أسباب الفراق الاخرى بين الرجل والمرأة غير الطلاق . الردة واللعان والأيلاء وهي اسباب نادرة الوقوع (٦٧) فالردة توجب التفريق بين الرجل والمرأة (٦٨) واللعان ايضاً يوجب التفريق بين الرجل والمرأة وذلك عندما يدعي الرجل ان الولد الذي انجبته امرأته ليس من صلبه وانما هو ولد رجل آخر : اي لايعترف به ويتهم زوجته بالزنا ، وقد تلاعن اكثر من رجل على عهد الرسول – ص – مع امرأته ، ففرق بينهما (٦٩) وكان ولد الملاعنة يلحق بأمه ، وينحصر الارث بينه وبينها وبين اخوته لأمه ولموالي امه ان كانت مولاة (٧٠) وقد تضع الدولة مابقي من الميراث في بيت المال (٧١).

واقر التنظيم في الاسلام ، الخلع كحالة من حالات الفراق ، ويقال – ان اول خلع كان في الاسلام اخت عبد الله بن ابي انها اتت رسول الله (ص)

(٦٤) الطبري ، جامع البيان ، حـ٢ ، ص ٢٧١ .
(٦٥) المصدر نفسه ، نفس المكان .
(٦٦) المصدر نفسه ، نفس المكان .
(٦٧) الترمانيني ، عبد السلام ، الزواج عند العرب ، ص ٣١١ .
(٦٨) ابو سيف ، الخراج ، ص ١٨١ .
(٦٩) مالك ، الموطأ ، ص ٤٧١ ، ابن شبة ، تاريخ المدينة المنورة ، حـ٢ ، ص ٣٨٠ – ٣٨١
مسلم ، صحيح مسلم ، حـ٢ ، ص ١١٣٠ .
ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٣٦ .
(٧٠) مالك ، الموطأ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، وانظر : ابن شبة ، تاريخ المدينة المنورة حـ٢ ، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .
مسلم ، صحيح مسلم ، ٢٠٠ ، ص ١١٣٠ – ١١٣٣ .
(٧١) مالك ، المصدر نفسه ، نفس المكان .

فقالت يارسول لايجمع رأسي ورأسه شيء ابد اني رفعت جانب الخباء فرأيته اقبل في عدة فاذا هو أشدهم سواداً واقصرهم قامة واقبحهم وجهاً ، قال زوجها يارسول الله اعطيتها افضل مالي حديقة فلترد علي حديقتي. قال ماتقولين قالت نعم وان شاء زدته قال ففرق بينهما » (٧٢) اي ان الفراق اوجب ان ترد المرأة المال الذي أخذته من الرجل ، وعمل الخلفاء الراشدون بسنة الرسول – ص – بشأن الخلع اذ أقره عثمان بن عفان – رض – (٧٣) وكان الخليفة علي بن ابي طالب – رض – يقول : «لا يأخذ من المختلعة فوق ماعطاها» (٧٤) وهو امر يوحي بأن بعض الرجال قد مارسوا الضغط على المرأة التي تريد الفراق وطالبوها بأكثر مما أعطوها من مال ، وامتد الخلع إلى العصر الاموي في المدينة (٧٥) ونظراً لأن الاسلام قد حرم من الرضاع ما يحرم من النسب (٧٦) فأن بعض الناس قد لجأوا إلى حيلة من اجل التفريق بين الازواج وقد فهم عمر بن الخطاب – رض – هذا الامر ولذا : «لم يجز شهادة امرأة في الرضاع ، وقال لو فتحنا هذا الباب للناس لم تشأ امرأة ان تفرق بين اثنين الا فعلت» (٧٧) كما واجهت علي إبن ابي طالب – رض – حالة محرجة عالجها بحكمة اذ جاءه رجل واخبره : «ان امرأة أتته فذكرت انها ارضعته وامرأته ، فقال علي : – ماكنت لأفرق بينك وبينها وان تنزه خير لك ، فامسك الرجل» (٧٨)

---

(٧٢) الطبري ، جامع البيان ، حـ٢ ، ص ٢٨٦ .
وانظر : الدار قطني ، السنن ، حـ٣ ، ص ٢٣١ ، ابو داؤد ، السنن ، حـ٢ ص ٤٨٤ .
مالك الموطأ ، ص ٤٦٩ .
القرطبي ، تفسير ، القرطبي ، حـ٣ ، ص ١٣٩ .
الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، م٢ ، حـ٣ ، ص ٢٢٦ .
(٧٣) مالك ، بمصدر نفسه ، ص ٤٦٩ .
(٧٤) الطبري ، المصدر السابق ، حـ٢ ، ص٢٨٦ .
(٧٥) مالك ، المصدر السابق ، ص ٤٦٩ .
(٧٦) ابن قيم الجوزية ، الفراسة ، ص ٦٣ .
(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

وتصدى التنظيم للايلاء والظهار بحزم ، ففي الوقت الذي كان يعد طلاقاً عند عرب ما قبل الاسلام فان التنظيم ابطله وفي هذا يقول احد المفسرين : «... فاذا ظاهر الرجل من امرأته ، فإن الله لم يجعلها أمه ولكن جعل فيها الكفارة.» (٨٠) وكفارة الظهار هي عتق رقبة استناداً إلى قوله تعالى : — «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا» (٨١) وحددت للأيلاء فترة اربعة اشهر فان فاء فيها كفر عن يمينه وهي امرأته وان مضت اربعة اشهر ولم يفيء فهي تطليقة بائنة وهي احق بنفسها وهو احد الخطاب (٨٢) وقد جاء عن النبي —ص— عن تطبيق الظهار عندما ظاهر اوس بن الصامت ، وعد زوجته خولة بنت خويلد الخزرجية كأمه واراد الرسول — ص — ان يفرق بينهما الا انها جادلته فاعادها إلى زوجها تنفيذاً لقوله تعالى : «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله» (٨٣) ، كما راجع عمر بن الخطاب — رض — زوجته ، اذ يروى انه : «طلق امرأته فارادت ان تغتسل من الحيضة الثالثة فقال : امرأتي ورب الكعبة» (٨٤) كما ان العضل الذي يضع المرأة في حالة صعبة تقع بين الطلاق والزواج قد عولج من قبل التنظيم ، اذ منع عضل النساء الذي تسرب إلى الاسلام كعادة قديمة ، حرصاً على مصلحة المرأة المالية (٨٥) .

---

(٧٩) الاصبهاني ، محاضرات الادباء ، م٢ ، ج٣ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .
(٨٠) الطبري ، جامع البيان ، ج٢١ ، ص٧٥ .
(٨١) المجادلة / ٣ .
(٨٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٥٩ .
(٨٣) القرطبي ، مختار تفسير القرطبي ، ص ٨٠٥ ، وانظر : ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ج٢ ، ص ٣٩٣ — ٣٩٤ .
(٨٤) الطبري ، جامع البيان ، ج٢ ، ص ٢٦٥ .
(٨٥) ابو داؤد ، السنن ، ج١ ، ص ٤٨١ — ٤٨٢ .
الجصاص ، احكام القرآن ، ج١ ، ص ٣٩٧ .
الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

المصادر الاولية :

- القرآن الكريم

١ - ابن حبيب ، ابو جعفر محمد بن امية (ت ٢٤٥ هـ)

- **المحبر** ، تحقيق ، يلزة ليختن شتيتر ، المكتب التجاري ، بيروت.

٢ - الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

- **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار المعرفة ، ط٢ ، بيروت ١٩٧٢

- عن الطبعة الاولى الكبرى ببولاق ١٣٢٨ هـ

٣ - القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ) .

- **الجامع لاحكام القران** ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م ٢٠ ج .

٤ - الاصبهاني . ابو القاسم حسين بن محمد الراغب الاصبهاني. (ت ٥٠٢ هـ) .

- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت .

٥ - ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) .

- **عيون الاخبار** . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٠ .

- **المعارف**، تحقيق ، ثروت عكاشة ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٠ .

٦ - ابن هشام ، محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨ هـ) .

- **السيرة النبوية** ، تحقيق : مصطفى السقا وزميليه ، مطبعة البابي الحلبي ٤ ج : في قسمين ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٥ .

٧ - العسكري ، ابو هلال الحسن - عبد الله (ت ٣٦٥ هـ)
- **جمهرة الامثال** ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم وزميله ط ١ ، القاهرة ١٩٦٤ .
٨ - القالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) .
- **الامالي** ، دار الكتب المصرية .
٩ - الترمذي ، ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ) .
- **سنن الترمذي** ، تحقيق : احمد محمد شاكر ، مصطفى البابي الحلبي واولاده ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٧ م .
١٠ - أبو داود سليمان بن الأشعث بن اسحق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) .
- **سنن ابي داود** ، مكتبة مطبعة البابي الحلبي واولاده ، بمصر ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٢ .
١١ - الشوكاني ، محمد بن علي اليمني (ت ١٢٥٥ هـ) .
- **نيل الأوطار** ، ادارة الطباعة المنيرية بمصر ١٣٤٤ هـ . ٩ ج .
١٢ - ابن عبد ربه ، احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت ٣٢٨ هـ)
- **العقد الفريد** ، تحقيق : احمد امين وزميله ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ٧ ج ، القاهرة ١٩٦٥ .
- **طبائع النساء** ، تحقيق : محمد ابراهيم سليم ، مكتبة القرآن القاهرة ، ١٩٨٥ .
١٣ - مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) .
- **صحيح مسلم** ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار احياء التراث العربي ، ٥ ج ، بيروت .
١٤ - الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) .
- **سير اعلام النبلاء** ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، وطبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٥ ــ السيوطي : الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) .
ــ **تأريخ الخلفاء** ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني . ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٦ ــ ابن شبة : ابو زيد عمر النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ) .
ــ **كتاب تأريخ المدينة المنورة** ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، ٤ج ــ دار الاصفهاني للطباعة ، جدة ١٣٩٣ هـ .

١٧ ــ ابن حجر المكي (ت ٩٧٤ هـ) .
ــ **كتاب الافصاح عن احاديث النكاح** ، تحقيق : محمد شكور امرير المياديني ، المكتبة العالمية ، بغداد ١٩٨٨ .

١٨ ــ الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) .
ــ **الاغاني** حـ ١ ــ حـ ١٦ طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٠ فما بعد . حـ ١٧ ــ حـ ٢٤ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٦٩ فما بعد .

١٩ ــ مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) .
ــ **الموطأ** . تحقيق : فاروق سعد ، دار الافاق الجديدة ، ط ١ ، بيروت ١٩٧٩ .
ــ **المدونة** ، ١٦ ج في ستة مجلدات ، طبعة ساسي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .

٢٠ ــ الضبي ، سيف بن عمر الضبي الاسدي (ت ٢٠٠ هـ).
ــ **الفتنة ووقعة الجمل** ، جمع وتصنيف : احمد راتب عرموش ، دار النفائس ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٢١ ـ ابن قيم الجوزية ، شمس الدين محمد بن ابي بكر بن ايوب الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ ه) .
ـ الفراسة ، تحقيق : صلاح الدين احمد السامرائي ، مكتبة القدس ، بغداد ١٩٨٦ .

٢٢ ـ ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢ ه) .
ـ **الخراج** ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٢٣ ـ الدار قطني ، الامام علي بن عمر (ت ٣٨٥ ه) .
ـ **سنن الدار قطني** ، عالم الكتب ، بيروت .

٢٤ ـ الجصاص ، ابو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت ٣٧٠ ه) .
ـ **احكام القرآن** ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ ه

٢٥ ـ ابن القيم ، محمد بن ابي بكر بن ايوب (ت ٧٥١ ه) .
اعلام الموقعين ٣٠ ج مطبعة النيل بمصر .

٢٦ ـ ابن رشد القرطبي ، ابو وليد محمد بن احمد الاندلسي الشهير بأبن رشد الحفيد (ت ٥٩٥ ه) .
ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** ، مطبعة احمد كامل بمصر ١٢٣٣ه .

٢٧ ـ ابن هشام محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨ ه) .
السيرة النبوية ، مصطفى السقاوزميليه ، مطبعة البابي الحلبي ، ٤ ج في قسمين ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٥ .

المراجع الثانوية :

١ ـ وات . مونتجمري .
ـ **محمد في المدينة** ، ترجمة : شعبان بركات ، المكتبة العصرية . بيروت .

٢ ـ خليل احمد خليل .

ـ مضمون الاسطورة في الفكر العربي ، دار الطليعة ، ط ١ ، بيروت ١٩٧٣ .

٣ ـ حميد الله : محمد .

ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار الارشاد ، ط٣ بيروت ١٩٦٩ . وطبعة دار النفائس ، ط٥ ، بيروت ١٩٨٥ .

٤ ـ الحكيم ، توفيق .

ـ مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن (اعداد وتقديم) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

٥ ـ الترمانيني ، عبد السلام .

ـ الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام ، عالم المعرفة ، عدد ٨٠ الكويت ١٩٨٤ .



اضواء على بيعتي العقبة الاولى والثانية ودور الانصار العسكري حتى غزوة بدر

رياض هاشم هادي
جامعة الموصل / مركز الدراسات التركية
(مدرس)

تمهيد : ـ

يبدو من الاتصالات الاولى التي قام بها الرسول (ص) مع سكان يثرب ، انها كانت بيئة عرفت مستوى من النضج في الوعي الديني والسياسي وان اسلام اهل يثرب دون غيرهم من العرب في تلك الفترة جاء بدوافع دينية وسياسية معاً ، فنضجهم الديني وخوفهم من استعادة اليهود السيطرة على مدينة يثرب هو الذي مهد لانتشار اسلامهم بهذه السرعة .

بيعة العقبة الاولى : ـ (*)

تحدثنا الروايات التاريخية بأن الرسول (ص) قد التقى ببعض الرجال من الاوس وقد اسفرت هذه اللقاءات عن اسلام اثنين او اكثر من الأوس [1] كان من ثمار هذه اللقاءات انه لم يبق دار من دور الاوس والخزرج ، الا وفيها ذكر رسول الله (ص) [2] ، واصبح ذكر النبي معروفاً لدى سكان المدينة فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الاوس والخزرج اثنا عشر رجلا فلقوا رسول الله (ص) بالعقبة [3] في السنة الثانية ق ـ هـ وتمت فيها البيعة الاولى ، او بيعة النساء [4] عدها بعـ المؤرخين الثانية [5] ، على اعتبار

(*) العقبة : وهي العقبة التي بويع فيها النبي (ص) بمكة ، فهي عقبة بين منى ومكة نحو ميلين وعندها المسجد وفيها ترمي جمرة العقبة (انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان د/ط دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ م ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(١) ابن هشام : ابو محمد عبد الله الحموي : سيرة النبي : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، د/ ط . دار الفكر ، بيروت ، د / ت ج٢ ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) ابن هشام : ج٢ ، ص ٣٩ ، ابن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د/ ط دار صادر بيروت ٨٠ - ١٣٨٨ هـ - ٦٠ - ١٩٦٨ م ، ج١ ص ٢١٩ .

(٣) ابن هشام : نفس المكان ، ابن سعد : نفس المكان .

(٤) تسمى احيانا ببيعة النساء أي وفق بيعة النساء التي نزلت بعد فتح مكة (انظر نص البيعة الديار البكري : حسين بن محمد : تأريخ الخميس في احوال نفس نفيس د/ط مؤسسة شعبان ، بيروت : عن الطبعة الوهبية ، ١٢٨٣ هـ ، ج ١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٥) الديار بكري : ج١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

ان اللقاء مع النفر الستة من الخزرج الذين وافوا الرسول (ص) في السابق كانوا اهل العقبة الاولى (٦) .

وفي العقبة الاولى تمت مبايعة الرسول (ص) من قبل وفد من الاوس والخزرج الذين تعهدوا فيها للرسول(ص) على ان لانشرك بالله شيئاًولانسرق ولانزني ،ولا نقتل اولادنا ولانأتي ببهتان نفتريه من بين ايدينا وارجلنا،ولا نعصيه في معروف ، فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم الى الله عز وجل : ان شاء عذب وان شاء غفر : (٧) .

والملاحظ على بنود هذه البيعة انه ليس فيها شروط ملزمة لاهل يثرب ولافرض الحرب . كما ليس فيها تعهد بحماية الرسول (ص) واتباعه ولافيها دعوة للهجرة الى مدينة يثرب ،انما هي في الواقع اعلان اسلامهم فحسب . ثم رجعوا بعد ذلك الى المدينة ، وكان على رأس الدعاة أسعد بن زرارة (٨) ، وازداد عدد المسلمين في يثرب بعد ذلك على الأربعين ، فأخذ سعد بن زرارة يجمع بهم كل صلاة (٩) . وكتب مسلمو الأوس والخزرج الى الرسول (ص) كتاباً يطلبون فيه ارسال من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين (١٠) فبعث اليهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين واصبح بعد ذلك يجمع بالمسلمين (١١) . فأرسال الرسول (ص) لمصعب

---

(٦) انظر الذهبي : شمس الدين محمد : تأريخ الاعلام وطبقات مشاهير الاعلام د / ط مكتبة القدسي، القاهرة / ، ١٣٦٧ هـ ، ج ١ ص ١٧١ . وانظر السمهودي : نور الدين علي بن عبد الله : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ط١ ، مطبعة الاداب والمويد مصر ، ١٣٢٦ هـ ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٧) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٨) الذهبي : ج١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٩) الذهبي : نفس المكان .

(١٠) البلاذري : احمد بن يحيى : انساب الاشراف : تحقيق : محمد حميد الله د /ط ،دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩ م ، ح١ ، ص ٢٣٩ .

(١١) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤٢ .

إبن عمير (رض) الى يثرب ليكون له ممثلا ، وليتعرف عن كثب على طبيعة العلاقات السائدة في يثرب بين سكانها جميعاً ، وقد اثبت مصعب بن عمير بأنه جدير بأختيار الرسول (ص) له للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، فعلى نجاحها او فشلها يتوقف مصير الاسلام في يثرب التي تموج بالخلافات وتضطرم فيها العصبية القبلية والمصالح الذاتية والظاهر ان امكانات مصعب التنظيمية كانت كبيرة وانه ركز في الدعوة الى اجتذاب الرجال الذين كان يعتقد بأهميتهم لاعتبارات تخص مكانتهم في قومهم واليه يرجع الفضل بأسلام سعد بن معاذ (١٢) وهو من زعماء الاوس البارزين والذي اسلم بأسلامه جميع بني عبد الاشهل من الرجال والنساء والشيوخ في يوم واحد ، وكان من اصحاب الرأي والمشورة ومن فضلاء الصحابة (١٣) واسلام اسيد بن خضير ترتب على اسلام هذين الزعيمين ان اصبحت الدعوة الى الأسلام في يثرب علناً بعد ان كانت سراً (١٤) وكان لهذه الجهود الكبيرة التي بذلها مصعب إبن عمير بالدعوة الى الإسلام في يثرب ان بلغت الدعوة مستوى كبيراً من النضج والسيطرة على الاوضاع فيها . وانتشر الاسلام بسرعة كبيرة جداً في فترة وجيزة ، ولم تبق دار من دور الانصار الا بها رجال ونساء ، مسلمون (١٥) . بأستثناء بعض بطون من الاوس ، حيث بقيت على شركها حتى غزوة الخندق (١٦) .

ان هذا الاندفاع السريع في الاسلام اغلب سكان مدينة يثرب من الأوس والخزرج الذي وصل في اقل من عام الى خمسمائة فرد دفع بعض الباحثين المعاصرين الى ان يتساءل عن سبب الاقبال الشديد على الاسلام فقال : ان

---

(١٢) ابن هشام : ج١ ، ص ٤٣ — ٤٤ ، ابن سعد : ج٣ ، ص ٤٢٠ — ٤٢٣ .

(١٣) ابن الاثير : عز الدين: اسد الغابة في معرفة الصحابه ، د/ ط ، طهران ، د/ت ، ج٢ ص ٢٩٦ .

(١٤) الذهبي : ج١ ، ص ١٧٤ .

(١٥) الذهبي : ج١ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(١٦) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤٦ ، الذهبي : ج١ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

ذلك ليثير الاستغراب(١٧) والذي يبدو لي انه ليس هناك مجال للاستغراب طالما كانت هناك عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية تميزت بها مدينة يثرب عن غيرها من الحواضر العربية انذاك ، مما دفع سكانها من الاوس والخزرج الى قبول الاسلام دون غيرهم من قبائل العرب .

بيعة العقبة الثانية

لم يمض عام على عودة المبايعين في العقبة الاولى الا وكان المسلمون يشكلون عدداً لا يستهان به مما دعاهم الى ارسال وفد جديد مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين الى مكة اثناء موسم الحج لمفاوضة الرسول (ص) بشأن الهجرة الى يثرب ، وتم اللقاء مع الرسول (ص) عند العقبة ويحدثنا ابن جابر عن ذلك اللقاء فيقول « فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص) نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، ام عمارة احدى نساء بني مازن إبن النجار واسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي ، احدى نساء بني سلمة وهي ام منيع (١٨) » فتكلم الرسول (ص) فتلا القرآن. ودعا الى الله ورغب في الاسلام (١٩) ثم قال : ابايعكم على ان تمنعونني مما تمنعون منه نسائكم

---

(١٧) الحديثي : نزار عبد اللطيف : محاضرات في التأريخ العربي ، د / ط ، مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ٨٧ .

(١٨) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤٩ .
ذكر الديار بكري : « انه في السنة الثالثة عشرة من النبوة قدم مكة موسم الحج قريب من خمسمائة نفر ، وفي رواية ثلاثمائة نفر من الأوس والخزرج ، وخرج معهم مصعب إبن عمير الى مكة واتفق معه سبعون رجلا . قال ابن سعد يزيدون رجلا أو رجليـن وإمرأتان : نسيبه بنت كعب واسماء بنت عمرو ، وقال ابن هشام : ثلاثة وسبعون رجلا وأمرأتان وقال الحاكم خمس وسبعون نفس لاقوا رسول الله (ص) فواعدهم ان يحضروا شعب العقبة في الليلة الثالثة من ليالي التشريق للمبايعة (انظر الديار بكري : ج١ ، ص٣١٧).

(١٩) ابن هشام : ج٢ ، ص ٥٠ .

وابناءكم فاخذ البراء بن معرور بيده(ص) ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله، فنحن والله اهل الحروب واهل الحلقه ورثناها كابراً عن كابر (٢٠). وبايع الوفد الرسول (ص)، وتمت البيعة في جو من السرية التامة بين الرسول (ص) وبين من آمن به من الاوس والخزرج (٢١) خوفاً من قريش واصحابهم (٢٢).

وبعد ذلك طلب الرسول (ص) من المبايعين اخراج اثني عشر نقيباً من بينهم ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا ثلاثة من الاوس وتسعة من الخزرج(٢٣) وكان الهدف من اختيارهم – على مايبدو – هو رعاية احوال المسلمين الجدد في مدينة يثرب والأشراف على تنظيمات الدعوة فيها ريثما يهاجر الرسول (ص) فهم بمثابة قياديين للتنظيم الأسلامي في مدينة يثرب. وان كانت مصادرنا التأريخية لاتقدم لنا اية معلومات عن هؤلاء النقباء سوى اسمائهم وانسابهم (٢٤). اما عن دورهم في مدينة يثرب قبل هجرة الرسول (ص) اليها والمهام التي كلفوا بها فلا تقدم لنا شيئاً البتة وعلى الرغم من سكوت المصادر عن اعمالهم وواجباتهم الا ان الرسول (ص) لابد انه كلفهم بأعمال تنظيمية تخص الدعوة وانتشارها في المدينة وإلا ماهي الفائدة المرجوة من اختيارهم؟.

---

(٢٠) ابن هشام: نفس المكان.

أزرنا: يعني نساؤنا، والمرأة يكنى عنها بالازار (للمزيد انظر: ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، د/ط، دار صادر، بيروت، ١٣٧٥ – ١٩٥٦ م، ج٤، ص١٦–١٨.

(٢١)

(٢٢) ابن هشام: ج٢، ص ٥٦ – ٥٧.

(٢٣) إبن هشام: ج ٢، ص ٥١.

(٢٤) ابن هشام – نفس المكان.

ان نجاح الرسول (ص) في اتمام مبايعة الوفد في العقبة الثانية ليعطي دليلا قوياً على نجاح الدعوة الاسلامية وبلوغها درجة مطمئنة من التقدم فهذا العدد من القيادتين : ستون رجلا من الخزرج واحد عشر من الأوس وامرأتان دليل ملموس على نجاح الاسلام في مدينة يثرب وكان من اهتم شروطها على الاطلاق اعلان الحرب على من يحارب الاسلام ورسوله واعلنوا انهم يحاربون في سبيل ذلك الاحمر والاسود مادام داخل حدود المدينة والا يسلموه ابدا (٢٥) كما انها اتاحت الفرصة للمسلمين في مكة بالهجرة الى المدينة والدعوة الى الاسلام بحرية وامان بعيداً عن اضطهاد المشركين لهم .

نستنتج من بيعتي العقبة الاولى والثانية ان عدد مسلمي الخزرج اكبر من مسلمي الاوس مما يدل على ان الاسلام الخزرج كان شبه جماعي في الوقت الذي وجدنا ان الاوس اول من اعلنوا الاسلام في مدينة يثرب صراحة .

واسلم بنو عبد الاشهل بعد ذلك جميعاً باسلام سعد بن معاذ واسيد بن خضير (٢٦) على الرغم من ذلك تأخر اسلام العديد من بطون الأوس والى مابعد غزوة الخندق (٢٧) ففي اللقاءات الاولى تبين لنا ان الرسول (ص) . التقى في مكة ببعض الرجال من الأوس ودعاهم الى الاسلام مثل: اياس بن معاذ وسويد بن الصامت . فكان قومهم يقولون عنهم انهم ماتوا وهم مسلمون (٢٨) والتقى الرسول (ص) بعد ذلك بنفر من سكان يثرب كانوا ستة من الخزرج ليس فيهم احد من الأوس (٢٩).وفي العقبة الاولى كانوا عشرة من الخزرج واثنين من الاوس (٣٠) وفي العقبة الثانية كان عدد

---

(٢٥) للمزيد راجع ابن هشام : جـ٢ ، ص ٥٠ ، ص ٦٣ .
(٢٦) ابن هشام : جـ٢ ، ص٤٤ .
(٢٧) ابن هشام: جـ٢ ، ص٤٦ .
(٢٨) انظر تفاصيل ذلك ابن هشام : جـ٢ ، ص ٣٦ - ٣٧ .
(٢٩) ابن هشام : جـ٢ ، ص ٣٨ - ٣٩ .
(٣٠) ابن هشام : جـ٢ ، ص ٤١ .

المبايعين من الخزرج واحداً وستين ومن الأوس اثني عشر فقط (٣١). وعندما اختير النقباء من بين المبايعين في العقبة الثانية ، كان من بينهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس (٣٢) مما يدل على ان اغلبية من اسلم في هذه المرحلة كانوا من الخزرج حتى طغى ذكرهم على ذكر الأوس. فهذا ابن هشام يقول « وكانت العرب انما يسمون هذا الحي من الأنصار «الخزرج» خزرجها واوسها (٣٣) .

يمكننا ان نفسر هذا التفاوت الكبير مابين مسلمي الاوس والخزرج بأسباب عديدة منها ان قبيلة الخزرج كانت تتطلع الى ان تكون لها السيادة في مدينة يثرب (٣٤) فكانت تعمل على اخضاع قبيلة الأوس لنفوذها . لان عدد افرادها (الخزرج) كان اكثر من قبيلة الأوس (٣٥) ، بالاضافة الى ذلك ان الاحوال الاقتصادية للأوس كانت احسن حالا من الخزرج كما ان فقدان الثقة مابين الأوس والخزرج وغياب الزعامة السياسية في مدينة يثرب جعلت عنصر المنافسة بينهم كبيراً ، فانتشار الاسلام بين الخزرج جاء كرد فعل طبيعي على رغبة الخزرج في بسط السيادة والزعامة على مدينة يثرب مستقبلا ، بعد ان اطمأن الرسول (ص) على نجاح الاسلام في مدينة يثرب بما حققه مصعب بن عمير من نتائج ايجابية ، وما تم في العقبة الثانية من التأكيد على حماية المسلمين والدفاع عنهم من اي اعتداء خارجي .

---

(٣١) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤٩ .

(*) انظر الجدول من خلاله نلاحظ اسلام الخزرج كان اسرع من الاوس.

(٣٢) ابن هشام : ج٢ ، ص ٥١ .

(٣٣) ابن هشام : ج٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣٤) كرنكوف : (دائرة المعارف الاسلامية - تعريب : محمد الشنتاوي وزملائه ، طهران ١٩٣١) مجلد ٨ ، ص ٣١٢ .

(٣٥): راجع ابن قدامة : موفق الدين عبد الله المقدس : الاستبصار في نسب الصحابة من الانصار : تحقيق : علي نويهض ، ط ١ ، دار الفكر . بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م ص ٢٩ ومابعدها .

دخلت الدعوة الأسلامية مرحلة جديدة من مراحل تطورها وتمت هجرة المسلمين والرسول بنجاح واستقر المهاجرون في مدينة يثرب واخذ الرسول (ص) يعمل على تنظيم العلاقات الداخلية بين السكان جميعاً ، كما اخذ ينظم علاقات المدينة الخارجية ولاسيما مع القبائل العربية المجاورة للمدينة وكان حريصاً على اقامة علاقات سلمية معها كي يتفرغ لنشر الأسلام بين الناس ، ولكن موقف قريش المعادي للرسول (ص) ودعوته كان يحول بينه وبين تحقيق هذا الهدف . فدفعت بعض القبائل العربية التي ترتبط معها بمصالح تجارية الى معاداة الرسول (ص) لذا كان لابد للرسول (ص) من ان يعمل على اقناع قريش وكافة القبائل العربية المحيطة بالمدينة بأن دولة المدينة قوية وانها قادرة على تهديد المصالح التجارية لقريش وغيرها من القبائل العربية بحيث تقنعها اخيراً بالدخول في علاقات سلمية وطبيعية مع دولة المدينة .

وقد اخذ الرسول (ص) يعمل على تنظيم غزوات وسرايا ذات اهداف تعرضية محدودة ، تستهدف تحقيق أمور معينة منها :ـ

ان القبائل البدوية التي كانت تعيش قرب مدينة يثرب مثل غطفان واشجع وسليم ومزينه (٣٦) او على الطريق مابين مكة والمدينة مثل قبيلة ضمره وجهينة وغفار (٣٧) وكانت لاتقيم وزنا في علاقاتها العامة الا للقوة لذا كان هدف الرسول (ص) هو أن يستعرض امامها قوته من اجل حملها على التحالف معه اوفك ارتباطاتها مع قريش او على الاقل اتخاذ موقف محايد في نزاعه مع قريش .

وبدأت سرايا المدينة تتجه فعلا الى الطرق الرئيسة التي تمر تجارات قريش منها الى الشام وعملت على مواجهة قوافل قريش بقصد افهامها

---

(٣٦) ابن هشام : ج٣ ، ص ٣١٤، المقريزي : ج١ ، ص ٢١٨ .
(٣٧) ابن هشام : ج٢ ، ص ٢٦١ .

حقيقة الموقف الجديد ، ولم تحاول مصادرة هذه القوافل او التحرش بها الا في بعض الحالات الخاصة كما حصل في سرية عبدالله بن جحش الى نخله (٣٨) مثلا واخذت بعد ذلك دولة المدينة تتصل بالقبائل الضاربة على جنبات هذه الطرق وتعقد معها احلافاً . وحرمت بذلك قريش من الأستعانة بهذه القبائل او اللجوء بقوافلها الى حمايتها اذا ماهددت بالاعتداء عليها او مصادرتها ولم يزد هذه السرايا طوال الأشهر العشرة من بدء تيسير دوريات المدينة على المظاهرات العسكرية . وقد ردت قريش من جانبها بتعزيز الحراسة على قوافلها وتسيير دوريات بأعداد اكبر من قوة المسلمين وكانت هذه الدوريات تتقابل دون ان يحدث بينها قتال .

مما سبق عرضه لاحظنا ان دولة المدينة دأبت على إرسال دوريات متواصلة الهدف منها فرض نوع من الحصار الأقتصادي على تجارة قريش وقد بلغ عددها حوالي اربع سرايا وثلاث غزوات (٣٩) ، والسؤال الذي يتبادر الى ذهن الباحث الان هو هل كانت هذه الدوريات مقصورة على المهاجرين ام شارك فيها الانصار ؟ .

للاجابة على هذا التساؤل علينا :—

١ — مناقشة تعهدات الأنصار العسكرية للرسول (ص) في بيعة العقبة الثانية

من المعلوم لدينا ان اتفاقي العقبة الأولى والثانية الذي تم بين الرسول (ص) وبين من اسلم من (الأوس والخزرج) لم يتم تثبيته في نص مكتوب على شكل وثيقة تتحدد فيها التزامات كل طرف بشكل

---

(٣٨) انظر تفاصيل الاحداث السريه نخله ، ابن هشام : ج٢ ، ص ٢٣٨ — ٢٤٣ وراجع ايضاً العبيدي : عبد الجبار : سرية نخله احدى سرايا الرسول الهامة (مجلة المؤرخ العربي العدد ٩ ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ١٤٦ وما بعدها .

(٣٩) السريه : — هي التي يتولى أحد الصحابة قيادتها ويكون مسؤولا عنهم نيابة عن الرسول (ص) .

الغزوة :— هي التي يقوم بها الرسول (ص) بقيادتها .

واضح ولا يوجد بين ايدينا سوى الروايات التأريخية التي نقلتها المصادر عن الكلام والحوار الذي دار بين الرسول (ص) وبين من حضر هذا اللقاء من الأنصار .

لقد بدأ الأتفاق بين الرسول (ص) وبين الأنصار بأن قال لهم : (ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم (٤٠) . فأخذ البراء بن معرور بيد الرسول (ص) ثم اجابه قائلا :— « نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله ابناء الحروب واهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر» (٤١) وتعهد الرسول (ص) لهم من جانبه بأن يصبح منهم ويحمل السلاح معهم في قتال من يقاتلون. وذكر ابن هشام تساؤل ابي الهيثم بن التيهان ان كان في نية الرسول (ص) ترك المدينة والرجوع الى مكة ان اظهره الله عليهم فاجابه الرسول (ص) متبسماً بل الدم — الدم الهدم — الهدم ، وانا منكم وانتم مني احارب من حاربتم واسالم من سالمتم (٤٢) وهو بذلك يرفض ان يعيش فيهم عيشة الرجل الضعيف الذي يحمونه كما يحمون نساءهم واولادهم . ان ماتقدم هو الحد الادنى مما تضمنته العقبة الثانية من تعهدات الانصار اما الحد الاقصى فهومحاربة جميع الناس دفاعاً عن الرسول (ص) والاسلام وقد بدا ذلك واضحاً جلياً حينما خاطب العباس بن عباده الانصاري قومه : قائلاً :

((هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل قالوا نعم ، قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس ، فان كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلاً أسلمتوه ، فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة)) (٤٣) .

---

(٤٠) ابن هشام : ج٢ ، ص ٥٠

(٤١) ابن هشام : نفس المكان .

(٤٢) ابن هشام : ج٢ ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٤٣) ابن هشام : ج٢ ص ٥٥ .

رغم هذا التحذير فقد مضى مسلمو الاوس والخزرج في مبايعة الرسول (ص) مما يدل على انهم كانوا على استعداد كامل لتحمل كافة التبعات التي تترتب على هذه البيعة ، وعلى هذا الاساس وصف عبادة بن الصامت - احد نقباء الخزرج - بيعة العقبة الثانية بانها بيعة الحرب فقال :

((بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب)) (٤٤) .

٢ - معرفة حقيقة التزامات الانصار الحربية بموجب احكام الوثيقة ((دستور المدينة)) . لقد كتب الرسول (ص) في السنة الاولى للهجرة (٤٥) . بعد استقراره في المدينة كتاباً نظم فيه العلاقات مابين سكان المدينة من المهاجرين والانصار واليهود وبصورة شاملة . ونصت الفقرة الاولى من الوثيقة على ((هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم امة واحدة من دون الناس)) (٤٦) . وبذلك عدّت الصحيفة المهاجرين والانصار ومن تبعهم وجاهد معهم أمة واحدة متميزة عن غيرها من الناس ومفهوم الامة الواحدة يقضي بالضرورة تضامن جميع افرادها في السراء والضراء ، والاستعداد للجهاد وهو الشرط الاساسي لقبول انتماء الفرد اليها . وجاءت النصوص الاخرى توضح الحدود والالتزامات الحربية لجميع الفئات والافراد المكونين للامة - على اعتبار ان الامة وحدة متضامنة في احوال السلم والحرب معاً ((وان سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الاعلى سواء وعدل بينهم ، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً . وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله)) (٤٧) .

---

(٤٤) ابن هشام : ج٢ ، ص ٦٣ .
(٤٥) ابن سلام : ابو عبيد القاسم : الاموال : تحقيق : محمد حامد الفقي . المكتبة التجارية القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ص ٢٠٧
(٤٦) ابن هشام : ج٢ ، ص ١١٩ .
(٤٧) ابن هشام : ج٢ ، ص ١٢١ .

الملاحظ على هذه الفقرة انها تؤكد على وحدة الامة في حالات الحرب ومن ثم فأنه ليس من الجائز ان يتجه المهاجرون للقتال ويقف الانصار موقف المتفرج . كما وردت اشارة الى ((الغزو-الغزوات)) مما يوحي بان الصحيفة قد كتبت بعد بدء الرسول (ص) في ارسال السرايا والغزوات أو أنه كان يخطط للقيام بها على اقل تقدير .

٣ ـ استعراض جميع الآراء التي اوردها الباحثون المعاصرون والمؤرخون القدماء وعلى وجه الخصوص ((ابن هشام)) ، ((الواقدي)) ، ((ابن سعد)).

لقد رأى بعض الباحثين والكتاب المعاصرين ان الغزوات والسرايا التي ارسلها الرسول (ص) قبل معركة بدر قد تألفت من المهاجرين، وانه لم يكن للانصار أي دور فيها (٤٨) .

ويبدو أن آراء الباحثين المعاصرين في عدم مساهمة الانصار في الغزوات والسرايا قبل معركة بدر قد تأثرت الى حد بعيد بالروايات التي وردت عند ابن هشام والواقدي وابن سعد ، والتي تكاد تحمل القارىء لها على الاعتقاد بان المسألة منتهية وانها موضع اجماع المؤرخين وبالتالي فليس هناك من مجال لابداء القول فيها أو اعادته غير ان القراءة الدقيقة لهذه الروايات التاريخية الواردة في هذا الخصوص تشعر الباحث بوجود بعض النواحي الغامضة او حتى المتناقضة في بعض من هذه الروايات كما ان هناك نصاً صريحاً اورده الواقدي عن اشراك الانصار في سرية حمزة بن عبد المطلب مما يحمل الباحث على التساؤل ومحاولة الرجوع الى دراسة موقف الانصار منذ بدايته لاعادة تقويم موقفهم من جديد بصورة سليمة خدمة للحقيقة التاريخية وانصافاً واكراماً لمن نصروا الاسلام ورسوله في احلك الظروف والاحوال . وعليه

---

(٤٨) انظر دوره : محمد عزت : تأريخ العرب في الاسلام ، د / ط المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٨١ ، وانظر كذلك : الشريف : احمد ابراهيم ، الدولة العربية الاسلامية الاولى ، د/ ط دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ١٠٩ .
للمزيد من المعلومات : انظر

سنحاول هنا استعراض الروايات التاريخية التي اوردها «ابن هشام» والواقدي «وابن سعد» لتوخي الحقيقة التاريخية قدر الامكان (٤٩) .

١ — يقول ابن هشام : وبعث من مقامه ذلك حمزة بن عبدالمطلب بن هشام الى سيف بحر / من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الانصار احد (٥٠) .

٢ — يقول الواقدي : قالوا : أول لواء عقده رسول الله (ص) بعد ان قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب ، بعثه في ثلاثين راكباً شطرين ، خمسة عشر من الانصار ولم يكتف الواقدي بايراد العدد الاجمالي للذين ساهموا في هذه السرية من المهاجرين والانصار بل قدم لنا قائمة باسماء عشرة من المهاجرين بضمنهم حمزة بن عبدالمطلب قائد السرية وعشرة من الانصار (٥١).

ان ماأورده الواقدي يكاد يحملنا على القناعة بصحة روايته حول اشتراك الانصار في هذه السرية غير ان ثمة مايدعونا الى التروي والبحث عن أدلة أخرى قبل الجزم في هذه المسألة ، حيث ان الواقدي نفسه قد عاد بعد ان انتهى من سرد خبر هذه السرية الى ايراد رواية اخرى عن ابن المسيب قائلاً : (لم يبعث رسول الله (ص) احداً مبعثاً حتى غزا بنفسه الى بدر وذلك انهم لاينصرونه الا في الدار ، وهو المثبت) (٥٢) ويورد لنا ابن سعد نفس رواية الواقدي (٥٣) .

٣ — وعند اكمال المقطع الثاني من النص الذي اورده ابن هشام ((التقى ابا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من اهل مكة ، فحجز

---

(٤٩) الملاح : هاشم يحيى : اضواء على دور الانصار في مغازي وسرايا الرسول في غزوة بدر ص ٣٩ دراسات في التأريخ والأثار (مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق) العدد ٣/ ١٩٨٧ ،

(٥٠) ابن هشام — ج٢ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٥١) الواقدي : ج١ ، ص ٩ .

(٥٢) الواقدي : نفس المكان .

(٥٣) الواقدي : ج١ ، ص ١٠ .

بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال)) (٥٤) فامتناع الطرفين عن القتال جاء بسبب الوساطة التي قام بها مجدي بن عمرو الجهني الذي كان حليفاً للطرفين (٥٥)، وهذا يدلل على وجود بعض الاوس والخزرج في سرية حمزة بن عبدالمطلب الذين هم حلفاء له مما دفعه الى القيام بهذه الوساطة — ولقد ذكر وات :

فان عمل مجدي بن عمرو من بني جهينة خلال غزوه حمزة وقيامه بالوساطة بين المسلمين وبين قوة ضخمة من المكيين، سببه وجود مدنيين متحالفين مع جهينة (٥٦) . وهذا يوافق تماماً ماذكره الواقدي في روايته الاولى من ان السرية كانت مكونة من شطرين — مهاجرين وانصار .

٤ — ويقول ابن سعد ان الرسول (ص) خرج في غزوة ((بواط على راس ثلاثة عشر شهراً من هجرته الى المدينة لاعتراض قافلة لقريش في قوة مؤلفة من مائتين من اصحابه)) (٥٧) . الا ان ابن سعد في هذه الرواية لم يحدد الفئات التي كانت تتكون منها هذه القوى التي خرجت مع الرسول (ص) الى بواط ولكن دراسة عدد المهاجرين في المدينة خلال تلك الفترة تقودنا الى استنتاج ان اغلبية هذه القوى كانت تتألف من الانصار (الاوس والخزرج) وذلك لان عدد المهاجرين الذين آخى الرسول (ص) بينهم وبين الانصار في السنة الاولى للهجرة كان يتراوح مابين ٤٥—٥٠ مهاجراً فقط. وهذا حسب

---

(٥٤) ابن سعد : ج٢ ، ص ٦ .

(٥٥) ابن هشام : ج٢ ص ٢٣٠ ، الواقدي : ج١ ، ص ٩ .

(٥٦) وات : مونتجمري : محمد في المدينة : ترجمة شعبان بركات ، د/ط المكتبة العصرية صيدا ، د/ت ، ص ٧ .

(٥٧) ابن سعد : ج٢ ص ٩٨ — ٩٩ .

روايات ابن هشام وابن سعد وابن حزم (٥٨) ، علماً بأن معظم المهاجرين الذين خرجوا الى بدر لم يتجاوزوا (٨٣) رجلاً (٥٩) .

٥ ـ وذكر الواقدي وابن سعد ، ان الرسول (ص) خرج بعد مضي ستة عشر شهراً على هجرته الى المدينة في غزوة الى ((ذي العشيرة)) على رأس قوة من خمسين ومائة ويقال من مائتين من اصحابه)) (٦٠) لمهاجمة قافلة مكية كبيرة كانت متجهة الى الشام .

في الوقت الذي اكدت رواية الواقدي من ان القوة التي خرجت مع الرسول (ص) مؤلفة من مائة وخمسين او مائتين من ((اصحابه)) ذهبت رواية ابن سعد الى ان هذه القوة كانت مؤلفة من ((المهاجرين)) فقط (٦١) .

ان الروايات التي سبق لنا تقديمها عن عدد المهاجرين في المدينة خلال هذه الفترة لاتساعدنا اطلاقاً على قبول رواية ابن سعد من ان جميع القوة كانت تتألف من المهاجرين ،ومن ثم يجوز لنا ان نقرر انه لو صح ماذكره الواقدي وابن سعد من ان عدد أفراد القوة كان مائة وخمسين او مائتين ، فلا بد ان يكون اكثر من نصفهم من الانصار .

---

(٥٨) من المعلوم لدينا ان ابن هشام والواقدي قد ذكروا هذه الغزوة وذلك من دون ذكر اي رقم للرجال الذين خرجوا مع الرسول (ص) يومها انظر ابن هشام جـ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤
الواقدي : ط ١ ، ص ١٢ .
ابن حزم : ابو محمد ، : جوامع السيرة : تحقيق : احسان عباس وآخرون ، د/ ط دار المعارف ، القاهرة، د/ت ص ٩٦ - ٩٧ .

(٥٩) ابن هشام : جـ٢ ، ص ٣٣٣ - ٣٥٤ ؛ ابن سعد : جـ١ ، ص ٢٣٨ ؛ الواقدي نفس المكان
ابن اسحاق : محمد : السيرة النبوية : تحقيق : محمد حميد الله د/ط . المكتبة الوطنية الرباط ، المغرب : ١٩٧٦ ، ص ٢٨٨ .

(٦٠) الواقدي : جـ١ ، ص ١٢ ١٣ ؛ ابن سعد : جـ٢ ، ص ٩ .

(٦١) انظر : ابن سعد : نفس المكان .

ويرى وات ((انه لو كان مع محمد (٢٠٠ رجل او ١٥٠) لكان الانصار من بينهم)) (٦٢) ويقول ايضاً ((لما كان محمد لديه اقل من مئة مهاجر في معركة بدر حيث كانوا جميعاً حاضرين ، فهناك مجال لمقول بان الانصار إشتركوا على الاقل في اكبر الغزوات الاولى . نستنتج مما سبق عرضه آنفاً تعهدات الانصار العسكرية للرسول (ص) في العقبة الثانية وحقيقة التزاماتهم الحربية في دستور المدينة (الوثيقة) ومناقشة الروايات التاريخية التي رواها ((ابن هشام والواقدي وابن سعد)) فيتضح لنا بشكل جلي ان الانصار شاركوا المهاجرين في العديد من الغزوات والسرايا الاولى وقبل معركة بدر (٦٣) ، التي كانت تخرج لتحقيق ستراتيجية دولة المدينة في فرض الحصار الاقتصادي على تجارة قريش وخروج الانصار مع الرسول (ص) الى بدر يدفعنا هو الآخر الى ترجيح خروجهم معه في الغزوات والسرايا الاولى التي لم يقع فيها قتال غالباً مما جعل أمر خروج الانصار مع الرسول (ص) في هذه السرايا والغزوات وعدم خروجهم أمر غير جلي ، ولكن لما نقى المسلمون في واقعة بدر كيداً اضطروا الى القتال وجدنا الروايات التاريخية تكشف لنا النقاب عن وجود الانصار الى جانب الرسول (ص) في هذه الغزوة بوضوح وجلاء ، ولربما لو جرت هذه الغزوة كمثيلاتها دون قتال لما اشارت الروايات الى اشتراك الانصار في الخروج مع الرسول (ص) وهذا الذي دعانا الى القول بفرض خروج الانصار مع الرسول (ص) قبل بدر .

* * *

---

(٦٢) وات : ص ٦ .
(٦٣) الملاح : هاشم يحيى : اضواء على دور الانصار في مغازي وسرايا الرسول في غزوة بدر : دراسات في التأريخ والآثار (مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق) العدد ١٩٨٧/٣ ، ص ٤٣ ومابعدها .

الفترة التاريخية	الاوس	الخزرج
اللقاء الاول	(٢) بالتحديد	———
اللقاء الثاني	———	٦
العقبة الاولى	٢	١٠
العقبة الثانية	١٢	٦١
المجموع	١٦	٧٧
اختيار النقباء	٣	٩

البنيوية في الحكاية الشعبية

الدكتور

توفيق عزيز عبدالله

أستاذ اللغة المساعد

قسم اللغة الفرنسية

كلية الآداب / جامعة الموصل

شهد القرن الحالي ثورة منهجية حقيقية تمثلت بظهور مدارس وحركات ادبية ونظريات فنية ومناهج ادبية عديدة . ومن هذه المناهج المنهج البنيوي الذي نتريث فيه عند تأثير الطريقة البنيوية للتفكير في الدراسة , وستكون «الحكاية الشعبية» او «الخرافة» ميداناً تطبيقياً لهذا المنهج .

ولكي نفهم المنهج البنيوي لابد من الاشارة الى ان العناية بالشكل من اولى الاهتمامات الجوهرية فيه وقد ادى ظهور هذا المنهج الى زعزعة مجموعة من التقاليد في دراسة الأدب تمثلت في الدراسات التي تعتمد ثنائية « الشكل والمضمون» .

والبنيوية في معجم المصطلحات الأدبية تعني «منهجية في الفلسفة والعلوم مؤداه الى الاهتمام اولاً بالنظام العام لفكرة او لعدة افكار مرتبطة بعضها ببعض على حساب العناصر المكونة له . أما تلك العناصر فلا يعني بها الا من حيث ارتباطها وتأثرها بعضها ببعض في نظام منطقي مركب . وقد أمتدت الى علوم اللغة وعلم الاسلوب خاصة حيث استخدمها العلماء اساساً للتمييز الثنائي الذي يعد أصلاً لدراسة النص دراسة لغوية. وهذا التمييز الثنائي مابين اللغة والكلام – في اصطلاح جيوم «"G.Guillaume"» او بين نظام الكلام والنص نفسه – في اصطلاخ هيلمسلف « "L. Hjelmslev" » – او في اصطلاح تشومسكي « "Noam Chomsky" » وبين مفتاح الكلام « "Code" » والرسالة

الفعلية « Message » في اصطلاح رومان ياكوبسن « Roman Jakobson »(١)

ويرى بياجيه ان البنية في نسق الكتابات تشمل :

١ – فكرة كلية : ويقصد بذلك التماسك الداخلي . اي ان نظام الكيانات كامل بنفسه وليس مجرد تجميع ، ويقول تينيالوف في هذا الصدد :

«ان مفهوم المادة لا يخرج عن حدود الشكل : فالمادة شكلية ايضاً وانه من الخطأ خلطها بعناصر خارجية عن البناء » (٢) .

٢ – فكرة التحويل : اي ان البنية ليست جامدة وانما هي بنية ديناميكية دائمة التحرك والتغيير . وان القوانين التي تحكمها لاتقوم ببنائها فقط بل تجعلها بنائية ايضاً .

وقد اوضح ايخنباوم أن «الشكل الجديد لا يظهر ليعبر عن مضمون جديد ولكن ليحل محل الشكل القديم»(٣) .

٣ – فكرة الانتظام الداخلي : وتعني التأكيد على سلطة معينة الا وهي سلطة النظام الداخلي فحسب . وبهذا لا يبقى الشكل طرفاً اولا مقابل طرف ثان . هو المضمون او المحتوى ، وانما يصبح هذا الشكل هو المضمون الحقيقي للخطاب الشعري . واخيراً نستطيع القول بأن نظرة الشكلانيين الروس للادب والتاريخ الادبي ، تركزت على فكرة مفادها ان كل التطور والتجديد في الادب هو تجديد يتعلق بالشكل الادبي وحده وبغض النظر عما يحدث خارجه (٤) .

---

(١) معجم المصطلحات الادبية ، ص ٥٤ .

(٢) ينظر : مناهج الدراسات الادبية الحديثة ، ص ١٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

وقد دارت الكتابات المنهجية للشكلانيين الروس ضمن هذا الاطار العام على الرغم من اختلافها وتطبيقاتها بين نمط ادبي وآخر . وتجدر الإشارة هنا إلى ان الهدف الرئيسي عند البنيويين في دراسة ونقد النصوص الادبية وصف وتحليل العمليات الوظيفية للنظم الادبية . فضلا عن ذلك انصب جل اهتمام الشكلانيين في النثر على السرد والحوافز والوظائف الداخلية والحوار . وفي هذا المجال يقول بروب : «نعني بالحوافز ، الدوافع والغايات التي تقود الشخصيات إلى انجاز هذا العمل او ذاك ، والحوافز تعطي للخرافة في بعض الاحيان زخرفاً لامعاً وتميزاً بصفة عامة ، ومع ذلك فهي تنتمي إلى عناصرها الاقل استقراراً ، وهي مع ذلك عناصر اقل دقة من الوظائف او الصلات واقل تحديداً (٥) .

فيما يخص الحكاية الشعبية او الخرافة على سبيل المثال نجد ان الاعمال الادبية تشير اشارة مباشرة او غير مباشرة إلى كتاب « مورفولوجية الخرافة » للكاتب الروسي فلاديمير بروب في تحليله لمائة خرافة روسية. اذ يعد كتابه هذا منهجاً بنيوياً حيث وضع فيه قواعد للفن الحكائي . فالحكاية الشعبية «الخرافة» في تحليل فلاديمير بروب تمثل البناء الافقي الامتدادي اكثر ما تمثل البناء العمودي الترابطي المتمثل في البناء الشعري (٦) .

فالمنهج الذي قدمه بروب يعتمد على وحدات اساسية (وظائف)(٧) والتي اهتدى اليها من خلال دراسته للحكايات الروسية والتي تتحكم في جميع الحكايات الروسية ويبلغ عددها واحداً وثلاثين وظيفة .

وان الوظائف الاحدى والثلاثين التي جاء بها هي :

١ — النأي

٢ — وجود المنع

---

(٥) انظر مورفولوجية الخرافة ، ص ١٧٩ .

(٦) انظر المناهج الادبية الحديثة ، ص ٣٠٦ .

(٧) نفس المصدر : ص ٢٠٥ .

٣ – انتهاك المنع و دخول المعتدي .

٤ – يحاول المعتدي الحصول على معلومات .

٥ – يتلقى المعتدي اخباراً حول ضحيته .

٦ – يحاول المعتدي خداع ضحيته للسيطرة عليها او على ممتلكاتها .

٧ – تقع الضحية في حبال الخدعة و بذلك تعيق عدوها بالرغم منها .

٨ – يلحق المعتدي ضرراً بأحد افراد العائلة او يسيء اليه .

٩ – انتشار خبر الاساءة او النقص .

١٠ – يقبل البطل الباحث السعي او يقرره .

١١ – يغادر البطل منزله .

١٢ – يتعرض البطل لاختبار او استنطاق يهيؤه لتلقي اداة او مساعدة .

١٣ – يرد البطل على افعال الواهب المقبل .

١٤ – توضع الاداة السحرية تحت تصرف البطل .

١٥ – ينقل البطل او يرشد او يعاد إلى جوار المكان الذي يوجد فيه موضوع بحثه .

١٦ – يتبارز البطل او المعتدى عليه في المعركة .

١٧ – يتلقى البطل علامة على جسمه .

١٨ – ينهزم المعتدي .

١٩ – اصلاح الاساءة البدنية وتعويض النقص .

٢٠ – يعود البطل .

٢١ – يطارد البطل .

٢٢ – يغاث البطل .

٢٣ – يصل البطل متنكراً إلى بيته او إلى قطر آخر .

٢٤ – يدعي البطل المزيف دعاوي كاذبة .

٢٥ – تقترح على البطل مهمة صعبة .

٢٦ — انجاز المهمة .

٢٧ — التعرف على البطل .

٢٨ — يكشف قناع البطل المزيف او المعتدي او الشرير .

٢٩ — يكتسي البطل مظهراً جديداً .

٣٠ — يعاقب البطل المزيف او المعتدي .

٣١ — يتزوج البطل ويرتقي إلى العرش .

ويتبين لنا ان الوظائف الاحدى والثلاثين اعلاه تتوزع على سبعة أنماط من الشخصيات هي :

١ — الوغد
٢ — الواهب
٣ — المساعد
٤ — الاميرة (الشخصية مدار البحث)
٥ — المرسل
٦ — البطل
٧ — البطل المزيف

استنتج بروب في كتابه« مورفولوجية الخرافة »ان جميع الخصائص البنائية للحكايات الخرافية متجانسة.واستنتج ايضاً ان الوظائف التي تتضمنها الخرافة عددها محدود، وان العناصر الثابتة والمستمرة في الخرافة هي وظائف الشخصيات ، بمعنى ان الوظائف او افعال الشخصيات هي نفسها في جميع الحكايات ، بينما تتغير اسماء الشخصيات وصفاتها حسب الزمان والمكان. ومن هذا المنطلق سندرس الحكايات الشعبية انطلاقاً من وظائف الشخصيات . لكونها الاجزاء المكونة الاساسية للحكاية .

وقبل الولوج إلى هذا الموضوع الاساس لابد من تحديد مفهوم للحكاية التي يعرفها هنري لميتر "Henri Le Maitre" بانها : « قصة حقيقية احياناً

خيالية او عجيبة احياناً اخرى» (٨) . فيما يعرفها ابراهيم الخطيب بأن الخرافة في ذاتها «تنطوي على معنى العجيب والمستملح في القصص وانها لذلك يمكن أن تحل اصطلاحاً محل الحكاية العجيبة برمتها» . وفي لسان العرب لابن منظور «الحديث المستملح من الكذب ، وقالوا : حديث خرافة» .

ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة: ان خرافة من عذرة بن جهينة اختطفه الجن ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مادار، تعجب منها الناس فكذبوه فجرى على الالسن»(٩) . ونستطيع القول بان الحكاية الشعبية تخرج بين الواقع الحقيقي والخيالي ويكون بطلها انساناً وترتبط عادة بالسحر والخيال . وقد فرق محمدي وهبة بين الاسطورة والفابلو بقوله «حكاية تخلع على الكائنات الطبيعية وبخاصة الحيوان خصائص بشرية» (١٠) .

كما فرق الشكليون الروس بين القصة والحبكة، اي المادة الروائية واسلوب عرضها البنيوي ، كما في مقال ايخنباوم (حول نظرية النثر) ومقاله (كيف ضيع معطف غوغول) . وفرقوا بين بناء القصة القصيرة والرواية ، كما في مقال تشومسكي (بناء القصة القصيرة والرواية) (١١) .

واخيراً نستطيع القول ان القارىء غير المتخصص يجد صعوبة في التمييز بين الحكاية والفابلو والقصة القصيرة والاسطورة ... لان هذه الانماط الأدبية تشترك احياناً بخصائصها نفسها مع انها تخرج من مصدره تماثل واحد الا وهو العقل البشري وتشترك في اعتمادها على عناصر السرد والحدث والشخصيات الرئيسية والثانوية والعقد ، سواء اتوافر هذا العمل الادبي على هذه العناصر كلها او بعضها .

---

(٨) انظر معجم بورداس الادبي ، ص ١٧٩ .

(٩) انظر مورفولوجية الخرافة ، ص ١٢ .

(١٠) انظر الادب المقارن ، ص ٦٨

(١١) انظر المناهج الادبية الحديثة ، ص ٢٠٦ .

بعد ان القينا الضوء على منهج بروب البنيوي الذي جاء به في كتابه «مورفولوجية الخرافة»، نقدم في بحثنا هذا تحليلا وظيفياً لاربع حكايات شعبية احداها «الجرة» التي قمنا بترجمتها عن الفرنسية (١٢) . للكاتب دادي . والثانية «جنجل وجناجل» والثالثة «ست الستوت» والرابعة «أنا زكية »

التحليل الوظيفي لحكاية «الجرة»

الوضعية البدئية

آه لقد كسرت جرتي

١ — المنع

يجب ان لا تطأ قدماك بيتي دون جلب الجرة لي .

٢ — النأي

وانطلق كوفي سعيداً برحيله فقد ترك هذا البيت الذي لم يحصل فيه على دقيقة واحدة من الراحة .

٣ — النقص

استمر كوفي في رحلته فهو الذي حرم من عطف امه وحنانها ولم يحض منها بأي اثر يذكر .

٤ — ١ الاستعلام «التمساح»

ايها الصغير من دلك على الطريق المؤدي الي .

٥ — ١ الحصول على او اعطاء المعلومات

انا لست سوى طفل يتيم واذا وجب عليك ان تأكلني فاسمع اولا قصتي .

٦ — ١ البطل يتعرض إلى اختبار

اذا كنت تريد حك ظهري فقد استحممت لتوي فإنك لن ترى أملك فحسب بل ستحصل على جرة مشابهة للتي كسرتها .

---

(١٢) انظر حكايات واقصوصات .

٧ ـ ١ ردة الفعل عند البطل

اخذ كوفي الاسفنجة ونزل إلى النهر وصعد على ظهر التمساح الخشن ...

٤ ـ ٢ الاستعلام (المخلوق العجيب)

من أين اتيت ايها الصغير المغامر ؟ ومن استصحبك إلى هنا ؟

٦ ـ ٢ البطل يتعرض إلى اختبار اخر

فقال المخلوق لكوفي مشط شعري .

٧ ـ ٢ ردة الفعل عند البطل

وبدأ كوفي بتمشيطه واصغر شعرة تسقط من هذا المخلوق كانت تهز الارض .

٨ ـ المواصلة

واصل كوفي سيره وعندما وصل البابين ...

٤ ـ ٣ الاستعلام (العجائز)

من أين أتيت ايها الصغير وإلى أين انت ذاهب ؟

٥ ـ ٢ المعلومات

وكان هذا العالم عالم عجائز طاعنات في السن محدودبات ...

٦ ـ ٣ البطل يتعرض إلى اختبار جديد

وخضع كوفي إلى هذا الاختبار الجديد بابتسامة ورضا فقص لكل العجائز القصص الجميلة ...

٩ ـ انجاز المهمة ..

وجلت النهاية السعيدة لهذه الاختبارات ...

١٠ ـ توضع الاداة السحرية تحت تصرف البطل

أعطت اكبر العجائز سنا لكوفي يقطينتين مبينة له متى وأين يجب عليه أن يرمي الاولى .

١١ ـ الوصول والمكافأة

رمى كوفي اليقطينة الاولى وفجأة وجد نفسه في قريته لم يتعرف عليه اهل القرية لانه اصبح شيخاً كبيراً . اعاد كوفي الجرة لزوجة والده وبعدئذ كسر اليقطينة الاولى فاذا بقصور تخرج من الارض واحداً بعد الاخر ..

تنتهي هنا قصة كوفي .

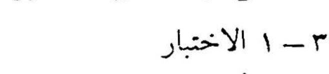
ويبدأ الفعل المعاكس في «حكاية الجرة» مع اخيه ويدعى فوريان .

١ ــ النأي

دفعت زوجة الأب ابنها الكبير من رقبته إلى الطريق .

٢ ــ الاستعلام

من ارسلك ايها الصغير



٣ ــ ١ الاختبار

أغسل لي ظهري ؟

٤ ــ عدم انجاز المهمة او الفشل في الاختبار .

أنا اغسل لك ظهرك ، ظهر تمساح ، ظهرك مملوء بالاشواك .

٣ ــ ٢ اختبار جديد

قص لي شعري .

٥ ــ ١ عدم انجاز المهمة مرة ثانية او الفشل في الاختبار مرة اخرى

اتعتقد اني اتيت لاقص شعرك ؟ فانت لم تغتسل سوى مرة واحدة ؟

٣ ــ ٣ اختبار جديد (العجائز)

قص لنا شعرنا ونظف لنا اظافر ايدينا واقدامنا .

٥ ــ ٢ عدم انجاز المهمة والفشل في الاختبار للمرة الثالثة

تساعدنني ؟ كنت على وشك ان اعرض عليكن اني استطيع مساعدتكن.

٦ ــ الحصول على الاداة السحرية .

ثم قالت له اكبر العجائز سناً بعد ان اعطته اربع يقطينات ...

٧ ــ العقاب

رمى بكل قواه اليقطينة على الارض وظهرت في الحال الاسود والنمور.

ورمى اليقطينة الرابعة فانشقت الارض وابتلعتهم ...

وانتهت هذه الحكاية بدرس أخلاقي ((ومنذ حادثة هذه المرأة لم يسيء أحد معاملة يتيم في البلاد السوداء)) .

التحليل الوظيفي لحكاية «جنجل وجناجل»

الوضعية البدئية

كانت الغزالة تسكن هي وولداها التوأمان جنجل وجناجل في كوخ .

١ ــ النأي :

خرجت الغزالة ذات صباح بعد ان ودعت ولديها جنجل وجناجل.

٢ ــ المعتدي يحاول خداع الضحية :

تأكدت السعلاة (الدامية) من ذهاب الغزالة ، طرقت باب البيت وقالت بصوت أجش جنجل وجناجل أفتحوا لامكم الباب بقرونها الحشيش وبديوسها الحليب وبفمها المية .

٣ ــ الاستهواء :

وعادت الى بيت الغزالة وطرقت بصوت رقيق: جنجل وجناجل افتحوا لامكم الباب بقرونها الحشيش وبديوسها الحليب وبفمها المية .

٤ ــ الضحية تقع في حبال الخدعة :

ضحكت جناجل وقالت لجنجل : اخافتك (الدامية) ان صوت امنا تحسبه صوتها ادارت المفتاح في القفل دورة وطلبت من جنجل ان يدوره مرة ثانية .

٥ ــ المعتدي يلحق ضرراً بأفراد العائلة :

فاندفعت (الدامية) الى الداخل وبلعت جنجل ثم بلعت جناجل..

٦ ــ خبر الاساءة ينتقل :

كان الغراب يراقب ماحدث وهو واقف على غصن شجرة قرب بيت الغزالة فطار باحثاً عن الغزالة حتى وجدها ونقل لها خبر اكل الدامية لولديها .

٧ ــ المعتدي والبطل يتبارزان :

لقد بلعتِ ولدي جنجل وجناجل ولم ترحمي صغرهما ولوعتي فتعالي نتناطح ...

٨ ــ ينهزم المعتدي :

فنطحت الغزالة الدامية بقوة في بطنها فوقعت الدامية على ظهرها .

٩ ــ عودة البطل :

حضنت الغزالة ولديها وتبادلوا القبل وهي تردد انا غزالة غزيلة وكروني من حديد

التحليل الوظيفي لحكاية (ست الستوت)

الوضعية البدئية :

يحكى ان زوجة الاب ضاقت ذرعاً بولدي زوجها فطلبت الى زوجها الضعيف المستكين لها ان يضيعهما .

١ ــ النأي :

وفي الصباح الباكر ومع صياح الديكة اصطحب الاب ولديه وودع زوجته وسار بهما عبر الحقول .

٢ ـ المعتدي يحاول خداع ضحيته :

وكلما سألاه الى اين يذهب بهما ، اجابهما انه يذهب بهما الى مكان جميل .

٣ ـ الضحية تقع في حبائل الخدعة :

وفي الصباح افاق الصبيان فدهشا من وحدتهما في ذلك المكان وذهبا يسعيان باحثين عن والدهما .

٤ ـ المعتدي يلحق ضرراً بأحد افراد العائلة :

تملكهما الخوف وأجهش الصغير بالبكاء .

٥ ـ وجود المنع :

وبعد مسيرة طويلة وعناء عظيم جداً وجدا عين ماء وعندما حاولا الشرب من ماء العين قالت لهما العين : من يشرب مائي يتحول الى غزال .

٦ ـ انتهاك المنع :

اما اخوها الصغير فلم يرعو وكان العطش قد تملكه فشرب من الماء وسرعان ماتحول الى غزال .

٧ ـ الزواج :

وذات يوم رآها الامير سيد القصر فاعجب من مناجاتها للشجرة ومن اللؤلؤ الذي ملأ كفيها وبهره جمالها . فقرر الزواج بها

ويجدر الاشارة هنا بان حكاية اخرى تبدأ مجمل الحكاية باكملها

الوضعية البدئية :

مرت الايام والامير يزداد حباً لزوجته الجديدة وغزالها الجميل والقصر تلفه السعادة .

١ ــ النأي :

وذات يوم استوجب سفر الامير الى بلد آخر فأوصى من في القصر بزوجته خيراً وذهب .

٢ ــ المعتدي يلحق ضرراً بأحد افراد العائلة :

فما كان من امر زوجته الاولى الا ان تأمر الخدم برمي ضرتها في البئر.

٣ ــ الخدعة يحاول المعتدي الخداع :

انست الزوجة الماكرة عودة زوجها فطلت وجهها بالكركم ووضعت تحت فراشها خبز الرقاق لتوهم زوجها بانها مريضة .

٤ ــ خبر الاساءة ينتشر :

علم غزيل بما يبيته زوج اخته وزوجته القديمة له .

٥ ــ الاداة السحرية :

فاذا ما قبض القصاب على غزيل ليذبحه انقلبت سكينه الى قطعة من الخشب واصبح كالعصفور يفر هارباً فينجو غزيل من الذبح .

٦ ــ انكشاف قناع المعتدي :

وقد كان الامير يعاني من ارق شديد ... وخرج الى الحديقة ، فسمع صوت هدهدتها وادهشه وقوف غزيل قرب البئر .. فانصت الى الحديث وصاح الخدم ... فأخرجوا زوجته الحبيبة ست الستوت وبين احضانها طفلها الجميل .

٧ ــ يعاقب المعتدي :

غسل الامير وجه زوجته ومسحها من الكركم وأخرج خبز الرقاق من تحت فراشها وأمر بقتلها .

٨ ــ الزواج : (ويقصد بها عودة السعادة) :

ولفت الامير وست الستوت سعادة غامرة وهما يحتضنان ولدهمـــا الحبيب الامير الصغير .

التحليل الوظيفي لحكاية «أنا زكية»

الوظيفة البدئية :

تنادت أصوات المؤذنين تملأ بالاصوات العذبة مدينة الموصل ...

١ ـ النأي :

خرجت زكية حاملة رزمة الطعام .

٢ ـ المواصلة :

اسرعت زكية الخطى وهي تتذكر حديث امها عن قنطرة الجان .

٣ ـ أنجاز المهمة :

وصلت دار أختها مكية ، قرعت الباب ، خرجت اليها اختها واخذت رزمة الطعام .

٤ ـ العودة :

١ ـ النأي :

بعد ان يئست المسكينة سارت بخطى بطيئة متخاذلة اول الامر ... وهي تبتعد عن الدار ...

٢ ـ ١ الاستعلام (صوت قوي مفزع)

من واقف على قبة السليل ؟

٢ ـ ٢ الاستعلام (صوت اشد ازعاجاً من الصوت الاول) :

من واقف على قبة السليل ؟

٢ ـ ٣ الاستعلام (صوت ثالث اشد ازعاجاً من الصوتين السابقين) :

من واقف على قبة السليل ؟

٢ ـ ٤ الاستعلام :

ويتكرر السؤال عشرين مرة .

٣ ـ المواصلة

رأت قبة قريبة منها ... فأسرعت اليها تنشج .

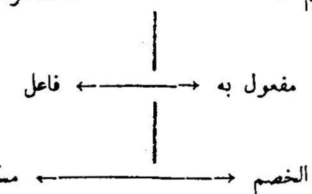
٤ — المعتدي يحصل على معلومات :
أنا زكية أختي مكية سحتتني في ظلام الليل .
٥ — البطل يعرض حياته للموت :
دفعها الوحش بين يديه وغرس مخلبه الطويل في عنقها وراح يمتص دمها بنهم حتى شرب دمها كله ثم بدأ يلتهما بنهم .

الخاتمة

بعد ان قدمنا تحليلاً وظيفياً (مورفولوجيا) لاربع حكايات ومن ضمنها فابلو ، نرى ان الحكايات الشعبية بأسرها — ومثلها الحكايات الخرافيـــة والاساطير تمثل بقايا المعتقدات الشعبية وبقايا تأملات الشعوب الحسية وبقايا قواها وخبراتها . وحينما كان الانسان يحلم لانه لم يكن يعرف ، وحينما كان يعتقد لانه لم يكن يرى كان يؤشر ماحوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها (١٣).

ولقد اتبعنا في تحليلنا الوظيفي منهج بروب من دون مدارس ومناهج فهرسات اخرى تخالف منهجه، مثل منهج غريماس (Greimas, A.J.) الذي يرى في (أن الحكاية)لكي يكون لها معنى عليها ان تكون كلاً رامزاً وعليها بهذا ان تنتظم بنية دلالية اولية (١٤) .

(١٣) انظر اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية ، ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٩ .
(١٤) انظر البنيوية وعلم الاشارة ص ٨٥ وكذلك .
إدب القرن التاسع عشر ص ٣٢٨ يسمى A – J. Greimas بوضع قواعد للسرد القصصي وذلك بتقديمها مخطوطة تشمل على ثلاثة أزواج من الشخصيـات المتضادة .
(١) مرسل « Destinateur » مقابل متسلم « Destinataire »
(٢) فاعل « sujet » مفعول به « object »
(٣) المساعد « adjuvant » مقابل الخصم « opposant »



ومثل فهرسة انتي ارن (Ant! Aarn) احد مؤسسي مايسمى بالمدرسة الفلندية ، والذي امكن ترقيم الخرافات بفضله . فقد ركز في منهجه على الابنية الحكائية (١٥) . ونحو ذلك المدرسة الفرنسية وعالمها بيدير (Lecier!) ونحو المدرسة الدانماركية وعالمها أكسل اولريك (Cexl Clri!) ومنهج ارتن تومسون. وقد حاول هؤلاء وسواهم ارساء طرق البحث وترتيب انماط (Types) الحكايات الشعبية ، ولكن جهودهم باءت بالفشل لاسباب عدة منها : انهم اعطوا افكاراً زائفة ، ولم تكن دراساتهم معمقة ومنتظمة ، كما ركز بعضهم على الحوافز اكثر من البنى وهذا مايراه فسيلوفسكي(١٦).

ومن خلا ل الدراسة التطبيقيةتبين لنا ان منهج تحليل بروب يمكن ان يطبق على الحكايات الشعبية كافة لمختلف الشعوب.ويمكننا القول ان الوظائف التي جاء بها بروب في كتابه ((مورفولوجية الخرافة)) لا تتوافر جميعها في حكاية واحدة وانما يتباين توافر هذه الوظائف بين حكاية واخرى. ففي حكاية ((انا زكية)) مثلاً ، نرى عددها يقل عن عدد الوظائف في حكاية ((الجرة)) .

كما تتصف الحكاية الشعبية العربية والاجنبية ببساطة اسلوبها وخلوها من الجمل والكلمات المعقدة لانها تخاطب مستويات عقلية وثقافية متباينة . اذ تكون الوضعية البدئية في الحكايات الشعبية العربية «كان ياماكان على الله التكلان ... »

أما الحكاية الاجنبية فتبدأ بصورة ((كان في قديم الزمان)) .وعلى الاغلب تنتهي الحكاية الشعبية بنهاية سعيدة بانتصار البطل اوزواجه او رقيه الى العرش ونجد في حكايات نادرة نهاية حزينة او «نهاية سلبية» حسب مصطلح

---

(١٥) انظر مورفولوجية الخرافة ، ص ٢٤ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

فورتوناتوف (Fortounatov) (١٧). كما هو الحال في حكاية ((أنـا زكية)) .

ويمكننا ان نستدل مورفولوجيا على ان الحكاية الشعبية العربية او الاجنبية تنطلق عادة من الاساءة او الحاجة او النقص الذي يجب توافر كل حكاية عليه وتمر الوظائف الوسيطة الاخرى لكي تنتهي بالوظيفة الختامية التي تتمثل باصلاح الاساءة او المكافأة ، او الرقي الى العرش او الزواج كما هو الشأن في حكايتي ((الجرة)) و ((ست الستوت)) لان الحكاية - بوضعها كـلاً متكاملاً - كما ترى نبيلة ابراهيم ((هي الشيء الحي ، وانها ترتبط بالقاص دائماً ، والقاص لايروي شكلاً جامداً ، وانما يحاول ان يروي حكاية كاملة ذات بداية ونهاية) (١٨) .

لقد تبين لنا ان الحكاية الشعبية اما ان تتألف من مقطع واحد نحو حكاية ((أنا زكية)) واما أن تتألف من مقطعين نحو حكاية ((الجرة)) التي ينتهي مقطعها الاول نهاية ايجابية ، وينتهي مقطعها الثاني نهاية سلبية ففي الاول : تطرد زوجة الاب ابن زوجها ((كوفي)) ويمر بمغامرات عديدة تكسبه تجارب عميقة يعود بعدها محملاً بالهدايا وفي المقطع الثاني : ترسل زوجة الاب أبنها على آمل ان يعود بالهدايا ، لكنه يعود اليها خائباً . وقد تتألف الحكاية من مقاطع عدة ولكنها في كل الاحوال لاتؤلف سوى حكاية واحدة.

وقد اتضح لنا ان الحكاية عن الحيوان ((الفابلو)) كما في حكاية ((ليلى والذئب)) وحكاية ((العنزة والجداء)) او كما هو الحال في حكاية ((جنجل

---

(١٧) لساني روس ١٨٤٣ - ١٩١٤ متخصص في النحو المقارن للغات الهندو - اوربية والذي يعتبر مؤسس المدرسة اللسانية الروسية

(١٨) انظر الحكاية الخرافية ، ص ٤٩ .

وجناجل)) التي بنيت على الطريقة التي بنيت عليها الحكايات الثلاث نفسها ، اذ نجد في ان حكاية ((جنجل وجناجل)) تبدأ ((بنأي الام ، والمنع ، واستعمال المعتدي (الدامية) للاستهواء الخادع ، .وانتهاك المنع ، واختطاف افراد العائلة «جنجل وجناجل» واعلان خبر الاساءة ، والبحث والقضاء على المعتدي ، المتمثل بأغتيال (الدامية) عقاباً للمعتدي واسترجاع الشخصيات المختطفة ، ثم العودة في النهاية)) .

لقد سعى فلاديمير بروب الى وضع قواعد بنائية للحكاية « "Sujet" » لكنه لم يضع نصب عينه المعنى الفرضي « thematique» لذلك وبعد تقديمنا تحليلاً وظيفياً للحكايات الشعبية الاربع نود أن نشير الى أن الحكايات الشعبية العربية والاجنبية موحدة جميعاً وانها تصدر عن ينبوع واحد .

لما كان الهدف من دراسة الحكاية الشعبية الوقوف على تطور المجتمعات الانسانية ومعرفة مفاهيمها وثقافاتها واستخلاص الاوضاع الاجتماعية والتاريخية والعادات والتقاليد والمعتقدات والعقائد الدينية واخلاق الشعوب . فقد بينت الدراسة ان الحكايات الشعبية العراقية قلما نجد فيها حكايات عن الطلاق. قد يتزوج الرجل اكثر من امرأة واحدة لكنه نادراً ما يطلق زوجته. ففي حكاية «ست الستوت» مثلا يتزوج الامير من «ست الستوت» لكنه لايطلق زوجته القديمة . كما نلاحظ ان الحكاية تعالج ايضاً حقد الزوجة القديمة ضد ضرتها (١٩) .

كما ذمت الحكاية الشعبية الاخلاق السيئة وأكدت على القناعة فالطمع كما هو ملاحظ في الحكايات يقود بصاحبه دائماً إلى الموت كما هو الحال في حكاية «الجرة» حيث كانت نتيجة طمع زوجة الاب وابنها الموت .

لقد برهن ليفي ستراوس (Levi Strauss) بأن التحليل البنيوي لا ينطبق على الوظائف فقط كما فعل بروب وانما ينطبق على الشخصيات التي تجد تلك الوظائف

(١٩) انظر أثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية ، ص ٧٢ وكذلك الحكاية الخرافية ص ٤٩ .

أيضاً . ومما يلفت النظر ان شخصية البطل في الحكاية الشعبية كما يقول كاظم سعدالدين «تكون ثابتة غير منظورة وتحمل صفة واحدة فإن كان (البطل) شجاعاً رافقته الشجاعة حتى النهاية على الرغم من انه في البداية يمر بتجارب تجعل الاخرين ينظرون اليه نظرة استخفاف حتى اذا بلغ النهاية تغيرت نظرتهم اليه (٢٠). وهذا ما نراه جلياً في حكاية «الجرة» اذ نرى بأن الناس تغيرت نظرتهم إلى (كوفي) حال عودته إلى القرية . وتتضمن الحكاية الشعبية كذلك سلسلة من الانماط القياسية بدرجات متفاوتة لخصوم وأعوان البطل . إن خصوم البطل هم الكائنات الشيطانية (في الحكاية الروسية— التنين وكوتشي، والبابا وياغا ... الخ. كقاعدة ، محصورة في الغابة) . أما أعوان البطل فهم على الاغلب كائنات عجيبة ، وحوش تعترف بالجميل ، وسحرة طيبون، وكذلك مواد عجيبة يشكل الحصول عليها بذاته مهمة شاقة يأخذ البطل على عاتقه تحقيقها ...»(٢١) كما هو الحال في حكاية «الجرة» اذ تقف إلى جانب البطل قوى خيرة تساعده على إجتياز المهمة بنجاح .

وختاماً نود الاشارة إلى نقاط العبور بين الواقع والخرافة والتي اشار اليها إبراهيم الخطيب «فالواقع ينعكس انعكاساً غير مباشر في الخرافات ... وتشكل المعتقدات التي تمت في مستوى معين من التطور الثقافي احدى نقاط العبور هذه» (٢٢) .

* * *

(٢٠) انظر الحكاية الشعبية العراقية ص ١٠ .
(٢١) انظر موسوعة نظرية الادب ، ص ١٣٢ .
(٢٢) انظر مورفولوجية الخرافة ، ص ١٠٨ .

المصادر والمراجع

المراجع العربية :

١. **أثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية** ، عمر الطالب ، الموسوعة الصغيرة. دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٨١ .

٢. **الادب المقارن** ، محمد غنيمي هلال . دار النهضة مصر ،للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، بلا .

٣. **البنيوية وعلم الاشارة** ، ترنس هوكز ، ترجمة مجيد الماشطة ، سلسلة المائة كتاب . بغداد . ١٩٨٦ .

٤. **حكايات وفلسفة** ، يوسف أمين قصير ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٧٦ .

٥. **الحكاية الخرافية** ، ترجمة نبيلة ابراهيم ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٦. **الحكاية الشعبية العراقية** ، كاظم سعدالدين ، مجلة التراث الشعبي ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٢ .

٧. **الحكاية الشعبية** ، لطفي الخوري ، مجلة التراث الشعبي ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٢ .

٨. **الحكاية الموصلية** ، عبدالحليم اللاوند ، دراسة وعرض مع نماذج نصية ، مجلة التراث الشعبي ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٢ .

٩. **الحكاية والانسان** ، يوسف امين قصير ، سلسلة الكتب الحديثة ٣٣ ، وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٠ .

١٠. **الدولة والاسطورة** ، تأليف ارنست كاسير ، ترجمة د. احمد حمدي محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

١١. **في علم التراث الشعبي** ، لطفي الخوري ، الموسوعة الصغيرة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٩ .

١٢. **القصص الشعبي العراقي في ضوء المنهج المورفولوجي** ، داود سلمان الشويلي ، الموسوعة الصغيرة ، دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٨٦ .
١٣. **معجم المصطلحات الادبية** ، مجدي وهبة .
١٤. **موسوعة نظرية الأدب ، أضاءة تاريخية على قضايا الشكل** ، تأليف يا .اي . ايسبورغ / ك. ذ. كاجي وف.ف . كوزينوفا / أي.م. ميليتسكي ، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي / دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٦ .
١٥. **مناهج الدراسات الادبية الحديثة** ، عمر الطالب ، دار البر ، المغرب ، ١٩٨٨ .
١٦. **مورفولوجية الحكاية** ، فلاديمير بروب ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، ترجمة ابراهيم الخطيب ، المغرب ، ١٩٨٦ .
١٧. **نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس** ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، ترجمة ابراهيم الخطيب ، المغرب ، ١٩٨٢ .

المصادر الاجنبية

1. Barthes, Roland: Seuil, Collection: Points Paris 1964.
2. Gouattenoire, J. (ed): Contes et nouvelles Hachelt, Paris, 1977.
3. Jakobson Roman "Huits' Questions de poetique", Points Seuil, 1977, Paris.
4. Lemaitre, Henri, Dictionnaire Bordas, de Litterature Francaise, Bordas, Paris, 1985.
5. Lukas, G., La theorie du roman, traduit de l'alleman parjen claire Voge, Gouthiers, aun Rhein, Berlin.
6. MIA I. Gerhard, *The Art of story telling, a literary study of the Thosand and One Nights*, Leiden, E.. j Brill, 1963.
7 RROPP Vladimir, Morphologic du conte, traduction de Marquesite Berrida, Ytzvetar Todorov et Clande Kan, Senil Paris, 1970.
8. Piaget, Jean: "Le Structural ism. "P.U.E. Collection: Que sais-je? 8 eme éditions 1983 Paris.
9. Victot E. Neuburg, Popular literature, Penguin Books, 1977.
10. Xavier Darcos, Brigette A gard et Marie – France Boireau, Le XIXe siecle en litterature, Hachette 1980.

نشاط الكلية

مازالت كلية الاداب على سابق عهدها فـي توثيق نشاطها العلمي السنوي الذي تحققه على كل صعيد متصلا بالندوات والدورات والايفادات والاصدارات العلمية وحركة الدراسات العليا لان هذه الامور كلها فضلا عن النشاط التدريسي والبحثي من الدراسات الاولية هي الصورة الحقيقية لمجمل حركة الكلية وجرياً على السنة التي اتبعناها في توثيق هذه الانشطة في العدد «٢٣» من مجلة اداب الرافدين نثبت في عددنا الحاضر هذا الملحق الآتي :

موسوعة اعلام الموصل

مشاركة من كلية الاداب في احياء مآثر بيئتها الموصلية واستعادة للصفات المشرقة من تاريخ هذه المدينة واعمال رجالها جرى التفكير باصدار موسوعة شاملة بعنوان «موسوعة اعلام الموصل» تقوم برصد اسماء الشخصيات الفاعلة في تاريخ هذه المدينة من اول عهدها العربي الاسلامي حتى وقتها الراهن وقد وضعت خطة علمية لهذا الغرض تضمن استيفاء متطلبات انجازه بمستوى علمي رفيع ووكل العمل إلى هيئة تحرير تتألف من السادة المدرجة اسماؤهم في ادناه :

١ ـ الدكتور صلاح الدين امين طه — رئيساً
٢ ـ الدكتور عبدالوهاب محمد علي العدواني — عضواً
٣ ـ الدكتور ابراهيم خليل أحمد — عضواً
٤ ـ الدكتور سيار كوكب علي الجميل — عضواً
٥ ـ السيد عبدالجبار حامد احمد — عضواً ومقرراً

وقد استهل العمل بمتابعة اسماء الاعلام وتواريخهم في المصادر والمراجع وكلف بذلك عدد كبير من المختصين بالتاريخ واداب اللغة العربية وهم ماضون على وضع الكشوف الكاملة التي سيجري تكليف الكتاب بتغطية الاعلام الذين ستحرر اسماؤهم فيها .

الدورات

١ ــ دورة اللغة الانكليزية للمتقدمين على امتحان الكفاءة اقامها قسم اللغة الانكليزية للمدة من ٧/١ ــ ١٩٩٢/٨/١٥ شارك فيها ٥١ طالباً .

٢ ــ دورة تعلم اللغة الانكليزية لاستثمار اوقات الفراغ للطلبة خلال العطلة الصيفية اقامها قسم اللغة الانكليزية للمدة من ٧/١١ ــ ٧/٢٣ / ١٩٩٢ شارك فيها ٢٩ طالباً .

٣ ــ دورة تعلم اللغة الفرنسية لاستثمار اوقات الفراغ للطلبة خلال العطلة الصيفية للمدة من ٧/١١ ــ ١٩٩٢/٧/٣٠ شارك فيها (٢٩) طالباً .

٤ ــ دورة مكثفة باللغة الانكليزية للمتقدمين على امتحان الكفاءة اقامها قسم اللغة الانكليزية للمدة من ٩/١٢ ــ ١١/١٤ / ١٩٩٢ شارك فيها (١١) طالباً

٥ ــ دورة اللغة العربية للموظفين الجامعيين اقامها قسم اللغة الانكليزية لموظفي الجامعة للمدة من ١١/١ ــ ١٩٩٢/١١/٣٠ شارك فيها (٦) موظفين

الاصدارات

١ ــ تاريخ العراق القديم ــ الجزء الاول / التاريخ السياسي ، تأليف الاستاذ الدكتور عامر سليمان ابراهيم .

٢ ــ تاريخ العراق القديم ــ الجزء الثاني / القسم الثاني موجز التاريخ الحضاري ، من تأليف الاستاذ الدكتور عامر سليمان ــ تحت الطبع .

٣ ــ الادب العربي في العصر الوسيط / من تأليف الاستاذ الدكتور ناظم رشيد شيخو

الندوات

١ ـ ندوة الجامعة والشباب / الواقع والطموح ـ اقامتها كلية الآداب للفترة من ٢٠ ـ ١٩٩٢/١٢/٢١ وشارك فيها اساتذة وباحثون من جامعة الموصل والجامعات الاخرى والقي فيها ١٥ بحثاً .

٢ ـ مؤتمر دراسات تطبيقية في علم اللغة وعلم الأدب ـ تقيمه قسم اللغة الانكليزية للمدة من ٣ ـ ١٩٩٣/٤/٤ .

الدراسات العليا .

في ادناه جدول باسماء الطلبة الذين نالوا شهادة الماجستير والدكتوراة خلال العام الدراسي .

اسم الطالب	اسم المشرف	عنوان الرسالة	الدرجة العلمية	التخصص	تاريخ المناقشة
١ ـ رعد ناصر مايود	د. منجد مصطفى بهجت	رثاء المدن في الشعر الاندلسي	ماجستير	الادب العربي	٩٢/١١/٤
٢ ـ صالح علي حسين	د. عبدالرضا علي	الشعر في الصحافة الموصلية ١٨٨٥ـ١٩٥٨	دكتوراة	الادب العربي	٩٢/١٠/٣
٣ ـ سهيلة مجيد أحمد	د. عامر سليمان ابراهيم	صناعة الأغذية في العصور العراقية القديمة	ماجستير	التاريخ القديم	٩٢/ ٨/٦
٤ ـ عبدالجبار حامد أحمد	د. صلاح الدين أمين طه	الحياة الفكرية في الموصل في القرنين الرابع والخامس الهجريين	دكتوراة	التاريخ الاسلامي	٩٢/١١/٧